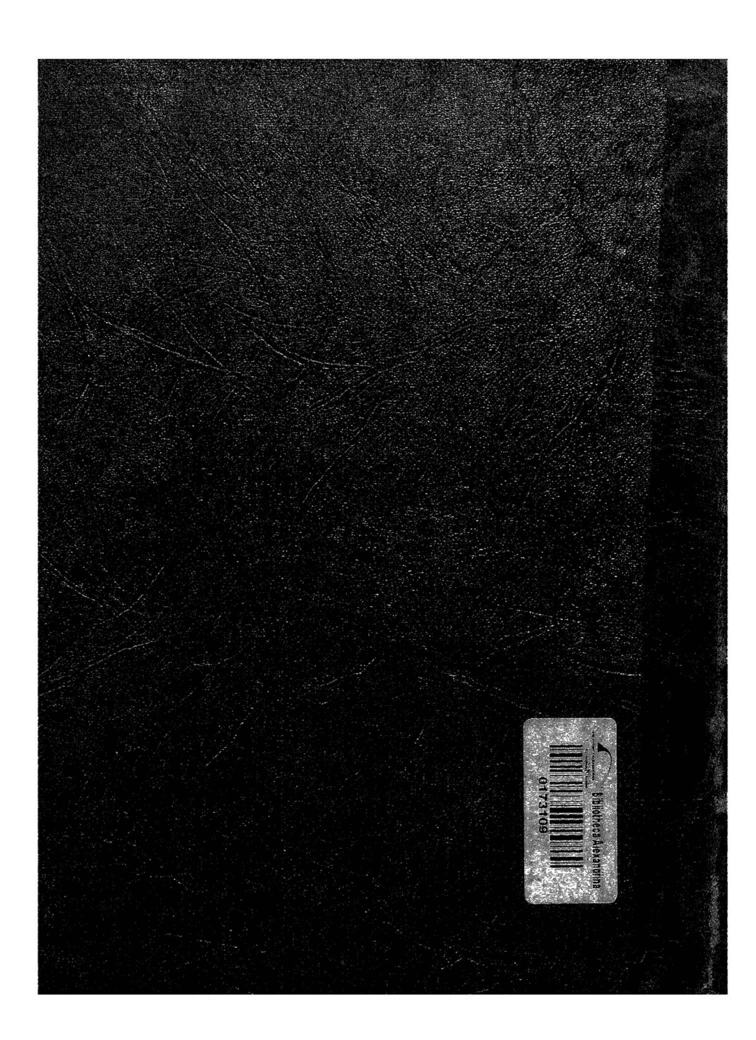


اهداءات ٢٠٠١
الدكتور/ القطب محمد طبلية
القاهرة

كتاب الشعب



للحافظ ابن كثير

٧٠٠-٧٧٤ هـ

تحقيق

عبد العزيز غنيم   محمد أحمد عاشور   محمد ابراهيم البنا

المجلد الثالث

١٥

الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

رواه مسلم وأهل السنن سوى النسائى ، من طرق ، عن أبى عمران الجونى ، عن عبد الله بن الصامت ، به : ورواه أبو داود وابن ماجه ، من طريق حماد بن زيد ، عن أبى عمران ، عن المُشَعَّث بن طريف ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبى ذر ، بنحوه .

قال أبو داود : ولم يذكر المشعث فى هذا الحديث غير حماد بن زيد(١) .

وقال ابن مَرْدُويه : حدثنا محمد بن على بن دحيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن ربعى قال : كنا فى جنازة حُذَيفة ، فسمعت رجلا يقول : سمعت هذا يقول فى ناس : « مما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت فى دارى ، فلألجنّه ، فلئن دخل علىَّ فلان لأقولن : ها ، بؤ بإثمى وإثمك ، فأكون كخير ابنى آدم »

وقوله : (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين)

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة والسدى ، فى قوله : (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) ، أى : بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك .

قال ابن جرير :

وقال آخرون : « يعنى ذلك أنى أريد أن تبوء بخطيئتى ، فتتحمل وزرها ، وإثمك فى قتلك إياى : وهذا قول وجدته عن مجاهد ، وأخشى أن يكون غلطا ، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه .(٢)

يعنى : مارواه سفيان الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : (إنى أريد أن تبوء بإثمى) [قال : بقتلك إياى] (وإثمك) قال : بما كان منك قبل ذلك

وكذا روى عيسى [عن] ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، مثله : وروى شبل عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (إنى ريد أن تبوء بإثمى وإثمك) ، يقول : إنى أريد أن يكون عليك خطيئتى ودمى ، فتبوء بهما جميعا .

قلت : وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ، ويذكرون فى ذلك حديثا لاأصل له : ماترك القاتل على المقتول من ذنب . وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثا يشبه هذا ، ولكن ليس به ، فقال :

حدثنا عمرو بن على ، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهانى ، حدثنا يعقوب بن عبد الله ، ، حدثنا عتبة بن سعيد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قتل الصَّبْر لايمر بذنب إلا محاه »

وهذا بهذا لايصح ، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فأما ان تحمل على القاتل فلا : ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص ، وهو الغالب فان المقتول يطالب القاتل فى العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فان نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل ، فربما لايبقى على المقتول خطيئة إلا و ضعت

(١) سنن أبى داود ، كتاب الفتن : ١٠١/٤ وينظر ابن ماجه ، كتاب الفتن ، الحديث ٣٩٥٨ : ١٣٠٨/٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢١٦/١٠ .

على القاتل : وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم كلها ، والقتل من أعظمها وأشدها ، والله أعلم .

وأما ابن جرير فقال : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن تأويله : إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى ــ وذلك هو معنى قوله : (إنى أريد تبوء بإثمى) [وأما معنى] (وإثمك) فهو إثمه بغير (١) قتله ، وذلك معصيته الله عز وجل فى أعمال سواه .

وإنما قلنا ذلك هو الصواب ، لإجماع أهل التأويل عليه ، وأن الله ، عز وجل ، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان هذا حكمه فى خلقه ، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذا بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل باثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ماركبه قتيله .

هذا (٢) لفظه ثم أورد سؤالا ، حاصله : كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه ، مع أن قتله له محرم ؟ (٣) وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لايقاتل أخاه إن قاتله ، بل يكف يده عنه ، طالبا ــ إن وقع قتل ــ أن يكون من أخيه لا منه .

قلت : وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ ، وزجرا له لو انزجر ، ولهذا قال : (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى : [تتحمل إثمى وإثمك] (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) .

وقال ابن عباس : خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر .

وقوله تعالى : (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) ، أى : فحسنت وسولت له نفسه ، وشجعته على قتل أخيه فقتله ، أى : بعد هذه الموعظة وهذا الزجر .

وقد تقدم فى الرواية عن أبى جعفر الباقر ، وهو محمد بن على بن الحسين : أنه قتله بحديدة فى يده .

وقال السدى ، عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مرة ، عن عبد الله ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (فطوعت له نفسه قتل أخيه) فطلبه ليقتله ، فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال ، فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له ، وهو نائم فرفع صخرة ، فشدخ بها رأسه فمات ، فتركه بالعراء . رواه ابن جرير (٤)

---

(١) فى المخطوطة : « فهو اثمه يعنى قتله » . والمثبت عن تفسير الطبرى : ١٠/٢١٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٠/٢١٦ ، ٢٢٧ .

(٣) عبارة ابن جرير أوضح ، ونوردها بتمامها لكى يفهم المقصود منها ، قال فى : ١٠/٢١٧ :
« فإن قال قائل : أوليس قتل المقتول من بنى آدم كان معصية لله من القاتل ؟ .
قيل : بلى ، وأعظم بها معصية ؟ .
فإن قال : فإذا كان لله عز وجل معصية ، فكيف جاز أن يريد ذلك منه المقتول ، ويقول : « إنى أريد أن تبوء بإثمى » ، وقد ذكرت أن تأويل ذلك : إنى أريد أن تبوء بإثم قتلى ؟ .
قيل : معناه : إنى أريد أن تبوء . بإثم قتلى إن قتلتنى ، لأنى لا أقتلك ، فإن أنت قتلتنى ، فإنى مريد أن تبوء بإثم معصيتك الله فى قتلك إياى . وهو إذا قتله ، فهو لا محالة باء به فى حكم الله ، فارادته ذلك غير موجبة له الدخول فى الخطأ » .

(٤) تفسير الطبرى : ١٠/٢٢١ ، ٢٢٢ .

وعن بعض أهل الكتاب : أنه قتله خنقا وعضا ، كما تقتل السباع وقال ابن جرير : « لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ، ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها ، وابن آدم ينظر ، ففعل بأخيه مثل ذلك » .

رواه ابن أبي حاتم :

وقال عبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : أخذ برأسه ليقتله ، فاضطجع له ، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدرى كيف يقتله ، فجاءه إبليس فقال : أتريد أن تقتله ؟ قال : نعم . قال : فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه . قال : فأخذها ، فألقاها عليه ، فشدخ رأسه . ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا ، فقال : ياحواء ، إن قابيل قتل هابيل . فقالت له : ويحك . أيّ شئ يكون القتل؟ قال: لايأكل ولا يشرب ولا يتحرك . قالت: ذلك الموت . قال : فهو الموت . فجعلت تصيح حتى دخل عليها . آدم وهى تصيح ، فقال : مالك ؟ فلم تكلمه ، فرجع إليها مرتين ، فلم تكلمه . فقال عليك الصيحة وعلى بناتك ، وأنا وبنيّ منها برآء .

رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (فأصبح من الخاسرين) ، أي : في الدنيا والآخرة ، وأيّ خسارة أعظم من هذه ؟ . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن مرّة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتُقتل نفس ظلما ، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل (١) » .

وقد أخرجه الجماعة (٢) سوى أبي داود من طرق ، عن الأعمش ، به :

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى حجاج قال : قال ابن جريج : قال مجاهد : « عُلّقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ [إلى يوم القيامة] ، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار ، عليه في الصيف حظيرة من نار وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج — قال : وقال عبد الله بن عمرو : إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذابَ ، عليه شطر عذابهم (٣) » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم : أنه حدّث عن عبد الله ابن عمرو أنه كان يقول : إن أشقى أهل النار رجلا ابن آدم الذى قتل أخاه ، ماسفك دم في الأرض منذ قَتَل أخاه إلى يوم القيامة ، إلا لحق به منه شر ، وذلك أنه أول من سَنّ (٤) القتل »

---

(١) مسند أحمد : ٣٨٣/١ .

(٢) البخارى : ، كتاب الأنبياء : ١٦٢/٤ ، ومسلم ، كتاب القسامة : ١٠٧/٥ . وتحفة الأحوذى ، كتاب العلم : ٤٣٦/٧ . والنسائى ، كتاب التحريم : وابن ماجه ، كتاب الديات الحديث : ٢٦١٦ : ٨٧٣/٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٨١/١٠ .

(٤) المصدر السابق : ٢١٩/١٠ .

وقال إبراهيم النخعي : « مامن مقتول يقتل ظلما ، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كِفْلٌ منه » .

رواه ابن جرير (١) أيضا .

وقوله تعالى : (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال : ياويلتى : أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ . فأصبح من النادمين) .

قال السدى باسناده المتقدم إلى الصحابة : لما مات الغلام تركه بالعراء ، ولا يعلم كيف يدفن ، فبعث الله غرابين أخوين ، فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حثى عليه . فلما رآه قال : (يا ويلتى . أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ؟ (٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء غراب إلى غراب ميت ، فبحث عليه من التراب حتى واراه ، فقال الذى قتل أخاه : (يا ويلتى . أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) . (٢)

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : مكث يحمل أخاه فى جراب على عاتقه سنة ، حتى بعث الله الغرابين ، فرآهما يبحثان ، فقال : (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) فدفن أخاه (٢) .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : وكان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتا ، لا يدرى ما يصنع به يحمله ، ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب ، فقال : (يا ويلتى ، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى ، فأصبح من النادمين) . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

وقال عطية العوفى : « لما قتله ندم ، فضمه إليه حتى أرْوَحَ ، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله » . رواه ابن جرير (٣) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : « لما قتله سُقط فى يديه ، ولم يدر كيف يواريه . وذلك أنه كان، فيما يزعمون ، أول قتيل فى بنى آدم وأول ميت » ، (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال: ياويلتى . أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) ـ قال : وزعم أهل التوراة أن قينا لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله، عز وجل : يا قين، أين أخوك هابيل ؟ قال: قال : ما أدرى ما كنت عليه رقيبا . فقال الله : إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض ، والآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها فبلعت دم أخيك من يدك ، فان أنت عملت فى الأرض ، فانها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعا تائها فى الأرض .

وقوله : (فأصبح من النادمين) ، قال الحسن البصرى : علاه الله بندامة بعد خسران .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٢٥/١٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢٦/١٠ .

(٣) المصدر السابق : ٢٢٧/١٠ .

فهذه أقوال المفسرين فى هذه القصة ، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه ، كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث فى قوله : « ... إلا كان على [ابن آدم] الأول كِفْل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » : وهذا ظاهر جَلِىّ ، ولكن قال ابن جرير :

حدثنا [ابن] وكيع ، حدثنا سهل بن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن — هو البصرى — قال : « كان الرجلان اللذان فى القرآن ، اللذان قال الله : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) من بنى إسرائيل ، ولم يكونا ابنى آدم لصلبه ، وإنما كان القُربان فى بنى إسرائيل ، وكان آدم أول من مات »(١) .

وهذا غريب جدا ، وفى إسناده نظر .

وقد قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ابنى آدم عليه السلام ضُرِبا لهذه الأمة مثلا فخذوا بالخير منهما » (٢) .

ورواه ابن المبارك ، عن عاصم الأحول ، عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلا ، فخذوا من خيرهم ودعوا الشر » (٢) .

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزنى ، روى ذلك كله ابن جرير .

وقال سالم بن أبى الجعد : لما قتل ابن آدم أخاه ، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك ، ثم أتى فقيل له : حياك الله وبيَّاك . — أى : أضحكك

رواه ابن جرير (٣) ، ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا سلمة ، عن غياث بن إبراهيم ، عن أبى إسحاق الهمْدانى قال : قال على بن أبى طالب : لما قتل ابن آدم أخاه ، بكاه آدم فقال :

تغَيَّرت البلاد ومَنْ عليها فلَوْنُ الأرض مُغْبر قبيح
تغيَّر كل ذى لون وطَعْم وقَلَّ بشاشة الوجْه المليح

فأجيب آدم عليه السلام :

أبَا هابيل قَدْ قُتلا جَميعاً وصار الحى كالميْت الذبيح
وجاء بشرَّة قدكان منْها على خوف ، فجاءبها يَصيح

(١) تفسير الطبرى : ١٠/٢٢٨ .
(٢) المصدر السابق : ١٠/٢٣٠ .
(٣) المصدر السابق : ١٠/٢٠٩ .

والظاهر أن قابيل عُوجِل بالعقوبة ، كما ذكره مجاهد بن جَبْر : « أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلا به » . وقد ورد فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ذنب أجدر أن يُعَجِّل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدّخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم(١)» . وقد اجتمع [فى] فعل قابيل هذا وهذا ، فانا لله وإنا إليه راجعون :

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى : (من أجل) قَتْل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا : (كتبنا على بنى إسرائيل) ، أى : شرعنا لهم وأعلمناهم (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) ، أى : ومن قتل [نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد فى الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية ، فكأنما قتل] الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، (ومن أحياها) أى : حرم قتلها واعتقد ذلك ، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : (فكأنما أحيا الناس جميعاً) :

وقال الأعمش وغيره ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين . فقال : يا أبا هريرة، أيسرك أن تَقْتُل الناس جميعاً وإياى معهم ؟ قلت : لا ؛ قال : فانك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانْصَرِفْ مأذوناً لك ، مأجورا غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل(٢) :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) ، وإحياؤها : ألا يقتل نفسا حرّمها الله ، فذلك الذى أحيا الناس جميعاً ، يعنى : أنه من حرّم قتلها [إلا] بحق ، حَيِيَ الناس منه(٣) .

وهكذا قال مجاهد : (ومن أحياها) أى : كف عن قتلها .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأدب : ، الحديث ٤٩٠٢ : ٢٧٦/٤ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، الحديث ٤٢١١ : ١٤٠٨/٢ . ومسند أحمد عن أبى بكرة : ٣٦/٥ ، ٣٨ .

(٢) استدل عثمان ، رضى الله عنه – كما ترى – بهذه الآية على وجهة نظره فى إيثار الكف عن القتال ، وقد كان يستطيع أن يصنع العكس لو شاء ، فإن الآية تدل بمفهومها على إباحة قتال المفسدين فى الأرض ، غير أنه آثر التى فيها خير للأمة ، وإن كان فيها إراقة لدمه ، رضى الله عنه .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٣٥/١٠ .

وقال العوفى عن ابن عباس ، فى قوله : (فكأنما قتل الناس جميعاً) يقول : من قتل نفسا واحدة حرمها الله ، فهو مثل من قتل الناس جميعاً (١) .

وقال سعيد بن جبير : من استحل دمَ مُسْلِم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم [دماء] الناس جميعاً .

هذا قول ، وهو الأظهر ، وقال عكرمة والعوفى ، عن ابن عباس : « من قتل نبيا أو إمام عَدْل ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن شَدّ على عَضُد نبى أو إمام عدل ، فكأنما أحيا الناس جميعاً » . رواه ابن جرير (١) .

وقال مجاهد فى رواية أخرى عنه : « من قتل نفسا بغير نفس..فكأنما قتل الناس جميعاً » وذلك لأنه من قتل النفس فله النار ، فهو كما لو قتل الناس كلهم .

وقال ابن جريج ، عن الأعرج ، عن مجاهد فى قوله : (فكأنما قتل الناس جميعاً) : من قتل النفس المؤمنة متعمدا « جعل الله جزاءه جهنم ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيما ، يقول : لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب » .

قال ابن جريج : قال مجاهد (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) قال من لم يقتل أحداً فقد حيِىَ الناس منه

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « من قتل نفساً فكأنما قتل الناس » يعنى : فقد وجب عليه القصاص ، فلا فرق بين الواحد والجماعة (ومن أحياها) أى : عفا عن قاتل وليه ، فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وحكى ذلك عن أبيه ، رواه ابن جرير (٢) .

وقال مجاهد — فى رواية : (ومن أحياها) أى : أنجاها من غَرَق أو حَرَق أو هَلَكه ؛

وقال الحسن وقتادة فى قوله : (أنه من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) هذا تعظيم لتعاطى القتل — قال قتادة : عَظُم والله وزرها ، وعظم والله أجرها .

وقال ابن المبارك ، عن سلام بن مسكين ، عن سليمان بن على الربعى قال : قلت للحسن : « هذه الآية لنا يا أبا سعيد ، كما كانت لبنى إسرائيل ؟ فقال : إى والذى لا إله غيره ، كما كانت لبنى إسرائيل . وما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا (٣) . ؟

وقال الحسن البصرى : (فكأنما قتل الناس جميعاً) ، قال : وزراً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً قال : أجرا .

وقال الإمام أحمد : [حدثنا حسن] ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا حُيَىّ بن عبد الله ، عن أبى عبدالرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : « جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، اجعلنى

(١) تفسير الطبرى : ٢٣٣/١٠ .
(٢) المصدر السابق : ٢٣٧/١٠ .
(٣) المصدر السابق : ٢٣٩/١٠ .

على شيء أعيش به : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حمزة ، نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها ؟ قال : بل نفس أحييها . قال : عليك بنفسك » . (١)

وقوله : (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) ، أى : بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة (ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) ، وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، كما كانت بنو قريظة والنَّضير وغيرهم من بنى قَيْنُقَاع ممن حول المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه ، وودوا من قتلوه . وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة ، حيث يقول : (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ؛ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون) (٢) .

وقوله تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ... الآية . المحاربة : هى المضادة والمخالفة ، وهى صادقة على الكفر ، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف ، منهم سعيد بن المسيب : إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض ، وقد قال الله تعالى : (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد) .

ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين ، كما قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد ، عن عكرمة والحسن البصرى قالا : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) إلى : (إن الله غفور رحيم) ، نزلت هذه الآية فى المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه ، لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد ، إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصاب . (٣) .

ورواه أبو داود والنسائى ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساد) : نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام فيه الحد الذى أصابه (٤)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قوله : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا) ، قال : كان قوم من أهل الكتاب ، بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض ، فخيَّر الله رسوله : إن شاء أن يقتل ، وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » . رواه ابن جرير (٥).

---

(١) مسند أحمد : ١٧٥/٢ . وما بين القوسين سقط من مخطوطتنا ، ووقع فيها مكان « حي » : يحيى ، وهو خطأ . وحي هذا هو ابن عبد الله بن شريح المعافرى .

(٢) الآية : ٨٤ ، ٨٥ من سورة البقرة . وانظر : ١٧٣/١ ، ١٧٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٤٤/١٠ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب ما جاء فى المحاربة ، الحديث ٤٣٧٢ : ١٣٢/٤ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٤٣/١٠ .

وروى شعبة ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ،عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : نزلت فى الحرورية(١): (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا) رواه ابن مردويه .

والصحيح أن هذه الآية عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ، كما رواه البخارى ومسلم من حديث أبى قلابة – واسمه عبد الله بن زيد الجرمى البصرى – عن أنس بن مالك : « أن نفراً من عُكْل ثمانيةً ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا (٢) الأرض ، وسَقِمت أجسامهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم] ، فقال : ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبوا من أبوالها(٣) وألبانها ؟ فقالوا : بلى . فخرجوا ، فشربوا من أبوالها وألبانها، فَصَحَوا ، فقتلوا الراعى وطردوا(٤) الإبل . فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث فى آثارهم ، فأدرِكوا ، فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسُمِرت(٥) أعينهم ، ثم نبذوا فى الشمس حتى ماتوا » .

لفظ مسلم(٦) . وفى لفظ لهما : « من عكل أو عرينة » وفى لفظ : « وألقوا فى الحرة فجعلوا يستسقون فلا يُسقَون » وفى لفظ لمسلم : « ولم يَحْسِمْهم (٧) » . وعند البخارى: « قال أبو قلابة : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله » . ورواه مسلم من طريق هُشَيم، عن عبد العزيز بن صُهَيب وحميد، عن أنس.. فذكر نحوه ، وعنده : « وارتدّوا » . وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس ، بنحوه . وقال سعيد عن قتادة : « من عكل وعرَينة » ؛ ورواه مسلم من طريق سليمان التيمى ، عن أنس قال : إنما سَمَلَ النبى صلى الله عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء » . ورواه مسلم ، من حديث معاوية بن قرة عن أنس قال : « أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من عُرَينة ، فأسلموا وبايعوه ، وقد وقع بالمدينة المُوم – وهو البرسام (٨) – ثم ذكر نحو حديثهم ، وزاد : وعنده شباب من الأنصار ، قريب من عشرين فارساً (٩) فأرسلهم ، وبعث معهم قائفا يقتص أثرهم . وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

وقال حماد بن سلمة : حدثنا قتادة وثابت البُنَانى وحميد الطويل، عن أنس بن مالك أن ناسا من عُرَينة قدموا المدينة، فاجتووها، فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبل الصدقة ، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها [وألبانها]

---

(١) الحرورية : هم الخوارج الذين فارقوا علياً – رضى الله عنه – لقبوله التحكيم ، وقد كان بدء ظهورهم عقب معركة صفين ، وعليه فلا يمكن أن تكون هذه الآية قد نزلت فيهم ، اللهم إلا أن يقال : إن أعمالهم كانت شبيهة بأعمال من نزلت فيهم هذه الآية .

(٢) أى : استثقلوا أرض المدينة ، فلم يوافق هواؤها أبدانهم .

(٣) أى : فتشربوا من أبوالها وألبانها . وفى هذا جواز التداوى بالمحرم عند الضرورة ، وقد ذهب محمد بن الحسن الشيبانى إلى أن بول ما يؤكل لحمه طاهر .

(٤) أى : أخرجوها واستاقوها .

(٥) السمر لغة فى السمل ، وهو فقء العين بأى شىء كان .

(٦) مسلم ، كتاب القسامة : ٥ / ١٠٢ . والبخارى ، كتاب الديات : ١٢/٩ ، وكتاب الطب : ١٦٧/٧٠ . وينظر كذلك فيه تفسير سورة المائدة : ٦/ ٦٥ . وبقية الروايات التى ساقها ابن كثير فى هذه المواطن .

(٧) الحسم : الكى لمنع سيلان الدم . ومن الحسم وضع اليد بعد القطع فى زيت حار .

(٨) البرسام : علة يهذى فيها .

(٩) كلمة « فارسا » ليست فى صحيح مسلم : ١٠٣/٥ .

ففعلوا ، فصحوا فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ــ وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم ، فجيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسَمَّرَ أعينهم وألقاهم في الحرة ــ قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا ، ونزلت : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ... الآية .

وقد رواه أبو داود (١) والترمذي والنسائي وابن مردويه ــ وهذا لفظه ــ وقال الترمذي : « حسن صحيح » .

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة ، عن أنس بن مالك ، منها مارواه من طريقين ، عن سلّام بن أبي الصهباء ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : ماندمت على حديث ماندمتُ على حديث سألني عنه الحجاج قال : أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال قلت : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من عُرَينة ، من البحرين ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالقوا من بطونهم ، وقد اصفرت ألوانهم ، وضَخُمت بطونهم ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتوا إبل الصدقة ، فيشربوا من أبوالها وألبانها ، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخمصت بطونهم عَدَوا على الراعي فقتلوه ، واستاقوا الإبل ، فأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَّرَ أعينهم ، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا . فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا لحال ذَوْدٍ ، وكان يحتج بهذا الحديث على الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد ــ يعني ابن مسلم ــ حدثني سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : كانوا أربعة نفر من عرينة ، وثلاثة نفر من عُكْل ، فلما أتي بهم قطع أيديهم وأرجلهم ، وسَمَل أعينهم ، ولم يحسمهم ، وتركهم يتلقَّمون (٢) الحجارة بالحرة ، فأنزل الله في ذلك : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ... الآية (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن حرب الموصلي ، حدثنا أبو مسعود ــ يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج ــ حدثنا أبو سعد ــ يعني البقال ــ عن أنس بن مالك قال : كان رهط من عُرَينة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهم جَهْد ، مُصْفَرَّة ألوانهم ، عظيمة بطونهم ، فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصفت ألوانهم وخَمصت بطونهم ، وسمنوا ، فقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طَلَبهم ، فأُتي بهم ، فقتل بعضهم ، وسَمَّرَ أعين بعضهم ، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ، ونزلت : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ... إلى آخر الآية .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب : أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في المحاربة ، الحديث ٤٣٦٤ : ٤ / ١٣٠ . وتحفة الأحوذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في بول ما يؤكل لحمه : ١/٢٤٢–٢٤٥ . والنسائي ، كتاب تحريم الدم : ٧/٩٣–١٠١ .
(٢) أي يضعون الحجارة في أفواههم من العطش ، كي تستدر الريق .
(٣) تفسير الطبري : ١٠/٢٥٠ .

النفر العُرَنِيِّين ، وهم من بجيلة . قال أنس : فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام(١) .

وقال : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن أبي الزناد ، عن عبد الله بن عبيد الله ، [عن عبد الله] بن عمر – أو : عمرو، شك يونس – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك – يعني بقصة العُرَنيين – ونزلت فيهم آية المحاربة(٢). ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد ، وفيه : « عن ابن (٣) عمر » من غير شك .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف ، حدثنا الحسن بن حماد ، عن عمرو بن هاشم ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن إبراهيم ، عن جرير قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من عرينة حفاة مضرورين ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح [ثم خرجوا باللقاح] عامدين بها إلى أرض قومهم ؛ قال جرير : فبعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعد ما أشرفوا على بلاد قومهم ، فقدمنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسَمَل أعينهم ، فجعلوا يقولون : « الماء » . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « النار » ! حتى هلكوا . قال : وكره الله عزوجل سَمْل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ... إلى آخر الآية .

هذا حديث غريب ، وفي إسناده الرَّبَذيّ وهو ضعيف ، وفيه فائدة وهو ذكر أمير هذه السرية ، وهو جرير ابن عبد الله البجلي . وتقدم في صحيح مسلم أن السرية كانوا عشرين فارسا من الأنصار . وأما قوله : « فكره الله سمل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية » فانه منكر ، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلوا أعين الرعاء ، فكان ما فعل بهم قصاصا ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق ، عن إبراهيم بن محمد الأسلمي ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبي هريرة قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلا ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه فشربوا منها حتى صحوا ، ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها ، فطُلبوا ، فأتي بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسَمَر أعينهم . قال أبو هريرة : ففيهم نزلت هذه الآية : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ، فترك النبي صلى الله عليه وسلم سَمْر الأعين بعدُ .

وروى من وجه آخر عن أبي هريرة :

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا الحسن بن إسحاق التستري ، حدثنا أبو القاسم محمد ابن الوليد ، عن عمرو بن محمد المديني ، حدثنا محمد بن طلحة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن سلمة بن الأكوع قال : « كان للنبي صلى الله عليه وسلم غلام يقال له : « يسار » ، فنظر إليه

(١) تفسير الطبري : ٢٥٠/١٠ .
(٢) المصدر السابق ١٤٩/١٠ .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في المحاربة ، الحديث ٤٣٦٩ : ١٣١/٤ .

يحسن الصلاة فأعتقه ، وبعثه فى لقاح(١) له بالحرة، فكان بها ، قال : فأظهر قوم الإسلام من عُرَينة ، وجاءوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم ، قال : فبعث [بهم] النبي صلى الله عليه وسلم إلى « يسار » فكانوا يشربون [من] ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم، ثم عدوا على « يسار » فذبحوه، وجعلوا الشوك فى عينيه ، ثم أطردوا الإبل ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فى آثارهم خيلا من المسلمين ، أميرهم كُرْزُ بن جابر الفِهْرى ، فلحقهم فجاء بهم إليه ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم » .

غريب جداً ، وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة ، منهم جابر وعائشة وغير واحد : وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً ، فرحمه الله ، وأثابه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، سمعت أبى يقول : سمعت أبا حمزة ، عن عبد الكريم ـ وسُئل عن أبوال الإبل ـ فقال : حدثنى سعيد بن جُبَير عن المحاربين فقال : كان أناس أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نبايعك على الإسلام : فبايعوه ، وهم كَذَبَة ، وليس الإسلامَ يريدون : ثم قالوا : إنا نَجْتَوى(٢) المدينةَ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح ، فاشربوا من أبوالها وألبانها : قال : فبيناهم كذلك ، إذ جاءهم الصريخُ(٣) ، فصرخ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قتلوا الراعى ، واستاقوا النعم : فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فنُودِىَ فى الناس : أن « يا خيل الله اركبى (٤) » : قال : فركبوا لا ينتظر فارس فارساً ، قال : وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أثرهم ، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم ، فرجع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسروا منهم ، فأتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) ... الآية : قال : فكان نفيهم : أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم ، ونفوهم من أرض المسلمين . وقتل نبى الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وصلب ، وقطع ، وسَمَرَ الأعين . قال : فما مَثَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلُ ولا بعدُ . قال : ونهى عن المُثْلة ، قال : « ولا تمثلوا بشيء » قال : وكان أنس يقول ذلك ، غير أنه قال : أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم .

قال : وبعضهم يقول : هم ناس من بنى سليم ، ومنهم من عُرينة ناس (٥) من بجيلة .

وقد اختلف الأئمة فى حكم هؤلاء العُرَنيين : هل هو منسوخ أو محكم ؟ فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتاباً للنبي صلى الله عليه وسلم كما فى قوله : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) . ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المُثْلة . وهذا القول فيه نظر ، ثم صاحبه مطالب ببيان تأخر الناسخ الذى ادعاه عن المنسوخ . وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قاله محمد بن سيرين ، وفى هذا نظر ، فان قصتهم متأخرة ،

---

(١) اللقاح – بكسر اللام – جمع لقحة – بكسر فسكون ، وهى ذوات الألبان من النوق .

(٢) أى أصابهم الجوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها . ويقال : اجتويت البلد، إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة .

(٣) الصريخ والصارخ : المستغيث . والمعنى أنه استغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) قال ابن الأثير فى النهاية ، مادة خيل : « هو على حذف مضاف ، أراد : يا فرسان خيل الله اركبى . وهذا من أحسن المجازات وألطفها » .

(٥) كذا فى مخطوطتنا ، وفى تفسير الطبرى ١٠/٢٤٧ : « وناس من بجيلة » بواو العطف ، وما فى مخطوطتنا هو الصواب ، فبنو عرينة من بجيلة ، ينظر « جمهرة أنساب العرب » : ٣٦٥ ، والأثر الذى يأتى بعد ذلك عن أنس .

وفى رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها ، فانه أسلم بعد نزول المائدة : ومنهم من قال : لم يسمل النبي صلى الله عليه وسلم أعينهم ، وإنما عزم على ذلك ، حتى نزل القرآن فبيَّن حكم المحاربين . وهذا القول أيضا فيه نظر ؛ فانه قد تقدم فى الحديث المتفق عليه أنه سَمَل — وفى رواية : سمر — أعينهم .

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سَمْل النبي صلى الله عليه وسلم أعينهم ، وتركه حَسْمهم حتى ماتوا ، قال : سمعت محمد بن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم معاتبة فى ذلك ، وعلَّمه عقوبة مثلهم : من القتل والقطع والنفى ، ولم يسمل بعدهم غيرهم . قال : وكان هذا القول ذكر لأبى عمرو — يعنى الأوزاعى — فأنكر أن يكون نزلت معاتبة، وقال: بل(١) كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية فى عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم ، ورفع عنهم السمل » .

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء فى ذهابهم إلى أن المحاربة فى الأمصار وفى السبلان (٢) على السواء ، لقوله : (ويسعون فى الأرض فساداً) . وهذا مذهب مالك ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، والشافعى ، وأحمد ابن حنبل ، حتى قال مالك — فى الذى يغتال الرجل فيخدعه حتى يُدخله بيتا فيقتله ، ويأخذ ما معه — : إن هذا محاربة ، ودمه إلى السلطان لا ولى المقتول ، ولا اعتبار بعفوه عنه فى إنفاذ القتل .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تكون المحاربة إلا فى الطرقات ، فأما فى الأمصار فلا ؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه .

وأما قوله : (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ... الآية ، قال [ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية] من شهر السلاح فى قبَّة(٣)الإسلام ، وأخاف السبيل، ثم ظُفر به وقدر عليه ، فامام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله .

وكذا قال سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن البصرى ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك . وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير ، وحكى مثله عن [مالك بن أنس] رحمه الله . ومستند هذا القول [أن] ظاهر « أو » للتخيير ، كما فى نظائر ذلك من القرآن ، كقوله فى جزاء الصيد : (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عَدل ذلك صياما) وقوله فى كفارة الترفه: (فمن كان منكم مريضا ، أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام ، أو صدقة ، أو نسك) . وكقوله فى كفارة اليمين : (إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة) . هذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعى: أنبانا إبراهيم — هو ابن أبى يحيى ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس — فى قطاع الطريق : « إذا قَتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلبوا ، وإذا قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض » .

---

(١) فى تفسير الطبرى ١٠/٢٥٣ : « بل ، كانت ... »

(٢) لم نجد السبلان فيما ما أتيح لنا من كتب المعاجم . ولعله يعنى بها جمع سبيل ، وهو الطريق . والسبيل يجمع على سبل ، كطريق وطرق .

(٣) كذا فى مخطوطتنا ، ومثله فى تفسير الطبرى : ١٠/٢٦٣ ، ومعنى فى قبة الإسلام : فى ظله .

وقد رواه ابن أبي شيبة ، عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن حجاج ، عن عطية ، عن ابن عباس ، بنحوه . وعن أبي مجلز ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وعطاء الخراسانى ، نحو ذلك . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة .

واختلفوا : هل يصلب حيا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو يقتله برمح ونحوه ، أو يقتل أولا ثم يصلب تنكيلا وتشديدا لغيره من المفسدين ؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل ، أو يترك حتى يسيل صديده ؟ فى ذلك كله خلاف محرر فى موضعه ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره ـ إن صح سنده ـ فقال :

حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم [عن ابن لهيعة] (١) عن يزيد بن أبى حبيب : « أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره : أن هذه الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين ـ وهم من بجيلة ـ قال أنس : فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل ، وأصابوا الفرج الحرام . قال أنس : فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق [وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ، ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقتله ، ومن قتل] وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام ، فاصلبه (٢) » .

وأما قوله تعالى : (أو يُنْفَوا من الأرض) ، قال بعضهم : « هو أن يطلب حتى يقدر عليه ، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام » .

رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والزهرى ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس (٣) .

وقال آخرون : هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر ، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية . وقال الشعبى : ينفيه [كما قال] ابن هبيرة من عمله كله . وقال عطاء الخراسانى : ينفى من جُنْد إلى جند سنين ، ولا يخرج من أرض الإسلام . [وكذا قال سعيد بن جبير ، وأبو الشعثاء ، والحسن ، والزهرى ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان : إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام] .

وقال آخرون : المراد بالنفى هاهنا السجن . وهو قول أبى حنيفة وأصحابه ، واختار ابن جرير : أن المراد بالنفى هاهنا : أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه (٤) .

وقوله : (ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) ، أى : هذا الذى ذكرته من قتلهم ، ومن صلبهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ونفيهم ـ خزىٌ لهم بين الناس فى هذه الحياة الدنيا ، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت فى المشركين ، فأما أهل الإسلام فقد ثبت فى الصحيح

(١) عن تفسير الطبرى ، الأثر ١١٨١٦ : ٢٥٠/١٠ . وينظر التهذيب : ٣٧٤/٥ ، ٣١٨/١١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٥٠/١٠ ، ٢٦٧ ، الأثران : ١١٨١٦ ، ١١٨٥٤ . وما بين القوسين عنه .
(٣) ينظر المصدر السابق : ٢٦٨/١٠ ، ٢٧٠ .
(٤) المصدر السابق : ٢٧٤/١٠ .

عند مسلم ، عن عبادة بن الصامت قال : « أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء : ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتلَ أولادنا ولا يَعْضَه(١) بعضنا بعضاً ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ، ومن سَتَره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له (٢) » .

وعن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أذنب ذنباً فى الدنيا ، [فعوقب به ، فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ، ومن أذنب ذنباً فى الدنيا] فستره الله عليه وعفا عنه ، فالله أكرم من أن يعود فى شىء قد عفا عنه » .

رواه الإمام أحمد (٣) ، والترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : « حسن غريب » : وقد سئل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث ، فقال : روى مرفوعا وموقوفا — قال : ورفعه صحيح .

وقال ابن جرير فى قوله : (ذلك لهم خزى فى الدنيا) ، يعنى : شر وعار ونكال وذلة وعقوبة فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ، (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) ، أى: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا — فى الآخرة(٤) مع الجزاء الذى جازيتهم به فى الدنيا ، والعقوبة التى عاقبتهم بها فيها — « عذاب عظيم » ، يعنى : عذاب جهنم (٥) .

وقوله : (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم) ، أما على قول من قال : هى فى أهل الشرك فظاهر ، وأما المحاربون المسلمون فاذا تابوا قبل القدرة عليهم فانه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء ، وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجاهد ، عن الشعبى قال : كان حارثة بن بدر التميمى من أهل البصرة ، وكان قد أفسد فى الأرض وحارب ، فكلم رجالا من قريش منهم : الحسن بن على ، وابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، فكلموا عليا ، فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الهمدانى فخلفه فى داره ، ثم أتى عليا فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا ، فقرأ حتى بلغ : (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) . قال : فكتب له أمانا . قال سعيد بن قيس : فانه حارثة بن بدر (٦) » .

وكذا رواه ابن جرير من غير وجه ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، به : وزاد : فقال حارثة بن بدر .

ألا أبلغَن هَمْدان إمَّا لقَيتهَا • علَى النَّأى لا يَسْلَمْ عَدو يعيبها

---

(١) أى : لا يرميه بالعضيهة ، وهى البهتان والكذب .

(٢) مسلم ، كتاب الحدود : ١٢٧/٥ .

(٣) مسند أحمد : ٩٩/١ ، ١٥٩ . وتحفة الأحوذى ، كتاب الإيمان : ٣٧٧/٧ ، ٣٧٨ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، الحديث ٢٦٠٤ : ٨٦٨/٢ .

(٤) أى : لهم فى الآخرة ...

(٥) تفسير الطبرى : ٢٧٦/١٠ ، ٢٧٧ .

(٦) الأثر فى الدر المنثور : ٢٧٩/٢ .

لَعَمْرُ أبيها إنَّ هَمْدان تَتَّقِي الإ   إلَهَ ويَقْضِي بالكتاب خَطِيبُها(١)

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثورى، عن السدى — ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبى قال: جاء رجل من مراد إلى أبى موسى، وهو على الكوفة فى إمارة عثمان، رضى الله عنه، بعد ما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادى، وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت فى الأرض فسادا، وإنى تبت من قبل أن يُقْدر علىّ: فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فسادا، وإنه تاب من قبل أن يُقْدَرَ عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فان يك صادقا فسبيل من صدق، وإن يك كاذبا تدركه ذنوبه (٢)، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله.

ثم قال ابن جرير: حدثنى على حدثنا الوليد بن مسلم قال، قال الليث — وكذلك حدثنى موسى بن إسحاق المدنى، وهو الأمير عندنا: أن عليا الأسدى حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة، فامتنع ولم يُقْدر عليه، حتى جاء تائبا، وذلك أنه سمع رجلا يقرأ هذه الآية: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها: فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائبا، حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبى هريرة فى غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم علىّ، جئت تائبا من قبل أن تقدروا علىّ: فقال أبو هريرة: صدق: وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم — وهو أمير على المدينة، فى زمن معاوية — فقال: هذا علىّ جاء تائبا، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل: قال، فتُرِك من [ذلك(٣) كله] قال: وخرج علىّ تائبا مجاهدا فى سبيل الله فى البحر، فلقوا الروم، فقرّبوا [سفينته إلى] سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم فى سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر (٤)، فمالت به وبهم، فغرقوا جميعاً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه، وهى إذا قرنت بالطاعة كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات. وقد قال بعدها: (وابتغوا إليه الوسيلة)، قال سفيان الثورى، [حدثنا (٥) أبى] عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أى القربة: وكذا قال مجاهد، وأبو وائل، والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدى، وابن زيد.

---

(١) تفسير الطبرى: ١٠/٢٨٠، ٢٨١.

(٢) من قوله: «فإن يك صادقاً» إلى «تدركه ذنوبه» ليست فى تفسير الطبرى: ١٠/٢٨٢.

(٣) عن تفسير الطبرى ١٠/٢٤٨. ومكانه فى المخطوطة: كلمته.

(٤) نص الطبرى ١٠/٢٨٤: «فهزموا منه إلى سفينتهم الأخرى...».

(٥) عن تفسير الطبرى، الأثر ١١٩٠٠: ١٠/٢٩١

وقال قتادة : أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد(١) (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه . وأنشد ابن جرير عليه قول الشاعر :

إذا غَفَلَ الواشُون عُدنَا لِوصْلِنَا ۞ وعَادَ التَّصَافِى بَيْنَنَا والوسَائِلُ(٢)

والوسيلة : هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضا : علم على أعلى منزلة فى الجنة ، وهى منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وداره فى الجنة ، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وقد ثبت فى صحيح البخارى ، من طريق محمد بن المُنْكَدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة »(٣) .

حديث آخر فى صحيح مسلم ، من حديث كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ ، فانه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه [بها] عشرا ، ثم سلوا [الله] لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة ، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوا أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة (٤) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صليتم علىّ فسلوا لى الوسيلة . قيل : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة فى الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو (٥) » .

ورواه الترمذى ، عن بندار ، عن أبى عاصم ، عن سفيان – هو الثورى – عن ليث بن أبى سُلَيم ، عن كعب قال : حدثنى أبو هريرة ، به . ثم قال : غريب ، وكعب ليس بمعروف ، لا نعرف أحدا روى عنه غير ليث بن أبى سليم(٦) .

طريق آخرى : عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال أبو بكر بن مَرْدُويَه : حدثنا عبد الباقى بن قانع ، حدثنا محمد ابن نصر الترمذى ، حدثنا عبد الحميد بن صالح ، حدثنا أبو شهاب ، عن ليث ، عن المعلى ، عن محمد بن كعب ، عن أبى هريرة رفعه قال : « صلوا علىّ صلاتكم ، وسلوا الله لى الوسيلة . فسألوه وأخبرهم : أن الوسيلة درجة فى الجنة ، ليس ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكونه » .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : أخبرنا أحمد بن على الأبار ، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحرانى ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ابن أبى حبيب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله لى الوسيلة ، فانه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا – أو : شفيعا – يوم القيامة » .

---

(١) الأثر عن ابن زيد كما رواه الطبرى ٢٩١/١٠ : « قال ابن زيد فى قوله : « وابتغوا إليه الوسيلة » ، قال : المحبة تحببوا إلى الله . وقرأ : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٩٠/١٠ .

(٣) البخارى ، كتاب الأذان : ١٥٩/١ . ولفظ الصحيح : « الذى وعدته ، حلت » دون ذكر « إلا » .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة : ٤/٢ .

(٥) مسند أحمد : ٢٦٥/٢ .

(٦) تحفة الأحوذى ، كتاب المناقب : ٨٠/١٠ ، ٨١ .

ثم قال الطبراني : « لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين » . كذا قال، وقد رواه ابن مَرْدُويه : حدثنا محمد ابن على بن دحيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ـ فذكر باسناده نحوه .

حديث آخر : روى ابن مردويه باسناده عن عماره بن غَزِيَّةَ ، عن موسى بن وردان : أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه » .

حديث آخر : روى ابن مردويه أيضا من طريقين ، عن عبد الحميد بن بحر : حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن على، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « في الجنة درجة تدعى الوسيلة ، فاذا سألتم الله فسلوا لى الوسيلة . قالوا : يا رسول الله ، من يسكن معك ؟ قال : « على وفاطمة والحسن والحسين » .

هذا حديث غريب منكر : من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الحسن الدشتكى ، حدثنا أبو زهير ، حدثنا سعد بن طريف ، عن على بن الحسين الأزدى ـ مولى سالم بن ثوبان ـ قال : سمعت على بن أبي طالب ينادى على منبر الكوفة : يا أيها الناس ، إن في الجنة لؤلؤتين : إحداهما بيضاء ، والأخرى صفراء ، أما الصفراء فانها إلى بُطْنَان العرش ، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة ، كل بيت منها ثلاثة أميال ، وغرفها وأبوابها وأسرتها وكأنها من عرق واحد ، واسمها الوسيلة ، هى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته . ، [والصفراء فيها مثل ذلك، هى لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته] .

وهذا أثر غريب أيضا.

وقوله : (وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون) ، لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، التاركين للدين القويم ، ورغبهم فى ذلك بالذى أعده للمجاهدين فى سبيله يوم القيامة ، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التى لا تبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية الرفيعة الآمنة ، [الحسنة] مناظرها الطيبة مساكنها ، التى من سكنها ، ينعم لا ييأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة ، فقال : (إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) ، أى : لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبا ، وبمثله ليفتدى بذلك من عذاب الله الذى قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ، ما تُقُبِّل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ، ولهذا قال : (ولهم عذاب أليم) أى : موجع (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) ، ولهم عذاب مقيم ، كما قال تعالى : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) ... الآية ، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب

فصاروا في أعالي جهنم ، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد ، فيردوهم إلى أسفلها ، (ولهم عذاب مقيم) ، أي : دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

وقد قال حماد بن سلمة ، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالرجل من أهل النار ، فيقول : يا ابن آدم ، كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شرَّ مضجع ، فيقول : هل تفتدى بقُراب الأرض ذهبا ؟ قال ، فيقول : نعم ، يا رب ! فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل : فيؤمر به إلى النار » .

رواه مسلم (١) والنسائي من طريق حماد بن سلمة ، بنحوه : وكذا رواه البخاري ومسلم (٢) ، من طريق معاذ ابن هشام الدَّستَوائى ، عن أبيه ، عن قتادة، عن أنس، به . وكذا أخرجاه (٣) من طريق أبي عمران الجَوْنى ، واسمه عبد الملك بن حَبِيب ، عن أنس بن مالك ، به . ورواه مطر الورَّاق ، عن أنس بن مالك : ورواه ابن مردويه من طريقه ، عنه .

ثم رواه ابن مَردويه ، من طريق المسعودى ، عن يزيد بن صُهَيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » . قال ، فقلت لجابر بن عبد الله : يقول الله :(يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) ، قال : اتل أول الآية : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به) ... الآية ، ألا إنهم الذين كفروا .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر ، عن يزيد الفقير ، عن جابر ، وهذا أبسط سياقا :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة الواسطي(٤)، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا مبارك بن فضالة ، حدثني يزيد الفقير قال : « جلست إلى جابر بن عبد الله ، وهو يحدث ، فحدَّث أن أناسا يخرجون من النار — قال : وأنا يومئذ أنكر ذلك ، فغضبت وقلت : ما أعجب من الناس ، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد ! تزعمون أن الله يخرج [ناساً] من النار، والله يقول : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) ... الآية . فانتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال : دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة) حتى بلغ : (ولهم عذاب مقيم) أما تقرأ القرآن؟قلت بلى قد جمعته . قال : أليس الله يقول : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً)، فهو ذلك المقام، فان الله يحتبس أقواما بخطاياهم في في النار ماشاء ، لا يكلمهم ، فاذا أراد أن يخرجهم أخرجهم . قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به » .

ثم قال ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد ، حدثنا عمر بن حفص السدوسى ، حدثنا عاصم بن على ، حدثنا العباس ابن الفضل ، حدثنا سعيد بن المهلب ، حدثني طلق بن حبيب قال : كنت من أشد الناس تكذيبا بالشفاعة ، حتى لقيت جابر ابن عبد الله ، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار . فقال : يا طلق ، أتُرَاك أقْرَأَ لكتاب الله

---

(١) مسلم ، كتاب صفة القيامة : ١٣٥/٨ .
(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة : ١٣٤/٨ .
(٣) البخارى ، كتاب الرقاق : ١٤٣/٨ ، وكتاب الأنبياء : ١٦٢/٤ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة : ١٣٤/٨ .
(٤) فى مخطوطة الأزهر : « الحسن بن محمد بن أبي شيبة » والمثبت من الجرح لابن أبي حاتم : ٦٥/٢/١ .

وأعلم بسنة رسول الله منى ؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبا فعذبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرجون من النار بعد ما دخلوا: ونحن نقرأ كما قرأت (١) ».

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى حاكما وآمرا بقطع يد السارق والسارقة، وروى الثورى عن جابر بن يزيد الجُعْفى، عن عامر ابن شراحيل الشعبي: أن ابن مسعود كان يقرؤها: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما). (٢) وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولا به فى الجاهلية، فقُرِّر فى الإسلام وزيدت شروط أُخَر كما سنذكره، إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقِراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزيادات هى من تمام المصالح. ويقال: إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش، قطعوا رجلا يقال له: « دويك »، مولى لبنى مُلَيح بن عمرو من خزاعة؛ كان قد سرق كنز الكعبة؛ ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده.

وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلا أو كثيرا، لعموم هذه الآية: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما). فلم يعتبروا نصابا ولا حرزا، بل أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد المؤمن، عن نجدة الحنفى قال: « سألت ابن عباس عن قوله: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)، أخاص أم عام؟ فقال: بل عام » (٣).

وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم.

وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده (٤) ». وأما الجمهور فاعتبروا [النصاب فى] السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حِدَة، فعند الإمام مالك بن أنس، رحمه الله: النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع فى مِجَنّ ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه فى الصحيحين (٥).

---

(١) الأثر فى الدر المنثور: ٢٨٠/٢.
(٢) تفسير الطبرى، الأثر ١١٩١٠: ٢٩٥/١٠.
(٣) المصدر السابق، الأثر ١١٩١٤: ٢٩٦/١٠.
(٤) البخارى، كتاب الحدود: ١٩٨/٨، ومسلم، كتاب الحدود أيضاً: ١١٣/٥.
(٥) أخرجاه فى كتاب الحدود، ينظر البخارى: ٢٠٠/٨، ومسلم: ١١٣/٥.

قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترُجَّة (١) قُوِّمَت بثلاثة دراهم، وهو أحب ماسمعت فى ذلك؛ وهذا الأثر عن عثمان، رضى الله عنه، قد رواه مالك عن عبد الله بن أبى بكر، عن أبيه، عن عَمْرة بنت عبد الرحمن أن سارقا سرق فى زمان عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تُقَوَّم، فقُوِّمَتْ بثلاثة دراهم [من] صرف اثنى عشر درهما [بدينار] (٢)، فقطع عثمان يده»(٣).

قال أصحاب مالك: ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتى، وفيه دلالة على القطع فى الثمار خلافا للحنفية. وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافا لهم فى أنه لابد من عشرة دراهم، وللشافعية فى اعتبار ربع دينار، والله أعلم.

وذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدا؛ والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان: البخارى ومسلم، من طريق الزهرى، عن عَمْرة، عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا (٤)».

ولمسلم من طريق أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عَمْرة، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا (٤)».

قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل فى المسألة ونص فى اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه: قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافى هذا، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثنى عشر درهما، فهى ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق.

ويروى هذا المذهبُ عن عُمَر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، رضى الله عنهم؛ وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، والأوزاعى، والشافعى، وأصحابه، وإسحاق بن راهويه — فى رواية عنه — وأبو ثور، وداود بن على الظاهرى، رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه — فى رواية عنه — إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مَرَدٌّ شرعى، فمن سرق واحدا منهما، أو ما يساويه، قطع عملا بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة رضى الله عنهما؛ ووقع فى لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اقطعوا فى ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك (٥)». وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثنى عشر درهما؛ وفى لفظ للنسائى: لاتقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المِجَنّ؟ قالت: ربع دينار(٦).

فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم.

---

(١) الأترجة — بضم الهمزة وتشديد الجيم —: نوع من الفاكهة.
(٢) عن الموطأ.
(٣) الموطأ، كتاب الحدود، باب ما يجب فيه القطع: ٨٣٢/٢.
(٤) أخرجاه فى كتاب الحدود. ينظر البخارى: ٢٠٠/٨، ومسلم: ١١٢/٥.
(٥) مسند أحمد: ٨٠/٦.
(٦) النسائى، كتاب قطع السارق: ٨٠/٨.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه : أبو يوسف ، ومحمد ، وزُفَر ، وكذا سفيان الثورى رحمهم الله ، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجن الذى قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا ابن نُمَير وعبد الأعلى عن محمد ابن إسحاق ، عن [أيوب بن موسى ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : « كان ثمن المجن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم عشرة دراهم » .

ثم قال : حدثنا عبد الأعلى ، عن محمد بن إسحاق ، عن] عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقطع يد السارق فى دون ثمن المجن" . وكان ثمن المجن عشرة دراهم » .

قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر فى ثمن المجن ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وذهب بعض السلف إلى أنه تُقْطَعُ يدُ السارق فى عشرة دراهم ، أو دينار ، أو ما يبلغ قيمته واحدا منهما ، يحكى هذا عن على ، وابن مسعود ، وإبراهيم النخَعى ، وأبى جعفر الباقر ، رحمهم الله تعالى .

وقال بعض السلف : لا تقطع الخمس إلا فى خمس ، أى : فى خمسة دنانير ، أو خمسين درهما : وينقل هذا عن سعيد ابن جبير ، رحمه الله .

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبى هريرة : « يَسْرِقُ البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » ، بأجوبة .

أحدها : أنه منسوخ بحديث عائشة . وفى هذا نظر ، لأنه لا بد من بيان التاريخ .

والثانى : أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن ، قاله الأعمش فيما حكاه البخارى (١) وغيره عنه .

والثالث : أن هذا وسيلة إلى التدرج فى السرقة من القليل إلى الكثير . الذى تقطع فيه يده ، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه فى الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون فى القليل والكثير ، فلعن السارق [الذى] يبذل يده الثمينة فى الأشياء المهينة .

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرى ، لما قدم بغداد ، اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم فى ذلك شعراً دل على جهله ، وقلة عقله ، فقال :

يَدٌ بخمس مِئِين عسجدٍ وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَتْ فى رُبْعِ دينارِ

تَناقضٌ ما لنا إلا السكوت له ... وأن نَعُوذ بمَوْلانا مِنَ النارِ

---

(١) ذكر البخارى بعد هذا الحديث : « قال الأعمش : كانوا يرون أنه بيضة الحديد ، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يساوى دراهم » . ينظر كتاب الحدود : ١٩٨/٨ .

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبه الفقهاء فهرب منهم : وقد أجابه الناس فى ذلك ، فكان جواب القاضى عبد الوهاب المالكى ،رحمه الله، أنه قال : لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت . ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة ، فإنه فى باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يُجنَى عليها ، وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع فيه ربع دينار لئلا يتسارع الناس فى سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الألباب . ولهذا قال : (جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) ، أى : مجازاة على صنيعهما السيء فى أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك (نكالا من الله) ، أى : تنكيلا من الله بهما على ارتكاب ذلك (والله عزيز) ، أى : فى انتقامه (حكيم) أى : فى أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم) ، أى : من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله ، فان الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور .

وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت فى يده فانه لا يرد بدلها . وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطنى من حديث [محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان (١)] عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسارق قد سرق شملة ، فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى ، يا رسول الله . قال : اذهبوا به فاقطعوه ، ثم احسموه ، ثم ائتونى به . فقطع فأتى به ، فقال : تب إلى الله . فقال : تبت إلى الله . فقال : تاب الله عليك (٢) .

وقد رُوى من وجه آخر مرسلا ورجّح إرساله على بن المدينى وابن خزيمة ، رحمهما الله : وروى ابن ماجه من حديث ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصارى ، عن أبيه : أن عَمْرو بن سَمُرة ابن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنى سرقت جملا لبنى فلان ، فطهرنى ! فأرسل إليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا افتقدنا جملا لنا . فأمر به فقطعت يده [قال ثعلبة : أنا أنظر إليه حين وقعت يده] (٣) وهو يقول : الحمد لله الذى طهرنى منك ، أردت أن تُدْخلى جسدى النار (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن حُيَيّ بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : سرقت امرأة حُلياً ، فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، سرقتنا هذه المرأة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقطعوا يدها اليمنى . فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتِ اليومَ من خطيئتك كيوم ولدتك أمك ! قال : فأنزل الله عز وجل : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم (٥) .

---

(١) مكانه بياض فى مخطوطة الأزهر ، والمثبت عن سنن الدارقطنى .
(٢) سنن الدارقطنى ، كتاب الحدود : ٣٣١ .
(٣) عن سنن ابن ماجه ، وهو سقط نظر .
(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، الحديث ٢٥٨٨ : ٨٦٣/٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١١٩١٧ : ٢٩٩/١٠ .

وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنى حُيَيّ بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو : أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا ! قال قومها : فنحن نفديها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقطعوا يدها [فقالوا : نحن نفديها بخمسمائة دينار . قال : اقطعوا يدها . قال] : (١) فقطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة : هل لى من توبة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك . فأنزل الله فى سورة المائدة : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم) (٢) .

وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت ، وحديثها ثابت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن قريشا أهمهم شأنُ المرأة التى سرقت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يَجْتَرِىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأتِى بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلوَّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ؟ فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله . فلما كان العَشِيّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختطب ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فانما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها : ثم أمر بتلك المرأة التى سرَقت فقطعت يدها . قالت عائشة : فحسُنَت توبتها بعدُ ،وتزوجت ، وكانت تأتى بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا لفظ مسلم : (٣) وفى لفظ له عن عائشة قالت : «كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقطع يدها »(٤) .

وعن ابن عمر قال : كانت امرأة مخزومية تستعير متاعا على ألسنة جاراتها وتجحده ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع يدها .

رَواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى (٥)— وهذا لفظه — وفى لفظ له : « أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لتتب هذه المرأة إلى الله ورسوله وترد ما تأخذ على القوم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٦) : قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها » .

وقد ورد فى أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة فى كتاب « الأحكام » ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) سقط من المخطوطة ، أثبتناه عن المسند .

(٢) مسند أحمد : ١٧٧/٢ ، ١٧٨ .

(٣) مسلم ، كتاب الحدود : ١١٤/٥ ، ١١٥ . والبخارى ، كتاب الحدود : ١٩٩/٨ .

(٤) مسلم ، كتاب الحدود : ١١٥/٥ .

(٥) مسند أحمد : ٢ / ١٥١ ، وسنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب فى الحد يشفع فيه ، الحديث ٤٣٧٤ : ٤ / ١٣٢ ، ١٣٣ ، وباب فى القطع فى العارية إذا جحدت ، الحديث ٤٣٩٥ : ١٣٩/٤ . والنسائى ، كتاب قطع السارق ، باب ما يكون حرزا وما لا يكون : ٧١/٨ .

(٦) سقط من المخطوطة ، أثبتناه عن النسائى .

ثم قال تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، أى : هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذى لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد (يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، والله على كل شيء قدير) .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ، (من الذين قالوا : آمنا بأفواههم . ولم تؤمن قلوبهم) أى : أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون (ومن الذين هادوا) أعداء الإسلام وأهله . وهؤلاء كلهم (سماعون للكذب) ، أى : يستجيبون له ، منفعلون عنه (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أى : يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد؛ وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام ، وينهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك ، من أعدائك (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) ، أى : يتأولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا) .

قيل : نزلت فى أقوام من اليهود ، قتلوا قتيلا ، وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ، فان أفتانا بالدية فخذوا ماقال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه .

والصحيح أنها نزلت فى اليهوديَّيْن اللذين زنيا — وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، من الأمر برجم من أحْصِن منهم ، فحرفوا واصطلحوا فيا بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين . فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، قالوا فيا بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فان حكم بالجلد والتحميم (١) فخذوا عنه ، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبى من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، [وإن حكم بالرجم فلاتتبعوه فى ذلك .

(١) التحميم : تسويد الوجه .

وقد وردت الأحاديث بذلك] ، فقال مالك ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر أنه قال : « إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون . قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم : فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك : فرفع يده فاذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ، فيها آية الرجم ! فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما ، فرأيت الرجل يَحْنِي على المرأة يقيها الحجارة » .

وأخرجاه (١) ، وهذا لفظ البخاري : وفي لفظ له : « فقال لليهود : ما تصنعون بهما ؟ قالوا : نُسَخِّم (٢) وجوههما ونُخْزِيهما ، قال : (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) . فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعورَ : اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه ، قال : ارفع يدك : فرفع ، فاذا آية الرجم تلوح ، قال : يا محمد ، إن فيها آية الرجم ، ولكنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما فرُجِما (٣) » .

وعند مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يَهُودَ ، فقال : ما تجدون في التوراة على من زنى ؟ قالوا : نُسَوِّد وجوههما [ونُحَمِّلهما (٤) ، ونخالف بين وجوههما (٥)] ويُطَاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) . قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام ــ وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ : مُرْهُ فَلْيَرفع يده . فرفع يده ، فاذا تحتها آيةُ الرجم . فأمر بهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرُجِما . قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه (٦) .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا هشام بن سعد : أن زيد بن أسلم حدثه ، عن ابن عمر قال : « أتى نفر من اليهود ، فدعَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القُفِّ (٧) ، فأتاهم في بيت المِدْرَاس ، فقالوا : يا أبا القاسم ، إن رجلا منا زنى بامرأة ، فاحكم . قال : ووضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة ، فجلس عليها . ثم قال : [ائتوني بالتوراة . فأُتيَ بها ، فنزع الوسادة من تحته ، ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . ثم قال (٨)] : ائتوني بأعلمكم . فأُتِيَ بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن (٩) نافع » .

---

(١) الموطأ ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في الرجم : ٨١٩/٢ . والبخاري : ٢٥١/٤ ، وينظر تفسير سورة آل عمران : ٤٦/٦ ، ٤٧ . ومسلم ، كتاب الحدود : ١٢٢/٥ .
(٢) أي : نسود وجوههما .
(٣) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٩٣/٩ .
(٤) أي : نفضحهما بتسويد وجوههما ، وحملهما على الدابة بالتخالف في الركوب .
(٥) سقط من المخطوطة ، أثبتناه من مسلم .
(٦) مسلم ، كتاب الحدود : ١٢٢/٥ .
(٧) القف : واد من أودية المدينة ، وقف البئر : الدكة التي تجعل حولها . والمدراس : هو البيت الذي يدرسون فيه .
(٨) سقط من المخطوطة ، أثبتناه من سنن أبي داود .
(٩) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب في رجم اليهوديين ، الحديث ٤٤٤٩ : ١١٥/٤ .

وقال الزهرى : سمعت رجلا من مزينة ، ممن يتبع العلم ويعيه ، ونحن عند ابن المسيب ، عن أبى هريرة قال : زنى رجل من اليهود بامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا إلى هذا النبى ، فانه بعث بالتخفيف ، فان أفتانا بفُتْيا دون الرجم قبلناها ، واحتججنا بها عند الله ، قلنا : فتيا [نبى من أنبيائك (١)] ، قال : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فى أصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ، ماتقول فى رجل وامرأة منهم زنيا ؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدْراسهم ، فقام على الباب فقال : أنْشُدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحْصن ؟ قالوا : يُحَمَّم ، ويُجَبَّه ويجلد . والتجبيه : أن يحمل الزانيان على حمار ، وتقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما ؛ قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ألَظّ (٢) به رسول الله صلى الله عليه وسلم النِّشْدة ، فقال : اللهم إذ نشدتنا ، فانا نجد فى التوراة الرجم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ قال : زنى ذُو قرابة من ملك من ملوكنا ، فأخَّر عنه الرجم ، ثم زنى رجل فى أثره من الناس ، فأراد رجمه ، فحال قومه دونه وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه ! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «فانى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما . قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم منهم » .

رواه أحمد ، وأبو (٣) داود — وهذا لفظه — وابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن مُرَّة ، عن البراء بن عازب قال : مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودىّ محمَّم مجلود ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا ، والله ، ولولا أنك نَشَدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع ، فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، قال : فأمر به فرجم ، قال : فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الرسول ، لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) ... إلى قوله : (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه) ، يقولون : ائتوا محمدا ، فان أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، إلى قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، قال : فى اليهود إلى قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قال : فى اليهود ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال : فى الكفار كلها .

انفرد (٤) باخراجه مسلم دون البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من غير وجه ، عن الأعمش ، به .

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدىّ فى مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن مجالد بن سعيد الهمدانى ، عن الشعبى ، عن جابر بن عبد الله قال : زنى رجل من أهل فَدَك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة :

---

(١) مكانه فى المخطوطة : « بنى إسرائيل » والمثبت من سنن أبى داود .

(٢) ألظ به النشدة : ألح فى سؤاله .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب فى رجم اليهوديين ، الحديث ٤٤٥٠ : ٤/١٥٥ .

(٤) مسند أحمد : ٤/٢٨٦ ، ومسلم ، كتاب الحدود : ٥/١٢٢ ، ١٢٣ .

أن سلوا محمداً عن ذلك ، فان أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك ، قال : أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم . فجاءوا برجل أعور – يقال له : ابن صوريا – وآخر ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم : أنتما أعلم من قبلكما ؟ فقالا : قد دعانا (١) قومنا لذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما : أليس عندكما التوراة فيها حكم الله ؟ قالا : بلى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأنشدكم بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل ، وظلل عليكم الغمام ، وأنجاكم من آل فرعون ، وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقال أحدهما للآخر : ما نُشدتُ بمثله قط . قالا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية ، والقبل زنية ، فاذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدىء ويعيد ، كما يدخل الميل فى المكحلة ، فقد وجب الرجم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو ذاك . فأمر به فرُجِم ، فنزلت : (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين) .

ورواه أبو داود (٢) وابن ماجه ، من حديث مجالد ، به نحوه . ولفظ أبى داود عن جابر قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا ، فقال : ائتونى بأعلم رجلين منكم . فأتوه بابنى صوريا ، فنشدهما : كيف تجدان أمر هذين فى التوراة؟ قالا : نجد فى التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة ، رجما . قال : فما يمنعكم أن ترجموهما ؟ قالا : ذهب سلطاننا ، فكرهنا القتل . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشهود ، فجاءوا أربعة ، فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى [فرجها] (٣) مثل الميل فى المكحلة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . برجمهما .

ثم رواه أبو داود ، عن الشعبي وإبراهيم النخعى ، مرسلا (٤) ، ولم يذكر فيه : « فدعا بالشهود فشهدوا » . فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم ، مما تراضوا على كتمانه وجحده ، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه ، بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم . وعدولهم إلى تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ، ولهذا قالوا : (إن أوتيتم هذا) أى : الجلد والتحميم (فخذوه) ، أى : اقبلوه (وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى : من قبوله واتباعه .

قال الله تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، سماعون للكذب) ، أى : الباطل (أكالون للسحت) ، أى : الحرام ، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد . أى : ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ؟ وأنى يستجيب له

---

(١) فى المخطوطة : « وقد دعانا قومنا كذلك » والمثبت عن المطبوعات . وسنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، الحديث ٢٥٥٨ : ٨٥٥/٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب فى رجم اليهوديين ، الحديث ٤٤٤٨ : ١٥٤/٤ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الحدود ، باب ما جاء فى رجم اليهوديين ، الحديث ٤٤٥٢ : ١٥٦/٤ .

(٣) عن سنن أبى داود .

(٤) سنن أبى داود ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث ٤٤٥٣ : ١٥٧/٤ .

ثم قال لنبيه : (فان جاءوك) ، أى : يتحاكمون إليك (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) ، أى : فلا عليك أن لا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما وافق هواهم.

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراسانى : هي منسوخة بقوله : (وان أحكم بينهم بما أنزل الله[1]) (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) ، أى : بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل (إن الله يحب المقسطين).

ثم قال تعالى — منكرا عليهم فى آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة ، فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم ، الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدا ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره ، مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، فقال : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين) .

ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران ، فقال : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) ، أى : لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها (والربانيون والأحبار) أى : وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء ، والأحبار وهم العلماء (بما استُحفِظُوا من كتاب الله) أى : بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهروه ويعملوا به (وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشونى) ، أى : لا تخافوا منهم وخافونى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فيه قولان سيأتى بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وأولئك هم الظالمون . وأولئك هم الفاسقون) قال : قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية ، حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة [فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، فذلت الطائفتان كلتاهما ، لمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويومئذ لم يظهر ، ولم يوطئهما عليه ، وهو فى الصلح ، فقتلت الذليلة] (٢) من العزيزة قتيلا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة : أن ابعثوا لنا بمائة وسق . فقالت الذليلة : وهل كان [هذا](٢) فى حيين [قط] (٢) دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد : دية بعضهم نصف دية بعض . إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا ، وفرقا منكم ، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم [ذلك] (٢) . فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم ، فدسوا إلى محمد : من يَخْبُر لكم رأيه ، إن أعطاكم ما تريدون حكّمتموه وإن لم يعطكم حُذّرتم فلم تحكموه . فدسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من المنافقين ليَخْبُروا لهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهم كله ، وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى . (يا أيها الرسول ، لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله : (الفاسقون) ، ففيهم — والله — أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل (٣) .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٠/٣٣٠/٣٣٤ .

(٢) سقط من المخطوطة ، أثبتناه عن مسند الإمام أحمد .

(٣) مسند أحمد : ١/٢٤٦ .

ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، بنحوه .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا هناد بن السرى وأبو كريب قالا : حدثنا يونس بن بُكَير ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن الآيات في « المائدة » ، قوله : (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) إلى : (المقسطين) ، إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة ، وذلك أن قتلى بني النضير ، كان لهم شرف ، تُودَى(١) الدية كاملة ، وأن قريظة كانوا يُودَوْن نصف الدية ؛ فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق في ذلك ، فجعل الدية في ذلك سواء — والله أعلم أي ذلك كان » .

ورواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث ابن إسحاق .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن علي بن صالح ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت قريظة والنضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة [رجلا من النضير] قتل به ، وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ، ودى مائة وَسق تمر . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجلٌ من النضير رجلا من قريظة ، فقالوا : ادفعوه إلينا . فقالوا : بيننا وبينكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنزلت : (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) .

ورواه أبو داود (٢) ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك ، من حديث عبيد الله بن موسى ، بنحوه .

وهكذا قال قتادة ، ومقاتل بن حيان ، وابن زيد وغير واحد .

وقد روى العوفي ، وعلي بن أبي طلحة الوالبي ، عن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، كما تقدمت الأحاديث بذلك . وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله ، والله أعلم .

ولهذا قال بعد ذلك : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين) ... إلى آخرها . وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، قال البراء بن عازب ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء العطاردي ، وعكرمة ، وعبيد الله بن عبد الله ، والحسن البصري ، وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب — زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة .

---

(١) في تفسير الطبري ١٠/٣٢٦ ، ٣٢٧ : « تؤدى » و « يؤدون » بهمز الواو . وفي مخطوطة الأزهر « يؤدون » بالهمز ، و « تودى » دون همز . والسياق يقتضي ما أثبتناه من غير همز . وقد تبين بعد ما أثبتنا هذا أنه قد وردت بهذا الرواية في النسائي ، في كتاب القسامة ، باب تأويل قول الله تعالى : (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) : ١٩/٨ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الديات ، باب النفس بالنفس ، الحديث ٤٤٩٤ : ١٦٨/٤ . والنسائي ، كتاب القسامة ، باب تأويل قول الله تعالى : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط : ١٨/٨ ، ١٩ . والمستدرك ، كتاب الحدود : ٣٦٦/٤ ، ٣٦٧

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ، ورضى الله لهذه الأمة بها . رواه ابن جرير (١) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عبد الملك بن أبى سليمان ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن علقمة ومسروق : أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة ، فقال : من السحت : قال فقالا : وفى الحكم ؟ قال : ذاك الكفر . ! ثم تلا : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٢) .

وقال السدى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، يقول : ومن لم يحكم بما أنزلتُ ، فتركه عمدا ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، قال : « من جحد ما أنزل الله فقد كفر . ومن أقر به ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق » : رواه ابن جرير (٤) .

ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب (٥) .

وقال عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن زكريا ، عن الشعبى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) ، قال : للمسلمين (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا شعبة ، عن ابن أبى السفر ، عن الشعبى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله [فأولئك هم الكافرون) ، قال : هذا فى المسلمين ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ، قال : هذا فى اليهود (ومن لم يحكم بما أنزل الله] فأولئك هم الفاسقون) ، قال : هذا فى النصارى (٧) .

وكذا رواه هشيم والثورى ، عن زكريا بن أبى زائدة ، عن الشعبى .

وقال عبد الرزاق أيضا : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : (ومن لم يحكم) ... الآية ، قال : هى به كفر — قال ابن طاوس : وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله (٨) .

وقال الثورى ، عن ابن جريج ، عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق : رواه ابن جرير (٩) .

وقال وكيع [عن سفيان (١٠)] عن سعيد المكى ، عن طاوس : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، قال : ليس بكفر ينقل عن الملة .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٠٥٧ : ٣٥٦/١٠ .
(٢) المصدر السابق ، الأثر ١٢٠٦١ : ٣٥٧/١٠ .
(٣) المصدر السابق ، الأثر ١٢٠٦٢ : ٣٥٧/١٠ .
(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٢٠٦٣ : ٣٥٧/١٠ .
(٥) المصدر السابق : ٣٥٨/١٠ .
(٦) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٠٤٥ : ٣٥٥/١٠ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٠٤٢ : ٣٥٤/١٠ . ولم يرد فيه تفسير الشعبى للآية التى فى حق اليهود .
(٨) المصدر السابق ، الأثر ١٢٠٥٥ : ٣٥٦/١٠ .
(٩) المصدر السابق ، الأثر ١٢٠٤٧ : ٣٥٥/١٠ .
(١٠) من تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٠٥٢ : ٣٥٥/١٠ .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام بن حُجَيْر ، عن طاوس ، عن ابن عباس فى قوله : (ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال : ليس بالكفر الذى يذهبون إليه .

ورواه الحاكم فى مستدركه ، من حديث سفيان بن عيينة ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١) .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهذا أيضا مما وُبِّخَتْ به اليهود وقرعوا عليه ، فان عندهم فى نص التوراة : أن النفس بالنفس . وهم يخالفون حكم ذلك عمدا وعنادا ، ويُقيدُون النضرى من القرظى ، ولا يُقيدون القرظى من النضرى ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم فى رجم الزانى المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعنادا وعمدا ، وقال هاهنا : (فأولئك هم الظالمون) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم [فى الأمر] الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخالفوا وظلموا ، وتعدى بعضهم على بعض (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن يونس بن يزيد ، عن أبى على بن يزيد — أخى يونس بن يزيد — عن الزهرى ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين) نصب النفس ورفع العين (٣) .

وكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث عبد الله بن المبارك ، وقال الترمذى : حسن غريب .

وقال البخارى : تفرد ابن المبارك بهذا الحديث .

وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا ، إذا حكى مقررا ولم ينسخ ، كما هو المشهور عن الجمهور ، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الاسفرايينى عن نص الشافعى وأكثر الأصحاب ، بهذه الآية ، حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة .

وقال الحسن البصرى : هى عليهم وعلى الناس عامة . رواه ابن أبى حاتم .

وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووى فى هذه المسألة ثلاثة أوجه ، ثالثها : أن شرع إبراهيم حجة دون غيره ، وصحح منها عدم الحجية ، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراينى أقوالا عن الشافعى ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا فالله أعلم .

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة المائدة : ٣١٣/٢ .

(٢) لفظ المخطوطة : « وتعدوا على بعضهم بعضاً » ولا يستقيم مثل هذا الأسلوب عربية .

(٣) مسند أحمد : ٢١٥/٣ .

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ ، رحمه الله ، فى كتابه « الشامل » إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه ، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فى كتاب عمرو بن حزم : « أن الرجل يقتل بالمرأة (١) » وفى الحديث الآخر : « المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢) » ، وهذا قول جمهور العلماء :

وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل ، وإليه ذهب أحمد فى رواية [وحكى عن الحسن ، وعطاء ، وعثمان البتّى ، ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة] لا يقتل بها ، بل تجب ديتها :

وهكذا احتج أبو حنيفة ، رحمه الله تعالى ، بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمى ، وعلى قتل الحر بالعبد ؛ وقد خالفه الجمهور فيهما ، ففى الصحيحين عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل مسلم بكافر (٣) » وأما العبد فعن السلف فى آثار متعددة : أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر ، ولايقتلون حرا بعبد ، وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح ، وحكى الشافعى الإجماع على خلاف قول الحنفية فى ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة :

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت فى ذلك ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن أبى عَدِىّ ، حدثنا حُميد ، عن أنس بن مالك : أن الرُّبَيِّع عَمّة أنس كسرت ثَنِيَّة جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو ، فأبوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : القصاص . فقال أخوها أنس بن النضر : يارسول الله ، تكسر ثنية فلانة ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأنس ، كتاب الله القصاص . قال: فقال : لا ، والذى بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية فلانة . قال : فرضى القوم ، فعفوا وتركوا القصاص ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه (٤).

أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصارى ، فى الجزء المشهور من حديثه ، عن حميد ، عن أنس بن مالك : أن الرُّبَيِّع بنت النضر عَمَّته لطمت جارية فكسرت ثنيتها ، فعرضوا عليهم الأرش ، فأبوا ، فطلبوا الأرش والعفو فأبوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم بالقصاص ، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال : يا رسول الله ، أتكسر ثنية الربيع ؟ والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أنس ، كتاب الله القصاص . فعفا القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره . رواه البخارى عن الأنصارى . فأما الحديث الذى رواه أبو داود :

---

(١) النسائى ، كتاب القسامة ، باب ذكر حديث عمرو بن حزم : ٥٨/٨ .

(٢) النسائى ، كتاب القسامة ، باب سقوط القود من المسلم للكافر : ٢٤/٨ . وابن ماجه ، كتاب الديات : الحديث ٢٦٨٣ : ٨٩٥/٢ . ومسند أحمد عن على ، رضى الله عنه : ١١٩/١ ، ١٢٢ .

(٣) البخارى ، كتاب العلم : ٣٨/١ . وكتاب الديات : ١٤/٩ .

(٤) مسند أحمد : ١٢٨/٣ .

(٥) البخارى ، كتاب الصلح : ٢٤٣/٣ . ومسلم ، كتاب القسامة : ١٠٥/٥ ، ١٠٦ .

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، عن أبي نضرة ، عن عمران بن حصين : «أن غلاما لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئا(١) » . وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه ، عن معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه، عن قتادة ، به : وهذا إسناد قوى رجاله كلهم ثقات ــ فإنه حديث مشكل ، اللهم إلا أن يقال : إن الجاني كان قبل البلوغ ، فلا قصاص عليه ، ولعله تحمل أرش مانقص من غلام الأغنياء عن الفقراء ، أو استعفاهم عنه .

وقوله تعالى : (والجروح قصاص) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح .

فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم ، رجالهم ونساؤهم ، إذا كان عمدا في النفس ومادون النفس ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمدا ، في النفس وما دون النفس ، رواه ابن (٢) جرير وابن أبي حاتم .

[قاعدة مهمة]

الجراح تارة تكون في مَفْصِل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، [و]أما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السِّنّ . وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقا ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب ، وابن عباس . وبه يقول عطاء ، والشعبي ، والحسن البصري ، والزهري ، وإبراهيم النَّخَعي ، وعمر بن عبد العزيز . وإليه ذهب سفيان الثوري ، والليث بن سعد . وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد .

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الرُّبَيِّع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن . وحديثُ الربيع لا حجة فيه ، لأنه ورد بلفظ «كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جارية» وجائز أن تكون سقطت من غير كسر ، فيجب القصاص ــ والحالة هذه ــ بالاجماع . وتمموا الدلالة . بما رواه ابن ماجه ، من طريق أبي بكر بن عَيَّاش ، عن دَهْثَم بن قُرَّان ، عن نِمْرَان بن جارية ، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي: أن رجلا ضرب رجلا على ساعده بالسيف من غير المفصل ، فقطعها ، فاستعدى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فامر له بالدية ، فقال : يا رسول الله ، أريد القصاص . فقال : خذ [الدية]، بارك الله لك فيها . ولم يقض له بالقصاص (٣) » .

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد ، وَدَهْثَم بن قُرَّان العُكْلي ضعيف أعرابي، ليس حديثه مما يحتج به ، ونمران بن جارية ضعيف أعرابي أيضاً ، وأبوه جارية بن ظفر مذكور في الصحابة .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الديات ، باب في جناية العبد يكون للفقراء ، الحديث ٤٥٩٠ : ١٩٦/٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٠٧٢ : ٣٦١/١٠ . وقد جعل المحقق من قوله : «فهذا يستوى» إلى نهاية النص ، من كلام ابن جرير .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الديات ، الحديث ٢٦٣٦ : ٨٨٠/٢ .

ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه ، فان اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه ، فلا شيء له ، والدليل على ذلك مارواه الإمام أحمد [حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، فذكر حديثا ، قال ابن إسحاق : وذكر](١) عَمْرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : « أن رجلا طعن رجلا بقرن في ركبته(٢) ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقدني . [فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعجل حتى يبرأ جرحك : قال : فأبى الرجل الا أن يستقيد] (٣) فأقاده [رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، قال : فعرج المستقيد وبرأ المستقاد منه فأتى المستقيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٣) فقال [له] : يا رسول الله ، عرجت [وبرأ صاحبي] (٣). فقال : « قد نهيتك فعصيتنى (٤) ، فأبعدك الله وبطل عرجك . ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه » . تفرد به أحمد (٥) .

[مسألة]

فلو اقتص المجنى عليه من الجاني ، فمات من القصاص ، فلا شيء عليه عند مالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال أبو حنيفة : تجب الدية في مال المقتص . وقال عامر الشعبي ، وعطاء ، وطاوس ، وعمرو بن دينار ، والحارث العُكْلي ، وابن أبي ليلى ، وحماد بن أبي سليمان ، والزهري ، والثوري : تجب الدية على عاقلة المقتص له . وقال ابن مسعود ، وإبراهيم النخعي ، والحكم بن عُتَيبة ، وعثمان البَتّي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ، ويجب الباقي في ماله .

وقوله : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (فمن تصدق به) يقول : فمن عفا عنه ، وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب ، وأجر للطالب .

وقال سفيان الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ، [قال : كفارة] للجارح ، وأجر المجروح على الله ، عز وجل . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : وروى عن خيثمة ابن عبد الرحمن ، ومجاهد ، وإبراهيم — في أحد قوليه — وعامر الشعبي ، وجابر بن زيد — نحو ذلك الوجه الثاني ، ثم قال ابن أبي حاتم .

حدثنا حماد بن زاذان ، حدثنا حرمى — يعنى ابن عمارة — حدثنا شعبة ، عن عمارة — يعنى ابن أبي حفصة — عن رجل ، عن جابر بن عبد الله ، في قول الله ، عز وجل : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ، قال : للمجروح . وروى عن الحسن البصري ، وإبراهيم النخعي — في أحد قوليه — وأبي إسحاق الهمداني ، نحو ذلك .

وروى ابن جرير ، عن عامر الشعبي وقتادة ، مثله .

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطتنا ، وهو ساقط من الطبعات كذلك ، وقد أثبتناه عن المسند ، ومكانه بياض يسع كلمتين . ويبدو أن ابن كثير قد أعجل عن اختصار السند .

(٢) في المسند : « في رجله » .

(٣) عن المسند .

(٤) نص المسند : « فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم آمرك أن لا تستقيد حتى يبرأ جرحك ، فعصيتنى ... » .

(٥) مسند أحمد : ٢١٧/٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن قيس — يعني بن مسلم — قال : سمعت طارق بن شهاب يحدث، عن الهيثم أبي (١) العريان النخعي قال : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيها بالموالي ، فسألته عن قول الله : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ، قال : يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدّق به .

وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم . وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة (٢) .

وقال ابن مَرْدُويَه : حدثني محمد بن علي ، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي ، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري ، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي ، حدثنا معلى — يعني بن هلال (٣) — أنه سمع أبان بن تغلب ، عن أبي العريان (١) الهيثم بن الأسود ، عن عبد الله بن عمرو — وعن أبان بن تغلب ، عن الشعبي ، عن رجل من الأنصار عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ، قال : هو الذي تكسر سنه ، أو تقطع يده ، أو يقطع الشيء منه ، أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك ، ، قال : فيُحَطّ عنه قدر خطاياه ، فان كان ربع الدية فربع خطاياه ، وإن كان الثلث فثلث خطاياه ، وإن كانت الدية حطت عنه خطاياه كذلك .

ثم قال ابن جرير : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة ، حدثنا ابن فضيل ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السَّفَر قال : «دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار ، فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصاري إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك . قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم يصاب بشيء في جسده ، فيهبه ، إلا رفعه الله به درجة ، وحط عنه به خطيئة . فقال الأنصاري : أنت سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي . فخلى سبيل القرشي ، فقال معاوية : مروا له بمال» .

هكذا رواه ابن جرير (٤) ، ورواه الإمام أحمد فقال :

حدثنا وكيع ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السَّفَر قال : كسر رجل من قريش سِنّ رجل من الأنصار ، فاستعدى (٥) عليه معاوية ، فقال [القرشيّ : إن هذا دقّ سِنّي ؟ (٦)] قال : معاوية : إنا سنرضيه (٧). فألح الأنصاري ، فقال معاوية : شأنك بصاحبك ، وأبو الدرداء جالس ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) في مخطوطة الأزهر : «الهيثم بن العريان» وهو خطأ ، والمثبت عن تفسير الطبري ، والتهذيب ١١/٨٩ ، واسمه : الهيثم بن الأسود النخعي المذحجي ، وأبو العريان كنيته .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٠٨٥ : ١٠/٣٦٥ .

(٣) في المخطوطة : «ابن بلال» وهو خطأ . ينظر الجرح لابن أبي حاتم : ٤/١/٣٣١ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٠٨٠ : ١٠/٣٦٤ .

(٥) أي : استغاث بمعاوية على الرجل .

(٦) سقط من المخطوطة ، والمثبت عن المسند . والصواب أن يقال : «فقال الأنصاري : إن هذا دق سني» . وفي تحفة الأحوذي : «فقال لمعاوية ، يا أمير المؤمنين ، إن هذا دق سني» .

(٧) كذا ، ومثله في المسند . وفي تحفة الأحوذي : «فقال معاوية : إنا سنرضيك» .

« ما من مسلم يصاب بشيء في جسده ، فيتصدق به ، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة . فقال الأنصاري (١) : فإني . يعني قد عفوت .

وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك ، وابن ماجه من حديث وكيع ، كلاهما عن يونس بن أبي إسحاق ، به . ثم قال الترمذي : غريب [لا نعرفه إلا] من هذا الوجه ، ولا أعرف لأبي السَّفَر سماعا من أبي الدرداء (٢).

وقال ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد ، حدثنا محمد بن علي بن زيد ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا سفيان ، عن عمران بن ظبيان ، عن عدي بن ثابت : « أن رجلا هَتَمَ فمه (٣) رجل،على عهد معاوية ، رضي الله عنه ، فأُعْطِي دية ، فأبى إلا أن يقتص ، فأعطي ديتين ، فأبى ، فأعطى ثلاثا ، فأبى . فحدث رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من تصدق بدم فما دونه ، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا هشيم ، عن المغيرة ، عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مامن رجل يجرح من جسده جراحة ، فيتصدق بها ، إلا كفر الله عنه مثل ماتصدق به (٤).

ورواه النسائي ، عن علي بن حجر ، عن جرير بن عبد الحميد — ورواه ابن (٥) جرير ، عن محمود بن خداش ، عن هشيم — كلاهما عن المغيرة ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن مجالد ، عن عامر ، عن المحرَّر بن أبي هريرة ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصيب بشيء من جسده ، فتركه لله ، كان كفارة له (٦) » .

وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ، قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا : كُفْر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

---

(١) لفظ المسند : « أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، يعني فعفا عنه » .

(٢) مسند أحمد : ٦/ ٤٤٨ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الديات : ٤/٦٥٠ ، وابن ماجه ، كتاب الديات ، الحديث ٢٦٩٣ : ٢-٨٩٨ .

(٣) هتم فاه : ألقى مقدم أسنانه ، ومثله : أهتم ، بالهمز .

(٤) مسند أحمد : ٥/٣١٦ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٠٨١ : ١٠/٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٦) مسند أحمد : ٥/٤١٢ .

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: (وقفينا) ، أى : اتبعنا (على آثارهم) يعنى: أنبياء بنى إسرائيل (بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة) ، أى : مؤمنا بها حاكما بما فيها (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) ، أى : هدى إلى الحق ، ونور يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات : (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) ، أى : متبعا لها ، غير مخالف لما فيها ، إلا فى القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) : ولهذا كان المشهور من قولى العلماء أن الإنجيل نسخ بَعْضَ أحكام التوراة .

وقوله : (وهدى وموعظة للمتقين) ، أى : وجعلنا الإنجيل (هُدًى) يهتدى به ، (وموعظة) أى : وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم (للمتقين) ، أى : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) ، قُرِئ (وَلِيَحْكُمَ) بالنصب ، على أن اللام لام كى ، أى : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم . وقرئ (وَلْيَحْكُمْ) بالجزم واللام لام الأمر ، [أى : ليؤمنوا بجميع مافيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، ومما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر] باتباعه وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : (قل : يا أهل الكتاب ، لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) ... الآية : وقال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة) ... إلى قوله : (المفلحون) ، ولهذا قال هاهنا : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) ، أى : الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق . وقد تقدم أن هذه الآية نزلت فى النصارى ، وهو ظاهر السياق .

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها الله على موسى كليمه ، ومدحها وأثنى عليها ، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ومدحه ، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، كما تقدم بيانه ــ شرع تعالى فى ذكر القرآن العظيم ،

الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم ، فقال : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) ، أى : بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله ، (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) ، أى : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكْرَه ومَدْحَه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه سلم ، فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقا عند حامليها من ذوى البصائر ، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا (١) ، أى : إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين ، من مجيء محمد عليه السلام (لمفعولا) ، أى : لكائنا لا محالة ولا بد (٢) .

وقوله : (ومهيمنا عليه) ، قال سفيان الثورى وغيره ، عن أبي إسحاق ، عن التميمى ، عن ابن عباس ، أى : مؤتمنا عليه (٣) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : المهيمن : الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله (٤) .

وروى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وعطية ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى والسدى ، وابن زيد ، نحو ذلك .

وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل .

وعن الوالبى ، عن ابن عباس : (ومهيمنا) ، أى : شهيدا . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى .

وقال العوفى عن ابن عباس : (ومهيمنا) ، أى : حاكما على ما قبله من الكتب .

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فان اسم « المهيمن » يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم ، الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها ، أشملها وأعظمها وأحكمها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكما عليها كلها . وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء الخراسانى ، وابن أبي نجيح عن مجاهد : أنهم قالوا فى قوله : (ومهيمنا عليه) ، يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم ــ أمين على القرآن، فانه صحيح فى المعنى ، ولكن فى تفسير هذا بهذا نظر ، وفى تنزيله عليه من حيث العربية أيضا نظر . وبالجملة فالصحيح الأول ، قال أبو جعفر بن جرير ، بعد حكايته له عن مجاهد : « وهذا التأويل بعيد من المفهوم فى كلام العرب ، بل هو خطأ . وذلك أن « المهيمن » عطف

---

(١) الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) ما من كتاب أنزله الله ــ عز وجل ــ إلا وهو مصدق لما نزل قبله ، فالتوراة نزلت مصدقة لما فى صحف إبراهيم ، والإنجيل نزل مصدقاً لما فى التوراة ، والقرآن نزل مصدقاً لما نزل من السماء ، من الكتب والصحف . والمراد بالتصديق هنا هو الإقرار بأنها من عند الله ، لا أن كل ما انتهى إلينا منها حق . فقد دخل على الكتب السابقة من التصحيف والتحريف ما جعل الحق يلتبس فيها بالباطل ، ومن أجل ذلك أضيف إلى القرآن مع التصديق وصف آخر ، وهو الهيمنة ، ومعناها : أن القرآن أمين على سائر ما نزل من الكتب ، فيقر منها ما هو حق ، وينكر منها ما هو باطل .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٠٧ : ١٠/٣٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٢١١٤ : ١٠/٣٧٩ .

على « المصدق »، فلا يكون إلا من صفة ما كان « المصدّق » صفة له . قال : ولو كان كما قال مجاهد (١) لقال : « وأنزلنا إليك الكتاب مُصَدّقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه » . يعنى (٢) من غير عطف .

وقوله : (فاحكم بينهم بما أنزل الله) ، أى : فاحكم يا محمد بين الناس : عرَبهم وعجمهم ، أمّيهم وكتابيهم ، (بما أنزل الله) إليك فى هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك . هكذا وجهه ابن جرير بمعناه (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان بن حسين ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم مخيراً ، إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما فى كتابنا » .

وقوله : (ولا تتبع أهواءهم) ، أى : آراءهم التى اصطلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله . ولهذا قال : (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) ، أى : لا تتصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء .

وقوله : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن يوسف بن أبى إسحاق ، عن أبيه ، عن التميمى ، عن ابن عباس : (لكل جعلنا منكم شرعة) قال : سبيلا .

وحدثنا أبو سعيد ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن التميمى ، عن ابن عباس : (ومنهاجا) ، قال : وسنة .

وكذا روى العوفى ، عن ابن عباس : (شرْعة ومنهاجا) : سبيلا وسنة .

وكذا رُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن البصرى ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وأبى إسحاق السبيعى أنهم قالوا فى قوله : (شرعة ومنهاجا) ، أى : سبيلا وسنة .

وعن ابن عباس ومجاهد أيضا وعطاء الخراسانى عكسه : (شرعة ومنهاجا) ، [أى : سنة وسبيلا . والأول أنسب ، فان الشرعة] وهى الشريعة أيضا ، هى ما يبتدأ فيه إلى الشيء . ومنه يقال : « شرع فى كذا » أى : ابتدأ فيه . وكذا الشريعة وهى ما يشرع [منها] إلى الماء . أما « المنهاج » فهو الطريق الواضح السهل ، والسنن الطرائق . فتفسير قوله : (شرعة ومنهاجا) بالسبيل والسنة أظهر فى المناسبة من العكس ، والله أعلم .

---

(١) نص الطبرى ٣٨١/١٠ : « ولو كان معنى الكلام ما روى عن مجاهد لقيل ... » .

(٢) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٥٠٢/٣ : « قال الطبرى : نعلى هذا يكون (مهيمناً) حالا من الكاف فى (إليك) ، وطعن فى هذا القول لوجود « الواو » فى (ومهيمنا) لأنها عطف على (مصدقا) و (مصدقا) حال من (الكتاب) لا من « الكاف » ؛ إذ لو كان حالا منها لكان التركيب : « لما بين يديك » بكاف الخطاب » . وهذا معنى قول ابن جرير الآى لم ينقله ابن كثير ، قال : « لأنه لم يتقدم من صفة « الكاف » التى فى (إليك) بعدها شيء سيكون (مهيمنا) عطفا عليه » .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٨٢/١٠ .

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان ، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام ، المتفقة فى التوحيد ، كما ثبت فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد (١)» . يعنى بذلك التوحيد ، الذى بعث الله به كل رسول أرسله ، وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢) ، وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٣) ... الآية . وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى ، فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حراما ثم يحل فى الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وخفيفا فيزاد فى الشدة فى هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

قال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة : قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ، يقول : سبيلا وسنة : والسنن مختلفة : هى فى التوراة شريعة(٤) ، وفى الإنجيل شريعة ، وفى الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ، ويحرم ما يشاء(٥)، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين (٦) الذى لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله ، الذى جاءت به الرسل .

وقيل : المخاطب بهذا هذه الأمة ، ومعناه : (لكل جعلنا) القرآن (منكم) أيتها الأمة (شرعة ومنهاجا) . أى : هو لكم كلكم ، تقتدون به . وحُذف الضمير المنصوب فى قوله : (لكل جعلنا منكم) ، أى : جعلناه ، يعنى القرآن ، (شرعة ومنهاجا) ، أى : سبيلا إلى المقاصد الصحيحة ، وسنة أى : طريقا ومسلكا واضحا بينا .

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد(٧) رحمه الله ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة (، فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) [وهم أمة واحدة] ، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم ، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التى لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ، لا ينسخ شىء منها . ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرْعةً على حدةٍ ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ، ولهذا قال تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) ، أى : أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ، ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله :

---

(١) ينظر : ٢٧٠/١ .
(٢) الأنبياء : ٢٥ .
(٣) النحل : ٣٦ .
(٤) نص الطبرى ، الأثر ١٢١٢٦ : « التوراة شريعة » .
(٥) نص الطبرى : « ويحرم ما يشاء ابتلاء » .
(٦) نص الطبرى : « ولكن الدين الواحد الذى ... » .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٢٩ : ٣٨٦/١٠ .

وقال عبد الله بن كثير : (فيما آتاكم) ، يعني : من الكتاب (١) .

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها ، فقال : (فاستبقوا الخيرات) ، وهي طاعة الله واتباع شرعه ، الذي جعله ناسخاً لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله .

ثم قال تعالى : (إلى الله مرجعكم جميعاً) ، أي : معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ، أي : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق ، فيجزي الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق ، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة ، والأدلة الدامغة .

وقال الضحاك : (فاستبقوا الخيرات) ، يعني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والأظهر الأول .

وقوله : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) ، تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، والنهي عن خلافه .

ثم قال : (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) ، أي : احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما يُنْهُونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم ، فإنهم كَذَبة كَفَرة خَوَنة . (فإن تولوا) ، أي : عما تحكم به بينهم من الحق ، وخالفوا شرع الله (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) ، أي : فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة ، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم . (وإن كثيراً من الناس لفاسقون) أي : أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم ، مخالفون للحق ناءون عنه ، كما قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (٢) . وقال تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) (٣) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد ، وابن صلوبا (٤) ، وعبد الله بن صوريا ، وشأس بن قيس ، بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ! فأتوه ، فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة (٥) ، فنحاكمهم إليك ، فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك ! فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل فيهم : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) .. إلى قوله : (لقوم يوقنون) .

رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وقوله : (أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) ، ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التي وضعها

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر : ١٢١٤٨ : ١٠/٣٩٠ .
(٢) يوسف : ١٠٣ .
(٣) الأنعام : ١١٦ .
(٤) كذا في مخطوطتنا ، ومثله في سيرة ابن هشام : ١/٥٦٧ . وفي تفسير الطبري ، الأثر ١٢١٥٠ : ١٠/٣٩٣ : « ابن صوريا » .
(٥) في المخطوطة : « حكومة » . والمثبت من المرجعين السابقين .

الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذى وضع لهم اليَسَاق(١)، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير ، قال الله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون) أى يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون . (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ، أى : ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عَقَل عن الله شرعه ، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل فى كل شيء .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هلال بن فياض ، حدثنا أبو عبيدة الناجى ، قال : سمعت الحسن يقول : من حكم بغير حكم الله ، فحكم الجاهلية .

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أبى نجيح قال: كان طاوس إذا سأله رجل : أفضّل بين ولدى فى النّحل؟ قرأ : (أفحكم الجاهلية يبغون) ... الآية .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب بن أبى حمزة ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين ، عن نافع بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبغض الناس إلى الله عز وجل مبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه » . وروى البخارى ، عن أبى اليمان باسناده ، نحوه : (٢)

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله ، [قاتلهم الله] ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : (ومن يتولهم منكم فانه منهم) .

---

(١) فى المخطوطة : « الياسق » . والمثبت عن مستدرج تاج العروس ، ففيه : « يساق كسحاب . وربما قيل : يسق ، بحذف الألف ، والأصل فيه : يساغ ، بالغين المعجمة ، وربما خفف فحذف ، وربما قلب قافاً . وهى كلمة تركية ، يعبر بها عن وضع قانون المعاملة ، كذا ذكره غير واحد » ، ثم نقل الزبيدى فى ذلك نقلا عن المقريزى من كتابه الخطط ، ذكر فيه بعضا من شريعة اليساق هذا .

(٢) البخارى ، كتاب الديات : ٩/٧ .

[قال(١) ابن أبي حاتم] حدثنا كثير بن شهاب ، حدثنا محمد ــ يعني ابن سعيد بن سابق ــ حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن سماك بن حرب ، عن عياض : أن عمر أمر أبا موسى الأشعرى أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى فى أديم واحد ، وكان له كاتب نصرانى ، فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر وقال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارىء لنا كتابا فى المسجد جاء من الشام ؟ فقال : إنه لا يستطيع . فقال عمر : أجُنُبٌ هو ؟ قال : لا ، بل نصرانى . قال : فانتهرنى وضرب فخذى ، ثم قال : أخرجوه ، ثم قرأ : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ... الآية .

ثم قال الحسن بن محمد بن الصباح : حدثنا عثمان بن عمر ، أنبانا ابن عون ، عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا ، وهو لا يشعر . قال : فظنناه يريد هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ... الآية .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، عن عاصم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، فقال : كل ، قال الله تعالى : (ومن يتولهم منكم فانه منهم) .

وروى عن أبى الزناد ، نحو ذلك .

وقوله : (فترى الذين فى قلوبهم مرض) ، أى : شك ، وريب ، ونفاق (يسارعون فيهم) ، أى : يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم فى الباطن والظاهر ، (يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة) ، أى : يتأولون فى مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى ، فينفعهم ذلك ، عند ذلك قال الله تعالى : (فعسى الله أن يأتى بالفتح) ، قال السدى : يعنى فتح مكة . وقال غيره : يعنى القضاء والفصل (أو أمر من عنده) ، قال السدى : يعنى ضرب الجزية على اليهود والنصارى (فيصبحوا) ، يعنى : الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين (على ما أسروا فى أنفسهم) من الموالاة (نادمين) ، أى : على ما كان منهم ، مما لم يُجْدِ عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذوراً ، بل كان عين المفسدة ، فانهم فضحوا وأظهر الله أمرهم فى الدنيا لعباده المؤمنين ، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم . فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم ، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون ، فبان كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال تعالى : (ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) .

وقد اختلف القراء فى هذا الحرف ، فقرأه الجمهور باثبات الواو فى قوله : (ويقول الذين) ، ثم منهم من رفع (ويقول) على الابتداء ، ومنهم من نصب عطفا على قوله : (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده) ، تقديره « أن يأتى » « وأن يقول » . وقرأ أهل المدينة : (يقول الذين آمنوا) بغير واو ، وكذلك هو فى مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير ، قال ابن جريج ، عن مجاهد : (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده) ، حينئذ ، (يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (٢)) .

---

(١) مكانه بياض فى مخطوطة الأزهر ، والمثبت من المطبوعات ، وكثير بن شهاب المذحجى يروى عنه ابن أبى حاتم ، ينظر الجرح : ١٥٣/٢/٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٧٦ : ٤٠٧/١٠ .

واختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السدّى أنها نزلت فى رجلين ، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فانى ذاهب إلى ذلك اليهودى ، فآوى إليه وأتهود معه ، لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر : وأما أنا فأذهب إلى فلان النصرانى بالشام ، فآوى إليه وأتنصر معه . فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ... الآيات .

وقال عكرمة : نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة ، فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أى : إنه الذبح . رواه ابن جرير (١) .

وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول ، كما قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس قال : سمعت أبى ، عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت ، من بنى الخزرج ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن لى موالى من يهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالىّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى : يا أبا الحباب ، ما بَخِلْتَ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه . قال : قد قبلت ! فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذو اليهود والنصارى أولياء) ... إلى قوله : (فترى الذين فى قلوبهم مرض) .

ثم قال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بُكَيْر ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن ، عن الزهرى قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ! فقال مالك بن الصيف : أغركم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال !! أما لو أمْرَرْنا (٢) العزيمة أن نستجمع عليكم ،لم يكن لكم يَدٌ بقتالنا (٣) . فقال عبادة : يا رسول الله ، إن أوليائى من اليهود كانت شديدةً أنفسهم ، كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لى إلا الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبى : لكنى لا أبرأ من ولاء يهود ، أنا رجل لا بد لى منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحباب ، أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه ؟ فقال : إذاً أقبلُ ! قال : فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) إلى قوله : (والله يعصمك من الناس) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٦٠ : ٣٩٨/١٠ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٥٧ : ٣٩٦/١٠ . ومعنى أمررنا العزيمة : أجمعناها . من قولهم « أمر الحبل يمره إمراراً » : فتله فتلا قويا محكما . وكان فى الطبعات السابقة : « أسررنا العزيمة » وهو خطأ .

(٣) فى مخطوطة الأزهر : « يد بقتالنا » فأثبتناه « يد » بالياء المثناه ، ومعناه : لم يكن لكم قدرة على قتالنا . وفى تفسير الطبرى : « لم يكن لكم يد أن تقاتلونا » .

وقال محمد بن إسحاق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم [بنو قينقاع (١) : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال : فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم] حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في مَوَالِيّ : وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلني . وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رُئي (٢) لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك أرسلني . قال : لا ، والله لا أرسلك حتى تحسن في مَوَالِيّ ، أربعمائة حاسر (٣) ، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم (٤) في غداة واحدة ؟ ! إني امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هُم لك » .

قال محمد ابن إسحاق : فحدثني أبي إسحاق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبي ، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض)... إلى قوله : (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن [سعيد] ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عروة ، عن أسامة بن زيد قال : « دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي نعوده ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قد كنت أنهاك عن حُبِّ يهود . فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة ، فمات (٦) » .

وكذا رواه أبو داود ، من حديث محمد بن إسحاق . (٧) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٧/٢ .

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف ١٢١/٢ : « ظللا : جمع ظلة ، والظلة ما حجب منك ضوء الشمس وصحو السماء ، وكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرقاً بساماً ، فإذا غضب تلون ألوانا ، فكانت تلك الألوان حائلة دون الإشراق والطلاقة والضياء المنتشر عند تبسمه » وذكر السهيلي رواية أخرى في هذه الكلمة ، وهي : « حتى رأوا لوجهه ظلالا ، وقال إنه جمع ظلة أيضاً .

(٣) الحاسر : الذى لا درع له ، والدارع : الذى عليه الدرع .

(٤) في المخطوطة : « يحصدني » والمثبت من سيرة ابن هشام : ٤٨/٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢١٥٨ : ٣٩٦/١٠ ، ٣٩٧ . وسيرة ابن هشام : ٤٩/٢ ، ٥٠ .

(٦) مسند أحمد : ٢٠١/٥ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، باب في العيادة ، الحديث : ٣٠٩٤ : ١٨٤/٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فان الله يستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلا ، كما قال تعالى : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (١) ، وقال تعالى : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) (٢) ، وقال تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد : وما ذلك على الله بعزيز) (٣) ، أى : بممتنع ولا صعب .وقال تعالى هاهنا : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) ، أى: يرجع عن الحق إلى الباطل.

قال محمد بن كعب : نزلت فى الولاة من قريش . وقال الحسن البصرى : نزلت فى أهل الردة أيام أبى بكر .

(فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) ، [قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . رواه ابن أبى حاتم .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة :سمعت أبا بكر بن عياش يقول فى قوله : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه)] : هم أهل القادسية . وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : هم قوم من سبأ.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله ابن الأجلح ، عن محمد بن عمرو ، عن سالم ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قوله : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) ، قال : ناس من أهل اليمن ، ثم من كندة ، ثم من السكون (٤) .

وحدثنا أبى ، حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا معاوية — يعنى ابن حفص — عن أبى زياد الحلفانى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (فسوف يأتى بقوم يحبهم ويحبونه) ، قال : هؤلاء قوم من أهل اليمن ، ثم من كندة ، ثم من السكون ، ثم من تجيب » .

وهذا حديث غريب جداً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا عبد الصمد — يعنى ابن عبد الوارث — حدثنا شعبة ، عن سماك ، سمعت عياضا يحدث عن الأشعرى قال : لما نزلت : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم قوم هذا . ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه (٥) .

---

(١) محمد : ٣٨ .

(٢) النساء : ١٣٣ .

(٣) إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) السكون هو ابن أشرس بن كندة ، ومن بطون السكون : بنو عدى وبنو سعد ابنى أشرس بن شبيب بن السكون ، أمهما تجيب بنت ثوبان من مذحج ، نسبوا إليها . ينظر جمهرة أنساب العرب : ٤٠٣ .

(٥) تفسير الطبرى ، الآثار : ١٢١٨٨–١٢١٩٢ : ١٠/٤١٤ ، ٤١٥ .

وقوله تعالى : (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) ، هذه صفات المؤمنين الكُمَّل ، أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه ، متعززا على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وفى صفة النبى صلى الله عليه وسلم أنه : « الضحوك القتال » ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه .

وقوله : (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ، أى : لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وقتال أعدائه ، وإقامة الحدود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عدل عاذل .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا سلام أبو المنذر ، عن محمد بن واسع ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبى ذر قال : « أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع ، أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ، ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن لا أسأل أحدا شيئاً ، وأمرنى أن أقول الحق(١) وإن كان مرا ، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش (٢) » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان عن أبى المثنى(٣) أن أبا ذر قال : بايعنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خمسا وواثقنى(٤) سبعا ، وأشهد الله على تسعا ، أنى(٥) لا أخاف فى الله لومة لائم . قال(٦) أبو ذر : فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لك إلى بيعة ولك الجنة ؟ قلت : نعم ، قال : وبسطت يدى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يشترط : على أن لا تسأل الناس شيئا ؟ قلت : نعم . قال : ولا سوطك وإن(٧) سقط منك . حتى تنزل إليه فتأخذه (٨) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن الحسن ، حدثنا جعفر ، عن المعلى القُرْدوسى ، عن الحسن ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا يمنعن أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يُباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم » تفرد به أحمد (٩) .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن زبيد ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البختري ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ، فلا يقول فيه ،

---

(١) فى المسند : « بالحق » .
(٢) مسند أحمد : ٥/١٥٩ . وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر عن أبى ذر ، ينظر : ٥/١٧٣ .
(٣) فى المسند : « حدثنا صفوان عن أبى اليمان وأبى المثنى » فاختصر ابن كثير السند .
(٤) فى المسند : « وأوثقنى » .
(٥) فى المسند : « أن لا ... » .
(٦) قبله فى المسند : « ثم قال أبو المثنى » .
(٧) نص المسند : « ولا سوطك إن يسقط منك ، حتى تنزل إليه فتأخذه » .
(٨) مسند أحمد : ٥/١٧٢ .
(٩) مسند أحمد : ٣/٥٠ .

فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس . فيقول : إياى أحق أن تخاف (١) » .

ورواه ابن ماجه (٢) من حديث الأعمش ، عن عَمْرو بن مرة ، به .

وروى أحمد وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبى طُوَالة ، عن نَهار بن عبد الله العبدى المدنى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله يقول له : أىْ عبدى ، رأيت منكرا فلم تنكره ؟ فاذا لَقَّنَ الله عبدا حجته ، قال : أىْ رب ، وثقت بك وخفت الناس (٣) » .

وثبت فى الصحيح : « ما ينبغى لمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذلّ نفسه يا رسول الله ؟ قال : يتحمل من البلاء مالا يطيق (٤) » .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) ، أى : من اتصف بهذه الصفات ، فانما هو من فضل الله عليه ، وتوفيقه له . (والله واسع عليم) ، أى واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يَحْرِمه إياه .

وقوله : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) ، أى : ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين .

وقوله : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ، أى : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام ، وهى له وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين .

وأما قوله : (وهم راكعون) ، فقد توهم بعضهم أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله : (ويؤتون الزكاة) ، أى : فى [حال] ركوعهم . ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره ، لأنه ممدوح . وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن على بن أبى طالب : أن هذه الآية نزلت فيه : أنه مر به سائل فى حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان المرادى ، حدثنا أيوب بن سويد ، عن عتبة بن أبى حكيم فى قوله : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) قال : « هم المؤمنون وعلى بن أبى طالب » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا الفضل بن دكين أبو نعيم الأحول ، حدثنا موسى بن قيس الحضرمى ، عن سلمة ابن كهيل قال : تصدق على بخاتمه وهو راكع ، فنزلت : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

---

(١) مسند أحمد : ٧٣/٣ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، الحديث ٤٠٠٨ : ١٣٢٨/٢ .

(٣) مسند أحمد : ٧٧/٣ . وسنن ابن ماجة ، كتاب الفتن ، الحديث ٤٠١٧ : ١٣٣٢/٢ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، الحديث ٤٠١٦ : ١٣٣١/٢ ، ١٣٣٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن : ٥٣١/٦ ، ومسند أحمد عن حذيفة : ٤٠٥/٥ .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا غالب بن عبيد الله ، سمعت مجاهدا يقول في قوله : (إنما وليكم الله ورسوله) ... الآية : نزلت في علي بن أبي طالب ، تصدق وهو راكع (١) .

وقال عبد الرزاق : حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله : (إنما وليكم الله ورسوله) ... الآية : نزلت في علي بن أبي طالب .

عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به .

وروى ابن مَرْدُويه ، من طريق سفيان الثوري ، عن أبي سنان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان علي ابن أبي طالب قائما يصلي ، فمر سائل وهو راكع ، فأعطاه خاتمه ، فنزلت : (إنما وليكم الله ورسوله) ... الآية .

الضحاك لم يلق ابن عباس .

وروى ابن مَرْدويه أيضا من طريق محمد بن السائب الكلبي — وهو متروك — عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، والناس يصلون ، بين راكع وساجد وقائم وقاعد ، وإذا مسكين يسأل ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أعطاك أحد شيئاً ؟ قال : نعم . قال : من ؟ قال : ذلك الرجل القائم . قال : على أي حال أعطاكه ؟ قال : وهو راكع ، قال : وذلك علي بن أبي طالب قال : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وهو يقول : (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فان حزب الله هم الغالبون) .

وهذا إسناد لا يفرح به .

ثم رواه ابن مردويه ، من حديث علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، نفسه ، وعمار بن ياسر ، وأبي رافع . وليس يصح شيء منها بالكلية ، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها . ثم روى بسنده ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس في قوله : (إنما وليكم الله ورسوله) : نزلت في المؤمنين ، وعلي بن أبي طالب أولهم .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا عبدة ، عن عبد الملك ، عن أبي جعفر قال : سألته عن هذه : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون [قلنا : من الذين آمنوا ؟] قال : الذين آمنوا ! قلنا : بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب ! قال : علي من الذين آمنوا (٢) .

وقال أسباط ، عن السدي : نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين ، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راكع في المسجد ، فأعطاه خاتمه (٣) .

وقال علي بن أبي طلحة الوالبي ، عن ابن عباس : من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا . رواه ابن جرير .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٢١٤ : ٤٢٦/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٢١١ : ٤٢٥/١٠ ، ٤٢٦ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٢١٠ : ٤٢٥/١٠ .

وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردنا أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، حين تبرأ من حلف يَهُود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) ، كما قال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، إلا أن حزب الله هم المفلحون (١) .

فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله ، من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهى شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى ، يتخذونها « هزوا » يستهزئون بها ، « ولعبا » يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل(٢) :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً ٭ وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وقوله : (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار) « من » ها هنا لبيان الجنس ، كقوله : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقرأ بعضهم (والكفار) بالخفض(٣) عطفاً ، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) تقديره : « ولا الكفار أولياء » ، أى : لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء .

والمراد بالكفار ها هنا المشركون ، وكذلك وقع فى قراءة ابن مسعود ، فيما رواه ابن جرير : (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا (٤) .

---

(١) المجادلة : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) هو أبو الطيب المتنبى

(٣) نسب ابن جرير هذه القراءة إلى جماعة من أهل الحجاز والبصرة والكوفة ، أما قراءة النصب فقال إنها قراءة عامة أهل المدينة والكوفة . ينظر تفسير الطبرى : ١٠/٤٣١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢١٧ : ١٠/٤٣٠ .

وقوله : (واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ، أى : اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ـ (إن كنتم مؤمنين) بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا ، كما قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير (١)) .

وقوله : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوا ولعبا) : أى : وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التى هى أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب (اتخذوها) أيضا (هُزُوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) معَانىَ عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذى إذا سمع الأذان أدبر وله حُصَاص ـ أى : ضراط ، حتى لا يسمع التأذين، فاذا قضى التأذين أقبل ، فاذا ثوب بالصلاة أدبر ، فاذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر ، حتى يظل الرجل إن يدرى (٢) كم صلى ، فاذا وجد أحدكم ذلك ، فليسجد سجدتين قبل السلام » ، متفق عليه (٣) .

وقال الزهرى : قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) رواه ابن أبى حاتم .

وقال أسباط ، عن السدى ، فى قوله : (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) ، قال : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى : « أشهد أن محمداً رسول الله » قال : « حُرّق الكاذب ! فدخلت خادمة ليلة من الليالى بنار وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله .

رواه ابن (٤) جرير وابن أبى حاتم .

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ، ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن ، وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه . وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، لو تكلمتُ لأخبرت عنى هذه الحصى . فخرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد علمتُ الذى قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبى محذورة : أن عبد الله بن مُحَيْرِيز أخبره ـ وكان يتيما فى حجر أبى محذورة ـ قال قلت لأبى محذورة : يا عم ، إنى خارج إلى الشام،

---

(١) آل عمران : ٢٨ . وينظر : ٢٣/٢ .

(٢) إن : نافية ، أى : لا يدرى كم صلى .

(٣) البخارى ، كتاب الأذان ، باب فضل التأذين : ١٥٨/١ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه : ٢/٥ ، ٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب رفع الصوت بالأذان ، الحديث رقم ٥١٦ / ١٤٢/١ ، والنسائى ، كتاب الأذان ، باب فضل التأذين : ٢١/٢ . ومسند أحمد عن أبى هريرة : ٣١٣/٢ ، ٣٩٨ ، ٤٨٣ ، ٥٠٣ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢١٨ : ٤٣٢/١٠ .

(٥) سيرة ابن هشام : ٤١٣/٢ .

وأخشى أن أُسأل عن تأذينك : فأخبرنى أن أبا محذورة قال له : نعم خرجت فى نفر ، وكنا ببعض طريق حنين ، مقفل(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين ، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق ، فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون ، فصرخنا نحكيه ونستهزىء به ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [الصوت] (٢) فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم الذى سمعتُ صوته قد ارتفع ؟ فأشار القوم كلهم إلىّ ، وصدقوا ، فأرسل كلَّهم وحبسنى . وقال : قم فأذّن [بالصلاة] (٢) : فقمت ولا شىء أكره إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا مما يأمرنى به ، فقمت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقى على(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو بنفسه ، قال : قل : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، [ثم قال لى : ارجع فامدد من صوتك : ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله] (٤) حَىّ على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعانى حين قضيت التأذين ، فأعطانى صرة فيها شىء من فضة ، ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة ، ثم أمرّها (٥) على وجهه ، ثم بين ثدييه ، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم سرة أبى محذورة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيك وبارك عليك . فقلت : يا رسول الله ، مُرْنى بالتأذين بمكة . فقال : قد أمرتك به : وذهب كل شىء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهة ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدمتُ على عتَّاب ابن أسيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم [بمكة](٦) فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبرنى ذلك من أدركت من أهلى ممن أدرك أبا محذورة ، على نحو ما أخبرنى عبد الله بن محيريز (٧) » .

[هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم(٨) فى صحيحه ، وأهل السنن الأربعة من طريق ، عن عبد الله بن مُحَيْريز] ، عن أبى محذورة — واسمه : سمرة بن مِعْيَر بن لوذان — أحد مؤذنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأربعة ، وهو مؤذن أهل مكة ، وامتدت أيامه ، رضى الله عنه وأرضاه .

---

(١) فى المسند : « فقفل رسول الله ... » .

(٢) من المسند .

(٣) فى المسند : « فألقى إلى » .

(٤) سقط من مخطوطة الأزهر ، وأثبتناه من المسند . وهو سقط نظر .

(٥) نص المسند : « ثم أمرها على وجهه مرتين ، ثم مرتين على يديه (كذا ويبدو أنه : على ثدييه) ثم على كبده ، ثم بلغت يد رسول الله ... » .

(٦) من المسند .

(٧) مسند أحمد : ٣/٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٨) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب صفة الأذان : ٢/٣ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب ماجاء فى الترجيع فى الأذان : ١/٥٦٨/٥٧٢ ، وابن ماجه ، كتاب الأذان ، باب الترجيع فى الأذان ، الحديث ٧٠٨ : ١/٢٣٤ ، وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب كيف الأذان ، الحديث ٥٠٣ : ١/١٣٧ . والنسائى ، كتاب الأذان ، باب كيف الأذان : ٢/٤ ، ٥ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من أهل الكتاب : (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) ، أى : هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة ، ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، كما فى قوله : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) (١) ، وكقوله : (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) (٢) . وفى الحديث المتفق عليه : « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله (٣) » .

وقوله : (وأن أكثركم فاسقون) معطوف على (أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) ، أى : وآمنا بأن أكثركم فاسقون ، أى : خارجون عن الطريق المستقيم .

ثم قال : (قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) ، أى : هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات القصيرة : فقوله : (من لعنه الله) ، أى : أبعده من رحمته (وغضب عليه) ، أى : غضبا لا يرضى بعده أبدا ، (وجعل منهم القردة والخنازير) ، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة (٤) ، وكما سيأتى إيضاحه فى سورة الأعراف . (٥) .

---

(١) البروج : ٨ .
(٢) التوبة : ٧٤ .
(٣) البخارى ، كتاب الزكاة : ١٥١/٢ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب فى تقديم الزكاة ومنعها : ٦٨/٣ . وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب فى تعجيل الزكاة ، الحديث ١٦٢٣ : ١٥/٢ . ومسند أحمد عن أبى هريرة : ٣٢٢/٢ .
هذا ، وابن جميل مذكور فى الصحابة بكنيته ، ولم يذكر له ابن الأثير فى ترجمته غير هذا الحديث من مسلم ، ينظر أسد الغابة الوهبية : ٣٢٥/٥ .
(٤) آية : ٦٥ ، ينظر : ١٥٣/١٥٠/١ .
(٥) آية : ١٦٦ .

وقد قال سفيان الثورى ، عن علقمة بن مرثد ، عن المغيرة بن عبد الله ، عن المعرور بن سويد ، عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير : أهي مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يهلك قوما — أو قال : لم يمسخ قوما — فيجعل لهم نسلا ولا عقبا ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » .

وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثورى ومسعر كلاهما ، عن مغيرة (١) بن عبد الله اليشكرى ، به :

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا داود بن أبى الفرات ، عن محمد بن زيد ، عن أبى الأعين العبدى عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير ، أهي من نسل اليهود ؟ فقال : لا ، إن الله لم يلعن قوما فيمسخهم فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم ، جعلهم مثلهم.»

ورواه أحمد (٢) من حديث داود بن أبى الفرات ، به .

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقى ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا الحسن بن محبوب ، حدثنا عبد العزيز ابن المختار ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحيات مسخ الجن ، كما مسخت القردة والخنازير » .

هذا حديث غريب جدا .

وقوله : (وعَبَدَ الطاغوت) ، وقرىء : (وعَبَدَ الطاغوت) على أنه فعل ماض ، « والطاغوت » منصوب به : أى : وجعل منهم من عبد الطاغوت . وقرىء (وعَبَدَ الطاغوت) بالإضافة على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أى : خدامه وعبيده . وقرىء (وعُبُدُ الطاغوت) على أنه جمع الجمع : عبد وعبيد وعُبُد ، مثل ثمار وثُمُر . حكاها ابن جرير عن الأعمش(٣) . وحكى عن بُرَيْدَة الأسلمى أنه كان يقرؤها : (وعابد الطاغوت)(٤) ، وعن أبى ، وابن مسعود : (وعبدوا) ، وحكى ابن جرير عن أبى جعفر القارىء (٥) أنه كان يقرؤها : (وعُبِدَ الطاغوتُ) على أنه مفعول مالم يسم فاعله ، ثم استبعد معناها . والظاهر أنه لا بعد فى ذلك ، لأن هذا من باب التعريض بهم ، أى : وقد عبدت الطاغوت فيكم ، وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك .

وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا ، والذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون سواه ، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ؟. ولهذا قال : (أولئك شر مكانا) ، أى : مما تظنون بنا (وأضل عن سواء السبيل) .

وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة ، كقوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

---

(١) كذا قال : « عن مغيرة » ، والصواب أن يقال : « عن علقمة بن مرثد » . ينظر مسلم ، كتاب القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر : ٨/٥٥ ، ٥٦ .

(٢) مسند أحمد : ١/٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٢٧ : ١٠/٤٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٢٢٢٩ : ١٠/٤٤١ .

(٥) المصدر السابق ، الأثر ١٢٢٢٨ : ١٠/٤٤٠ .

وقوله : (وإذا جاءوكم قالوا : آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) ، وهذه صفة المنافقين منهم ، إنهم يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر ، ولهذا قال : (وقد دخلوا) ، أى : عندك يا محمد (بالكفر) ، أى : مستصحبين الكفر فى قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر . ولهذا قال : (وهم خرجوا به) فخصهم به دون غيرهم .

وقوله : (والله أعلم بما كانوا يكتمون) ، أى : والله عالم بسرائرهم وما تنطوى عليه ضمائرهم ، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ؛ فان الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء .

وقوله : (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت) ، أى : يبادرون إلى ذلك من تعاطى المآثم والمحارم والاعتداء على الناس ، وأكل أموالهم بالباطل (لبئس ما كانوا يعملون) ، أى : لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

وقوله : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) ، يعنى : هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطى ذلك . والربانيون منهم وهم : العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار : وهم العلماء فقط .

(لبئس ما كانوا يصنعون) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « يعنى الربانيين ، أنهم : بئس ما كانوا يصنعون » . . يعنى : فى تركهم ذلك .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال لهؤلاء حين لم يَنْهَوْا ، ولهؤلاء حين عملوا . قال: وذلك الأركان(١) ، قال : « ويعملون » و « يصنعون » واحد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن عطية ، حدثنا قيس ، عن العلاء بن المسيب ، عن خالد بن دينار عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) ، قال : كذا قرأ (٢) .

وكذا قال الضحاك : ما فى القرآن آية ، أخوف عندى منها : أنا لا ننهى . رواه ابن جرير (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : ذكره يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا [محمد بن] (٤) مسلم بن أبى الوضاح حدثنا ثابت بن سعيد الهمدانى ، قال : رأيته بالرى فحدث عن يحيى بن يعمر قال : خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ، ولم ينههم الربانيون والأحبار [فلما

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطى دار الكتب : ١ ، ٨٥ تفسير .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٣٩ : ٤٤٩/١٠ .
(٣) تفسير الطبرى الأثر ١٢٢٣٨ : ٤٤٩/١٠ .
(٤) سقط من المخطوطة ، والمثبت من الجرح لابن أبى حاتم : ٧٦/٢/٤ .

تمادوا فى المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار] (١) أخذتهم العقوبات . فمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، قبل أن يتزل بكم مثل الذى نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك ، عن أبى إسحاق ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع ، لم يغيروا ، إلا أصابهم الله منه بعذاب » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢) .

ورواه أبو داود ، عن مسدد ، [عن] أبى الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن المنذر (٣) بن جرير ، عن جرير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى ، يقدرون أن يغيروا . [عليه فلا يغيروا] إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا (٤) » .

وقد رواه ابن ماجه عن على بن محمد ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه ، به(٥) .

قال الحافظ المزي وهكذا رواه شعبة ، عن أبى إسحاق ، به .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود — عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة — بأنهم وصفوا الله، عز وجل وتعالى عن قولهم علوا كبيرا ، بأنه بخيل . كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء . وعبروا عن البخل بقولهم : (يد الله مغلولة) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الطهرانى حدثنا حفص بن عمر العدنى ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : (مغلولة) ، أى : بخيلة .

---

(١) سقط من المخطوطة ، والمثبت من الدر المنثور : ٢/٢٩٦ .
(٢) مسند أحمد ٤/٣٦٣ وينظر ٤/٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ .
(٣) فى سنن أبى داود : « حدثنا أبو إسحاق ، أظنه عن ابن جرير » .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى ، الحديث رقم ٤٣٣٩ : ٤/١٢٢ ، ١٢٣ . وما بين القوسين منه .
(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الحديث رقم ٤٠٠٩ : ٢/١٣٢٩ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : (وقالت اليهود يد الله مغلولة) ، قال : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون ، بخيل أمسك ما عنده ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا (١) .

وكذا روى عن عكرمة ، وقتادة ، والسدى ، ومجاهد ، والضحاك وقرأ(٢) : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) ، يعنى : أنه ينهى عن البخل وعن التبذير ، وهو الزيادة في الإنفاق فى غير محله ، وعبَّر عن البخل بقوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) .

وهذا هو الذى أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله . وقد قال عكرمة : إنها نزلت فى فنْحاص اليهودى (٣) ، عليه لعنة الله . وقد تقدم أنه الذى قال : (إن الله فقير ونحن أغنياء) فضربه أبو بكر الصديق رضى الله عنه (٤) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود ، يقال له : شأس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ، فأنزل الله : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) .

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) . وهكذا وقع لهم ، فان عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، كما قال تعالى : (أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (٥) ... الآية ، وقال تعالى : (ضربت عليهم الذلة) (٦) ... الآية .

ثم قال تعالى : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) ، أى : بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء ، الذى ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذى ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذى خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، فى ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفى جميع أحوالنا ، كما قال : (وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . (٧) والآيات فى هذا كثيرة ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن يمين الله مَلأى لا يغيضها (٨) نفقة سَحَّاء الليل (٩) والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فانه لم يغضْ ما فى يمينه ، قال : وعرشه على الماء ، وفى يده الأخرى القَبْض ، يرفع ويخفض ...... قال :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٤٢ : ٤٥٢/١٠ .
(٢) أثر الضحاك فى الطبرى ، رقم ١٢٢٤٨ : ٤٥٣/١٠ ، ٤٥٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٤٧ : ٤٥٣/١٠ .
(٤) ينظر الآية ١٨١ من سورة آل عمران : ١٥٣/٢ .
(٥) سورة النساء : ٥٣ ، ٥٤ . ينظر : ٢٩٥/٢ .
(٦) البقرة آية : ٦١ ، وآل عمران آية : ١١٢ . ينظر : ٥١/١٤ ، ١٤٦ ، ٨٦/٧٧/٢ .
(٧) إبراهيم ، آية : ٣٤ .
(٨) لا يغيضها : لا ينقصها .
(٩) سحاء : دائمة الصب والهطل بالعطاء .

وقال الله تعالى : أنفق أنفق عليك » (١) أخرجاه فى الصحيحين، البخارى فى « التوحيد » عن على بن المدينى (٢) — ومسلم فيه ، عن محمد بن رافع — وكلاهما عن عبد الرزاق ، به .

وقوله : (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً) ، أى : يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملا صالحاً وعلماً نافعاً ، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك (طغيانا) ، وهو : المبالغة والمجاوزة للحد فى الأشياء « وكفرا » ، أى : تكذيبا ، كما قال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) .(٣) وقال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً (٤) .

وقوله : (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) ، يعنى : أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم فى بعض دائماً ـ لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك .

وقال إبراهيم النَّخَعِى : (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء) قال : الخصومات والجدال فى الدين : رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ، أى : كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أمورا يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم ، ويحيق مكرهم السَّيِّء بهم .

(ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) ، أى : من سجيتهم أنهم دائماً يسعون فى الإفساد فى الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته .

ثم قال جل وعلا : (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) ، أى : لو أنهم آمنوا بالله ورسوله ، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم (لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) ، أى : لأزلنا عنهم المحذور ولحصّلناهم المقصود .

(ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم) قال ابن عباس ، وغيره : يعنى القرآن .

(لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، أى : لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء ، على ما هى عليه ، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

وقوله : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، يعنى ذلك : كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض .

---

(١) مسند أحمد من حديث طويل : ٣١٣/٢ ، ٣١٤ .

(٢) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب « وكان عرشه على الماء » : ٩ / ١٥٢ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف » : ٧٧/٣ .

(٣) فصلت ، آية : ٤٤ .

(٤) الإسراء ، آية : ٨٢ .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (لأكلوا من فوقهم) ، يعني : لأرسل عليهم مدرارا (ومن تحت أرجلهم) يعني : يخرج من الأرض بركاتها (١) .

وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدى ، كما قال : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) (٢)... الآية . وقال : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) (٣)...الآية.

وقال بعضهم : معناه (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعني : من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : معناه لكانوا فى الخير ، (٤) كما يقول القائل : « هو فى الخير من قرنه (٥) إلى قدمه » . ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف .

وقد ذكر ابن أبي حاتم ، عند قوله : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) حديث علقمة ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يرفع العلم . فقال زياد ابن لبيد : يا رسول الله ، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟! قال : ثكلتك أمك يا ابن لبيد ! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدى اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله . ثم قرأ : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) .

هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثا معلقا (٦) من أول إسناده ، مرسلا فى آخره . وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلا موصولا ، فقال :

حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن زياد بن لبيد قال : « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال : وذاك عند ذهاب العلم . قال قلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرِئه أبناءنا ويُقْرِئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنتُ لأراك [من] أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء (٧) .

وكذا رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع بإسناده نحوه (٨) . وهذا إسناد صحيح .

وقوله : (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) كقوله تعالى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (٩) . وكقوله عن أتباع عيسى : (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) (١٠) . . . الآية . فجعل أعلى مقاماتهم

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٥٧ : ٤٦٣/١٠ .
(٢) الأعراف ، آية : ٩٦ .
(٣) الروم ، آية : ٤١ .
(٤) نص ابن جرير ٤٦٤/١٠ : «وكان بعضهم يقول : إنما أراد بقوله : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، التوسعة ، كما يقول القائل ...» وقائل هذه المقالة هو الفراء ، ينظر معانى القرآن : ٣١٥/١ .
(٥) القرن : حد الرأس وجانبها .
(٦) ينظر : ٥/٢ .
(٧) مسند أحمد : ١٦٠/٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ . وأسد الغابة بتحقيقنا ، الترجمة رقم ١٨٠٩ : ٢٧٣/٢ ، ٢٧٤ .
(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم ، الحديث ٤٠٤٨ : ١٣٤٤/٢ .
(٩) الأعراف ، آية : ١٥٩ .
(١٠) الحديد ، آية : ٢٧ .

الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين ، كما فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جناتُ عدن يدخلونها (١) ... الآية . والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة .

وقد قال أبو بكر بن مَرْدُويه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أحمد بن يونس الضبي ، حدثنا عاصم بن على ، حدثنا أبو معشر ، عن يعقوب بن يزيد بن طلحة ، عن زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملّة ، سبعون منها فى النار وواحدة فى الجنة وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة ، واحدة منها فى الجنة وإحدى وسبعون منها فى النار . وتعلو أمتى على الفريقين جميعا ، واحدة فى الجنة ، وثنتان وسبعون فى النار . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : الجماعات الجماعات » .

قال يعقوب بن يزيد : كان على بن أبى طالب إذا حدث هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا فيه قرآنا : (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) ، إلى قوله تعالى : (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) ، وتلا أيضا : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ، يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه وبهذا السياق . وحديثُ افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مَرْوِىّ من طرق عديدة ، وقد ذكرناه فى موضع آخر (٢) ، ولله الحمد والمنة .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة ، وآمرا له بالإبلاغ بجميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل صلوات الله وسلامة عليه ذلك ، وقام به أتمّ القيام .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : من حدّثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب ، الله (٣) يقول : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) ... الآية (٤) .

---

(١) فاطر ، آية : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) عند الآية رقم ١٠٥ من سورة آل عمران ، ينظر ٢ / : ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) فى المخطوطة : « وهو يقول » . والمثبت عن الصحيح .
(٤) البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة ، باب « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » : ٦٦/٦ .

هكذا رواه هاهنا مختصرا ، وقد أخرجه فى مواضع(١) من صحيحه مطولا . وكذا رواه مسلم فى« كتاب الإيمان(٢)، والترمذى (٣) والنسائى فى « كتابى التفسير) من سننهما من طرق ، عن عامر الشعبى ، عن مسروق بن الأجدع ، عنها رضى الله عنها .

وفى الصحيحين عنها أيضا أنها قالت : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتما من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، عن هارون بن عنترة ، عن أبيه قال : كنت عند ابن عباس ، فجاء رجل فقال له : إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للناس . فقال : ألم تعلم أن الله تعالى قال : (يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك) ، والله ماورّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداءَ فى بيضاء .

وهذا إسناد جيد ، وهكذا فى صحيح البخارى من رواية أبى جُحَيفَة وهب بن عبد الله السّوائى قال : قلت لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه : « هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفَكَاكُ الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر (٥) .

وقال البخارى : قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم (٦) .

وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل . فى خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من الصحابة نحو من أربعين ألفاً ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يومئذ : « أيها الناس ، إنكم مسئولون (٧) عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ويَقْلبها (٨) إليهم ويقول : اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغتُ (٩) .

---

(١) البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة النجم ، ١٧٥/٦ ، ١٧٦ ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (يأيها الرسول بلغ ...) : ١٩٠/٩ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله عز وجل : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١١٠/١ .

(٣) تحفة الأحوذى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام : ٤٤١/٨ — ٤٤٥ . وتفسير سورة النجم : ١٦٦/٩—١٦٨ .

(٤) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب «وكان عرشه على الماء» : ١٥٢/٩ . ومسلم كتاب الإيمان : ١١٠/١ .

(٥) البخارى ، كتاب العلم ، باب كتابة العلم : ٣٨/١ . وكتاب الجهاد ، باب فكاك الأسير : ٨٤/٤ . وكتاب الديات ، باب العاقلة : ١٣/٩ ، ١٤ ، وباب لا يقتل مسلم بكافر : ١٦/٩ .

(٦) البخارى ، كتاب التوحيد : ١٩٠/٩ .

(٧) فى صحيح مسلم : «وأنتم تسألون عنى» .

(٨) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى صحيح مسلم : «ينكتها» . وقال النووى عن القاضى : «وهو بعيد المعنى ، وصوابه ينكبها ، بباء موحدة ، ومعناه : يقلبها» وفى النهاية لابن الأثير : «وينكبها إلى الناس: أى يميلها إليهم ، يريد بذلك أن يشهد الله عليهم» .

وكذلك الرواية فى ابن ماجة ، كتاب المناسك ، باب حجة النبى ، الحديث ٣٠٧٤ : ١٠٢٥/٢ : «ينكبها» بالباء الموحدة .

(٩) فى صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم ٤١/٤ : «اللهم اشهد ، اللهم اشهد» ثلاث مرات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا فضيل – يعنى ابن غزْوان – عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « يا أيها الناس ، أىّ يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : أىّ بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال : فأىّ شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال : فان أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا . ثم أعادها مراراً ، ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : اللهم هل بلغت ! مراراً – قال : يقول ابن عباس : والله لوصية إلى ربه عز وجل – ثم قال : ألا فليبلغ الشاهدُ الغائبَ ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض(١) » .

وقد روى البخارى ، عن على بن المدينى ، عن يحيى بن سعيد ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه(٢) .

وقوله : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ، يعنى : وإن لم تُؤدّ إلى الناس ما أرسلتك به ، (فما بلغت رسالته) ، أى : وقد علِم ما يترتب على ذلك لو وقع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ، يعنى : إن كتمتَ آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا قبيصة بن عُقْبة ، حدثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد قال : لما نزلت : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) قال : يا رب ، كيف أصنع وأنا وحدى ؟ يجتمعون على : فنزلت : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) .

ورواه ابن جرير ، من طريق سفيان – وهو الثورى – به (٤) .

وقوله : (والله يعصمك من الناس) ، أى : بلغ أنت رسالتى ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا يحيى ، سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث : أن عائشة كانت تحدث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَهِر ذات ليلة ، وهى إلى جنبه ، قالت فقلتُ : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة ؟ قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد ابن مالك . فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله . قالت : فسمعت غطيط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه (٥) أخرجاه فى الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى ، به (٦) .

---

(١) مسند أحمد : ١/٢٣٠ .

(٢) البخارى ، كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منى : ٢/٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٧٠ : ١٠/٤٦٨ ، وفيه : « لم تبلغ رسالتى » .

(٤) تفسير الطبرى ، « ١٢٢٧٢ : ١٠/٤٦٨ .

(٥) مسند أحمد : ٦/١٤٠، ١٤١ .

(٦) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو : ٤/٤١ ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فى فضل سعد ابن أبى وقاص – وهو سعد بن مالك – : ٧/١٢٤ .

وفى لفظ : سَهِر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مَقْدَمَهُ المدينة . يعنى : على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضى الله عنها ، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصرى نزيل مصر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عُبَيد ـ يعنى أبا قدامة ـ عن الجُرَيرى ، عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) . قالت : فأخرج النبى صلى الله عليه وسلم رأسه من القُبَّة ، وقال : يا أيها الناس ، انصرفوا فقد عصمنى الله عز وجل .

وهكذا رواه الترمذى ، عن عبد بن حُمَيد وعن نصر بن على الجَهْضمى ، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب (١) .

وهكذا رواه بن جرير (٢) والحاكم فى مستدركه ، من طريق مسلم بن إبراهيم ، به : ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣) . وكذا رواه سعيد بن منصور ، عن الحارث بن عُبَيد أبى قدامة ، عن الجُرَيرى ، عن عبد الله ابن شقيق ، عن عائشة ، به .

ثم قال الترمذى : وقد روى بعضهم هذا عن الجُرَيرى ، عن ابن شقيق قال . كان النبى صلى الله عليه وسلم [يحرس (٤)] ، ولم يذكر عائشة .

قلت : هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل ابن علية (٥) ، وابن مردويه من طريق وهيب ، كلاهما عن الجُرَيرى ، عن عبد الله بن شقيق مرسلا ، وقد روى هذا مرسلا عن سعيد بن جُبَير ومحمد بن كعب القُرَظى ، رواهما ابن جرير(٦) . والربيع بن أنس رواه ابن مردويه ، ثم قال :

حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن رشدين المصرى ، حدثنا خالد بن عبد السلام الصدفى ، حدثنا الفضل ابن المختار ، عن عبد الله بن موهب ، عن عصمة بن مالك الخَطْمى قال : كنا نحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل حتى نزلت : (والله يعصمك من الناس) ، فترك الحرس .

حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادى ، حدثنا كردوس بن محمد الواسطى ، حدثنا يعلى بن عبد الرحمن ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبى سعيد الخدرى قال : «كان للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن يحرسه ، فلما نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرس» .

---

(١) رواية الترمذى من عبد بن حميد فى كتاب أبواب التفسير ، تفسير سورة المائدة . ينظر تحفة الأحوذى : ٨/٤١٠ ، ٤١١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٢٢٧٦ : ١٠/٤٦٩ .
(٣) المستدرك ، كتاب التفسير : ٢/٣١٣ .
(٤) عن الترمذى ، تحفة الأحوذى : ٨/٤١١ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٧٤ : ١٠/٤٦٩ .
(٦) أثر سعيد بن جبير فى تفسير الطبرى ، رقم ١٢٢٧٣ : ١٠/٤٦٨ ، وأثر محمد بن كعب ، برقم ١٢٢٧٥ : ١٠/٤٦٩ .

حدثنا على بن أبى حامد المديني ، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعرى ، حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار ، حدثنا أبى قال : سمعت أبا الزبير المكى يحدث ، عن جابر بن عبد الله قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه ، حتى نزلت : (والله يعصمك من الناس) ، فذهب ليبعث معه ، فقال : يا عم ، إن الله قد عصمنى ، لا حاجة لى إلى من تبعث » .

وهذا حديث غريب وفيه نكارة ، فان هذه الآية مدنية ، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية .

ثم قال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الحمانى ، عن النضر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ، فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بنى هاشم يحرسونه ، حتى نزلت عليه هذه الآية : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) ، قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه ، فقال : إن الله قد عصمنى من الجن والإنس .

ورواه الطبرانى عن يعقوب بن غيلان العمانى ، عن أبى كريب ، به

وهذا أيضا غريب . والصحيح أن هذه الآية مدنية ، بل هى من أواخر مانزل بها ، والله أعلم .

ومِنْ عِصْمةِ الله لرسوله حفظُه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبِغْضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة . فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب، إذ كان رئيساً مطاعا كبيرا فى قريش ، وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر هابوه واحترموه فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا ، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم — وهى المدينة ، فلما صار إليها حَمَوْه من الأحمر والأسود ، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتى المعوذتين دواء لذلك الداء . ولما سمّ اليهود ذراع تلك الشاة بخيبر ، أعلمه الله به ، وحماه منه ؛ ولهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها ، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة :

فقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظى وغيره قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلاً ، اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها . فأتاه أعرابى فاخترط (١) سيفه ثم قال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله عزوجل : فرُعِدت (٢) يد الأعرابى وسقط السيف منه ، قال : وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه ، فأنزل الله عز وجل : (والله يعصمك من الناس) (٣) » .

---

(١) ينظر : ٢/٣٦٠ ، التعليق رقم : ٢ .

(٢) قال الأستاذ محمود شاكر فى تعليقه على هذا اللفظ : « ولم أجد من « الرعدة » ثلاثياً « رعد » بالبناء للمجهول ، بل الذى رووه وأطبقوا عليه « أرعد » (بالبناء للمجهول) . فإن صح الخبر ، فالثلاثى المبنى للمجهول مما يزاد على مادة اللغة » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٢٧٨ : ١٠/٤٧٠ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا موسى بن عبيدة ، حدثني زيد بن أسلم ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أنمار ، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه ، فقال [غَوْرَث (١) بن الحارث] من بني النجار : لأقتلن محمداً . فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له : أعطني سيفك . فإذا أعطانيه قتلته به ، قال : فأتاه فقال : يا محمد ، أعطني سيفك أشيمه(٢) : فأعطاه إياه ، فَرُعِدت يده حتى سقط السيف من يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حال الله بينك وبين ما تريد . فأنزل الله عزوجل : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقصة « غَوْرَث بن الحارث » مشهورة فى الصحيح (٣) .

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه : حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، حدثنا آدم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها ، فينزل تحتها . فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلّق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد ، من يمنعك مني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله يمنعني منك ، ضع السيف . فوضعه ، فأنزل الله عز وجل : (والله يعصمك من الناس) .

وكذا رواه أبو حاتم بن حبّان فى صحيحه ، عن عبد الله بن محمد ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن المؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت أبا إسرائيل ــ يعني الجُشَمي ــ سمعت جعدة ــ هو ابن خالد بن الصمة الجشمي ــ رضى الله عنه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يومىء إلى بطنه بيده ويقول : لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك . قال : وأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم برجل فقال : هذا أراد أن يقتلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم تُرَع (٤) ، [لم تُرَع (٥)] ولو أردت ذلك لم يسلطك الله (٦) علي » .

وقوله : (إن الله لا يهدى القوم الكافرين) ، أى : بلغ أنت ، والله هو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، كما قال : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء (٧) وقال : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٨)

---

(١) مكانه فى مخطوطة الأزهر : « الوارث » . والمثبت عن الدر المنثور : ٢/٢٩٨ .
(٢) شام السيف : استله وأغمده ، من الأضداد . وشامه أيضاً : نظر إليه .
(٣) البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة ذات الرقاع : ٥/١٤٧ .
(٤) ينظر شرح هذا اللفظ فى : ١/٢٦٣ .
(٥) عن مسند أحمد : .
(٦) مسند أحمد : ٣/٤٧١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ ، وينظر : ١/٤٧٨ من هذا التفسير .
(٨) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى : قل يا محمد : (يا أهل الكتاب ، لستم على شيء) . أى : من الدين ، (حتى تقيموا التوراة والإنجيل) ، أى : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته . ولهذا قال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، فى قوله : (وما أنزل إليكم من ربكم) ، يعنى : القرآن العظيم .

وقوله : (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) تقدم تفسيره (فلا تأس على القوم الكافرين) ، أى : فلا تحزن عليهم ولا يَهيدنَّك (١) ذلك منهم .

ثم قال : (إن الذين آمنوا) ، وهم : المسلمون (والذين هادوا) وهم : حملة التوراة (والصابئون) — لما طال الفصل حسن العطف بالرفع . والصابئون : طائفة بين(٢) النصارى والمجوس ، ليس لهم دين . قاله مجاهد ، وعنه : بين(٢) اليهود والمجوس . وقال سعيد بن جبير : بين(٢) اليهود والنصارى ، وعن الحسن : إنهم كالمجوس . وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرءون الزبور . وقال وهب بن مُنَبِّه : هم قوم يعرفون الله وحده ، وليست لهم شريعة يعملون بها ، ولم يحدثوا كفرا .

وقال ابن وهب : أخبرنى ابن أبي الزناد ، عن أبيه قال : الصابئون قوم مما يلى العراق ، وهم بكوثى ، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ، ويصومون كل سنة ثلاثين يوما ، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات . وقيل غير ذلك (٣) .

وأما النصارى فمعروفون ، وهم حملة الإنجيل .

والمقصود : أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر — وهو المعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت عملا صالحا ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك (فلا خوف عليهم) فيما يستقبلونه ، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ، (ولاهم يحزنون) . وقد تقدم الكلام على نظيرتها فى سورة البقرة ، بما أغنى عن إعادته .

---

(١) تقدم تفسيره فى : ١/٣٢١ ، ٢/١٥٤ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطتى دار الكتب ١ ، ٨٥ تفسير : « طائفة من » فاستبدلنا بمن « بين » ينظر التعليق التالى ، فقد تقدمت هذه الآثار على النحو الذى أثبتناه .

(٣) تقدمت هذه الآثار عن الآية ٦٢ من سورة البقرة ، ينظر ١/١٤٨ ، ١٤٩ .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بنى إسرائيل ، على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق ، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردوه . ولهذا قال : (كلما جاءهم رسول بمالاتهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون . وحسبوا أن لا تكون فتنة) ، أى : وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصمّوا ، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه . (ثم تاب الله عليهم) ، أى : مما كانوا فيه (ثم عموا وصموا) ، أى : بعد ذلك (كثير منهم ، والله بصير بما يعملون) ، أى : مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى ، من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم : بأن المسيح هو الله ــ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوا كبيرا .

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد أن قال : (إنى عبد الله) ، ولم يقل : أنا الله ، ولا : ابن الله : بل قال : (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) ، إلى أن قال : (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (١) .

وكذلك قال لهم فى حال كهولته ونبوته ، آمرا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لاشريك له . ولهذا قال تعالى : (وقال المسيح : يابنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله) ، أى : فيعبد [معه] غيره (فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)أى : فقد أوجب له النار ، وحرم عليه الجنة ، كما قال تعالى : (إن الله لايغفر أن يشرك

---

(١) سورة مريم ، الآيات : ٣٠ ــ ٣٦ .

به ويغفر مادون ذلك لمن (١) يشاء) ؛ وقال تعالى : (ونادى اصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين(٢))

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مناديا ينادى فى الناس : إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة — وفى لفظ : مؤمنة (٣) .

وتقدم فى أول سورة النساء عند قوله : (إن الله لايغفر أن يشرك به) حديث يزيد بن بابَنُوس عن عائشة : الدواوين ثلاثة ، فذكر منهم ديوانا لايغفره الله ، وهو الشرك بالله ، قال الله تعالى : (من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (٤)) . الحديث فى مسند أحمد .

ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ، أى : وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه .

وقوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسن الهِسِنْجانى ، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مريم ، حدثنا الفضل ، حدثنى أبو صخر فى قول الله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) ، قال : هو قول اليهود : (عزيز ابن الله) ، وقول النصارى (المسيح ابن الله) فجعلوا الله ثالث ثلاثة .

وهذا قول غريب فى تفسير الآية : أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى ؛ [والصحيح : أنها أنزلت فى النصارى] خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد ؛

ثم اختلفوا فى ذلك فقيل : المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والنَّسطورية تقول بهذه الأقانيم ؛ وهم مختلفون فيها اختلافا متباينا ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاث كافرة

وقال السدى وغيره : نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدى: وهى كقوله تعالى فى آخر السورة : (وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال : سبحانك (٥) ... الآية .

وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم . قال الله تعالى : (وما من إله إلا إله واحد) ، أى : ليس متعددا ، بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٤٨ ، وينظر : ٢/٢٨٦ — ٢٩١ من هذا التفسير .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٠ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه : ١/٧٣ ، ٧٤ . وابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ما جاء فى النهى عن صيام التشريق ، الحديث ١٧٢٠ : ١/٥٤٨ . ومسند أحمد عن أبى بكر : ١/٣ .

(٤) ينظر : ٢/٢٨٦ ، وتخريج الحديث هناك .

(٥) الآية : ١١٦ من هذه السورة .

ثم قال تعالى متوعدا لهم ومتهددا : (وان لم ينتهوا عما يقولون) ، أى : من هذا الافتراء والكذب (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) ، أى : فى الآخرة من الأغلال والنكال .

ثم قال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم) . وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه . ثم قال : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ، أى : له سَوِيّة (١) أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل (٢) .

وقوله : (وأمه صديقة) ، أى : مؤمنة به مصدقة له . وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ، ونبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم ، وبقوله : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه (٣) ، وهذا معنى النبوة ، والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال ، قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى (٤) ، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعرى رحمه الله الإجماع على ذلك .

وقوله : (كانا يأكلان الطعام) ، أى : محتاجان إلى التغذية به ، وإلى خروجه منهما . فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

ثم قال تعالى : (انظر كيف نبين لهم الآيات) ، أى : نوضحها ونظهرها ، (ثم انظر أنى يؤفكون) ، أى : ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ؟ وبأى قول يتمسكون ؟ وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون ؟ .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منكرا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبينا له أنها لا تستحق شيئا من الإلهية : (قل) أى : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم ، ودخل فى ذلك النصارى وغيرهم : (أتعبدون

---

(١) يقال : هم على سوية ، أى : استواء (القاموس المحيط) .

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٥٩ .

(٣) سورة القصص ، آية : ٧ .

(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ .

من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) ، أى : لا يقدر على إيصال ضرر إليكم ، ولا إيجاد نفع (والله هو السميع العليم) أى : فلم عدلتم عن إفراد السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شىء إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ، ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه .

ثم قال : (قل : يا أهل الكتاب ، لا تغلوا فى دينكم غير الحق) ، أى : لا تجاوزوا الحد فى اتباع الحق ، ولا تُطْرُوا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه ، حتى تخرجوه عن حيّز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم فى المسيح ، هو نبى من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديما ، (وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل) ، أى : وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضلال .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قال : وقد كان قائمٌ قام عليهم ، فأخذ بالكتاب والسنة زمانا ، فأتاه الشيطان فقال : إنما تركب أثرا أو أمرا قد عُمِل قبلك ، فلا تُحْمَد عليه ، ولكن ابتدع أمرا من قِبَل نفسك وادعُ إليه وأجبر الناس عليه . ففعل ، ثم ادّكر بعد فعله زمانا فأراد أن يتوب فخلع مُلكه ، وسلطانه وأراد أن يتعبد فلبث فى عبادته أياما ، فأُتِىَ فقيل له : لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك ، ولكن ضل فلان وفلان وفلان فى سببك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة ، فكيف لك بهداهم ، فلا توبة لك أبداً . ففيه سمعنا وفى أشباهه هذه الآية : (ياأهل الكتاب ، لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلو كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) (١)

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٨١)

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل ، فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى ابن مريم ، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه .

قال العوفى ، عن ابن عباس : لعنوا(٢) فى التوراة والإنجيل وفى الزبور ، وفى الفرقان .

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه فى زمانهم ، فقال : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) ، أى : كان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم . ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُرْكَبَ مثل الذى ارتكبوا ، فقال : (لبئس ما كانوا يفعلون) .

---

(١) الأثر فى الدر المنثور : ٢/٣٠٠ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب تفسير : « أحنوا » ، والمثبت من مخطوطة الدار : ٨٥ .

وقال الإمام أحمد، رحمه الله : حدثنا يزيد ،حدثنا شريك بن عبد الله ، عن على بن بذيمة ، عن أبى عُبَيدة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصى ، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ـ قال يزيد: وأحسبه قال : وأسواقهم ـ وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس فقال : لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا (١) »

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى ، حدثنا يونس بن راشد ، عن [على] بن بذيمة ، عن [أبى عبيدة ، عن]عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع ، فانه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم (: إلى قوله : (فاسقون) ، ثم قال : كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهوُن عن المنكر ، ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرُنّه على الحق أطرا ـ أو تقصرنه على الحق قصراً (٢)»

وكذا رواه الترمذى (٣) وابن ماجه ، من طريق على بن بذيمة ، به . وقال الترمذى : « حسن غريب ». ثم رواه هو وابن ماجه ، عن بندار ، عن ابن مهدى ، عن سفيان ، عن على بن بَذيمة ، عن أبى عبيدة مرسلا (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمدانى قالا : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن العلاء بن المسيب ، عن عبد الله بن عَمْرو بن مرة ، عن سالم الأفطس ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل من بنى إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً ، فاذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ـ وفى حديث هارون : وشَريبه ، ثم اتفقا فى المتن ـ : فلما رأى الله ذلك منهم ، ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرُنّه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعننكم كما لعنهم » . والسياق لأبى سعيد . كذا قال فى رواية هذا الحديث .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر : « حتى تطروهم على الحق إطراما » والمثبت عن مسند الإمام أحمد : ٣٩١/١ .
ومعنى تأطروهم على الحق : تعطفوهم وتميلوهم إليه . يقال : أطرت الشيء أطراً : إذا عطفته (الغريبين للهروى : ١/ ٥٤ ، والنهاية لابن الأثير : ٣/ ٥٣) .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى ، الحديث رقم ٤٣٣٦ : ١٢١/٤ ، ١٢٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٨/ ٤١٢ ، ٤١٣ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ١٣٢٨/٢ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٨/ ٤١٤ ، وابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث رقم ٤٠٠٦ : ٢/ ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ .

وقد رواه أبو داود أيضا ، عن خلف بن هشام ، عن أبي شهاب الخياط ، عن العلاء بن المسيب ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم — وهو ابن عجلان الأفطس — عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه . ثم قال أبو داود : وكذا رواه خالد ، عن العلاء ، عن عمرو بن مرة ، به : ورواه المحاربي، عن العلاء ابن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو بن مرة ، عن سالم الأفطس ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله (١) .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي ، عن العلاء ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي موسى (٢) .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا ، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام قد تقدم حديث جرير عند قوله : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار (٣)) ، وسيأتي عند قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم (٤) حديثُ أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني — فقال الإمام أحمد :

حدثنا سليمان الهاشمي ، أنبأنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرني عمرو بن أبي عمرو ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي ، عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم (٥) » .

ورواه الترمذي عن علي بن حجر ، عن إسماعيل بن جعفر ، به . وقال : هذا حديث حسن (٦) .

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن هشام بن سعد ، عن عمرو (٧) بن عثمان ، عن عاصم بن عمر بن عثمان ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن تدْعوا فلا يستجاب لكم (٨) » .

تفرد به ، وعاصم هذا مجهول .

وفي الصحيح من طريق الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبيه ، عن أبي سعيد — وعن قيس بن مسلم ، عن طارق ابن شهاب ، عن أبي سعيد الخدري — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان (٩) » . رواه مسلم .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، الحديث رقم ٤٣٣٧ : ٤/١٢٢ .

(٢) يؤخذ من هذه الروايات النهي عن مصاحبة أهل المعاصي ومؤاكلتهم ؛ فإن علماء بني إسرائيل قد نهوا العصاة عن معاصيهم، ولكنهم صاحبوهم ، وشاركوهم الطعام والشراب ، فلعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم .

(٣) الآية رقم : ٦٣ من هذه السورة .

(٤) الآية رقم : ١٠٥ من هذه السورة .

(٥) مسند أحمد : ٥/٣٨٨ .

(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب الفتن ، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦/٣٩١ .

(٧) في سنن ابن ماجه : « عمر بن عثمان » والصواب ما في المخطوطة ، وترجمة « عمرو » في التهذيب : ٧/٧٩ .

(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحديث ٤٠٠٤ : ٢/١٣٢٧ .

(٩) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ؛ ١/٥٠ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا سيف ــ هو ابن أبي سليمان سمعت عَدِيّ بن عَدِيّ الكندي يحدث عن مجاهد قال : حدثني مولى لنا أنه سمع جدي ــ يعني : عدي بن عميرة رضي الله عنه ــ يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه . فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة (١) » .

ثم رواه أحمد ، عن أحمد بن الحجاج ، عن عبد الله بن المبارك ، عن سيف بن أبي سليمان عن عدي(٢) بن عدي [الكندي] (٣)حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: [سمعت](٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] (٣) [فذكره] (٤) هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين .

وقال أبو داود حدثنا[محمد بن](٥) حدثنا العلاء، حدثنا أبو بكر ،حدثنا مغيرة بن زياد الموصلي ، عن عدي بن عدي، عن العُرْس ــ يعني ابن عَميرة ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ــ وقال مرة : فأنكرها ــ كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها (٦) » .

تفرد به أبو داود . ثم رواه عن أحمد بن يونس ، عن أبي شهاب ، عن مغيرة بن زياد، عن عدي بن عدي، مرسلا (٧)

قال أبو داود : حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قالا : حدثنا شعبة ــ وهذا لفظه ــ عن عمرو بن مرة ، عن أبي البَخْتَرِيّ قال : أخبرني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم ــ وقال سليمان : حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لن يهلك الناس حتى يُعْذَرُوا أو : يُعْذِرُوا من أنفسهم » (٨) .

وقال ابن ماجه : حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا على بن زيد بن جُدْعان ، عن أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيباً ، فكان فيما قال : « ألا لا يمنعَنّ رجلا هيبةُ الناس أن يقول الحق (٩) إذا علمه » . قال : فبكى أبو سعيد وقال : قد ــ والله ــ رأينا أشياء ، فَهِبْنَا (١٠).

وفي حديث إسرائيل : [عن محمد بن حجادة](١١)، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

---

(١) مسند أحمد : ١٩٢/٤ .

(٢) في مخطوطة الأزهر ومخطوطة الدار : ٨٥ : « عيسى بن عدي » . ولم نجده . والمثبت عن مسند أحمد ، ومخطوطة الدار تفسير . وينظر التهذيب : ١٦٨/٧ .

(٣) عن مسند أحمد .

(٤) مسند أحمد : ١٩٢/٤ .

(٥) مكانه في المخطوطات : « أبو » والمثبت عن سنن أبي داود . وترجمة محمد بن العلاء في التهذيب : ٣٨٥/٩ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، الحديث رقم ٤٣٤٥ : ١٢٤/٤ .

(٧) الحديث رقم ٤٣٤٦ ، من كتاب الملاحم : ١٢٤/٤ .

(٨) الحديث رقم ٤٣٤٧ ، من كتاب الملاحم : ١٢٥/٤ .

(٩) في سنن ابن ماجه : أن يقول بحق .

(١٠) سنن ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحديث : ٤٠٠٧ : ١٣٢٨/٢ .

(١١) سقط من المخطوطة أثبتناه عن كتب السنة الآتية

رواه أبو داود ، والترمذى (١) ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب من هذا الوجه .

وقال ابن ماجه : حدثنا راشد بن سعيد الرملى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى غالب ، عن أبى أمامة قال : عَرَض لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ عند الجمرة الأولى فقال : يا رسول الله ، أىّ الجهاد أفضل ؟ فسكت عنه . فلما رمى الجمرة الثانية سأله ، فسكت عنه . فلما رمى جمرة العقبة ، ووضع رجله فى الغَرْز ليركب ، قال : أين السائل ؟ قال : أنا يا رسول الله ، قال : كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر »(٢) . تفرد به .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَخْتَرىّ ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحقر أحدكم نفسه . قالوا : يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ . قال : يرى أمراً لله فيه مقال : ثم لا يقول فيه . فيقول الله له يوم القيامة : مامنعك أن تقول فى كذا وكذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس . فيقول : فاياى كنتَ أحق أن تَخْشَى » (٣) تفرد به .

وقال أيضا : حدثنا على بن محمد ، حدثنا محمد بن فُضَيل ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طُوَالة ، حدثنا نَهَارُ العَبْدِىّ ، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى يقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فاذا لَقَّنَ الله عبداً حجته ، قال : يا رب ، رجوتك وفَرَقْتُ [من] (٤) الناس » تفرد به أيضا ابن ماجه ، وإسناده لابأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمرو بن عاصم ، عن حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن ، عن جُنْدَب ، عن حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينبغى لمسلم أن يذل نفسه . قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق (٥) » .

وكذا رواه الترمذى (٦) وابن ماجه جميعاً ، عن محمد بن بشار ، عن عمرو بن عاصم ، به . وقال الترمذى : هذا حديث (٧) حسن صحيح غريب .

وقال ابن ماجه : حدثنا العباس بن الوليد الدمشقى ، حدثنا زيد بن يحيى بن عُبَيد الخزاعى ، حدثنا الهيثم بن حميد ، حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرُّعَيْنى ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : « قيل : يا رسول الله ، متى يترك

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى ، الحديث رقم ٤٣٤٤ : ١٢٤/٤ ، وفيها : « كلمة عدل » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب أفضل الجهاد : ٣٩٥/٦ ، ٣٩٦ ، وفيها : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل ... » وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الحديث ٤٠١١ : ١٣٢٩/٢ ، وفيها أيضاً : « كلمة عدل » .

(٢) سنن ابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث ٤٠١٢ : ١٣٣٠/٢ ، وفيها : « كلمة حق عند ذى سلطان جائر » والغرز : ركاب الإبل .

(٣) سنن ابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث ٤٠٠٨ : ١٣٢٨/٢ .

(٤) عن سنن ابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمان أيضاً ، الحديث ٤٠١٧ : ١٣٣٢/٢ .

(٥) مسند أحمد : ٤٠٥/٥ .

(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، الباب ٥٨ : ٥٣١/٦ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) ، الحديث ٤٠١٦ : ١٣٣١/٢ ، ١٣٣٢ .

(٧) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم . قلنا يا رسول الله ، وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : « المُلْك فى صغاركم ، والفاحشة فى كباركم ، والعلم فى رُذالكم » . قال زيد : تفسير معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « والعلم فى رُذالكم » (١) إذا كان العلم فى الفساق .

تفرد به ابن ماجه (٢). وسيأتى فى حديث أبى ثعلبة، عند قوله : (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) شاهد لهذا ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وقوله : (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) ، قال مجاهد : يعنى بذلك المنافقين . وقوله : (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) يعنى بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالاة المؤمنين ، التى أعقبتهم نفاقا فى قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سخطا مستمرا إلى يوم معادهم ، ولهذا قال : (أن سَخِط الله عليهم) فسر بذلك ماذمهم به . ثم أخبر أنهم (فى العذاب هم خالدون) يعنى يوم القيامة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا مسلمة (٣) بن على ، عن الأعمش باسناد ذكره قال : « يا معشر المسلمين ، إياكم والزنا فان فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، فأما التى فى الدنيا فانه يذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر . وأما التى فى الآخرة ، فانه يوجب سَخَط الرب ، وسوء الحساب ، والخلود فى النار . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) » .

هكذا ذكره ابن أبى حاتم ، وقد رواه ابن مَرْدُويه من طريق هشام بن عمار ، عن مسلمة (٣)، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ فذكره . وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عُفَير ، عن مسلمة عن أبى عبد الرحمن الكوفى ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ فذكر مثله .

وهذا حديث ضعيف على كل حال ، والله أعلم ثم قال تعالى : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) ، أى : لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسل والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين فى الباطن ، ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزل إليه (ولكن كثيراً منهم فاسقون) ، أى : خارجون عن طاعة الله ورسوله ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

---

(١) فى سنن ابن ماجه : « فى زدالتكم » .
(٢) سنن ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) ، الحديث رقم ٤٠١٥ : ٢/١٣٣١
(٣) فى مخطوطة الأزهر : « مسلم بن على » ولا يوجد من يدعى بهذا ، والمثبت من الجرح لابن أبى حاتم ٤/١/٢٦٨ . والتهذيب : ١٠/١٤٦ ، وهو : مسلمة بن على بن خلف الخشنى أبو سعيد .
(٤) فى المخطوطة : « مسلم » . وقد نبهنا عليه .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه ، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا(١) لحاهم . وهذا القول فيه نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة ؛

وقال سعيد بن جُبَير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه ، ويروا صفاته فلما قرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا . ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه ؛

قال السدي : فهاجر النجاشي فمات في الطريق .

وهذا من أفراد السدي ؛ فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة ، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم يوم مات ، وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة .

ثم اختلف في عدة هذا الوفد ، فقيل : اثنا عشر ، سبعة قساوسة وخمسة رهابين . وقيل بالعكس . وقيل : خمسون وقيل بضع وستون . وقيل : سبعون رجلا . فالله أعلم .

وقال عطاء بن أبي رباح : هم قوم من أهل الحبشة ، أسلموا حين قدم عليهم مُهاجرةُ الحبشة من المسلمين ؛

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتعتعوا ؛

واختار ابن جرير أن هذه نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة ، سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها ؛

فقوله : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم . ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين — عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

---

(١) أخضله الدمع : بلّه .

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند تفسير هذه الآية : حدثنا أحمد بن محمد بن السرى ، حدثنا محمد بن على أبو حبيب الرقى ، حدثنا على بن سعيد العلاف ، حدثنا أبو النضر ، عن الأشجعى ، عن سفيان ، عن يحيى بن عبد الله عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خلا يهودى قط بمسلم إلا هم بقتله » .

ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق اليشكرى ، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازى ، حدثنا فرج ابن عبيد ، حدثنا عباد بن العوام ، عن يحيى بن عُبَيْد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خلا يهودى بمسلم إلا حدثت نفسه بقتله » .

وهذا حديث غريب جداً .

وقوله : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى) ، أى : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة ، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى : (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً فى ملتهم ، ولهذا قال تعالى : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) ، أى : يوجد فيهم القسيسون ـ وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، واحدهم : قسيس وقَسّ أيضا ، وقد يجمع على قسوس ـ والرهبان : جمع راهب ، وهو : العابد ، مشتق من الرهبة ، وهى الخوف ، كراكب وركبان ، وفارس وفرسان .

قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحداً وجَمْعُه رهابين ، مثل قربان وقرابين ، وجُرْذان وجَرَاذين[1] ، وقد يجمع على رهابنة . ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر :

لَوْ عَايَنَتْ رُهْبَانَ دَيْرٍ فى القُلَلْ[2] لانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمْشِى ونَزَلْ

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا بشر بن آدم ، حدثنا نُصَير بن أبى الأشعث ، حدثنى الصلت الدهان ، عن حامية بن رئاب قال : سألت سلمان عن قول الله : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) ، فقال : دع « القسيسين » فى البيَع والخَرِب ، أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » .

وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، عن نُصَير بن زياد الطائى ، عن صلت الدهان ، عن حامية بن رئاب ، عن سلمان ، به .

وقال ابن أبى حاتم : ذكره أبى ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّانى ، حدثنا نُصَير بن زياد الطائى ، حدثنا صلت الدهان ، عن حامية بن رئاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) ، قال : هم الرهبان الذين هم فى الصوامع والخَرِب ، فدعوهم فيها ، قال سلمان : وقرأت على النبى صلى الله عليه وسلم : (ذلك بأن منهم قسيسين) ، فأقرأنى : « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر : « وجوذان وجواذين » ولم نجده . والمثبت من تفسير الطبرى ٦/ ٥٠٣ . والجرذان : مايستحى من ذكره من الإنسان وغيره .

(٢) عاين الشىء : نظر إليه بعينيه مواجهة . والقلل : جمع قلة ، وهى رأس الجبل .

فقوله : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، فقال : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) ، أى : مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم (يقولون : ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين) ، أى : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به .

وقد روى النسائى عن عمرو بن على الفلاس ، عن عمر بن على بن مقدم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن الزبير قال : نزلت هذه الآية فى النجاشى وفى أصحابه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)

وقال الطبرانى : حدثنا أبو شبيل[1] عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد ، حدثنا أبى حدثنا العباس بن الفضل ، عن عبد الجبار بن نافع الضبى ، عن قتادة وجعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قول الله : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) ، قال : إنهم كانوا كرابين — يعنى : فلاحين — قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم . فقالوا : لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن مَرْدُويه ، والحاكم فى مستدركه ، من طريق سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (فاكتبنا مع الشاهدين) ، أى : مع محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته هم الشاهدون ، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ ، وللرسل أنهم قد بلغوا ، ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجه[2] .

وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) : وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله)[3] ... الآية . وهم الذين قال الله فيهم : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين) ، إلى قوله : (لا نبتغى الجاهلين[4]) ، ولهذا قال تعالى ها هنا : (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) ، أى : ساكنين فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، (وذلك جزاء المحسنين) ، أى : فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان .

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) ، أى : جحدوا بها وخالفوها (أولئك أصحاب الجحيم) ، أى : هم أهلها والداخلون إليها .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى المعجم الصغير للطبرانى ٢٣٧ : « أبو شبل » .
(٢) المستدرك ، تفسير سورة المائدة : ٢/٣١٣ .
(٣) آل عمران ، آية : ١٩٩ . ينظر : ٢/١٦٨ .
(٤) الآيات من سورة القصص : ٥٢ / ٥٥ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا: نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليهم ، فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » رواه ابن أبي حاتم (١) .

وروى ابن مردويه من طريق العوفى ، عن ابن عباس نحو ذلك .

وفى الصحيحين ، عن عائشة(٢) ، رضى الله عنها : أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله فى السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، عن عثمان ـ يعنى ابن سعد ـ أخبرنى عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى إذا أكلت اللحم انتشرتُ للنساء ، وإنى حرّمتُ علىّ اللحم ، فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

وكذا رواه الترمذى (٣) وابن جرير جميعا ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن أبي عاصم النبيل ، به . وقال : « حسن غريب » . وقد روى من وجه آخر مرسلا وروى موقوفا على ابن عباس ، فالله أعلم .

وقال سفيان الثورى ووكيع ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا نساء ، فقلنا : ألا نستخصى؟ فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ، ثم قرأ عبد الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ... الآية .

أخرجاه (٤) من حديث إسماعيل . وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة ، والله أعلم .

---

(١) وكذلك رواه ابن جرير ، الأثر ١٢٣٤٦ : ٥١٨/١٠ .

(٢) كذا ، والحديث فى الصحيحين عن أنس بن مالك . ينظر مسلم ، كتاب النكاح : ١٢٩/٤ . والبخارى ، كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح : ٢/٧ .

(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٤١٥/١٠ . وتفسير الطبرى ، الأثر ١٢٣٥٠ : ٥٢٠/١٠ .

(٤) البخارى ، كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء : ٥/٧ . ومسلم كتاب النكاح أيضاً ، باب « نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ، ثم أبيح ثم نسخ ، واستقر تحريمه » : ١٣٠/٤ .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث ، عن عمرو بن شرحبيل قال : جاء معقل بن مُقَرِّن إلى عبدالله ابن مسعود فقال : إني حرمت فراشي . فتلا هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ... الآية .

وقال الثوري ، عن منصور ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : كنا [عند] عبد الله بن مسعود ، فجيء بضَرْع ، فتنحى رجل ، فقال عبد الله : ادن . فقال : إني حرمت أن آكله . فقال عبد الله : ادن فاطعَم و كفر عن يمينك ، وتلا هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [1] ... الآية .

رواهن ابن أبي حاتم . وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه ، من طريق إسحاق بن راهويه ، عن جرير ، عن منصور ، به . ثم قال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه [2] .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني هشام بن سعد : أن زيد بن أسلم حدثه : أن عبد الله بن رواحة ضافه [3] ضيف من أهله ، وهو عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يُطْعِموا ضيفهم انتظارا له ، فقال لامرأته : حبست ضيفي من أجلي ، هو علي حرام . فقالت امرأته : هو علي حرام . وقال الضيف هو علي حرام . فلما رأى ذلك وضع يده ، وقال : كلوا باسم الله . ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الذي كان منهم ، ثم أنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) . وهذا أثر منقطع .

وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا [4] . وفيه ، وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلا أو ملبسا أو شيئا ماعدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضا . ولقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) . ولأن الذي حَرَّم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي صلى الله عليه وسلم بكفارة . وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو شيئا من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه ، إلزاما له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس ، وكما في قوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم) ، ثم قال : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الآية . وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم : حدثنا الحسين : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو ، أن يتبتلوا ويخصُوا أنفسهم ويلبسوا المسوح [5] . فنزلت هذه الآية إلى قوله : (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) — قال ابن جريج ، عن عكرمة : أن عثمان بن مظعون ، وعلي بن أبي طالب

---

(١) مضى هذا الأثر في سورة البقرة عند الآية ١٦٨ : ٢٩٢/١ .

(٢) المستدرك ، تفسير سورة المائدة : ٣١٣/٢ ، ٣١٤ .

(٣) في مخطوطة الأزهر : « أضافه ضيفاً » وهو خطأ . والمثبت عن الدر المنثور ٣٠٩/٢ . وفي تاج العروس : « وضفته — بالكسر — أضيفه ضيفاً وضيافة — بالكسر — : أي نزلت عليه ضيفاً ، ملت إليه » .

(٤) البخاري ، كتاب الأدب ، باب ما يكره من الغضب والجزع عند الضيف : ٤٠/٨ .

(٥) المسوح : جمع مسح — بكسر فسكون — : وهو كساء من شعر يلبسه الرهبان .

وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالما مولى أبي حذيفة في أصحاب ، تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا [طيبات] الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالإخصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ، يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد : ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من الإخصاء فلما نزلت فيهم بعث [إليهم] رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : : إن لأنفسكم حقا . وإن لأعينكم حقا : صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا . فقالوا : اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت(١) .

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة(٢) أم المؤمنين ، كما تقدم ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقال أسباط : عن السدى ، في قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف، فقال ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب ، وعثمان بن مظعون : ما خفنا(٣) إن لم نحدث عملا ، فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم ، فنحن نحرم . فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والوَدَك(٤) ، وأن يأكل بنهار وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء . فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا تدنو منه . فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها وكان يقال لها : الحولاء ــ فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون ، لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ قالت : وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع عليّ زوجي وما رفع عني ثوبا ، منذ كذا وكذا . قال : فجعلن يضحكن من كلامها . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن يضحكن ، فقال : ما يضحككن ؟ قالت : يا رسول الله ، إن الحولاء سألتها عن أمرها . فقالت : ما رفع عني زوجي ثوبا منذ كذا وكذا . فأرسل إليه فدعاه ، فقال : مالك يا عثمان ؟ قال : إني تركته لله ، لكي أتخلى للعبادة . وقص عليه أمره ، وكان عثمان [قد] أراد أن يجُبّ نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقسمت [عليك] إلا رجعت فواقعت أهلك . فقال : يا رسول الله ، إني صائم . فقال : أفطر . فأفطر ، وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت ، فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حولاء ؟ فقالت : إنه أتاها أمس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا أني أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء ، فمن رغب عني فليس مني . فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا)

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٣٤٨ : ١٠/٥١٩ .

(٢) ينظر تعليقنا على نسبة هذه الرواية إلى عائشة .

(٣) في المخطوطة ، والدر المنثور ٢/٣٠٨ : « ما حقنا » . وما أثبتناه من تفسير الطبري ١٠/٥١٧ ، وكان في طبعته الأولى : « ما حقنا » أيضاً ، وفي مخطوطته : « ما حقنا » ، يقول الأستاذ محمود شاكر : « وصواب قراءته ما أثبت ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفهم عقاب الله ، فقالوا : لم نبلغ من الخوف مبلغا يرضاه ربنا ، إن لم نعمل عملا يدل على شدة المخافة » .

(٤) الودك ــ بفتحتين ــ : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه .

يقول لعثمان : لا تجبّ نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء وأمرهم أن يكفروا أيمانهم ، فقال : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) .

رواه ابن جرير (١) .

وقوله : (ولا تعتدوا) يحتمل أن يكون المراد منه : ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف . ويحتمل أن يكون المراد : كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ... (٢) الآية ، وقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٣)) فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط . ولهذا قال : (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

ثم قال : (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أي : في حال كونه حلالا طيبا ، (واتقوا الله) ، أي : في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه ، (الذي أنتم به مؤمنون) .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قد تقدم في سورة البقرة (٤) الكلام على لغو اليمين ، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله ، وبلى والله . وهذا مذهب الشافعي (٥) . وقيل : هو في الهزل . وقيل : في المعصية . وقيل : على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد . وقيل : اليمين في الغضب . وقيل : في النسيان . وقيل : هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك . واستدلوا بقوله : (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

والصحيح أنه اليمين من غير قصد ، بدليل قوله : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أي : بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموها ، (فكفارته إطعام عشرة مساكين) ، يعني : محاويج من الفقراء ، ومن لا يجد ما يكفيه .

وقوله : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٣٤٥ : ١٠/٥١٧ ، ٥١٨ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٣١ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٦٧ .
(٤) ينظر : ١/٣٩١ – ٣٩٣ عند الآية : ٢٢٥ .
(٥) الأم : ٧/٥٧ .

[وقال عطاء الخراساني : من أمثل ما تطعمون أهليكم قال] ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن الحارث ، عن علي قال : « خبز ولبن ، خبز وسمن » .

وقال ابن أبي حاتم : أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن سليمان ـ يعني ابن أبي المغيرة ـ عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان الرجل يقوت [بعض] أهله قوت دون وبعضهم قوتا فيه سعة فقال الله تعالى (من أوسط ما تطعمون أهليكم) [أي : من] الخبز والزيت .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عامر ، عن ابن عباس : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) ، قال : من عسرهم ويسرهم .

وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصي ، حدثنا محمد بن شعيب ـ يعني ابن شابور ـ حدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمي ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عاصم الأحول ، عن رجل يقال له : عبد الرحمن ، عن ابن عمر أنه قال : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال : الخبز واللحم ، [والخبز والسمن] والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والخل

وحدثنا علي بن حرب الموصلي ، حدثنا أبو معاوية ، عن عاصم ، عن ابن سيرين ، عن ابن عمر في قوله : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال : الخبز والسمن والخبز والزيت ، والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم : الخبز واللحم .

ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع كلاهما عن أبي معاوية (١) ، ثم روى ابن جرير عن عُبَيدة ، والأسود ، وشُريح القاضي ، ومحمد بن سيرين ، والحسن ، والضحاك ، وأبي رزين : أنهم قالوا نحو ذلك(٢) وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضا(٣) .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) ، أي : في القلة والكثرة .

ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم ، فقال ابن أبي حاتم ،

حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن حجاج ، عن حصين الحارثي ، عن الشعبي ، عن الحارث ، عن علي في قوله : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) ، قال : يغديهم ويعشيهم .

وقال الحسن ومحمد بن سيرين يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً ـ زاد الحسن : فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتا وخلا حتى يشبعوا .

وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بُرّ أو تمر ونحوهما : هذا قول عمر ، وعلي ، وعائشة ، ومجاهد ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وميمون بن مهران ، وأبي مالك ، والضحاك ، والحاكم ، ومكحول ، وأبي قلابة ، ومقاتل بن حيّان .

---

(١) كذا ، وهو في تفسير الطبري ١٠/٥٣٢ ، الأثر ١٢٣٨٠ : عن أبي الأحوص .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٠/٥٣٢ ، الآثار : ١٢٣٧٨ ـ ١٢٣٩٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/٥٣٢ .

وقال أبو حنيفة : نصف صاع بر ، وصاع مما عداه .

وقد قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفي ، حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف ، حدثنا محمد بن معاوية ، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سخبرة ابن أخي عائشة لأمه حدثنا عمر بن يعلى ، عن المنهال ابن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كفَّر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بصاع من تمر ، وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر .

ورواه ابن ماجه : عن العباس بن يزيد ، عن زياد بن عبد الله البكائي عن عُمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي ، عن المنهال بن عمرو ، به[1] .

لا يصح هذا الحديث لحال عُمَر بن عبد الله هذا فإنه مجمع على ضعفه ، وذكروا أنه كان يشرب الخمر ، وقال الدارقطني : متروك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن إدريس : عن داود – يعني ابن أبي هند – عن عكرمة ، عن ابن عباس : مُدٌّ من بُرٍّ – يعني لكل مسكين – ومعه إدامه[2] .

ثم قال : ورُوِي عن ابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وأبي الشعثاء والقاسم ، وسالم ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وسليمان بن يسار ، والحسن ، ومحمد بن سيرين ، والزهري – نحو ذلك .

وقال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين[3] ، ولم يتعرض للأدم . واحتج بأمر النبي صلى الله عليه وسلم للذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكينا من مكيل يسع خمسة عشر صاعا لكل واحد منهم[4] مد .

وقد ورد حديث آخر صريح في ذلك ، فقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن علي بن الحسن المقرئ ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا النضر بن زُرَارة الكوفي ، عن عبد الله بن عُمَر العُمَري ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقيم كفارة اليمين مدا من حنطة بالمد الأول .

إسناده ضعيف ، لحال النضر بن زرارة بن عبد الأكرم الذهلي الكوفي نزيل بلخ ، قال فيه أبو حاتم الرازي : هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال : روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة ، فالله أعلم ، ثم إن شيخه العمري ضعيف أيضاً .

وقال أحمد بن حنبل : الواجب مد من بر ، أو مدان من غيره ، والله أعلم .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الكفارات ، باب كم يطعم في كفارة اليمين ، الحديث ٢١١٢ : ٦٨٢/١ .

(٢) في تفسير الطبري وقد رواه ابن جرير ، من هناد ، عن أبي معاوية ، عن داود – ٥٣٨/١٠ : « ربعه إدامه » .

(٣) الأم : ٥٨/٧ .

(٤) الأم : ٨٤/٢ ، ٥٨/٧ .

وقوله : (أو كسوتهم) ، قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك [١] . واختلف أصحابه في القلنسوة : هل تجزىء أم لا ؟ على وجهين ، فمنهم من ذهب إلى الجواز ، احتجاجاً بما رواه ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطي قالا : حدثنا القاسم بن مالك ، عن محمد بن الزبير ، عن أبيه قال : سألت عمران بن حصين عن قوله : (أو كسوتهم) ، قال : « لو أن وفداً قدموا على أميركم وكساهم قلنسوة قلنسوة ، قلتم : قد كُسُوا » .

ولكن هذا إسناد ضعيف لحال محمد بن الزبير [٢] هذا ، والله أعلم . وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفرايني في الخف وجهين أيضاً ، والصحيح عدم الإجزاء .

وقال مالك وأحمد بن حنبل : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه ، إن كان رجلا أو امرأة ، كل بحسبه ، والله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة .

وقال مجاهد : أدناه ثوب ، وأعلاه ما شئت .

وقال ليث ، عن مجاهد : يجزىء في كفارة اليمين كل شيء إلا التُّبَّان [٣] .

وقال الحسن ، وأبو جعفر الباقر ، وعطاء ، وطاوس ، وإبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان ، وأبو مالك : ثوب ثوب .

وعن إبراهيم النخعي أيضاً : ثوب جامع كالملحفة والرداء ، ولا [يرى] الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعا .

وقال الأنصاري [٤] ، عن أشعث ، عن ابن سيرين والحسن : ثوبان .

وقال الثوري ، عن داود بن أبي هند ، عن سعيد بن المسيب : عمامة يلف بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا ابن المبارك ، عن عاصم الأحول ، عن ابن سيرين ، عن أبي موسى : أنه حلف على يمين ، فكسا ثوبين من مُعَقَّدة البحرين [٥] .

وقال ابن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن المعلى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ،

---

(١) الأم : ٧/٥٩ — والمقنعة — بكسر الميم — : ما تقنع به المرأة رأسها .

(٢) محمد بن الزبير التميمي الحنظلي البصري . قال عنه النسائي : ضعيف . وقال ابن معين : لا شيء . وقال أبو حاتم : ليس بالقوي ، في حديثه إنكار ، وقال البخاري : روى عنه حماد بن زيد ، منكر الحديث ، وفيه نظر . (ميزان الاعتدال للذهبي : ٣/٥٤٧) .

(٣) التبان — بضم التاء وتشديد الباء — : سراويل صغيرة مقدار شبر ، يستر العورة المغلظة فقط ، يكون للملاحين .

(٤) هو محمد بن عبد الله الأنصاري ، ينظر تفسير الطبري ، الأثر ١٢٣٥٨ : ١٠/٥٤٧ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٤٦٣ : ١٠/٥٤٨ . والمعقد : نوع من برود هجر .

عن مقاتل بن سليمان ، عن أبي عثمان ، عن أبي عياض ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : (أو كسوتهم) ، قال : « عباءة لكل مسكين [1] » .

حديث غريب .

. قوله : (أو تحرير رقبة) أخذ أبو حنيفة بإطلاقها . فقال : تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة . وقال الشافعي وآخرون : لابد أن تكون مؤمنة . وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل ، لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ولحديث معاوية بن الحكم السلمي ، الذي هو في موطأ [2] مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم : أنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة » . الحديث بطوله .

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين ، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع . وقد بدأ بالأسهل فالأسهل ، فالإطعام أيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فرقَّى فيها من الأدنى إلى الأعلى . فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) .

وروى ابن جرير ، عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام [3]

وقال ابن جرير حاكيا عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال : « جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف [به] [4] لمعاشه [ما يكفر به بالإطعام ، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية ، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه] [4] ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه .

ثم اختار ابن جرير : أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين [5] .

واختلف العلماء : هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ على قولين : أحدهما أنه لا يجب التتابع ، هذا منصوص الشافعي [6] في كتاب « الأيمان » ، وهو قول مالك ، لإطلاق قوله : (فصيام ثلاثة أيام) وهو صادق على المجموعة والمفرقة ، كما في قضاء رمضان ، لقوله : (فعدة من أيام أخر) .

ونص الشافعي في موضع آخر « في الأم » على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة ، لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها : (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) .

---

(١) ساق المفسر — كما ترى — أقوالا مختلفة للمفسرين والفقهاء ، في تحديد ما يدفعه المكفر للمساكين من الطعام والكسوة ، ومقداره ، ونوعه ، ويبدو لنا أن العرف هو الفيصل في هذا كله ، وأنت إذا راجعت هذه الأقوال ، تبين لك أن هذا الاتجاه هو الغالب عليها . والله أعلم .

(٢) الموطأ ، كتاب العتق ، باب ما لا يجوز من العتق في الرقاب الواجبة : ٧٧٦/٢ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته : ٧٠/٢ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٤٩٢ ، ١٢٤٩٤ ، ١٠ / ٥٥٨ .

(٤) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبري ، ٥٥٨/١٠ .

(٥) تفسير الطبري : ٥٥٩/١٠ .

(٦) قال الشافعي في الأم ٦٠/٧ : « وكل من وجب عليه صوم ، ليس بمشروط في كتاب الله عز وجل أن يكون متتابعا ، أجزأه أن يكون متفرقاً ، قياسا على قول الله عز وجل في قضاء رمضان : (فعدة من أيام أخر) ، والعدة : أن يأتي بعدد صوم لا ولاء » .

قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب أنه كان يقرؤها : (فصيام ثلاثة أيام متتابعات (١)) .

وحكاها مجاهد ، والشعبى ، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود .

وقال إبراهيم : فى قراءة عبد الله بن مسعود : (فصيامُ ثلاثة أيام متتابعات) .

وقال الأعمش : كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك .

وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنا متواتراً ، فلا أقل من أن يكون خبر واحد ، أو تفسيرا من الصحابى ، وهو فى حكم المرفوع .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن على ، حدثنا محمد بن جعفر الأشعرى ، حدثنا الهيثم بن خالد القرشى ، حدثنا يزيد بن قيس ، عن إسماعيل بن يحيى ، عن ابن عباس قال : « لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة : يا رسول الله ، نحن بالخيار ؟ قال : أنت بالخيار ، إن شئت أعتقت ، وإن شئت كسوت ، وإن شئت أطعمت ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » .

وهذا حديث غريب جداً .

وقوله : (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) ، قال ابن جرير : معناه لا تتركوها بغير تكفير . (كذلك يبين الله لكم آياته) ، أى : يوضحها وينشرها(٢) (لعلكم تشكرون) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطى الخمر والميسر ، وهو القمار .

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : الشِّطْرَنج من الميسر . رواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن عُبَيس بن مرحوم ، عن حاتم ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن على ، به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن ليث ، عن عطاء ومجاهد وطاوس ـ قال سفيان : أو اثنين منهم ـ قالوا : « كل شىء من القمار فهو من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوز » .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٤٩٨ : ١٠/٥٩٩ ، ٥٦٠ .

(٢) أى يكشفها ويوضحها ، قال الزمخشرى فى قوله تعالى : (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) : « ... يراد بالصحف المنشرة : الكتابات الظاهرة المكشوفة » ينظر الكشاف : ٤/٥٢٤ .

وروى عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب ، وقالا : حتى الكعاب[1] ، والجوز ، والبيض التي تلعب بها الصبيان .

وقال موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : الميسر هو القمار .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجئ الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة

وقال مالك ، عن داود بن الحصين ، أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

وقال الزهري ، عن الأعرج قال : الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار .

وقال القاسم بن محمد : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر .

رواهن ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجرا فإنها من الميسر » .

حديث غريب .

وكأن المراد بهذا هو النرد الذي ورد في الحديث [به] في صحيح مسلم ، عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لعب بالنَّرْدَشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه[2] » .

وفي موطأ مالك ومسند أحمد ، وسنن أبي داود وابن ماجه ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله[3] » . وروى موقوفا عن أبي موسى من قوله ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مكي[4] بن إبراهيم ، حدثنا الجعيد ، عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي ، أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول : أخبرني ، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عبد الرحمن : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل الذي يلعب بالنرد ، ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقَيْح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي »[5] .

---

(١) الكعاب ، جمع كعب وكعبة : وهي فصوص النرد . وقد وردت في حديث أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي موسى الأشعري ٣٩٢/٤ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لعب بالكعاب فقد عصى الله ورسوله » .

(٢) مسلم ، كتاب الشعر ، باب تحريم اللعب بالنردشير : ٥٠/٧ .

(٣) الموطأ ، كتاب الرؤيا ، باب ما جاء في النرد : ٩٥٨/٢ ، ومسند أحمد : ٣٩٤/٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ .

(٤) في مخطوطة الأزهر : « علي بن إبراهيم » وهو خطأ ، والمثبت من المسند ، والتهذيب : ٢٩٣/١٠ .

(٥) مسند أحمد : ٣٧٠/٥ .

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر : إنه شرّ من النرد ؛ وتقدم عن على أنه قال : هو من الميسر ؛ ونص على تحريمه مالك ، وأبوحنيفة ، وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى .

وأما الأنصاب فقال ابن عباس ؛ ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وغير واحد : هى حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ؛

وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هى قداح كانوا يستقسمون بها ؛

وقوله : (رجس من عمل الشيطان) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أى سَخَط من عمل الشيطان .

وقال سعيد بن جبير : إثم ؛ وقال زيد بن أسلم : أى شر من عمل الشيطان ؛

(فاجتنبوه) ، الضمير عائد على الرجس ، أى : اتركوه (لعلكم تفلحون) ؛ وهذا ترغيب ؛

ثم قال تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون) وهذا تهديد وترهيب .

[ذكر الأحاديث الواردة فى تحريم الخمر]

قال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا أبو معشر ، عن أبى وهب مولى أبى هريرة ، عن أبى هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ، فأنزل الله : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) ... إلى آخر الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا ، إنما قال : (فيهما إثم كبير) ؛ وكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين ، أمّ أصحابه فى المغرب، خلط فى قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها: (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ؛ وكان الناس يشربون ، حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق(١) ؛ ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ، قالوا : انتهينا ربنا ؛ وقال الناس : يارسول الله ، ناس قتلوا فى سبيل الله ، وماتوا على سرفهم(٢) ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان ؟ فأنزل الله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ... إلى آخر الآية ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لوحرم عليهم لتركوه كما تركتم(٣) » .

انفرد به أحمد .

---

(١) يعنى فى حالة انجلاء السكر عنهم .
(٢) فى المسند : « أو ماتوا على فرشهم » .
(٣) مسند أحمد : ٣٥١/٢ ، ٣٥٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة ، عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) ، فدُعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء : (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ، فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى : [أنْ] لايقربن الصلاة سكرانُ . فدعى [عمر] فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت [الآية] التي في المائدة ، فدعى عمر ، فقرئت عليه فلما بلغ : (فهل أنتم منتهون) قال عمر : انتهينا(١) » .

[وهكذا رواه(٢) أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق ، عن إسرائيل ،عن أبي إسحاق عَمْرو بن عبد الله السَّبيعي وعن أبي ميسرة — واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني — عن عُمَر، به . وليس له عنه سواه ، قال أبو زرعة : ولم يسمع منه : وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي(٣) .

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة ، والشعير ، والخمر ماخامر العقل(٤) » .

وقال البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، حدثني نافع ، عن ابن عمر قال : « نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب(٥) » .

حديث آخر ، قال أبو داود الطيالسي : حدثنا محمد بن أبي حميد ، عن المصري — يعني أبا طعمة قارىء مصر — قال : سمعت ابن عمر يقول : نزلت في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء نزل : (يسألونك عن الخمر والميسر.. الآية) ، فقيل : حرمت الخمر : فقالوا : يارسول الله ، ننتفع بها كما قال الله تعالى : قال : فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية : (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) : فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يارسول الله ، إنا لانشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ، ثم نزلت : (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت الخمر » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن القعقاع بن حكيم : أن عبد الرحمن ابنَ وَعْلَة قال : « سألت ابن عباس عن بيع الخمر ، فقال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صديق من ثقيف

---

(١) تقدم الحديث عند الآية ٢١٩ من سورة البقرة : ١/٣٧٢ ، فانظر تخريجه هناك .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأشربة ، باب في تحريم الخمر ، الحديث ٣٦٧٠ : ٣/٣٢٥ ، والنسائي ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر : ٨/٢٨٦ ، ٢٨٧ ، وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة المائدة : ٨/٤١٥ — ٤١٧ .

(٣) رأيت أن الخمر قد حرمت تحريماً تدريجياً ، ولم تحرم تحريماً حاسماً لأول وهلة . ومرجع هذا إلى أن تعاطيها في المجتمع العربي قد رسخ رسوخ العادة ، والعادات لايمكن القضاء عليها إلا بهذه الطريقة من التدرج ، حتى يكون هجرها أسهل على النفوس .

(٤) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ٦/٦٧ ، وكتاب الأشربة ، باب الخمر من العنب : ٧/١٣٦ ، وباب ما جاء في الخمر ما خامر العقل من الشراب : ٧/١٣٧ . ومسلم ، كتاب التفسير ، باب في تحريم الخمر : ٨/٢٤٥ .

(٥) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ٦/٦٧ .

ـ أو : من دوس ـ فلقيه يوم الفتح براوية(١) [خمر] يهديها إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يافلان، أما علمت أن الله حرمها ؟ فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يافلان ، بماذا أمرته ؟ فقال : أمرته أن يبيعها . قال : إن الذى حرم شربها حرم بيعها . فأمر [بها] فأفرغت فى البطحاء (٢) » .

رواه (٣) مسلم من طريق ابن وهب ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم : ومن طريق بن وهب أيضاً ،عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد كلاهما ـ عن عبد الرحمن بن وَعْلَة ، عن ابن عباس، به . ورواه النسائى، عن قتيبة ، عن مالك ، به .

حديث آخر ، قال الحافظ أبويعلى الموصلى : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا أبوبكر الحنفى ، حدثنا عبد الحميد ابن جعفر ، عن شهر بن حوشب، عن تميم الدارى: « أنه كان يهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية من خمر ، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك وقال : إنها قد حرمت بعدك . قال : يارسول الله ، فأبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود ، حرم عليهم شحوم البقر والغنم ، فأذابوه وباعوه ، والله حرّم الخمر وثمنها » .

وقد رواه أيضاً الإمام أحمد فقال : حدثنا روح ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال : سمعت شهر بن حوشب قال : حدثنى عبد الرحمن بن غَنْم : أن الدارى كان يهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام راوية من خمر ، فلما كان عام حُرِّمت جاء براوية ، فلما نظر إليه ضحك فقال : أشعرت أنها قد حرمت بعدك ؟ فقال : يارسول الله ، ألا أبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود ، انطلقوا إلى ما حُرِّم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه ، فباعوا به ما يأكلون . وإن الخمر حرام وثمنها حرام، وإن الخمر حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام (٤) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ابن لهيعة ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن نافع ابن كيسان أن أباه أخبره : أنه كان يتجر فى الخمر فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر فى الزقاق ،يريد بها التجارة،فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى جئتك بشراب طيب : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياكيسان ، إنها قد حرمت بعدك . قال : فأبيعها يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها قد حرمت وحرم ثمنها . فانطلق كيسان إلى الزقاق ، فأخذ بأرجلها ثم هراقها(٥) » .

---

(١) عن مسند أحمد .

(٢) مسند أحمد : ٢٣٠/١ . وأخرجه الإمام أحمد بنحوه من وجه آخر عن يونس بإسناده إلى عبد الرحمن بن وعلة : ٢٤٤/١ .

(٣) مسلم ، كتاب البيوع ، باب تحريم بيع الخمر : ٤٠/٥ . والموطأ ، كتاب الأشربة ، باب جامع تحريم الخمر : ٨٤٦/٢ . والنسائى ، كتاب البيوع ، باب بيع الخمر : ٣٠٧/٧ ، ٣٠٨ .

(٤) مسند أحمد : ٢٢٧/٤ .

(٥) مسند أحمد : ٣٣٧/٤ .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن حميد ، عن أنس قال : «كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح ، وأبي بن كعب ، وسهيل بن بيضاء ، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فما قالوا : حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس أكفِ ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها ، وما هي إلا التمر والبسر ، وهي خمرهم يومئذ[1] » .

أخرجاه[2] في الصحيحين — من غير وجه — عن أنس : وفي رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم إلا الفَضيخ[3] البسرُ والتمرُ ، فإذا مناد ينادي ، قال : اخرج فانظر ، فإذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حُرِّمت ، فجرتْ في سِكَكِ المدينة ، قال : فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهْرِقها ، فهرقتها ، فقالوا — أو : قال بعضهم — : قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم ، قال فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ... الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسهيل بن بيضاء ، وأبي دُجانة ، حتى مالت رءوسهم من خليط بُسْر[4] وتمر ، فسمعت منادياً ينادي : ألا إن الخمر قد حُرِّمت ! قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج ، حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال[5] ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أمّ سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : (يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) إلى قوله : (فهل أنتم منتهون) ، فقال رجل : يارسول الله ، فما منزلة من مات وهو يشربها ؟ فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ... الآية ، فقال رجل لقتادة : سَمِعته من أنس بن مالك ؟ قال : نعم : وقال رجل لأنس بن مالك : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم — أو : حدثني من لم يكذب ، ما كنا نكذب ، ولا ندري ما الكذب[6] .

---

(١) مسند أحمد : ٣/١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) البخاري ، كتاب الأشربة ، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر : ٧/١٣٦ . وباب من رأى أن لا يخلط البسر والتمر إذا كان مسكراً : ٧/١٤٠ . ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر : ٦/٨٧ .

(٣) الفضيخ : شراب يتخذ من البسر المفضوخ ، أي : المشدوخ .

(٤) البسر — بضم الباء وسكون السين — : التمر قبل أن يرطب .

(٥) القلال : جمع قلة — بضم القاف — وهي : الجرة الكبيرة .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٢٧ : ١٠/٥٧٨ . وفيه : « قال : نعم ، وحدثني » بالواو دون « أو » والمثبت من مخطوطة الأزهر ، ومخطوطتي دار الكتب : ١ ، ٨٥ تفسير . ومجمع الزوائد : ٥/٥٢ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرني يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زَحْر ، عن بكر بن سوادة ، عن قيس بن سعد بن عبادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربي تبارك وتعالى حرم عَلَيَّ الخمر ، والكوبة(١) ، والقنّين ؛ وإياكم والغُبَيراء فإنها ثلث خمر العالم(٢) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرم على أمتى الخمر ، [والميسر] ، والمِزْر ، والكُوبة والقِنّين . وزادني صلاة الوتر - قال يزيد : القنين البرابط(٣) » .

تفرد به أحمد(٤) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا أبو عاصم - وهو النبيل - أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب ، عن عمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال عليّ مالم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم » قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله حرم الخمر والميسر والكُوبة والغُبَيراء ، وكل مسكر حرام » .

تفرد(٥) به أحمد أيضاً .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبي طعمة - مولاهم - وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعنت الخمر على عشرة وجوه : لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ومبتاعها ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وآكل(٦) ثمنها » .

ورواه أبو داود وابن (٧) ماجه ، من حديث وكيع ، به .

---

(١) الكوبة - بضم الكاف - : « النرد . وقيل : الطبل » . والقنين - بكسر القاف والنون المشددة - : « لعبة للروم يقامرون بها . وقيل : هو الطنبور بالحبشية ، والتقنين : الضرب بها » . والغبيراء - بضم الغين وفتح الباء - : « ضرب من الشراب يتخذه الحبش من الذرة ، وهي تسكر ، وتسمى السكركة » .

(٢) مسند أحمد : ٤/٤٢٢ .

(٣) البرابط : جمع بربط ، وهو : « ملهاة تشبه العود ، وهو فارسي معرب . وأصله : بربت ؛ لأن الضارب به يضعه على صدره ، واسم الصدر : بر » . وهذا التفسير للقنين يشبه التفسير الثاني الذي قدمناه .

(٤) مسند أحمد : ٢/١٦٣ .

(٥) مسند أحمد : ٢/١٧١ .

(٦) مسند أحمد : ٢/٢٥ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الأشربة ، باب العنب يعصر للخمر ، الحديث ٣٦٧٤ : ٣/٣٢٦ . وابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب : لعنت الخمر على عشرة أوجه ، الحديث ٣٣٨٠ : ٢/١١٢١ .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبوطعمة [١] ، سمعت ابن عمر يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المربد ، فخرجت معه فكنت عن يمينه ، وأقبل أبوبكر فتأخرت [٢] عنه ، فكان عن يمينه وكنت عن يساره ، ثم أقبل عمر فتنحيت له ، فكان عن يساره . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم المربد ، فاذا بزقاق [٣] على المربد فيها خمر — قال ابن عمر — فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدية [٤] — قال ابن عمر : وما عرفت المدية إلا يومئذ — فأمر بالزقاق فشقت ، ثم قال : « لعنت الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وآكل ثمنها [٥] » .

وقال أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا أبوبكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال : قال عبد الله بن عمر أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آتيه بمدية وهي الشفرة فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال « اغد علي بها » ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت فلم أترك في أسواقها زقاً إلا شققته .

حديث آخر ، قال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الرحمن بن شريح ، وابن لهيعة والليث بن سعد ، عن خالد بن يزيد ، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره : أنه كان له عم يبيع الخمر ، وكان يتصدق ، فنهيته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة فتلقيت ابن عباس ، فسألته عن الخمر وثمنها ، فقال : هي حرام وثمنها حرام ، ثم قال ابن عباس رضي الله عنه : يامعشر أمة محمد ، إنه لوكان كتاب بعد كتابكم — ونبي بعد نبيكم ، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن [٦] أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري لهو أشد عليكم — قال ثابت : فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر ، فقال : « سأخبرك عن الخمر ، إني كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فبينا هو محتب حل [٧] حبوته [٨] ثم قال : من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها . فجعلوا يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق أو : ماشاء الله أن يكون عنده — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا ببقيع كذا وكذا ثم آذنوني ، ففعلوا ، ثم آذنوه [٩] فقام وقمت معه ، فمشيت عن يمينه وهو متكيء علي ، فلحقنا أبوبكر رضي الله عنه ، فأخرني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعلني عن شماله ، وجعل أبا بكر مكاني . ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخرني ، وجعله عن يساره ، فمشى بينهما . حتى إذا وقف على الخمر قال للناس : أتعرفون هذه ؟ قالوا : نعم ، يارسول الله ، هذه

---

(١) بعده في المسند : « قال ابن لهيعة : « لا أعرف أيش اسمه » يعني أبا طعمة .
(٢) في المسند : « فتأخرت له » .
(٣) في المسند : « بأزقاق » .
(٤) يعني قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هات المدية » والمدية : هي السكين والشفرة .
(٥) مسند أحمد : ٢/ ٧١ .
(٦) في سنن البيهقي : « ولا أخر » .
(٧) في مخطوطة الأزهر : « حل حبوته » . والمثبت عن سنن البيهقي .
(٨) الاحتباء : أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ، ويشده عليها .
(٩) في سنن البيهقي : « ثم أتوه » .

الخمر ؛ قال : صدقتم ؛ قال : فان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها ، وشاربها وساقيها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها ؛ ثم دعا بسكين فقال : اشحذوها . ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق بها الزقاق ، قال : فقال الناس : فى هذه الزقاق منفعة ، قال : أجل ، ولكنى إنما أفعل ذلك غضباً لله عز وجل ، لما فيها من سخطه ؛ فقال عمر : أنا أكفيك يارسول الله . قال : لا .

قال ابن وهب : وبعضهم يزيد على بعض فى قصة الحديث رواه البيهقى (١) .

حديث آخر ، قال الحافظ أبوبكر البيهقى : أنبأنا أبوالحسين بن بشران ، أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار ، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادى ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا شعبة ، عن سماك ، عن مصعب بن سعد [عن سعد] قال : أنزلت فى الخمر أربع آيات – فذكر الحديث قال : وصنع رجل من الأنصار طعاماً ، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا ، فتفاخرنا ، فقالت الأنصار : نحن أفضل . وقالت قريش : نحن أفضل . فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور ، فضرب به أنف سعد ففزره [وكان أنف سعد مفزوراً](٢) فنزلت آية الخمر : (إنما الخمر والميسر) ... إلى قوله تعالى : (فهل أنتم منتهون) (٣) .

أخرجه مسلم من حديث شعبة .

حديث آخر ، قال البيهقى : وأخبرنا أبونصر بن قتادة ، أنبأنا أبو على الرفاء ، حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا ربيعة بن كلثوم ، حدثنى أبى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما [أن] صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع بى هذا أخى فلان – وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن – [والله لوكان بى رءوفاً رحيماً ما صنع هذا بى ، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم](٤) فأنزل الله هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) ... إلى قوله تعالى : (فهل أنتم منتهون) فقال : ناس من المتكلفين : هى رجس ، وهى فى بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد ؟ فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ... إلى آخر (٥) الآية .

ورواه النسائى فى التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة ، عن حجاج بن منهال .

---

(١) سنن البيهقى ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فى تحريم الخمر : ٨/٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) عن سنن البيهقى .

(٣) سنن البيهقى ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فى تحريم الخمر : ٨/٢٨٥ .

(٤) عن سنن البيهقى .

(٥) سنن البيهقى ، الكتاب والباب المتقدمان : ٨/٢٨٥ ، ٢٨٦ .

حديث آخر ، قال ابن جرير : حدثني محمد بن خلف ، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي ، عن أبي تميلة ، عن سلام مولى حفص أبي القاسم ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رَمْلة(١) ، ونحن ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حِلاً ، إذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : (يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر) ، إلى آخر الآيتين : (فهل أنتم منتهون) ؟ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله : (فهل أنتم منتهون) ؟ قال : وبعض القوم شَرْبته في يده ، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء ، فقال(٢) بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا(٣) !

حديث آخر ، قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أخبرنا ابن عُيَيْنه ، عن عمرو ، عن جابر قال : « صَبَّح ناس غداة أحد الخمر ، فقُتِلوا من يومهم جميعاً شهداء ، وذلك قبل تحريمها(٤) » .

هكذا رواه البخاري في تفسيره من صحيحه ، وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم . فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ، ثم قال : وهذا إسناد صحيح . وهو كما قال ، ولكن في سياقته غرابة .

حديث آخر ، قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب قال : لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم ؟ فنزلت : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ... الآية .

ورواه الترمذي ، عن بُنْدار ، عن غُنْدَر عن شعبة ، به نحو . وقال : حسن صحيح(٥) .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا جعفر بن حميد الكوفي ، حدثنا يعقوب القمي ، عن عيسى بن جارية ، عن جابر بن عبد الله قال : « كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة ، فلقيه رجل من المسلمين فقال : يا فلان ، إن الخمر قد حرمت فوَضَعها حيث انتهى على تَلّ ، وسَجّى عليها بأكسية ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، بلغني أن الخمر قد حرمت ؟ قال : أجل . قال : لي أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : لا يصلح ردها . قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال : لا . قال : فإن فيها مالا ليتامى في حجري ؟ قال : إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوِّضْ أيتامك من مالهم . ثم نادى بالمدينة ، فقال رجل : يارسول الله ، الأوعية ننتفع بها ؟ . قال فحُلّوا أوكيتها(٦) . فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي » .

هذا حديث غريب .

---

(١) أي : ومله منبتة مربعة . والباطية : إناء عظيم من زجاج ، تملأ من الشراب ، وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون .
(٢) قال بالإناء : أي أماله ثم نزعه .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٢٣ : ١٠/٥٧٢ .
(٤) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ٦/٦٧ .
(٥) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة المائدة : ٨/٤١٩ .
(٦) الأوكية جمع وكاء وهو : خيط يشد به فم الوعاء . وقد مضى في ١/٥٢ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن السدى ، عن أبى هبيرة — وهو يحيى بن عبّاد الأنصارى — عن أنس بن مالك : أن أبا طلحة سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أيتام[1] فى حجره ورثوا خمراً ، فقال : أهرقها ؛ قال : أفلا نجعلها خلا ؟ قال : لا » [2] .

ورواه مسلم[3] ، وأبوداود ، والترمذى ، من حديث الثورى ، به نحوه .

حديث آخر ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا عبد العزيز بن [أبى] سلمة ، حدثنا هلال بن أبى هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : « إن هذه الآية التى فى القرآن : (يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون) ، قال : هى فى التوراة : « إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ، ويبطل به اللعب ، والمزامير ، والزَّفْن[4] ، والكِبَارات — يعنى البرابط — والزمارات — يعنى به الدف — والطنابير — والشعر ، والخمر مرة لمن طعمها : أقسم الله بيمينه وعزة [حَيْله] [5] من شربها بعد ما حرمتها لأعطشنه يوم القيامه ، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقينه إياها فى حظيرة القدس » .

وهذا إسناد صحيح .

حديث آخر ، قال عبد الله بن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن عمرو بن شُعَيب حدثهم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك الصلاة سكرا مرة واحدة ، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ؛ ومن ترك الصلاة سكرا أربع مرات ، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ؛ قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : عصارة أهل جهنم[6] » .

ورواه أحمد ، من طريق عمرو بن شعيب[7] .

حديث آخر ، قال أبوداود : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعانى قال : سمعت النعمان — هو ابن أبى شيبة الجَنَدى — يقول عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل مخمر خمر ، وكل مسكر حرام ؛ ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً ، فان تاب تاب الله عليه ، فان عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ؛ قيل : وما طينة الخبال يارسول الله ؟ قال : صديد أهل النار ؛ ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه ، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » .

---

(١) لفظ المسند : « عن أيتام ورثوا خمراً » .

(٢) مسند أحمد : ١١٩/٣ .

(٣) مسلم ، كتاب الأشربة ، باب تحريم تخليل الخمر : ٨٩/٦ . وأبو داود ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فى الخمر تخلل ، الحديث ٣٦٧٥ : ٣٢٦/٣ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البيوع ، باب ما جاء فى بيع الخمر والنهى عن ذلك : ٥١٦/٤ .

(٤) الزفن : الرقص . والكبارات : لعله جمع كبار ، وكبار جمع كبر ، مثل : جمل وجمال وجمالات ، والكبر : هو الطبل .

(٥) ما بين القوسين من الدر المنثور ٣١٧/٢ . والحيل كما فى النهاية : القوة .

(٦) سنن البيهقى ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فى تحريم الخمر : ٢٨٧/٨ .

(٧) مسند أحمد : ١٧٨/٢ .

تفرد به أبو داود(١) .

حديث آخر ، قال الشافعي رحمه الله : أنبأنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حُرمها في (٢) الآخرة » .

أخرجه البخاري (٣) ومسلم ، من حديث مالك ، به .

وروى مسلم عن أبي الربيع ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مُسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمنها ولم يتب ، (٤) منها لم يشربها في الآخرة » (٥) .

حديث آخر ، قال ابن وهب : أخبرني عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار أنه سمع سالم بن عبد الله يقول : قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى (٦) » .

ورواه النسائي ، عن عمرو بن علي ، عن يزيد بن زريع ، عن عمر بن محمد العُمَري ، به .

وروى أحمد ، عن غندر ، عن شعبة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة ، منان ولا عاق ، ولا مدمن خمر » (٧) .

ورواه أحمد أيضاً ، عن عبد الصمد ، عن عبد العزيز بن مسلم(٨) عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد (٩) ، به ؛ وعن مروان بن شجاع ، عن خصيف ، عن مجاهد ، به . ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا عن الحسين الجعفي عن زائدة عن ابن أبي زياد ، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد كلاهما عن أبي سعيد ، به .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأشربة ، باب النهي عن المسكر ، الحديث ٣٦٨٠ : ٣/٣٢٧ .

(٢) مسند الشافعي على الأم : ٦/٢٢٨ .

(٣) البخاري ، كتاب الأشربة : ٧/١٣٥ . ومسلم ، كتاب الأشربة أيضاً ، باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها بمنعه إياها في الآخرة . ٦/١٠١ . والحديث في الموطأ ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر : ٢/٨٤٦ .

(٤) لفظ مسلم : « وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة » .

(٥) مسلم ، كتاب الأشربة ، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام : ٦/١٠٠ .

(٦) سنن البيهقي ، كتاب الأشربة ، باب التشديد على مدمن الخمر : ٨/٢٨٨ .

(٧) مسند أحمد : ٣/٤٤ .

(٨) في مخطوطة الأزهر : « بن أسلم » وهو خطأ ، والمثبت من مسند أحمد ، وينظر الخلاصة .

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولامنان ، ولا ولد زنية »[1] .

وكذا رواه عن يزيد ، عن همام ، عن منصور ، عن سالم ، عن جابان ، عن عبدالله بن[2] عمرو ، به : وقد رواه أيضاً عن غندر وغيره عن شعبة عن منصور عن سالم عن نُبَيط بن شَرِيط ، عن جابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل الجنة منان ، ولاعاق والديه ، ولامدمن خمر[3] » .

ورواه النسائي ، من حديث شعبة كذلك ، ثم قال : ولانعلم أحدا تابع شعبة عن نبيط بن شريط .

وقال البخاري : لايعرف لجابان سماع من عبد الله ، ولا لسالم من جابان ولانبيط .

وقد روى هذا الحديث من طريق مجاهد : عن ابن عباس ـ ومن طريقه أيضاً ـ عن أبي هريرة ، فالله أعلم .

وقال الزهري : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن أباه قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت : إنا ندعوك لشهادة . فدخل معها ، فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة [ولكني] دعوتك لتقعَ عليّ أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر . فسقته كأساً ، فقال : زيدوني ، فلم يَرِم حتى وقع عليها ، وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر فإنها لاتجتمع هي والإيمان أبدا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه[4] » .

رواه البيهقي ، وهذا إسناد صحيح . وقد رواه أبوبكر بن أبي الدنيا في كتابه « ذم المسكر » عن محمد بن عبد الله بن بزيع ، عن الفضيل بن سليمان النميري ، عن عمر بن سعيد ، عن الزهري ، به مرفوعا . والموقوف أصح ، والله أعلم .

وله شاهد في الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن[5] » .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا أسود بن[6] عامر ، أخبرنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما حرمت [الخمر] قال أناس : يارسول الله ، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا

---

(١) مسند أحمد : ٢٠٣/٢ .

(٢) مسند أحمد : ١٦٤/٢ .

(٣) مسند أحمد : ٢٠١/٢ .

(٤) سنن البيهقي ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء في تحريم الخمر : ٢٨٧/٨ ، ٢٨٨ .

(٥) البخاري ، كتاب الأشربة : ١٣٥/٧ ، ١٣٦ وكتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر : ١٩٥/٨ ، ١٩٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون : ٥٤/١ ، ٥٥ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ، الحديث ٤٦٨٩ : ٢٢١/٤ . والنسائي ، كتاب قطع السارق ، باب تعظيم السرقة : ٤/٨ ، وكتاب القسامة ، باب ما جاء في كتاب القصص من المجتبى : ٦٣/٨-٦٤ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب النهي عن النهبة ، الحديث ٣٩٣٦ : ١٢٩٨/٢ ، ١٢٩٩ . ومسند أحمد عن أبي هريرة من حديث طويل : ٣١٧/٢ ، وعن أبي هريرة أيضاً : ٣٨٦/٢ ، ٤٧٩ . وعن عبد الله بن أبي أوفى : ٣٥٢/٤ ، ٣٥٣ .

وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية قال : – « ولما حُوّلت القبلة قال أناس : يارسول الله ، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله : (وماكان الله ليضيع إيمانكم) (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا داود بن مهران الدباغ ، حدثنا داود – يعني العطار – عن ابن خُثَيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة ، إن مات مات كافراً ، وإن تاب تاب الله عليه : وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قالت ، قلت : يارسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار (٢) » :

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قيل لي : أنت منهم » ،
وهكذا رواه مسلم (٣) ، والترمذي ، والنسائي ، من طريقه :

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي ، حدثنا علي بن عاصم ، حدثنا إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وهاتان الكعبتان (٤) الموسومتان اللتان تزجران زجراً ، فإنهما ميسر العجم (٥) » :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قال الوالبي ، عن ابن عباس قوله (ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) ، قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي الله به عباده في إحرامهم ، حتى لوشاءوا يتناولونه بأيديهم : فنهاهم الله أن يقربوه (٦) .

وقال مجاهد : (تناله أيديكم) ، يعني : صغار الصيد وفراخه (ورماحكم) ، يعني : كباره (٧) :

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عُمْرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

---

(١) مسند أحمد : ١/٢٩٥ .
(٢) مسند أحمد : ٦/٤٦٠ .
(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود : ٧/٤٧ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة المائدة : ٨/٤١٩ ، ٤٢٠ .
(٤) الكعبتان : مثنى كعبة ، وهي فص النرد الذي يلعب به .
(٥) مسند أحمد : ١/٤٤٦ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٤٢ : ١٠/٥٨٤ .
(٧) المصدر السابق ، الأثر ١٢٥٣٧ : ١٠/٥٨٣ .

(ليعلم الله من يخافه بالغيب) ، يعنى : أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سراً وجهراً ، ليظهر طاعة من يطيع منهم فى سره وجهره . كما قال تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

وقوله هاهنا : (فمن اعتدى بعد ذلك) ، قال السدى وغيره : يعنى بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم (فله عذاب أليم) أى : لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتقتلوا الصيد وأنتم حُرُم) : وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الإحرام ، ونهى عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها . والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولايستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين من طريق الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور[1]» .

وقال مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور» .
أخرجاه[2] .

ورواه أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، مثله . قال أيوب ، قلت لنافع : فالحية ؟ قال : الحية لاشك فيها ، ولايختلف فى قتلها .

ومن العلماء كمالك وأحمد ـ من ألحق بالكلب العقور الذئب ، والسبع ، والنمر ، والفهد ؛ لأنها أشد ضرراً منه ، فالله أعلم . وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلّها . واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا على عتبة بن أبى لهب قال : «اللهم سلط عليه كلبك بالشام . فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فان قتل ماعداهن فداها كالضبع والثعلب وهرّ البر[3] ونحو ذلك .

قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادى .

وقال الشافعى : يجوز للمحرم قتل كل ما لايؤكل لحمه ، ولافرق بين صغاره وكباره . وجعل العلة الجامعة كونها لاتؤكل .

وقال أبوحنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب برى ، فان قتل غيرهما فداه ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه . وهذا قول الأوزاعى ، والحسن بن صالح بن حيى .

---

(١) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن فى الحرم : ١٥٧/٤ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب فى الحل والحرم : ١٧/٤ ، ١٨ .

(٢) الموطأ ، كتاب الحج ، باب ما يقتل المحرم من الدواب : ٣٥٦/١ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب فى الحل والحرم : ١٩/٤ .

(٣) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب ١ : تفسير «وهو أكبر» والمثبت عن مخطوطة الدار ٨٥ .

وقال زفر ابن الهذيل : يفدى ماسوى ذلك وإن صال عليه .

وقال بعض الناس : المراد بالغراب هاهنا الأبقع — وهو الذى فى بطنه وظهره بياض — دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد ابن المسيب ، عن عائشة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خمس يقتلهن المحرم : الحية ، والفأرة ، والحدأة ، والغراب الأبقع ، والكلب العقور » .

والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ، لما ثبت فى الصحيحين من إطلاق لفظه .

وقال مالك رحمه الله : لايقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه .

وقال مجاهد بن جَبْر وطائفة : لايقتله بل يرميه : ويروى مثله عن على .

وقد روى هُشَيم : حدثنا يزيد بن أبى زياد ، عن عبد الرحمن بن أبى نُعْم ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عما يقتل المحرم ، فقال : « الحية ، والعقرب ، والفويسقة ، ويرمى الغراب ولا يقتله ، والكلب العقور ، والحدأة ، والسبع العادى » .

رواه أبوداود (١) عن أحمد بن حنبل ، والترمذى عن أحمد بن منيع ، كلاهما عن هشيم — وابن ماجه ، عن أبى كريم ، عن محمد بن فضيل — كلاهما عن يزيد بن أبى زياد — وهو ضعيف — به . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقوله تعالى : (ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم) — قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوسعيد الأشج ، حدثنا ابن علية ، عن أيوب قال : نبئت عن طاوس قال : « لايحكم على من أصاب صيداً خطأ ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً » .

وهذا مذهب غريب عن طاوس ، وهو متمسك بظاهر الآية .

وقال مجاهد بن جبر : المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد ، الناسى لإحرامه : فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه ، فذاك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه .

رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبى نجيح وليث بن أبى سليم وغيرهما ، عنه (٢) : وهو قول غريب أيضاً : والذى عليه الجمهور أن العامد والناسى سواء فى وجوب الجزاء عليه ؛ قال الزهرى : دل الكتاب على العامد ، وجرت السنة على الناسى : ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله : (ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه) وجاءت السنة من أحكام النبى صلى الله عليه وسلم وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب ما يقتل المحرم من الدواب ، الحديث ١٨٤٨ : ٢/ ١٧٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الحج ، باب ما جاء ما يقتل المحرم من الدواب : ٣/ ٥٧٦ . ٥٧٧ . وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب ما يقتل المحرم ، الحديث ٣٠٨٩ : ٢/ ١٠٣٢ . ومسند أحمد : ٣/ ٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٢٥٤٤ — ١٢٥٥١ : ١١/ ٨ ، ٩ .

فى الخطأ ، كما دل الكتاب عليه فى العمد ، وأيضاً فان قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون فى العمد وفى النسيان ، لكن المتعمد مأثوم والمخطىء غير ملوم .

وقوله : (فجزاء مثل ماقتل من النعم) ـ وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأها : (فجزاؤه مثل ما قتل من النعم)[١] ،

وفى قوله : (فجزاء مثل ما قتل من النعم) على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك ، والشافعى ، وأحمد ، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم ، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسى ، خلافاً لأبى حنيفة رحمه الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلى ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه ، وإن شاء اشترى به هديا . والذى حكم به الصحابة فى المثل أولى بالاتباع ، فانهم حكموا فى النعامة ببدنة ، وفى بقرة الوحش ببقرة ، وفى الغزال بعنز . وذكرُ قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر فى كتاب « الأحكام » ، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه ، يحمل إلى مكة . رواه البيهقى .

وقوله : (يحكم به ذوا عدل منكم) ، يعنى أنه يحكم بالجزاء فى المثل ، أو القيمة فى غير المثل ، عدلان من المسلمين . واختلف العلماء فى القاتل : هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين :

أحدهما : لا ، لأنه قد يتَّهم فى حكمه على نفسه ، وهذا مذهب مالك .

والثانى : نعم ، لعموم الآية . وهو مذهب الشافعى ، وأحمد .

واحتج الأولون بأن الحاكم لايكون محكوماً عليه فى صورة واحدة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبونعيم الفضل بن دكين ، حدثنا جعفر ـ هو ابن برقان ـ عن ميمون ابن مهران : « أن أعرابياً أتى أبا بكر قال : قتلت صيداً وأنا محرم ، فما ترى على من الجزاء ؟ فقال أبوبكر رضى الله عنه لأبى بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها قال ؟ فقال الأعرابى : أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك ، فاذا أنت تسأل غيرك ؟ . فقال أبوبكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) فشاورت صاحبى [حتى] إذا اتفقنا على أمر أمرناك به » .

وهذا إسناد جيد ، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل هاهنا . فبين له الصديق الحكم برفق وتُؤدة ، لمارآه أعرابياً جاهلا ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم ، فقد قال ابن جرير :

حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعى قالا : حدثنا وكيع بن الجراح ، عن المسعودى عن عبد الملك بن عمير ، عن قَبيصة ابن جابر قال : خرجنا حجاجاً ، فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنح[٢] لنا ظبى ـ أو : برح ـ فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه[٣] فركب رَدْعه ميتاً ، قال فعظَّمنا عليه ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١١/١٣ .

(٢) سنح الظبى : أتاك عن يسارك . وبرح : أتاك عن يمينك .

(٣) الخشاء ـ بضم الخاء وتشديد السين ـ : العظم الدقيق العارى من الشعر ، الناتئ خلف الأذن . وركب ردعه : خر لوجهه على دمه . وأصل الردع ما تلطخ به الشىء من زعفران أو غيره ، ومعنى ركوبه عليه : أن الدم يسيل ثم يخر عليه صريعاً .

فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر رضي الله عنه ، قال : فقص عليه القصة قال : وإلى جنبه رجل كأن وجهه قُلْب فضة[1] — يعني عبد الرحمن بن عوف — فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه ، وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها فتصدق بلحمها واستبق[2] إهابها ، قال : فقمنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، عظّم شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها ، ففعل ذاك[3] [قال] قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة : (يحكم به ذوا عدل منكم) ؛ قال فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرّة ، قال : فعلا صاحبي ضربا بالدرة [وجعل يقول] : أقتلت في الحرم وسفّهت الحكم ؟ قال : ثم أقبل علي فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحلّ لك اليوم شيئاً يحرُم عليك[4] مني قال : ياقبيصة بن جابر ، إني أراك شابّ السن ، فسيح الصدر ، بيّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء ، فيفسد الخلقُ السيئ الأخلاقَ الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب[5] .

وقد روى هشيم هذه القصة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بنحوه[6] ؛ ورواها أيضاً عن حصين ، عن الشعبي ، عن قبيصة ، بنحوه[7] ؛ وذكرها مرسلة عن عُمَر : بكر[8] بن عبد الله المزني ، ومحمد بن سيرين[9] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن أبي وائل ، أخبرني أبو جرير[10] البجلي قال : أصبت ظبياً وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر ، فقال : ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك ، فأتيت عبد الرحمن وسعدا ، فحكما على بتيس[11] أعفر .

---

(١) القلب : سوار يكون ليا واحداً . وقد كان وجه عبد الرحمن بن عوف أبيض مشربا حمرة .

(٢) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومخطوطتي دار الكتب ١ ، ٨٥ تفسير . وفي تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٨٨/١١/٢٤ : « وأستق إهابها » ومثله في سنن البيهقي ، كتاب الحج ، باب جزاء الصيد ١٨١/٥ ، ونصه « وأسق إهابها سقاء » . ويقول الأستاذ محمود شاكر : « أسق إهابها » ، يعني : أعط إهابها من يدبغه ويتخذ من جلد سقاء . « والسقاء » : ظرف الماء من الجلد . و « الإهاب » : الجلد من البقر والغنم والوحش ، ما لم يدبغ .

(٣) كذا في مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب : تفسير . وفي نسخة الدار ٨٥ : « فلعل ذاك » ومثله في تفسير الطبري ٢٥/١١ . هذا وقد وقع في مطبوعات تفسير ابن كثير النص كما يأتي : « فلعل ذلك » يعني أن يجزئ عنك » .

(٤) يعني : لن يحله من ضربت بشرة هي عليه حرام إلا بحقها .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٨٨ : ٢٤/١١ ، ٢٥ .

(٦) المصدر السابق ، الأثر ١٢٥٧٣ : ١٦/١١ .

(٧) المصدر السابق ، الأثر ١٢٥٧٤ : ١٧/١١ .

(٨) المصدر السابق ، الأثر ١٢٥٧٦ ، ١٢٥٨٥ : ١٧/١١ ، ٢٣ .

(٩) المصدر السابق ، الأثر ١٢٥٩٠ : ٢٧/١١ ، ٢٨ .

(١٠) في مخطوطة الأزهر ، ومخطوطتي دار الكتب ١ ، ٨٥ تفسير : « ابن جرير » . والمثبت من تفسير الطبري .

(١١) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٥٩٣ ، ٢٧/١١ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا ابن عيينة ، عن مخارق ، عن طارق قال : أوطأ[١] أربد ظبياً[٢] فقتله وهو محرم فأتى عمر ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معى . فحكما فيه جَدْياً ، قد جمع الماء والشجر[٣] . ثم قال عمر : (يحكم به ذوا عدل[٤] منكم) .

وفى هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين : كما قاله الشافعى وأحمد ، رحمهما الله .

واختلفوا : هل تستأنف الحكومة فى كل ما يصيبه المحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل ، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة ، أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين ، فقال الشافعى وأحمد : يتبع فى ذلك ما حكمت به الصحابة ، وجعلاه شرعاً مقرراً لايعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين . وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم فى كل فرد فرد ، سواء وجد للصحابة فى مثله حكم أم لا . لقوله تعالى : (يحكم به ذوا عدل منكم)

وقوله تعالى : (هديا بالغ الكعبة) ، أى : واصلا إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم ، بأن يذبح هناك ، ويفرّق لحمه على مساكين الحرم : وهذا أمر متفق عليه فى هذه الصورة .

وقوله : (أو كفارة طعام مساكين ، أو عَدْل ذلك صياماً) ، أى : إذا لم يجد المحرمُ مثل ما قتل من النعَم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير فى هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام ، كما هو قول مالك ، وأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأحد قولى الشافعى ، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر الآية «أو» فانّها للتخيير ، والقول الآخر : أنها على الترتيب .

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيقوّم الصيد المقتول عند مالك ، وأبى حنيفة ــ وأصحابه ، وحماد ، وإبراهيم ، وقال الشافعى : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ، ثم يشترى به طعام ويتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعى ، ومالك ، وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يطعم كل مسكين مدين ، وهو قول مجاهد .

وقال أحمد : مدّ من حنطة ، أو مدان من غيره .

فإن لم يجد ، أو قلنا بالتخيير ، صام عنْ إطعام كل مسكين يوماً .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع[٥] يوماً . كما فى جزاء المترفه بالحلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة[٦] أن يطعم فَرَقاً بين ستة ، أو يصوم ثلاثة أيام ، والفَرَقُ ثلاثة آصع .

---

(١) أوطأ : حمل دابته حتى وطئت الظبى ، أى داسته . وأربد هو ابن عبد الله البجلى ، ترجم له ابن حجر فى الإصابة : ١/١١٠ ، وذكر هذا الأثر فى ترجمته .

(٢) فى تفسير الطبرى : « ضبا » .

(٣) يعنى : فطم ، ورعى الماء والشجر . كذا فسره الأستاذ محمود شاكر فى تحقيقه لتفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٥٨٩ : ١١/٢٦ .

(٥) تفسير الطبرى : ١١/٣٦ .

(٦) ينظر : ١/٢٣٦ — ٢٣٨ .

واختلفوا فى مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعى : محله الحرم . وهو قول عطاء ; وقال مالك[1]: يطعم فى المكان الذى أصاب فيه الصيد ، أو أقرب الأماكن إليه . وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم فى الحرم ، وإن شاء أطعم فى غيره .

[ذكر أقوال السلف فى هذا المقام]

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس فى قوله : (فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أوكفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً) قال : إذا أصاب المحرمُ الصيدَ حكم عليه جزاؤه من النعم ، فان [وجد جزاءه ، ذبحه فتصدق[2] به. وإن لم يجد نظركم ثمنه، ثم قوّم ثمنه طعاماً ، فصام مكان كل نصف[3] صاع يوماً ،قال: (أو كفارة طعام مساكين] أو عدل ذلك صياماً) ، قال : إنما أريد بالطعام الصيام ، إنه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه .

ورواه ابن جرير ، من طريق جرير .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أوعدل ذلك صياما) : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد ، حكم عليه فيه . فان قتل ظبياً أونحوه ، فعليه شاة تذبح بمكة . فان لم يجد فإطعام ستة مساكين فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام . فان قتل أيّلا أونحوه ، فعليه بقرة . فان لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً . فان لم يجد صام عشرين يوماً . وإن قتل نعامة أو حمارَ وحش أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل . فان لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً . فان لم يجد صام ثلاثين يوماً .

رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وزاد : « والطعام مُدٌّ مُدٌّ تشبعهم[4] » .

وقال جابر الجعفى ، عن عامر الشعبى وعطاء ومجاهد (أو عدل ذلك صياماً) ، قالوا : « إنما الطعام لمن لايبلغ الهدى[5] » . رواه ابن جرير .

وكذا روى ابن جريج عن مجاهد ، وأسباط عن السدى أنها على الترتيب[6] .

وقال عطاء ، وعكرمة ، ومجاهد — فى رواية الضحاك — وإبراهيم النخعى: «هى على الخيار» . وهو رواية الليث، عن مجاهد ، عن ابن[7] عباس . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله تعالى .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب تفسير : « وقال مجاهد » . والمثبت عن نسخة الدار : ٨٥ .
(٢) سقط من مخطوطة الأزهر ، ومخطوطى دار الكتب ، أثبتناه من تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٦٠٢ : ١١/٣٢ . وهو سقط نظر .
(٣) فى تفسير الطبرى : مكان كل صاع يوماً .
(٤) تفسير الطبرى الأثر ١٢٦٠٠ : ١١/٣١ .
(٥) المصدر السابق ، الأثر ١٢٦٠٣ : ١١/٣٢ . وفيه : « لمن لا يجد الهدى » .
(٦) المصدر السابق ، الأثران ١٢٦٠٦ ، ١٢٦٠٧ : ١١/٣٣ .
(٧) المصدر السابق ، الأثر ١٢٦١٧ : ١١/٣٥ .

وقوله : (ليذوق وبال أمره) ، أى : أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذى ارتكب فيه المخالفة (عفا الله عما سلف) أى : فى زمان الجاهلية ، لمن أحسن فى الإسلام واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية .

ثم قال : (ومن عاد فينتقم الله منه) ، أى : ومن فعل ذلك بعد تحريمه فى الإسلام وبلوغ الحكم الشرعى إليه (فينتقم الله منه ، (والله عزيز ذو انتقام) .

قال ابن جريج ، قلت لعطاء : ما « (عفا الله عما سلف) ؟ قال : عما كان فى الجاهلية : قال ، قلت : وما (ومن عاد فينتقم الله منه) ؟ [قال : ومن عاد فى الإسلام ، فينتقم الله منه] وعليه مع ذلك الكفارة : قال ، قلت : فهل فى العود بحد تعلمه؟ قال : لا. قال ، قلت : فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا ، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عزوجل ، ولكن يفتدى » .

رواه ابن جرير[1] .

وقيل معناه : فينتقم الله منه بالكفارة : قاله[2] سعيد بن جبير ، وعطاء .

ثم الجمهور من السلف والخلف ، على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ، ولافرق بين الأولى والثانية ، وإن تكرر ما تكرر ، سواء الخطأ فى ذلك والعمد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : من قتل شيئاً من الصيد خطأ ، وهو محرم ، يحكم عليه فيه كلما قتله وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فان عاد يقال له : « ينتقم الله منك » ، كما قال الله عز وجل[3] .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبى عدى جميعاً ، عن هشام ــ هو ابن حسان ــ عن عكرمة ، عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحكم عليه ثم عاد ، قال : لايحكم عليه ، ينتقم الله[4] منه .

وهكذا قال شريح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وإبراهيم النخعى : رواهن[5] ابن جرير ، ثم اختار القول الأول .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا العباس بن يزيد العبدى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن زيد أبى المعلى ، عن الحسن البصرى أن رجلا أصاب صيدا ، فتجوز عنه . ثم عاد فأصاب صيداً آخر ، فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله (ومن عاد فينتقم الله منه) .

وقال ابن جرير فى قوله : (والله عزيز ذوانتقام) ، يقول عزّ ذكره والله منيع فى سلطانه لايقهره قاهر ، ولايمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولامن عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة .

وقوله : (ذوانتقام) ، يعنى : أنه ذومعاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثران ١٢٦٣٦ ، ١٢٦٣٧ : ١١/٤٨ .
(٢) المصدر السابق ، الأثر ١٢٦٤٩ : ١١/٥٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٦٥٠ : ١١/٥٠ ، ٥١ . ونص الطبرى وقع فيه سقط نظر .
(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٢٦٦١ : ١١/٥٢ .
(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١١/٥١ ــ ٥٣ .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس — في رواية عنه — وسعيدُ بن المسيب، وسعيد بن جبير ، وغيرهم في قوله : (أحل لكم صيد البحر) ، يعني : ما يصطاد منه طرياً (وطعامه) ما يتزود منه مليحاً يابساً .

وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حياً (وطعامه) ما لفظه(١) ميتاً .

وهكذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم ، وعكرمة ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وإبراهيم النخعي ، والحسن البصري .

قال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : (طعامه) كل ما فيه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن سماك قال : حُدِّثْتُ عن ابن عباس قال : خطب أبو بكر الناس فقال : (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم) وطعامه ما قذف(٢) .

قال : وحدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن سليمان التيمي ، عن أبي مجلز ، عن ابن عباس في قوله : (أحل لكم صيد البحر وطعامه) ، قال : (طعامه) ما قذف(٣) .

وقال عكرمة ، عن ابن عباس قال : (طعامه) ما لفظ من ميتة. ورواه ابن(٤) جرير أيضاً .

وقال سعيد بن المسيب . « طعامه ما لفظه حياً ، أو حسر عنه فمات» رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب ، عن نافع : أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال : إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرا ميْتاً أفنأكله؟ فقال: لاتأكلوه . فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة ، فأتى هذه الآية : (وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) . فقال : اذهب فقل له فليأكله ، فانه طعامه(٥)

---

(١) تفسير الطبري ، الآثار ١٢٦٨٨ — ١٢٦٩٤ : ٦٢/١١ — ٦٣ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٦٨٦ : ٦١/١١ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٦٨٩ ، ٦٢/١١ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٦٩١ : ٦٢/١١ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٢٧٠٠ : ٦٤/١١ .

وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه(١)، قال : وقد روى في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً :

حدثنا هناد بن السرى قال : حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، حدثنا أبوسلمة، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم)، قال : «طعامه مالفظه (٢) ميتاً» .

ثم قال : وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة :

حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله : (أحل لكم صيد البحر وطعامه) قال : طعامه مالفظه(٣) ميتاً .

وقوله (متاعاً لكم وللسيارة)، أي : منفعة وقُوتاً لكم أيها المخاطبون (وللسيارة)، وهو جمع سيَّار ، قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر [وللسيارة (٤) : السَّفْر] .

وقال غيره : «الطريّ منه لمن يصطاده من حاضرة البحر، «وطعامه» : ما مات فيه أو اصطيد منه وملِّح وقُدِّد زاداً للمسافرين والنائين عن البحر .

وقد روى نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسدى وغيرهم، وقد استدل جمهور العلماء على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك بن أنس، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله قال : بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعثاً قِبَل الساحل، فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال : وأنا فيهم . قال : فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزادُ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجُمع ذلك كله، فكان مِزْوَدَىْ تمر، قال فكان يُقَوِّتُنا كلّ يوم قليلاً قليلاً حتى فنى، فلم يكن يُصيبنا إلا تمرة تمرة . [فقلت : وما تُغْنى تمرة؟] (٥) فقال : فقد وجدنا فَقْدَها حين فنيت، قال : ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظَّرِب (٦)، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة . ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت، ومرت تحتهما فلم تصبهما .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين (٧)، وله طرق عن جابر .

---

(١) تفسير الطبرى، الأثر : ٦٩/١١ .
(٢) تفسير الطبرى، الأثر ١٢٧٢٩ : ٧٠/١١ .
(٣) تفسير الطبرى، الأثر ١٢٧٣٠ : ٧٠/١١، ٧١ .
(٤) مكانه في مخطوطة الأزهر : «والسفر» . والمثبت من تفسير الطبرى، الأثر ١٢٧٣١ : ٧١/١١ . ونص عكرمة تفسير للسيارة بأنهم المسافرون .
(٥) من الموطأ كتاب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب : ٩٣٠/٢، ٩٣١ .
(٦) الظرب : الجبيل .
(٧) البخارى، باب الشركة في الطعام : ١٨٠/٣ . ومسلم، كتاب الصيد، باب إباحة ميتة البحر : ٦٢/٦ . ومسند أحمد : ٣٠٦/٣ .

وفى صحيح مسلم من رواية أبى الزبير ، عن جابر : « فاذا على ساحل البحر مثل الكثيب(١) الضخم ، فأتيناه فاذا بدابة يقال لها العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة ، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم [وفى سبيل الله] (٢)، وقد اضطررتم فكلوا قال : فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا : ولقد رأيتنا نغترف من وقب(٣) عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر(٤) كالثور[أو : كقدر الثور](٢) : قال : ولقد أخذ منا أبوعبيدة ثلاثة عشر رجلا ، فأقعدهم فى وقب عينه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها : وتزودنا من لحمه وشائق(٥) ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرنا ذلك له ، فقال : هو رزق أخرجه الله لكم ، هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا قال : فارسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه (٦) فأكله وفى بعض روايات مسلم : أنهم كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة : فقال بعضهم : هى واقعة أخرى ، وقال بعضهم : بل هى قضية واحدة ، ولكن كانوا أولا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بعثهم سرية مع أبى عبيدة ، فوجدوا هذه فى سريتهم تلك مع أبى عبيدة ، والله أعلم .

وقال مالك ، عن صفوان بن سليم ، عن سعيد بن سلمة — من آل ابن الأزرق — أن المغيرة بن أبى بردة — وهو من بنى عبد الدار — أخبره ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء ، فان توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته(٧) » .

وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعى(٨) ، وأحمد بن حنبل ، وأهل السنن الأربعة ، وصححه البخارى ، والترمذى ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، وغيرهم : وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من طرق ، عن حماد بن سلمة : حدثنا أبو المهزم — هو يزيد بن سفيان — سمعت أبا هريرة يقول : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حج — أو : عمرة — فاستقبلنا رجل جراد ، فجعلنا نضربهن بعصينا [وسياطنا] فنقتلهن فأسقط فى أيدينا فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون ؟ فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا بأس بصيد البحر(٩) » .

---

(١) لفظ مسلم : « فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب » .

(٢) عن صحيح مسلم .

(٣) الوقب — بفتح فسكون — : هو داخل عينه ونقرتها . والقلال : جمع قلة ، وهى : الجرة الكبيرة .

(٤) الفدر — بكسر الفاء وفتح الدال — جمع فدرة — بكسر فسكون — : وهى القطعة من كل شىء .

(٥) الوشائق — جمع وشيقة — وهى : أن يؤخذ اللحم فيغلى قليلا ولا ينضج ، ويحمل فى الأسفار . وقيل : هى القديد .

(٦) مسلم ، كتاب الصيد ، باب إباحة ميتة البحر : ٦/٦١ .

(٧) الموطأ ، كتاب الطهارة ، باب الطهور للوضوء : ١/٢٢ .

(٨) مسند الشافعى على كتاب الأم : ٦/٢ . ومسند أحمد : ٢/٣٦١ . وسنن أبى داود ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر ، الحديث ٨٣ : ١/٢١ . وتحفة الأحوذى ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء فى ماء البحر أنه طهور : ١/٢٢٤ ، ٢٢٥ . والنسائى ، كتاب الطهارة ، باب ماء البحر : ١/٥٠ . وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء بماء البحر ، الحديث ٣٨٦ : ١/١٣٦ ، وكتاب الصيد ، باب الطافى من صيد البحر ، الحديث ٣٢٤٦ : ٢/١٠٨١ .

(٩) مسند أحمد : ٢/٣٠٦ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤ ، ٤٠٧ . وتحفة الأحوذى ، كتاب الحج ، باب ما جاء فى صيد البحر للمحرم ٣/٥٨٦ . وابن ماجه ، كتاب الصيد ، باب صيد الحيتان والجراد ، الحديث ٣٢٢٢ : ٢/١٠٧٤ .

أبو المُهَزِّم ضعيف ، والله أعلم .

وقال ابن ماجه : حدثنا هارون بن عبد الله الحَمَّال ، حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زياد بن عبد الله بن عُلاثة ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جابر وأنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا على الجراد قال : اللهم أهْلِكْ كباره ، واقتل صغاره ، وأفسِدْ بيضه ، واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء . فقال خالد (١) : يارسول الله ، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال : إن الجراد نَثْرَةُ الحوت في البحر . قال هاشم : قال زياد : فحدثني من رأى الحوت(٢) ينثره .

تفرّد به ابن ماجه .

وقد روى الشافعي ، عن سعيد ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم .

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . وقد تقدم عن الصديق أنه قال : (طعامه) كل ما فيه .

وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها ، لما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من رواية ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن خالد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الضفدع (٣) .

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع ، وقال : نقيقها تسبيح .

وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ، ولا يؤكل الضفدع . واختلفوا فيما سواهما ، فقيل : يؤكل سائر ذلك . وقيل : لا يؤكل . وقيل : ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر ، ومالا يؤكل شبهه لا يؤكل . وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا يؤكل ما مات في البحر ، كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعموم قوله : (حرمت عليكم الميتة) .

وقد ورد حديث بنحو ذلك ، فقال ابن مردويه :

حدثنا عبد الباقي ـ هو ابن قانع ـ حدثنا الحسين بن إسحاق التستري وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالا : حدثنا الحسين بن يزيد الطحان ، حدثنا حفص بن غياث ، عن ابن أبي ذئب ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه ، وما ألقى البحر ميتاً طافيا فلا تأكلوه » .

---

(١) في سنن ابن ماجه : « فقال رجل » .

(٢) سنن ابن ماجه ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث ٣٢٢١ : ٢/١٠٧٣ ، ١٠٧٤ .

(٣) مسند أحمد : ٣/٤٥٣ ، ٤٩٩ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب قتل الضفدع ، الحديث ٥٢٦٩ : ٤/٣٦٨ . والنسائي ، كتاب الصيد ، باب الضفدع : ٧/٢١٠ .

ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية ، ويحيى بن أبي أنيسة ، عن أبي الزبير عن جابر به ؛ وهو منكر .

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، بحديث « العَنْبَر » المتقدم ذكره ، وبحديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ، وقد تقدم أيضاً .

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال » (١) .

ورواه أحمد وابن ماجه ، والدارقطني والبيهقي ؛ وله شواهد ، وروى موقوفاً ، والله أعلم .

وقوله : (وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً) ، أى : فى حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ؛ ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فاذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثم وغرم ، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله ، لأنه فى حقه كالميتة ، وكذا فى حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي — فى أحد قوليه — وبه يقول : عطاء ، والقاسم ، وسالم ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وغيرهم . فان أكله أو شيئاً منه ، فهل يلزمه جزاء ؟ فيه قولان للعلماء :

أحدهما : نعم ، قال عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال : إن ذبحه ثم أكله فكفارتان ، وإليه ذهب طائفة .

والثانى : لا جزاء عليه بأكله . نص عليه مالك بن أنس .

قال أبو عمر بن عبد البر : وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار ، وجمهور العلماء ؛ ثم وجهه أبو عمر بما لو وطىء ثم وطىء ثم وطىء قبل أن يحد ، فانما عليه حد واحد .

وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل .

وقال أبو ثور : إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه ، وحلال أكل ذلك الصيد ، إلا أننى أكرهه للذى قتله ، للخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صيد البر لكم حلال ، ما لم تصيدوه أو يصد لكم »(٢) .

وهذا الحديث سيأتى بيانه . وقوله باباحته للقاتل غريب ، وأما لغيره ففيه خلاف ، قد ذكرنا المنع عمن تقدم ، وقال آخرون : بإباحته لغير القاتل ، سواء المحرمون والمحلون ، لهذا الحديث . والله أعلم .

وأما إذا صاد حَلال (٣) صيداً فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا . حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر ، عن عمر بن الخطاب ، وأبى هريرة ، والزبير بن العوام ، وكعب الأحبار ، ، ومجاهد ، وعطاء — فى رواية — وسعيد بن جبير . قال : وبه قال الكوفيون .

---

(١) مضى هذا الحديث عند الآية رقم ٣ من هذه السورة ، وقد خرجناه هنالك . ينظر : ١٢/٣ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب المناسك ، باب لحم الصيد للمحرم ، الحديث ١٨٥١ : ١٧١/٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الحج ، باب ما جاء فى أكل الصيد للمحرم : ٥٨٤/٣ ، ونصه : « صيد البر لكم حلال وأنتم حرم مالم تصيدوه أو يصد لكم » . والنسائى ، كتاب المناسك ، باب إذا أشار المحرم إلى الصيد فقتله الحلال : ١٨٧/٥ . ومسند أحمد : ٣٦٢/٣ ، ٣٨٧ .

(٣) شخص حلال : أى غير محرم . يقال : هو حلال ، ومحل — من أحلَّ — وحل ، بكسر الحاء .

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، أن سعيد ابن المسيب حدثه ، عن أبى هريرة : أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أيأكله المحرم ؟ قال : فأفتاهم بأكله ، ثم لقى عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره ، فقال : لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسك[1] .

وقال آخرون : لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقاً ، لعموم هذه الآية الكريمة .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبى أميَّة ، عن طاوس ، عن ابن عباس : أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم ، وقال : هى مبهمة : يعنى قوله : (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) .

قال : وأخبرنى معمر ، عن الزهرى ، عن ابن عمر : أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال .

قال معمر : وأخبرنى أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، مثله .

قال ابن عبد البر : وبه قال طاوس ، وجابر بن زيد ، وإليه ذهب الثورى ، وإسحاق بن راهُويه ــ فى رواية ــ وقد روى نحوه عن على بن أبى طالب ، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب : أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال[2] .

وقال مالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهُويه ــ فى رواية ــ والجمهور : إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد ، لم يجز للمحرم أكله ، لحديث الصعب بن جثامة : « أنه أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم حماراً وحشياً ، وهو بالأبواء ــ أو : بودّان ــ فرده عليه ، فلما رأى ما فى وجهه قال : إنا لم نردَّه عليك إلا أنا حُرُم »[3] .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة ، قالوا : فوجهه أن النبى صلى الله عليه وسلم ظن أن هذا إنما صاده من أجله ، فرده لذلك ، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فانه يجوز له الأكل منه ، لحديث أبى قتادة حين صاد حمار وحش ، كان حلالا لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا فى أكله . ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها ، أو أعان فى قتلها ؟ قالوا : لا . قال : فكلوا وأكل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٥٤ : ٧٩/١١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٤٤ : ٧٦/١١ .
(٣) البخارى ، كتاب الهبة ، باب قبول هدية الصيد : ٢٠٣/٣ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب تحريم الصيد المحرم : ١٣/٤ . والترمذى ، تحفة الأحوذى ، كتاب الحج ، باب ما جاء فى كراهية لحم الصيد المحرم : ٥٨٦/٣ . والنسائى ، كتاب المناسك ، باب ما لايجوز للمحرم أكله من الصيد ١٨٤/٥٠ . وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب ما ينهى عنه المحرم من الصيد ، الحديث ٣٠٩٠ : ١٠٣٢/٢ . ومسند أحمد عن ابن عباس : ١ / ٢١٦ ، ٣٦٢ ، وعن الصعب بن جثامة نفسه : ٣٧/٤ ، ٣٨ ، ٧١ ، ٧٣ . والموطأ ، كتاب الحج ، باب مالا يحل للمحرم أكله من الصيد : ٣٥٣/١ .
هذا ، وينظر أسد الغابة ، ترجمة الصعب بن جثامة : ٢٠/٣ بتحقيقنا .

وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة :

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالا : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقال قتيبة في حديثه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقول : « صيد البر لكم حلال — قال سعيد : وأنتم حرم — ما لم تصيدوه أو يصد لكم »(١) :

وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً ، عن قتيبة . وقال الترمذي : لا نعرف للمطلب سماعا من جابر :

ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، من طريق عمرو بن أبي عمرو ، عن مولاه المطلب ، عن جابر . ثم قال : وهذا أحسن حديث روى في هذا الباب وأقيس :

وقال مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : رأيت عثمان بن عفان بالعَرْج ، وهو محرم في يوم صائف، قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتي بلحم صيد فقال لأصحابه : كلوا : فقالوا : أو لا تأكل أنت ؟ فقال : إني لست كهيئتكم ، إنما صيد من أجلي (٢) :

[• وقد نقل ابن جرير خلافاً في صفة الصيد الذى حرمه الله تعالى على المحرم ، فقال بعضهم : « صيد البر : كل ما كان يعيش في البر والبحر ، وإنما صيد البحر ما كان يعيش في الماء دون البر ويأوى إليه »] .

[روى عمران بن جرير ، عن أبي مجلز أنه قال في قوله تعالى: (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حُرُماً (، قال : ما كان يعيش في البر والبحر فلا تصده ، وما كان حياته في الماء فذاك(٣)] :

[وعن عطاء قال : « ما كان يعيش في البر فأصابه المحرم فعليه جزاؤه ، نحو السلحفاء ، والسرطان ، والضفادع »(٤))
وقال بعضهم : صيد البر ما كان كونه في البر أكثر من كونه في البحر »] :

[رُوى عن ابن جريج قال : « سألت عطاء عن ابن الماء ، أصيد بر أم بحر ؟ وعن أشباهه . فقال : حيث يكون أكثر ، فهو صيده »(٥)] .

[وعن عطاء بن أبي رباح قال : أكثر ما يكون حيث يفرخ ، فهو منه (٦)] :

[وقوله تعالى : (واتقوا الله الذى إليه تحشرون)] :

[قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره: واخشوا الله ، أيها الناس ، واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه»

---

(١) مضى تخريج هذا الحديث .

(٢) الموطأ ، كتاب الحج ، باب مالا يحل للمحرم أكله من الصيد : ١/٣٥٤ .

• لم يكمل الحافظ ابن كثير رحمه الله شرح هذه الآيات ، فقد وقف عند قوله تعالى : (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً) وقد تأكد ذلك بالرجوع إلى مخطوطة دار الكتب : ١ تفسير ، فلم نجد فيها أيضاً تفسير بقية الآية ٩٦ والآيات : ٩٧، ٩٨ ، ٩٩ ، وهانحن بعون الله نكملها معتمدين الاعتماد كله على تفسير الإمام ابن جرير الطبرى ، وبالله التوفيق .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٧٣ : ١١/٨٧ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٧٤ : ١١/٨٧ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٧٨ : ١١/٨٨ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٧٩ : ١١/٨٨ .

وفيما نهاكم عنه فى هذه الآيات التى أنزلها على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، من النهى عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وعن إصابة صيد البر وقتله فى حال إحرامكم وفى غيرها ، فان لله مصيركم وموجعكم ، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له (١) «] :

(وقوله تعالى) : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد) :

[« يقول تعالى ذكره : صيّر الله الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم ، من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم — والشهر الحرام والهدى والقلائد — ، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض ، إذ لم يكن لهم قيام غيره ، وجعلها معالم لدينهم ، ومصالح أمورهم »] (٢) .

[وقد روى عن مجاهد قال : « إنما سميت [الكعبة] لأنها مربعة »(٣) . وروى مثله عن عكرمة (٤) .]

قال ابن جرير : « وأما (الكعبة) فالحرم كله . وسماها الله تعالى « حراماً » ، لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يختلى خلاها ، أو يعضد شجرها »(٥))] .

[وقد فسر ابن جرير (قياماً للناس) بالقوَام : وروى فى ذلك آثاراً منها :]

[حدثنا هناد قال ، حدثنا ابن أبى زائدة قال ، أخبرنا من سمع حصيفاً يحدث ، عن مجاهد فى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) : قال : قواما للناس(٦)]

[وقال سعيد بن جبير : (قياما للناس) ، قال : صلاحاً لدينهم(٧) . وعنه أيضاً : « شدة لدينهم »(٨) .] :

[وعن ابن عباس قال : « قيامها : أن يأمن من توجه إليها (٩) » ، وعنه أيضاً : « قياما لدينهم ، ومعالم لحجهم »(١٠) وقال السدى : « جعل الله هذه الأربعة قياماً للناس ، هو قوام أمرهم »(١١)] .

[قال ابن جرير : « وهذه الأقوال وإن اختلفت من ألفاظ قائليها ألفاظها ، فان معانيها آيلة إلى ما قلنا من ذلك ، من أن « القوام » للشيء ، هو الذى به صلاحه ، كما أن الملك الأعظم ، قوام رعيته ومن فى سلطانه ، لأنه مدبر أمرهم ، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم ، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم . وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد ، قوامَ أمر العرب الذى كان به صلاحهم فى الجاهلية ، وهى فى الإسلام لأهله معالم حجهم ومناسكهم ومتوجههم لصلاتهم ، وقبلتهم التى باستقبالها يتم فرضهم »(١٢)] :

---

(١) تفسير الطبرى : ١١/٨٩ .
(٢) تفسير الطبرى : الأثر ١٢٧٨٠ : / ١١ / ٩٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٠ : ١١/٩٠ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨١ : ١١/٩٠ .
(٥) تفسير الطبرى : ١١/٩١ . وينظر فيما تقدم الآثار المروية فى هذا المعنى فى سورة البقرة : ١/٢٤٩ ومابعدها .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٢ : ١١/٩١ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٣ : ١١/٩١ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٥ : ١١/٩٢ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٧ : ١١/٩٢ .
(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٨ : ١١/٩٢ .
(١١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٨٩ : ١١/٩٢ .
(١٢) تفسير الطبرى : ١١ / ٩٢ ، ٩٣ .

[ثم قال ابن جرير : وبنحو الذى قلنا فى ذلك قالت جماعة أهل التأويل] :

[حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا جامع بن حماد ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد)، حواجز أبقاها الله بين الناس فى الجاهلية ، فكان الرجل لو جر كل جَرِيرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب . وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقرب . وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس ، حتى يأتى أهله ، حواجز أبقاها الله بين الناس فى الجاهلية(١)] .

[وروى نحوه عن ابن زيد ، وابن عباس(٢)] :

[وقد مضى فى أول السورة ذكر (الشهر الحرام) و (الهدى) و (القلائد)(٣)].

[وقوله تعالى : (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم)] .

[قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : اعلموا ، أيها الناس ، أن ربكم الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ولا يخفى عليه شىء من سرائر أعمالكم وعلانيتها ، وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها ، شديد عقابه من عصاه وتمرّد عليه ، على معصيته إياه — وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه ، فساتر عليه وتارك فضيحته بها رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه ، بعد إنابته وتوبته منها »(٤)] .

[وقوله : (ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] :

[هذا من الله تعالى ذكره، تهديد لعباده ووعيد ، يقول تعالى ذكره : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، أيها الناس ، بإنذاركم عقابنا بين يدى عذاب شديد ، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حججكم — إلا أن يؤدى إليكم رسالتنا ، ثم إلينا الثواب على الطاعة ، وعلينا العقاب على المعصية] .

[(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)] :

[يقول : وغير خفى علينا المطيع منكم ، القابل رسالتنا العامل بما أمرته بالعمل به — من المُعَاصى الآبى رسالتنا ، التارك العمل بما أمرته بالعمل به ، لأنا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به لسانه . (وما تكتمون) ، يعنى : وما تخفون فى أنفسكم من إيمان وكفر ، أو يقين وشك ونفاق] .

[يقول تعالى ذكره : فمن كان كذلك ، لا يخفى عليه شىء من ضمائر الصدور ، وظواهر أعمال النفوس ، مما فى السموات وما فى الأرض ، وبيده الثواب والعقاب — فحقيق أن يُتَّقَى ، وأن يطاع ، فلا يعصى »(٥)] .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٩٠ : ١١/٩٣ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٩١ ، ١٢٧٩٢ : ١١/٩٣/٩٤ .
(٣) ينظر : ٦/٣ — ٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ١١/٩٥ .
(٥) تفسير الطبرى : ١١/٩٥ ، ٩٦ .

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل) يا محمد : (لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك) ، أى : يا أيها الإنسان (كثرة الخبيث) . يعنى أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء فى الحديث : « ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى » .

وقال أبوالقاسم البغوى فى معجمه : حدثنا أحمد بن(١) زهير ، حدثنا الحوطى ، حدثنا محمد بن شعيب ، حدثنا معان ابن رفاعة ، عن أبى عبد الملك على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه »

(فاتقوا الله يا أولى الألباب) أى : ياذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به (لعلكم تفلحون) ، أى فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) : هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا (عن أشياء) مما لافائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايبلغنى أحد عن أحد شيئاً ، إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر(٢) » .

وقال البخارى : حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودى ، حدثنا أبى ، حدثنا شعبة ، عن موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك قال : « خطب النبى صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : (لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً) قال : فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين(٣) : فقال رجل : من أبى ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية : (لاتسألوا عن أشياء) (٤) .

---

(١) كذا . وفى أسد الغابة : « أحمد بن الأزهر ، عن مروان بن محمد ، عن محمد بن شعيب » . ينظر أسد الغابة ٢٨٤/١ بتحقيقنا .

(٢) مسند أحمد عن عبد الله بن مسعود : ٣٩٦/١ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب فى رفع الحديث عن المجلس ، الحديث ٤٨٦٠ : ٢٦٥/٤ .

(٣) يروى أيضاً : « لهم خنين » بالخاء . والخنين : نوع من البكاء دون الانتحاب ، وأصل الخنين : خروج الصوت من الأنف ، كالحنين ـ بالحاء ـ من الفم .

(٤) البخارى ، تفسير سورة المائدة : ٦٨/٦ .

رواه النضر وروح بن عبادة ، عن شعبة : وقد رواه البخارى فى غير هذا الموضع(١) ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، والنسائى من طرق عن شعبة بن الحجاج ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) : الآية ، قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر ، فقال : لاتسألونى اليوم عن شيء إلابينته لكم : فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، فجعلت لاألتفت يميناً ولاشمالا إلا وجدت كُلاًّ لافاً رأسه فى ثوبه يبكى . فأنشأ رجل كان يُلاَحى فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبى الله ، من أبى ؟ قال : أبوك حذافة ، قال : ثم قام عمر — أوقال : فأنشأ عمر — فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، عائذاً بالله — أوقال : أعوذ بالله — من شر الفتن قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أر فى الخير والشر كاليوم قط ، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط(٢) .

أخرجاه من طريق سعيد(٣) .

ورواه معمر ، عن الزهرى ، عن أنس بنحو ذلك — أوقريباً منه — قال الزهرى : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت ولدا أعق منك قط ، أكنت تأمن أن [تكون] أمك قد قارفَتْ ماقارفَ أهلُ الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس. فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقتُه(٤) .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا قيس ، عن أبى حصين ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان محمارٌ وجهه ، حتى جلس على المنبر ، فقام إليه رجل فقال : أين أبى؟ فقال : فى النار ، فقام آخر فقال : من أبى؟ فقال : أبوك حذافة ، فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، إنا يارسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم من آباؤنا ، قال : فسكن غضبه ، ونزلت هذه الآية :(يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)(٥)

إسناده جيد ، وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف ، منهم أسباط عن السدى أنه قال فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ، قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام ، فقام خطيباً فقال : سلونى ، فانكم لاتسألونى عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل من قريش ، من بنى سهم ، يقال له : عبد الله بن حذافة ، وكان يُطْعَن فيه ، فقال : يارسول الله ، من أبى ؟ فقال : أبوك فلان ، فدعاه لأبيه ، فقام

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » : ١٢٧/٨ . ومسند أحمد : ٢١٠/٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٩٧ : ١٠٠/١١ ، ١٠١ .

(٣) البخارى ، كتاب الفتن ، باب التعوذ من الفتن : ٦٦/٩ ، ٦٧ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله : ٩٤/٧ . ومسند أحمد من طريق هشام عن قتادة : ١٧٧/٣ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠٠ : ١٠٢/١١ .

(٥) المصدر السابق ، الأثر ١٢٨٠٢ : ١٠٢/١١ .

إليه عمر بن الخطاب فقبّل رجله ، وقال : يارسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبك نبياً ، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً ، فاعف عنّا عفا الله عنك . فلم يزل به حتى رضى ، فيومئذ قال : «الولد للفراش وللعاهر الحجر[١]» .

ثم قال البخارى : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا أبو الجُوَيرية ، عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء ، فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل تَضلّ ناقته : أين ناقتى ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) حتى فرغ من الآية كلها[٢] .

تفرد به البخارى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن وردان الأسدى ، حدثنا علىّ بن عبد الأعلى ، عن أبيه ، عن أبى البَخْتَرِىّ ـ وهو سعيد بن فيروز ـ عن على قال : «لما نزلت هذه الآية : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) قالوا : يارسول الله ، فى كل عام ؟ فسكت . فقالوا : أفى كل عام ؟ فسكت ، قال ، ثم قالوا : أفى كل عام ؟ فقال : لا ، ولو قلت نعم لوجبت . فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) إلى آخر الآية .

وكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من طريق منصور بن وردان ، به . وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه[٣] ، وسمعت البخارى يقول : أبو البخترى لم يدرك عليا .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان ، عن إبراهيم بن مسلم الهجرىّ ، عن أبى عياض ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله كتب عليكم الحج . فقال رجل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، حتى عاد مرتين أو ثلاثا ، فقال : من السائل ؟ فقال : فلان . فقال : والذى نفسى بيده ، لو قلت : «نعم» لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ، ولو تركتموه لكفرتم . فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) ، حتى ختم الآية[٤] .

ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ـ وقال : فقام مِحْصَن الأسدى ـ وفى رواية من هذه الطريق : عُكّاشة بن مِحْصَن ـ وهو أشبه[٥] .

وإبراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠١ : ١١/١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) صحيح البخارى ، تفسير سورة المائدة : ٦/٦٨ .
(٣) تحفة الأحوذى ، كتاب الحج ، باب ماجاء فى فرض الحج : ٣/٥٢٤ ، ٥٤٤ . وتفسير سورة المائدة : ٨/٤٢٠ . وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب فرض الحج ، الحديث ٢٨٨٤ : ٢/٩٦٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠٤ : ١١/١٠٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثران ١٢٨٠٥ ، ١٢٨٠٦ : ١١/١٠٥ ـ ١٠٧ .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني زكريا بن يحيى بن [أبان المصرى قال: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغمر ، حدثنا أبو مطيع معاوية بن يحيى](١)،عن صفوان بن عمرو ، حدثني سليم بن عامر قال : سمعت أبا أمامة الباهلى يقول : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فقال : كتب عليكم الحج : فقام رجل من الأعراب فقال : أفي كل عام ؟ قال : فغَلَق(٢) كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسكت واستغضب ، ومكث طويلا ، ثم تكلم فقال : من السائل ؟ فقال الأعرابي : أنا ذا ، فقال : ويحك ، ماذا يؤمنك أن أقول « نعم » ، والله لو قلت « نعم » لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحَرَج ، والله لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض ، وحرمت عليكم منها موضع خُفّ ، لوقعتم فيه ، قال : فأنزل الله عند ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) إلى آخر الآية(٣) .

في إسناده ضعف .

وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا أعلم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا حجاج قال : سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . الحديث(٤) .

وقد رواه أبو داود والترمذي ، من حديث إسرائيل — قال أبو داود : عن الوليد — وقال الترمذي : عن إسرائيل ، عن السدي ، عن الوليد بن أبي هاشم — به . ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقوله : (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم) ، أي : وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نُهيم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على الرسول تُبيَّن لكم ، وذلك يسير .

ثم قال : (عفا الله عنها) ، أي : عما كان منكم قبل ذلك ، (والله غفور حليم) .

وقيل : المراد بقوله : (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أي : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعلَّه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق . وقد ورد في الحديث : « أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شئ لم يُحَرَّم فحرم من أجل مسألته(٥) » ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها حينئذ ، تبينت لكم لاحتياجكم إليها .

(١) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبرى .

(٢) في مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب ، تفسير : « فعلق » والمثبت من تفسير الطبرى ، يقال : غلق فلان في حدته ، أى : نشب ، ويقال لكل شيء نشب في شيء فلزق : قد غلق . ومنه استغلق الرجل : إذا أرتج عليه ولم يتكلم ، ويعنى أنه انقطع كلامه » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠٧ : ١٠٧/١١ ، ١٠٨ .

(٤) مسند أحمد : ٣٩٥/١ ، ٣٩٦ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في رفع الحديث ، الحديث ٤٨٦٠ : ٢٦٥/٤ .

(٥) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلفه ما لا يعنيه : ١١٧/٩ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله : ٩٢/٧ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، الحديث ٤٦١٠ : ٢٠١/٤ ، ٢٠٢ . ومسند أحمد عن سعد بن أبي وقاص : ١٧٦/١ ، ١٧٩ .

(عفا الله عنها) ، أى : ما لم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها : وفى الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذرونى ماتركتكم ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم[1] » :

وفى الحديث الصحيح أيضاً : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

ثم قال : (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) ، أى : قد سأل هذه المسائل المنهىّ عنها قومٌ من قبلكم ، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين ، أى : بسببها ، أى : بينت لهم ولم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد .

قال العوفى ، عن ابن عباس قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذّن فى الناس فقال : يا قوم ، كتب عليكم الحج . فقام رجل من بنى أسد فقال : يا رسول الله ، أفى كل عام ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فقال : والذى نفسى بيده لو قلت « نعم » لوجبت ،ولو وجبت ما استطعم ، وإذاً لكفرتم ، فاتركونى ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشئ فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شئ فانتهوا عنه . فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) نهاهم أن يسألوا عن مثل الذى سألت النصارى من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين . فنهى الله عن ذلك وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا ، فاذا نزل القرآن فانكم لا تسألون عن شئ إلا وجدتم تبيانه[2] :

رواه ابن جرير :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم) ، قال : لما نزلت آية الحج ، نادى النبى صلى الله عليه وسلم فى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا . فقالوا : يا رسول الله ، أعاماً واحداً أم كل عام ؟ فقال : « لا ، بل عاماً واحداً ، ولو قلت «كلّ عام» لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم . ثم قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء) . . . إلى قوله : (ثم أصبحوا بها كافرين)[3] .

رواه ابن جرير .

وقال خصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس (لا تسألوا عن أشياء) قال : هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، ألا [ترى] أنه يقول بعد ذلك : « ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا » ــ قال : وأما عكرمة فقال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات ، فنهوا عن ذلك . ثم قال : (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)[4] .

رواه ابن جرير :

---

(١) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٩١/٧ ، ٩٢ . والنسائى ، كتاب المناسك ، باب وجوب الحج : ١١٠/٥ . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ٢ : ٣/١ ومسند أحمد عن أبى هريرة : ٢٤٧/٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠٨ : ١٠٩/١١ ، ١١٠ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٠٩ : ١١٠/١١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨١١ : ١١١/١١ .

يعني عكرمة رحمه الله : أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات ، كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهارا ، وأن يجعل لهم الصفا ذهبا وغير ذلك . وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء . وقد قال الله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا(١)) وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل : إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون(٢)) .

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب قال : « البحيرة » : التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . « والسائبة » : كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شيء — قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب — و « الوصيلة » : الناقة البكر ، تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينها ذكر ؛ « والحام » : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي(٣) » .

وكذا رواه مسلم(٤) والنسائي ، من حديث إبراهيم بن سعد ، به .

ثم قال البخاري : وقال لنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهري قال : سمعت سعيدا يخبر بهذا — وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، نحوه . ورواه ابن الهاد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم(٣) .

قال الحاكم : أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت ، عن الزهري : كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في « الأطراف » وسكت ولم ينبه عليه . وفيما قاله الحاكم نظر ، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير(٥) روياه من حديث الليث بن سعد ، عن ابن الهاد ، عن الزهري نفسه ، والله أعلم .

---

(١) الإسراء ، آية : ٥٩ .
(٢) الأنعام ، الآيات : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .
(٣) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ٦٨/٦ ، ٦٩ . والقصب — بضم فسكون — : الأمعاء كلها .
(٤) مسلم ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء : ١٥٥/٨ .
(٥) مسند أحمد : ٣٦٦/٢ . وتفسير الطبري ، الأثر ١٢٨١٩ : ١١٦/١١ .

ثم قال البخارى : حدثنا محمد بن أبى يعقوب أبو عبد الله الكرْمانى ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس ، عن الزهرى ، عن عروة أن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت جهنّم يَحْطِمُ بعضها بعضاً ، ورأيت عَمْراً يجر قُصْبَه ، وهو أول من سيب السوائب » .

تفرد به البخارى .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : « يا أكثم ، رأيت عَمْرو بن لُحَىّ بن قَمَعَةَ بن خِنْدف يجر قُصْبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا به منك » فقال أكثم : تخشى[1] أن يضرنى شبهه يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ، إنك مؤمن [وهو كافر ، إنه أول من غيّر دين إبراهيم ، وبحر البحيرة ، وسيّب السائبة ، وحَمَى الحامى[2] » ثم رواه عن] هناد ، عن عبدة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بنحوه[3] أو مثله .

ليس هذان الطريقان فى الكتب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمرو بن مجمّع ، حدثنا إبراهيم الهَجَرى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول من سيب السوائب ، وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإنى رأيته يجر أمعاءه[4] فى النار » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام . قالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : عمرو بن لُحَىّ أخو بنى كعب ، لقد رأيته يجر قُصْبه فى النار يُؤذى ريحه أهل النار . وإنى لأعرف أول من بحر البحائر . قالوا : من هو ، يارسول الله ؟ قال : رجل من بنى مُدْلج ، كانت له ناقتان ، فجدع آذانهما ، وحرم ألبانهما ، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك ، فلقد رأيته فى النار وهما يعضّانه بأفواههما ويخبطانه بأخفافهما[5] » .

فعمرو هذا هو ابن لحى بن قَمَعَة ، أحد رؤساء خزاعة ، الذين ولُوا البيت بعد جُرْهُم ، وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع

---

(١) فى تفسير الطبرى ، وسيرة ابن هشام ٧٦/١ : « عسى أن يضرنى شبهه » .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٢٠ : ١١٧/١١ ، ١١٨ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٢٢ : ١١٩/١١ .
(٤) مسند أحمد : ٤٤٦/١ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر [illegible]

الجاهلية فى الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى فى سورة الأنعام ، عند قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً(١)) إلى آخر الآيات فى ذلك .

فأما البحيرة فقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هى الناقة إذا نُتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فان كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء . وإن كان أنثى جدعوا آذانها ، فقالوا : هذه بحيرة .

وذكر السدى وغيره قريباً من هذا .

وأما السائبة فقال مجاهد : هى من الغنم نحو ما فسر من البحيرة ، إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها ، فاذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ، ذبحوه ، فأكله رجالهم دون نسائهم .

وقال محمد بن إسحاق : «السائبة هى الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سُيِّبت فلم تركب ، ولم يُجزّ وبرها ، ولم يحلب لبنها إلا الضيف(٢)» .

وقال أبو روق : «السائبة : كان الرجل إذا خرج فقُضيت حاجته ، سيّب من ماله ناقة أو غيرها ، فجعلها للطواغيت ، فما ولدت من شىء كان لها» .

وقال السدى : كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته أو عُوفى من مرض أو كثر ماله سيّب شيئاً من ماله للأوثان ، فمن عرض(٣) له من الناس عُوقب بعقوبة فى الدنيا» .

وأما الوصيلة فقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هى الشاة إذا نُتجت سبعة أبطن نظروا السابع ، فان كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثى فى بطن استحيوهما وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا .

رواه ابن أبى حاتم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب : (ولا وصيلة) ، قال : فالوصيلة من الإبل ، كانت الناقة تبتكر بأنثى ، ثم تثنى بأنثى ، فيسمونها الوصيلة ، ويقولون : «وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم(٤)» .

وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس ، رحمه الله .

---

(١) آية ١٣٦ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١/٨٩ . وفيها : «ولم يشرب لبنها إلا ضيف» .

(٣) أى : لهذا الذى سيبه . ونصه فى الطبرى ، الأثر ١٢٨٣٩/١١/١٣٠ : «وأما السائبة ، فهو الرجل يسيب من ماله ما شاء على وجه الشكر ... فلا يعرض لها أحد من العرب إلا أصابته عقوبة فى الدنيا» .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٤٠ : ١١/١٣١ .

وقال محمد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث فى خمسة أبطن ، توأمين توأمين فى كل بطن ، سميت الوصيلة وتركت . فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى ، جعلت للذكور دون الإناث . وإن كانت ميتة اشتركوا فيها[١] .

وأما الحام فقال العوفى ، عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا لقح فحله عشرا ، قيل : حام ، فاتركوه[٢] .

وكذا قال أبوروق ، وقتادة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : وأما الحام فالفحل من الإبل ، إذا وُلد لولده قالوا : حَمَى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ، ولايجزون له وبراً ، ولا يمنعونه من حمى رعى ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : أما الحام فمن الإبل كان يضرب فى الإبل ، فاذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيّبوه .

وقد قيل غير ذلك فى تفسير هذه الآية . وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم ، من طريق أبى إسحاق السبيعى ، عن أبى الأحوص الجُشَمى ، عن أبيه مالك بن نَضْلَه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى خلْقان[٣] من الثياب ، فقال لى : هل لك من مال ؟ قلت : نعم . قال : من أىّ المال ؟ قال ، فقلت : من كل المال : من الإبل والغنم والخيل والرقيق : قال : فاذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ عليك[٤] . ثم قال : تنتج إبلك وافية آذانها ؟ قال ، قلت : نعم. قال : وهل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال : فعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول : « هذه بحير » وتشق آذان طائفة منها ، وتقول : « هذه حرم » ؟ قلت : نعم : قال : فلا تفعل : إن كل ما آتاك الله لك حل ، ثم قال : (ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة ولاوصيلة ولاحام) ، أما البحيرة فهى التى يجدعون آذانها ، فلاتنتفع امرأته ولابناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولاأشعارها ولاألبانها ، فاذا ماتت اشتركوا فيها . وأما السائبة فهى التى يسيبون لآلهتهم ، ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن ، فاذا ولدت السابع ، جُدعت وقطع قرنها ، فيقولون : « قد وصلت » فلا يذبحونها ولاتضرب ولاتمنع مهما وردت على حوض . هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً فى الحديث .

وقد روى من وجه آخر عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص عوف بن مالك ، من قوله ، وهو أشبه .

وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد ، عن سفيان بن عيينة ، عن أبى الزعراء عمرو بن عمرو ، عن عمه أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن أبيه ، به[٥] ، وليس فيه تفسير هذه ، والله أعلم .

وقوله : (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون) ، أى : ما شرع الله هذه الأشياء ولاهى عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه . وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٨٩/١ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٣٦ : ١٢٩/١١ .

(٣) الخلقان - بضم فسكون - : جمع خلق - بفتحتين - وهو : البالى .

(٤) فى المخطوطة : فكثر عليك . والمثبت عن مسند أحمد : ٤٧٣/٣ ، والدر المنثور : ٣٣٧/٢ .

(٥) مسند أحمد : ١٣٦/٤ ، ١٣٧ .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ ، أى : إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ﴾ ، أى : لا يفهمون حقاً ، ولايعرفونه ولايهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ . لايتبعهم إلا من هو أجهل منهم ، وأضل سبيلا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبراً لهم أنه من اصلح أمره لايضره فساد من فسد من الناس ، سواء كان قريبا منه أو بعيدا .

قال العوفى عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية : يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعده ، إذا عمل بما أمرته به[1] .

وكذا روى الوالبى ،عنه . وهكذا قال مقاتل بن حيان . فقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ نصب على الإغراء[2] ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ، أى : فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وليس فى الآية مستدَل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا كان فعل ذلك ممكناً ، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زهير — يعنى ابن معاوية — حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، حدثنا قيس قال : قام أبوبكر رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ إلى آخر الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولايغيرونه أوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه — قال : وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس ، « إياكم والكذب ، فان الكذب مجانب الإيمان »[3] .

وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة[4] ، وابن حبان فى صحيحه ،وغيرهم ، من طرق كثيرة عن

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٦٤ : ١١/١٤٧ .

(٢) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤/٣٦ ، ٣٧ : « وعليكم من كلم الإغراء ، وله باب معقود فى النحو ، وهو معدود فى أسماء الأفعال ، فان كان الفعل متعديا كان اسمه متعديا ، وإن كان لازما كان لازما . وعليكم اسم لقولك « الزم » ، فهو متعد ، فلذلك نصب المفعول به ، والتقدير هنا : عليكم إصلاح أنفسكم ، أو هداية أنفسكم » .

(٣) مسند أحمد : ١/٥ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى ، الحديث ٤٣٣٨ : ٤/٢٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر : ٦/٢٨٨ ، ٣٨٩ . وتفسير سورة المائدة : ٨/٤٢٢ ، ٤٢٣ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الحديث ٤٠٠٥ : ٢/١٣٢٧

جماعة كثيرة ، عن إسماعيل بن [أبي] خالد ، به متصلا مرفوعاً ، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق ؛ وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره ، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولا في مسند الصديق رضي الله عنه .

وقال أبوعيسى الترمذى : حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى ، وحدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا عتبة بن أبي حكيم ، حدثنا عمرو بن جارية اللخمى ، عن أبي أمية الشعبانى قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ فقال : أيةُ آية ؟ قلت : قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم ، لايضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال : أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً ، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى مُتَّبعاً ، ودنيا مُؤْثَرَة ، وإعجابَ كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوامّ ، فان من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم » ـ قال عبد الله بن المبارك : وزاد غير عتبة : « قيل : يارسول الله ، أجر خمسين رجلا منهم أو منا ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح(١) .

وكذا رواه أبوداود من طريق ابن المبارك ؛ ورواه ابن ماجه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عتبة بن أبي حكيم(٢)

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله : (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ، فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ؛ ولكنه قد أوشك أن يأتى زمانها ، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ــ أو قال : فلا يقبل منكم ــ فحينئذ (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل)(٣) .

ورواه أبوجعفر الرازى ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن ابن مسعود فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ... الآية ، قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك ؛ فان الله يقول : (عليكم أنفسكم) ... الآية ؛ قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مَهْ ، لم يجئ(٤) تأويل هذه بعد ؛ إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى صلى الله عليه وسلم بيسير ، [ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آى يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة] (٥) ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب على ماذكر من الحساب والجنة والنار ؛ فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٨/٢٣ ٤/٤٢٦ . ولفظ الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى ، الحديث ٤٣٤١ : ٤/١٢٣ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، الحديث ٤٠١٤ : ٢/١٣٣٠ ، ١٣٣١ . وتفسير الطبرى ، الأثر : ١١/١٤٥ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥٥ : ١١/١٤١ .

(٤) فى تفسير الطبرى : « لما يجئ » .

ولم تلبّسوا شيعاً ، ولم يذُق بعضكم بأس بعض [فأمروا وانهوا : فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وأُلبستم شيعاً ، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ(١)] ونفسه . عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية(٢) .

رواه ابن جرير :

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن عرفة ، ، حدثنا شبابة بن سَوّار ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن سفيان بن عقال قال : قيل لابن عمر : لوجلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال : (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ؟ فقال ابن عمر : إنها ليست لى ولا لأصحابى إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا فليبلّغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهودَ وأنتم الغُيَّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا ، إن قالوا لم يقبل(٣) منهم :

وقال أيضاً : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالا : حدثنا عوف ، عن سوار بن شبيب قال : كنت عند ابن عمر ، إذ أتاه رجل جليد فى العين ، شديد اللسان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه ، وكلهم مجتهد لايألو ، وكلهم بغيض إليه أن يأتى دَناءة ، وهم فى ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك : [فقال رجل من القوم : وأىّ دناءة تريد أكثرَ من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؟] .

فقال الرجل : إنى لست إياك أسأل ، إنما أسأل الشيخ . فأعاد على عبد الله الحديث ، فقال عبد الله : لعلك ترى لا أبالك ، أنى سآمرك أن تذهب فتقتلهم ! عِظْهم وانهم ، فإن عصوك فعليك نفْسك ؛ فإن الله عزوجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) . . . الآية(٤) .

وقال أيضاً : حدثنى أحمد بن المقدام ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبى ، حدثنا قتادة ، عن أبى مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس ، فقرأ أحدهم هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم لايضركم من ضل) ، فقال أكبَرهم : لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم(٥) .

وقال : حدثنا القاسم ، حدثنا الحُسين ، حدثنا ابن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن جُبَيْر بن نفير قال : كنت فى حلقة فيها أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنى لأصغرُ القوم ، فتذاكروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقلت أنا : أليس الله يقول فى كتابه : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ؟ فأقبلوا علىّ بلسان واحد وقالوا : تنزع(٦) آية من القرآن لا تعرفها ، ولا تدرى ما تأويلها ! ! حتى تمنيتُ أنى لم أكن تكلمتُ وأقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حَدَثُ السن ، وإنك نزعت بآية ولاتدرى ماهى ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، إذا رأيت شُحاً مطاعاً ، وهوًى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، لايضرك من ضل إذا اهتديت(٧) .

---

(١) عن تفسير الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥٩ : ١١/١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥١ : ١١/١٣٩ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥٤ : ١١/١٤٠ ، ١٤١ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥٢ : ١١/١٤٠ . وفيه : « فقال أكثرهم » بالثاء .

(٦) يعنى : أتجىء بآية من القرآن وأنت لا تعرفها ؟! .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٥٨ : ١١/١٤٢ .

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سهل ، حدثنا ضمرة بن ربيعة قال : تلا الحسن هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم ، لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ، فقال الحسن : الحمد لله بها ، والحمد لله عليها ، ماكان مؤمن فيا مضى ، ولامؤمن فيا بقى ، إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله(١) .

وقال سعيد بن المسيب : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت(٢) .

رواه ابن جرير ، وكذا روى من طريق سفيان الثورى ، عن أبى العميس ، عن أبى البخترى ، عن حذيفة ، مثله(٣) وكذا قال غير واحد من السلف .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد الدمشقى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب عن كعب فى قوله : (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ، قال : إذا هدمت كنيسة دمشق(٤) ، فجعلت مسجداً ، وظهر لبس العَصْب ، فحينئذ تأويل هذه الآية .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ رواه العوفى عن ابن عباس(٥) . وقال حماد بن أبى سليمان ، عن إبراهيم(٦) : إنها منسوخة . وقال آخرون — وهم الأكثرون ، فيا قاله ابن جرير — : بل هو محكم ، ومن ادعى النسخ فعليه البيان .

فقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان) هذا هو الخبر لقوله : (شهادة بينكم) فقيل تقديره : « شهادة اثنين » ، حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مُقامه . وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٦٨ : ١١/١٤٨ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٦٩ : ١١/١٤٨ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٨٧٠ : ١١/١٤٨ .
(٤) فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب ، تفسير ١ : « هدمت كنيسة مسجد دمشق » وقد أثبتنا ما فى الطبعات السابقة . ولم نجد هذا الأثر فيا أتيح لنا . والعصب — كما فى اللسان — : ضرب من برود اليمن ، سمى عصبا لأن غزله يعصب ، أى : يدرج ثم يصبغ ثم يحاك . ولا يجمع إنما يقال : برد عصب . وبرود عصب .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٨٥ : ١١/٢٠٧ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٨٤ : ١١/٢٠٧ .

وقوله : (ذوا عدل) وصف الاثنين ، بأن يكونا عدلين .

وقوله (منكم) ، أى : من المسلمين . قاله الجمهور : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله (ذوا عدل منكم) ، قال : من المسلمين : رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : رُوى عن عَبيدة ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، ومجاهد ، ويحيى بن يعمر ، والسدى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : عنى : ذلك (ذوا عدل منكم) ، أى : من حَىِّ الموصى : وذلك قول روى عن عكرمة وعَبيدة وعدّة غيرهما(١) .

وقوله : (أو آخران من غيركم) ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن عون ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس فى قوله : (أو آخران من غيركم) ، قال : من غير المسلمين ، يعنى : أهل الكتاب .

ثم قال : وروى عن عبيدة ، وشريح ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين ، ويحيى بن يعمر ، وعكرمة ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، والشعبى ، وإبراهيم النخعى ، وقتادة ، وأبى مجلز ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نحو ذلك .

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة فى قوله : (منكم) أى : المراد من قبيلة الموصى ، يكون المراد هاهنا : (أو آخران من غيركم) ، أى : من غير قبيلة الموصى . وقد روى عن ابن أبى حاتم مثله عن الحسن البصرى ، والزهرى ، رحمهما الله .

وقوله : (إن أنتم ضربتم فى الأرض) ، أى : سافرتم ، (فأصابتكم مصيبة الموت) ، وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ، أن يكون ذلك فى سفر ، وأن يكون فى وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضى .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن شريح قال : لاتجوز شهادة اليهودى والنصرانى إلا فى سفر ، ولا تجوز فى سفر إلا فى وصية (٢) .

ثم رواه عن أبى كريب ، عن أبى بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق السبيعى قال : قال شريح ، فذكر(٣) مثله .

وقد روى مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى . وهذه المسألة من أفراده ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لاتجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو داود ، حدثنا صالح بن أبى الأخضر ، عن الزهرى قال : مضت السُّنَّة أنه لاتجوز شهادة كافر فى حضر ولا سفر ، إنما هى فى المسلمين(٤) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٦/١١ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩١١ : ١٦٣/١١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٢٥ : ١٦٤/١١ ، ١٦٥ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٣٣ : ١٦٦/١١ .

وقال ابن زيد : نزلت هذه الآية فى رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك فى أول الإسلام ، والأرض حرب ، والناس كفار ، وكان الناس يتوارثون بالوصية ، ثم نُسخت الوصية وفرضت الفرائض ، وعمل الناس[1] بها .

رواه ابن جرير ، وفى هذا[2] نظر ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : اختلف فى قوله : (شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) هل المراد أن يوصى إليهما ، أو يشهدهما على قولين :

أحدهما : أن يوصى إليهما ، كما قال [محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط قال : سئل ابن مسعود رضى الله عنه ، عن هذه الآية قال] : هذا رجل سافر ومعه مال ، فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين .

رواه ابن أبى حاتم ، وفيه انقطاع .

والقول الثانى : أنهما يكونان شاهدين[3] . وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة ، كما فى قصة تميم الدارى ، وعدى بن بداء ، كما سيأتى ذكرها آنفاً ، إن شاء الله وبه التوفيق .

وقد استشكل ابنُ جرير كونهما شاهدين ، قال : « ولأنا لانعلم حُكْماً يَحْلِفُ فيه الشاهد » . وهذا لايمنع الحكم الذى تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة فى محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور مالم يغتفر فى غيره ، فإذا قامت قرائن الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : (تحبسونهما من بعد الصلاة) قال ، : ابن عباس يعنى صلاة العصر .

وكذا قال سعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن سيرين .

وقال الزهرى : يعنى صلاة المسلمين .

وقال السدى ، عن ابن عباس : يعنى صلاة أهل دينهما .

والمقصود : أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ، (فيقسمان بالله) ، [أى : فيحلفان بالله] (إن ارتبتم) أى : إن ظهرت لكم منهما ريبة ، أنهما قد خانا أو غلا ، فيحلفان حينئذ بالله (لانشترى به) ، أى : بأيماننا . قاله مقاتل بن حيان (ثمناً) ، أى : لانعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ، (ولو كان ذا قربى) ، أى : ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لانحابيه ، (ولانكتم شهادة الله) ، أضافها إلى الله تشريفاً لها ، وتعظيماً لأمرها .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٣١ : ١١/١٦٦ . وقد نقل ابن جرير هذا الأثر عن زيد بن أسلم .
(٢) توضيح هذا النظر هو أن سورة المائدة سورة مدنية ، بل هى من أواخر السور المدنية نزولا . وهذا الخبر يتعارض وهذه الحقيقة ؛ فإنه يذكر أن هذه الآية نزلت فى أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار !! .
(٣) تفسير الطبرى : ١١/١٥٦ .

وقرأ بعضهم : (ولانكتم شهادة آلله) ، مجروراً على القسم : رواها ابن جرير ، عن عامر الشعبي(١) : وحكى عن بعضهم أنه(٢) قرأ : (ولانكتم شهادةً الله) ، والقراءة الأولى هي المشهورة :

(إنا إذا لمن الآثمين) ، أي : إن فعلنا شيئاً من ذلك ، من تحريف الشهادة ، أوتبديلها ، أوتغييرها ، أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى : (فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً) ، أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين ، أنهما خانا أو غلّا شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك (فآخران يقومان مقامهما من الذين استَحَقّ عليهم الأوليان) : هذه قراءة الجمهور : (استُحِقّ عليهم الأوليان) : وروى عن على ، وأبىّ ، والحسن البصرى أنهم قرءوها : (استَحَقّ عليهم الأوليان) :

وقد روى الحاكم فى المستدرك من طريق إسحاق بن محمد الفروى ، عن سليمان بن بلال ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن على بن أبي طالب أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ :(من الذين استَحَقّ عليهم الأوْليان) :

ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه(٣) :

[وقرأ بعضهم ، ومنهم ابن عباس : (من الذين استحق عليهم الأوّلِين)] : وقرأ الحسن : (من الذين استحق عليهم الأوَّلان) ، حكاه ابنُ جرير :

فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أى متى تحقق [ذلك] بالخبر الصحيح على خيانتهما ، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أوْلى من يرث ذلك المال (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) ، أى : لقولنا إنهما خانا أحقُّ وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة (ومااعتدينا) ، أى : فيما قلنا من الخيانة (إنا إذا لمن الظالمين) ، أى : إن كنا قد كذبنا عليهما :

وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولها والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوْثٌ(٤) فى جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم ، كما هو مقرر فى باب « القسامة » من الأحكام :

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا الحسين بن زياد ، حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن [أبى] النضر ، عن باذان — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبى طالب — عن ابن عباس ، عن تميم الدارى فى هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٥٦ : ١١/١٧٧ .

(٢) يعنى أن عامراً قرأ قراءة ثانية . ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٥٧ : ١١/١٧٨ . وينظر البحر المحيط : ٤/٤٤ . والمحتسب لابن جنى : ١/٢٢١ .

(٣) المستدرك . كتاب التفسير ، القراءات : ٢/٢٣٧ .

(٤) اللوث : أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلانا قتلنى ، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما ، أو تهديد منه له ، أو نحو ذلك .

شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت) ، قال : برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء : وكانا نصرانيين ، يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم، يقال له : بديل بن أبي مريم ، بتجارة ومعه جام (١) من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته : فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ــ قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام ، فبعناه بألف درهم ، ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا(٢) الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره ــ قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه عليه وسلم المدينة ، تأثمتُ(٣) من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا إليه ، أن يستحلفوه بما يُعَظَّم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) ... إلى قوله : (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فنُزعتْ الخمسمائة من عدى بن بداء .

وهكذا رواه أبو عيسى(٤) الترمذى وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحرانى ، عن محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، به فذكره ــ وعنده : « فأتوا به رسول (٥) الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة ، فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يُعَظَّم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت) إلى قوله : (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) ، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر ، فحلفا . فنُزِعَتْ الخمسمائة من عدى بن بداء ».

ثم قال : هذا حديث غريب ، وليس إسناده بصحيح ، وأبو النضر الذى روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر ، وقد تركه أهل العلم بالحديث ، وهو صاحب التفسير ، سمعت محمد بن إسماعيل يقول : محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر ، ثم قال : ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ ، وقد رُوى عن ابن عباس شئ من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه :

حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن ابن أبي زائدة ، عن محمد بن أبي القاسم ، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارىّ وعدىّ بن بداء ، فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مُخَوَّصاً(٦) بالذهب ، فأحلفهما رسول الله صلى الله

---

(١) الجام : إناء . وعظم ــ بضم العين المهملة وسكون الظاء المعجمة ــ أى : معظم أموال تجارته هذا الإناء ، يعنى أنه كان أنفسها .

(٢) أى : فقد أهل بديل الجام المذكور ولم يجدوه فى متاعه .

(٣) تأثمت : تحرجت .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٤٢٦/٨ ــ ٤٣٢ . وتفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٦٧ : ١٨٦/١١ ، ١٨٧ .

(٥) الزيادة مكانها بعد قوله : « فوثبوا إليه [فأتوا به رسول الله ...] .

(٦) أى : منقوشاً فيه خطوط دقاق طوال كالخوص .

عليه وسلم ، ووجدوا[1] الجام بمكة ، فقيل : اشتريناه من تميم وعدىّ ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وإن الجام لصاحبهم ، وفيهم نزلت : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم)[2] .

وكذا رواه أبو داود[3] ، عن الحسن بن على ، عن يحيى بن آدم ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث ابن أبى زائدة .

ومحمد بن أبى القاسم ، كوفى ، قيل : إنه صالح الحديث ، وقد ذكر هذه القصة مرسلة غيرُ واحد من التابعين ، منهم : عكرمة ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة . وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر ، رواه ابن جرير . وكذا ذكرها مرسلة : مجاهد ، والحسن ، والضحاك . وهذا يدل على اشتهارها فى السلف وصحتها .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر بن جرير :

حدثنى يعقوب حدثنا هشيم ، أخبرنا زكريا ، عن الشعبى : أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقا[4] ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة . فأتيا الأشعرى — يعنى أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه — فأخبراه ، وقدما بتركته ووصيته ، فقال الأشعرى : هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فأحلفهما بعد العصر : بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيرا ، وإنها لوصية الرجل وتركته ، قال : فأمضى شهادتهما[5] .

ثم رواه عن عمرو بن على الفلاس ، عن أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، عن مغيرة الأزرق ، عن الشعبى : أن أبا موسى قضى بدقوقا[6] .

وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبى ، عن أبى موسى الأشعرى .

فقوله : « هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » الظاهر — والله أعلم — أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدىّ بن بَدّاء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه كان فى سنة تسع من الهجرة[7] فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً ، يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل فى هذا المقام ، والله أعلم .

وقال أسباط ، عن السدى (يا أيها الذين آمنوا ، شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) ، قال : هذا فى الوصية عند الموت ، يوصى ويشهد رجلين من المسلمين على مالهُ وما عليه ، قال : هذا فى

---

(١) لفظ الترمذى : « ثم وجدوا ... » .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المائدة : ٤٣٣/٨ ، ٤٣٤ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأقضية ، باب شهادة أهل الذمة ، الحديث ٣٦٠٦ : ٣٠٧/٣ ، ٣٠٨ .
هذا وقد أخرج البخارى هذا الحديث فى كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، شهادة بينكم ...) : ١٦/٤ عن على بن عبد الله ، عن يحيى بن آدم ، به .

(٤) دقوقاً ، ودقوقاء : مدينة بين إربل وبغداد .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٢٦ : ١٦٥/١١ ، والأثر ١٢٩٤٨ : ١٧٤/١١ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٢٧ : ١٦٥/١١ .

(٧) أسد الغابة : ٢٥٦/١ بتحقيقنا .

الحضر — (أو آخران من غيركم) فى السفر — (إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت) ، هذا الرجل يدركه (الموت) فى سفره ، وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس ، فيوصى إليهما ، ويدفع إليهما ميراثه ، فيقبلان به ، فان رضى أهل الميت الوصية وعرفوا تركوا الرجلين ، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان ، فذلك قوله تعالى : (تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم) . قال عبد الله بن عباس : كأنى أنظر إلى العلجين (١) حين انتهى بهما إلى أبى موسى الأشعرى فى داره ، ففتح الصحيفة ، فأنكر أهل الميت وخوّنوهما ، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت له : إنهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما فى دينهما ، فيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما فى دينهما ، فيحلفان : بالله لا نشترى به ثمناً قليلا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين : أن صاحبهم لبهذا أوصى ، وأن هذه لتركته ، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا : إنكما إن كتمتما أو خُنتما فضحتُكما فى قومكما ، ولم تجز لكما شهادة ، وعاقبتكما ، فإذا قال لهما ذلك ، فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها(٢) .

رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم ، أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم وسعيد بن جبير : أنهما قالا فى هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) ... الآية ، قالا : إذا حضر الرجلَ الوفاة فى سفر ، فليشهد رجلين من المسلمين ، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فاذا قدما بتركته ، فإن صدقهما الورثة قُبِل قولهما ، وإن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر : بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خُنَّا ولا غيَّرنا(٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : فإن ارتيب فى شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله : ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا ، فان أطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله : إن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فذلك قوله :(فان عثر على أنهما استحقا إثماً) ، يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا (فآخران يقومان مقامهما) ، يقول : من الأولياء ، فحلفا بالله : إن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرَيْن ، وتجوز شهادة الأولياء(٤) .

وهكذا روى العوفى ، عن ابن عباس(٥) ، رواهما ابن جرير .

وهكذا قرّر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غيرُ واحد من أئمة التابعين والسلف ، رضى الله عنهم ، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله .

وقوله : (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) ، أى : شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضيّ [من تحليف الشاهدين الذميين و[قد] استريب بهما ، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى] .

(١) العلج — بكسر فسكون — : الرجل من كفار العجم .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٤٥ : ١١/١٧٥ ، ١٧٦ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٥٢ : ١١/١٧٥ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٦١ : ١١/١٨١ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٦٣ : ١١/١٨٢ .

وقوله : (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) ، أى : يكون الحامل لهم على الاتيان بالشهادة على وجهها ، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله ، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقون مايدعون . ولهذا قال : (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) .

ثم قال : (واتقوا الله) ، أى : فى جميع أموركم (واسمعوا) ، أى : وأطيعوا (والله لايهدى القوم الفاسقين) ، أى : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (١٠٩)

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة ، عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم ، كما قال تعالى : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين[(١)] وقال تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون[(٢)] ،

وقول الرسل : (لاعلم لنا) ، قال مجاهد ، والحسن البصرى ، والسدى : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم[(٣)] .

قال عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن الأعمش ، عن مجاهد : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) فيفزعون فيقولون : (لاعلم لنا) رواه ابن جرير[(٤)] وابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، حدثنا عنبسة قال : سمعت شيخاً يقول : سمعت الحسن يقول فى قوله : (يوم يجمع الله الرسل) . . . الآية ، قال : من هول ذلك اليوم[(٣)] .

وقال أسباط ، عن السدى : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا) ، ذلك : أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : (لاعلم لنا) ، ثم نزلوا منزلا آخر ، فشهدوا على قومهم .

رواه ابن جرير[(٤)] .

ثم قال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قوله : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) ، ماذا عملوا بعدكم ؟ وماذا أحدثوا بعدكم ؟ قالوا : (لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب)[(٥)] .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب) ، يقولون للرب عزوجل : لاعلم لنا ، إلا علم أنت أعلم به منا[(٦)] .

رواه ابن جرير . ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة . ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب عزوجل ، أى : لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شىء ، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم

---

(١) الأعراف ، آية : ٦ .
(٢) الحجر ، آية : ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٨٦–١٢٩٨٨ : ٢١٠/١١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٨٩ : ٢١١/١١ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٩١ : ٢١١/١١ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٩٠ : ٢١١/١١ .

من كنا إنما نطلع على ظاهره ، لاعلم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء ، المطلع على كل شيء : فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم ، فإنك (أنت علام الغيوب) :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)

يذكر تعالى ما امتنّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات ، فقال تعالى : (وإذ قال الله : ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك) ، أى : فى خلقى إياك من أم بلا ذكر ، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء (وعلى والدتك) حيث جعلتُكَ لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ، (إذ أيدتك بروح القدس) ، وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك ، فأنطقتك فى المهد صغيراً ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لى بالعبودية ، وأخبرتَ عن رسالتى إياك ودعوتك إلى عبادتى ، ولهذا قال تعالى : (تكلم الناس فى المهد وكهلا) ، أى : تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك : وضمن « تكلم » تدعو ، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عَجيب .

وقوله : (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) ، أى : الخط والفهم (والتوراة) ، وهى المنزلة على موسى بن عمران الكليم . وقد يَرِدُ لفظُ التوراة فى الحديث ويُرَاد به ما هو أعم من ذلك .

وقوله : (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى) ، أى : تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذنى لك فى ذلك فيكون طائراً بإذنى ، أى : فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك ، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه :

وقوله : (وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى) قد تقدم الكلام على ذلك فى سورة آل عمران ، بما أغنى عن إعادته(١) :

وقوله : (وإذ تخرج الموتى بإذنى) ، أى : تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته ، وإرادته ومشيئته :

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا محمد بن طلحة ــ يعنى ابن مصرف ــ عن أبى بشر ، عن أبى الهذيل قال : كان عيسى بن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين ، يقرأ فى الأولى : تبارك الذى بيده الملك) ، وفى الثانية : (ألم : تنزيل) السجدة . فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفي ، يادائم ، يافرد ، ياوتر ، يا أحد ، يا صمد ــ وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر : ياحى ، ياقيوم ، يا الله ، يا رحمن ، ياذا الجلال والإكرام ، يانور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم ، يارب ، وهذا أثر عجيب جداً .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٤٩ . ينظر : ٢/٣٦ .

وقوله : (وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين) ، أي : واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا في قتلك وصلبك ، فنجيتك منهم ، ورفعتك إلي ، وطهرتك من دنسهم ، وكفيتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا ، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة ، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لامحالة : وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي) ، وهذا أيضاً من الامتنان عليه ، عليه السلام ، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً . ثم قيل : المراد بهذا الوحي وحي إلهام ، كما قال : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه)(١) الآية ، وهذا وحي إلهام بلا خوف، وكما قال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا(٢)) . . . الآية . وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون) ، أي : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا .

قال الحسن البصري : ألهمهم الله عز وجل ذلك .

وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك .

ويحتمل أن يكون المراد : وإذ أوحيت إليهم بواسطتك ، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا (: آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون) :

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

هذه قصة المائدة ، وإليها تنسب السورة فيقال : «سورة المائدة» . وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة .

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين ، فالله أعلم .

---

(١) القصص ، آية : ٧ .

(٢) النحل ، آية : ٦٨ .

فقوله تعالى : (إذ قال الحواريون) ، وهم اتباع عيسى عليه السلام : (ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك) هذه قراءة كثيرين . وقرأ آخرون : (هل تَستَطيع[1] ربَّك) ، أى : هل تستطيع أن تسأل ربك (أن ينزل علينا مائدة من السماء) .

والمائدة هى : الخوان عليه طعام : وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ، ويتقوون [بها] على العبادة .

قال : (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ، أى : فأجابهم المسيح عليه السلام قائلا لهم : اتقوا الله، ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنة لكم ! وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.

(قالوا : نريد أن نأكل منها) ، أى : نحن محتاجون إلى الأكل منها (وتطمئن قلوبنا) إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء (ونعلم أن قد صدقتنا) : أى : ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك . (ونكون عليها من الشاهدين) ، أى : ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ماجئت به .

(قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا ، أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا) .

قال السدى : أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومَنْ بعدنا .

وقال سفيان الثورى : يعنى يوماً نصلى فيه .

وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم .

وعن سلمان الفارسى : عظة لنا ولمن بعدنا .

وقيل : كافية لأولنا وآخرنا .

(وآية منك) ، أى : دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك دعوتى ، فيصدقونى فيما أبلغه عنك (وارزقنا) أى : من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولاتعب (وأنت خير الرازقين . قال الله : إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم) ، أى: فمن كذب بها من أمتك ياعيسى وعاندها (فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) ، أى : من عالمى زمانكم ، كقوله : (ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب[2]) ، وكقوله : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار)[3] .

وقد روى ابن جرير ، من طريق عوف الاعرابى ، عن أبى المغيرة القواس ، عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون»[4] .

---

(١) رواها الطبرى عن سعيد بن جبير . ينظر الأثر ١٢٩٩٤ : ٢١٩/١١ .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط ٥٤/٤ : «وقرأ الكسائى : (هل تستطيع ربك) بالتاء من فوق ، (ربك) بنصب الباء وهى ـ قراءة على ، ومعاذ ، وابن عباس ، وعائشة وابن جبير ... ومعنى هذه القراءة : هل تستطيع سؤال ربك وأن ينزل : معمول لسؤال محذوف ، إذ هو حذف لا يتم المعنى إلا به » .

(٢) غافر ، آية : ٤٦ .

(٣) النساء ، آية : ١٤٥ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٢٥ : ٢٢٣/١١ .

[ذكر أخبار رويت عن السلف فى نزول المائدة على الحواريين]

قال أبوجعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى حجاج ، عن ليث ، عن عقيل ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ، ثم قالوا : يامعلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ، ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً . فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا ، أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إنى منزلها عليكم . فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذاباً لاأعذبه أحداً من العالمين) . قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[1] .

كذا رواه ابن جرير . ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : كان ابن عباس يحدث ، فذكر نحوه .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا أبو زرعة وهب الله بن راشد ، حدثنا عقيل ابن خالد ، أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال : فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى[2] ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : نزلت المائدة من السماء ، عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لايخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير .

وكذا رواه ابنُ جرير ، عن الحسن بن قزعة[3] . ثم رواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن ابن أبى عدى ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار ، قال : نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة ، فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبئوا ولا يدخروا . قال : فخان القوم وخبئوا وادخروا ، فمسخهم الله قردة وخنازير[4] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن[5] المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود ، عن سماك بن حرب ، عن رجل من بنى عجل ، قال : صليت إلى جنب عمار بن ياسر ، فلما فرغ قال : هل تدرى كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل ؟

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٩٩٥ : ٢٢٢/١١ .

(٢) كذا ، وفى الجرح لابن أبى حاتم ٣٤/٢/١ : « أبو على البصرى » . وفى التهذيب ٣١٦/٢ : « الهاشمى » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠١٢ : ٢٢٨/١١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠١٤ : ٢٢٩/١١ .

(٥) فى تفسير الطبرى : « حدثنا المثنى » .

قال قلت : لا ، قال : إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد ، قال : فقيل لهم : فإنها مقيمةلكم ما لم تخبّأوا ، أو تخونوا ، أو ترفعوا ،فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . قال : فما مضى يومهم حتى خبّأوا ورفعوا وخانوا ، فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين . وإنكم ــ معشر العرب ــ كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء ، فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ، وأخبركم(١) أنكم ستظهرون على العجم ، ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة . وآيم الله ، لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوهما ، ويعذبكم الله عذاباً أليماً(٢) .

وقال : حدثنا القاسم ، حدثنا حسين ، حدثني حجاج ، عن أبي معشر ، عن إسحاق بن عبد الله : أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ، يأكلون منها ما شاءوا . قال : فسرق بعضهم منها وقال : « لعلها لا تنزل غداً » فرفعت(٣) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين ، خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا(٤) .

وقال خصيف ، عن عكرمة ومِقْسَم ، عن ابن عباس : كانت المائدة سمكة وأرغفة .

وقال مجاهد : هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : نزلت المائدة خبزا وسمكاً .

وقال عطية العوفي : المائدة سمك فيه طَعْمُ كل شيء .

وقال وهب بن منبه : أنزلها من السماء على بني إسرائيل ، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى ، فكان يَقْعُدُ عليها أربعة آلاف ، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله عز وجل .

وقال وهب بن منبه : نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات ، وحشا الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون ، حتى أكل جميعهم وأفضلوا .

وقال الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جبير : أنزل عليها كل شيء إلا اللحم .

وقال سفيان الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن زاذان وميسرة ، وجرير عن عطاء ، عن ميسرة قال : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم .

وعن عكرمة : كان خبز المائدة من الأرز . رواه ابن أبي حاتم .

---

(١) في تفسير الطبري : « وأخبركم على لسان نبيكم أنكم ستظهرون على العرب » !؟ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٠١١ : ١١/٢٢٨ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٠١٠ : ١١/٢٢٨ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٠٠٦ : ١١/٢٢٧ .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إلي ، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مرداس العبدري — مولى بني عبد الدار — عن إبراهيم بن عمر ، عن وهب بن منبه ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الخير أنه قال : لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة ، كره ذلك جداً وقال : اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا تسألوا المائدة من السماء ، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية ، فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها . فأبوا إلا أن يأتيهم بها ، فلذلك قالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) ... الآية .

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها ، قام فألقى عنه الصوف ، ولبس الشعر الأسود ، وجبة من شعر ، وعباءة من شعر ، وتوضأ واغتسل ، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله ، فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا ، فألصق الكعب [بالكعب] وحاذى الأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره ، وطأطأ رأسه خشوعاً ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه ، فلما رأى ذلك دعا الله فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) ، فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم ، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتخذها الله عليهم — فيها : أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين — وهو يدعو الله من مكانه ويقول : اللهم اجعلها رحمة ، إلهي لا تجعلها عذاباً ، إلهي كم من عجيبة ؛ سألتك فأعطيتني ، إلهي اجعلنا لك شكارين ، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً وجزاء ، إلهي اجعلها سلامة وعافية ، ولا تجعلها فتنة ومثلة .

فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى ، والحواريين وأصحابه حوله ، يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط ، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة . وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً ، ثم انصرفوا بغيظ شديد . وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليها منديل مغطى . قال عيسى : من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاء عند ربه ؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ، ونحمد ربنا ، ونذكر باسمه ، ونأكل من رزقه الذي رزقنا . فقال الحواريون : ياروح الله وكلمته ، أنت أولانا بذلك ، وأحقنا بالكشف عنها . فقام عيسى عليه السلام ، واستأنف وضوءاً جديداً ، ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ، ثم بكى [بكاء] طويلا ، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً . ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل ، وقال : « باسم الله خير الرازقين » ، وكشف عن السفرة ، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها شوك ، يسيل السمن منها سيلا ؛ قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات .

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : ياروح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية ! فقال

شمعون : والله إسرائيل ما أردت بها سؤالا يا ابن الصديقة . فقال عيسى عليه السلام : ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا . إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة ، فقال له : كن ، فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم باسم الله ، واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم ، فانه بديع قادر شاكر .

فقالوا : ياروح الله وكلمته ، إنا نحب أن تُرينا آية في هذه الآية . فقال عيسى : سبحان الله ! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة، فقال : ياسمكة ، عودى بإذن الله حية كما كنت . فأحياها الله بقدرته ، فاضطربت وعادت باذن الله حية طرية ، تَلَمَّظ كما يتلمَّظ الأسد ، تدور عيناها لها بصيص ، وعادت عليها بواسيرها . ففزع القوم منها وانحازوا . فلما رأى عيسى ذلك منهم قال : مالكم تسألون الآية ، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ! ياسمكة، عودى بإذن الله كما كنت . فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول .

فقالوا لعيسى : كن أنت ياروح الله الذى تبدأ الأكل منها ، ثم نحن بعد . فقال عيسى : معاذ الله من ذلك ! يبدأ بالأكل من طلبها . فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها ، خافوا أن يكون نزولها سَخْطة وفي أكلها مَثُلَة ، فتحاموها . فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزَّمْنَى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله الذى أنزلها لكم ، فيكون مَهْنَؤُها لكم ، وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله ، واختموه بحمد الله . ففعلوا ، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ . ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت من السماء ، لم ينتقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرىء كل زَمِنٍ أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا .

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة ، سالت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات ، قال : فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً : الأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار ، والأصحاء والمرضى ، يركب بعضهم بعضاً . فلما رأى ذلك جعلها نوائب ، تنزل يوماً ولا تنزل يوماً . فلبثوا في ذلك أربعين يوماً ، تنزل عليهم غِبًّا عند(١) ارتفاع الضُحَى ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم باذن الله إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم .

قال : فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام : أن اجعل رزقي المائدة ، لليتامى والفقراء والزَّمْنَى(٢) دون الأغنياء من الناس . فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس ، وغَمَطُوا (٣) ذلك ، حتى شَكُّوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر . وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين ، حتى قالوا لعيسى : أخبرنا عن المائدة ، ونزولها من السماء أحق ، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير ؟ فقال عيسى عليه السلام : هلكتم والله المسيح ! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم ، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً ،

---

(١) الغب في الزيارة : أن تكون كل أسبوع . وفي الحمى : ماتأخذ يوما ، وتدع يوماً .

(٢) الزمنى : جمع زمين ، من الزمانة ، وهي العاهة .

(٣) غمط النعمة ـ كسمع وضرب ـ : بطرها ولم يشكرها وحقرها .

وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها ، وشككتم فيها ، فأبشروا بالعذاب ، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله ، وأوحى الله إلى عيسى : إنى آخذ المكذبين بشرطى ، فإنى معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، قال : فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان فى آخر الليل مسخهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقذار فى الكناسات ،

هذا أثر غريب جداً ، قطّعه ابن أبى حاتم فى مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم ،

وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل ، أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم : (قال الله إنى منزلها عليكم) ... الآية .

وقد قال قائلون : إنها لم تنزل ، فروى ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد فى قوله : (أنزل علينا مائدة من السماء) ، قال : هو مثل ضُرِب ، ولم ينزل شىء[1] .

رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ،

ثم قال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا القاسم — هو ابن سلام — حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تَنْزِل عليهم[2] ،

وقال أيضاً : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور بن زاذان ، عن الحسن : أنه قال فى المائدة : لم تنزل[3]

وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : (فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) ، قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل[4] .

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعى على نقله ، وكان يكون موجوداً فى كتابهم متواتراً ، ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم ، ولكن [الذى عليه] الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠١٩ ، ١١/٢٣١،٢٣٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٢٢ ، ١١/٢٣١ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٢١ ، ١١/٢٣١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٢٠ ، ١١/٢٣١ .

تعالى : (إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين) قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق[١] .

وهذا القول هو – والله أعلم – الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم : وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلىء وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة : ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام ، فالله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، عن عمران بن الحكم ، عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك ، أن نجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك : قال : وتفعلون؟ قالوا : نعم : قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ؟ قال : بل باب التوبة والرحمة[٢] .

ثم رواه أحمد ، وابن مردويه ، والحاكم في مستدركه ، من حديث سفيان الثوري ، به :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

هذا أيضاً مما خاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه

---

(١) وهذا القول هو الأقرب إلى ظاهر الآية ، وقولهم : « إن الحواريين لما تهددهم الله بالعذاب إن هم كفروا بعد إنزالها ، قالوا : لا حاجة لنا فيها » كلام يعوزه الدليل .

هذا وينبغي أن ننبه إلى أنه لا دلالة في ظاهر القرآن إلا على أن الحواريين سألوا إنزال مائدة من السماء ، وأن الله قد أجابهم إلى ذلك ، وهددهم بالعذاب الشديد إذا هم كفروا بعد تحقيق هذه الرغبة . أما وصف هذه المائدة ، وما كان عليها ، وكيفية نزولها ، وعدد من أكلوا منها ، وكم مرة نزلت ، فلم يعرض له القرآن بتصريح ولا تلميح . والأولى الاقتصار على ما ورد في الكتاب العزيز ، وما ثبت في السنة الصحيحة .

(٢) مسند أحمد : ٢٤٢/١ .

وأمه إلهين من دون الله : (ياعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) :

وقال السدى : هذا الخطاب والجواب فى الدنيا :

قال ابن جرير : وهذا هو الصواب ، وكان حين رفعه الله إلى سماء الدنيا . واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين :

أحدهما : أن لفظ الكلام لفظ المضى :

والثانى : قوله : (إن تعذبهم) و (إن تغفر لهم) (١) :

وهذان الدليلان فيهما نظر ، لأن كثيراً من امور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى ، ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله : (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ... الآية : التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لايقتضى وقوعه ، كما فى نظائر ذلك من الآيات :

والذى قاله قتادة وغيره هو الأظهر ، والله أعلم : أن ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة . وقد روى بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله ، مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة ، قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز ، عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممهم ، ثم يُدْعَى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه ، فيقر بها ، فيقول : (ياعيسى ابن مريم ، اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) ... الآية ثم يقول : (أأنت قلت للناس: اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون ، فيقولون : نعم ، هو أمرنا بذلك . قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام . فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده ، فيجاثيهم بين يدى الله عز وجل مقدار ألف عام . حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار » .

وهذا حديث غريب عزيز .

وقوله : (سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق) هذا توفيق للتأدب فى الجواب الكامل ، كما قال ابن أبى حاتم :

---

(١) قال ابن جرير فى المعنى الثانى ، أو العلة الثانية ٢٣٦/١١ : « وأن عيسى لم يشك هو ولا أحد من الأنبياء ، أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ، فيجوز أن يتوهم على عيسى أن يقول فى الآخرة مجيباً لربه تعالى ذكره : إن تعذب من اتخذنى وأمى إلهين من دونك فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاوس ، عن أبي هريرة قال : يلقى عيسى حجته ، ولقّاه(١) الله في قوله : (وإذ قال الله : ياعيسى ابن مريم : أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) ؟ ــ قال أبو هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم : فلقاه الله : (سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) ... إلى آخر الآية .

وقد رواه الثوري ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن طاوس ، بنحوه .

وقوله : (إن كنت قلته فقد علمته) ، أي : إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمته يارب ، فإنه لايخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي) [ولا أضمرته . ولهذا قال : (تعلم ما في نفسي] ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) بابلاغه (أن اعبدوا الله ربي وربكم) [أي : ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بابلاغه : (أن اعبدوا الله ربي وربكم)] ، أي : هذا هو الذي قلت لهم ، (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) ، [أي : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم] ، (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) .

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة قال : انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملاه على سفيان وأنا معه ، فلما قام انتسخت من سفيان ، فحدثنا قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ، فقال : « ياأيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة [عراة] غُرْلاً(٢) (كما بدأنا أول خلق نعيده) ، وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي . فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك : فأقول كما قال العبد الصالح : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » .

ورواه البخاري(٣) عند هذه الآية عن الوليد عن أبي شعبة ــ وعن محمد بن كثير ، عن سفيان الثوري ، كلاهما عن المغيرة بن النعمان ، به .

---

(١) لقاه الشيء : ألقاه إليه . والمعنى : أن الله تعالى ألقى إليه ما يجيب به . وقد ورد في رواية ابن جرير عن سفيان عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن طاوس ، الأثر ١٣٠٣٤ : ١١/٢٣٩ ، ٢٤٠ : « والله وقفه » بتشديد القاف ، والمعنى : أن الله علمه ما لم يكن يعلم .

(٢) غرلا : جمع أغرل ، وهو الذي لم يختن .

(٣) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ٦/٦٩ ، ٧٠ . وقد رواه البخاري أيضاً في كتاب الأنبياء من محمد بن يوسف عن سفيان ، باب (واذكر في الكتاب مريم) : ٤/٢٠٤ . ورواه مسلم من طريق شعبة في كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة : ٨/١٥٧ . وأخرجه الترمذي من طريق سفيان في أبواب القيامة ، باب ما جاء في شأن الحشر : ٧/١٠٧ ، ١١٠ . ورواه الإمام أحمد من طريق شعبه : ١/٢٣٥ ، ٢٥٣ .

وقوله : (إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل . فإنه الفعال لما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله . وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب . وقد ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بها ليلة إلى الصباح يرددها :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنى فُلَيت العامرى ، عن جَسْرة[1] العامرية ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليلة] فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) . فلما أصبح قلت : يارسول الله ، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى . فأعطانيها . وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً »[2] .

طريق أخرى وسياق آخر : قال أحمد : حدثنا يحيى ، حدثنا قدامة بن عبد الله ، حدثتنى جَسْرة بنت دجاجة : أنها انطلقت معتمرة ، فانتهت إلى الربذة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالى فى صلاة العشاء ، فصلى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله . فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى ، فجئت فقمت خلفه ، فأومأ إلىّ بيمينه ، فقمت عن يمينه ؛ ثم جاء ابن مسعود فقام خلفى وخلفه ، فأومأ إليه بشماله ، فقام عن شماله ، فقمنا ثلاثتنا يصلى كل واحد منا بنفسه ، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو . وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة . فلما[3] أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود : أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ؟ فقال ابن مسعود [بيده][4] : لا أسأله عن شىء حتى يحدث إلىّ . فقلت : بأبى [أنت] وأمى ، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه . قال : دعوت لأمتى . قلت : فماذا أُجِبْتَ ؟ — أو ماذا رُدَّ عليك ؟ — قال : أُجبتُ بالذى لو اطّلع عليه كثير منهم طلْعة تركوا الصلاة . قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : بلى . فانطلقت مُعْنِقاً[5] قريباً من قَذْفة بحجر . فقال عمر : يارسول الله ، إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة ... فناداه أن ارجع . فرجع ، وتلك الآية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سوادة حدثه ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول عيسى :

---

(١) فى المسند : « ميسرة العامرية » . وهو خطأ ، ينظر التهذيب : ١٢/٤٠٦ .
(٢) مسند أحمد : ٥/١٤٩ .
(٣) فى المسند : « فيعد أن أصبحنا » .
(٤) قال بيده : أشار .
(٥) معنقا : مسرعاً . وينظر : ٢/١٢٨ ، ٣٣٢ .

(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (: فرفع يديه فقال : اللهم أمتي ؛ وبكى ، فقال الله : ياجبريل ، اذهب إلى محمد ــ وربك أعلم ــ فسأله : ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل ، فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، فقال الله : ياجبريل ، اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ابن هبيرة : أنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول : حدثني سعيد بن المسيب ، سمعت حذيفة بن اليمان يقول : « غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فلم يخرج ، حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : إن ربي عز وجل استشارني في أمتي : ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ماشئت أي رب هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية ، فقلت له كذلك ، فقال : لا أخزيك(١) في أمتك يامحمد ، وبشرني [أن] أول من يدخل [الجنة] من أمتي معي سبعون ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلي فقال : ادع تجب ، وسل تعط ، فقلت لرسوله : أو معطي ربي سؤلي ؟ قال : ما أرسلني إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي [حيا] صحيحا ، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي ، وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا ، وأعطاني [أني] أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج »(٢) .

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم ، فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين ، الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

قال الضحاك ، عن ابن عباس يقول : [يوم] ينفع الموحدين توحيدهم .

(لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) ، أي : ماكثين فيها لا يتحولون ولا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : (ورضوان من الله أكبر (٣)) .

وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث .

---

(١) في المسند : « لا أحزنك » .
(٢) مسند أحمد : ٥/٣٩٣ .
(٣) التوبة ، آية : ٧٢ .

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا : حديثاً فقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا المحاربي ، عن ليث ، عن عثمان — يعني ابن عمير أبو اليقظان — عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثم يتجلى لهم الرب تعالى ، فيقول : سلوني سلوني أعطكم : قال : فيسألونه الرضا (فيقول : رضاي أحلكم داري ، وأنالكم كرامتي ، فسلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا ، قال : فيشهدهم أنه قد رضي عنهم » .

وقوله : (ذلك الفوز العظيم) ، أي : هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : (لمثل هذا فليعمل العاملون) (١) ، وكما قال : (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (٢) .

وقوله : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير) ، أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ولا وزير ، ولا عديل ، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

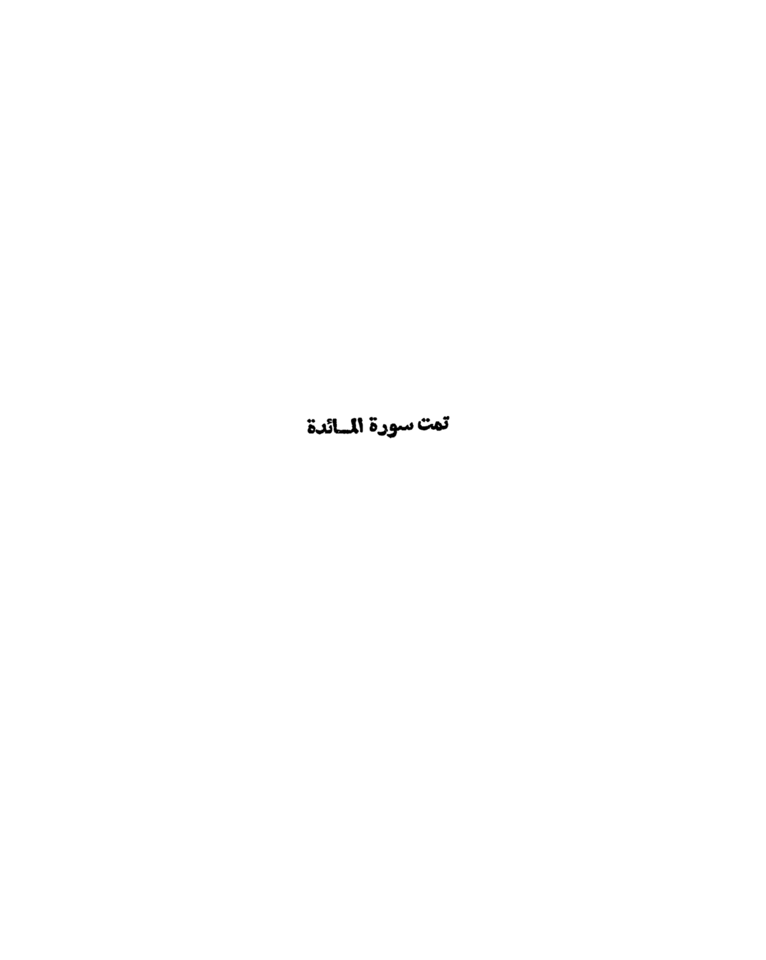
قال ابن وهب : سمعت حُيَيّ بن عبد الله يحدث ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : « آخر سورة أنزلت سورة المائدة » (٣) .

---

(١) الصافات ، آية : ٦١ .

(٢) المطففين ، آية : ٢٦ .

(٣) مضى تخريج هذا الأثر في أول السورة ، ينظر : ٣/٢ .



تمت سورة المـائدة

تفسير سورة الأنعام

قال العوفى وعكرمة وعطاء ، عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة :

وقال الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مِهْران ، عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح :

وقال سفيان الثورى ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبى صلى الله عليه وسلم [جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم ، إنْ كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة :

وقال شريك ، عن ليث ، عن شهر ، عن أسماء قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم] وهو فى مسير فى زَجَل (1) من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض .

وقال السدى ، عن مُرّة ، عن عبد الله قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة :

ورُوى نحوُه من وجه آخر ، عن ابن مسعود :

وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا : حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى ، أخبرنا جعفر بن عون ، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدى ، حدثنا محمد ابن المنكدر ، عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سَبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » :

ثم قال : صحيح على شرط مسلم(2) :

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا إبراهيم بن درستويه الفارسى ، حدثنا أبو بكر بن أحمد ابن محمد بن سالم ، حدثنا ابن أبى فديك ، حدثنى عمر بن طلحة الرقاشى ، عن نافع بن مالك أبى سهيل ، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة ، سد ما بين الخافقين ، لهم زَجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : « سبحان الله العظيم سبحان ، الله العظيم » .

---

(1) الزجل : صوت رفيع عال .

(2) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٢/٣١٤ ، ٣١٥ .

ثم روى ابن مردويه عن الطبرانى ، عن إبراهيم بن نائلة ، عن إسماعيل بن عمرو ، عن يوسف بن عطية ، عن ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزلت علَىَّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زجل بالتسبيح والتحميد »(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ووحّد لفظ النور ، لكونه أشرف ، كما قال (عن اليمين والشمائل)(٢) وكما قال فى آخر هذه السورة : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله(٣) .

وقوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ، أى : ومع هذا كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا معه شريكاً وعدلا ، واتخذوا له صاحبة وولداً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقوله : (هو الذى خلقكم من طين) ، يعنى : أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا ، فانتشروا فى المشارق والمغارب

وقوله : (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) ، قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (ثم قضى أجلا) ، يعنى : الموت . (وأجل مسمى عنده) يعنى الآخرة .

وهكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وزيد ، بن أسلم ، وعطية ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

وقول الحسن ــ فى رواية عنه : (ثم قضى أجلا) قال : ما بين أن يُخْلَق إلى أن يموت (وأجل مسمى عنده) : ما بين أن يموت إلى أن يبعث(٤) ــ هو يرجع إلى ما تقدم ، وهو تقدير الأجل الخاص ، وهو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها ، والمصير إلى الدار الآخرة .

وعن ابن عباس ومجاهد : (ثم قضى أجلا) ، يعنى : مدة الدنيا ، (وأجل مسمى عنده) ، يعنى : عمر الإنسان إلى حين موته ، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار)...(٥) الآية .

---

(١) الدر المنثور : ٣/٢ .
(٢) النحل ، آية : ٤٨ .
(٣) الأنعام ، آية : ١٥٣ .
(٤) تفسير الطبرى الأثر ١٣٠٥٤ : ١١/٢٥٦ .
(٥) الأنعام ، آية : ٦٠ .

وقال عطية ، عن ابن عباس : (ثم قضى أجلا) ، يعني : « النوم » ، يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة ، (وأجل مسمى عنده) ، يعني : أجل موت الإنسان » . وهذا قول غريب .

ومعنى قوله : (عنده) أى : لا يعلمه إلا هو كقوله تعالى : (إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو) (١) ، وكقوله : يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها)(٢) .

وقوله : (ثم أنتم تمترون) ، قال السدى وغيره : يعنى تشكون فى أمر الساعة .

وقوله : (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) : اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد الاتفاق على تخطئة قول الجهمية الأول القائلين بأنه — تعالى عن قولهم علواً كبيراً — فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك فأصح الأقوال أنه : المدعو الله فى السموات وفى الأرض ، أى : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغباً ورهباً ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (٣)، أى : هو إله مَنْ فى السماء وإله مَنْ فى الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : (يعلم سركم وجهركم) خبراً أو حالا .

والقول الثانى : أن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، من سر وجهر : فيكون قوله يعلم متعلقاً بقوله : (فى السموات وفى الأرض) ، تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكسبون .

والقول الثالث : أن قوله : (وهو الله فى السموات) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : (وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) . وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله : (ويعلم ما تكسبون) ، أى : جميع أعمالكم خيرها وشرها .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم (من آية) ، أى : دلالة ومعجزة وحجة ، من الدلالات على وحدانية الرب عزّ وجل ، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون فيها ولا يبالون

(١) الأعراف ، آية : ١٨٧ .
(٢) النازعات ، آية : ٤٢ / ٤٤ .
(٣) الزخرف ، آية : ٨٤ .

بها ــ قال الله تعالى: (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) . وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدُنّ غِبّه ، وليذوقُنّ وَباله .

ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد [منهم] قوة ، وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالا وأولاداً واستغلالا للأرض وعمارة لها ، فقال : (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) ، أى : من الأموال والأولاد والأعمار ، والجاه العريض ، والسعة والجنود ، (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) ، أى : شيئاً بعد شىء ، (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) أى : أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أى : استدراجاً وإملاء لهم (فأهلكناهم بذنوبهم) ، أى : بخطاياهم وسيآتهم التى اجترموها (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) ، أى : فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ، (وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) ، أى : جيلا آخر لنختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم ، فهلكوا كهلاكهم . فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذى كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم ، لولا لطفه وإحسانه(١) .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم [ومنازعتهم] فيه : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم)، أى : عاينوه ، ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك ، لقال (الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين) وهذا كما قال تعالى مخبرا عن مكابرتهم للمحسوسات : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) (٢) وقال تعالى : (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مرقوم) (٣) .

---

(١) فى هذه الآية ــ كما ترى ــ تهديد للمشركين ووعيد لهم بالهلاك ، كما أهلك العاصون من قبلهم ، مع الفرق بين هؤلاء وأولئك فى القوة والغنى والتمكن فى الأرض . وهى تفيد بمفهومها أن الترف هو العدو الأول لكل مجتمع ، فان القرون التى أهلكها الله فى الماضى كانت متمكنة فى الأرض ، وكانت السماء ، أى السحاب ، ينزل عليهم مدراراً ، وكانت الأنهار تجرى من تحتهم ، وكان ذلك يدفعهم إلى الطغيان والظلم . فأهلكهم الله بذنوبهم ، وهذه قاعدة عامة تشمل كل من حاد وفتنته المظاهر من الحقائق .

(٢) الحجر ، آية : ١٤ ، ١٥ .

(٣) الطور ، آية : ٤٤ .

(وقالوا : لولا أنزل عليه ملك) ، قال الله : (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) ، أى : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب ، كما قال تعالى: (ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذا منظرين)[١]، قال تعالى : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) ... الآية .

وقوله : (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، أى : ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِىّ ملكا ، أى : لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا ، لكان على هيئة رجل لتُمْكِنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم فى قبول رسالة البَشَرِىّ كما قال تعالى : (قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا[٢] فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم ، ليدعو بعضهم بعضا ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : (لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم)[٣] ... الآية .

قال الضحاك ، عن ابن عباس فى الآية : « يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل، لأنهم لايستطيعون النظر إلى الملائكة[٤] من النور (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، أى : ولخلطنا عليهم ما يخلطون .

وقال الوالبى ، عنه : ولشبهنا عليهم[٥] .

وقوله : (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) ، هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال : (قل : سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ، أى : فكروا فى أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنّكال ، والعقوبة فى الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم فى الآخرة ، وكيف نجّى رسله وعباده المؤمنين[٦] .

---

(١) الحجر ، آية : ٨ .
(٢) الإسراء ، آية : ٩٥ .
(٣) آل عمران ، آية : ١٦٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٨٤ : ١١/٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٠٨٩ : ١١/٢٧٠ .
هذا ، وفى هذه الآية دليل على أن طبيعة البشر وطبيعة الملائكة مختلفتان ، وأن البشر لا يتحملون رؤية الملائكة على حقيقتهم ، ولا يتعارض هذا وإمكان الوحى ، لأن الله تعالى يزود الأنبياء بما يتمكنون به من رؤية الملائكة والتلقى عنهم .
(٦) رأيت فى قوله تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) ... إلى آخر الآية ، كيف لفت القرآن نظر هذه الأمة إلى دراسة المجتمعات الإنسانية لمعرفة أسباب القوة والضعف فيها . وفى هذه الآية يلفت نظرها إلى دراسة التاريخ للعظة والاعتبار ، وهذا دليل قائم على أن الدعوة المحمدية قد قامت على العلم ، ورسمت منهجها وحددت أهدافها على أسسه وقواعده .

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة ، كما ثبت فى الصحيحين ، من طريق الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتى تغلب غضبى » (١) .

وقوله : (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) ، هذه اللام هى الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم ، الذى لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم فى ريبهم يترددون .

وقال ابن مردويه عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة ، حدثنا عباس بن محمد ، حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا محصن بن عقبة اليمانى ، عن الزبير بن شبيب ، عن عثمان بن حاضر ، عن ابن عباس قال : « سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدى رب العالمين ، هل فيه ماء ؟ قال : والذى نفسى بيده إن فيه لماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك فى أيديهم عصى من نار ، يذودون الكفار عن حياض الأنبياء » .

هذا حديث غريب . وفى الترمذى : « إن لكل نبى حوضا [وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة] وأرجو أن أكون أكثرهم واردة » (٢) .

ولهذا قال : (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ، أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : (وله ما سكن فى الليل والنهار) ، أى : كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتدبيره ، ولا إله إلا هو .

(وهو السميع العليم) ، أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

ثم قال لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه المستقيم : (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض) كما قال : (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) (٣) ، والمعنى : لا أتخذ وليا إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أى : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق .

---

(١) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٤٧ ، ١٥٣ . وكتاب بدء الخلق : ٤/١٢٩ . ومسلم ، كتاب التوبة : باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه : ٨/٩٥ ، ٩٦ .

(٢) تحفة الأحوذى، أبواب القيامة، باب ما جاء فى صفة الحوض: ٧/١٣٣، ١٣٤ . وما بين القوسين عنه. «وإنهم» يعنى الأنبياء.

(٣) الزمر ، آية : ٦٤ .

(وهو يطعم ولا يطعم) ، أى : وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (١) .... الآية .

وقرأ بعضهم هاهنا (وهو يطعم ولا يَطْعَم)(٢) ، أى : لا يأكل .

وفى حديث سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قُبَاء النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فانطلقنا معه ، فلما طعم النبى صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال : «الحمد لله الذى يُطعِم ولا يَطْعَم ، ومن علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا . الحمد لله غير مُودّع ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العرى ، وهدانا من الضلال وبَصَّرنا من العمى ، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا . الحمد لله رب العالمين » . (٣) .

(قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) ، أى : من هذه الأمة (ولا تكونن من المشركين : قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعنى يوم القيامة (من يصرف عنه) يعنى : العذاب (يومئذ فقد رحمه) ، يعنى : فقد رحمه الله (وذلك هو الفوز المبين) ، كما قال : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) (٤) والفوز : هو حصول الربح ونفى الخسارة .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) كما قال تعالى : (ما يفتح

---

(١) الذاريات ، آية : ٥٦ .

(٢) هذه قراءة مجاهد ، وابن جبير ، والأعمش ، وأبو حيوة ، وعمرو بن عبيد ، وأبو عمرو ، فى رواية عنه . ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨٥/٤ ، ٨٦ .

(٣) رواه الحاكم فى مستدركه ، كتاب الدعاء : ٥٤٦/١ ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه» . وقد روى البخارى نحوه عن أبى أمامة فى كتاب الأطعمة ، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه : ١٠٦/٧ ، ورواه ابن ماجه عن أبى أمامة أيضاً فى كتاب الأطعمة ، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام ، الحديث ٣٢٨٤ : ١٠٩٢/٢ ، ١٠٩٣ . ورواه الإمام أحمد عن رجل من بنى سليم ، المسند : ٢٣٦/٤ ، وعن أبى أمامة : ٢٥٢/٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٨٥ .

الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (١) الآية ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ » (٢) .
ولهذا قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) ، أى : هو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره .

(وهو الحكيم) ، أى : فى جميع ما يفعله ، (الخبير) بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطى إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق .

ثم قال : (قل أى شيء أكبر شهادة) ، أى : من أعظم الأشياء (قل الله شهيد بينى وبينكم) ، أى : هو العالم بما جئتكم به ، وما أنتم قائلون لى . (وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) ، أى : وهو نذير لكل من بلغه ، كما قال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (٣) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد ابن كعب فى قوله : (ومن بلغ) : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ـ زاد أبو خالد ـ : وكلّمه .

ورواه ابن جرير من طريق أبى معشر ، عن محمد بن كعب قال : من بلّغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم (٤) .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة فى قوله : (لأنذركم به ومن بلغ) : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » .

وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو كالذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ينذر كالذى أنذر .

وقوله : (أئنكم لتشهدون) أيها المشركون (أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد) كما قال تعالى : (فان شهدوا فلا تشهد معهم) ، (قل : إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون) .

ثم قال مخبرا عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذى جئتهم به كما يعرفون أبناءهم ، بما عندهم من الأخبار والأنباء

---

(١) فاطر ، آية : ٢ .
(٢) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه : ٩/١١٨ . وكتاب القدر ، باب لا مانع لما أعطى الله : ٨/١٥٧ ، وكتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة : ٨/٩٠ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها فى تمام : ٢/٤٥ ، وباب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع : ٢/٤٧ ، وكتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته : ٢/٩٥ ، ٩٦ .
ومعنى قوله : (لا ينفع ذا الجد منك الجد) ، أى : لا ينفع ذا الغنى عندك غناه ، وإنما ينفعه العمل بطاعتك .
(٣) هود ، آية : ١٧ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٢٤ : ١١/٢٩١ .

[عن المرسلين المتقدمين والأنبياء] ، فإن الرسل كلهم بَشَّروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم وبمبعثه وصفته ، وبلده ومُهَاجَرِه ، وصفة أمته . ولهذا قال بعد هذا : (الذين خسروا أنفسهم) ، أى : خسروا كل الخسارة ، (فهم لا يؤمنون) بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء ، ونوهت به فى قديم الزمان وحديثه .

ثم قال : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب [بآياته) ، أى : لا أظلم ممن تَقَوَّلَ على الله ، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب] بآيات الله وحُجَجِه وبراهينه ودلالاته ، (إنه لا يفلح الظالمون) ، أى : لا يفلح لا هذا ولا هذا ، لا المفترى ولا المكذب .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين : (ويوم نحشرهم جميعاً) يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التى كانوا يعبدونها من دونه قائلا : (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) كما قال تعالى فى سورة القصص : (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون(١)) .

وقوله : (ثم لم تكن فتنتهم) ، أى : حجتهم .

وقال عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : أى معذرتهم . وكذا قال قتادة .

وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : أى قيلهم . وكذا قال الضحاك .

وقال عطاء الخراسانى : ثم لم تكن بليتهم حين ابتلوا (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) .

وقال ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم ، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين(٢)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أتاه رجل فقال يا أبا عباس . سمعت الله يقول : (والله ربنا ما كنا مشركين) ؟ قال : أما قوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا ، فهل فى قلبك الآن شىء ؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا قد نزل فيه شىء ، ولكن لا تعلمون وجهه .

(١) القصص ، آية : ٦٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، ١١/٣٠٠ .

وقال الضحاك، عن ابن عباس : هذه فى المنافقين .

وفى هذا نظر ، فإن هذه الآية مكية ، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة : (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له (١) ... الآية . وهكذا قال فى حق هؤلاء : (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) كما قال : (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون . من دون الله ، قالوا : ضلوا عنا(٢)) ... الآية .

وقوله : (ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) ، أى : يجيئوك ليسمعوا قراءتك ، ولا تجزى عنهم شيئاً ، لأن الله جعل (على قلوبهم أكنة) ، أى : أغطية لئلا يفهموا القرآن (وفى آذانهم وقرا) ، أى : صما عن السماع النافع ، فهُم كما قال الله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء(٣) ... الآية .

وقوله : (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) ، أى : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات ، لا يؤمنوا بها . فلا فَهْمَ عندهم ولا إنصاف ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم (٤)) ... الآية .

وقوله : (حتى إذا جاءوك يجادلونك) ، أى : يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) ، أى : ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم .

وقوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) ، وفى معنى (ينهون عنه) قولان :

أحدهما أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول والإنقياد للقرآن ، ولا يتركون أحداً ينتفع .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وهم ينهون عنه) قال : ينهون الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به (٥) .

وقال محمد بن الحنفية : كان كفار قريش لا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم ، وينهون(٦) عنه .

وكذا قال مجاهد وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد . وهذا القول أظهر ، والله أعلم ، وهو اختيار ابن جرير .

والقول الثانى رواه سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عمن سمع ابن عباس يقول فى قوله : (وهم ينهون عنه) ، قال : نزلت فى أبى طالب كان ينهى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤذى(٧) .

---

(١) المجادلة ، آية : ١٨ .
(٢) غافر ، آية : ٧٣ ، ٧٤ .
(٣) البقرة ، آية : ١٧١ .
(٤) الأنفال ، آية : ٢٣ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٦٠ : ٣١١/١١ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٥٩ : ٣١١/١١ ، ونصه : « قال : يتخلفون عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجيبونه ، وينهون الناس عنه » .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٧٠ : ٣١٣/١١ . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه من طريق سفيان . ينظر تفسير سورة الأنعام : ٣١٥/٢ .

وكذا قال القاسم بن مخيمرة ، وحبيب بن أبي ثابت ، وعطاء بن دينار : أنها نزلت في أبي طالب .

وقال سعيد بن أبي هلال : نزلت في عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا عشرة ، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر (١) .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال محمد بن كعب القرظي : (وهم ينهون عنه) ، أي : ينهون الناس عن قتله .

وقوله : (وينأون عنه) ، أي : يتباعدون منه . (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) ، أي : وما يهلكون بهذا الصنيع ، ولا يعود وباله إلا عليهم ، وما يشعرون .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا : (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ، يتمنون أن يُردّوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا عملا صالحا ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال الله تعالى : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) [أي : بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون] في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة ، كما قال قبل هذا بيسير : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم) .

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كما قال تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون : (لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر (٢) ... الآية . قال تعالى مخبرا عن فرعون وقومه : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) (٣) .

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخبار عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة [مكية] وهي العنكبوت ، فقال : (وليعلمن الله الذين

---

(١) لم يكن أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة . وإنما كانوا تسعة ؛ فإن عبد المطلب لم ينجب غير عشرة أبناء بما فيهم عبد الله والد النبي عليه السلام . ولم يعش هؤلاء الأعمام التسعة جميعاً حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، بل منهم من هلك صغيراً أو مات قبل بعثته . وهؤلاء الذين بقوا لم يكونوا معه في الجهر وعليه في السر . وإن من عاداه عاداه سراً وجهراً . وكذلك من والاه . ولو كان أبو طالب ممن كان يعين عليه سراً لحال بين ولديه علي وجعفر وبين نصرته ، وقد كانا صغيرين ، وكان يتمكن من ذلك لو أراد . ولو كان أبو طالب كذلك لما اشتد حزن النبي صلى الله عليه وسلم على وفاته .

(٢) الإسراء ، آية : ١٠٢ .

(٣) النمل ، آية : ١٤ .

آمنوا وليعلمن المنافقين)(١) ؛ وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين فى الدار الآخرة ، حين يعاينون العذاب يظهر لهم حينئذ غِبّ ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق ، والله أعلم .

وأما معنى الإضراب فى قوله : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة فى الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) ، أى : فى تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة فى الإيمان .

ثم قال مخبرا عنهم : إنهم لو رُدّوا إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه (وإنهم لكاذبون) ، أى : فى قولهم : (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) .

أى : لعادوا لما نهوا عنه ، إنهم لكاذبون ولقالوا : (إن هى إلا حياتنا) أى : ما هى إلا هذه الحياة الدنيا ، ثم لا معاد بعدها . ولهذا قال (وما نحن بمبعوثين (٢)) .

ثم قال : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) ، أى : أوقفوا بين يديه قال : (أليس هذا بالحق ؟) ، أى : أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ؟ (قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ، أى : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليوم مسّه (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (٣)) .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن خسارة من كذب بلقاء الله ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل ، وما أسلف من قبيح الفعال ، ولهذا قال : (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) .

وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال ، وعلى الدار الآخرة ، أى : فى أمرها .

وقوله : (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون) ، أى : يحملون .

وقال قتادة : يعملون (٤) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن عمرو بن قيس ، عن أبى مرزوق قال : ويستقبل الكافر — أو : الفاجر — عند خروجه من قبره كأقبح صورة رآها وأنتن ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول أو ما تعرفنى ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قبح وجهك ونتّن ريحك . فيقول : أنا عملك الخبيث ، هكذا [كنت] فى الدنيا خبيث العمل منتنه ، طالما ركبتنى فى الدنيا ، هلم أركبك ، فهو قوله : (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) . . . الآية (٥) .

---

(١) العنكبوت ، آية : ١١ .

(٢) فى هذه الآية يجد الباحث الدليل على استحقاق هؤلاء المذنبين البقاء فى العذاب . فقد أنبأنا المولى سبحانه أن نفوس هؤلاء مطبوعة على الشر ، وأنها لا تقتنع بالحق إلا رهبة من العقوبة ؛ فهى إذا عاينت النار وشاهدت هولها طلبت العودة إلى الدنيا لتسارع فى الخيرات وتعمل الصالحات . وهى إذا عادت إلى الدنيا عادت كما كانت ظالمة آثمة ، وأنكرت ما رأته رأى العيان .

(٣) الطور ، آية : ١٥ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٨٩ : ١١/٣٢٨ .

(٥) الدر المنثور : ٣/٩ .

وقال أسباط عن السدى أنه قال : ليس من رجل ظالم [يموت][1] فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسود اللون ، منتن الرائحة ، عليه ثياب دنسة ، حتى يدخل معه قبره ، فإذا رآه قال : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان لك قبيحاً ! قال : ما أنتن ريحك ! قال : كذلك كان عملك منتنا ! قال : ما أدنس ثيابك ، قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال له : من أنت ؟ قال : أنا عملك ! قال : فيكون معه فى قبره ، فإذا بعث يوم القيامة قال له : إنى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملنى . قال : فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله : (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون)[2] .

وقوله : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) ، أى : إنما غالبها كذلك (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) ، أى : قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)[3] ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين)[4] (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)[5] .

وقوله : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ، أى : لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ، أى : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن ناجية بن كعب ، عن على [قال] : قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

ورواه الحاكم ، من طريق إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه[6] .

---

(١) من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٨٨ : ٣٢٨/١١ .
(٣) سورة فاطر ، آية : ٨ .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ٣ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ٧ .
(٦) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٥/٢ . وأخرجه الطبرى ، ولكن وقف به على ناجية . ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٩٥ ، ١٣١٩٦ : ٣٣٤/١١ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة ، حدثنا بشر بن المبشر الواسطي ، عن سلام بن مسكين ، عن أبي يزيد المدني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟ ! فقال : والله إني أعلم إنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا ؟ ! وتلا أبو يزيد : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (١) .

وقال أبو صالح وقتادة : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون (٢) .

وذكر محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل ، هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شَرِيق ، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر . فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء له ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتتنوا بمجيئهم . فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا منه أن صاحبيه لا يجيئان ، لما تقدم من العهود ، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا . فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً ، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يرَاد بها ، وسمعتُ أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا(٣) نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا(٤) على الركب ، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه(٥) .

وروى ابن جرير ، من طريق أسباط ، عن السدي ، في قوله : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) : لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شَرِيق لبني زهرة : يا بني زهرة ، إن محمداً ابن أختكم ، فأنتم أحق من كفّ عنه . فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته(٦) ! قفوا [ها هنا](٧) حتى ألقى أبا الحكم ،فإن غُلِب مُحمد رجعتم سالمين ،وإن غَلَب محمدفإن قومكم لم

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣١٩٠ ، ١٣١٩١ ، ١٣١٩٢ : ١١/٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٣) في المخطوطة : « قال تنازعنا » . وليست « قال » في السيرة . والسياق يقتضي حذفها .

(٤) كذا في مخطوطتنا . وفي السيرة : « تجاذينا » بالذال ، وقال السهيلي في الروض الأنف ١/٢١٠ : « فلما تجاذينا على الركب ــ وقع في الجمهرة : « الجاذي : المقعي : قال : وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء » .

(٥) سيرة ابن هشام : ١/٣١٥ ، ٣١٦ .

(٦) في مخطوطة الأزهر : « ابن أختكم » والمثبت من تفسير الطبري .

(٧) من تفسير الطبري .

يصنعوا بكم شيئاً – فيومئذ سُمّي الأخنس(١) ، وكان اسمه « أبيّ » فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا . فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قُصيّ باللواء والسقاية والحجاب والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فآياتُ الله : محمد صلى الله عليه وسلم(٢) .

وقوله : (ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذُوا حتى أتاهم نصرنا) . هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر ، كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة ، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر فى الدنيا ، كما لهم النصر فى الآخرة ، ولهذا قال : (ولا مبدل لكلمات الله) ، أى : التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . وإنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون(٣)) ، وقال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز)(٤) .

وقوله : (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ، أى : من خبرهم كيف نُصِروا وأيّدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم إسوة وبهم قدوة .

ثم قال تعالى : (وإن كان كبر عليك إعراضهم) ، أى : إن كان شق عليك إعراضهم عنك (فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلما فى السماء) قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « النفَقَ » : السَّرَب ، فتذهب فيه (فتأتيهم بآية) أو تجعل لك سلما في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به ، فافعل(٥) .

وكذا قال قتادة ، والسدى ، وغيرهما .

وقوله : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً)(٦) ... الآية قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول (٧) .

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام : ١/٢٨٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣١٩٣ : ١١/٣٣٣ . هذا ، وقد كان المشركون ينكرون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يقوله عن ربه . وكان محمد صلى الله عليه وسلم يحزنه هذا الإنكار ، لا لأنه طعن موجه إليه بالكذب ، ولكن لأن هذا الإنكار يحول بينهم وبين الإيمان . فخاطبه ربه مسلياً ومعزياً بأن القوم لا يكذبونه ، لأنهم لا يشكون فى أنه لم يكذب ولا مرة واحدة فى حياته ، ولكن الظالمين من شأنهم جحود آيات الله وعدم الإقرار بها . وهذه قاعدة عامة فى هؤلاء المشركين ، وفى غيرهم من مشركى الأمم السالفة . وعليه فيكون فى تفسيره آيات الله بأنها محمد صلى الله عليه وسلم نظر ، والله أعلم .

(٣) الصافات ، آية : ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) المجادلة ، آية : ٢١ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٠١ : ١١/٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٦) يونس ، آية : ٩٩ .

(٧) كذا ، وقد ذكر الطبرى رواية على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى الأثر ١٣٢٠٥ /١١/٣٤٠ ، وهى : « يقول الله سبحانه : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين » .

وقوله : (إنما يستجيب الذين يسمعون) ، أى : إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، كقوله : (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين (١)) ، وقوله : (والموتى يبعثهم الله) ، يعنى بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب ، فشبههم الله بأموات الأجساد ، فقال : (والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) ، وهذا من باب التهكم بهم ، والإزراء عليهم :

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم كانوا يقولون (لولا نُزّل عليه آية من ربه) ، أى : خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ، ومما يتعنتون كما قالوا ، (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٢) . . . الآيات .

(قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أى : هو تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك ، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا ، لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السالفة ، كما قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً (٣) ، وقال تعالى : (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) .

وقوله : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) ،

قال مجاهد: أى أصناف مُصنَّفة تُعرَف بأسمائها (٥) .

وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة (٦) .

وقال السدى: (إلا أمم أمثالكم)، أى: خلق أمثالكم (٧) ؛

وقوله : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) أى : الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره ، سواء كان بريا أو بحريا ، كما قال : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) ، أى : مُفْصِح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ، وقال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) .

---

(١) سورة يس ، آية : ٧٠ .
(٢) الإسراء ، آية : ٩٠ .
(٣) الإسراء ، آية : ٥٩ .
(٤) الشعراء ، آية : ٤ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢١١ : ١١/٣٤٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢١٣ : ١١/٣٤٥ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢١٤ : ١١/٣٤٥ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبيد بن واقد القيسى أبو عباد ، حدثنى محمد بن عيسى ابن كيسان ، حدثنا محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قَلّ الجراد فى سنة من سِنِى عمر رضى الله عنه التى ولى فيها ، فسأل عنه فلم يخبر بشىء ، فاغتم لذلك : فأرسل راكبا إلى كذا ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى العراق يسأل : هل رؤى من الجراد شىء أم لا ؟ فأتاه الراكب الذى من قِبَل اليمن بقبضة جراد ، فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبر ثلاثا ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خلق الله عز وجل ألف أمة ، منها ستمائة فى البحر ، وأربعمائة فى البر : وأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد ، فاذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » .

وقوله : (ثم إلى ربهم يحشرون) ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (ثم إلى ربهم يحشرون) ، قال : حشرها الموت .

وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : موت البهائم حشرها . وكذا رواه العوفى ، عنه (١) .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد والضحاك ، مثله .

والقول الثانى : إن حشرها هو بعثها يوم القيامة كما قال تعالى : (وإذا الوحوش حشرت) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سليمان ، عن منذر الثورى ، عن أشياخ لهم ، عن أبى ذر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان ، فقال : يا أبا ذر ، هل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا . قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما (٢) » .

ورواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الأعمش ، عمن ذكره عن أبى ذر قال : « بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انتطحت عنزان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون فيم انتطحتا ؟ قالوا : لا ندرى . قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما (٣) » رواه ابن جرير ، [ثم رواه] من طريق منذر الثورى ، عن أبى ذر ، فذكره وزاد : قال أبو ذر : « ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يُقَلِّب طائر بجناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علما (٤) » .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه : حدثنى عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا : حدثنا حجاج بن نصير ، حدثنا شعبة ، عن العوام بن مراجم — من بنى قيس بن ثعلبة — عن أبى عثمان النهدى ، عن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة (٥) » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن جعفر بن برقان ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبى هريرة فى قوله : (إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) ، قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدواب

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢١٩ ، ١٣٢٢٠ : ١١/٣٤٦ .
(٢) مسند أحمد : ٥/١٦٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٢٣ : ١١/٣٤٧ ، ٣٤٨ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٢٤ : ١١/٣٤٨ .
(٥) مسند أحمد : ١/٧٢ . وينظر شرح الجماء فيما تقدم : ٢/٢٩٨ .

والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء . قال : ثم يقول : كونى ترابا . قال : فلذلك يقول الكافر : (يا ليتنى كنت ترابا [١]) .

وقد روى هذا مرفوعا فى حديث الصور .

وقوله : (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) ، أى : مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصمّ ــ وهو الذى لايسمع ــ أبكم ــ وهو الذى لايتكلم ــ وهو مع هذا فى ظلام لايبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ . كما قال تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون : صم بكم عمى فهم لايرجعون [٢]) وكما قال : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من [٣] نور) ولهذا قال تعالى : (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)، أى : هو المتصرف فى خلقه بما يشاء .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف فى خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لاشريك له ، الذى إذا سئل يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال : (قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) ، أى : أتاكم هذا أو هذا (أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) أى: لاتدعون غيره لعلمكم أنه لايقدر أحد على دفع ذلك سواه ، ولهذا قال : (إن كنتم صادقين) ، أى : فى اتخاذكم آلهة معه (بل إياه تدعون ، فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون) أى : فى وقت الضرورة لاتدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا [٤] إياه . . .) الآية

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٢٢ : ٣٤٧/١١ .

(٢) البقرة ، آية : ١٧ ، ١٨ .

(٣) النور ، آية : ٤٠ .

(٤) الإسراء ، آية : ٦٧ .

وقوله : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء) ، يعني : الفقر والضيق في العيش (والضراء) وهي الأمراض والأسقام والآلام (لعلهم يتضرعون) ، أي : يدعون الله ويتضرعون(١) إليه ويخشعون ، قال الله تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) ، أي : فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا (ولكن قست قلوبهم) أي : مارقّتْ ولا خشعت (وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ،) أي : من الشرك والمعاصي

(فلما نسوا ماذكروا به) ، أي : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم (فتحنا عليهم أبواب كل شيء)، أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل مايختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذاً بالله من مكْره ، ولهذا قال : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) ، أي : من الأموال والأولاد والأرزاق (أخذناهم بغتة) ، أي : على غفلة (فإذا هم مبلسون) ، أي : آيسون من كل خير

قال الوالبي ، عن ابن عباس المبلس : الآيس .

وقال الحسن البصري : من وَسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأى له ، ومن قَتَّر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له ، ثم قرأ : (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) ، قال الحسن : مَكَرَ بالقوم وربِّ الكعبة ، أعْطُوا حاجتهم ثم أخِذوا .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال قتادة : بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ولعيمهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لايغتر بالله إلا القوم الفاسقون

رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال مالك ، عن الزهري : (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) قال : إرخاء الدنيا وسترها

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين — يعني ابن سعد أبا الحجاج المهري — عن حرملة ابن عمران التجيبي ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة ابن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه مايحب، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)(٢)

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث حرملة وابن لَهِيعة ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر ، به

وقال(٣) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا عراك بن خالد بن يزيد ، حدثني أبي ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن الله إذا أراد بقوم [بقاء ، أو : نماء — رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد الله بقوم] اقتطاعا فتح لهم— أو : فتح عليهم — باب خيانة »

(١) في هذا التضرع لله دون غيره ، دليل على أن ألوهيته مركوزة في الفطر ، مكنونة في الطبائع ، حتى لقد قيل : إنه مامن ملحد يتشكك في الله إلا ويكشف عن الحاده عندما يقترب من الموت وتنزل به سكراته، ويحس بضعفه أمام قوة الله القاهرة ، هنالك يخلص له سبحانه الدعاء بقلبه أو بلسانه ، وان كان ذلك لا يجديه نفعا ، فقد جاء الأجل وانقطع الأمل .

(٢) مسند أحمد : ٤/١٤٥ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٢٤٠ ، ١٣٢٤١ : ١١/٣٦١ ، ٣٦٢ .

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون) ، كما قال : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المكذبين المعاندين : (أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) أي : سلبكم إياها كما أعطاكموها : فإنه (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار [(١)]) . . . الآية

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بها النفع الشرعى ، ولهذا قال : (وختم على قلوبكم) ، كما قال : (أمّن يملك السمع والأبصار [(٢)]) وقال : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه [(٣)])

وقوله : (من إله غير الله يأتيكم به) ، أي : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ لايقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال : (انظر كيف نصرف الآيات) ، أي : نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لاإله إلا الله، وأن مايعبدون من دونه باطل وضلال (ثم هم يصدفون) ، أي : ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق ، ويصدّون الناس عن اتباعه .

قال العوفى ، عن ابن عباس (يصدفون) يعدلون [(٤)]

وقال مجاهد ، وقتادة : يعرضون [(٥)]

وقال السدى : يصدون [(٦)]

وقوله : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) ، أي : وأنتم لاتشعرون به حتى بغتكم وفجأكم (أو جهرة)، أي : ظاهراً عيانا (هل يهلك إلا القوم الظالمون)، أي : إنما : كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لاشريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [(٧)] الآية .

---

(١) سورة الملك ، آية : ٢٣ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٣١ .

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٢٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٤٦ : ١١/٣٦٧ .

(٥) تفسير الطبرى ، الآثار ١٣٢٤٤ ، ١٣٢٤٥ ، ١٣٢٤٧ : ١١/٣٦٧ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٤٨ : ١١/٣٦٨ .

(٧) وهذا دليل على أن الظلم – وهو تجاوز الحد فى المعصية – هو السبب فى ما ينزل بالأمم من النقم ، وما يهبط بساحاتها من النكبات ، وأنت إذا استعرضت آيات القرآن بدا لك هذا الرأى واضحاً لا يحتاج إلى دليل . ونذكر لك على سبيل المثال قوله تعالى : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين) (الأنبياء : ١١/١٤) ، فانظر كيف كان الظلم هو علة هذا الدمار ، وكيف تكرر هذا السبب فى هذه الآية مرتين ليفهم ويتذكر ؟ .

وقوله : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين)، أى : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات . ولهذا قال : (فمن آمن وأصلح) ، أى : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم (فلا خوف عليهم)، أى : بالنسبة إلى ما يستقبلونه (ولا هم يحزنون) أى : بالنسبة إلى مافاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه .

ثم قال : (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) ، أى : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعاته ، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل : لا أقول لكم : عندى خزائن الله) ، أى : لست أملكها ولا أتصرف فيها ، (ولا أعلم الغيب) ، أى : ولا أقول : إنى أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله،عز وجل ، لا أطلعُ منه إلا على ما أطلعنى عليه ، (ولا أقول لكم : إنى ملك) ، أى : ولا أدعى أنى ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يُوحَى إلىَّ من الله عز وجل ، شرفنى بذلك، وأنعم علىّ به . ولهذا قال : (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) ، أى : لست أخرج عنه قيدَ شبر ولا أدنى منه (١) .

(قل : هل يستوى الأعمى والبصير) ، أى : هل يستوى من اتبع الحق وهُدِىَ إليه، ومن ضل عنه ولم ينقد له ؟ (أفلا تتفكرون) ، وهذه كقوله تعالى : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب (٢)) .

وقوله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع) ، أى : وأنذر بهذا القرآن يا محمد (الذين هم من خشية ربهم مشفقون)(٣) والذين (يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (٤)) .

---

(١) جرد الله نبيه فى هذه الآية من كل ما يحيط به أدعياء الكذب أنفسهم من الصفات التى تخرجهم عن دائرة الإنسان ، من القدرة على التصرف فى ملكوت السموات والأرض ، ومعرفة الغيب ، والارتفاع إلى مصاف الملائكة . وذكر سبحانه أن نبيه ليس إلا بشراً مقيدا باتباع ما يوحى إليه . وهذه المنزلة التى بوأها الله نبيه دليل قائم على صدق رسالته ، وأنه لا يعتمد فى نشر تعاليمه على غير الإقناع العقلى الذى لايمت بسبب إلى الادعاءات الخارجة عن حدود المنطق والواقع .

(٢) الرعد ، آية : ١٩ .

(٣) المؤمنون ، آية : ٥٧

(٤) الرعد ، آية : ٢١ .

(الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) ، أى: يوم القيامة (ليس لهم) ، أى: يومئذ (من دونه ولى ولاشفيع) ، أى : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراداه بهم، (لعلهم يتقون) ، أى : أنذر هذا اليوم الذى لاحاكم فيه إلا الله عز وجل (لعلهم يتقون) ، فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه .

وقوله : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) ، أى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، كما قال : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) (١) .

وقوله : (يدعون ربهم) ، أى : يعبدونه ويسألونه (بالغداة والعشى) ، قال سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : المراد بذلك الصلوات المكتوبات .

وهذا كقوله : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم (٢)) ، أى : أتقبل منكم .

وقوله : (يريدون وجهه) ، أى : يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم ، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات .

وقوله : (ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) كما قال نوح عليه السلام فى [جواب] الذين قالوا : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) : (وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون) (٣) ، أى : إنما حسابهم على الله ، عز وجل ، وليس علىّ من حسابهم من شىء ، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء .

وقوله : (فتطردهم فتكون من الظالمين) ، أى : إن فعلت هذا والحالة هذه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسباط ــ هو ابن محمد ــ حدثنا أشعث ، عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده : خباب، وصهيب ، وبلال ، وعمار . فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) إلى قوله : (أليس الله بأعلم بالشاكرين) (٤) .

رواه ابن جرير ، من طريق أشعث ، عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده : صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ ونحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم [عنك] ، فلعلك إن طردتهم

(١) الكهف ، آية : ٢٨ .
(٢) غافر : آية : ٦٠ .
(٣) الشعراء : آية : ١١٣ .
(٤) مسند أحمد : ٤٢٠/١ ، وفيه : « إلى قوله : (والله أعلم بالظالمين) وهو خطأ .

أن تتبعك . فنزلت هذه الآية : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) — (و كذلك فتنا بعضهم ببعض) ... إلى آخر الآية (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى ، بن (٢) سعيد القطان ، حدثنا عمرو بن محمد العنقزى ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى ، عن أبي سعيد الأزدى — وكان قارىء الأزد — عن أبي الكنود ، عن خباب فى قول الله عز وجل : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) ، قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا فى ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم ، فأتوه فخلوا به ، وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت . قال : نعم . قالوا : فاكتب [لنا] عليك كتابا . قال : فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب ، ونحن قعود فى ناحية ، فنزل جبريل فقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) ...الآية ، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ، ثم دعانا فأتيناه .

ورواه ابن جرير ، من حديث أسباط ، به (٣) .

وهذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية ، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر .

وقال سفيان الثورى عن المقدام بن شُرَيح ، عن أبيه قال : قال سعد : نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم ابن مسعود ، قال : كنا نسبق إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وندنو منه ونسمع منه ، فقالت قريش : يدنى هؤلاء دوننا . فنزلت : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) (٤) .

رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سفيان ، وقال : على شرط الشيخين (٥) . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من طريق المقدام بن شريح ، به .

وقوله : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) ، أى : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض (ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالبَ من اتبعه فى أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قومُ نوح لنوح : (وما نراك اتبعك إلا الذين

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٥٥ — ١٣٢٥٧ : ٣٧٤/١١ ، ٣٧٥ .

(٢) فى المخطوطة : « حدثنا أبو سعيد بن يحيى ، حدثنا سعيد القطان » وهو خطأ سارت عليه الطبعات . والصواب ما أثبتناه . وأبو سعيد بن يحيى هو : أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان . روى عن جده يحيى بن سعيد ، وعن عمرو المنقرى . ينظر الجرح لابن أبي حاتم : ٧٤/١/١ ، ٢٦٢/١/٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٥٨ : ٣٧٦/١١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٦٣ : ٣٧٨/١١ .

(٥) المستدرك ، كتاب معرفة الصحابة : ٣١٩/٣ .

هم أراذلنا بادى الرأى)[١] ... الآية ، وكما قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان حين سأله المسائل ، فقال له : فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال : هم أتباع الرسل[٢] .

والغرض أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أى ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير ــ لو كان ما صاروا إليه خيرا ــ ويدعنا كما قالوا : (لو كان خيرا ما سبقونا إليه)[٣] . وكما قال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)[٤] .

قال الله تعالى فى جواب ذلك : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا)[٥] : وقال فى جوابهم حين قالوا : (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ، أى : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ، كما قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)[٦] . وفى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[٧] » .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم : حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن عكرمة فى قوله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) ... الآية ، قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدى ، والحارث بن نوفل ، وقَرَظَة بن [عبد] عمرو بن نوفل ، فى أشراف [من] بنى عبد مناف من أهل الكفر ، إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا[٨] ، كان أعظم فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، وتصديقنا له . قال : فأتى أبو طالب النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو فعلتَ ذلك ، حتى تنظر ما الذى يريدون ، وإلى ما يصيرون من قولهم ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) ... إلى قوله : (أليس الله بأعلم بالشاكرين) . قال : وكانوا بلالا ، وعمار بن ياسر ، وسالما مولى أبى حذيفة ، وصبيحا مولى أسيد

---

(١) سورة هود ، آية : ٢٧ .

(٢) وإنما كان ضعفاء الناس هم الذين يسارعون إلى إجابة الرسل ، لأنهم هم الذين يحسون بالغبن ، ويعانون فى المجتمع وطأة الأقوياء وظلم ذوى المزايا من الكبراء والأغنياء ولأن رسالة الرسل تستهدف فيما تستهدف إقرار العدل ، ورفع قبضة الظلم ، ونشر أضواء الحرية والمساواة . وأنت إذا راجعت الآيات التى تناولت هذه القضية رأيت هذا المعنى واضحاً لايحتاج إلى برهان .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ١١ .

(٤) سورة مريم ، آية : ٧٣ .

(٥) سورة مريم ، آية : ٧٤ .

(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٦٩ .

(٧) مسند أحمد عن أبى هريرة : ٢٨٥/٢ ، ٥٣٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله : ١١/٨ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب القناعة ، الحديث ٤١٤٣ : ١٣٨٨/٢ . وفى كل أولئك : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ... » .

(٨) العسفاء : جمع عسيف ، وهو العبد ، والأجير .

ـ ومن الحلفاء ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القارى ، وواقد بن عبد الله الحنظلى ، وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ، ومرثد بن أبى مرثد ـ وأبو مرثد من غَنِىّ حليف حمزة بن عبد المطلب ـ وأشباههم من الحلفاء ، ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء: (وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) ... الآية . فلما نزلت ، أقبل عمر رضى الله عنه فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل: (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا (١)) ... الآية .

وقوله : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم) ، أى : فأكرمهم بردّ السلام عليهم ، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم . ولهذا قال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ، أى : أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلا منه وإحسانا وامتنانا .

(أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة) ، قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل .

وقال معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة فى قوله : (من عمل منكم سوءاً بجهالة) ، قال : الدنيا كلها جهالة . رواه ابن أبى حاتم .

(ثم تاب من بعده وأصلح) ، أى : رجع عما كان عليه من المعاصى ،وأقلع وعزم على أن لا يعود،وأصلح العمل فى المستقبل (فأنه غفور رحيم) .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى (٢) » .

أخرجاه فى الصحيحين (٣) . وهكذا رواه الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة (٤) . ورواه موسى بن عقبة عن الأعرج ، عن أبى هريرة . وكذا رواه الليث وغيره ، عن محمد بن عجلان، عن أبيه ، عن أبى هريرة (٥) ، عن النبى بذلك .

وقد روى ابن مَرْدُويه ، من طريق الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتابا من تحت العرش : إن رحمتى سبقت غضبى ، وأنا أرحم الراحمين . فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا ، مكتوب بين أعينهم . عُتَقَاء الله » .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٢٦٤ : ١١/ ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٢) مسند أحمد من حديث طويل : ٢/ ٣١٣ . وفى المخطوطة : «لما قضى الله على الخلق كتب كتاباً ... » . والمثبت عن المسند وقد رواه الإمام أحمد من غير وجه عن أبى هريرة . ينظر : ٢/ ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦ .

(٣) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) : ٤/ ١٢٩ . وفيه : « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ... » ، وكتاب التوحيد ، باب ما يذكر فى الذات والنعوت : ٨/ ١٤٧ وفيه : « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » . وينظر أيضاً فى كتاب التوحيد : ٨/ ١٥٣ ، ١٦٥ ، ١٩٦ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه : ٨/ ٩٥ ، ٩٦ . وفيه : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه ... » .

(٤) رواية الأعمش فى المسند : ٢/ ٣٩٧ .

(٥) رواية محمد بن عجلان فى المسند : ٢/ ٤٣٣ .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن عاصم بن سليمان ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان في قوله : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ، قال : إنا نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السموات والأرض ، وخلق مائة رحمة ـ أو : جعل مائة رحمة ـ قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة ، قال: فيها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون ، وبها تَحِنّ الناقة ، وبها تَثُجّ(١) البقرة ، وبها تثغو الشاة ، وبها تَتَتَابَعُ الطير ، وبها تَتَتَابَعُ الحيتان في البحر . فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع .

وقد روى هذا مرفوعا من وجه آخر(٢) . وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله : (ورحمتي وسعت كل شيء (٣)) .

ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضا قولهُ صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » ، ثم قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم(٤) » ، وقد رواه الإمام أحمد ، من طريق كميل بن زياد ، عن أبي هريرة (٥) .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝

يقول تعالى : وكما بيَّنّا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ، (كذلك نفصل الآيات) ، أي : التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها (ولتستبين سبيل المجرمين) أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل وقرئ (وليستبين سبيل المجرمين) ، أي : وليستبين (٦) يا محمد ـ أو يا مخاطب ـ سبيل المجرمين .

---

(١) في مخطوطة الأزهر : « تبخ » والمثبت من مخطوطة دار الكتب «١» تفسير .

(٢) أخرج مسلم نحوه عن الحكم بن موسى بإسناده إلى أبي عثمان النهدي ، عن سلمان مرفوعاً . ينظر كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه : ٨/٩٦ . كما أخرج نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً في نفس الباب . وكذلك أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً . ينظر المسند : ٢/٤٣٤ وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، الحديث ٤٢٩٣ : ٢/١٤٣٥ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٦ .

(٤) مسند أحمد : ٣/٢٦٠ ، ٢٦١ . وقد اختصر ابن كثير متن الحديث . وقد أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله : ١٤٠/٨٠ . ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك دخل الجنة وحرم على النار : ١/٤٣ ، ٤٤ .

(٥) مسند أحمد : ٢ / ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ .

(٦) كذا مخطوطة الأزهر (وليستبين) بالياء . وهي قراءة الأخوين وأبي بكر . ينظر البحر المحيط لأبي حيان : ٤/١٤١ .

وقوله (١) : (قل : إنى على بينة من ربى) ، أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلى (وكذبتم به) ، أى : بالحق الذى جاءنى من الله (ما عندى ما تستعجلون به) ، أى : من العذاب ، (إن الحكم إلا لله) ، أى : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجّل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شا أنظركم وأجلكم ؛ لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة ، ولهذا قال (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) ، أى : وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده ؛

وقوله : (قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقُضِى الأمر بينى وبينكم) ، أى : لو كان مرجع ما تستعجلون به إلىّ ، لأوقعت بكم [ما تستحقونه] من ذلك (والله أعلم بالظالمين) ؛

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت فى الصحيحين من طريق ابن وهب ، عن يونس ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسى على ابن عبد (٢) يا ليل ابن عبد كُلاَل ،فلم يجبنى إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى (٣) ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب(٤) فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى ، [فنظرت](٥) فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فنادانى ملك الجبال وسلّم على ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربك إليك ، لتأمرنى بأمرك ، فما شئت (٦)؟ إن شئت أطبقت(٧) عليهم الأخشبين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله ، لا يشرك به شيئاً (٨) » .

وهذا لفظ مسلم .

---

(١) لم يعرض الإمام ابن كثير تفسير الآية ٥٦ من هذه السورة ، وهى قوله تعالى : (قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل : لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) .

وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير عندها ١١/ ٣٩٦ ، ٣٩٧ : « يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل ، يامحمد ، لهؤلاء المشركين بربهم من قومك ، العادلين به الأوثان والأنداد ، الذين يدعونك إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الأوثان : إن الله نهانى أن أعبد الذين تدعون من دونه ، فلن أتبعكم على ما تدعوننى إليه من ذلك ، ولا أوافقكم عليه ، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه . وإن فعلت ذلك ، فقد تركت محجة الحق ، وسكت على غير الهدى ، فصرت ضالا مثلكم على غير استقامة » .

(٢) ابن عبد ياليل كان من أكابر ثقيف ، واسمه كنانة .

(٣) أى : على الجهة المواجهة لى .

(٤) قرن الثعالب : ميقات أهل نجد ، ويقال له : قرن المنازل أيضاً . وبينه وبين مكة يوم وليلة .

(٥) عن صحيح مسلم .

(٦) أى : فما شئت فأمرنى به .

(٧) لفظ مسلم : « إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » وعلى هذا فجواب الشرط مقدر ، أى : فعلت ذلك .

(٨) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين : ٥/ ١٨١ . والبخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ماتقدم من ذنبه : ٤/ ١٣٩ ، ١٤٠ .

فقد عرّض عليه عذابهم واستئصالهم ، فاستأنى(١) بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا ــ فما الجمع بين هذا ، وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين) ؟

فالجواب ــ والله أعلم ــ أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ــ وهما جبلا مكة [اللذان] يكتنفانها جنوبا وشمالا ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم .

وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) ، قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم ابن سعد ، عن ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمها (٢) إلا الله ، (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) (٣) .

وفى حديث عمر : أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له : « خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة) ... الآية .

وقوله : (ويعلم ما فى البر والبحر) ، أى : يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات برّيها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شئ ، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وما أحسن ما قال الصرْصرى :

فلاَ يَخْفَى عليه الذرّ إمّا *** تَرَاءى للنواظر أو تَوَارَى

وقوله : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) ، أى : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، كما قال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن سعيد بن مسروق ، عن حسان النمرى ، عن ابن عباس فى قوله : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) ، قال : ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وملك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها(٤) .

وقوله : (ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

قال محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن النضر ، عن أبيه ، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن مالوا أنهم ظهروا ــ يعنى لكم ــ لم تروا معهم نورا ، على كل زاوية من زوايا [الأرض] خاتم من خواتيم الله ، عز وجل ، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله ، عز وجل ، إليه فى كل يوم ملكا من عنده : أن احتفظ بما عندك .

---

(١) يقال : استأنى به ، أى : انتظر به ، ولم يعجله .

(٢) لفظ البخارى : « مفاتح الغيب خمس : إن الله عنده ... » .

(٣) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٧١/٦ .

(٤) الدر المنثور للسيوطى : ١٥/٣ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهرى ، حدثنا مالك بن سعير ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث قال : ما فى الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها ملك موكل يأتى الله بعلمها : رطوبتها إذا رطبت ، ويبسها إذا يبست .

وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحسانى (١) ، عن مالك بن سعير ، به .

ثم قال ابن أبي حاتم : ذُكر عن أبي حذيفة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن قيس ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خلق الله النون ، — وهى الدواة — وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضى ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) إلى آخر الآية .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل ، وهذا هو التوفى الأصغر ، كما قال تعالى : (إذا قال الله : يا عيسى ؛ إنى متوفيك ورافعك إلى (٢)) ، وقال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)(٣) ، فذكر فى هذه الآية الوفاتين : الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى ، فقال : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ، أى : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار . وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه فى ليلهم ونهارهم ، فى حال سكونهم وفى حال حركتهم ، كما قال : (سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) ، وكما قال تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) ، أى : فى الليل (ولتبتغوا من فضله)(٤) ، أى : فى النهار ، كما قال : (وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً (٥) . ولهذا قال تعالى ها هنا : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ، أى : ما كسبتم بالنهار (ثم يبعثكم فيه) ، أى : فى النهار . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى (٦) .

---

(١) فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٠٨/١١/٤٠٤ : « زياد بن يحيى الحسانى » ويقول المحقق : « جاء فى المخطوطة وتفسير ابن كثير : « زياد بن عبد الله الحسانى أبو الخطاب » وهو خطأ لا شك فيه ، فإن الذى يروى عن « مالك بن سعير » هو « زياد ابن يحيى الحسانى أبو الخطاب » فضلا من أنه ليس فى الرواة من يسمى : « زياد بن عبد الله الحسانى أبو الخطاب » .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥٥ .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٤٢ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٧٣ .

(٥) سورة النبأ ، آية : ١٠ ، ١١ .

(٦) تفسير الطبرى ، الآثار ١٣٣١٥ — ١٣٣١٨ : ٤٠٧/١١ ، ٤٠٨ .

وقال ابن جُرَيج ، عن عبد الله بن كثير : أى فى المنام[١] .

والأول أظهر . وقد روى ابن مَرْدُويه بسنده ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ، ويُرَدّ إليه فإن أذن الله فى قبض روحه قبضه ، وإلا رد إليه[٢] » ، فذلك قوله : (وهو الذى يتوفاكم بالليل) .

وقوله : (ليقضى أجلٌ مسمى) ، يعنى به أجل كلّ واحد من الناس ، (ثم إليه مرجعكم) ، أى : يوم القيامة ، (ثم ينبئكم) ، أى : فيخبركم (بما كنتم تعملون) ، أى : ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقوله : (وهو القاهر فوق عباده) ، أى : هو الذى قهر كلّ شئ ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كلّ شئ .

(ويرسل عليكم حفظة) ، أى : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كما قال : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)[٣] . وحفظة يحفظون عمله ويُحْصُونه ، كما قال : (وإن عليكم لحافظين)[٤] . . . الآية ، وقال : (عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[٥] .

وقوله : (حتى إذا جاء أحدكم الموت) ، أى : احتُضِر وحان أجلُه (توفته رسلنا) ، أى : ملائكة موكلون بذلك .

قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة ، يخرجون الروح من الجسد ، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم . وسيأتى عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت[٦]) الأحاديث المتعلقة بذلك ، الشاهدة لهذا المروى عن ابن عباس وغيره بالصحة .

وقوله : (وهم لا يفرطون) ، أى : فى حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل ، إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار ففى سجين ، عياذا بالله من ذلك .

وقوله : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) قال ابن جرير : (ثم ردوا) يعنى الملائكة (إلى الله مولاهم الحق)[٧] .

ونذكر ها هنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن محمد ابن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة[٨] كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة ، وأبْشِرى بروح وريحان ، وربّ غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣١٩ : ٤٠٨/١١ .

(٢) لفظ الحديث كما فى الدر المنثور ١٥/٣ : « مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ، فإن أذن الله فى قبض روحه قبضه ، وإلا رد إليـــه ... » .

(٣) سورة الرعد ، آية : ١١ .

(٤) سورة الانفطار ، آية : ١٠ .

(٥) سورة ق ، آية : ١٧ ، ١٨ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٢٧ .

(٧) لفظ ابن جرير ٤١٣/١١ : « ثم ردت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى الله سيدهم الحق » .

(٨) فى مخطوطة الأزهر : « أخرجى أيتها النفس المطمئنة » والمثبت عن مسند الإمام أحمد .

فيستفتح (١) لها ، فيقال : [من هذا ؟ فيقال] : فلان : فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان . ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة وابشرى بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول (٢) .

هذا حديث غريب .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (ثم ردوا إلى الله) ، يعنى : الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال : (قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)(٣) وقال : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) إلى قوله : (ولا يظلم ربك أحداً (٤)) . ولهذا قال : (مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) .

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده فى إنجائه المضطرين منهم (من ظلمات البر والبحر) ، أى : الحائرين الواقعين فى المهامه البرية، وفى اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كما قال : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه(٥)) . . الآية . وقال تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين(٦)) . . . الآية وقال تعالى : (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله؟ عما يشركون(٧)) .

(١) فى مخطوطة الأزهر : « فيستفتح فيفتح لها » والمثبت عن مسند أحمد .
(٢) مسند أحمد : ٣٦٤/٢ ، ٣٦٥ .
(٣) سورة الواقعة ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .
(٦) سورة يونس ، آية : ٢٢ .
(٧) سورة النمل ، آية : ٦٣ .

وقال فى هذه الآية الكريمة : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية) ، أى : جهرا وسرا (لئن أنجيتنا (١) من هذه) ، أى : من هذه الضائقة (لنكونن من الشاكرين) ، أى : بعدها . قال الله : (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم) ، أى : بعد ذلك (تشركون) ، أى : تَدْعُونَ معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى .

وقوله : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) ، لما قال : (ثم أنتم تشركون) عَقّبه بقوله : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) ، أى : بعد إنجائه إياكم ، كما قال فى سورة سبحان : (ربكم الذى يُزْجِى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (٢) .

قال ابن أبى حاتم : ذُكِرَ عن مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هارون الأعور ، عن جعفر بن سليمان ، عن الحسن فى قوله : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو تحت من أرجلكم) ، قال : هذه للمشركين .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم .

ونذكر هنا الأحاديث الواردة فى ذلك والآثار ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، وبه الثقة .

قال البخارى رحمه الله فى قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) : يَلْبِسَكم : يَخْلِطكم ، من الالتباس ، يَلْبِسوا : يَخْلِطُوا . شِيَعا : فرقا .

حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عَمْرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بوجهك . (أو من تحت أرجلكم) ، قال : أعوذ بوجهك . (أو يَلْبِسكم شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون ــ أو قال : هذا أيسر » (٣) .

وهكذا رواه أيضا فى « كتاب التوحيد (٤) » عن قتيبة ، عن حماد ، به .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ١٥٠/٤ : « وقرأ الكوفيون (لئن أنجانا) على الغائب ، وأماله الأخوان ، وقرأ باقى السبعة على الخطاب » .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات : ٦٦ ـ ٦٩ .

(٣) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٧١/٦ . ورواه البخارى أيضاً فى كتاب الاعتصام ، باب قول الله تعالى : أو يلبسكم شيعاً : ١٢٥/٩ عن على بن عبد الله ، عن سفيان ، عن عمرو ، عن جابر ، به نحوه .

(٤) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : كل شىء هالك إلا وجهه : ١٤٨/٩ .

ورواه النسائي في « التفسير » ، عن قتيبة ، ومحمد بن النضر بن مساور ، ويحيى بن حبيب بن عربي أربعتهم (١) ، عن حماد بن زيد ، به .

وقد رواه الحميدي في مسنده ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، سمع جابرا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، به .

ورواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي يعلى الموصلي ، عن أبي خيثمة ، عن سفيان بن عيينة ، به .

ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع ، وسفيان بن وكيع كلهم ، عن سفيان ابن عيينة به (٢) .

ورواه أبو بكر بن مَرْدُويه ، من حديث آدم بن أبي إياس ، ويحيى بن عبد الحميد ، وعاصم بن علي ، عن سفيان ابن عيينة ، به .

ورواه سعيد بن منصور ، عن حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، كلاهما عن عمرو بن دينار ، به .

طريق آخرى ، قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا مقدام بن داود ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا ابن لهيعة ، عن خالد بن يزيد ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما نزلت : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بالله من ذلك . [أو من تحت أرجلكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من ذلك] (أو يلبسكم شيعا) قال : هذا أيسر . ولو استعاذه لأعاذه » .

ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة :

أحدها : قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا أبو بكر - هو ابن أبي مريم - عن راشد - هو ابن سعد المُقْرَئيّ - عن سعد بن أبي وقاص قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فقال : « أما [إنها] كائنة ، ولم يأت تأويلها (٣) بعد » .

وأخرجه الترمذي ، عن الحسن بن عرفة ، عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، به . ثم قال : هذا حديث غريب (٤) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى - هو ابن عبيد - حدثنا عثمان بن حكيم ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى

---

(١) كذا قال : أربعتهم . وهم ثلاثة . ولم يطبع كتاب التفسير فيما طبع من سنن النسائي .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٣٦٥ ، ١٣٣٦٦ : ٤٢٢/١١ ، ٤٢٣ .
(٣) مسند أحمد : ١٧٠/١ ، ١٧١ .
(٤) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنعام : ٤٣٩/٨ .

ركعتين ، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلا . قال : سألت ربي ثلاثا : « سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة(١) فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها(٢) » .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه في « كتاب الفتن » عن أبي بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن عبد الله بن نُمَيْر [كلاهما عن عبد الله بن نمير] ــ وعن محمد بن يحيى بن أبي عُمَر ، عن مروان بن معاوية ، كلاهما عن عثمان بن حكيم ، به (٣)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن بن مهدي ، عن مالك ، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر ابن عتيك ، [عن جابر بن عتيك] أنه قال : جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية ــ [قرية] من قرى الأنصار ــ فقال لي : هل تدري أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجدكم هذا ؟ فقلت : نعم . فأشرت إلى ناحية منه ، فقال : هل تدري ماالثلاث التي دعا بِهِنّ فيه ؟ فقلت : نعم . فقال : وأخبرني بهنّ فقلت : دعا أن لايُظْهِر عليهم عدواً من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين فأعطيها ، ودعا بأن لايجعل بأسهم بينهم فَمُنِعَهَا . قال : صدقت ، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة » .(٤)

ليس هو في شيء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوي ، ولله الحمد والمنة .

حديث آخر ، قال محمد بن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنَيف ، عن علي بن عبد الرحمن ، أخبرني حذيفة بن اليمان قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حرة بني معاوية ، قال : فصلى ثماني ركعات ، فأطال فيهن ، ثم التفت إليّ فقال : حبستك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إني سألت الله ثلاثا ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لايسلط على أمتي عدوا من غيرهم ، فأعطاني . وسألته أن لايهلكهم بغرق ، فأعطاني . وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم ، فمنعني »

رواه ابن مردويه من حديث ابن إسحاق .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد: حدثنا عبيدة بن حميد ، حدثني سليمان الأعمش ، عن رجاء الأنصاري، عن عبد الله ابن شداد ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم [أطلبُه] فقيل لي : خرج قبلُ . قال : فجعلت لاأمر بأحد إلا قال : مرّ قبلُ . حتى مررت فوجدته قائما يصلي ، قال : فجئت حتى قمت خلفه ، قال : فأطال الصلاة ، [فلما قضى] صلاته قلت : يارسول الله ، لقد صليت صلاة طويلة ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله عز وجل ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لايهلك أمتي غرقا فأعطاني ، وسألته أن لايُظْهِر عليهم عدوا ليس منهم فأعطانيها ، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فردها علي(٥) »

ورواه ابن ماجه في « الفتن » عن محمد بن عبد الله بن نمير وعلي بن محمد كلاهما، عن أبي معاوية ، عن الأعمش، به(٦)

---

(١) السنة : الجدب والقحط .
(٢) مسند أحمد : ١/١٧٥ .
(٣) مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض : ٨/١٧١ ، ١٧٢ .
(٤) مسند أحمد : ٥/٤٤٥ .
(٥) مسند أحمد : ٥/٢٤٠ .
(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن ، الحديث ٣٩٥١ : ٢/١٣٠٣ .

ورواه ابن مَرْدُويه من حديث أبي عوانة ، عن عبد الله بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بمثله أو نحوه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن بكير بن الأشج ، أن الضحاك بن عبد الله القرشي حدثه ، عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر صلى سُبْحَةَ(١) الضحى ثماني ركعات ، فلما انصرف قال : إني صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألته أن لايبتلي أمتي بالسنين ففعل ، وسألته أن لايظهر عليهم عدوهم ففعل ، وسألته أن لا يَلْبِسَهَم شيعاً فأبى عليّ » (٢)

رواه النسائي في الصلاة ، عن محمد بن سلمة ، عن ابن وهب ، به .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة قال : قال الزهري : حدثني عبد الله ابن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن خباب ، عن أبيه خباب بن الأرت — مولى بني زهرة ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال : راقبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة صلاها (٣) كلها ، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته . قلت(٤) : يارسول الله ، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها (٥) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، إنها صلاة رَغَب ورَهَب . سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألت ربي عز وجل أن لايهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا ، فأعطانيها ، وسألت ربي عز وجل أن لايظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها . وسألت ربي عز وجل أن لايَلْبِسنا شيعاً ، فمنعنيها (٦) »

ورواه النسائي من حديث شعيب بن أبي حمزة ، (٧) به . ومن وجه آخر وابن حبان في صحيحه ، بإسناديهما عن صالح ابن كيسان — والترمذي في « الفتن » من حديث النعمان بن راشد — كلاهما عن الزهري ، به . وقال : حسن صحيح (٨)

حديث آخر ، قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : حدثني زياد بن عبيد الله المزني ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، حدثنا أبو مالك ، حدثني نافع بن خالد الخزاعي ، عن أبيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود ، فقال : قد كانت صلاة رَغْبَة ورَهْبة ، سألت الله عز وجل فيها ثلاثا ، أعطاني اثنتين ومنعني (٩) واحدة .

---

(١) السبحة : صلاة النفل .

(٢) مسند أحمد : ١٤٦/٢ ، ورواه الإمام أحمد أيضاً عن حسين بن غيلان ، عن رشدين ، عن عمرو بن الحارث ، به نحوه . المسند : ١٥٦/٣ .

(٣) في مسند الإمام أحمد : « .. في ليلة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٤) في المسند : « ... من صلاته ، جاء خباب فقال : يارسول الله ، بأبي أنت وأمي . لقد صليت ... » .

(٥) في المسند : « ما رأيتك صليت نحوها » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٠٨/٥ ، ١٠٩ .

(٧) النسائي ، كتاب قيام الليل ، باب إحياء الليل : ٢١٦/٣ ، ٢١٧ .

(٨) تحفه الأحوذي ، أبواب الفتن ، باب سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا من أمته : ٣٩٧/٦ ، ٣٩٨ .

(٩) في تفسير الطبري : « وبقي واحدة » .

سألت الله أن لايصيبكم بعذاب أصاب به من قبلكم ، فأعطانيها : وسألت الله أن لايسلط عليكم عدوا يستبيح بيضتكم ، فأعطانيها : وسألته أن لايلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها ـ قال أبو مالك : فقلت له : أبوك سمع هذا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال ، قال معمر ، أخبرنى أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أبى الأشعث الصنعانى ، عن أبى أسماء الرحبى ، عن شدّاد بن أوس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله زَوَى (٢) لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلْكَ أمتى سيبلغ مازُوِى لى منها ، وإنى أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر ، وإنى سألت ربى عز وجل أن لا يهلك أمتى بِسَنَة بعامة (٣) وأن لا يسلط عليهم عدوا فيهلكهم بعامة ، و [أن] لا يَلْبِسَهُمْ شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض . فقال : يامحمد ، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لايُرَدّ ، وإنى قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكتهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبى بعضاً . قال : وقال النبى صلى الله عليه وسلم : [و] إنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف فى أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة (٤) » .

ليس فى شىء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوى . وقد رواه ابن مَرْدُويه من حديث حماد بن زيد وعباد بن منصور ، وقتادة ، ثلاثتهم عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أبى أسماء ، عن ثوبان ، (٥) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه ، فالله أعلم .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه : حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمى وميمون بن إسحاق ابن الحسن الحنفى قالا : حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن أبى مالك الأشجعى ، عن نافع بن خالد الخزاعى ، عن أبيه قال ـ وكان أبوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أصحاب الشجرة ـ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى والناس حوله ، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود ـ قال : فجلس يوما فأطال الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض : أن اسكتوا ، إنه ينزل عليه . فلما فرغ قال له بعض القوم : يا رسول الله ، لقد أطلت الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليك . قال : لا ، ولكنها كانت صلاة رَغْبة ورهبة ، سألت الله فيها ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألت الله أن لا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم ، فأعطانيها . وأن لا يسلط

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٦٧ : ٤٣٣/١١ .

(٢) زوى : ضم وجمع .

(٣) السنة : الجدب والقحط . وبعامة : أى بقحط عام يعم جميعهم ، والباء فى « بعامة » زائدة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٢٣/٤ .

(٥) رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى الربيع العتكى وقتيبة بن سعيد كلاهما عن حماد بن زيد بإسناده إلى ثوبان مثله . مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض : ١٧١/٨ . والترمذى فى كتاب الفتن ، باب سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثاً فى أمته وتحفة الأحوذى ، ٣٩٧/٦ ، ٣٩٨ . ورواه ابن ماجه فى كتاب الفتن أيضاً ، باب ما يكون من الفتن « الحديث ٣٩٥٢ » ١٣٠٤/٢ من هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن شابور ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن أبى قلابة .

على أمتى عدوا يستبيحها ، فأعطانيها : وسألته أن لا يَلْبِسكم شِيَعاً وأن لا يذيق بعضكم بأس بعض ، فمنعنيها.قال ، قلت له : أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : إنه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد أصابعى ، هذه عشر أصابع .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يونس — هو ابن محمد المؤدب — حدثنا ليث — هو ابن سعد — عن أبى وهب الخولانى ، عن رجل قد سماه ، عن أبى بصرة الغفارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : « سألت ربى عز وجل أربعاً فأعطانى ثلاثا ، ومنعنى واحدة : سألت الله أن لا يجمع أمتى على ضلالة ، فأعطانيها . وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم ، فأعطانيها (١) : وسألت الله أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم ، فأعطانيها . وسألت الله عز وجل أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعنيها (٢) » .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

حديث آخر ، قال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا أبو حذيفة الثعلبى ، عن زياد بن علاقة ، عن جابر بن سمرة السوَائى ، عن على : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سألت ربى ثلاث خصال ، فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، فقلت : يارب ، لا تهلك أمتى جوعا : فقال : هذه لك : قلت : يارب ، لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم — يعنى أهل الشرك — فيجتاحهم . قال : ذلك لك . قلت : يارب ، لا تجعل بأسهم بينهم . قال : فمنعنى هذه » .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، عن أحمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا أبو الدرداء المروزى ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان ، حدثنى أبى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت ربى عز وجل أن يرفع عن أمتى أربعاً ، فرفع الله عنهم ثنتين ، وأبى علىّ أن يرفع عنهم ثنتين . دعوت ربى أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الأرض ، [وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض . فرفع الله عنهم الرجم من السماء،والغرق من الأرض] ، وأبى الله أن يرفع اثنتين : القتل ، والهَرْج » .

طريق أخرى عن ابن عباس أيضا ، قال ابن مَرْدُويه : حدثنى عبد الله بن محمد بن زيد،حدثنى الوليد بن أبان ، حدثنا جعفر بن منير، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن رجل ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : فقام النبى صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم قال : « اللهم لا ترسل على أمتى عذاباً من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعاً ، ولا تذق بعضهم بأس بعض — قال : فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم .

حديث آخر ، قال ابن مَرْدُويه : حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزاز ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى ، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا عمرو بن محمد العنقزى ، حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن أبى المنهال ،

---

(١) قوله : « وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطانيها » ساقطة من مسند الإمام أحمد .

(٢) مسند أحمد : ٣٩٦/٦ .

عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سألت ربي لأمتي أربع خصال ، فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة : سألته أن لاتكفر أمتي واحدة ، فأعطانيها . وسألته أن لايعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم ، فأعطانيها . وسألته أن لايظهر عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطانيها . وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » (١)

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد بن يحيي بن سعيد القطان ، عن عمرو بن محمد العنقزي ، به نحوه .

طريق أخرى ، وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيي ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني ، حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُباب ، سمع أبا هريرة يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « سألت ربي ثلاثا ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألته أن لايسلط على أمتي عدوا من غيرهم : وسألته أن لايهلكهم بالسنين ، فأعطاني . وسألته أن لايلبسهم شيعاً وأن لايذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعني »

ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه : ورواه البزار من طريق عُمَر بن سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

أثر آخر ، قال سفيان الثوري ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : أربعة من هذه الأمة : قد مضت ثِنْتان ، وبقيت ثِنْتان : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) قال : الخسف ، (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) ، قال سفيان : يعني الرجم والخسف .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) ، قال : فهي أربع خلال ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين [سنة] ، ألبسوا شيعاً ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان لابد منها واقعتان : الرجم والخسف .

ورواه أحمد ، عن وكيع ، عن أبي جعفر . ورواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أبو الأشهب ، عن الحسن ، في قوله : (قل هو القادر على أن يبعث) . . . الآية ، قال : حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها ، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها .

وهكذا قال سعيد بن جبير ، وأبو مالك مجاهد ، والسدي وابن زيد في قوله : (عذابا من فوقكم) يعني : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) ، يعني : الخسف . وهذا هو اختيار ابن جرير .

وروى ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (قل هو(٢) القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) ، قال : كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المجلس ــ أو : على المنبر ــ

---

(١) الدر المنثور للسيوطي : ١٩/٣ .

(٢) مسند أحمد : ١٣٤/٥ ، ١٣٥ .

يقول : ألا أيها الناس ، إنه قد نزل بكم : إن الله يقول : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) ، لو جاءكم عذاب من السماء لم يُبْقِ منكم أحدا — (أو من تحت أرجلكم) ،لوخسف بكم الأرض أهلككم، لم يَبْقَ منكم أحد (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ، ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث (١)

قول ثان ، قال ابن جرير وابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، سمعت خلاد بن سليمان يقول : سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول : إن ابن عباس كان يقول فى هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) [فأما العذاب من فوقكم](٢) فأئمة السوء — (أو من تحت أرجلكم) فخدم السوء (٣) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (عذابا من فوقكم) يعنى : أمراءكم ، (أو من تحت أرجلكم) يعنى : عبيدكم وسَفِلَتكم (٤) .

وحكى ابن أبي حاتم ، عن أبي سنان وعمير بن هانىء ، نحو ذلك :

وقال ابن جرير : وهذا القول وإن كان له وجه صحيح ، لكن الأول أظهر وأقوى :

وهو كما قال ابن جرير ، رحمه الله ، ويشهد له بالصحة قوله تعالى : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير(٥)) ، وفى الحديث : « ليكونن فى هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ (٦) » . وذلك مذكور مع نظائره فى أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة ، وستأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى .

وقوله : (أو يلبسكم شيعا) ، أى : يجعلكم ملتبسين شيعا فرَقاً متخالفين :

قال الوالبى ، عن ابن عباس : يعنى الأهواء (٧) . وكذا قال مجاهد وغير واحد :

وقد ورد فى الحديث المروى من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » .

وقوله : (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس وغير واحد : يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٤٨ : ٤١٧/١١ . وكان فى مخطوطة الأزهر : « عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم لو جاءكم عذاب ... » وفيها أيضاً : « أو من تحت أرجلكم يخسف بكم الأرض » وهو موافق لمخطوطة ابن جرير . ولا يستقيم عليه النص فأثبتنا ما أثبته السيد محقق تفسير الطبرى ، موافقاً بذلك المطبوعة . ونوافق بهذا أيضاً ما طبع من تفسير ابن كثير .

(٢) عن تفسير الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٤٩ : ٤١٧/١١ ، ٤١٨ .

(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٣٣٥٠ : ٤١٨/١١ .

(٥) سورة الملك ، آية : ١٦ ، ١٧ .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب ما جاء فى الخسف : ٤١٨/٦ . وابن ماجه ، كتاب الفتن أيضاً ، باب الخسوف ، الأحاديث ٤٠٥٩ ، ٤٠٦٢ : ١٣٥٠/٢ . ومسند أحمد عن عبد الله بن عمر : ١٣٦/٢ ، ١٣٧ وعن عبد الله بن عمرو : ١٦٣/٢ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٥٦ : ٤٢٠/١١ .

وقوله : (انظر كيف نصرف الآيات) ، أى : نبينها ونوضحها ونقررها (لعلهم يفقهون) ، أى : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه .

قال زيد بن أسلم : لما نزلت : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) ... الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف . » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ؟ قال : نعم : فقال بعض الناس : لا يكون هذا أبدا ، أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون ؛ فنزلت : (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون . وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) .

رواه ابن أبى حاتم وابن جرير (١) .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى : (وكذب به) ، أى : بالقرآن الذى جئتهم به ، والهدى والبيان : (قومك) يعنى : قريشا . (وهو الحق) ، أى : الذى ليس وراءه حق : (قل لست عليكم بوكيل) ، أى : لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم ، كقوله : (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(٢) ، أى : إنما على البلاغ ، وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : (لكل نبأ مستقر) .

قال ابن عباس وغير واحد : أى ، لكل نبأ حقيقة ، أى لكل خبر وقوع ولو بعد حين ، كما قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) (٣) ، وقال : (لكل أجل كتاب) (٤) .

وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال بعده (وسوف تعلمون) .

ثم قال : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) ، أى : بالتكذيب والاستهزاء (فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ، أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ، (وإما ينسينك الشيطان) ، والمراد بهذا كلّ فرد فرد من آحاد الأمة أن لا يجلسوا مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد منهم ناسيا (فلا تقعد بعد الذكرى) [بعد التذكر] (مع القوم الظالمين) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٧٨ ، ١١/٤٣٠ .
(٢) سورة الكهف ، آية : ٢٩ .
(٣) سورة ص آية ٨٨ .
(٤) سورة الرعد آية ٣٧ .

ولهذا ورد فى الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[١] » .

وقال السدى ، عن أبى مالك وسعيد بن جُبَيْر فى قوله : (وإما ينسينك الشيطان) ، قال : إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم . وكذا قال مقاتل بن حيان [٢] .

وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم)[٣] الآية ، أى : إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك ، فقد ساويتموهم فى الذى هم فيه .

وقوله : (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) ، أى : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك ، فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدى ، عن أبى مالك وسعيد بن جبير ، قوله : (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) ، قال : ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك ، أى : إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم .

وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شىء : وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية ، وهى قوله : (إنكم إذا مثلهم)[٤] ، قاله مجاهد ، والسدى، وابن جريج ، وغيرهم . وعلى قولهم يكون قوله : (ولكن ذكرى لعلهم يتقون) ، أى : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه ، لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠)

يقول تعالى : (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) ، أى : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . ولهذا قال : (وذكر به) ، أى : وذكّر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة .

وقوله : (أن تبسل نفس بما كسبت) ، أى : لئلا تبسل : قال الضحاك عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، والسدّى : تبسل : تُسْلَم .

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسى ، من أبى ذر الغفارى ، الحديث ٢٠٤٣ / ١ / ٦٥٩ ، ولفظه : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ ... » .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٣٩٥ : ٤٣٨/١١ .

(٣) سورة النساء ، آية : ١٤٠ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١٤٠ ، وينظر فيما تقدم : ٣٨٧/٢ .

وقال الوالبي ، عن ابن عباس : تُفْضَح ،

وقال قتادة : تُحْبَس . وقال مرة وابن زيد : تُؤاخذ . وقال الكلبي : تُجازَى .

وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها الإسلام للهلكة ، والحبس عن الخير ، والارتهان عن درك المطلوب ، كما قال : (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين[١]) .

وقوله : (ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع) ، أى : لا قريب ولا أحد يشفع فيها ، كما قال : (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم[٢] الظالمون) .

وقوله : (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) ، أى : ولو بذلت كلَّ مبذول ما قبل منها كما قال : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا[٣]) ... الآية . وهكذا قال هاهنا : (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) .

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قال السدى : قال المشركون للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا ، واتركوا دين محمد . فأنزل الله عز وجل : (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) ، أى : فى الكفر (بعد إذ هدانا الله) ، فيكون مثلُنا مثلَ الذى استهوته الشياطين فى الأرض ، يقول : مثلكم ، إن كفرتم بعد الإيمان ، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق ، فضلَّ الطريق ، فحيرته الشياطين ، واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : « ائتنا ، فإنّا على الطريق» فأبى أن يأتيهم . فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام .

رواه بن جرير [٤] .

وقال قتادة : (استهوته الشياطين فى الأرض) ، أضلته فى الأرض ، يعنى استهوته ، مثل قوله : (تَهوى إليهم [٥]) :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) ... الآية : هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى الله، عز وجل ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائها

---

(١) سورة المدثر ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٩١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٤٢٢ : ١١/٤٥٢ .

(٥) أثر قتادة كما فى تفسير الطبرى ١٣٤٢٤/١١/٤٥٣ : (استهوته الشياطين فى الأرض) ، قال : أضلته فى الأرض حيران .

ضالا ، إذ ناداه مناد : « يا فلان بن فلان ، هلم إلى الطريق » وله أصحاب يدعونه : « يا فلان ، هلم إلى الطريق » فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق . وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان . يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله ، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الهلكة والندامة . وقوله : (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) ، هم « الغيلان » ، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه فى شيء ، فيصبح وقد ألقته فى هلكة ، وربما أكلته — أو تلقيه فى مضلة من الأرض ، يهلك فيها عطشا . فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تُعبَد من دون الله عز وجل » .

رواه ابن جرير[1] .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : كالذى (استهوته الشياطين فى الأرض حيران) ، قال : رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق ، وذلك مثل من يضل بعد أن هدى[2] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، قوله : (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب) ، هو الذى لا يستجيب لهدى الله ، وهو رجل أطاع الشيطان ، وعمل فى الأرض بالمعصية ، وجار[3] عن الحق وضل عنه ، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ، ويزعمون أن الذى يأمرونه هدى ، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس ، يقول : (إن الهدى هدى الله) ، والضلال ما يدعو إليه الجن .

رواه ابن جرير ، ثم قال : وهذا يقتضى أن أصحابه يدعونه إلى ضلال ، ويزعمون أنه هدى — قال : وهذا خلاف ظاهر الآية ؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهدى ، فغير جائز أن يكون ضلالا ، وقد أخبر الله أنه هدى[4] .

وهو كما قال ابن جرير ، وكان سياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، وهو منصوب على الحال ، أى : فى حال حيرته وضلاله وجهله وَجْهَ المحجة ، وله أصحاب على المحجة سائرون ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام ، فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ، ولو شاء الله لهداه ، ولرد به إلى الطريق . ولهذا قال : (قل إن هدى الله هو الهدى) ، كما قال : (ومن يهد الله فما له من مضل)[5] ، وقال : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين)[6] ، وقوله : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) ، أى نخلص له العبادة وحده لا شريك له .

(وأن أقيموا الصلاة واتقوه) ، أى : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال ، (وهو الذى إليه تحشرون) ، أى : يوم القيامة .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٤٢٣ : ٤٥٢/١١

(٢) المصدر السابق ، الأثر ١٣٤٢٦ : ٤٥٣/١١ .

(٣) فى تفسير الطبرى ، الأثر ٤٥٤/١١/١٣٤٢٩ : « وحار عن الحق » بالحاء . والصواب ما فى مخطوطتنا ؛ ففى النهاية لابن الأثير : « وفى حديث ميقات الحج « وهو جور عن طريقنا » ، أى : مائل عنه ليس على جادته ، من جار يجور ، إذا ضل ومال » .

(٤) تفسير الطبرى : ٤٥٤/١١ .

(٥) سورة الزمر ، آية : ٣٧ .

(٦) سورة النحل ، آية : ٣٧ .

(وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) ، أى : بالعدل ، فهو خالقها ومالكها ، والمدبر لها ولمن فيها .

وقوله : (ويوم يقول كن فيكون) ، يعنى يوم القيامة ، الذى يقول الله : « كن » فيكون عن أمره كلمح البصر ، أو هو أقرب .

« ويومَ » منصوب إما على العطف على قوله : (واتقوه) ، وتقديره : واتقوا يومَ يقول كن فيكون . وإما على قوله : (خلق السموات والأرض) ، أى : وخلق يوم يقول كن فيكون . فذكر بدء الخلق وإعادته ، وهذا مناسب ؛ وإما على إضمار فعل تقديره : واذكر يوم يقول كن فيكون .

وقوله : (قوله الحق ، وله الملك) جملتان محلها الجر ، على أنها صفتان لرب العالمين .

وقوله : (يوم ينفخ فى الصور) يحتمل أن يكون بدلا من قوله : (ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ فى الصور) ، ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) ، كقوله : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)(١) ، وكقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا(٢)) وما أشبه ذلك ..

واختلف المفسرون فى قوله : (يوم ينفخ فى الصور) فقال بعضهم : المراد بالصور ها هنا جمع « صورة » أى : يوم ينفخ فيها فتحيا .

قال ابن جرير : كما يقال : سور ــ لسور البلد ــ هو جمع سورة (٣) .

والصحيح أن المراد بالصور « القَرْن » الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يُؤْمَر فينفخ »(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل(٥) ، حدثنا سليمان التيمى ، عن أسلم العجلى ، عن بشر بن شغاف ، عن عبد الله ابن عمرو قال : قال أعرابى : يا رسول الله ، ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه(٦) » .

وقد روينا حديث الصور بطوله ، من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى ، فى كتابه «الطّوّالات» قال : حدثنا أحمد بن الحسن المصرى(٧) الأيْـلى حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيل بن رافع ، عن محمد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو فى طائفة من أصحابه، فقال : «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض ، خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصاً بصرَه إلى العرش ، ينتظر متى

---

(١) سورة غافر ، آية : ١٦ .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٢٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ٤٦٣/١١ .

(٤) تفسير الطبرى : ٤٦٣/١١ ، وقد ورد فى الطبعات السابقة لهذا التفسير بعد هذا الحديث : « رواه مسلم فى صحيحه » على حين خلت منها مخطوطة الأزهر التى اعتمدنا عليها . ويقول السيد محقق تفسير الطبرى ، وهو يخرج هذا الحديث ، إن ابن كثير قال : « رواه مسلم فى صحيحه ، ولم أستطع أن أعرف مكانه فى صحيح مسلم » وهذه العبارة لا نشك فى أنها مقحمة على نص ابن كثير .

(٥) فى المسند قال الإمام أحمد : « حدثنا يحيى بن سعيد » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٩٢/٢ .

(٧) فى المخطوطة : « البصرى » والمثبت من المعجم الصغير للطبرانى : ٥٣/١ ، وميزان الاعتدال : ٨٩/١ .

يومر . قلت : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال : القرن . قلت : كيف هو ؟ قال : عظيم ، والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ . فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيديمها ويطيلها ولا يفتر ، وهى كقول الله : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) (١) فيسير الله الجبال ، فتمر مر السحاب فتكون سرابا .

ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية فى البحر تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجرجه الرياح ، وهى التى يقول : (يوم ترجف الراجفة • تتبعها الرادفة • قلوب يومئذ واجفة (٢)) ، فيَـميدُ الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتى الأقطار ، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولى الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم ، ينادى بعضهم [بعضا] ، وهو الذى يقول الله تعالى : (يوم التناد) .

فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك [من] الكرب والهول ما الله به عليم ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم انشقت فانتثرت نجومها ، وانخسفت شمسها وقمرها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأموات لا يعلمون بشئ من ذلك . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، من استثنى الله عز وجل حين يقول : (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله (٣)) ؟ قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند الله يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، قال : وهو الذى يقول الله عز وجل : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم • يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) (٤) ، فيكونون فى ذلك العذاب ما شاء الله ، إلا أنه يطول .

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا ، وجاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : يا رب ، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله — وهو أعلم بمن بقى — : فمن بقى ؟ فيقول : يا رب ، بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل ، [وبقيت أنا . فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل] : فَيُنْطِقُ الله العرش فيقول : يا رب ، يموت جبريل وميكائيل !! فيقول : اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : يا رب ، قد مات جبريل وميكائيل . فيقول الله — وهو أعلم بمن بقى — : فمن بقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة عرشك [وبقيت أنا] . فيقول الله : ليمت حملة عرشى

(١) سورة ص ، آية : ١٥ .
(٢) سورة النازعات ، آية : ٦ ، ٧ ، ٨ .
(٣) سورة النمل ، آية : ٨٧ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٢ .

فيموتوا ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت . فيقول : يا رب ، قد مات حملة عرشك ، فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بقى ـ : فمن بقى ؟ فيقول : يا رب ، بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت أنا . فيقول الله : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت،فمت. فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، كان آخراً كما كان أولا ، طوى السموات والأرض طى السجل للكتب ، ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات ، ثم يقول : أنا الجبار ، أنا الجبار، أنا الجبار، ثلاثاً . ثم هتف بصوته : (لمن الملك اليوم) ، ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، ثم يقول لنفسه : (لله الواحد القهار) ، يقول الله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ، فيبسطها ويسطحها ، ثم يمدهما مد الأديم العكاظى (١) (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) .

ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم فى هذه [الأرض] المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى ، من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء [أن] تمطر ، فتمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث (٢) ـ أو : كنبات البقل ـ حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت ، قال الله عز وجل : ليَحْيَ حملةُ عرشى . فيحيون ، ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحى جبريل وميكائيل . فيحييان ، ثم يدعو الله الأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها فى الصور .

ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، [فينفخ نفخة البعث] ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول : وعزتى وجلالى ليرجعَنّ كُلّ روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد، فتدخل فى الخياشيم ، ثم تمشى فى الأجساد كما يمشى السم فى اللديغ ، ثم تَنْشَقّ الأرض عنكم ، وأنا أول من تَنْشَقّ الأرض عنه ، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون ، (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر)(٣) حفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، فتقفون موقفا واحدا مقداره سبعون عاما ، لا يُنْظَر إليكم ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دما وتَعْرَقون حتى يلجمكم [العرق] ، أو يبلغ الأذقان ، وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا ؟ فتقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلا . فيأتون آدم ، فيطلبون ذلك إليه فيأبى ، ويقول : ما أنا بصاحب ذلك . فيستقرئون الأنبياء نبيا نبيا ، كلما جاءوا نبيا أبى عليهم ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حتى يأتونى فأنطلق إلى الفحص فأخِرّ ساجدا ـ قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الفَحْص ؟ قال : قدام العرش حتى يبعث الله إلىّ ملكا فيأخذ بعضدى ، فيرفعنى ، فيقول لى : يا محمد ، فأقول : نعم ، يارب : فيقول الله عز وجل : ما شأنك ؟ وهو أعلم ، فأقول : يارب ، وعدتنى الشفاعة فشفِّعْنى فى خلقك ، فاقض بينهم : قال : قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم .

(١) الأديم العكاظى : منسوب إلى عكاظ ، أشهر أسواق العرب ، كان يحمل الأديم إليها ويباع فيها .
(٢) طراثيث ، جمع طرثوث ـ بضم فسكون ـ وهو : نبت رملى طويل مستدق ، يضرب إلى الحمرة ويبيس .
(٣) سورة القمر ، آية : ٨ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا حسا من السماء شديدا ، فهالنا فنزل أهل السماء [الدنيا] بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، [وهو آت] .

ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة ، وبمثلى من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، وهو آت] .

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظُلَل من الغمام والملائكة ، ويحمل عرشه يومئذ ثمانية — وهم اليوم أربعة — أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حُجَزِهم(١) ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل فى تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى العرش والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سُبُّوح قدوس قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى ، الذى يميت الخلائق ولا يموت . فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته : يا معشر الجن والإنس ، إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم ، [فانصتوا إلى ، فانما هى أعمالكم] وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ثم يأمر الله جهنم ، فيخرج منها عُنُق(٢) ساطع . ثم يقول : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون) [أو] : بها تكذبون — [شك أبو عاصم] (وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٣) فيميز الله الناس وتجثو الأمم يقول الله تعالى : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون(٤)) فيقضى الله عز وجل بين خلقه ، إلا الثقلين الجن والإنس ، فيقضى بين الوحش والبهائم ، حتى إنه ليقضى للجماء (٥) من ذات القَرْن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله : كونى ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : (يا ليتنى كنت ترابا)(٦) .

ثم يقضى الله بين العباد ، فكان أول ما يقضى فيه الدماء ، ويأتى كل قتيل فى سبيل الله عز وجل ، ويأمر الله كلَّ قتيل فيحمل رأسه تَشْخُبُ(٧) أوداجه يقول : يا رب ، فيم قتلنى هذا ؟ فيقول — وهو أعلم — : فيم قتلتهم ؟ فيقول : قتلتهم لتكون العزة لك . فيقول الله له : صدقت . فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة .

---

(١) الحجزة — بضم فسكون ففتح — : معقد الإزار .
(٢) يخرج منها عنق : أى قطعة منها .
(٣) سورة يس ، آية : ٦٠ — ٦٤ .
(٤) سورة الجاثية ، آية : ٢٨ .
(٥) ينظر تفسير هذه الكلمة فيما تقدم : ٢/٢٩٨ .
(٦) سورة النبأ ، آية : ٤٠ .
(٧) ينظر تفسير هذه الكلمة فيما تقدم : ٢/٣٣٤ .

ويأتى كل من قُتِل غير ذلك يحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يارب ، قتلنى هذا : فيقول — وهو أعلم — : لم قتلتهم ؟ فيقول : يارب ، قتلتهم لتكون العزة لك ولى : فيقول : تعست : ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها ، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها : وكان فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه .

ثم يقضى الله تعالى بين من بقى من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه إلى أن يخلص اللبن من الماء .

فإذا فرغ الله من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم [وما كانوا يعبدون من دون الله : فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عُزَير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم : ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم] إلى النار : وهو الذى يقول : (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها ، وكل فيها خالدون) (١) .

فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون ، جاءهم الله فيما شاء من هيئته ، فقال : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون : فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره [فينصرف عنهم ، وهو الله الذى يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون : فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره] ، فيكشف لهم عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم ، فيخرون سجدا على وجوههم ، ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصى (٢) البقر : ثم يأذن الله لهم فيرفعون ، ويضرب الله الصراط بين ظهرانى جهنم كحد الشفرة — أو : كحد السيف — عليه كلاليب وخطاطيف وحَسَك كحسك السعدان (٣) ، دونه جسر دَحْض (٤) مَزَلّة ، فيمرون كطرف العين ، أو كلمح البرق ، أو كمر الريح ، أو كجياد الخيل ، أو كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال : فناج سالم ، وناج مخدوش ، ومكردس (٥) على وجهه فى جهنم .

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلا ؟ : فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسل الله : فيؤتى نوح فَيُطْلَبُ ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول عليكم بإبراهيم ، فإن الله اتخذه خليلا : فيؤتى إبراهيم فَيُطْلَب ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول : عليكم بموسى فإن الله قربه نَجِيًّا ، وكلمه وأنزل عليه التوراة : فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم : فيؤتى عيسى ابن مريم فيطلب ، ذلك إليه ، فيقول : ما أنا بصاحبكم ، ولكن عليكم بمحمد — قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٩٩ .

(٢) صياصى البقر : قرونها ، واحدتها : صيصية ، بكسر فسكون فكسر ففتح الياء .

(٣) السعدان : نبت من أفضل مراعى الإبل ، وله شوك تشبه به حلمة الثدى .

(٤) جسر دحض ، ومكان دحض : زلق ، لا يثبت عنده القدم .

(٥) المكردس : الذى جمعت يداه ورجلاه ، وألقى فى موضع .

وسلم : فيأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات فأنطلق فآتى الجنة ، فآخذ بحلقة الباب ، فأستفتح [فيفتح] لى فأحيّى ويرحب بى . فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خررت ساجداً ، فيأذن الله لى من حمده وتمجيده بشىء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول : ارفع [رأسك] ، يا محمد ، واشفع تُشَفَّع ، وسل تعطه : فإذا رفعت رأسى يقول الله — وهو أعلم — : ما شأنك ؟ فأقول : يارب ، وعدتنى الشفاعة ، فَشَفّعْنى فى أهل الجنة فيدخلون الجنة ، فيقول الله : قد شفعتك وقد أذنت لهم فى دخول الجنة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشىء الله عز وجل ، وثنتين آدميتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، لعبادتهما الله فى الدنيا : فيدخل على الأولى فى غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ ، عليها سبعون زوجا من سندس وإستبرق ، ثم إنه يضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها ، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مُخّ ساقها كما ينظر [أحدكم إلى] السلك فى قصبة الياقوت ، كبدها له مرآة وكبده لها مرآة : فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يَفْتُر ذَكَرُه ، وما تشتكى قبلها : فبينا هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أنه لا مَنِىّ ولامَنِيّة إلا أن لك أزواجا غيرها . فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما أتى واحدة قالت : والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك :

وإذا وقع أهل النار فى النار ، وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز [ذلك] ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حَقْوَيه (١) ، ومنهم من تأخذ جسده كله ، إلا وجهه حرم الله صورته عليها — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [فأقول] : يارب ، من وقع فى النار من أمتى . فيقول : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد : ثم يأذن الله فى الشفاعة فلا يبقى نبى ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة الدينار إيمانا : فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد : ثم يشفع الله فيقول : أخرجوا من فى قلبه إيمانا ثلثى دينار : ثم يقول : ثلث دينار : ثم يقول : ربع دينار : ثم يقول : قيراطا : ثم يقول : حبة من خردل : فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم [أحد] ، وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيراً قط ، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى إن إبليس ليتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ، ثم يقول : بقيت وأنا أرحم الراحمين : فيدخل يده فى جهنم فيخرج منها مالا يحصيه غيره ، كأنهم حُمَم(٢) ، فيلقون على نهر يقال له : نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل(٣) السيل مايلى الشمس منها أخيضر ، وما يلى الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث ، حتى يكونوا أمثال الذر ، مكتوب فى رقابهم : « الجهنميون

---

(١) الحقو — بفتح فسكون ، وبكسر فسكون أيضاً — الكشح والإزار .

(٢) الحمم — بضم ففتح — : الرماد والفحم ، وكل ما احترق من النار .

(٣) حميل السيل : ما يجىء به السيل من طين أو غثاء وغيره ، فإذا اتفقت فيه حبة واستقرت على شط مجرى السيل ، فإنها تنبت فى يوم وليلة . فشبه به سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها .

عتقاء الرحمن » يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ، ما عملوا خيراً لله قط . فيمكثون فى الجنة ما شاء الله ، وذلك الكتاب فى رقابهم ، ثم يقولون ربنا امح عنا هذا الكتاب : فيمحوه الله عز وجل عنهم » .

هذا حديث ، وهو غريب جدا ، ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة ، وفى بعض ألفاظه نكارة : تفرد به إسماعيل ابن رافع قاصّ أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبى حاتم الرازى ، وعمرو بن على الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدى : أحاديثه كلها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها فى جزء على حدة ، وأما سياقه فغريب جداً ، ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة ، وجعله سياقا واحدا ، فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم .

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، إنما كان اسمه تارح : رواه ابن أبى حاتم .

وقال أيضا حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم النبيل ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو عاصم شبيب ، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) يعنى بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارح وأمه اسمها مثانى وامرأته اسمها سارة ، وأم إسماعيل اسمها هاجر ، وهى سرية إبراهيم .

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب : إن اسمه تارح .

وقال مجاهد والسدى : آزر : اسم صنم .

قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم ، فالله أعلم .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : « هو سب وعيب بكلامهم ، ومعناه : مُعْوَجّ »(١) ولم يسنده ولا حكاه عن أحد .

(١) تفسير الطبرى : ١١/٤٦٧ .

وقد قال ابن أبى حاتم : ذُكر عن معتمر بن سليمان ، سمعت أبى يقرأ : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) [قال] : بلغنى أنها أعوج ، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام .

ثم قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر . ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان ، كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقبا (١) . وهذا الذى قاله جيد ، قوى والله أعلم .

واختلف القراء فى أداء قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) ، فحكى ابن جرير عن الحسن البصرى وأبى يزيد المدنى أنهما كانا يقرآن : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرُ أتتخذ أصناما آلهة) ، معناه : يا آزرُ أتتخذ أصناما آلهة .

وقرأ الجمهور بالفتح ، إما على أنه علم أعجمى لا ينصرف ، وهو بدل من قوله (لأبيه) ، أو عطف بيان ، وهو أشبه .

وعلى قول من جعله نعتا لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود .

فأما من زعم [أنه] منصوب لكونه معمولا لقوله : (أتتخذ أصناما) ، تقديره : يا أبت ، أتتخذ آزر أصناما آلهة — فإنه قول بعيد فى اللغة ؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيا قبله ، لأن له صدر الكلام ، كذا قرره ابن جرير وغيره . وهو مشهور فى قواعد العربية .

والمقصود أن إبراهيم عليه السلام وعظ أباه فى عبادة الأصنام ، وزجره عنها ، ونهاه فلم ينته ، كما قال : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟) أى : أتتأله لصنم تعبده من دون الله ، (إنى أراك وقومك) ، أى : السالكين مسلكك (فى ضلال مبين) ، أى : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل فى حيرة وجهل وأمركم فى الجهالة والضلال [بيّن واضح] لكل [ذى] عقل صحيح .

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه : يا أبت ، لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا)(٢) ، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم)(٣) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١١/٤٦٨ ، ٤٦٩ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٤١ — ٤٨ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ١١٤ .

وثبت فى الصحيح : أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه : يا بنى ، اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أىْ رب ، ألم تعدنى أنك لا تخزنى يوم يبعثون ، وأىّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم ، انظر ما وراءك . فإذا هو بِذِيخ (١) متلطخ فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى فى النار (٢) .

وقوله : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) ، أى : نبين له وجه الدلالة فى نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل فى ملكه وخلقه ، وأنه لا اله غيره ولا رب سواه ، كقوله : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض (٣) ، وقال : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) (٤) ، وقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) (٥) .

فأما ما حكاه ابن جرير وغيره ، عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، وغيرهم قالوا ــ واللفظ لمجاهد ــ : فرجت له السموات ، فنظر إلى مافيهن ، حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع ، فنظر إلى ما فيهن ــ وزاد غيره ــ : فجعل ينظر إلى العباد على المعاصى فيدعو عليهم ، فقال الله له : إنى أرحم بعبادى منك ، لعلهم أن يتوبوا ويُراجعوا . وقد روى ابن مردويه فى ذلك حديثين مرفوعين ، عن معاذ، وعلى ، ولكن لايصح إسنادهما والله أعلم . وروى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإنه تعالى جَلَّاَلهُ الأمرَ سرّه وعلانيته ، فلم يخف عليه شىء من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا . فرده كما كان قبل ذلك ــ فيحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره ، حتى رأى ذلك عيانا ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه ، وعلم مافى ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة ، كما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه ، عن معاذ بن جبل فى حديث المنام : « أتانى ربى فى أحسن صورة فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أدرى يا رب ، فوضع كفّه بين كتفى ، حتى وجدت برد أنامله بين ثديى ، فتجلى لى كل شىء وعرفت ... » وذكر الحديث (٦) .

وقوله : (وليكون من الموقنين) ، قيل : « الواو » زائدة ، تقديره : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : (نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين (٧)) .

وقيل : بل هى على بابها ، أى : نريه ذلك ليكون عالماً وموقنا .

---

(١) الذيخ – بكسر الذال وسكون الياء – ذكر الضباع . وأراد بالتلطخ التلطخ برجيعه أو بالطين .
(٢) صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ١٦٩/٤ .
(٣) سورة يونس ، آية : ١٠١ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٨٥ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٩ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٤٣/٥ . وتحفة الأحوذى ، أبواب التفسير ، تفسير سورة ص : ١٠٦/٩ – ١٠٩ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٥٥ .

وقوله : (فلما جن عليه الليل) ، أى : تغشاه وستره (رأى كوكباً) ، أى : نجما ، (قال هذا ربى فلما أفل) ، أى : غاب . قال محمد بن إسحاق بن يسار : « الأفول » الذهاب . وقال ابن جرير : يقال : أفل النجم يأفُل ويأفِل أفولا وأفْلاً : إذا غاب ، ومنه قول ذى الرمة (١) :

مصابيح ليست باللواتى تَقُودُها • نُجُومٌ ، ولا بالآفلات الدَّوَالِك

ويقال : أين أفلت عنا ؟ بمعنى : أين غبت عنا ؟ .

قال : (لا أحب الآفلين) ، قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول (٢)، (فلما رأى القمر بازغاً) ، أى : طالعاً (قال : هذا ربى . فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) ، أى : هذا المنير الطالع ربى (هذا أكبر) ، أى : جرماً من النجم ومن القمر ، وأكثر إضاءة (فلما أفلت) ، أى غابت (قال : يا قوم، إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى) ، أى : أخلصت دينى وأفردت عبادتى (للذى فطر السموات والأرض) ، أى : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفاً) ، أى : فى حال كونى حَنيفا ، أى : مائلا عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : (وما أنا من المشركين) .

وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير من طريق على بن [أبى] طلحة ، عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله : (لئن لم يهدنى ربى) ... الآية .

وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السَّرَب(٣) الذى ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه النمرود بن كنعان، لما أنْ قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ، ذهبت به إلى سَرَبٍ ظاهرَ البلد ، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظرا لقومه ، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية ، التى هى على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهى : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى،وزحل . وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة . فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، لأنها مسخرة مقدرة بسير

---

(١) البيت فى ديوانه : ٤٢٥ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ١/١٩٩ ، واللسان ، مادة : دلك .
والمصابيح : جمع مصباح ، وهى التى تصبح فى مبركها لا ترعى حتى يرتفع النهار ، وهو مما يستحب من الإبل ، وذلك لقوتها وسمنها . والدلوك : الغروب . يقول : ليست بنجوم آفلات ، ولكنها إبل . ينظر تفسير الطبرى : ١١/٤٨٥ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٤٦٣ : ١١/٤٨٠ .

(٣) السرب — بفتحتين — حفير تحت الأرض ، وقيل : بيت تحت الأرض . والذى فى أثر ابن إسحاق — كما رواه الطبرى — أن أمه ولدته عليه السلام فى مغارة . ينظر تفسير الطبرى : ١١/٤٨١ .

معين ، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة ، لما له فى ذلك من الحكم العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية . ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم فى النجم . ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الألهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع (قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون) ، أى : أنا برىء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدونى بها جميعا ثم لا تنظرون، (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ، أى : إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذى بيده ملكوت كل شىء ، وخالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، كما قال تعالى : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)(1). وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً فى هذا المقام ، وهو الذى قال الله فى حقه : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون)(2) الآيات . ، وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)(3) . وقال تعالى : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)(4) .

وقد ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة (5) » ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله : إنى خلقت عبادى حنفاء (6) » ، وقال الله فى كتابه العزيز : (فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)(7) . وقال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى)(8) . ومعناه على أحد القولين ، كقوله : (فطرت الله التى فطر الناس عليها) كما سيأتى بيانه .

فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل ـ الذى جعله الله (أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) ـ ناظرا فى هذا المقام ؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب . ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى :

---

(1) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(2) سورة الأنبياء ، آية : ٥١ ، ٥٢ .
(3) سورة النحل ، آية : ١٢٠ ـ ١٢٣ .
(4) سورة الأنعام ، آية : ١٦١ .
(5) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبى هل يصلى عليه : ١١٨/٢ . ومسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة : ٥٢/٨ .
(6) مسلم ، كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار : ١٥٩/٨ .
(7) سورة الروم ، آية : ٣٠ .
(8) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢ .

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى : وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول — قال : (أتحاجونى فى الله وقد هدان) ، أى : تجادلونى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بَصَّرنى وهدانى إلى الحق وأنا على بينة منه ؟ فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟!

وقوله : (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً) ، أى : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها صنع فكيدونى بها ولا تنظرون ، بل عاجلونى بذلك .

وقوله : (إلا أن يشاء ربى شيئا) استثناء منقطع ، أى : لا يضر ولا ينفع إلا الله ، عز وجل .

(وسع ربى كل شىء علماً) ، أى : أحاط علمه بجميع الأشياء ، فلا تخفى عليه خافية .

(أفلا تتذكرون) ، أى : فيما بينته لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتزجروا عن عبادتها ؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبى الله هود عليه السلام على قومه عاد ، فيما قص عنهم فى كتابه ، حيث يقول : (قالوا : يا هود ، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) ... الآية (١) .

وقوله : (وكيف أخاف ما أشركتم) ، أى : كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدون من دون الله (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً) ؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف : أى حجة . وهذا كما قال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)(٢) . وقال : (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) (٣) .

---

(١) سورة هود ، آية : ٥٣ — ٥٦ .
(٢) سورة الشورى ، آية : ٢١ .
(٣) سورة النجم ، آية : ٢٣ .

وقوله : (فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ، أى : فأى الطائفتين أصوب ؟ الذى عبَد من بيده الضر والنفع ، أو الذى عبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل ، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ، أى : هؤلاء الذى أخلصوا العبادة لله وحده لاشريك له ، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة .

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبى عدى ، عن شعبة ، عن سليمان ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه (١) ؟ فنزلت : (إن الشرك لظلم عظيم (٢)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس ، وقالوا : يا رسول الله ، فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ! ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (يا بنى ، لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم) ، إنما هو الشرك (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع وابن إدريس ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت : (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون ، إنما قال لابنه : (يا بنى ، لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

وحدثنا عمر بن شبَّة النمرى ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبدالله عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، قال : بشرك .

قال : ورُوى عن أبى بكر الصديق ، وعمر ، وأبى بن كعب ، وسلمان ، وحذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعمرو بن شرحبيل ، وأبى عبد الرحمن السُّلَمى ، ومجاهد ، وعكرمة ، والنخعى ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى نحو ذلك .

وقال ابن مردويه : حدثنا الشافعى ، حدثنا محمد بن شداد المسمعى ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيل لى : أنت منهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ، حدثنا أبو جناب ، عن زاذان ، عن جرير بن عبد الله قال : خرجنا

---

(١) لفظ البخارى : « وأينا لم يظلم ؟ فنزلت ... » .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٧١/٦ .
(٣) المسند : ٣٧٨/١ .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع (١) نحونا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأن هذا الراكب إياكم يريد . فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : من أين أقبلت ؟ قال : من أهلي وولدي وعشيرتي . قال : « فأين تريد ؟ قال : أريدُ رسولَ الله . قال : فقد أصبته . قال : يا رسول الله ، علمني ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت . قال : ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جُرْذان ، فهوى بعيره وهوى الرجل ، فوقع على هامته فمات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على بالرجل . فوثب إليه عمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه ، فقالا : يا رسول الله ، قُبِض الرجل ! قال : فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما رأيتما إعراضي عن الرجل ، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أنه مات جائعا . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا (٢) من الذين قال الله عز وجل : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ... الآية . ثم قال : دونكم أخاكم . قال : فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه ، وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على شَفِير القبر فقال : الحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا (٣) .

ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر ، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء ، عن ثابت ، عن زاذان ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر نحوه — وقال فيه : هذا ممن عَمِل قليلا وأجر كثيراً (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يوسف بن موسى القطان ، حدثنا مهران بن أبي عمر ، حدثنا على بن عبد الأعلى ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي فقال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلادي ومالي لأهتدى بهداك وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى مالي طعام إلا من خَضِر الأرض ، فاعرض علَيّ : فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل . فازدحمنا حوله ، فدخل خف بَكْرِه (٤) في بيت جُرْذان ، فتردى الأعرابي ، فانكسرت عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق والذي بعثني بالحق ، لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى ويأخذ من قولي ، وما بلغني حتى ماله طعام إلا من خضر الأرض ، أسمعتم بالذي عمل قليلا وأجر كثيراً ؟ هذا منهم ! أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ؟ فإن هذا منهم » .

وقوله : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ، أى : وجهنا حجته على قومه .

قال مجاهد وغيره : يعني بذلك قوله : (وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن) ... الآية : وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية فقال : (الذين آمنوا ولم

---

(١) الإيضاع : حمل الراكب بعيره على سرعة السير .
(٢) لفظ المسند : « هذا والله من الذين ... » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٥٩/٤ .
(٤) البكر — بفتح فسكون — : الفتى من الإبل .

يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ، ثم قال بعد ذلك كله : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) .

قرئ بالاضافة[1] وبلا إضافة ، كما فى سورة يوسف ، وكلاهما قريب فى المعنى .

وقوله : (إن ربك حكيم عليم) ، أى : حكيم فى أفعاله وأقواله (عليم) ، أى بمن يهديه ومن يضله ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين ، كما قال : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم [2]) ، ولهذا قال هاهنا : (إن ربك حكيم عليم) .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، بعد أن طعن فى السن ، وأيس هو وامرأته « سارة » من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) [3] : وبشروه مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين)[4] ؛ وهذا أكمل فى البشارة ، وأعظم فى النعمة ؛ وقال : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب [5]) ، أى : ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ؛ ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم « يعقوب » ، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض ، فعوضه الله،عز وجل،عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه،تقر بهم

(١) يعنى قرئ بإضافة (درجات) إلى (من) ، وبتنوين درجات ، وهى قراءة الكوفيين . (البحر المحيط لأبى حيان ؛ ٤/١٧٢) .

(٢) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة هود ، آية : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ١١٢ .

(٥) سورة هود ، آية : ٧١ .

عينه ، كما قال : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا)(١) ، وقال هاهنا : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) .

وقوله : (ونوحا هدينا من قبل) ، أى : من قبله ، هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به — وهم الذين صحبوه فى السفينة — جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذرية نوح ، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام لم يبعث الله عز وجل بعده نبيا إلا من ذريته ، كما قال تعالى : (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب)(٢) ... الآية ، وقال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب)(٣) ، وقال تعالى : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا)(٤) .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : (ومن ذريته) ، أى : وهدينا من ذريته (داود وسليمان) ... الآية : وعود الضمير إلى « نوح » لأنه أقرب المذكورين ، ظاهر . وهو اختيار ابن جرير ، ولا إشكال عليه (٥) . وعوده إلى « إبراهيم » لأنه الذى سيق الكلام من أجله حسن ، لكن يشكل على ذلك « لوط » ، فإنه ليس من ذرية « إبراهيم » ، بل هو ابن (أخيه) ماران بن آزر ؛ اللهم إلا أن يقال : إنه دخل فى الذرية تغليبا ، كما فى قوله تعالى : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون) ، فإسماعيل عمه ، ودخل فى آبائه تغليبا .

وفى ذكر « عيسى » عليه السلام فى ذرية « إبراهيم » أو « نوح » ، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجال ، لأن « عيسى » عليه السلام إنما ينسب إلى « إبراهيم » عليه السلام بأمه « مريم » عليها السلام ، فإنه لا أب له .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا سهل بن يحيى العسكرى ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا على بن عابس ، عن عبد الله بن عطاء المكى ، عن أبى حرب بن أبى الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يَعْمَر فقال : بلَغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم ، تجده فى كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام : (ومن ذريته داود وسليمان) ، حتى بلغ (ويحيى وعيسى) ؟ قال : بلى . قال : أليس [عيسى] من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٤٩ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة الحديد ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة مريم ، آية : ٥٨ .
(٥) تفسير الطبرى : ١١/٥٠٧ .

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنوبنيه ، واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ٭ بنوهن أبنا الرجال الأجانب

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم [أيضا] ، لما ثبت في صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن على : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[1] » فسماه ابنا ، فدل على دخوله في الأبناء .

وقال الآخرون : هذا تجوّز

وقوله :(ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) ذكر أصولهم وفروعهم . وذوى طبقتهم ، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم ، ولهذا قال (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم)

ثم قال : (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) أى : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ، (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) ، تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كما قال (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك[2] . . .) الآية . وهذا شرط ، والشرط لايقتضى جواز الوقوع ، كقوله : (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول[3] العابدين) ، وكقوله : (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا[4] فاعلين) ، وكقوله : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد[5] القهار)

وقوله : (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) ، أى : أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم ، ولطفاً منا بالخليقة ، (فإن يكفر بها) ، أى : بالنبوة . ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة : الكتاب ، والحكم ، والنبوة

وقوله : (هؤلاء) يعنى : أهل مكة قاله ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والضحاك وقتادة ، والسدى ، (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) ، أى : إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض ، من عرب وعجم ، ومليين وكتابيين ــ فقد وكلنا بها قوما (آخرين) ، يعنى : المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ، (ليسوا بها بكافرين) ، أى : لايجحدون شيئا منها ، ولا يردون منها حرفا واحدا ، بل يؤمنون بجميعها : محكمها ومتشابهها ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه

ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم : (أولئك) ، يعنى : الأنبياء المذكورين مع من أضيف

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الصلح ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم للحسن بن على رضى الله عنهما : ابنى هذا سيد : ٣/٢٤٣ ، ٢٤٤ . وكتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما : ٥/٢٢ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٦٥ .

(٣) سورة الزخرف ، آية : ٨١ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية : ١٧ .

(٥) سورة الزمر ، آية : ٤ .

إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه (الذين هدى الله) ، أى : هم أهل الهداية لاغيرهم ، (فبهداهم اقتده) ، أى : اقتد واتبع . وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمته تبَعٌ له فيما يشرعه ويأمرهم به

قال البخارى عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام أنّ ابن جُرَيج أخبرهم قال : أخبرنى سليمان الأحول ، أن مجاهداً أخبره ، أنه سأل ابن عباس أفى(ص) سجدة ؟ فقال : نعم ، ثم تلا : (ووهبنا له إسحاق . . .) إلى قوله : (فبهداهم اقتده) ، ثم قال : هو منهم — زاد يزيد بن هارون ، ومحمد بن عبيد ، وسهل بن يوسف ، عن العوام ، عن مجاهد قال : قلت لابن عباس ، فقال : نبيكم صلى الله عليه وسلم ممن أمِرَ أن يَقْتَدى بهم (١)

وقوله : (قل لاأسألكم عليه أجرا) ، أى : لاأطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن (أجرا) ، أى : أجرة ، ولا أريد منكم شيئا ، (إن هو إلا ذكرى للعالمين) ، أى : يتذكرون به فيَرْشَدُوا من العَمَى إلى الهدى ، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه ، إذكذبوا رسله إليهم

قال ابن عباس ومجاهد ، وعبد الله بن كثير : نزلت فى قريش . واختاره ابن جرير (٢)

وقيل : نزلت فى طائفة من اليهود ؛ وقيل : فى فِنْحاص رجل منهم .

وقيل : فى مالك بن الصيف

(قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء) ، والأول هو الأظهر ؛ لأن الآية مكية ، واليهود لاينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش — والعرب قاطبة — كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر ، كما قال : (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر (٣) الناس) ، وقال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا (٤) رسولا) ، وقال هاهنا : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء) ، قال الله تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) ؟ أى : قل يامحمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شىء من الكتب من عند الله ، فى جواب سلبهم العام

(١) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٦/٧١ ، ٧٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ١١/٥٢٤ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٢ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٩٤ ، ٩٥ .

بإثبات قضية جزئية موجبة : (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) يعنى التوراة التى قد علمتم ــ وكل أحد ــ أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورا وهدى للناس ، أى : ليستضاء بها فى كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظلم الشبهات

وقوله : (يجعلونه [1] قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا) ، أى : يجعلها حَمَلَتُهَا قراطيس ، أى : قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلى الذى بأيديهم ويحرفون فيها مايحرفون ويبدلوان ويتأولون ، ويقولون (هذا من عند الله) ، أى : فى كتابه المنزل ، وما هو من عند الله . ولهذا قال : (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا) .

وقوله : (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) ، أى : ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خبر ماسبق ، ونبأ مايأتى مالم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم .

قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد : هذه للمسلمين .

وقوله : (قل الله) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، أى ؟ قل : الله أنزله . وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة (لاماقاله بعض المتأخرين ، من أن معنى (قل الله) ، أى : لايكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة ، كلمة : « الله » .

وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمرا بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لايفيد فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها

وقوله : (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) ، أى : ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون : ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين ؟

وقوله : (وهذا كتاب) ، يعنى القرآن (أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى) ، يعنى : مكة (ومن حولها) من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال فى الآية الأخرى : (قل : ياأيها الناس ، إنى رسول الله إليكم [2] جميعا) ، وقال : (لأنذركم به ومن [3] بلغ) ، وقال : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار [4] موعده) ، وقال : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين [5] نذيرا) ، وقال : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير [6] بالعباد) ، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » وذكر منهن: « وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » ، ولهذا قال : (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) أى :

---

(١) يبدو من تفسير ابن كثير أنه قد اعتمد قراءة سميه ابن كثير وقراءة أبى عمرو ، بالياء على الغيبة . وأما قراءة الجمهور فبالتاء على الخطاب . وقراءة التاء ظاهرة فى بنى إسرائيل . (البحر المحيط لأبى حيان : ١٧٨/٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ١ .

(٦) سورة آل عمران ، آية : ٢٠ .

كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يامحمد ، وهو القرآن ، (وهم على صلاتهم يحافظون) ، أى : يقومون بما افترض عليهم ، من أداء الصلوات فى أوقاتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ، أى : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شريكاً أو ولدا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله ولهذا قال تعالى : (أو قال : أوحى إلى ولم يوح إليه شىء) .

قال عكرمة وقتادة : نزلت فى مسيلمة الكذاب .

(ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) ، يعنى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول ، كما قال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل[1] هذا) ... الآية ، قال الله : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) ، أى : فى سكراته وغمراته وكُرُباته ، (والملائكة باسطو أيديهم) ، أى : بالضرب ، كما قال : (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى[2]) ... الآية ، وقال : (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء[3] ... الآية .

وقال الضحاك ، وأبو صالح : باسطو أيديهم ، أى : بالعذاب . وكما قال : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) [4] ، ولهذا قال : (والملائكة باسطو أيديهم) ، أى : بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : (أخرجوا أنفسكم) ، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال ، والأغلال والسلاسل ، والجحيم والحميم ، وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) . . . الآية ، أى : اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله .

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٣١ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة الممتحنة ، آية : ٢ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٥٠ .

وقد وردت أحاديث فى كيفية احتضار المؤمن والكافر ، وهى مقررة عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة(١)) :

وقد ذكر ابن مردويه هاهنا حديثا مطولا جداً من طريق غريبة ، عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعا ، فالله أعلم :

وقوله : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) ، أى : يقال لهم يوم معادهم هذا ، كما قال : (وعرضوا على ربك صفا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) ، أى : كما بدأناكم [أعدناكم] ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه ، فهذا يوم البعث :

وقوله : (وتركتم ما خولناكم) ، أى : من النعم والأموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا (وراء ظهوركم) ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس (٢) » .

وقال الحسن البصرى : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج (٣) [فيقول الله عز وجل : أين ما جمعت] ؟ فيقول : يارب ، جمعته وتركته أوفرَ ما كان . فيقول : فأين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدّم شيئا ، وتلا هذه الآية : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) .

رواه ابن أبى (٤) حاتم .

وقوله : (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) ، تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أن تلك تنفعهم فى معاشهم ومعادهم إن كان ثَمّ معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب، عز وجل،على رءوس الخلائق : (أين شركائى الذين كنتم تزعمون(٥) ؟) ، وقيل لهم :(أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون(٦)) ؟ ولهذا قال هاهنا : (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى : فى العبادة ، لهم فيكم قسط فى استحقاق العبادة لهم .

ثم قال تعالى : (لقد تقطع بَيْنُكم) ، قُرِىء بالرفع ، أى : شملكم . وقُرِىء بالنصب ، أى : لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل (وضل عنكم) ، أى : وذهب عنكم (ما كنتم تزعمون) من رجاء الأصنام

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٢٧ .

(٢) مسلم ، كتاب الزهد والرقائق : ٨ / ٢١١ ، ومسند أحمد عن أبى هريرة : ٢/٣٦٨ ، وعن مطرف عن أبيه : ٢٤/٤ ، ٢٦ .

(٣) البذج ــ بفتح الباء والذال المعجمة ــ : ولد الضأن ، وجمعه : بذجان بكسر فسكون . والمقصود بهذا التشبيه بيان هوانه وعجزه . .

(٤) هذا وقد أخرجه الترمذى عن أنس مرفوعاً فى أبواب صفة القيامة ، الباب السادس : ١١٣/٧ ، ١١٤ . وقال الترمذى : « وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قوله ، ولم يسندوه . وإسماعيل بن مسلم [راويه عن الحسن] يضعف فى الحديث . وفى الباب عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى .

(٥) سورة القصص ، آية : ٦٢ ، ٧٤ .

(٦) سورة الشعراء ، آية : ٩٢ ، ٩٣ .

كما قال : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب : وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار (١)) ، وقال تعالى : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (٢))، وقال : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين(٣)) ، وقال : (وقيل : ادعوا شركاءكم ، فدعوهم ، فلم يستجيبوا(٤) لهم) ... الآية ، وقال تعالى : (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا) ... إلى قوله : (وضل عنهم ما كانوا يفترون (٥)) ، والآيات فى هذا كثيرة جدا .

* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى ، أى : يشقه فى الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب ، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى : ولهذا فسر (فالق الحب والنوى) بقوله : (يخرج الحى من الميت) ، أى : يخرج النبات الحى من الحب والنوى ، الذى [هو] كالجماد الميت ، كما قال : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) إلى قوله : (ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٦)) .

وقوله : (ومخرج الميت من الحى) معطوف على (فالق الحب والنوى) ، ثم فسره ثم عطف عليه قوله : (ومخرج الميت من الحى) .

وقد عبروا عن هذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة . ومن قائل : يخرج الولد الصالح من الكافر ، والكافر من الصالح ، وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها .

ثم قال : (ذلكم الله) ، أى : فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له (فأنى تؤفكون) ، أى : فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره .

وقوله : (فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا (٧)) ، أى : خالق الضياء والظلام ، كما قال فى أول السورة : (وجعل

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ١٠١ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٦٤ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٢٢ — ٢٤ .
(٦) سورة يس ، آية : ٣٣ — ٣٦ .
(٧) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤/١٨٦ : « وقرأ الكوفيون : (وجعل الليل) فعلا ماضيا ... وقرأ باقى السبعة (وجاعل) باسم الفاعل مضافا إلى الليل » .

الظلمات والنور) ، فهو سبحانه يفلق [ظلام] الليل عن غرة الصباح ، فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بدآدئه [1] وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه ، كما قال : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا [2]) ، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه . فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله (وجاعل الليل سكنا) ، أى ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء ، كما قال : (والضحى ، والليل إذا سجى [3]) ، وقال : (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى [4]) ، وقال : (والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها [5]) .

وقال صهيب الرومى لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب ، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه .

رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (والشمس والقمر حسبانا) ، أى : يجريان بحساب مُقَنَّن مقدر ، لا يتغير ولا يضطرب ، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا ، كما قال : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل) ... الآية ، وكما قال : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك [6] يسبحون) ، وقال : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات [7] بأمره) .

وقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) ، أى : الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم [8]) .

ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة (حم) السجدة ، قال : (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم [9]) .

وقوله (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) ، قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

---

(١) يقال : ليلة دأداء ، أى شديدة الظلمة والجمع : دآدئ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٣) سورة الضحى ، آية : ١ ، ٢ .
(٤) سورة الليل ، آية : ١ ، ٢ .
(٥) سورة الشمس ، آية : ٣ ، ٤ .
(٦) سورة يس ، آية : ٤٠ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٨) سورة يس ، آية : ٣٧ ، ٣٨ .
(٩) سورة فصلت ، آية : ١٢ .

وقوله : (قد فصلنا الآيات) ، أى : قد بيناها ووضحناها (لقوم يعلمون) ، أى : يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى : (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) ، يعنى : آدم عليه السلام ، كما قال : (ياأيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) .

وقوله : (فمستقر ومستودع) ، اختلفوا فى معنى ذلك ، فعن ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى عبد الرحمن السلمى ، وقيس بن أبى حازم ، ومجاهد ، وعطاء ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وعطاء الخراسانى : (فمستقر) ، أى : فى الأرحام . قالوا — أو : أكثرهم — : (ومستودع) : أى : فى الأصلاب .

وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك .

وعن ابن مسعود أيضا وطائفة : فمستقر فى الدنيا ، ومستودع حيث يموت .

[وقال سعيد بن جبير (فمستقر) فى الأرحام وعلى ظهر الأرض ، وحيث يموت (١)] .

وقال الحسن البصرى : المستقر الذى مات فاستقر به عمله .

وعن ابن مسعود : ومستودع فى الدار الآخرة .

والقول الأول هو الأظهر ، والله أعلم

وقوله : (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) ، أى : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

وقوله : (وهو الذى أنزل من السماء ماء) أى بقدر مباركا ، رزقا للعباد وغياثا للخلائق ، ورحمة من الله لخلقه (فأخرجنا به نبات كل شىء) ، كما قال : (وجعلنا من الماء كل شىء حى) (٢) .

(فأخرجنا منه خضرا) ، أى : زرعا وشجرا أخضر ، ثم بعد ذلك : نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال : (نخرج منه حبا متراكبا) ، أى : يركب بعضه بعضا ، كالسنابل ونحوها : (ومن النخل من طلعها قنوان) ، أى : جمع قنو ، وهى عذوق الرطب (دانية) ، أى : قريبة من المتناول ، كما قال على بن أبى طلحة الوالبى ، عن ابن عباس ، (قنوان دانية) ، يعنى بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض : رواه ابن جرير (٣) .

---

(١) أثر سعيد بن جبير كما فى تفسير الطبرى ١٣٦٢٠/١١/٥٦٣ : « مستودعون ، ما كانوا فى أصلاب الرجال . فإذا قروا فى أرحام النساء أو على ظهر الأرض أو فى بطنها ، فقد استقروا » .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٣٠ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٦٦٢ : ١١/٥٧٦ .

قال ابن جرير : « وأهل الحجاز يقولون : قنوان ، وقيس يقولون : قُنْوان ، وقال امرؤ القيس :

قَأثَّت أعاليه ، وآدت أصولُه ومَالَ بقنوانٍ من البُسْر أحْمَرَا

قال : وتميم يقولون : قُنْيَان بالياء ـــ قال : وهي جمع قنو ، كما أن صنوان جمع صنو[1] » .

وقوله : (وجنات من أعناب) أي : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا ، كما امتن تعالى بهما على عباده ، فى قوله : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا)[2] ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب)[3] ،

وقوله : (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) ، قال قتادة وغيره : يتشابه فى الورق ، قريب الشكل بعضه من بعض ، ويتخالف فى الثمار شكلا وطعما وطبعا .

وقوله : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) ، أى : نضجه ، قاله البراء بن عازب ، وابن عباس ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، والسدى ، وقتادة ، وغيرهم ، أى : فكروا فى قُدْرَة خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حَطَبًا صار عنباً ورطبا وغير ذلك ، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كما قال تعالى : (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل[4]) ... الآية ، ولهذا قال هاهنا : (إن فى ذلكم لآيات) ، أى : دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته (لقوم يؤمنون) ، أى : يصدقون به ، ويتبعون رسله .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)

هذا رَدّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا فى عبادة الله أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء الله فى العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم .

فإن قيل : فكيف عُبِدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك ، كما قال تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يعبدون إلا شيطانا مريدا . لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)[5] ، وقال تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى[6]) ... الآية ، وقال إبراهيم لأبيه : (يا أبت ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان

---

(١) تفسير الطبرى : ١١/٥٧٥ ، ٥٧٦ . والبيت فى اللسان مادة : قنا . وأثت أعاليه : عظمت والتفت من ثقل حملها . وآدت : تثنت ومالت .

(٢) سورة النحل ، آية : ٦٧ .

(٣) سورة يس ، آية : ٣٤ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٤ .

(٥) سورة النساء ، آية : ١١٧ - ١٢٠ .

(٦) سورة الكهف ، آية : ٥٠ .

كان للرحمن عصيا [١] وقال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم [٢] . وتقول الملائكة يوم القيامة : (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون [٣]) ، ولهذا قال تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) ، أى : وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ، كما قال إبراهيم : (أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون) [٤] .

ومعنى الآية : أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة وحده لا شريك له .

وقوله تعالى : (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) ، ينبه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولداً ، كما يزعم من قاله من اليهود فى العُزَير ، ومن قال من النصارى فى المسيح وكما قال المشركون من العرب فى الملائكة : إنها بنات الله ، (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) .

ومعنى قوله : (وخرقوا) ، أى : واختلقوا وائتفكوا ، وتخرّصوا وكذبوا ، كما قاله علماء السلف .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (وخرقوا) ، يعنى أنهم تخرصوا [٥] .

وقال العوفى ، عنه : (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) ، قال : جعلوا له بنين وبنات [٦] .

وقال مجاهد (وخرقوا له بنين وبنات) ، قال : كذبوا . وكذا قال الحسن : وقال الضحاك : وضعوا ، وقال السدى : قطعوا .

قال ابن جرير : فتأويل الكلام إذاً : وجعلوا لله الجنّ شركاء فى عبادتهم إياه ، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير — (وخرقوا له بنين وبنات) ، [يقول : وتخرصوا لله كذبا ، فافتعلوا له بنين وبنات [٧]] بغير علم بحقيقة ما يقولون ، ولكن جهلا بالله وبعظمته ، وأنه لا ينبغى إن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ، ولا أن يشركه فى خلقه شريك .

ولهذا قال تعالى : (سبحانه وتعالى عما يصفون) ، أى : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد ، والنظراء والشركاء .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٤٤ .

(٢) سورة يس ، آية : ٦٠ ، ٦١ .

(٣) سورة سبأ ، آية : ٤١ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ٩٥ ، ٩٦ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٦٨١ : ١٢/٨ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٦٨٢ : ١٢/٨ .

(٧) سقط من مخطوطة الأزهر والطبعات السابقة ، وأثبتناه من تفسير الطبرى : ١٢/١٠ .

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

(بديع السموات والأرض) ، أى : مبدع السموات والأرض وخالقها ومنشئها على غير مثال سبق ، كما قال مجاهد، والسدى : ومنه سميت البدعة بدعة ، لأنه لا نظير لها فيما سلف .

(أنى يكون له ولد) ، أى : كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة ؟ : أى : والولد إنما يكون متولدا عن شيئين متناسبين ، والله لا يناسبه ولا يشابهه شئ من خلقه ، لأنه خالق كل شئ ، فلا صاحبة له ولا ولد ، كما قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً : لقد جئتم شيئا إدا) ، إلى قوله : (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (١) :

(وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) ، فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ؟ : وهو الذى لا نظير له فأنى يكون له ولد ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى : (ذلكم الله ربكم) ، أى : الذى خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ، (لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) أى : فاعبدوه وحده لاشريك له ، وأقروا له بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل (وهو على كل شيء وكيل) أى : حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ، ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار .

وقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) ، فيه أقوال للأئمة من السلف :

أحدها : لا تدركه فى الدنيا ، وإن كانت تراه فى الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب : فإن الله يقول : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى الضحى ، عن مسروق : ورواه غير واحد [عن مسروق] وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه .

وقد خالفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تذكر فى أول «سورة النجم» إن شاء الله

وقال ابن أبى حاتم : ذكر محمد بن مسلم ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى ، حدثنا يحيى بن معين قال : سمعت إسماعيل بن عُلَيَّة يقول : فى قول الله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ، قال : هذا فى الدنيا ــ قال : وذكر أبى ، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك .

وقال آخرون : (لا تدركه الأبصار) ، أى : جميعها ، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الآخرة .

(١) سورة مريم ، آية: ٨٨ ــ ٩٥ .

وقال آخرون ، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية : أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة : فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك ، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب فقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال تعالى عن الكافرين : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

قال الإمام الشافعى : فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالى .

وأما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد ، وأبى هريرة ، وأنس ، وجرير ، وصهيب ، وبلال ، وغير واحد من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات ، وفى روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

وقيل : المراد بقوله : (لا تدركه الأبصار) ، أى : العقول . رواه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين ، عن الفلاس ، عن ابن مهدى ، عن أبى الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة أنه قال ذلك . وهذا غريب جداً ، وخلاف ظاهر الآية ، وكأنه اعتقد أن الإدراك فى معنى الرؤية ، والله أعلم .

وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك ، فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى ، ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى .

وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم قال الله تعالى : (ولا يحيطون به علما) ، وفى صحيح مسلم : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [1] » ، ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال : لا يحيط [بصر] أحد بالملك [2] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد ، حدثنا أسباط عن سماك ، عن عكرمة ، أنه قيل له : (لا تدركه الأبصار) ؟ قال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : فكلها ترى ؟ .

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) : هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وقال ابن جرير : حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا خالد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو عرفجة ، عن عطية العوفى فى قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) ، قال : هم ينظرون إلى الله ، لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم . فذلك قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار [3]) .

---

(١) مسلم : كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود عن عائشة ٥١/٢ .
(٢) تفسير الطبرى الأثر ١٣٦٩٤ : ١٣/١٢ .
(٣) المصدر السابق الأثر ١٣٦٩٦ : ١٤-١٣/١٢ .

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبى حاتم ها هنا ، فقال :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا منجاب بن الحارث السهمى ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ، قال : « لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فَنُوا صُفّوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبدا » .

غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة ، والله أعلم .

وقال آخرون فى : (لا تدركه الأبصار) بما رواه الترمذى فى جامعه ، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة » له ، وابن أبى حاتم فى تفسيره ، وابن مردويه أيضا ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث الحكم بن أبان قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد ربه تبارك وتعالى . فقلت : أليس الله يقول : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ؟ : : الآية ؟ فقال : لى : لا أمّ لك . ذاك نوره ، الذى(١) هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شئ . وفى رواية : لا يقوم له شئ .

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٢) .

وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ــ أو : النار ــ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه(٣) » .

وفى الكتب المتقدمة : إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ، إنه لا يرانى حىّ إلا مات ولا يابس إلا تدهده . أى تدعثر(٤) . وقال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين) .

ونفى هذا [الأثر] الإدراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة ، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه ــ تعالى وتقدس وتنزه ــ فلا تدركه الأبصار . ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفيها فى الدنيا ، وتحتج بهذه الآية : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ــ فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فان ذلك غير ممكن للبشر ، ولا للملائكة ، ولا لشئ .

---

(١) لفظ المستدرك : « ذاك نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء » .

(٢) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣٠٦/٢ . وقد رواه الترمذى فى تفسير سورة النجم . ينظر تحفة الأحوذى : ١٦٨/٩.

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام » : ١١١/١ . ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، الحديث ١٩٥ : ٧٠/١ . وأحمد فى مسنده : ٤٠١/٤ ، ٤٠٥ . ولم يقع لنا هذا الحديث فى صحيح البخارى .

والقسط : الميزان . أراد أن الله يخفض ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه ، وأرزاقهم النازلة عنده ، كما يرفع الوزان يده ويخفضها عند الوزن ، وهو تمثيل لما يقدره الله وينزله .

(٤) تدعثر : تهدم .

وقوله : (وهو يدرك الأبصار) أى : يحيط بها ويعلمها على ما هى عليه ، لأنه خلقها كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق هو اللطيف الخبير)(١) :

وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين كما قال السدى فى قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) : لا يراه شئ وهو يرى الخلائق(٢) :

وقال أبو العالية فى قوله : (وهو اللطيف الخبير) : اللطيف باستخراجها ، الخبير بمكانها (٣) . والله أعلم :

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : (يا بنى ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير) (٤) .

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

البصائر : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . (فمن أبصر فلنفسه) مثل قوله : (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها) (٥) . ولهذا قال : (ومن عمى فعليها) ، لما ذكر البصائر قال : (ومن عمى فعليها) أى : فإنما يعود وبال ذلك عليه ، كقوله : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٦) .

(وما أنا عليكم بحفيظ) ، أى : بحافظ ولا رقيب ، بل أنا مبلغ والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء :

وقوله : (وكذلك نصرف الآيات) أى : وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة ، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو ، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دارستَ يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم .

هكذا قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير والضحاك ، وغيرهم (٧) :

وقد قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا أبى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عمرو ابن كيسان سمعت ابن عباس يقرأ : (دارست) تلوتَ ، خاصمتَ ، جادلتَ(٨) .

---

(١) سورة الملك ، آية : ١٤ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٦٩٧ : ١٢/١٦ .
(٣) المصدر السابق ، الأثر ١٣٧٠٢ : ١٢/٢٣ .
(٤) سورة لقمان ، آية : ١٦ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .
(٦) سورة الحج ، آية : ٤٦ .
(٧) ينظر آثارهم فى تفسير الطبرى : ١٢/٢٨ ، ٢٩ .
(٨) هذا الأثر رواه الطبرى عن الحسن بن يحيى ، عن عبد الرزاق ، عن سفيان بن عيينة ، باسناده مثله . ينظر الأثر ١٣٧١٩ : ١٢/٢٨ ، ٢٩ .

وهذا كما قال تعالى إخبارا عن كذبهم وعنادهم : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها [1]) . . . الآية . وقال تعالى إخبارا عن زعيمهم وكاذبهم : (إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر [2]) .

وقوله : (ولنبينه لقوم يعلمون) أى : ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه . فلله تعالى الحكمة [البالغة] فى إضلال أولئك ، وبيان الحق لهؤلاء . كما قال تعالى : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) الآية[3] وقال تعالى : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم [4]) ، وقال تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو)[5] ، وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً [6]) . وقال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عَمَى ، أولئك ينادون من مكان بعيد)[7] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هُدًى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدى من يشاء . ولهذا قال ها هنا : (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا : دارست ولنبينه لقوم يعلمون) ، وقرأ بعضهم : (وليقولوا درست) :

قال التميمى ، عن ابن عباس: درست ، أى : « قرأت وتعلمت[8] » . وكذا قال مجاهد ، والسدى ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، قال الحسن : (وليقولوا دَرَسَتْ) ، يقول : تقادمت وانمحت .

وقال عبد الرزاق أيضاً : أنبأنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، سمعت [ابن] الزبير يقول : إن صبيانا يقرءون هاهنا : (دَرَسَتْ) ، وإنما هى (دَرَسْتَ[9]) .

وقال شعبة : حدثنا أبو إسحاق الهمدانى قال : فى قراءة ابن مسعود (دَرَسَتْ) ، بغير ألف ، بنصب السين ، ووقف على التاء[10] .

وقال ابن جرير : ومعناه انمحت وتقادمت ، أى : إن هذا الذى تتلوه علينا قد مر بنا قديماً ، وتطاولت مدته .

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٤ ، ٥ .
(٢) سورة المدثر ، آية : ١٨ — ٢٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة الحج ، آية : ٥٣ .
(٥) سورة المدثر ، آية : ٣١ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .
(٧) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٠٨ : ١٢/ ٢٧ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٣٣ : ١٢/ ٣٠ .
(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٧٣٢ : ١٢/ ٣٠ ، ومعنى الوقف : السكون ، يعنى سكون التاء .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة أنه قرأها : (دُرِسَتْ) ، أي : قُرِئت وتُعُلِّمت .

وقال معمر ، عن قتادة : (دُرِسَتْ) : قرئت. وفي حرف ابن مسعود (دَرَسَ)(١).

وقال عبيد القاسم بن سلام ، حدثنا حجاج ، عن هارون قال : هي في حرف أبي بن كعب وابن مسعود : (وليقولوا دَرَس) ، قال : يعنون النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ .

وهذا غريب ، فقد روى عن أبي بن كعب خلاف هذا ، قال أبو بكر بن مردويه :

حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا الحسن بن الليث ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا أحمد بن أبي بزة المكي ، حدثنا وهب بن زمعة ، عن أبيه ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وليقولوا دَرَسْتَ) .

ورواه الحاكم في مستدركه ، من حديث وهب بن زمعة ، وقال : يعني بجزم السين ، ونصب التاء ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٢) .

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن اتّبع طريقته: (اتبع ما أوحي إليك من ربك) ، أي : اقتد به ، واقتف أثره ، واعمل به ؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه ، لأنه لا إله إلا هو .

(وأعرض عن المشركين) ، أي : اعف عنهم واصفح ، واحتمل أذاهم ، حتى يفتح الله لك وينصرك ويُظْفِرك عليهم . واعلم أن لله حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً .

(ولو شاء الله ما أشركوا) ، أي : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وقوله : (وما جعلناك عليهم حفيظاً) ، أي : حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم . (وما أنت عليهم بوكيل) ، أي : موكل على أرزاقهم وأمورهم . (إن عليك إلا البلاغ) ، كما قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر(٣)) ، وقال : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤)) .

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسبّ إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . كما قال علي بن أبي

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٧٣٠ : ٣٠/١٢ .

(٢) المستدرك ، كتاب التفسير ، القراءات : ٢٣٨/٢ ، ٢٣٩ .

(٣) سورة الغاشية ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : « قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربك . فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ، (فيسبوا الله عدواً بغير علم)(١) » .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم ، فأنزل الله : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) .

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن السدى أنه قال فى تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموتُ قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : « كان يمنعه فلما مات قتلوه » ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمية ، وأُبَىّ ابنا خلف ، وعقبة ابن أبى معيط ، وعمرو بن العاص ، والأسود بن البَخْتَرى ، وبعثوا رجلا منهم يقال له : « المطلب » ، قالوا : استأذن لنا على أبى طالب . فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه ، فدخلوا عليه فقالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ، ولندَعْه وإلهه . فدعاه فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ، ولندَعْك وإلهك . [قال له أبو طالب : قد أنصفك قومك ، فأقبل منهم] فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أعطيتكم هذا ، هل أنتم معطىّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ، [وأدت لكم] الخراج ؟ قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، فما هى ؟ قال : قولوا : لا إله إلا الله . فأبوا واشمأزوا . قال أبو طالب : يا ابن أخى ، قل غيرها ، فإن قومك قد فزعوا منها . قال : ياعم ، ما أنا بالذى أقول غيرها ، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدى ، ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها : إرادةَ أن يُؤيِسَهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو لنشتمنك ونشتمُ من يأمرك ؛ فذلك قوله : (فيسبوا الله عدواً بغير علم)(٢) .

ومن هذا القبيل — وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها — ما جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ملعون من سب والديه . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه ؟ : قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه (٣) . أو كما قال عليه السلام .

وقوله تعالى : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) ، أى : وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره : (ثم إلى ربهم مرجعهم) ، أى : معادهم ومصيرهم ، (فينبئهم بما كانوا يعملون) ، أى : يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر (٤) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٣٨ : ١٢/٣٣ ، ٣٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٢٧٤٠ : ١٢/٣٤ ، ٣٥ .وما بين الأقواس سقط من المخطوطة أثبتناه من هذا المصدر .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ١/٦٤ ، ٦٥ . ومسند أحمد عن عبد الله بن عمرو : ٢/١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .

(٤) نهت هذه الآية — كما ترى — عن سب آلهة المشركين حتى يردوا بالمثل ، فيسبوا الله عدوا بغير علم . وأوضحت فى التعليل لهذا النهى أن كل أمة معجبة بعملها مفتونة به ، تراه جميلا وإن كان فى ذاته قبيحاً .والآية بهذا توصى المختلفين فى الآراء أن يتحاكموا إلى الحجة والدليل ، لا إلى المهاترات والمخاصمات .ولو أن المسلمين فقهوا جيداً معنى هذه الآية لما رأيت هذا السباب الذى تراشقت به فرقهم وطوائفهم ، حتى لقد كان يرى بعضهم بعضاً بأوصاف أقلها الجهل والغباء وعدم الفهم .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَٰتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

يقول تعالى إخبارا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، أى : حلفوا أيماناً مؤكدة (لئن جاءتهم آية) أى : معجزة وخارق (ليؤمنن بها) ، أى : ليصدقنها ، (قل إنما الآيات عند الله) ، أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفرا وعنادا ، لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء أجابكم ، وإن شاء ترككم ، كما قال ، قال ابن جرير :

حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظى قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ، فقالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ شىء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفَا ذهبا . فقال لهم : فإن فعلت تصدقونى؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له [لك] ما شئت ، إن شئت أصبح الصفا ذهبا ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم . [فقال : بل يتوب تائبهم . فأنزل الله (وأقسموا بالله) إلى قوله : (يجهلون (١))]

وهذا مرسل ، وله شواهد من وجوه أخر . وقال الله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) ... الآية (٢) .

وقوله تعالى : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) ، قيل : المخاطب بـ (ما يشعركم) المشركون . وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم : وما يدريكم بصدقكم فى هذه الأيمان التى تقسمون بها . وعلى هذا فالقراءة : (إنها (٣) إذا جاءت لا يؤمنون) ، بكسر « إنها » على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجىء الآيات التى طلبوها ، وقراءة بعضهم(أنها إذا جاءت لا تؤمنون) بالتاء المثناة من فوق .

وقيل : المخاطب بقوله (وما يشعركم) المؤمنون أى : وما يدريكم أيها المؤمنون ، وعلى هذا فيجوز فى : (انها) الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم . وعلى هذا فتكون « لا » فى قوله : (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) صلة (٤) كما فى قوله : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك (٥) وقوله : (وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) (٦)

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٤٦ : ١٢/ ٣٨ ، ٣٩ . وما بين القوسين عنه . ومكانه فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب « ا » تفسير ، ٣/ ٥٧ : « لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ... إلى قوله يعمهون » .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .

(٣) ينظر القراءات فى هذه الآية فى البحر المحيط : ٤ / ٢٠١ .

(٤) صلة : زائدة .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٢ .

(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٩٥ .

أى : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون . وتقديره فى هذه الآية : وما يدريكم ــ أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم ــ أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون .

وقال بعضهم : « أنها » بمعنى لعلها .

قال ابن جرير : وذكروا أن ذلك كذلك فى قراءة أبىّ بن كعب ــ قال : وقد ذكر عن العرب سماعا : « اذهب إلى السوق أنك تشترى لى شيئاً » بمعنى : لعلك تشترى .

قال وقد قيل : إن قول عدى بن زيد العبادى من هذا :

أعاذل ، ما يُدْرِيكَ أنّ مَنِيَّتِى • إلى سَاعَةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله أعلم (١) .

وقوله تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) . قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شىء وردّت عن كل أمر (٢) .

وقال مجاهد : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) : ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية ، فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة (٣) .

وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس أنه قال : أخبر الله ما العبادُ قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه . قال : ولا ينبئك مثل خبير : (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) إلى قوله (لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) ، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقْدِروا على الهدى ، وقال : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) ، قال : لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى ، كما حلْنا بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا (٤) .

وقوله : (ونذرهم) ، أى : نتركهم (فى طغيانهم) . قال ابن عباس والسدى ، فى كفرهم .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة : فى ضلالهم .

(يعمهون) قال الأعمش : يلعبون . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية ، والربيع ، وأبو مالك ، وغيره : فى كفرهم يترددون .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢ / ٤١ / ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ، الأثر ١٣٧٥١ : ١٢ / ٤٤ .
(٣) المصدر السابق ، الأثر ١٣٧٥٣ : ١٢ / ٤٤ .
(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٣٧٥٤ : ١٢/٤٤ ، ٤٥ .

* ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم : ﴿ لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، فنزلنا عليهم الملائكة ، أى تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا : ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (١) ﴾ و ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل (٢) الله ﴾ ﴿ وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا (٣) كبيرا ﴾ .

﴿ وكلمهم الموتى ﴾ ، أى : فأخبروهم بصدق ماجاءتهم به الرسل ، ﴿ وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا ﴾ — قرأ بعضهم ﴿ قِبَلا ﴾ ، بكسر القاف وفتح الباء ، من المقابلة ، والمعاينة . [وقرأ آخرون : بضمها ، قيل : معناه من المقابلة والمعاينة] أيضا ، كما رواه على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس . وبه قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم

وقال مجاهد ﴿ قُبُلا ﴾ أفواجا ، قبيلا قبيلا ، أى : تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلاأن يشاء الله ﴾ ، أى : إن الهداية إليه، لا إليهم . بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه وحكمته ، وسلطانه وقهره وغلبته . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (٤) ﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا لك — يامحمد — أعداء يخالفونك ، ويعادونك ، جعلنا لكل نبى من قبلك أيضا أعداء فلا يَهِيدنَّك (٥) ذلك ، كما قال تعالى ، : ﴿ فإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك (٦) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ماكذبوا (٧) وأوذوا ﴾ . . . الآية، وقال تعالى : ﴿ مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك

(١) سورة الإسراء ، آية ٩٢ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٢١ .
(٤) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .
(٥) ينظر تفسير هذه الكلمة فيما مضى : ١ / ٣٢١ ، ٢ / ١٥٤ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٨٤ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٣٤ .

لذو مغفرة وذو عقاب أليم[1]) ، وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من [2] المجرمين) : . الآية

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يأت أحد بمثل ماجئت به [3] إلا عودى »

وقوله : (شياطين الإنس والجن) بَدَل من (عدوا) ، أى : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، من هؤلاء وهؤلاء ، قبحهم الله ولعنهم

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله (شياطين الإنس والجن) ، قال : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض ـ قال قتادة : وبلغنى أن أبا ذر كان يوما يصلى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَعَوّذْ ياأبا ذر من شياطين الإنس والجن . فقال : أوَ إن من الإنس (شياطين) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم [4]

وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر : وقد روى من وجه آخر عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال ابن جرير :

حدثنى المثنى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن أبى عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة ، عن ابن عائذ ، عن أبى ذر قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس قد أطال فيه الجلوس ، قال ، فقال : ياأبا ذر ، هل صليت ؟ قال : لا ، يارسول الله . قال : قم فاركع ركعتين . قال : ثم جئت فجلستُ إليه ، فقال : ياأبا ذر ، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس ؟ قال قلت : لا ، يارسول الله ، وهل للانس من شياطين ؟ قال : نعم ، هم شر من شياطين الجن » [5] .

وهذا أيضا فيه انقطاع ، وروى متصلا كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا المسعودى ، أنبأنى أبو عمر الدمشقى ، عن عبيد بن الخشخاش عن أبى ذر قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد ، فجلست فقال : ياأبا ذر ، هل صليتَ ؟ قلت : لا . قال : قم فصل . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال ياأبا ذر ، تعوذ بالله من [شر] شياطين الإنس والجن . قال قلت : يارسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : نعم وذكر تمام الحديث [6] بطوله

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره ، من حديث جعفر بن عون ويعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى ، ثلاثتهم عن المسعودى ، به .

طريق أخرى عن أبى ذر : ، قال ابن جرير : حدثنى المثنى ، حدثنا الحجاج حدثنا حماد ، عن حميد بن هلال ، حدثنى رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياأبا ذر ، هل

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٣١ .

(٣) البخارى ، باب بدء الوحى : ١/ ٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحى : ١/ ٩٨ . ومسند أحمد عن عائشة : ٦ / ٢٢٣ ، ٢٣٣ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٧١ : ١٢ / ٥٥ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٦٩ : ١٢ / ٥٣ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٧٨ .

تعوذت بالله من [شر] شياطين الإنس والجن ؟ قال قلت : يا رسول الله ، هل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم [١] .

طريق أخرى للحديث ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان ابن رفاعة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر ، تعوذتَ من شياطين الجن والإنس ؟ قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين؟ قال : نعم (شياطينَ الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا) .

فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم .

وقد روى ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو نعيم ، عن شريك ، عن سعيد بن مسروق ، عن عكرمة : (شياطين الإنس والجن) ، قال : ليس فى الإنس شياطين ، ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن .

قال : وحدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا إسرائيل ، عن السدى ، عن عكرمة فى قوله : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) . قال : للإنسى شيطان ، وللجنى شيطان ، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن ، فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا [٢] .

وقال أسباط ، عن السدى ، عن عكرمة فى قوله : (يوحى بعضهم إلى بعض) فى تفسير هذه الآية : أما شياطين الإنس ، فالشياطين التى تضل الإنس — وشياطين الجن الذين يضلون الجن ، يلتقيان ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : إنى أضللت صاحبى بكذا وكذا ، فأضْلِل أنت صاحبك بكذا وكذا ، فيعلم بعضهم بعضا [٣] .

ففهم ابن جرير من هذا [أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدى : الشياطين من الجن الذين يضلون الناس ، لا أن المراد [٤]منه] شياطين الإنس منهم . ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة ، وأما كلام السدى فليس مثله فى هذا المعنى ، وهو محتمل ، وقد روى ابن أبى حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك ، عنه — قال : إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم ، قال : فيلتقى شياطين الإنس وشياطين الجن ، فيقول هذا لهذا : أضلله بكذا ، أضلله بكذا . فهو قوله : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) .

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبى ذر : إن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شىء مارده ، ولهذا جاء فى صحيح مسلم، عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكلب الأسود شيطان[٥] » . ومعناه — والله أعلم — شيطان . فى الكلاب .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٦٨ ؛ ١٢ / ٥٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٧٦٦ ، ١٣٧٦٧ : ١٢ / ٥٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٦٥ : ١٢ / ٥١ ، ٥٢ .

(٤) نص مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب « ١» تفسير ٣ ورقة ٥٩ : « فهم ابن جرير من هذا أنهم المراد من شياطين الإنس منهم » والمثبت عن الطبعات السابقة ولا يستقيم النص إلا به .

(٥) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب قدر ما يستر المصلى : ٢ / ٥٩ .

وقال ابن جريج : قال مجاهد فى تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس ، كفار الإنس ، زخرفَ القول غرورا [(١)] .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كاد يتعاهد مبيتى بالليل ، قال : فقال لى : اخرج إلى الناس فحدث الناس ، قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول فى الوحى ؟ فقلت : الوحى وحيان ، قال الله تعالى : (بما أوحينا إليك هذا القرآن) ، وقال تعالى : (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) ، قال : فهموا بى أن يأخذونى ، فقلت : ما لكم ذاك ، إنى مفتيكم وضيفكم . فتركونى .

وإنما عرَّض عكرمة بالمختار — وهو ابن أبى عبيد — قبحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحى ، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق الله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) ، وقوله تعالى : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) ، أى : يلقى بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق [الذى] يغتر سامعه من الجهلة بأمره .

(ولو شاء ربك مافعلوه) ، أى : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبىّ عدوّ من هؤلاء .

(فذرهم) ، أى : فدعهم ، (وما يفترون) ، أى : يكذبون . أى : دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم ، فان الله كافيك وناصرك عليهم .

وقوله تعالى : (ولتصغَى إليه) ، أى : ولتميل إليه [(٢)] — قاله ابن عباس — (أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) ، أى : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم .

وقال السدى : قلوب الكافرين ، (وليرضوه) ، أى : يحبوه ويريدوه . وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : (فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم [(٣)]) ، وقال تعالى : (إنكم لفى قول مختلف . يؤفك عنه من أفك [(٤)]) .

وقوله : (وليقترفوا ماهم مقترفون) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : وليكتسبوا ماهم مكتسبون [(٥)] .

وقال السدى ، وابن زيد : وليعملوا ماهم عاملون [(٦)] .

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المشركين بالله غيره الذين يعبدون غيره : (أفغير الله أبتغى

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٧٣ ؛ ١٢ / ٥٥ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٨٢ : ١٢ / ٥٨ .
(٣) سورة الصافات ، آية : ١٦١ / ١٦٣ .
(٤) سورة الذاريات ، آية : ٨ ، ٩ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٨٥ : ١٢ / ٥٩ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٨٦ ، ١٣٧٨٧ : ١٢ / ٦٠ .

حكما) ، أي : بيني وبينكم ، (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا) ، أي : مبينا (والذين آتيناهم الكتاب) ، أي : من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، (فلاتكونن من الممترين) ، كقوله : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)(١) . وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وقوله : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) ، قال قتادة : صدقا فيما قال ، وعدلا فيما حكم (٢) .

يقول : صدقا في الإخبار وعدلا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لامرية [فيه] ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل مانهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، كما قال : (يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر (٣)) إلى آخر الآية .

(لا مبدل لكلماته) ، أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ، (وهو السميع) لأقوال عباده، (العليم) بحركاتهم وسكناتهم ، الذي يجازي كل عامل بعمله .

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال ، كما قال تعالى : (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين (٤)) ، وقال تعالى : (وما أكثر الناس - ولو حرصت - بمؤمنين(٥)) ، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون)،فإن الخرص هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر . وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ، و (هو أعلم من يضل عن سبيله) فييسره لذلك (وهو أعلم بالمهتدين) فييسره لذلك ، وكل ميسر لما خلق له .

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه : أنه لا يباح مالم يذكر اسم الله عليه،

(١) سورة يونس ، آية : ٩٤ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٧٨٩ : ١٢ / ٦٣ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٤) سورة الصافات آية ٧١ .
(٥) سورة يوسف آية ١٠٣ .

كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات ، وأكل ماذبح على النصب وغيرها ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، فقال : (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم) ، أى : قد بيَّن لكم ما حرم عليكم ووضحه .

وقرأ بعضهم (فَصَّل) بالتشديد ، وقرأ آخرون [1] بالتخفيف ، والكل بمعنى البيان والوضوح .

(إلا ما اضطررتم إليه) ، أى : إلا فى حال الاضطرار ، فإنه يباح لكم ما وجدتم .

ثم بين تعالى جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة ، فى استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى : فقال : (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ، أى : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

﴿ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قال مجاهد : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) : معصيته فى السر والعلانية [2] – وفى رواية عنه : هو ما ينوي مما هو عامل [3] .

وقال قتادة : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) ، أى قليله وكثيره ، سره وعلانيته . [4] .

وقال السدى : ظاهره : الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخليلة والصدائق والأخدان [5] .

وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم .

والصحيح أن الآية عامة فى ذلك كله ، وهى كقوله تعالى : (قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[6] ... الآية ، ولهذا قال تعالى : (إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) ، أى : سواء كان ظاهرا أو خفيا ، فإن الله سيجزيهم عليه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال : « الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع الناس عليه » [7] .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها ، ولو كان الذابح مسلما ، وقد اختلف الأئمة – رحمهم الله – فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

---

(١) قراءة التخفيف هى قراءة عطية العوفى . ينظر تفسير الطبرى : ١٢ / ٧٠ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٤ / ٢١١ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٩٨ : ١٢ / ٧٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٩٩ : ١٢ / ٧٣ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٧٩٤ : ١٢ / ٧٢ .

(٥) أثر السدى كما فى تفسير الطبرى ١٣٨٠١ / ١٢ / ٧٤ : « أما ظاهره فالزوانى فى الحوانيت ، وأما باطنه فالصديقة يتخذها الرجل فيأتيها سرا » .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ٣٣ .

(٧) رواه مسلم فى كتاب البر ، باب تفسير البر والإثم ، عن محمد بن حاتم ، عن ابن مهدى ، بإسناده : ٨ / ٦ ، ٧ . ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى ، بإسناده مثله : ٤ / ١٨٢ .

فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً : وهو مروى عن ابن عمر ، ونافع مولاه ، وعامر الشعبي ، ومحمد بن سيرين . وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبي ثور ، وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد ابن على الطائي[1] ، من متأخرى الشافعية فى كتابه « الأربعين » ،واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية ، وبقوله فى آية الصيد : (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) : [2] ثم قد أكد فى هذه الآية بقوله : (وإنه لفسق) : والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله — وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ، كحديثي عدى بن حاتم وأبي ثعلبة : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك[3] » : وهما فى الصحيحين — وحديث رافع بن خديج : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه [4] » . وهو فى الصحيحين أيضاً — وحديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للجن : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » [5]. رواه مسلم : وحديث جُنْدَب ابن سفيان البَجَلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى : ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله [6] » : أخرجاه — وعن عائشة رضى الله عنها أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى : أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه أنتم وكلوا — قالت : وكانوا حديثى عهد بالكفر . رواه البخارى [7] .

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد ، والله أعلم .

والمذهب الثانى فى المسألة : أنه لا يشترط التسمية ، بل هى مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لم تضر : وهذا مذهب الإمام الشافعى رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد . نقلها عنه حنبل [8] . وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، وعطاء بن أبى رباح ، والله أعلم .

وحمل الشافعى الآية الكريمة : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى : (أو فسقا أهل لغير الله به [9]) .

---

(١) ترجم له الذهبى فى العبر ، وذكر كتابه الأربعين ، وقال إنه توفى فى شوال سنة ٥٥٥ عن ٨٥ سنة . العبر : ٤ / ١٥٩ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٤ .

(٣) نص تخريج هذا الحديث فى سورة المائدة ، عند هذه الآية ، ينظر : ٣ / ٣١ : ٣٢ .

(٤) البخارى ، الشركة ، باب قسمة الغنم : ٣ / ١٨١ ، وباب من عدل عشرا من الغنم بجزور فى القسم : ٣ / ١٨٥ ، ١٨٦ وكتاب الجهاد ، باب ما يكره من ذبح الإبل والغنم فى المغانم : ٤ / ٩١ . وكتاب الذبائح ، باب ما أنهر الدم من القصب والمروة والحديد : ٧ / ١١٩ ، وباب لا يذكى بالسن والعظم والظفر . ٧ / ١١٩ ، ١٢٠ ، وباب ما ند من البهائم فهو بمنزلة الوحش : ٧ / ١٢٠ . ومسلم ، كتاب الأضاحى ، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام : ٦ / ٧٨ .

(٥) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن : ٢/٣٦ .

(٦) البخارى ، كتاب الذبائح ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « فليذبح على اسم الله » : ٧/١١٨ . ومسلم ، كتاب الأضاحى ، باب وقتها : ٦/٧٣ ، ٧٤ .

(٧) البخارى ، كتاب الذبائح ، باب ذبيحة الأعراب ونحوهم : ٧ / ١٢٠ .

(٨) هو حنبل بن إسحاق . ينظر التهذيب : ١ / ٧٢ .

(٩) سورة الأنعام ، آية : ١٤٥ .

وقال ابن جريج ، عن عطاء : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان وينهى عن ذبائح المجوس . وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل « الواو » فى قوله : « وإنه الفسق » حالية ، أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ، ولا يجوز أن تكون « الواو » عاطفة . لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية . وهذا ينتقض عليه بقوله : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) ، فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت « الواو » التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها ، فان عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن « الواو » حالية بطل ما قال من أصله ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أنبأنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، قال : هى الميتة .

ثم رواه ، عن أبى زرعة ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن ابن لهيعة ، عن عطاء ــ وهو ابن السائب ــ به .

وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل ، من حديث ثور بن يزيد ، عن الصلت السدوسى ــ مولى سويد بن منجوف ، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » .

وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : « إذا ذبح المسلم ــ ولم يذكر اسم الله ــ فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله (١) » .

واحتج البيهقى أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها المتقدم أن [ناسا قالوا : يا رسول الله ، إن] قوما حديثى عهد بجاهلية يأتونا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا أنتم وكلوا . قال : فلو كان وجود التسمية شرطا لم يرخص لهم إلا مع تحققها ، والله أعلم .

المذهب الثالث فى المسألة : إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر ، وإن تركها عمداً لم تحل .

هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه . وهو محكى عن على ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وطاوس ، والحسن البصرى ، وأبى مالك ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وجعفر بن محمد ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن .

ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه « الهداية » الإجماع ــ قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع .

وهذا الذى قاله غريب جداً ، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعى ، والله أعلم .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : من حرم ذبيحة الناسى ، فقد خرج من قول جميع الحجة ، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك (٢) .

---

(١) سنن الدارقطنى ، ط دار المحاسن ، باب الصيد والذبائح : ٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٢ / ٨٥ .

يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو عباس الأصم ، حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا معقل بن عبيد الله ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المسلم يكفيه اسمه ، إن نسى أن يسمى حين يذبح ، فليذكر اسم الله وليأكله » .

وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزيري ، فإنه ــ وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد ابن منصور ، وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن أبي الشعثاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، من قوله . فزادا في إسناده « أبا الشعثاء » ، ووقفا ، والله أعلم ، وهذا أصح ، نص عليه البيهقي .

وقد نقل ابن جرير وغيره . عن الشعبي ومحمد بن سيرين ، أنهما كرها متروك التسمية نسياناً ، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرا والله أعلم ؛ إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور ، فيعده إجماعا ، فليعلم هذا ، والله الموفق .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو أسامة ، عن جَهير بن يزيد قال : سئل الحسن ، سأله رجل أتيت بطير كَرَىً (١) ، فمنه ماقد ذبح فذكر اسم الله عليه ، ومنه مانسى أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير ، فقال الحسن : كله ، كله . قال : وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) .

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه ، عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي ذر ، وعقبة ابن عامر ، وعبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه (٢) » ــ وفيه نظر ، والله أعلم .

وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى ، من حديث مروان بن سالم القَرْقسانى ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسم الله على كل مسلم .

ولكن هذا إسناده ضعيف ، فإن مروان بن سالم القرقسانى أبا عبد الله الشامى ، ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة ، وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ، ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات ، والله أعلم .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به . وعلى هذا قول عامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصرى وعكرمة . ما حدثنا به ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال الله : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) وقال : (ولا تأكلوا

---

(١) فى المخطوطة : بطير كذا » ، والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٢٨ / ١٢ / ٨٤ . قال السيد المحقق : « كرى » بفتحتين . جمع الكروان . وهو طائر بين الدجاجة والحمامه حسن الصوت ، يؤكل لحمه .

(٢) ينظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسى : ١ / ٦٥٩ .

مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ، فنسخ واستثنى من ذلك ، فقال : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم [١]) .

وقال ابن أبي حاتم : قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرنى النعمان ــ يعنى ابن المنذر ــ عن مكحول قال : أنزل الله فى القرآن : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) ، فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه [٢] .

وهذا الذى قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو بكر ابن عياش ، عن أبي إسحاق قال : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه ؟ قال : صدق ، وتلا هذه الآية : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) .

وحدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن أبي زميل قال : كنت قاعدا عند ابن عباس ، وحج المختار بن أبي عبيد ، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، وزعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة ؟ . فقال ابن عباس : صدق ، فنفرت وقلت : يقول ابن عباس صدق ؛ فقال ابن عباس : هما وحيان ، وحى الله ، ووحى الشيطان ، فوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووحى الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ : (وإن الشيطان ليوحون إلى أوليائهم) .

وقد تقدم عن عكرمة فى قوله : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) نحو هذا .

وقوله (ليجادلوكم) ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير قال : خاصمت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نأكل مما قتلنا ، ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) .

هكذا رواه مرسلا ، ورواه أبو داود متصلا فقال :

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟. فأنزل الله : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ... الآية [٣] .

وكذا رواه ابن جَرير ، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وكيع كلاهما عن عمران بن عيينة ، به [٤] .

ورواه البزار عن محمد بن موسى الحَرَشى ، عن عمران بن عيينة ، به . وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٣٥ : ١٢ / ٨٧ .
(٢) المصدر السابق : ١٢ / ٨٨ .
(٣) مسند أبي داود ، كتاب الأضاحى ، باب فى ذبائح أهل الكتاب ، الحديث ٢٨١٩ : ٣/١٠١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٢٥ : ٨/٢١٢ .

أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام ، وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي عن محمد بن موسى الحَرَشي ، عن زياد بن عبد الله البكائي ، عن عطاء ابن السائب ، عن سعيد بن جبير ، [عن ابن عباس . ورواه الترمذي بلفظ : « أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم.. » فذكره وقال: حسن غريب ، ورُوى عن سعيد بن جبير] مرسلا(١)

وقال الطبراني : حدثنا علي بن المبارك ، حدثنا زيد بن المبارك ، حدثنا موسى بن عبد العزيز ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، أرسلت فارس إلى قريش : أن خاصموا محمداً وقولوا له : كَمَا تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله عز وجل بشمشير (٢) من ذهب — يعني الميتة — فهو حرام . فنزلت هذه الآية : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) قال : الشياطين من فارس ، وأولياؤهم قريش .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا إسرائيل ، حدثنا سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : (وإن الشياطين ليوحُونَ إلى أوليائهم) ، يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ، فأنزل : الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم عليه)(٣) .

ورواه ابن ماجه(٤) وابن أبي حاتم ، عن عمرو ، بن عبد الله ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، به : وهذا إسناد صحيح . ورواه ابن جرير من طرق متعددة ، عن ابن عباس ، وليس فيه ذكر اليهود ، فهذا هو المحفوظ ، والله أعلم .

وقال ابن جُرَيج : قال عمرو بن دينار ، عن عكرمة : إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبتهم فارس وكتبت فارس إلى مشركي قريش : « إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكله [محمد وأصحابه — للميتة](٥) وما ذبحوا هم يأكلون . فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين [من ذلك شيء ، فأنزل الله : (وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون)] الآية ونزلت : (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) (٦) .

وقال السدي في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا للمؤمنين : كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله ، وما ذبح الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؟ فقال الله : (لئن أطعتموهم) فأكلتم الميتة ، (إنكم لمشركون)(٧) .

وهكذا قاله مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد من علماء السلف ، رحمهم الله .

---

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنعام ، الحديث ٥٠٦٤ : ٤٤٥/٨ ، ٤٤٦ .

(٢) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب (١) تفسير . وفي الدر المنثور ٤٢/٣ : « بتمسار » .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأضاحي ، باب في ذبائح أهل الكتاب ، الحديث ٢٨١٨ : ١٠١/٣ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الذبائح ، باب التسمية عند الذبح ، الحديث ٣١٧٣ : ١٠٥٩/٢ .

(٥) عن تفسير الطبري .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٠٦ : ٧٨/١٢ .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٢١ : ٨١/١٢ .

وقوله تعالى : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) ، أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك ، كما قال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (١) ... الآية . وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، فقال : بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم (٢) .

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتا ، أى : فى الضلالة ، هالكا حائرا ، فأحياه الله ، أى : أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ووفقه لاتباع رسله . (وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) ، أى : يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف به . والنور هو : القرآن ، كما رواه العوفى وابن أبى طلحة ، عن ابن عباس (٣) . وقال السدى : الإسلام (٤) . والكل صحيح .

(كمن مثله فى الظلمات) ، أى : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ، (ليس بخارج منها) ، أى : لا يهتدى إلى منفذ ، ولا مخلص مما هو فيه ، كما قال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٥) . وقال تعالى : (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم (٦) ، وقال تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون (٧) ، وقال تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير (٨) . والآيات فى هذا كثيرة ، ووجه المناسبة فى ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات ، ما تقدم فى أول السورة : (وجعل الظلمات والنور) .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٣١ .

(٢) نص رواية الترمذى ، كما فى تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ٨/٤٩٢ : « قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٤٣ : ١٢/٩١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٤٥ : ١٢/٩١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ . وينظر : ١/٤٦٢ وما بعدها .

(٦) سورة الملك ، آية : ٢٢ .

(٧) سورة هود ، آية : ٢٤ .

(٨) سورة فاطر ، الآيات : ١٩ - ٢٢ .

وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان ، فقيل : عمر بن الخطاب هو الذى كان ميتاً فأحياه الله ، وجعل له نورا يمشى به فى الناس . وقيل : عمار بن ياسر : وأما الذى فى الظلمات ليس بخارج منها : أبو جهل عمرو بن هشام ، لعنه الله . والصحيح أن الآية عامة ، يدخل فيها كل مؤمن وكافر .

وقوله تعالى : (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) ، أى : حسنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة ، قدرا من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا فى قريتك ــ يا محمد ــ أكابر من المجرمين ، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله ، وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) (١) ... الآية ، وقال تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) (٢) الآية ، قيل : معناه أمرناهم بالطاعات ، فخالفوا ، فدمرناهم . وقيل : أمرناهم أمرا قدريا ، كما قال هاهنا : (ليمكروا فيها) .

وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : (أكابر مجرميها) ، قال : سلّطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب .

وقال مجاهد وقتادة : (أكابر مجرميها) ، قال : عظماؤها (٣)

قلت : وهذا كقوله تعالى : (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) (٤) . وقال تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون) (٥) .

والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كما قال : تعالى إخبارا عن قوم نوح : (ومكروا مكرا كبارا) (٦) وقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٣١ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٦ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٤٧ : ١٢/٩٤ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ .
(٦) سورة نوح ، آية : ٢٢ .

استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) (١) ... الآية .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر (٢) ، حدثنا سفيان قال : كل مكر في القرآن فهو عمل .

وقوله : (وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) ، أي : وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم(٣)) ، وقال : (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون(٤)) .

وقوله : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ، أي : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ، قالوا : (لن نؤمن حتى نُؤتَى مثل ما أوتى رسل الله) ، أي : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل ، كقوله جل وعلا : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا(٥)) ... الآية . وقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته (٦)) ، أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه ، كما قال تعالى : (وقالوا : لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك (٧) الآية ، يعنون : لولا نُزّل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم (من القريتين) ، أي : مكة والطائف . وذلك لأنهم — قبحهم الله — كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا ، وعنادا واستكباراً ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون) (٨) ، وقال تعالى: (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا) (٩)، وقال تعالى: (ولقد استهزىء برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون(١٠)) . هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه : « الأمين » ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار « أبو سفيان » حين سأله « هرقل » ملك الروم : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

---

(١) سورة سبأ الآيات : ٣١ — ٣٣ .

(٢) هو محمد بن يحيى بن أبي عمر العدنى . روى عن سفيان بن عيينة . وروى عنه أبو حاتم . ومكانه في مخطوطة الأزهر : حدثنا أبو عمر . وهو خطأ . ينظر الجرح لابن أبي حاتم : ١٢٤/١/٤ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية : ١٣ .

(٤) سورة النحل ، آية : ٢٥ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٢١ .

(٦) هكذا في مخطوطتنا . (رسالاته) بالجمع ، وهي قراءة السبعة ما عدا ابن كثير وحفصا ، فقد قرآ : (رسالته) بالإفراد . ينظر البحر المحيط لأبي حيان : ٢١٧/٤ .

(٧) سورة الزخرف ، الآيات : ٣١ ، ٣٢ .

(٨) سورة الأنبياء ، آية : ٣٦ .

(٩) سورة الفرقان ، آية : ٤١ .

(١٠) سورة الأنعام ، آية : ١٠ .

يقول ما قال : ؟ قال : لا ، الحديث بطوله الذى استدل به ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعى ، عن شداد أبى عمار ، عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »[١] .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعى . — وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام — به نحوه [٢] .

وفى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا ، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه »[٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، عن سفيان ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن المطلب بن أبى وداعة قال : قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . قال : : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا »[٤] .

صدق صلوات الله وسلامه عليه .

وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قال لى جبريل : قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد [رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد] بنى أب أفضل من بنى هاشم » .

رواه الحاكم والبيهقى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر ، حدثنا عاصم ، عن زرّ بن حُبَيْش ، عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله نظر فى قلوب العباد ، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته . ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء[٥] .

وقال أحمد : حدثنا شجاع بن الوليد قال : ذكر قابوس بن أبى ظبيان ، عن أبيه ، عن سلمان قال : قال لى رسول

---

(١) مسند أحمد : ١٠٧/٤ .
(٢) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم : ٥٨/٧ .
(٣) صحيح البخارى ، المناقب ، باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم : ٢٢٩/٤ . وفى الصحيح : « حتى كنت من القرن ... » . ورواه الإمام أحمد فى مسنده : ٣٧٣/٢ ، ٤١٧ . وفى الأولى : « بعثت » وفى الثانية : « كنت » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢١٠/١ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٧٩/١ .

الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى» (١) .

وذكر ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية : ذُكِرَ عن محمد بن منصور الجواز ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى حسين(٢) قال : أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه ، فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) (٣) .

وقوله تعالى : (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد) ... الآية ، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد ، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدى الله (صغار) وهو الذلة الدائمة ، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلا كما قال تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (٤) ، أى : صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله : (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) ، لما كان [المكر] غالبا إنما يكون خفيا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا ، (ولا يظلم ربك أحدا) ، كما قال تعالى : (يوم تبلى السرائر)(٥) ، أى : تظهر المستترات والمكنونات والضمائر . وجاء فى الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، (٦) فيقال : هذه غَدْرة فلان بن فلان »

والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير عَلَماً منشورا على صاحبه بما فعل .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى : (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) ، أى : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذه علامة على الخير كما قال تعالى : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه(٧)) ... الآية ، وقال تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون)(٨) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٤٠ .
(٢) هو عبد الله بن أبى حسين . ينظر التهذيب : ٤/١١٨ .
(٣) الدر المنثور : ٣/٤٤ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٦٠ .
(٥) سورة الطارق ، آية : ٩ .
(٦) هذه رواية أبى سعيد فى مسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر : ٥/١٤٢ . وهى إلى قوله : « يوم القيامة » وتمام الحديث فى رواية عبد الله بن عمر وأنس فى هذا الكتاب والباب . وينظر صحيح البخارى ، كتاب الجزية ، باب إثم الغادر : ٤/١٢٧ . وكتاب الأدب ، باب ما يدعى الناس بآبائهم : ٨/٥١ . وكتاب الحيل ، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت : ٩/٣٢ . وكتاب الفتن ، باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه : ٩/٧٢ .
وقوله عليه السلام : « لكل غادر لواء عند استه » ، أى خلف ظهره ، لأن لواء العزة ينتصب تلقاء الوجه ، فناسب أن يكون علم المذلة ، فيما هو كالمقابل له ، كأنه عومل الغادر بنقيض قصده .
(٧) سورة الزمر ، آية : ٢٢ .
(٨) سورة الحجرات ، آية : ٧ .

قال ابن عباس : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ، يقول : « يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به » ، وكذا قال أبو مالك ، وغير واحد . وهو ظاهر .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى ، عن عمرو بن قيس ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبي جعفر قال : سُئل النبي صلى الله عليه وسلم : أىّ المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم ذكرا للموت ، وأكثرهم لما بعده استعدادا . قال : وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ، قالوا : كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال : نور يُقْذَف فيه ، فينشرح له وينفسح : قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت [1] .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا قَبِيصة ، عن سفيان — يعنى الثورى — عن عمرو بن مرة ، عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (فمن يرد الله أن يهديه) ، فذكر نحو ما تقدم[2] .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن بن الفرات القزاز ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح . قالوا : يا رسول الله ، هل لذلك من أمارة ؟ قال : نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت » .

وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبرى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مرة عن أبي جعفر فذكره [3] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمرو بن قيس ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن المسور[4] قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ، قالوا : يا رسول الله ، ما هذا الشرح ؟ قال : نور يقذف به فى القلب . قالوا : يا رسول الله ، فهل لذلك من أمارة ؟ قال : نعم . قالوا : وما هى ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت » .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنى هلال بن العلاء ، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد ، حدثنا محمد بن سَلَمَة ،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٥٣ : ١٢/٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٥٤ : ١٢/١٠٠ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٨٥٢ : ١٢/٩٨ .

(٤) فى الطبعات السابقة : « عبد الله بن مسعود » ، وهو خطأ . والمثبت عن مخطوطة الأزهر ، وفى الجرح لابن أبي حاتم أنه : أبو جعفر عبد الله بن مسور بن عبد الله بن عون بن جعفر بن أبي طالب . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مرسل . روى عنه عمرو بن مرة . وروى ابن أبي حاتم عن رقبة أن عبد الله بن المسور كان يضع الحديث يشبه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ينظر الجرح : ٢/٢/١٦٩ .

(٥) فى المخطوطة : « مسلم » ، وهو خطأ ، والمثبت من الجرح لابن ابى حاتم : ٣/٢/٢٧٦ والترجمة رقم : ١٤٩٤ ، ١/٢/٣٦١ ، الترجمة رقم : ١٦٣٨ . وتفسير الطبرى .

عن أبي عبد الرحيم (١) ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح . قالوا : فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتنحي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لُقِيِّ الموت »(٢) .

وقد رواه من وجه آخر عن ابن مسعود متصلا مرفوعا فقال : حدثني بن سنان القزاز ، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي ، عن يونس ، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يُشْرَح صدره ؟ قال : يدخل فيه النور فينفسح . قالوا : وهل لذلك علامة يا رسول الله ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت » (٣) .

فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة (٤) ومتصلة ، يشد بعضها بعضا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضَيْقاً حرجا) ، [قرىء] بفتح الضاد وتسكين الياء ، والأكثرون : (ضَيِّقاً) بتشديد الياء وكسرها ، وهما لغتان : كَهَيْن وهَيِّن . وقرأ بعضهم (حرِجا) بفتح الحاء وكسر الراء ، قيل : بمعنى آثم . وقال السدي(٥) . وقيل بمعنى القراءة الأخرى (حرَجا) بفتح الحاء والراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه .

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من الأعراب من أهل البادية من مُدْلج : ما الحرجة ؟ قال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ، ولا وحشية ، ولا شيء . فقال عمر رضي الله عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير (٦) .

وقال العوفي عن ابن عباس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقا ، والإسلام واسع . وذلك حين يقول : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) ، يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق(٧) .

وقال مجاهد والسدي ضيقا حرجا : شاكا(٨) .

وقال عطاء الخراساني : (ضيقا حرجا) : ليس للخير(٩) فيه منفذ .

---

(١) في المخطوطة : « أبي عبد الرحمن » ، وهو خطأ ، والمثبت عن تفسير الطبري ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٦١/٢/١ ، وهو خالد بن أبي يزيد ، يكنى أبا عبد الرحيم ، خال محمد بن سلمة الحراني ، روى عن زيد بن أبي أنيسة : قال عنه أبو حاتم : لا بأس به .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٥٥ : ١٠٠/١٢ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٥٧ : ١٠٢/١٢ .

(٤) المرسل : ما سقط منه الصحابي ، وذلك كأحاديث أبي جعفر عبد الله بن المسور المتقدمة . والمتصل – ويسمى الموصول أيضا – : ما اتصل سنده ، سواء كان مرفوعاً إليه صلى الله عليه وسلم أو موقوفاً . وذلك كحديث عبد الله بن مسعود .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٦٢ : ١٠٤/١٢ .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٦٣ : ١٠٤/١٢ ، ١٠٥ .

(٨) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٦٤ ، ١٣٨٦٥ : ١٠٥/١٢ .

(٩) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٨٦٩ : ١٠٥/١٢ .

وقال ابن المبارك ، عن ابن جريج (ضيقا حرجا): بلا إله إلا الله ، حتى لا تستطيع أن تدخله ، كأنما يصعد فى السماء من شدة ذلك عليه [١] .

وقال سعيد بن جبير : يجعل صدره (ضيقا حرجا) ، قال : لا يجد فيه مسلكا إلا صُعدا [٢] .

وقال السدى : (كأنما يصعد فى السماء) من ضيق صدره [٣] .

وقال عطاء الخراسانى : (كأنما يصعد فى السماء) ، يقول : مثله كمثل الذى لا يستطيع أن يصعد فى السماء [٤] .

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس : (كأنما يصعد فى السماء) ، يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه ، حتى يدخله الله قلبه .

وقال الأوزاعى : (كأنما يصعد فى السماء) ، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا أن يكون مسلما .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه يقول ، فمثله فى امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل [٥] امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه ، لأنه ليس فى وسعه وطاقته .

وقال فى قوله : (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) ، يقول : كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل [٦] الله .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : الرجس : الشيطان . وقال مجاهد : الرجس : كل مالا خير فيه . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب [٧] .

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله ، الصادين عنها ، نبه على أشرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ، فقال : (وهذا صراط ربك مستقيما) — منصوب على الحال ، أى : هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٧٢ ، ١٣٨٧٥ : ١٢/١٠٦ ، ١٠٩ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٦٨ : ١٢/١٠٥ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٧٧ : ١٢/١٠٩ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٧٣ ، : ١٢/١٠٩ .

(٥) نص الطبرى ١٢/١٠٩ : «... فى شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه من الصعود ...» . وواضح أن فيه سقط نظر .

(٦) تفسير الطبرى : ١٢/١١٠ . وفيه : «عن سبيل الحق» .

(٧) ينظر الآثار ١٣٨٧٨ – ١٣٨٨١ : ١٢/١١١ .

هذا القرآن ، هو صراط الله المستقيم ، كما تقدم فى حديث الحارث عن على فى نعت القرآن : « هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم » : رواه أحمد والترمذى (١) بطوله .

(قد فصلنا الآيات) ، أى : وضحناها وبيناها وفسرناها ، (لقوم يذكرون) ، أى : لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله .

(لهم دار السلام) ، وهى : الجنة ، (عند ربهم) ، أى : يوم القيامة : وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفى أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام .

(وهو وليهم) ، أى : والسلام ــ وهو الله ــ وليهم ، أى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ، (بما كانوا يعملون) ، أى : جزاء أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة ، بمنه وكرمه .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى : واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به (يوم يحشرهم جميعا) ، يعنى الجن وأولياءهم (من الانس) الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) ، أى : ثم يقول : يا معشر الجن . وسياق الكلام يدل على المحذوف .

ومعنى قوله : (قد استكثرتم من الإنس) ، أى : من إضلالهم وإغوائهم ، كما قال : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون(٢)) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (يا معشر الجن ، قد استكثرتم من الإنس) ، يعنى : أضللتم منهم كثيرا (٣) . وكذلك قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة .

(وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا ، استمتع بعضنا ببعض) ، يعنى : أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الأشهب هوذة بن خليفة ، حدثنا عوف ، عن الحسن فى هذه الآية قال : استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة ، فقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض . قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس .

---

(١) ينظر فيما تقدم : ٧٣/٢ عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة آل عمران . والحديث أخرجه الترمذى فى أبواب فضائل القرآن ، باب ما جاء فى فضل القرآن . ينظر تحفة الأحوذى : ٢١٨/٨ – ٢٢١ ، وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات ، وإسناده مجهول ، وفى حديث الحارث مقال » . ولم نجده فى مسنده الإمام أحمد . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه الترمذى » .

(٢) سورة يس ، آية : ٦٠ – ٦٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٨٥ : ١١٥/١٢ .

وقال محمد بن كعب فى قوله : (وبنا استمتع بعضنا ببعض) ، قال : الصحابة فى الدنيا .

وقال ابن جريج : كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض ، فيقول : « أعوذ بكبير هذا الوادى » . فذلك استمتاعهم ، فاعتذروا يوم القيامة (١) .

وأما استمتاع الجن بالإنس فانه كان — فيما ذكر — ما ينال الجنّ من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعاذتهم بهم ، فيقولون : قد سدنا الإنس والجن .

(وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) قال السدى ، أى الموت .

قال : (النار مثواكم) ، أى: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم : (خالدين فيها) ، أى : ما كثين مكثا(٢) مخلدا إلا ما شاء الله .

قال بعضهم : يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ . وقال بعضهم : هذا رد إلى مدة الدنيا . وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود : (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) (٣) .

وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح — كاتب الليث — : حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) ، قال : إن هذه الآية : آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، لا ينزلهم جنة ولا ناراً (٤) .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

قال سعيد ، عن قتادة فى تفسيرها : إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان . ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى (٥) .

واختاره ابن جرير (٦) .

وقال معمر ، عن قتادة فى تفسيرها : (نولى بعض الظالمين بعضا) ، فى النار ، يتبع بعضهم بعضا (٧) .

---

(١) إلى هنا ينتهى أثر ابن جريج ، وهو الأثر رقم ١٣٨٩٠ من تفسير الطبرى : ١١٦/١٢ . وما بعده وهو قوله : « وأما استمتاع ... » إلى آخر النص ، فهو من كلام ابن جرير الطبرى ، والمتتبع لسياق تفسيره يرى أنه من كلامه حقاً .
(٢) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير : « ما كثين مخلدا » . وأثبتنا ما فى الطبعات السابقة .
(٣) آية : ١٠٧ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٩٢ : ١١٨/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٩٣ : ١١٩/١٢ .
(٦) المرجع السابق : ١٢٠/١٢ .
(٧) المرجع نفسه ، الأثر ١٣٨٩٤ : ١١٩/١٢ .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى الزبور : إنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين ، ثم انتقم من المنافقين جميعا ، وذلك فى كتاب الله قوله تعالى : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) .

(وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) ، قال : ظالمى الجن وظالمى الإنس ، وقرأ : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) (١)، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس (٢).

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الباقى بن أحمد ، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسى ، عن حماد بن سلمة ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن ابن مسعود مرفوعا : « من أعان ظالما سلطه الله عليه » .

وهذا حديث غريب ، وقال بعض الشعراء :

وما مِن يَدٍ إلا يدُ الله فوقها * ولا ظالم إلا سَيُبلَى بظالم

ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

وهذا أيضا مما يُقرّع الله به سبحانه وتعالى كافرى الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم ـ وهو أعلم ـ : هل بلغتهم الرسل رسالاته ؟ وهذا استفهامُ تقرير : (يا معشر الجن والإنس، ألم يأتكم رسل منكم) ، أى : من جملتكم . والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما نص على ذلك مجاهد ، وابن جريج وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

وقال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذُر .

وحكى ابن جرير ، عن الضحاك بن مزاحم : أنه زعم أن فى الجن رسلا ، واحتج بهذه الآية الكريمة وفى الاستدلال بها على ذلك نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة ، وهى ـ والله أعلم ـ كقوله : (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٣٦ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٩٥ : ١٢/١١٩ .

لا يبغيان (١)) إلى أن قال : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢))، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرج من الملح لا من الحلو . وهذا واضح ، ولله الحمد . وقد نص على هذا الجواب بعينه ابنُ جرير (٣) .

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى أن قال : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة (٤)) ، وقال تعالى عن إبراهيم: (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب (٥)) — فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته، ولم يقل أحد من الناس : إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم الخليل ، ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (٦)) ، وقال:(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى (٧)) ؛ ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب ، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين)(٨).

وقد جاء فى الحديث — الذى رواه الترمذى وغيره — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن (٩) ، وفيها قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا) ، أى : أقررنا أن الرسل قد بلّغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات : ١٩ ، ٢٠ . ونص مخطوطة الأزهر ودار الكتب «١» تفسير : (مرج البحرين يلتقيان) أى : والحلو (بينهما برزخ لا يبغيان) .
رجح المفسر كما ترى عدم إرسال المولى سبحانه رسلا من الجن وساق لتدعيم وجهة نظره هذه أدلة بعضها من الكتاب وبعضها من السنة غير أنها ليست قاطعة فى تأييد ما يراه ومن ذلك قوله إن هذه الآية كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فان معناها يخرج من أحدهما لأن اللؤلؤ لا يخرج إلا من الماء الملح .
(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٢/١٢١ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٦٣ / ١٦٥ .
(٥) سورة العنكبوت ، آية : ٢٧ .
(٦) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .
(٧) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ .
(٨) سورة الأحقاف ، الآيات : ٢٩ — ٣٢ .
(٩) الترمذى ، أبواب التفسير ، تفسير سورة الرحمن . ينظر تحفة الأحوذى : ٩/١٧٧ .

قال تعالى : (وغرتهم الحياة الدنيا) ، أى : وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا [وهلكوا بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم للمعجزات ، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا] وزينتها وشهواتها ، (وشهدوا على أنفسهم) ، أى : يوم القيامة (أنهم كانوا كافرين) ، أى : فى الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى : (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) ، أى : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، كما قال تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (١)) ، وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٢)) ، وقال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣)) ، وقال تعالى : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا (٤)) والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى (بظلم) وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من ينبههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلة فيقولوا : (ما جاءنا من بشير ولا نذير) .

والوجه الثانى أن (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) ، يقول : لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده (٥) .

ثم شرع يرجح الوجه الأول ، ولا شك أنه أقوى ، و الله أعلم .

وقال : وقوله : (ولكل درجات مما عملوا) ، أى : « ولكل عامل فى طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر (٦) .

قلت : ويحتمل أن يعود قوله : (ولكل درجات مما عملوا) من كافرى الجن والإنس ، أى : ولكل درجة فى النار بحسبه ، كقوله : (قال : لكل ضعف (٧))، وقوله : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨)) .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٢٤ . وفى المخطوطة : « وإن من قرية » ، وليست آية .
(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .
(٤) سورة الملك ، آية : ٨ ، ٩ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٢/٢٤ ١ .
(٦) المصدر السابق : ١٢/١٢٥ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .
(٨) سورة النحل ، آية : ٨٨ .

(وما ربك بغافل عما يعملون) ، قال ابن جرير : أى وكل ذلك من عملهم ، يا محمد ، بعلم من ربك ، يحصيها ويثبتها لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

يقول : (وربك) يا محمد (الغنى) ، أى : عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، (ذو الرحمة) ، أى : وهو مع ذلك رحيم بهم رءوف، كما قال تعالى : (إن الله بالناس لرءوف رحيم) (١) .

(إن يشأ يذهبكم) ، أى : إذا خالفتم أمره (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) أى : قوما آخرين ، أى : يعملون بطاعته ، (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ، أى : هو قادر على ذلك ، سهل عليه ، يسير لديه ، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذى بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، كما قال تعالى : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) (٢) ، وقال تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وماذلك على الله بعزيز) (٣)، وقال تعالى : (والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبان بن عثمان يقول فى هذه الآية :(كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) : الذرّية : الأصل ، والذرية : النسل .

وقوله تعالى : (إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين) ، أى : أخبرهم يا محمد أن الذى يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ، (وما أنتم بمعجزين) ، أى : لا تعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم ترابا رفاتا وعظاما هو قادر لا يعجزه شىء .

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيرها : حدثنى أبى ، حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا محمد بن حمير ، عن أبى بكر ابن أبى مريم ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يابنى آدم ، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى . والذى نفسى بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

وقوله تعالى : (قل : يا قوم ، اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون [هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد] ، أى : استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقى ومنهجى ، كما قال تعالى : (وقل للذين . لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون) (٤) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٣٣ .

(٣) سورة إبرهيم ، آية : ١٥ — ١٧ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٢١ ، ١٢٢ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (على مكانتكم) ، أى : ناحيتكم (١) .

(فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) ، أى : أتكون لى أو لكم : وقد أنجز موعده له صلوات الله عليه ، فإنه تعالى مكن له فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته : ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق (٢) بعد وفاته فى أيام خلفائه ،رضى الله عنهم أجمعين ، كما قال الله تعالى: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) (٣) ، وقال: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد : يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) (٤) : وقال تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (٥) ، وقال تعالى إخبارا عن رسله: (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين : ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (٦) ، وقال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) (٧) ... الآية ، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة أولا وآخراً ، باطنا وظاهرا .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا وشركا ، وجعلوا لله جزءا من خلقه ، وهو خالق كل شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ، ولهذا قال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) ، أى : مما خلق وبرأ (من الحرث) ، أى : من الزروع والثمار (والأنعام نصيبا) ، أى : جزءا وقسما ، (فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا) .

وقوله : (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) ، قال على بن أبى طلحة ، والعوفى ، عن ابن عباس أنه قال فى تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءا وللوثن جزءا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شىء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شىء فيما سُمّى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن . وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شىء من الحرث والثمرة التى جعلوا لله، فاختلط بالذى جعلوه للوثن ، قالوا هذا فقير . ولم يردوه إلى ماجعلوه

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٨٩٨ : ١٢/ ١٢٩ .
(٢) الرساتيق : القرى .
(٣) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٥١ ، ٥٢ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥ .
(٦) سورة إبرهيم ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٧) سورة النور ، آية : ٥٥ .

لله . وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله ، فسقى ما سمّى للوثن ، تركوه للوثن : وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه لله ، فقال الله عز وجل : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) ... الآية (١) .

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسيره : كل شىء جعلوه لله من ذبح يذبحونه ، لا يأكلونه أبدا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة . وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه ، وقرأ الآية حتى بلغ : (ساء ما يحكمون) (٢) .

أى : ساء ما يقسمون ، فإنهم أخطئوا أولا فى القسمة ، فان الله تعالى هو رب كل شىء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شىء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيئته ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التى هى فاسدة ، بل جاروا فيها ، كما قال تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) (٣) ، وقال تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين) (٤) ، وقال تعالى: (ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى) (٥) .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

يقول تعالى : وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ، ووأد البنات خشية العار .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، زينوا لهم قتل أولادهم (٦) .

وقال مجاهد : شركاؤهم : شياطينهم ، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة (٧) .

وقال السدى : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات . وإما « ليردوهم » ، فيهلكوهم ، وإما « ليلبسوا عليهم دينهم » أى : فيخلطوا عليهم دينهم (٨) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٠١ : ١٣٢/١٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٠٧ : ١٣٤/١٢ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٥٧ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ١٥ .
(٥) سورة النجم ، آية : ٢١ ، ٢٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٠٨ : ١٣٦/١٢ .
(٧) المصدر السابق ، الأثر ١٣٩٠٩ : ١٣٦/١٢ . والعيلة : الفقر .
(٨) المصدر السابق ، الأثر ١٣٩١٣ : ١٣٧/١٢ .

ونحو ذلك قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وهذا كقوله تعالى : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به)(١) .. الآية وقال تعالى : (وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قُتلت)(٢) . وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق ، وهو : الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى تانى(٣) المال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك . وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتزيينه لهم ذلك .

قال تعالى : (ولو شاءالله مافعلوه) ، أى : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونا ، وله الحكمة التامة فى ذلك ، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . (فذرهم وما يفترون) ، أى : فدعهم واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم .

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « الحِجْرُ » الحرام ، مما حرموا من الوصيلة ، وتحريم ما حرموا (٤) .

وكذلك قال مجاهد ، والضحاك ، والسدى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال قتادة : (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) ... الآية : تحريم كان عليهم من الشياطين [فى أموالهم ، وتغليظ وتشديد ، وكان ذلك من الشياطين] ولم يكن من الله تعالى (٥) .

وقال ابن زيد بن أسلم : (حِجْر) ، إنما احتجروها لآلهتهم(٦) .

وقال السدى : (لا يَطْعمها إلا من نشاء بزعمهم) ، يقولون : حرام أن نطعم إلا من شئنا (٧) .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل : آلله أذن لكم؟ أم على الله تفترون)(٨) . وكقوله تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون)(٩) .

---

(١) سورة النحل ، آية : ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) سورة التكوير ، آية : ٨ ، ٩ .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٩١٨ : ١٤٣/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٩٢٠ : ١٤٣/١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٣٩٢٢ : ١٤٣/١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٢١ : ١٤٣/١٢ .
(٨) سورة يونس ، آية : ٥٩ .
(٩) سورة المائدة ، آية : ١٠٣ .

وقال السدى أما « أنعام حرمت ظهورها » ، فهى البحيرة والسائبة والحام ـ وأما « الأنعام التى لايذكرون اسم الله عليها » ، قال : إذا أولدوها ، ولا إن نحروها(١) .

وقال أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبى النجود قال لى أبو وائل : تدرى مافى قوله : (وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) ؟ . قلت : لا . قال : هى البحيرة ، كانوا لا يحجون عليها(٢) .

وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها فى شىء من شأنها ، لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن منحوا ، ولا إن عملوا شيئا(٣) .

(افتراء عليه) ، أى : على الله ، وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم . (سيجزيهم بما كانوا يفترون) : أى : عليه ، ويسندون إليه .

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

قال أبو إسحاق السبيعى ، عن عبد الله بن أبى الهذيل ، عن ابن عباس : (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) ... الآية ، قال : اللبن(٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) ، فهو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم . وكانت الشاة إذا ولدت ولداً ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء . فنهى الله عن ذلك(٥) . وكذا قال السدى .

وقال الشعبى : « البحيرة » : لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء(٦) ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال مجاهد فى قوله : (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) ، قال : هى السائبة والبحيرة(٧) .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وقتادة : (سيجزيهم وصفهم) ، أى : قولهم الكذب فى ذلك(٨) ـ يعنى قوله تعالى :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٢٩ : ١٤٥/١٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٢٧ : ١٤٥،١٤٤/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٣٠ : ١٤٥/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٣٢ : ١٤٦/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٣٧ : ١٤٧/١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٣٦ : ١٤٧/١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٣٩ : ١٤٨/١٢ .
(٨) تفسير الطبرى ، الآثار ١٣٩٤٦ - ١٣٩٤٩ : ١٥٢/١٢ .

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع) (١) ... الآية .

إنه (حكيم) ، أى : فى أفعاله وأقواله وشرعه [وقدره] ، (عليم) بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم — وأما فى الآخرة فيصيرون إلى شرّ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم ، كما قال تعالى : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)(٢) .

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن أيوب ، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ، (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين) .

وهكذا رواه البخارى منفرداً فى كتاب مناقب قريش من صحيحه ، عن أبى النعمان محمد بن الفضل عارم ، عن أبى عوانة — واسمه الوضاح بن عبد الله اليشكرى — عن أبى بشر — واسمه جعفر بن أبى وحشية بن إياس ، به (٣) .

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى بيانا لأنه الخالق لكل شيء ، من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسّموها وجزّءوها ، فجعلوا منها حراما وحلالا ، فقال : (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) .

---

(١) سورة النحل ، آية : ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة يونس ، آية ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب المناقب ، باب قصة خزاعة : ٢٢٤/٤ .

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « معروشات » : مسموكات : وفى رواية : « المعروشات » ، ماعرش الناس « وغير . معروشات » ، ما خرج فى البر والجبال من الثمرات [١] .

وقال عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : « معروشات » ، ماعرش من الكرم - « وغير معروشات » ، مالم يعرش من الكرم . وكذا قال السدى[٢] .

وقال ابن جريج : (متشابها وغير متشابه) ، قال : متشابها فى المنظر ، وغير متشابه في الطعم [٣] .

وقال محمد بن كعب : (كلوا من ثمره إذا أثمر) ، قال : من رطبه وعنبه[٤] .

وقوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال ابن جرير : قال بعضهم : هى الزكاة المفروضة .

حدثنا عمرو ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا يزيد بن درهم قال : سمعت أنس بن مالك يقول : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : الزكاة المفروضة[٥] .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، يعنى : الزكاة المفروضة ، يوم يُكال ويعلم كيله [٦] . وكذا قال سعيد بن المسيب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيئاً فقال الله : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، وذلك أن يعلم ماكيله وحقه ، من كل عشرة واحدا وما يَلْقُط الناس من سنبله [٧] .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود فى سننه من حديث محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان ، [عن عمه واسع بن حَبَّان] ، عن جابر بن عبد الله . أن النبى صلى الله عليه وسلم أمَرَ من كل جادّ [٨] عَشْرَةَ أوسُق من التمر ، بقِنْو يعلق فى المسجد للمساكين [٩] .

وهذا إسناد . جيد قوى .

وقال طاوس ، وأبو الشعثاء ، وقتادة ، والحسن ، والضحاك ، وابن جريج : هى الزكاة .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٥٥ ، ١٣٩٥٦ : ١٠٦/١٢.
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٥٨ : ١٠٦/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٥٩ : ١٠٧/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٦٠ : ١٠٧/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٦٣ : ١٠٨/١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٧١ : ١٠٩/١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٧٢ : ١٠٩/١٢ ، ١٦٠ . وفى نص الطبرى سقط نظر .
(٨) جاد : بمعنى المجدود : أى نخل يجد - أى يقطع منه - ما يبلغ عشرة أوسق . والقنوه : عنقود النخل .
(٩) مسند أحمد : ٣٥٩/٣ ، ٣٦٠ . وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب فى حقوق المال ، الحديث ١٦٦٢ : ١٢٥/٢ .

وقال الحسن البصرى : هى الصدقة من الحب والثمار : وكذا قال ابن زيد بن أسلم .

وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة .

وقال أشعث ، عن محمد بن سيرين ، ونافع عن ابن عمر فى قوله : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة . رواه ابن مردويه .

وروى عبد الله بن المبارك وغيره ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن عطاء بن أبى رباح فى قوله : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : يعطى من حضره يومئذ ماتيسر ، وليس بالزكاة [١] .

وقال مجاهد :إذا حضرك المساكين ، طرحت لهم منه [٢] .

وقال عبد الرزاق ، عن ابن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : عند الزرع يعطى القبض ، ، وعند الصرام يعطى القبض ، ويتركهم فيتبعون آثار الصّرام [٣] .

وقال الثورى ، عن حماد ، عن إبراهيم قال : يعطى مثل الضغث [٤] .

وقال ابن المبارك ، عن شريك ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : كان هذا قبل الزكاة : للمساكين ، القبضة الضغث لعلف دابته [٥] .

وفى حديث ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن سعيد مرفوعاً [٦] : (وآتوا حقه يوم حصاده)، قال : ما سقط من السنبل . رواه ابن مَرْدُويه .

وقال آخرون: هذا كله شيء كان واجباً ، ثم نسخه الله بالعشر ونصف العشر: حكاه ابن جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية ، وإبراهيم النخعى، والحسن ، والسدى ، وعطية العوفى . واختاره ابن جرير رحمه الله [٧] .

قلت : وفى تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً فى الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبَيَّن مقدار المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة ، فالله أعلم .

وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة « ن »:(إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) ، أى : كالليل المظلم سوداء محترقة (فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد) ، أى : قوة وجلد وهمة (قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون *

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٨٩ : ١٢/١٦٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٣٩٩٢ : ١٢/١٦٣ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠١٩ : ١٢/١٦٨ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٠٦ : ١٢/١٦٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠١٧ : ١٢/١٦٧ .
(٦) هو سعيد بن المسيب ، يروى عنه أبو الهيثم المرادى . ينظر التهذيب : ١٢/٢٦٩.
(٧) تفسير الطبرى : ١٢/١٦٨ / ١٧٠ .

قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (١) .

وقوله : (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ، قيل : معناه : ولا تسرفوا فى الإعطاء ، فتعطوا فوق المعروف .

وقال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فأنزل الله : (ولا تسرفوا) (٢) .

وقال ابن جريج : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس ، جدَّ نخلا . فقال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته : فأطعم ، حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل الله : (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين(٣)) . رواه ابن جرير ، عنه .

وقال ابن جريج ، عن عطاء : ينهى عن السرف فى كل شىء(٤) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف(٥) .

وقال السدى فى قوله : (ولا تسرفوا) ، قال : لاتعطوا أموالكم ، فتقعدوا فقراء(٦) .

وقال سعيد بن المسيب ، ومحمد بن كعب ، فى قوله : (ولا تسرفوا) ، قال : لاتمنعوا الصدقة فتعصوا(٧) .

ثم اختار ابن جرير قول عطاء : إنه نُهِىَ عن الإسراف فى كل شىء : ولاشك أنه صحيح ، لكن الظاهر — والله أعلم — من سياق الآية حيث قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا) أن يكون عائداً إلى الأكل ، أى : ولاتسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كما قال تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)(٨) الآية . وفى صحيح البخارى تعليقاً : « كلوا واشربوا [والبسوا وتصدقوا] فى غير إسراف ولا مخيلة » (٩) . وهذا من هذا ، والله أعلم .

وقوله : (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) ، أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل ، والفرش الصغار منها . كما قال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله فى قوله : (حمولة) : ما حمل عليه من الإبل ، (فرشا) وقال : الصغار من الإبل .

رواه الحاكم ، وقال : صحيح ، ولم يخرجاه(١٠) .

وقال ابن عباس : الحمولة هى الكبار ، والفرش الصغار من الإبل(١١) وكذا قال مجاهد .

---

(١) سورة « ن » ، الآيات : ١٧ — ٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٣٨ : ١٧٤/١٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤٠ : ١٧٤/١٢ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤١ : ١٧٤/١٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤٢ : ١٧٣/١٢ ، ١٧٤ ، ونص ابن جرير : « أطاف الناس بإياس بن معاوية بالكوفة ، فسألوه : ما السرف ؟ قال : ما دون أمر الله فهو سرف » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤٣ : ١٧٥/١٢ ، ونصه : « فتغدوا فقراء » .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤٤ ، ١٤٠٤٥ : ١٧٥/١٢ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ٣١ .

(٩) صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب قول الله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » : ١٨٢/٧ . وقد أخرجه ابن ماجه فى كتاب اللباس ، باب البس ما شئت ، ما أخطأك سرف أو مخيلة ، الحديث ٣٦٠٥ : ١١٩٢/٢ . وكذلك الإمام أحمد فى مسنده من عبد الله بن عمرو : ١٨١/٢ ، ١٨٢ .

(١٠) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٧/٢ .

(١١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٤٨ : ١٧٨/١٢ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ومن الأنعام حمولة وفرشا) فأما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه ، وأما الفرش[1] فالغنم .

واختاره ابن جرير ، قال : وأحسبه إنما سمى فرشاً لدنوه من الأرض[2] .

وقال الربيع بن أنس ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة : الحمولة : الإبل والبقر ، والفرش : الغنم[3] .

وقال السدى : أما الحمولة فالإبل ، وأما الفرش فالفُصْلان والعَجَاجِيل والغنم : وما حمل عليه فهو حمولة[4] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً[5] .

وهذا الذى قاله عبد الرحمن فى تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى : (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون [6]) ، وقال تعالى : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) ، إلى أن قال : (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين[7]) ، وقال تعالى : (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون[8]) .

وقوله تعالى : (كلوا مما رزقكم الله) ، أى : من الثمار والزروع والأنعام ، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ، (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) ، أى طرائقه وأوامره ، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله ، أى : من الثمار والزروع افتراء على الله ، (إنه لكم) ، أى : إن الشيطان ـ أيها الناس ـ لكم (عدو مبين) ، أى : بيِّن ظاهر العداوة ، كما قال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) [9] ، وقال تعالى : (يابنى آدم ، لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما[10]) ... الآية ، وقال تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا[11]) . والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن .

---

(١) المصدر السابق ، الأثر ١٤٠٥٨ : ١٢/١٨٠ .

(٢) لفظ ابن جرير ، كما فى تفسيره ١٢/١٨١ : « وأحسبها سميت بذلك تمثيلا لها فى استواء أسنانها ولطفها ، بالفرش من الأرض ، وهى الأرض المستوية التى يتوطؤها الناس » .

(٣) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٢/١٨٠ ، ١٨١ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٦٢ : ١٢/١٨٠ ، ١٨١ . والعجاجيل : جمع عجول ـ بكسر العين وفتح الجيم مشددة ، وسكون الواو ـ وهو : العجل ولد البقر .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٦٥ : ١٢/١٨١ .

(٦) سورة يس ، آية : ٧١ ، ٧٢ .

(٧) سورة النحل ، الآيات : ٦٦ / ٨٠ .

(٨) سورة غافر ، الآيات : ٧٩ / ٨١ .

(٩) سورة فاطر ، آية : ٦ .

(١٠) سورة الأعراف ، آية : ٢٧ .

(١١) سورة الكهف ، آية : ٥٠ .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرّموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وأنواعا : بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة وحاما ، وغير ذلك من الأنواع التى ابتدعوها فى الأنعام والزروع والثمار ، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا : ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن ، وسواد وهو المعز ، ذكره وأنثاه ، وإلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك . وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبنى آدم ، أكلا ، وركوباً ، وحمولة ، وحلبا ، وغير ذلك من وجوه المنافع ، كما قال : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج (١) ... الآية » .

وقوله : (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) ، رَدٌّ عليهم فى قولهم : (ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) :

وقوله : (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) ، أى : أخبرونى عن يقين : كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ؟.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) فهذه أربعة أزواج (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين) ، يقول : لم أحرم شيئاً من ذلك (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) ، يقول : كله حلال (٢) .

وقوله : (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) ، تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله ، من تحريم ما حرموه من ذلك ، (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم) ، أى : لا أحد أظلم منه ، (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٧٦ : ١٨٧/١٢ .

وأول من دخل فى هذه الآية : عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَة ، فإنه أول من [غير دين الأنبياء ، وأول من] سيب السوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى ، كما ثبت ذلك فى الصحيح(١).

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه : قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله : (لا أجد فيا أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه) ، أى : آكل يأكله : قيل : معناه : لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه : وقيل : معناه : لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه : فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة « المائدة »(٢) ، وفى الأحاديث الواردة ، رافعاً لمفهوم هذه الآية .

ومن الناس من يسمى ذلك نسخاً ، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً ، لأنه من باب رفع مباح الأصل ، والله أعلم .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (أو دماً مسفوحاً) ، يعنى : المهراق .

وقال عكرمة فى قوله : (أو دماً مسفوحاً) : لولا هذه الآية لتتبع الناس ما فى العُرُوق ، كما تتبعه اليهود(٣) .

وقال حماد ، عن عمران بن حُدَير قال : سألت أبا مِجْلَز عن الدم ، وما يتلطخ من الذبح من الرأس ، وعن القِدْر يُرَى فيها الحمرة ، فقال : إنما نهى الله عن الدم المسفوح(٤) .

وقال قتادة : حرّم من الدماء ما كان مسفوحاً ، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم ، عن عائشة : أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً ، والحمرة والدم يكونان على القدر بأساً ، وقرأت هذه الآية(٦).

صحيح غريب .

وقال الحميدى : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن عبد الله : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ، فقال : قد كان يقول ذلك « الحَكَمُ بن عَمْرو » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبى ذلك البحر — يعنى ابن عباس — وقرأ : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً) ... الآية .

(١) ينظر فيا تقدم : ٢٠٣/٣ — ٢٠٥ ، عند تفسير الآية رقم ١٠٣ من سورة المائدة ، وقد خرجنا الأحاديث هناك .
(٢) الآية رقم ٣ من سورة المائدة . ينظر : ١١/٣ وما بعدها .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٨٢ : ١٩٣/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٨٦ : ١٩٣/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٨٧ : ١٩٣/١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٩٠ : ١٩٤/١٢ .

وهكذا رواه البخارى عن على بن المدينى ، عن سفيان ، به [١] . وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج ، عن عمرو ابن دينار [٢] . ورواه الحاكم فى مستدركه [٣] [مع أنه فى صحيح البخارى ، كما رأيت .

وقال أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه] حدثنا محمد بن على [بن] دُحَيم [٤] ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، حدثنا محمد بن شريك ، عن عمرو بن دينار ، عن أبى الشعثاء ، عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وتلا هذه الآية : (قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه [٥]) إلى آخر الآية .

وهذا لفظ ابن مردويه ، ورواه أبو داود منفرداً به ، عن محمد بن داود بن صبيح ، عن أبى نعيم [٦] ، به . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، فقالت : يارسول الله ، ماتت فلانة — تعنى الشاة — قال : فلم [٧] لا أخذتم مَسْكها ؟ [٨] قالت : نأخذ مَسْكَ شاة قد ماتت ؟! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما قال الله :(قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير) ، وإنكم لا تطعمونه ، أن تدبغوه فتنتفعوا به . فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قربة ، حتى تخرقت عندها [٩] .

ورواه البخارى والنسائى ، من حديث الشعبى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن [١٠] سودة بنت زمعة ، بذلك أو نحوه .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن عيسى بن نميلة الفزارى ، عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر ، فسأله رجل عن أكل القنفذ ، فقرأ عليه : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه) ... الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « خبيثة من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبى صلى الله عليه وسلم قاله فهو كما قال .

---

(١) البخارى ، كتاب الذبائح ، باب لحوم الحمر الإنسية : ١٢٤/٧ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب فى لحوم الحمر الأهلية ، الحديث ٣٨٠٨ : ٣٥٦/٣ .

(٣) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٧/٢ . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذه السياقة .

(٤) فى المستدرك : « على بن محمد بن دحيم » ، وهو خطأ . ينظر العبر للذهبى : ٢٩٣/٢ ، وقد نص فى مسند ابن مردويه على الصواب ، ينظر : ٢٨٠/١ .

(٥) المستدرك ، كتاب الأطعمة : ١١٥/٤ .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب ما لم يذكر تحريمه ، الحديث ٣٨٠٠ : ٣٥٤/٣ .

(٧) فى المسند : « فلولا أخذتم ... » .

(٨) نص شرح المسك فى : ١٦١/١ ، ٣٥٩ ، ١٦/٢ .

(٩) مسند أحمد : ٣٢٧/١ ، ٣٢٨ .

(١٠) البخارى ، كتاب الأيمان ، باب « إن حلف أن لا يشرب نبيذاً فشرب طلاء أو سكرا أو عصيراً ... » : ١٧٤/٨ . والنسائى كتاب الفرع والعتيرة ، باب جلود الميتة : ١٧٣/٧ .

ورواه أبو داود ، عن أبي ثور ، عن سعيد بن منصور ، به[١].

وقوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) ، أي : فمن اضطر إلى أكل شيء مما حُرّم في هذه الآية الكريمة ، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ، (فإن ربك غفور رحيم) ، أي : غفور له ، رحيم به .

وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية[٢] .

والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وإنما حرّم ما ذكر في الآية ، من الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به : وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنه حرام ، ومن أين حرمتموه ولم يحرمه ؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهى عن لحوم الحمر ولحوم السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، على المشهور من مذاهب العلماء :

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

قال ابن جرير : يقول تعالى : وحرمنا على اليهود (كل ذى ظفر) ، وهو [من] البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع ، كالإبل والنعام والإوز والبط[٣] .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) ، وهو البعير والنعامة[٤] ؛ وكذا قال مجاهد ، والسدى في رواية .

وقال سعيد بن جبير : هو الذى ليس بمنفرج الأصابع — وفي رواية عنه : كل شيء متفرق الأصابع ، ومنه الديك[٥] .

وقال قتادة في قوله : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) . وكان يقال : البعير والنعامة وأشياء[٦] من الطير والحيتان — وفي رواية : البعير والنعامة ، وحرم عليهم من الطير البط وشبهه ، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع[٧] ؛

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب الأطعمة ، باب في أكل حشرات الأرض ، الحديث ٣٧٩٩ : ٣/٣٥٤ . وأخرجه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة : ٢/٣٨١ بهذا الإسناد عن سعيد بن منصور .

(٢) وذلك عند الآية رقم ١٧٣ : ١/٢٩٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، : ١٢/١٩٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٩٢ : ١٢/١٩٨ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٩٤ ، ١٤٠٩٥ : ١٢/١٩٨ .

(٦) في مخطوطة الأزهر : «وأشياء من الطير والحيتان» . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٠٩٨ : ١٢/١٩٩ .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد : (كل ذى ظفر) ، قال: النعامة والبعير ، شقا شقا : قلت للقاسم بن أبى بزة وحدثنيه : ما « شقا شقاً » ! قال : كل ما لا يفرج من قوائم البهائم . قال : وما انفرج أكلته [اليهود] قال : انفرجت قوائم البهائم(١) والعصافير ، قال : فيهود تأكلها . قال : ولم تنفرج قائمة البعير ، خفه ، ولا خف النعامة ولا قائمة الوز(٢) ، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوز ، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ، ولا تأكل حمار وَحْش(٣) .

وقوله : (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) ، قال السدى : الثَّرْب(٤) وشحم الكليتين . وكانت اليهود تقول : إنه حرمه إسرائيل ، فنحن نحرمه(٥) . وكذا قال ابن زيد .

وقال قتادة : الثَّرْب وكل شحم كان كذلك ليس فى عظم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (إلا ما حملت ظهورهما) : يعنى ما علِق بالظهر من الشحوم (٦) .

وقال السدى وأبو صالح : الألية ، مما حملت ظهورهما (٧) .

وقوله : (أو الحوايا) ، قال الإمام أبو جعفر بن جرير : الحوايا جمع ، واحدها حاوياء ، وحاوية [وحَوِيَّة] ، وهو ما تَحَوَّى من البطن فاجتمع واستدار ، وهى بنات اللبن ، وهى « المباعر » ، وتسمى « المرابض » ، وفيها الأمعاء .

قال : ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما ، أو ما حملت الحوايا (٨) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أو الحوايا ، وهى المبعر (٩) .

وقال مجاهد : « الحوايا المبعر ، والمربض(١٠)» وكذا قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو مالك ، والسدى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (الحوايا) ، المرابض التى تكون فيها الأمعاء ، تكون وسطها ، وهى بنات اللبن ، وهى فى كلام العرب تدعى المرابض(١١) .

وقوله تعالى : (أو ما اختلط بعظم) ، أى : وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم .

---

(١) فى تفسير الطبرى : « الدجاج والعصافير » .
(٢) فى تفسير الطبرى : « ولا قائمة الوزين » والوزين - بفتح الواو ، وتشديد الزاى مكسورة - هى : الإوزة .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٠١ : ١٢/١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٤) الثرب - بفتح فسكون - : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٠٥ : ١٢/٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٠٧ : ١٢/٢٠٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٠٨ : ١٢/٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(٨) تفسير الطبرى : ١٢/٢٠٣ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٠٩ : ١٢/٢٠٣ .
(١٠) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤١١٠ / ١٤١١٢ : ١٢/٢٠٣ ، ٢٠٤ .
(١١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٢١ : ١٢/٢٠٥ .

وقال ابن جريج : شحم الألية اختلط بالعُصْعُص(١) ، فهو حلال . وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم ، فهو حلال(٢) . ونحوه قال السدي .

وقوله تعالى : (ذلك جزيناهم ببغيهم) ، أى : هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به ، مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا ، كما قال تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) .

وقوله : (وإنا لصادقون) ، أى : وإنا لعادلون فيما جازيناهم به .

وقال ابن جرير : وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم ، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه [على نفسه](٣) والله أعلم .

وقال عبد الله بن عباس : بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن «سمرة» باع خمراً ، فقال : قاتل الله سمرة ! ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها »(٤) .

أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن عمر ، به .

وقال الليث : حدثنى يزيد بن أبى حبيب قال : قال عطاء بن أبى رباح : سمعت جابر بن عبد الله يقول : [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول] عام الفتح : « إن الله ورسوله حَرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام . فقيل : يارسول الله ، أرأيت شحوم الميتة ، فإنه يدهن بها الجلود ويُطلى بها السفن ، ويَسْتَصبح(٥) بها الناس . فقال : لا ، هو حرام . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : قاتل الله اليهود ، إن الله لما حرم عليهم شحومها جَمَلوه ، ثم باعوه وأكلوا ثمنه »(٦) .

رواه الجماعة من طرق ، عن يزيد بن أبى حبيب ، به .

وقال الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاتل الله اليهود ! حرمت عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا ثمنه»(٧) .

---

(١) العصعص : عظم عجب الذنب .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٢٢ : ٢٠٥/١٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٠٦/١٢ .

(٤) مسلم ، كتاب البيوع ، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام : ٤١/٥ . وقد ورد الحديث فى البخارى فى موضعين ، ولم يذكر فيهما اسم سمرة . ينظر كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن إسرائيل : ٢٠٧/٤ ، وكتاب البيوع ، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه : ١٠٧/٣ وجملوها : أذابوها .

(٥) أى : يستضيئون بها .

(٦) مسلم ، كتاب البيوع ، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام : ٤١/٥ . والبخارى ، كتاب البيوع ، باب بيع الميتة والأصنام : ١١٠/٣ . وأبو داود ، كتاب البيوع ، باب فى ثمن الخمر والميتة ، الحديث ٣٤٨٦ : ٢٧٩/٣ ، ٢٨٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البيوع ، باب ما جاء فى بيع جلود الميتة والأصنام ، الحديث ١٣١٥ : ٥٢١/٤ ، ٥٢٢ . والنسائى ، كتاب البيوع ، باب بيع الخنزير : ٣٠٩/٧ ، وكتاب الفرع والعتيرة ، باب النهى عن شحوم الميتة : ١٧٧/٧ وابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب ما لا يحل بيعه ، الحديث ٢١٦٧ : ٧٣٢/٢ ومسند أحمد : ٣٢٤/٣ ، ٣٢٦ .

(٧) البخارى ، كتاب البيوع ، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه : ١٠٧/٣ ، ١٠٨ . والذى وقع لنا فى مسلم هى رواية عن حرملة بن يحيى ، عن ابن وهب عن يونس . ينظر كتاب البيوع ، باب تحريم بيع الخمر والميتة : ٤١/٥ ، ٤٢ .

ورواه البخارى ومسلم جميعاً ، عن عبدان ، عن ابن المبارك ، عن يونس ، عن الزهرى ، به .

وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن بركة أبي الوليد ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعدا خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء فقال : « لعن الله اليهود — ثلاثاً — إن الله حرم عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا ثمنها . وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، أنبأنا خالد الحذاء ، عن بركة أبي الوليد[1] ، أنبأنا ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً فى المسجد مستقبلا الحِجْر ، فنظر إلى السماء فضحك ، [ثم] قال : « لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه »[2].

ورواه أبو داود ، من حديث خالد الحذاء[3] .

وقال الأعمش ، عن جامع بن شداد ، عن كلثوم ، عن أسامة بن زيد قال : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض نعوده ، فوجدناه نائما قد غطى وجهه ببرد عَدَنى ، فكشف عن وجهه وقال : « لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها » ، وفى رواية : « حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها » .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى : فإن كذّبك — يا محمد — مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم ، فقل : (ربكم ذو رحمة واسعة) وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة ، واتباع رسوله[4] ، (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين . وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن ، كما قال تعالى فى آخر هذه السورة : (إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم[5]) ، وقال : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب[6]) ، وقال تعالى : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم)[7] ، وقال تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب)[8] ، وقال : (إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود)[9] ، والآيات فى هذا كثيرة جداً .

---

(١) فى المسند : « عن بركة ، عن أبي الوليد » . وهو خطأ ، فبركة هو أبو الوليد ، ينظر الجرح لابن أبي حاتم ، الترجمة ١٧١٨ : ٤٣٢/١/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٤٧/١ . ورواه الإمام أحمد من وجه آخر : ٢٩٣/١ ، ٣٢٢ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب فى ثمن الخمر والميتة ، الحديث ٣٤٨٨ : ٢٨٠/٣ .

(٤) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب «١» تفسير : « واتباع رضوانه » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .

(٦) سورة الرعد ، آية : ٦ .

(٧) سورة الحجر ، آية : ٤٩ ، ٥٠ .

(٨) سورة غافر ، آية : ٣ .

(٩) سورة البروج الآيات : ١٢ — ١٤ .

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبثت بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا ؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك ، ولهذا قال : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) ، كما فى قوله : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم (١) ... الآية ، وكذلك الآية التى فى « النحل » مثل هذه(٢) سواء ، قال الله تعالى : (كذلك كذب الذين من قبلهم) ، أى : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء . وهى حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمر عليهم ، وأدال عليهم رسله الكرام ، وأذاق المشركين من أليم الانتقام .

(قل : هل عندكم من علم) ، أى ، بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه (فتخرجوه لنا) ، أى : فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ، (إن تتبعون إلا الظن) ، أى : الوهم والخيال . والمراد بالظن هاهنا : الاعتقاد الفاسد (وإن أنتم إلا تخرصون) أى : تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ولو شاء الله ما أشركنا) ، وقال : (كذلك كذب الذين من قبلهم) ، ثم قال : (ولو شاء الله ما أشركوا) ، فإنهم قالوا : « عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى » ، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم ، وقوله : (ولو شاء الله ما أشركوا) ، يقول تعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين (٣) .

وقوله تعالى : (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) ، يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل) لهم يا محمد : (فلله الحجة البالغة) ، أى : له الحكمة التامة ، والحجة البالغة فى هداية من هَدَى ، وإضلال من أضل ، (فلو شاء لهداكم أجمعين) ، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ، ويُبْغض الكافرين ، كما قال تعالى :(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى)(٤) ، وقال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض)(٥)

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٢٠ .
(٢) وهى قوله تعالى : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) ، الآية رقم : ٣٥ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٢٩ : ١٢/٢٠٩ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٣٥ .
(٥) سورة يونس ، آية : ٩٩ .

وقوله : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين[١]) .

قال الضحاك : لا حجة لأحد عصى الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده[٢] .

وقوله تعالى : (قل هلم شهداءكم) ، أى : أحضروا شهداءكم (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) ، أى : هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ، (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ، أى : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ، (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) ، أى : يشركون به ، ويجعلون له عديلا .

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

قال داود الأودى ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) إلى قوله : (لعلكم تتقون[٣]) .

وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا بكر بن محمد الصيرفى بمرو ، حدثنا عبد الصمد بن الفضل ، حدثنا مالك بن إسماعيل النهدى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة قال : سمعت ابن عباس يقول ، فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ، ثم قرأ: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ... الآيات .

ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه[٤] .

قلت : ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبى إسحاق ، عن عبد الله بن قيس ، عن ابن عباس ، به . والله أعلم .

وروى الحاكم أيضاً فى مستدركه من حديث يزيد بن هارون ، عن سفيان بن حسين ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس ، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على ثلاث ؟ ثم تلا رسول الله صلى الله

---

(١) سورة هود ، آية : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) رواه الطبرى عن الربيع بن أنس ، ينظر تفسيره ، الأثر ١٤١٣٢ : ٢١٢/١٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ، عن الفضل بن الصباح ، عن محمد بن فضيل ، عن داود الأودى ، بإسناده ، ولفظه : « من سره أن ينظر إلى الصحيفة التى عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، فليقرأ ... » ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . ينظر تحفة الأحوذى : ٤٤٦/٨ — ٤٤٨ .

وقوله : « التى عليها خاتمه » ، كناية عن أن هذه الآيات محكمات غير منسوخات .

(٤) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٧/٢ .

عليه وسلم : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ، حتى فرغ من الآيات . فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » .

ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وإنما اتفقا على حديث الزهرى ، عن أبى إدريس ، عن عبادة : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ... » الحديث . وقد روى سفيان بن حُسَين كلا الحديثين ، فلا ينبغى أن ينسب إلى الوهم فى أحد الحديثين إذا جمع بينهما ، والله أعلم[1] .

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد ــ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ــ (قل) لهم : (تعالوا) ، أى : هلموا وأقبلوا (أتل ما حرم ربكم عليكم) ، أى : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ، ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده : (ألا تشركوا به شيئاً) ، وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق ، وتقديره : وأوصاكم (ألا تشركوا به شيئاً) ، ولهذا قال فى آخر الآية : (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ، وكما قال الشاعر :

حَجَّ وأوصَى بِسُلَيمى الأَعْبُدَا أنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّمْ أَحَدَا
ولا يَزَلْ شَرَابُها مُبَرَّدا[2]

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم[3] .

وفى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك ، دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٨/٢ . وأما الحديث الذى اتفقا عليه ، فقد رواه البخارى فى كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار : ١١/١ . ولم يقع لنا حديث مسلم ، ولعلنا نستدركه فيما بعد .

(٢) الرجز فى تفسير الطبرى : ٢١٦/١٢ غير منسوب .

(٣) لقد اختصر الحافظ ابن كثير فى توجيهه لإعراب الآية ما قاله ابن جرير الطبرى ، الأمر الذى يقتضى أن نوضحه . قال ابن كثير : إن فى الكلام محذوفاً ، وإن تقديره : « وأوصاكم ألا تشركوا به شيئاً » . والواقع أنه ليس ثمة ما يقتضى تقدير الوصية هنا ، قال الطبرى : « وبالوالدين إحساناً ، يقول : وأوصى بالوالدين إحساناً ــ وحذف أوصى وأمر لدلالة الكلام عليه ، ومعرفة السامع بمعناه » وقد قال نحو هذا الكلام عند الآية : ٨٣ من سورة البقرة : ٢ / ٢٩٠ / ٢٩٢ ، والآية ٣٦ من سورة النساء : ٣٣٤/٨ .

وأما موضع (أن لا تشركوا) من الإعراب ، فقال الطبرى إنه إما خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هو أن لا تشركوا . وإما بدل من ما ، فيكون فى موضع نصب ، والتقدير : « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، أتل أن لا تشركوا به شيئاً » .

وقد تعرض الطبرى أيضاً لـ « لا » فى قوله تعالى : « أن لا تشركوا » ، فقد قال : إنها تحتمل أن تكون نافية أو ناهية ، وإذا كانت نافية : (تشركوا) منصوبه بأن ، كما يقال : « أمرتك أن لا تقوم » ، وأما إذا كانت ناهية فالفعل مجزوم بها .

وإذا كانت « لا » نافية ، والفعل منصوباً بأن ، فالكلام خبر ، وهنا يسأل الطبرى سؤالا : « كيف يجوز توجيه قوله : (ألا تشركوا) على معنى الخبر ، وقد عطف عليه بقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) وما بعد ذلك من جزم النهى ؟ » .

وقد أجاب بأن مثل هذه الآية مثلها فى قوله تعالى : (قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين) ، فقد عطف فيها نهى على خبر ، وكما قال الشاعر ــ وذكر الرجز الذى ساقه ابن كثير ، فقد عطف النهى فيه ، وهو : « ولا تكلم » ، « ولا يزل » على الخبر ، وهو : « أن لا ترى » .

ومن هذا يتبين أن تقدير الوصية إنما هو عند قوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) . وأن الرجز شاهد على عطف النهى على الخبر ــ كما قال ــ وأن قول العرب : « أمرتك أن لا تقوم » شاهد على نصب الفعل بأن المقترنة بلا النافية .

سرق ، وإن شرب الخمر » — وفى بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه السلام قال فى الثالثة : «وإن رَغِـم أنفُ أبى ذر»[1] . فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : «وإن رغم أنف أبى ذر» .

وفى بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئاً . وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى ، غفرت لك»[2] .

ولهذا شاهد في القرآن ، قال الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[3] ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود : « من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة »[4] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وروى ابن مردويه من حديث عباده وأبى الدرداء : « لاتشركوا بالله شيئاً ، وإن قُطِّعتم أو صُلبتم أو حُرِّقتم » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، حدثنى سيار بن عبد الرحمن ، عن يزيد بن قَوْذر ، عن سلمة بن شُرَيح ، عن عبادة بن الصامت قال : أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع خصال : « ألا تشركوا بالله شيئاً ، وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم » .

وقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) ، أى : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أى : أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)[5] .

وقرأ بعضهم : « ووَصّى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا [6] » .

والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين ، كما قال : (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم

---

(١) البخارى ، كتاب اللباس ، باب الثياب البيض : ٧/١٩٢ ، ١٩٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة : ١/٦٦ ، وفيهما أن الرسول عليه السلام قال : «على رغم أنف أبي ذر» . وبهذا أخرجه الإمام أحمد فى المسند : ٥/١٦٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند : ٥/١٥٤ . والترمذى ، فى أبواب الدعوات عن أنس بن مالك ، وقال : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ويقول الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى ، ٩/٥٢٥ : «أخرجه أحمد والدارمى عن أبى ذر» وقد مضى شرح «قراب» فى : ٢/٢٨٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٨ . وقد أورد الحافظ ابن كثير عندها كثيراً من الأحاديث ، وخرجناها هناك ، ينظر : ٢/٢٨٥ — ٢٩١ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة : ١/٦٥ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .

(٦) قال أبو حيان ، في البحر المحيط ، ٦/٢٥ : «قرأ الجمهور (وقضى) فعلا ماضياً ، من القضاء . وقرأ بعض ولد معاذ بن جبل : (وقضاء ربك) مصدر من قضى مرفوعاً على الابتداء ، و(أن لا تعبدوا) الخبر . وفى مصحف ابن مسعود وأصحابه ، وابن عباس ، وابن جبير ، والنخعى ، وميمون بن مهران : [ووصى] من التوصية . وقرأ بعضهم : وأوصى من الإيصاء . وينبغى أن يحمل ذلك على التفسير ، لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف ، والمتواتر هو : (وقضى) ، وهو المستفيض عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهم فى أسانيد القراء السبعة» . وينظر الكشاف للزمخشرى ، : ٢/٥١٢ . فقد ساق هذه القراءات .

فأنبئكم بما كنتم تعملون (١)) : فأمر بالإحسان إليهما ، وإن كانا مشركين بحسبهما ، وقال تعالى : (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا(٢)) ... الآية . والآيات فى هذا كثيرة . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم » : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها قلت : ثم أىّ ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أىّ ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قال ابن مسعود : حدثنى بهن رسول الله. صلى الله عليه وسلم ، ولو استزدته لزادنى (٣) » .

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه بسنده عن أبى الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت ، كل منهما يقول : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم : « أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا ، فافعل » .

ولكن فى إسناديهما ضعف ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد ، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) ، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سوّلت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشيةَ العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار . ولهذا جاء فى الصحيحين ، من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًا وهو خلقك . قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك . قلت : ثم أىّ قال : أن تُزَانىَ حليلة جارك : ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذين لا يدعون مع الله آلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون)(٤) ... الآية .

وقوله : (من إملاق) ، قال ابن عباس ، وقتادة ، والسُّدِّى : هو الفقر (٥) . أى : ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل . وقال فى سورة « سبحان » : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) (٦) أى : خشية حصول فقر ، فى الآجل ، ولهذا قال هناك : (نحن نرزقهم وإياكم) ، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أى : لا تخافوا من فقركم بسببهم ، فرزقهم على الله وأما فى هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا ، قال : (نحن نرزقكم وإياهم) ، لأنه الأهم هاهنا ، والله أعلم .

---

(١) سورة لقمان ، آية : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٨٣ .

(٣) البخارى ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها : ١/١٤٠ ، وكتاب الجهاد ، باب فضل الجهاد والسير : ٤/١٧ ، وكتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه : ٨/٢ ، وينظر كتاب التوحيد ، باب وسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عملا : ٩/١٩١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال : ١/٦٣ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة البقرة : ٦/٢٢ . وكتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه : ٨/٩ ، وكتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب إثم الزناة : ٨/٢٠٤ . وكتاب الديات ، باب قول الله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) : ٩/٢ . وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (فلا تجعلوا لله أنداداً) : ٩/١٨٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده : ١/٦٣ ، ٦٤ .

(٥) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤١٣٥ / ١٤١٣٧ : ١٢/٢١٧ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٣١ .

وقوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ، كقوله تعالى : (قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) (١) ، وقد تقدم تفسيرها في قوله : (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) (٢) .

وفي الصحيحين ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (٣) .

وقال عبد الملك بن عُمَيْر ، عن وَرّاد ، عن مولاه المغيرة قال : « قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مُصْفَح : فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ! ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حَرّم الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن .

أخرجاه (٤) .

وقال كامل أبو العلاء ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، إنا نغار : قال : والله إني لأغار ، والله أغير مني ، ومن غيرته نهى عن الفواحش » :

رواه ابن مردويه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وهو على شرط الترمذي ، فقد روى بهذا السند : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين (٥) » .

وقوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) ، وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء في الصحيحين ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » :

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٠ .

(٣) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ما يذكر في الذات والنعوت : ١٤٧/٩ ، وكتاب النكاح ، باب الغيرة : ٤٥/٧ . وكتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام : ٧٢/٦ ، وتفسير سورة الأعراف : ٧٤/٦ ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش : ١٠٠/٨ .

(٤) تفسير الطبري ، كتاب التوحيد ، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله : ١٥١/٩ ، وكتاب النكاح ، باب الغيرة : ٤٥/٧ ، وكتاب المحاربين ، باب من رأى مع امرأته رجلا : ٢١٥/٨ . ومسلم ، كتاب اللعان : ٢١١/٤ .

ومصفح – روى بكسر الفاء وفتحها – وعلى رواية الكسر يكون المعنى : غير ضارب بصفح السيف ، وهو جانبه ، بل أضربه بحده . ويكون حينئذ وصفاً للضارب . وعلى رواية الفتح يكون من صفة السيف ، فلا يكون مضروباً به بعرضه ، بل بحده .

(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، باب ما جاء في أعمار هذه الأمة ، الحديث رقم ٢٤٣٣ : ٦٢٣/٦ ، ٦٢٤ ، ولفظه : « عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين » ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة » .

وفي للفظ لمسلم : « والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم » ... وذكره ، قال الأعمش : فحدثت به إبراهيم ، فحدثني عن الأسود ، عن عائشة ، بمثله (١) .

وروى أبو داود والنسائي ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال : زان محصن يرجم ، ورجل قتل [رجلا] متعمدا فيقتل ، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله ، فيقتل أو يصلب أو ينفي من الأرض » .

وهذا لفظ النسائي (٢) .

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه أنه قال وهو محصور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس » . فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منه بعد إذ هداني الله ، ولا قتلت نفسا ، فيم تقتلونني » رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن (٣) .

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهَد ــ وهو المستأمن من أهل الحرب ــ كما رواه البخاري ، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قتل معاهدا لم يَرِح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجَد من مسيرة أربعين عاما (٤) » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل معاهَدا له ذمة الله وذمة رسوله ، فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » .

رواه ابن ماجه ، والترمذي وقال : حسن صحيح (٥) .

وقوله : (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ، أي : هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه (٦) :

---

(١) البخاري ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى (أن النفس بالنفس ...) : ٦/٩ . ومسلم ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات ، باب ما يباح من دم المسلم : ١٠٦/٥ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب الحكم فيمن ارتد ، الحديث ٤٣٥٣ : ١٢٩/٤ . والنسائي ، كتاب تحريم الدم ، باب الصلب : ١٠١/٧ ، ١٠٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦٣/١ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب الفتن ، باب ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث ، الحديث ٢٢٤٧ : ٣٧٢/٦ / ٣٧٤ . والنسائي ، كتاب تحريم الدم ، باب ذكر ما يحل به دم المسلم : ٩١/٧ ، ٩٢ . وابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب لا يحل دم امرىء مسلم إلا في ثلاث ، الحديث ٢٥٣٢ : ٨٤٧/٢ .

(٤) البخاري ، الجزية ، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم : ١٢٠/٤ . وكتاب الديات ، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم : ١٦/٩ .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الديات ، باب من قتل معاهداً ، الحديث ٢٦٨٧ : ٨٩٦/٢ . وتحفة الأحوذي ، باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهداً ، الحديث ١٤٢٢ : ٦٥٨/٤ ، ٦٥٩ .

(٦) تضمنت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها عشر وصايا ، اشتملت هذه الآية منهن على خمس ، وهي : النهي عن الشرك ، والإحسان إلى الوالدين ، والنهي عن قتل الأولاد مخافة الفقر ، والنهي عن الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق .

وأما الخمس الأخر فقد تضمنت الآية الثانية منهن أربعا ، وتضمنت الثالثة واحدة . ومن المفسرين من قارن بين هذه الوصايا وبين وصايا التوراة العشر ، وأثبت بالدليل أن وصايا هذه السورة أدق ، وأجمع ، وأشمل .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

قال عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) (وإن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) ... الآية ، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد . فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : (يسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم) ، قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم .

رواه أبو داود (١) .

وقوله : (حتى يبلغ أشده) ، قال الشعبي ، ومالك ، وغير واحد من السلف : يعني حتى يحتلم .

وقال السدى : حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : ستون سنة . قال : وهذا كله بعيد هاهنا ، والله أعلم .

وقوله : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) ، يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه فى قوله تعالى : (ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين)(٢) . وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان .

وفى كتاب الجامع لأبى عيسى الترمذى ، من حديث الحسين بن قيس أبى على الرَّحَبى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان : « إنكم وُلِّيتم أمرا (٣) هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » . ثم قال : لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحُسَين ، وهو ضعيف فى الحديث ، وقد روى بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا (٤) .

قلت : وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره ، من حديث شريك ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين بها هلكت القرون المتقدمة : المكيال والميزان » .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الوصايا ، باب مخالطة اليتيم فى الطعام ، الحديث ٢٨٧١ : ٣/١١٤ ، ١١٥ . وينظر فيما تقدم : ١/٢٧٤ ، ٢٧٥ عند تفسير الآية : ٢٢ من سورة البقرة .

(٢) سورة المطففين ، الآية : ١-٦ .

(٣) لفظ الترمذى : « إنكم قد وليتم أمين ... »

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب البيوع ، باب ما جاء فى المكيال والميزان : ٤/٤٠٨ .

وقوله تعالى : (لا نكلف نفسا إلا وسعها) ، أى : من اجتهد فى أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده (١) فلا حرج عليه .

وقد روى ابن مردويه من حديث بقية ، عن مُبَشّر بن عبيد ، عن عمرو بن ميمون بن مهران ، عن أبيه ، عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها) ، فقال : من أوفى على يده فى الكيل [والميزان] ، والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ . وذلك تأويل (وسعها) .

هذا مرسل غريب .

وقوله : (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذاقربى) كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين لله شهداء بالقسط (٢) وكذا التى تشبهها فى سورة النساء ـ يأمر تعالى بالعدل [فى الفعال والمقال ، على القريب والبعيد ، والله تعالى يأمر بالعدل] لكل أحد ، فى كل وقت ، وفى كل حال .

وقوله : (وبعهد الله أوفوا) ، قال ابن جرير : يقول وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا . وإيفاء ذلك : أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله (٣) .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) ، يقول تعالى : هذا وصاكم به ، وأمركم به ، وأكد عليكم فيه (لعلكم تذكرون) ، أى : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد « الذال » ، وآخرون بتخفيفها (٤) .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ، وقوله : (وأقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ، ونحو هذا فى القرآن . قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله (٥) .

ونحو هذا قاله مجاهد ، وغير واحد .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا الأسود بن عامر : شاذان ، حدثنا أبو بكر ـ هو ابن عياش ـ عن عاصم ـ هو ابن أبى النجود ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود رضى الله عنه ـ قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(٦) .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير : «وبذل وجهه» .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٨ . ويعنى بالتى تشبهها فى سورة النساء هى الآية رقم : ١٣٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٢/٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٤) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤/٢٥٣ : «وقرأ حفص . والأخوان : (تذكرون) حيث وقع بتخفيف الذال ، حذفت التاء ، إذ أصله : «تتذكرون» ... وقرأ باقى السبعة : (تذكرون) بتشديده ، أدغم تاء «تفعل» فى «الذال» .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٦٦ : ١٢/٢٢٩ ، ٢٣٠ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٤٦٥ . وينظر أيضاً : ١/٤٣٥ .

وكذا رواه الحاكم ، عن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار ، عن أبي بكر بن عياش ، به : وقال : صحيح ولم يخرجاه (١) .

وهكذا رواه أبو جعفر الرازى ، وورقاء وعمرو بن أبي قيس ، عن عاصم ، عن أبي وائل شقيق بن سلمة ، عن ابن مسعود به مرفوعا نحوه .

وكذا رواه يزيد بن هارون ومسدد والنسائي ، عن يحيى بن حبيب بن عربي — وابن حبان ، من حديث ابن وهب — أربعتهم عن حماد بن زيد ، عن عاصم ، عن أبي وائل ، ، عن ابن مسعود ، به .

وكذا رواه ابن جرير ، عن المثنى ، عن الحمانى ، عن حماد بن زيد (٢) ، به .

ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق ، عن إسماعيل بن إسحاق القاضى ، عن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، به كذلك ، وقال : صحيح ولم يخرجاه (٣) .

وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم ، من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس ، عن أبي بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله بن مسعود ، به مرفوعا

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه من حديث يحيى الحمانى ، عن أبي بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن زرّ ، به؛ فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقين ، ولعل هذا الحديث عند عاصم بن أبي النجود ، عن زر — وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود ، به . والله أعلم .

قال الحاكم : وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر ، من وجه غير معتمد (١) .

يشير إلى الحديث الذى قال الإمام أحمد ، وعبد بن حميد جميعا — واللفظ لأحمد : حدثنا عبد الله بن محمد — وهو أبو بكر بن أبي شيبة — أنبأنا أبو خالد الأحمر ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فخط خطاً هكذا أمامه ، فقال : هذا سبيل الله . وخطين عن يمينه ، وخطين عن شماله ، وقال : هذه سبيل الشيطان . ثم وضع يده فى الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (٣) .

ورواه ابن ماجه (٤) فى كتاب السنة من سننه والبزار عن أبي سعيد عبد الله بن سعيد عن [أبي] خالد الأحمر ، به .

قلت : ورواه الحافظ بن مردويه من طريقين ، عن أبي سعيد الكندى ، حدثنا أبو خالد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ، وخط عن يمينه خطا ، وخط عن يساره خطا ، ووضع يده على الخط الأوسط ، وتلا هذه الآية : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) .

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة الأنعام : ٣١٨/٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٤١٦٨ : ٢٣٠/١٢ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٩٧/٣ .
(٤) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث ١١ : ٦/١ .

ولكن العمدة على حديث ابن مسعود ، مع مافيه من الاختلاف إن كان مؤثرا ، وقد روى موقوفا عليه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن أبان : أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جوَادّ ، وعن يساره جوَادّ ، وثمّ رجال يدعون من مر بهم . فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة . ثم قرأ ابن مسعود : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[١] ... الآية .

وقال ابن مردويه : حدثنا أبو عمرو ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، حدثنا آدم ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا أبان بن عياش ، عن مسلم بن أبى عمران ، عن عبد الله بن عمر : سأل عبد الله عن الصراط المستقيم ، فقال ابن مسعود : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ... وذكر تمام الحديث كما تقدم ، والله أعلم .

وقد روى من حديث النوّاس بن سمْعان نحوه ، قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء ، حدثنا ليث ـ يعنى ابن سعد ـ عن معاوية بن صالح : أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه ، عن أبيه ، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن[٢] جنبَى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس ، ادخلوا الصراط المستقيم [جميعا] ، ولا تتفرجوا[٣] وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك . لاتفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق [الصراط] واعظ الله فى قلب كل مسلم [٤] » .

ورواه الترمذى والنسائى ، عن على بن حجر ـ زاد النسائى ـ وعمرو بن عثمان ، كلاهما عن بقية بن الوليد ، عن بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن جُبَير بن نفير ، عن النوّاس بن سمْعان ، به . وقال الترمذى : حسن غريب [٥] .

وقوله : (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) ، إنما وحد سَبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [٦]) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا سفيان بن حسين ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على هذه

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٧٠ : ١٢/٢٣٠ .
(٢) فى المسند : «وعلى جنبَى» .
(٣) فى المخطوطة : «ولا تعرجوا» . والمثبت عن المسند . ومعنى «لا تتفرجوا» : لا تتكشفوا وتتفرقوا .
(٤) مسند أحمد : ٤/١٨٢ ، ١٨٣ .
(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الأمثال ، باب ما جاء فى مثل الله عز وجل لعباده ، الحديث ٣٠١٩ : ٨/١٥٢/١٥٤ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .

الآيات الثلاث ؟ ثم تلا : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) ، حتى فرغ من ثلاث الآيات ، ثم قال : « ومن وفى بهن أجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا أدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن آخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه ، وإن شاء عفا عنه » :

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قال ابن جرير : (ثم آتينا موسى الكتاب) ، تقديره : ثم قل يا محمد مخبراً عنا بأنا آتينا موسى الكتاب ، بدلالة قوله : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) :

قلت : وفى هذا نظر ، و« ثُم » هاهنا إنما هى لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب هاهنا ، كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أبوهُ * ثُمَّ [قد] سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّه(١)

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) ، عطف بمدح التوراة [ورسولها ، فقال : (ثم آتينا موسى الكتاب) . وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة] ، كقوله تعالى : (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربيا (٢)) . وقوله أول هذه السورة : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا (٣)) ... الآية ، وبعدها : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) ... الآية ، وقال تعالى مخبرا عن المشركين : (فلما جاءهم الحق من عندنا ، قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) ؛ قال تعالى : (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل، قالوا : ساحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون) (٤) وقال تعالى مخبرا عن الجن أنهم قالوا : (يا قومنا ، إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق (٥)) ... الآية .

وقوله تعالى : (تماماً على الذى أحسن وتفصيلا) ، أى : آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تماماً كاملا جامعا لجميع ما يحتاج إليه فى شريعته ، كما قال (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء (٦)) الآية .

---

(١) البيت فى « مغنى اللبيب » لابن هشام ، ذكره عند الحرف « ثم » . والبيت فيه ذكر لسيادة الابن قبل الأب ، وسيادة الأب قبل الجد . وعليه فليست « ثم » فيه للترتيب . وقد أجاب ابن هشام - كما قال ابن كثير - بأن « ثم » فى هذا البيت لترتيب الأخبار ، لا لترتيب الحكم ، كما يقال : « بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب » ، أى : ثم أخبرك أن الذى صنعته أمس أعجب » .

هذا وقد مضى البيت فى سورة البقرة عند الآية ٢٩ . ينظر : ١/٩٨ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية : ١٢ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩١ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٩٢ .

(٥) سورة القصص ، آية : ٤٨ .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٤٥ .

وقوله : (على الذى أحسنَ)، أى : جزاء على إحسانه فى العمل ، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا ، كقوله : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(١) ، وكقوله : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما (٢)) ، وقوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون) (٣) .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن) ، يقول : أحسن فيما أعطاه (٤) الله.

وقال قتادة : من أحسن فى الدنيا تمم له ذلك فى الآخرة (٥) .

واختار ابن جرير أن تقدير الكلام : (آتينا موسى الكتاب تماما) على إحسانه(٦) . فكأنه جعل « الذى » مصدرية ، كما قيل فى قوله . تعالى : (وخضتم كالذى خاضوا (٧)) أى : كخوضهم . وقال ابن رَوَاحة :

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ فى المرسلين ونصراً كالذى نُصِرُوا (٨)

وقال آخرون : الذى هاهنا بمعنى « الذين » .

قال ابن جرير : وقد ذكر عن عبد الله بن مسعود : أنه كان يقرؤها : (تماما على الذين أحسنوا (٩)) .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (تماما على الذى أحسن) ، قال : على المؤمنين والمحسنين . وكذا قال أبو عبيدة .

قال البغوى : « والمحسنون : الأنبياء والمؤمنون ، يعنى : أظهرنا فضله عليهم .

قلت: كما قال تعالى : (قال : يا موسى ، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامي)(١٠) ، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام ، لأدلة أخر .

قال ابن جرير : وروى [أبو] عمرو بن العلاء ، عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها : (تماما على الذى أحسنُ) ، رفعا — بتأويل : (على الذى هو أحسنُ) — ثم قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها ، وإن كان لها فى العربية وجه صحيح (١١) .

وقيل : معناه : تماما على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه . حكاه ابن جرير والبغوى .

ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه ، ولله الحمد .

---

(١) سورة الرحمن ، آية : ٦٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .
(٣) سورة السجدة ، آية : ٢٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٧٣ : ٢٣٥/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٧٤ : ٢٣٥/١٢ .
(٦) قال الطبرى ٢٣٨/١٢ : « إيتائى موسى الكتاب تماماً لكرامة الله موسى ، على إحسان موسى ... » .
(٧) سورة التوبة ، آية : ٦٩ .
(٨) البيت فى سيرة ابن هشام : ٣٧٤/٢ .
(٩) تفسير الطبرى : ٢٤٣/١٢ .
(١٠) سورة الأعراف ، آية : ١٤٤ .
(١١) تفسير الطبرى : ٢٣٦/١٢ ، وتكلة كلامه : « لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قرأة الأنصار .

وقوله : (وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة) ، فيه مَدْح لكتابه الذى أنزله الله عليه ، (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ؛ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) ، فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووَصْفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة :

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال ابن جرير : معناه : وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا : (إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا[1]) .

يعنى : لينقطع عذرهم ، كما قال تعالى : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) ... الآية[2] .

وقوله : (على طائفتين من قبلنا) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هم اليهود والنصارى[3] . وكذا قال مجاهد ، والسدى ، وقتادة ، وغير واحد .

وقوله : (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) ، أى : وماكنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن مع ذلك فى شغل وغفلة عماهم فيه .

وقوله : (أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) ، أى : وقطعنا تَعَلُّلكم أن تقولوا : (لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم) فيما أوتوه ، كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم[4]) ... الآية ، وهكذا قال هاهنا : (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) ، يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم النبى العربى قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما فى القلوب ، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصَدَف عنها) ؛ أى : لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره ، بل صَدَف عن اتباع آيات الله ، أى : صَرَف الناس وَصدهم عن ذلك ، قاله السدى[5] .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : (وصدف عنها) : أعرض[6] عنها .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢/٢٤٠ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٤٧ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٨٠ : ١٢/٢٤٠ . وآثار الموافقين لهذا القول بعده : ١٢/٢٤١ .

(٤) سورة فاطر ، آية : ٤٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤١٩٤ : ١٢/٢٤٤ .

(٦) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤١٩١ — ١٤١٩٣ : ١٢/٢٤٤ .

وقول السدى هاهنا فيه قوة ، لأنه قال : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) ، كما تقدم فى أول السورة : (وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم) (١) ، وقال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) (٢) ، وقال فى هذه الآية الكريمة : (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) .

وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) ، أى : لا آمن بها ولا عمل بها ، كقوله تعالى : (فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى) (٣) ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه . ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر ، والله أعلم .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى متوعدا للكافرين به ، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته ، والصادّين عن سبيله : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) ، وذلك كائن يوم القيامة . (أو يأتى بعض آيات ربك) ، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عمارة ، حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلعَ الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) .

حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن مُنَبِّه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ هذه الآية .

هكذا روى هذا الحديث(٤) من هذين الوجهين . ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى ، من طرق ، عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة ، عن أبى زرعة بن عمرو بن جَرير ، عن أبى هريرة ، به .

وأما الطريق الثانى فرواه عن « إسحاق » ، غير منسوب ، فقيل : هو ابن منصور الكوسج ، وقيل: إسحاق بن نصر (٥) والله أعلم .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة القيامة ، آية : ٣١ ، ٣٢ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة الأنعام : ٦/٧٣ .
(٥) قال ابن حجر فى فتح البارى ٨/٢٠٦ : « وإسحاق فى الطريق الأخرى : جزم خلف بأنه ابن نصر ، وأبو مسعود بأنه ابن منصور ، وقول خلف أقوى ، والله أعلم » .

وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع الجنديسابوري ، كلاهما عن عبد الرزاق [١] ، به .

وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة ، كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن ابن يعقوب مولى الحُرَقة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، به [١] .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن فضيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض [٢] .

ورواه أحمد ، عن وكيع ، عن فضيل بن غزوان ، عن أبي حازم سلمان، عن أبي هريرة به . وعنده : « والدخان »[٣]

ورواه مسلم ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب ، عن وكيع [٤] .

ورواه هو أيضا والترمذي [٥] ، من غير وجه ، عن فضيل بن غزوان ، به .

ورواه إسحاق بن عبد[٦] الله الفروي ، عن مالك، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة . ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه ، لضعف الفَرْوي ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا شعيب بن الليث ، عن أبيه ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمن الناس كلهم ، وذلك (حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل [٧]) ... الآية .

ورواه ابن لَهيعة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، به . ورواه وكيع ، عن فضيل بن غزوان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، به .

أخرج هذه الطرق كلَّها الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره .

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن يحيى ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، [عن أيوب] عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، قُبل منه » [٨]

لم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة .

---

(١) مسلم ، كتاب ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان : ١/٩٥ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٢٤٧ : ١٢/٢٦٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٤٥ ، ٤٤٦ .
(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان : ١/٩٥ .
(٥) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنعام ، الحديث ٥٠٦٧ : ٨/٤٤٩ ، ٤٥٠ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح »
(٦) كذا ، وهو إسحاق بن محمد بن إسماعيل بن عبد الله الفروي ينظر التهذيب : ١/٢٤٨ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٢١٩ : ١٢/٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٨) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٢٢٠ ، ١٢/٢٥٦ . وما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر .

حديث آخر عن أبي ذر الغفارى ، فى الصحيحين وغيرهما ، من طرق ، عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى ، عن أبيه ، عن أبي ذر جُنْدَب بن جُنَادة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تَدْرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدرى . قال : إنها تنتهى دون العرش ، ثم تخرّ ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعى ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، وذلك حين : (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[١] » .

حديث آخر عن حُذَيفة بن أسيد أبى سَرِيحة الغفارى ، رضى الله عنه :

قال الإمام أحمد بن حنبل[٢] : حدثنا سفيان ، عن فُرَات ، عن أبي الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : « أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ، ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال . وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق — أو : تحشر — الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا[٣] » .

وهكذا رواه مسلم[٤] وأهل السنن الأربعة ، من حديث فرات القزاز ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن حذيفة [بن أسيد ، به . وقال الترمذى : حسن صحيح .

حديث آخر عن حذيفة] بن اليمان رضى الله عنه :

قال الثورى ، عن منصور ، عن ربْعى ، عن حذيفة قال : « سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فبينا الذين كانوا يصلون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا تسرى ، قد قامت مكانها ، ثم يرقدون ، ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ، ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم[٥] ، حتى يتطاول عليهم الليل ، فيفزع الناس ولا يصبحون . فبينا هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ، ولا ينفعهم إيمانهم » .

رواه ابن مردويه ، وليس فى الكتب الستة من هذا الوجه ، والله أعلم .

حديث آخر عن أبي سعيد الخدرى — واسمه : سعد بن مالك بن سنان — رضى الله عنه وأرضاه .

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان : ٩٦/١ ، والبخارى ، تفسير سورة يس : ١٥٤/٦ ، ومسند الإمام أحمد : ١٦٥/٥ .

(٢) فى المسند ، قال الإمام أحمد : « حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان » وأثبتنا ما فى مخطوطة ابن كثير ، ذلك أن الإمام أحمد يروى عن سفيان بن عيينة ، والله أعلم .

(٣) مسند الإمام أحمد ٧/٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الفتن ، باب فى الآيات التى تكون قبل الساعة : ١٧٨/٨ ، ١٧٩ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن : باب ما جاء فى الخسف ، الحديث ٢٢٧٤ : ٤١٣/٦ — ٤١٦ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الآيات ، الحديث ٤٠٥٥ : ١٣٤٧/٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب أمارات الساعة ، الحديث .

(٥) كذا فى الدر المنثور : ٥٧/٣ . وفى المخطوطة : « جيوبهم » بالياء .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا ابن أبي ليلى ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها) ، قال : طلوع الشمس من[1] مغربها » .

ورواه الترمذي ، عن سفيان بن وكيع ، عن أبيه ، به : وقال : غريب ، ورواه بعضهم ولم يرفعه [2] .

وفي حديث طالوت بن عباد ، عن فضال بن جبير ، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عَجْلان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أوّلَ الآيات طلوعُ الشمس من مغربها [3] » .

وفي حديث عاصم بن أبي النَّجُود ، عن زرّ بن حبيش ، عن صفوان بن عَسَّال قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة ، قال : لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » .

رواه الترمذي [4] ، وصححه النسائي ، وابن ماجه في حديث طويل .

حديث آخر عن عبد الله بن أبي أوفى :

قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا ضرار بن صُرَد ، حدثنا ابن فضيل ، عن سليمان بن زَيد ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون ، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ، ثم ينام ، ثم يقوم فيقرأ حزبه ، ثم ينام . فبينما هم كذلك إذ صاح الناس بعضهم في بعض فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت ، [من [5] مغربها ، فضجّ الناس ضجة واحدة] حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها — قال : حينئذ . لا ينفع نفساً إيمانها » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وليس هو في شيء من الكتب الستة .

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أبو حيان ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال : جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه يقول — وهو يحدث في الآيات — : إن أولها خروج الدجال . قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣١/٣ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنعام ، الحديث ٥٠٦٦ : ٤٤٨/٨ ، ٤٤٩ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، من طريق أبي حيان التيمي ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن عبد الله بن عمرو . ينظر مسلم ، كتاب الفتن ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض : ٢٠٢/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب أمارات الساعة ، الحديث . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب طلوع الشمس من مغربها ، الحديث ٤٠٦٩ : ١٣٥٣/٢ .

(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار ، وما ذكر من رحمة الله لعباده ، الحديث ٣٦٠٢ : ٥١٩/٩ ، ٥٢٠ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب طلوع الشمس من مغربها ، الحديث ٤٠٧٠ : ١٣٥٣/٢ .

(٥) من الدر المنثور للسيوطي : ٥٨/٣ ، ٥٩ .

فانصرف النفر إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذى سمعوه من مَرْوان فى الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئا . قد حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم [فى مثل ذلك حديثا لم أنسه بعد،سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم] (١) يقول : إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها . ثم قال عبد الله — وكان يقرأ الكتب— : وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع ، فأذن لها فى الرجوع ، حتى إذا(٢) بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل : أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع ، فلم يرد عليها شىء ، ثم تستأذنُ فى الرجوع فلا يرد عليها شىء [ثم تستأذن فلا يرد عليها شىء(٣)] حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفت أنه إذا أذن لها فى الرجوع لم تدرك المشرق ، قالت : ربى ، ما أبعد المشرق . من لى بالناس . حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت فى الرجوع ، فيقال لها : من مكانك فاطلعى . فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل(٤) ﴾ ... الآية .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود وابن ماجه ، فى سننيهما ، من حديث أبى حيان التيمى — واسمه يحيى ابن سعيد بن حيان — عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير(٥) ، به .

حديث آخر ، عنه :

قال الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرقى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم — [ابن] زبريق الحمصى — حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ابن لهيعة ، عن حيى بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجدا ينادى ويجهر : إلهى ، مُرْنى أن أسجد لمن شئت . قال : فيجتمع إليه زبانيته فيقولون : ياسيدهم ، ما هذا التضرع ؟ فيقول : إنما سألت ربى أن يُنْظِرَ إلى الوقت المعلوم ، وهذا الوقت المعلوم . قال : ثم تخرج دابة الأرض من صَدْع فى الصفا — قال : فأول خطوة تضعها بأنطاكيا ، فتأتى إبليس فتَخْطمه(٦) » .

هذا حديث غريب جدا وسنده ضعيف ، ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك ، فأما رفعه فمنكر ، والله أعلم .

---

(١) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه عن مسند الإمام ، وهو سقط نظر .

(٢) بدا الله أن تطلع ، أى : قضى . وفى اللسان : « وفى حديث الأقرع والأبرص والأعمى : بدا الله عز وجل أن يبتليهم ، أى : قضى بذلك » .

(٣) سقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت عن مسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٠١/٢ .

(٥) مسلم ، كتاب الفتن ، باب فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض : ٢٠٢/٨ ، ٢٠٣ . وأبو داود ، كتاب الملاحم ، باب ١١ وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب طلوع الشمس من مغربها ، الحديث ٤٠٦٩ : ١٣٥٣/٢ . وقد مضى قريبا تخريج هذا الحديث فى هذه الكتب .

(٦) فى المخطوطة : « فتلطمه » . والمثبت من الدر المنثور للسيوطى ٦٣/٣ . وفى اللسان : والخطم من كل دابة مقدم أنفها وفمها نحو الكلب والبعير .

حديث آخر عن عبد الله بن عمرو ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهم أجمعين .

قال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضَمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد يرده إلى مالك بن يخامر ، عن ابن السعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل» . فقال معاوية ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إن الهجرة] خصلتان : إحداهما(١) تهجر السيئات ، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبوله حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل (٢) » .

هذا الحديث حسن الإسناد ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، والله أعلم .

حديث آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه .

قال عوف الأعرابي ، عن محمد بن سيرين ، حدثني أبو عبيدة ، عن ابن مسعود أنه كان يقول : ما ذكر من الآيات فقد مضى(٣) غير اربع : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، وخروج يأجوج ومأجوج — قال : وكان يقول : « الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ، ألم تر أن الله يقول : (يوم يأتي بعض آيات ربك) ... الآية كلها ، يعني طلوع الشمس من مغربها(٤) .

حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، عن ابن عباس مرفوعاً — فذكر حديثاً طويلا غريباً منكراً رفعه ، وفيه : أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ مقرونين ، وإذا نصّفا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كانا عليه . وهو حديث غريب جداً ، بل منكر ، بل موضوع إن ادعى أنه مرفوع ، فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه — وهو الأشبه — فغير مدفوع ، والله أعلم .

وقال سفيان ، عن منصور ، عن عامر ، عن عائشة قالت : إذا خرج أول الآيات ، طُرحت [الأقلام] ، وحبست الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال(٥) . رواه ابن جرير .

فقوله : (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) ، أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنا قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلّطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة ، وعليه يحمل قوله تعالى : (أو كسبت في إيمانها خيراً) ، أي : ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك .

---

(١) لفظ المسند : « إحداهما أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١٩٢/١ .
(٣) لفظ الطبرى : « فقد مضين » .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٢٢٩ : ٢٦٠/١٢ .
(٥) المصدر السابق ، الأثر ١٤٢٤٦ : ٢٦٥/١٢ .

وقوله : (قل انتظروا إنا منتظرون) ، تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب وقت القيامة ، وظهور أشراطها ، كما قال : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم)(١) ، وقال تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)(٢) .. الآية .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى(٣) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (إن الذين فارقوا(٤) دينهم كانوا شيعاً) ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فتفرقوا . فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل (إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) ... الآية (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد بن عَمْرو السكونى ، حدثنا بقية بن الوليد : كتب إلىّ عباد بن كثير ، حدثنى ليث ، عن طاوس ، عن أبى هريرة قال :قال(٦) رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فى هذه الأمّة (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء)،وليسوا منك ، هم أهل البدع ، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة، من هذه الأمة(٧) .

لكن هذا الإسناد لا يصح ، فإن عباد بن كثير متروك الحديث ، ولم يختلق هذا الحديث ، ولكنه وهم فى رفعه ؛ فإنه رواه سفيان الثورى ، عن ليث ــ وهو ابن أبى سليم ــ عن طاوس ، عن أبى هريرة ، فى قوله : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) ، قال : نزلت فى هذه الأمة .

وقال أبو غالب ، عن أبى أمامة ، فى قوله : (وكانوا شيعاً) ، قال : هم الخوارج . وروى عنه مرفوعاً ، ولايصح .

وقال شعبة ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن شُرَيح ،عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) ، قال : هم أصحاب البدع » .

وهذا رواه ابن مردويه ، وهو غريب أيضاً ، ولا يصح رفعه .

---

(١) سورة محمد ، آية : ١٨ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٨٤ ، ٨٥ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٢/٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر : (فارقوا) ، وهى قراءة على والأخوان . قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤/٢٦٠ : « ومعناها قريب من قراءة باقى السبعة بالتشديد ، تقول : ضاعف وضعف » .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٢٦١ : ١٢/٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٦) نص الطبرى : « عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذه الآية : (إن الذين) ... » .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٢٦٦ : ١٢/٢٧٠ ، ٢٧١ .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله ، وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) ، أى: فرقاً كأهل الملل والنحل — وهى الأهواء والضلالات — فالله قد برَّأ رسوله مما هم فيه : وهذه الآية كقوله تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك)(١) ...الآية . وفى الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علاَّت ، ديننا واحد »(٢) .

فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل ، من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء،الرسل بُرَآء منها ، كما قال : (لست منهم فى شىء) .

وقوله : (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) ، كقوله : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة (٣) ... الآية ، ثم بين فضله (٤) يوم القيامة فى حكمه وعدله فقال :

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى ، وهى قوله: (من جاء بالحسنة فله خير منها) ، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

حدثنا عفان ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا الجعد أبو عثمان ، عن أبى رجاء العطاردى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عن ربه،عز وجل ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربكم رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك »(٥) .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، من حديث الجعد أبى عثمان (٦) به .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : من عَمِل حسنة فله عشر أمثالها(٧) وأزيد . ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر(٨) . ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » (٩) .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١٣ .

(٢) معنى شرح « علات » فى ٢٧٠/١ . والحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام : ٩٦/٨ . والإمام أحمد فى مسنده : ٤٠٦/٢ ، ٤٣٧ .

(٣) سورة الحج ، آية : ١٧ .

(٤) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب « ١ » تفسير : « ثم بين لنفسه فضله » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩/١ .

(٦) البخارى ، كتاب الرقائق ، باب من هم بحسنة أو بسيئة : ١٢٨/٨ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب : ٨٣/١ .

(٧) لفظ المسند : « أو أزيد » .

(٨) أى : أستر هذا العمل .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١٥٣/٥ .

ورواه مسلم عن أبي كريب ، عن أبي معاوية ، به . وعن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ورواه ابن ماجه ، عن علي بن محمد الطنافسي ، عن(١) وكيع ، به .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا شيبان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً . ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة » .

واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية . ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح : « فإنما تركها من جرّائى(٢) » ، أى : من أجلى . وتارة يتركها نسياناً وذهولا عنها ، فهذا لا له ولا عليه ، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً . وتارة يتركها عجزا وكسلا بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها ، فهذا يتنزل منزلة فاعلها ، كما جاء فى الحديث ، فى الصحيحين : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يارسول الله، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »(٣) .

قال الإمام أبو يعلى الموصلي : حدثنا مجاهد بن موسى ، حدثنا على ــ وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو خيثمة ــ قالا : حدثنا إسحاق بن سليمان ، كلاهما عن موسى بن عبيدة ، عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس ، عن جده أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هم بحسنة كتب الله له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً . ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإن عملها كتبت عليه سيئة ، فإن تركها كتبت له حسنة . يقول الله تعالى : إنما تركها من مخافتى » .

هذا لفظ حديث مجاهد ــ يعنى ابن موسى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن الركين بن الربيع ، عن أبيه ، عن عمه فلان بن عميلة ، عن خريم بن فاتك الأسدى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الناس أربعة والأعمال ستة . فالناس موسع له فى الدنيا والآخرة ، وموسع له فى الدنيا مقتور عليه فى الآخرة ، ومقتور عليه فى الدنيا موسع له فى الآخرة ، وشقى فى الدنيا والآخرة . والأعمال مُوجبتان ، ومثل بمثل ، وعشرة أضعاف ، وسبعمائة ضعف ؛ فالموجبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ، ومن مات كافراً وجبت له النار . ومن هم بحسنة فلم يعملها ، فعلم الله أنه قد أشعَرَها قَلْبَه وحَرَص عليها ، كتبت له حسنة . ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة

---

(١) مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى : ٨/٦٦ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب فضل العمل ، الحديث ٣٨٢١ : ٢/١٢٥٥ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب : ١/٨٢ . ومسند الإمام أحمد من أبي هريرة من حديث طويل : ٢/٣١٧ .

(٣) مسلم ، كتاب الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما : ٨/١٧٠ ، ١٧١ . والبخارى ، كتاب الإيمان ، باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) : ١/١٤ ، ١٥ . وكتاب الديات ، باب قول الله تعالى : (ومن أحياها) : ٩/٥ .

ولم تضاعف عليه . ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها . ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز وجل كانت له بسبعمائة ضعف »(١) .

ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث الركين بن الربيع ، عن أبيه ، عن بشير بن عميلة ، عن خريم بن فاتك ، به ببعضه . والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حبيب المعلم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : رجل حضرها بلغو فهو حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء ، فهو رجل دعا الله ، فإن شاء أعطاه ، وإن شاء منعه . ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً ، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله يقول : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) »(٢) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن مرثد(٣) ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها(٤) وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله تعالى قال : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله » .

رواه الإمام أحمد(٥) — وهذا لفظه — والنسائي ، وابن ماجه ، والترمذي وزاد : « فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) اليوم بعشرة أيام » ، ثم قال : هذا حديث حسن .

وقال ابن مسعود : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ، من جاء بـ « لا إله إلا الله » ومن جاء بالسيئة ، يقول : بالشرك(٦) .

وهكذا ورد عن جماعة من السلف(٧) .

وقد ورد فيه حديث مرفوع — الله أعلم بصحته ، لكني لم أره من وجه يثبت — والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً ، وفيما ذكر كفاية ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٥/٤ . وينظر : ٣٢٢/٤ ، ٣٤٦ .
(٢) الدر المنثور للسيوطي : ٦٤/٣ ، ٦٥ .
(٣) هكذا مرثد في مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب «١» تفسير . وفي المعجم الصغير للطبراني ١٢٦/٢ : «مزيد» .
(٤) في مخطوطة الأزهر : « وبين الجمعة التي قبلها » والمثبت من مجمع الزوائد والطبعات السابقة . يقول السيوطي ١٧٣/٢ : « رواه الطبراني في الكبير ، وفيه « محمد بن إسماعيل بن عياش ، عن أبيه » ، قال أبو حاتم : لم يسمع من أبيه شيئاً » .
(٥) مسند أحمد : ١٤٥/٥ ، ١٤٦ ، والنسائي ، كتاب الصوم ، باب ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ . وابن ماجه ، كتاب الصوم ، باب ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، الحديث ١٧٠٨ : ٥٤٥/١ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الصوم ، باب ما جاء في صوم ثلاثة من كل شهر ، الحديث ٧٥٩ : ٤٧٠/٣ .
(٦) تفسير الطبري ، الآثار ١٤٢٧١ — ١٤٢٧٥ : ٢٧٦/١٢ ، ٢٧٧ .
(٧) ينظر المصدر السابق : ٢٧٧/١٢ — ٢٧٩ .

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف : (ديناً قيماً) ، أى : قائماً ثابتاً ، (ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) كقوله : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)(١) ، وقوله : (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم) (٢) ، وقوله : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (٣) .

وليس يلزم من كونه أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ،لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيما ، وأكملت له إكمالا تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال . ولهذا كان خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذى يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام .

وقد قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص ، حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا شعبة ، أنبأنى سلمة بن كهيل ، سمعت ذر بن عبد الله الهمدانى ، يحدث عن ابن أبزى ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : « أصبحنا على ملة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

وقال الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الأديان أحبّ إلى الله ؟ قال : الحنيفية السمحة »(٤) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها قالت:« وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم [ذقنى](٥) على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشة ، حتى كنت التى مللت فانصرفت عنه .

قال عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال لى عروة : إن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : « لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة ، إنى أرسلت بحنيفية سمحة »(٦) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٠ .
(٢) سورة الحج ، آية : ٧٨ .
(٣) سورة النحل ، الآيات : ١٢٠ / ١٢٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٣٦/١ .
(٥) من مسند الإمام أحمد وزفن الحبشة ، لعبهم .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١١٦/٦ .

أصل الحديث مخرج في الصحيحين ، والزيادة لها شواهد من طرق عدة ، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري ، ولله الحمد والمنة

وقوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) ، يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه ، أنه مخالف لهم فى ذلك ، فان صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له : وهذا كقوله تعالى : (فصل لربك وانحر (١)) ، أى : أخلص له صلاتك وذبيحتك ، فان المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى .

قال مجاهد فى قوله : (إن صلاتى ونسكى) ، قال : « النسك » : الذبح فى الحج والعمرة(٢) .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن سعيد بن جبير ، (ونسكى) ، قال : ذبحى . وكذا قال السدى والضحاك(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أحمد بن خالد الوهبى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن يزيد ابن أبى حبيب ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم عيد بكبشين ، وقال حين ذبحهما : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

وقوله (وأنا أول المسلمين) ، قال قتادة : أى من هذه الأمة(٤) .

وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٥) ، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين(٦) . وقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون(٧) ، وقال يوسف عليه السلام : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين(٨) ، وقال موسى (يا قوم ، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين(٩)

---

(١) سورة الكوثر ، آية : ٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٢٩٦ — ١٤٢٩٨ : ١٢/٢٨٤ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(٤) المصدر السابق ، الأثر ١٤٣٠٦ : ١٢/٢٨٥ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة يونس ، آية : ٧٢ .
(٧) سورة البقرة ، الآيات : ١٣٠ — ١٣٢ .
(٨) سورة يوسف ، آية : ١٠١ .
(٩) سورة يونس ، الآيات : ٨٤ — ٨٦ .

وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار(١) . الآية . وقال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون(٢) .

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي لا تنسخ أبد الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة ، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة . ولهذا قال عليه السلام : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد(٣) » ، فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شتى ، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا ، بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون ، حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي ، عن الأعرج ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن علي رضي الله عنه : أن رسول الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ، ثم قال (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ، (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ، اللهم أنت الملك ، لا إله أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت . واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك(٤) » .

ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد . وقد رواه مسلم في صحيحه(٥) .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى : (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه : (أغير الله أبغي ربا) ، أي : أطلب ربا سواه ، [وهو رب كل شيء] يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري . أي : لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، لأنه رب كل شيء ومليكه ، وله الخلق والأمر .

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا ، كما قال تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا : (إياك نعبد وإياك نستعين(٦) ، وقوله : (فاعبده وتوكل

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ١١١ .
(٣) مضى تخريج هذا الحديث ، عند الآية : ١٥٩ من هذه السورة .
(٤) مسند احمد : ٩٤/١ . وينظر أيضاً : ١٠٢/١ .
(٥) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين : ١٨٥/٢ ، ١٨٦ .
(٦) سورة الفاتحة ، آية : ٥ .

عليه (١) وقوله : (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا (٢) ، وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٣) ، وأشباه ذلك من الآيات .

وقوله : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، إخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله ، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى ، كما قال : (وان تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى (٤) ، وقوله : (فلا يخاف ظلما ولا هضما(٥) ، قال علماء التفسير : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وقال تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين (٦) ، معناه : كل نفس مرتهنة بعملها السيىء إلا أصحاب اليمين ، فانه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم [كما قال فى سورة الطور : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم] بإيمان(ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء)، أى: (ألحقنا بهم ذرياتهم فى المنزلة الرفيعة فى الجنة ، وإن لم يكونوا قد شاركوهم فى الأعمال ، بل فى أصل الإيمان ، (وما ألتناهم) ، أى : أنقصنا (٧) أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة ، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم ، بفضله ومنته . ثم قال : (كل امرىء بما كسب رهين) ، أى : من شر .

وقوله : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ، أى : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم ، وما كنا نختلف فيه فى الدار الدنيا ، كما قال تعالى : (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون : قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)(٨) .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

يقول تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) ، أى : جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وخلفا بعد سلف . قاله (٩) ابن زيد وغيره ، كما قال : (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون (١٠)

---

(١) سورة هود ، آية : ١٢٣ .
(٢) سورة الملك ، آية : ٢٩ .
(٣) سورة المزمل ، آية : ٩ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ١٨ .
(٥) سورة طه ، آية : ١١٢ .
(٦) سورة المدثر ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .
(٧) كذا فى المخطوطة . وتعدى « نقص » بالهمز ضعيف . ينظر المصباح .
(٨) سورة سبأ ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٩) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب (١) تفسير : « قال ابن زيد وغيره » . ينظر الدر المنثور للسيوطى ٣/٦٧ ، فهذا الأثر رواه ابن أبى حاتم عن ابن زيد .
(١٠) سورة الزخرف ، آية ٦٠ .

[وكقوله تعالى : (ويجعلكم خلفاء الأرض) (١) ، وقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة (٢) وقوله : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) (٣).

وقوله : (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) ، أى : فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق ، والمحاسن والمساوى ، والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك ، كقوله : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا) (٤) ، وقوله : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (٥) .

وقوله : (ليبلوكم فيما آتاكم) ، أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به ، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره .

وقد روى مسلم فى صحيحه ، من حديث أبى نَضْرة ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء (٦) » .

وقوله : (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ، ترهيب وترغيب ، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله . (وإنه لغفور رحيم) لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب .

وقال محمد بن إسحاق : يرحم العباد على ما فيهم . رواه ابن أبى حاتم .

وكثيرا ما يقرن تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين ، كما قال : وقوله : (نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) (٧) وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب)(٨)وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهذا وبهذا لينجع فى كل بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب .

---

(١) سورة النمل ، آية : ٦٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٣٢ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٢١ .
(٦) مسلم ، كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء : ٨٩/٨ .
(٧) سورة الحجر ، آية : ٤٩ .
(٨) سورة الرعد، آية : ٦ .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا زهير ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِع بالجنة أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَط (١) من الجنة أحد . خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون (٢) » :

ورواه الترمذي ، عن قتيبة ، عن عبد العزيز الدراوردي ، عن العلاء به . وقال : حسن (٣) . ورواه مسلم عن يحيى ابن يحيى وقتيبة وعلي بن حجر ، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر ، عن (٤) العلاء .

---

(١) في المخطوطة : « ما قنط أحد من الجنة » . والمثبت عن مسند أحمد .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٨٤ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٠٩ : ١٢/٥٢٦ .

(٤) مسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه : ٨/٩٧ . هذا والحديث كما في الصحيح رواه مسلم عن يحيى بن أيوب ، لا يحيى بن يحيى . وكلاهما يروي عن إسماعيل بن جعفر ، ويروي عنه مسلم . ينظر التهذيب : ١١/١٨٨ ، ٢٩٦ .

تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام فى أول «سورة البقرة» (١) على ما يتعلق بالحروف وبسطه ، واختلاف الناس فيه :

وقال ابن جرير : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبى ، عن شريك ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس : (المص) ، «أنا الله أفصل» (٢) . وكذا قال سعيد بن جُبَير .

(كتاب أنزل إليك) ، أى : هذا كتاب أنزل إليك ، اى : من ربك ، (فلا يكن فى صدرك حرج منه) ، قال مجاهد ، وقتادة والسدى : شك (٣) منه :

وقيل : لا تتحرج به فى إبلاغه والانذار به وكما صبر أولو العزم من الرسل . ولهذا قال : (لتنذر به) ، أى انزل إليك لتنذر به الكافرين ، (وذكرى للمؤمنين) .

ثم قال تعالى مخاطبا للعالم : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) ، أى : اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل من رب كل شيء ومليكه ، (ولا تتبعوا من دونه أولياء) ، أى : لا تخرجوا مما جاءكم به الرسول إلى غيره ، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره :

(قليلا ما تذكرون) كقوله : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٤) ، وقوله : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) (٥) ، وقوله : (ومايؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (٦) .

---

(١) ينظر : ٥٦/١ – ٦٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣١٠ ، ١٤٣١١ : ٢٩٣/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٣١٧ / ١٤٣٢٢ : ٢٩٦/١٢ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .
(٦) سورة يوسف ، آية : ١٠٦ .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : (وكم من قرية أهلكناها) : أى : بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خِزْىُ الدنيا موصولا بذل الآخرة ، كما قال تعالى : (ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) (١) ، وقال تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) (٢) ، وقال تعالى : (وكم أهلكنا من قرية بَطِرت معيشتَها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين) (٣) .

وقوله : (فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون) ، أى : فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته (بياتا) ، أى : ليلا . (أوهم قائلون) ، من القيلولة ، وهى : الاستراحة وسط النهار . وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ، كما قال : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) (٤) ، وقال : (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) (٥) .

وقوله : (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) ، أى : فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا . كما قال تعالى : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) إلى قوله : (خامدين) (٦) .

وقال ابن جرير : فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : « ما هلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم » ـ حدثنا بذلك ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن أبى سنان ، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد قال : قال عبد الله بن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماهلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم » . ـ قال قلت لعبد الملك : كيف يكون ذاك ؟ قال : فقرأ هذه الآية : (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) (٧) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٠ .
(٢) سورة الحج ، آية : ٤٥ .
(٣) سورة القصص ، آية : ٥٨ .
(٤) سورة الأعراف ، الآيات : ٩٧ ، ٩٨ .
(٥) سورة النحل ، الآيات : ٤٥ / ٤٧ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآيات : ١١ / ١٥ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٢٣ : ١٢/٣٠٤ . والحديث أخرجه الإمام أحمد عن أبى البخترى الطائى، عمن سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المسند : ٤/٢٦٠ ، ٥/٢٩٣ . وكذلك أخرجه ابو داود ، فى كتاب الملاحم ، باب ١٧ .

وقوله : (فلنسألن الذين أرسل إليهم) ... الآية كقوله : (ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين) (١) ، وقوله : (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب)(٢) . فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته . ولهذا قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) ، [وقال : يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين ، ويسأل المرسلين] (٣) عما بلغوا .

وقال ابن مَرْدُويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن ، حدثنا أبو سعيد الكندى حدثنا المحاربى ، عن ليث ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يُسأل عن الرجل والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ــ قال الليث : وحدثنى ابن طاوس ، مثله ، ثم قرأ : (فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) » .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة (٤) .

وقال ابن عباس : (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون (٥) .

(وما كنا غائبين) ، يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى شهيد على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا يغفل عن شىء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (٦) .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : (والوزن) ، أى : للأعمال يوم القيامة (الحق) ، أى : لا يظلم تعالى أحدا ، كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٧) ، وقال تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) (٨) ، وقال تعالى

(١) سورة القصص الآية: ٦٥ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ١٠٩ .

(٣) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٢٤ : ١٢/٣٠٦ .

(٤) البخارى ، كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، من حديث عبد الله بن عمر : ٨/٧٧ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال المشقة عليهم : ٦/٧ ، ٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٢ / ٣٠٨ ، ويعقب عليه الطبرى بقوله : « وهذا قول بعيد عن الحق ، غير أن الصحيح من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان ، فيقول له : « أتذكر يوم فعلت كذا وفعلت كذا » ؟ حتى يذكره ما فعل فى الدنيا » .

(٦) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٧) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .

(٨) سورة النساء ، آية : ٤٠ .

(فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية : وأما من خفت موازينه : فأمه هاوية : وما أدراك ماهيه : نار حامية (١) » وقال تعالى : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) (٢) .

فصل

والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضا ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما .

قال البغوى : يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة » و « آل عمران » يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان — أو : غيايتان — أو فرقان من طير صواف (٣) : ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : « أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك (٤) » وفى حديث البراء ، فى قصة سؤال القبر : « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح (٥) » ، وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

وقيل: يوزن كتاب الأعمال ، كما جاء فى حديث البطاقة ، فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها : « لا إله إلا الله » فيقول : يارب ، وماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة » .

رواه الترمذى (٦) بنحو من هذا ، وصححه :

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما فى الحديث : « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة » (٧) ثم قرأ : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) .

وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتعجبون من دقة ساقيه ، فوالذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد (٨) » .

---

(١) سورة القارعة ، الآيات : ٦ / ١١ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) مضى هذا فى فضل سورة البقرة ، ينظر : ٥٣/١ ، ٥٤ ، وقد شرح ابن كثير هنالك غريب هذا الحديث .
والحديث أخرجه الإمام احمد فى مسند أبى أمامة الباهلى : ٢٤٩/٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ . ومن بريدة الأسلمى : ٣٤٨/٥ ، ٣٥٢ ، ٣٦١ . وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، من أبى أمامة : ١٩٧/٢ .
(٤) أخرجه الإمام احمد فى مسنده من بريدة : ٣٤٨/٥ ، ٣٥٢ ، وابن ماجه من بريدة أيضاً فى كتاب الأدب ، باب ثواب القرآن ، الحديث ٣٧٨١ : ١٢٤٢/٢ .
(٥) أخرجه الإمام احمد فى مسند البراء بن عازب : ٢٨٧/٥ من حديث طويل .
(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب الإيمان ، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، الحديث ٢٧٧٦ من عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٩٥/٧ / ٣٩٧ .
(٧) البخارى ، تفسير سورة الكهف : ١١٧/٦ . ومسلم ، كتاب صفة المنافقين : ١٢٥/٨ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٤٢٠/١ ، ٤٢١ .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا ، [فتارة] توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من [أنه] جعل الأرض قرارا ، وجعل لها رواسي وأنهارا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتا ، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش، أى : مكاسب وأسبابا يتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، ، كما قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) (١) .

وقد قرأ الجميع (معايش) بلا همز ، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها (٢) . والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز ، لأن معايش جمع معيشة ، من عاش يعيش عيشا ، ومعيشة أصلها « مَعْيِشة » فاستثقلت الكسرة على الياء ، [فنقلت] إلى العين فصارت مَعِيشة ، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل : معايش ، ووزنه مفاعل ، لأن الياء أصلية فى الكلمة . بخلاف مدائن وصحائف وبصائر ، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من ، مدن وصحف وأبصر ، فان الياء فيها زائدة ، ولهذا تجمع على فعائل ، وتهمز لذلك . والله أعلم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا [المقام] على شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم [عداوة] عدوهم إبليس ، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، فقال تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) . وهذا كقوله تعالى :(وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٣) ، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشرا ، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير (٤) « سورة البقرة » .

وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير : أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام (٥) .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٢/٣١٦ .
(٣) سورة الحجر ، آية : ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) ينظر فيما تقدم : ١/١٠٧ / ١١١ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٢/٣٢٠ ، ٣٢١ .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) ، قال : خلقوا فى أصلاب الرجال ، وصوروا فى أرحام النساء .

رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) .

ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم : الذرية (٢) .

وقال الربيع بن أنس ، والسدى ، وقتادة ، والضحاك فى هذه الآية : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم)، أى : خلقنا آدم ثم صورنا الذرية .

وهذا فيه نظر ، لأنه قال بعده : (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) ، فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم : (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى (٣) ، والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمان موسى ، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء . وهذا بخلاف قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ...) [الآية ، فان المراد منه آدم المخلوق من السلالة] ، وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس ، لا معيناً . والله أعلم .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى : (أن لا تسجد إذ أمرتك) : لا هاهنا زائدة .

وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد ، كقول الشاعر :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل « إن » ، وهى للنفى ، على « ما » النافية لتأكيد النفى ، قالوا : وكذلك هاهنا : (ما منعك أن لا تسجد) ، مع تقدم قوله : (لم يكن من الساجدين) .

حكاهما ابن جرير (٤) ، وردهما ، واختار أن « منعك » تضمن معنى فعل آخر تقديره : ما أحوجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ، ونحو ذلك .

وهذا القول قوى حسن ، والله أعلم .

وقول إبليس لعنه الله : (أنا خير منه) ، من العذر الذى هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعنى لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرنى بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه ، بأنه خلق

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة الأعراف : ٣١٩/٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣١٨/١٢ - ٣١٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٥٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٢٤/١٢ ، ٣٢٥ .

من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه ، وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم : وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى : (فقعوا له ساجدين) ، فشذ من بين الملائكة بترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة [أى : أيس من الرحمة] ، فأخطأ قبّحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح : والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة : ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة .

وفى صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وخُلِقَ إبليس (١) من مارج من نار ، وخُلِق آدم مما وصف لكم » : هكذا (٢) رواه مسلم :

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن مسعود ، حدثنا نُعَيم بن حماد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم ــ قلت لنعيم بن حماد : أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال : باليمن ــ وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح : « وخلقت الحور العين من الزعفران » .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن كثير ، عن ابن شوذب ، عن مطر الورّاق ، عن الحسن فى قوله : (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ، قال : قاس إبليس ، وهو أول من قاس (٣) .

إسناده صحيح .

وقال : حدثنى عمرو بن مالك ، حدثنى يحيى بن سليم الطائفى ، عن هشام ، عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس (٤) .

إسناد صحيح أيضا .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدرى كونى : (فاهبط منها) ، أى : بسبب عصيانك لأمرى ، وخروجك عن طاعتى فما يكون لك أن تتكبر فيها .

---

(١) لفظ مسلم : « وخلق الجان من مارج » .
(٢) مسلم ، كتاب الزهد ، باب فى أحاديث متفرقة : ٨/٢٢٦ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٥٦ : ١٢/٣٢٨ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٥٥ : ١٢/٣٢٨ .

قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى

(فاخرج إنك من الصاغرين) ، أى : الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، مكافأة لمراده بضده ؛ فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ، قال : (أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين) ؛ أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس (إلى يوم يبعثون)، واستوثق إبليس بذلك ، أخذ فى المعاندة والتمرد ، فقال : (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) ، أى : كما أغويتنى ؛

قال ابن عباس : كما أضللتنى (١) . وقال غيره : كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك — الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه — على (صراطك المستقيم) أى : طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى .

وقال بعض النحاة : الباء هاهنا قسمية ، كأنه يقول : فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم (٢) .

قال مجاهد : (صراطك المستقيم) ، يعنى : الحق (٣)

وقال محمد بن سوقة ، عن عون بن عبد الله : يعنى طريق مكة (٤) ؛

قال ابن جرير : والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك .

قلت : لما روى الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل — يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل — حدثنا موسى بن المسيب (٥) أخبرنى سالم بن أبى الجعد ، عن سبرة بن أبى فاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه (٦) ، فقعد له بطريق الإسلام، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟. قال : فعصاه وأسلم . قال: وقعد (٧) له

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٦١ : ١٢/٣٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٢/٣٣٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٣٦٦ – ١٤٣٦٨ : ١٢/٣٣٦ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٦٥ – ١٢/٣٣٥ .

(٥) فى مسند الإمام احمد : « عبد الله بن المثنى » . وهو خطأ ، والصواب « عبد الله بن المسيب » يروى عن سالم ، ويروى عنه أبو عقيل عبد الله بن عقيل . ينظر التهذيب : ١٠/٣٧٢ .

(٦) فى المسند : « لابن آدم بأطرقه » .

(٧) فى المسند : « ثم قعد » .

بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع (١) أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس (٢) فى الطّول ؟. فعصاه وهاجر ــ ثم قعد له بطريق الجهاد — وهو (٣) جهاد النفس والمال — فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ . قال فعصاه فجاهد — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، [أو قتل كان حقا على الله، عز وجل، أن يدخله الجنة . وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة (٤)] أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة (٥) ؛

وقوله : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) ... الآية :

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ثم لآتينهم من بين أيديهم) : أشككهم فى آخرتهم — (ومن خلفهم) ، أرغبهم فى دنياهم — (وعن أيمانهم) ، أشبّه عليهم أمر دينهم — (وعن شمائلهم) ، أشهّى لهم المعاصى (٦) .

وقال ابن أبى طلحة — فى رواية — والعوفى ، كلاهما عن ابن عباس : أما (من بين أيديهم) ، فمن قبل دنياهم ، وأما (من خلفهم) ، فأمر آخرتهم ، وأما (عن أيمانهم) ، فمن قِبَل حسناتهم، وأما (عن شمائلهم) ، فمن قِبَل سيئاتهم (٧) ؛

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة : أتاهم (من بين أيديهم) فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار — (ومن خلفهم) ، من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها — و (عن أيمانهم) من قبل حسناتهم بطّأهم عنها — (وعن شمائلهم)، زين لهم السيئات والمعاصى ، ودعاهم إليها ، وأمرهم بها . أتاك يا ابن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله (٨) .

وكذا رُوى عن إبراهيم النخعى ، والحكم بن عتيبة ، والسدى ، وابن جرير ، إلا أنهم قالوا : (من بين أيديهم) الدنيا (ومن خلفهم) الآخرة (٩) .

وقال مجاهد : « من بين أيديهم وعن أيمانهم » : حيث يبصرون — « ومن خلفهم وعن شمائلهم » : حيث لا لا يبصرون (١٠) .

---

(١) فى المسند : « وتذر أرضك » .

(٢) فى المسند : « كمثل الفرس » والطول — بكسر ففتح — الحبل .

(٣) فى المسند : « ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال له : هو جهد النفس والمال ، فتقاتل ... » .

(٤) عن مسند الإمام احمد .

(٥) مسند الإمام احمد : ٣–٤٨٣ . وقد خرجه ابن الأثير باسناده إلى أبى النضر هاشم بن القاسم ، ينظر أسد الغابة : ٢–٣٢٤ ، ٣٢٥ بتحقيقنا والوقص : كسر العنق .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٦٩ : ٣٣٨/١٢ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٧٠ ، ١٤٣٧١ : ٣٣٨/١٢ ، ٣٣٩ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٧٢ : ٣٣٩/١٢ .

(٩) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٣٧٣ — ١٤٣٧٧ : ٣٣٩/١٢ ، ٣٤٠ .

(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٧٨ : ٣٤٠/١٢ ، ٣٤١ .

واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر ، فالخير يصدهم عنه ، والشر يُحَبِّبه (١) لهم ؛

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ، ولم يقل : من فوقهم ، لأن الرحمة تنزل من فوقهم (٢) ؛

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، قال : موحدين (٣) ؛

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق فى هذا الواقع ، كما قال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ (٤) .

ولهذا ورد فى الحديث [الاستعاذة] من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها ، كما قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده .

حدثنا نصر بن على ، حدثنا عمرو بن مجمع ، عن يونس بن خباب ، عن ابن جبير بن مطعم — يعنى نافع بن جبير — عن ابن عباس — وحدثنا عمر بن الخطاب — يعنى السجستانى — حدثنا عبد الله بن جعفر (٥) ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن زيد بن أبى أنيسة ، عن يونس بن خباب — عن ابن جبير بن مطعم — عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى . اللهم استر عورتى وآمن روعتى ، واحفظنى من بين يدى ومن خلنى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى » .

تفرد به البزار ، وحسنه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا عبادة (٦) بن مسلم الفزارى ، حدثنى [جُبَيْر] (٧) بن أبى سليمان بن جبير ابن مطعم ، سمعت عبد الله بن عمر يقول : لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى : « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى وآمن روْعاتى . اللهم احفظنى من بين يدىَّ ومن خلنى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى قال(٨) وكيع : يعنى الخسف .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٤١/١٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٨٢ : ٣٤١/١٢ ، ٣٤٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٨٣ : ٣٤٢/١٢ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٢٠ ، ٢١ .
(٥) زيد بعده مخطوطة الأزهر ودار الكتب «١» تفسير : « حدثنا عبيد الله بن جعفر » وهو خطأ ، وعبد الله بن جعفر يروى عن « عبيد بن عمرو بن أبى الوليد الأسدى أبو وهب الجزرى » الذى يروى عن « زيد بن أبى أنيسة » . ينظر التهذيب : ١٧٣/٥ ، ٤٢/٧ ، ٣٩٧/٣ .
(٦) فى مسند أحمد : « عمارة بن مسلم » . وهو خطأ ، ينظر التهذيب : ١١٢/٥ ، ١١٣ .
(٧) عن مسند أحمد .
(٨) فى المسند : « وقال : يعنى الخسف » . دون ذكر « وكيع » .

ورواه (١) أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وابن حبان ، والحاكم من حديث عبادة بن مسلم ، به : وقال الحاكم : صحيح الإسناد :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أكد تعالى اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله : (اخرج منها مذءوما مدحورا) .

قال ابن جرير : أما « المذءوم » ، فهو المعيب ، والذّأم غير مشدّد : العيب : يقال : « ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم » ويتركون الهمز فيقولون : « ذمته أذيمه ذيما وذاما » ، والذام والذيم (٢) أبلغ في العيب من الذم .

قال : « والمدحور : المقْصَى : وهو المبعد المطرود .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما نعرف « المذءوم » و « المذموم » إلا واحداً (٣) .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق عن التميمي ، عن ابن عباس : (اخرج منها مذءوما مدحوراً) ، قال : مقيتا :

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : صغيرا مقيتا : وقال السدي : مقيتا مطرودا : وقال قتادة : لعينا مقيتا : وقال مجاهد : منفياً مطروداً : وقال الربيع بن أنس : مذءوما : منفيا ، والمدحور المصغر (٤) .

وقوله تعالى : (لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) : كقوله : (قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً : واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) (٥) :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة : وقد تقدم الكلام على ذلك في « سورة البقرة (٦) » ، فعند ذلك حسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ١٠١ ابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ، الحديث ٣٨٧١ : ١٢٧٣/٢ ، ١٢٧٤ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٣٤٩٢ : ٣٤٤/١٢ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٣٩١ : ٣٤٤/١٢ .

(٤) ينظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ٣٤٣/١٢ ، ٣٤٤ .

(٥) سورة الإسراء ، الآيات : ٦٣ – ٦٥ .

(٦) ينظر فيما تقدم : ١١٢/١ ، ١١٣ .

ليسلبا ماهما فيه من النعمة واللباس الحسن ، (وقال) — كذبا وافتراء : « ما نهاكما ربكما عن أكل الشجرة إلا لتكونا ملكين [أى : لئلا تكونا ملكين ، أو خالدين هاهنا : ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما] ، كقوله : (قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى (١) أى ، لئلا تكونا ملكين ، كقوله : (يبين الله لكم أن تضلوا) (٢) أى : لئلا تضلوا : (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم (٣) أى : لئلا تميد بكم .

وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن : (إلا أن تكونا مَلِكَين) ، بكسر اللام (٤) : وقرأه الجمهور بفتحها .

(وقاسمهما) ، أى : حلف لهما بالله : (إنى لكما لمن الناصحين) ، فإنى من قَبْلكما هاهنا ، وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، كما قال خالد بن زهير ، ابن عم أبى ذؤيب :

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأنتمُ • ألذُّ من السلوى إذا ما نَشُورها (٥)

أى : حلف لهما بالله حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله ، فقال : إنى خُلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما ، فاتبعانى أرشدكما : وكان بعض أهل العلم يقول : « من خادعنا بالله خُدعنا له (٦) » .

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : كان آدم رجلا طُوَالا ، كأنه نخلة سَحُوق (٧) ، كثير شعر الرأس . فلما وقع بما وقع به من الخطيئة ، بدت له عورته عند ذلك ، وكان لا يراها . فانطلق هاربا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة ، فقال لها : أرسليني . فقالت : إنى غير مرسلتك : فناداه ربه عز وجل : يا آدم ، أمنّى تفر ؟ قال : رب إنى استحييتك (٨) .

وقد رواه ابن جرير وابن مَرْدُويه من طُرُق ، عن الحسن ، عن أبىّ بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والموقوف أصحّ إسنادا .

---

(١) سورة طه ، آية : ١٢٠ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٧٦ .
(٣) سورة النحل ، آية : ١٥ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٣٩٤ ، ١٤٣٩٥ : ١٢ /٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٥) ديوان الهذليين : ١/ ١٥٨ . والسلوى : العسل ، ونشورها : نأخذها ، والشور : أخذ العسل .
(٦) هذا النص من قوله : «حلف لهما بالله» إلى «خدعنا له» أثر رواه الطبرى عن قتادة ، وهو الأثر رقم ١٤٣٩٦ : ١٢ /٣٥١ .
(٧) ينظر : ١/ ١١٤ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٠٣ : ١٢ /٣٥٤ . وقد روى ابن أبى حاتم هذا الأثر بنحو من هذا عن على بن الحسن ابن إشكاب ، عن على بن عاصم ، عن سعيد بن أبى عروبة به مرفوعا . ينظر تفسير سورة البقرة : ١/ ١١٤ .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك ، عن الحسن بن عمارة ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته ، السنبلة . فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما ، وكان الذي وارى عنهما [من سوآتهما] أظفارهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورَقَ التين ، يلزقان بعضه إلى بعض . فانطلق آدم عليه السلام موليا في الجنة ، فعلقت برأسه شجرة من الجنة ، فناداه : يا آدم ، أمني تفر ؟ قال : لا ، ولكني استحييتك يارب . قال : أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة ، عما حرمت عليك ؟ قال : بلى يارب ، ولكن وعزتك ماحسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً . قال : وهو قوله عز وجل : (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) . قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ، ثم لاتنال العيش إلا كدا . قال : فأهبط من الجنة ، وكانا يأكلان منها رغدا ، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب ، فعلِّم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث ، فحرث وزرع ثم سقى ، حتى إذا بلغ حصد ، ثم داسه ، ثم ذرّاه ، ثم طحنه ، ثم عجنه ، ثم خبزه ، ثم أكله ، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ (١) .

وقال الثوري ، عن ابن أبي ليلى ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ، قال : ورق التين (٢) .

صحيح إليه .

وقال مجاهد : جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب (٣) .

وقال وهب بن مُنَبِّه في قوله : (ينزع عنهما لباسهما) ، قال : كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما ، لايرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا . فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما .

رواه ابن جرير (٤) بإسناد صحيح إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن قتادة قال : قال آدم : أي رب ، أرأيت إن تبت واستغفرت ؟ قال : إذاً أدخلك الجنة . وأما إبليس فلم يسأله التوبة ، وسأله النظرة ، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أكل آدم من الشجرة قيل له : لم أكلت من الشجرة التي نُهيتك عنها قال : حواء أمرتني . قال : فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كَرْها ، ولا تضع إلا كَرْها . قال : فرنّت (٥) عند ذلك حواء فقيل لها : الرنة عليك وعلى ولدك (٦) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٣٩٩ : ٣٥٢/١٢ ، ٣٥٣ . وفيه : « فلم يبلمه حتى بلغ (بضم الباء وتشديد اللام مكسورة) منه ما شاء الله أن يبلغ » يعني بعين مهملة في الجميع .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٤٠٤ : ٣٥٤/١٢ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٤٠١ : ٣٥٣/١٢ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٤٠٨ : ٣٥٥/١٢ .
(٥) رنت المرأة ترن رنيناً : صوتت وصاحت من الحزن .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٤١٠ : ٣٥٦/١٢ .

وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) : هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه(١) .

قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قيل : المراد بالخطاب فى (اهبطوا) : آدم ، وحواء ، وإبليس ، والحية . ومنهم من لم يذكر الحية ، والله أعلم .

والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى فى سورة « طه » قال : (اهبطا منها جميعا)(٢) ... الآية ، وحواء تبع لآدم . والحية – إن كان ذكرها صحيحا – فهى تبع لإبليس .

وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها . ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم ، أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) ، أى : قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت فى الكتاب الأول .

وقال ابن عباس : (مستقر) : القبور . وعنه : وجه الأرض وتحتها . رواهما ابن أبى حاتم .

وقوله : (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) ، كقوله تعالى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى) (٣) – يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارا لبنى آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويجازى كلا بعمله .

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات – وهى السوآت – والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهرا ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات .

قال ابن جرير : « الرياش » فى كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب (٤) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس – وحكاه البخارى – عنه الريش : المال (٥) . وكذا قال مجاهد : وعروة ابن الزبير ، والسدى والضحاك .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤١٢ : ٣٥٧/١٢ .
(٢) آية : ١٢٣ .
(٣) سورة طه ، آية : ٥٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٦٤/١٢ ، وتكلته : « وما ظهر من الثياب من المتاع ، مما يلبس ، أو يحشى من فراش أو دثار » .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٢٨ : ٣٦٤/١٢ ، ٣٦٥ . والبخارى تفسير سورة الأعراف : ٧٣/٦ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : « الرياش » : اللباس ، والعيش ، والنعيم [١].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « الرياش » الجمال[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أصبع ، عن أبى العلاء الشامى قال : لبس أبو أمامة ثوبا جديداً ، فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استجَدّ ثوبا فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : « الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى » ، ثم عمد إلى الثوب الذى خَلُق ، أو : ألقى [٣]فتصدق به ، كان فى ذمة الله ، وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيا وميتا [٤].

ورواه الترمذى[٥] ، وابن ماجه ، من رواية يزيد بن هارون ، عن أصبع ــ هو ابن زيد الجهنى ــ وقد وثقه يحيى ابن معين وغيره ، وشيخه « أبو العلاء الشامى » لا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولكن لم يخرجه أحد ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد أيضا :حدثنامحمد بن عبيد ، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبى مطر : أنه رأى عليا رضى الله عنه أتى غلاما حدثا ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه [إلى] ، ما بين الرسغين إلى الكعبين ،يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى ، فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبى الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكسوة : «الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى» [٦] .

وقوله تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) ــ قرأ بعضهم : (ولباسَ ــ التقوى) ، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، (وذلك خير) خبره .

واختلف المفسرون فى معناه ، فقال عكرمة : « يقال : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة » : رواه ابن أبى حاتم .

وقال زيد بن على ، والسدى ، وقتادة ، وابن جريج : (ولباس التقوى) : الإيمان .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : العمل الصالح .

وقال زياد [٧] بن عمرو ، عن ابن عباس : هو السمت الحسن فى الوجه .

وعن عروة بن الزبير (لباس التقوى) : خشية الله .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٣٤ : ٣٦٥/١٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٣٧ : ٣٦٦/١٢ .
(٣) فى المسند : « الذى أخلق ، أو قال : ألقى » . وخلق الثوب ــ بفتح الخاء وضم اللام ــ وأخلق : بلى .
(٤) تكررت «حياً وميتاً» فى المسند ثلاث مرات ، ينظر المسند : ٤٤/١ .
(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٣١ : ١٠/٥ ، ٦ ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب . وابن ماجه ، كتاب اللباس ، باب «ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً» ، الحديث : ٣٥٥٧ : ١١٧٨/٢ .
(٦) مسند الإمام احمد : ١٥٧/١ ، ١٥٨ .
(٧) فى المخطوطة : « ديال بن عمرو » ، ولم نجده ، والمثبت من لسان الميزان .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (ولباس التقوى) : يتقي الله ، فيواري عورته ، فذلك لباس التقوى (١) .

وكل هذه متقاربة ، ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير حيث قال :

حدثني المثنى ، حدثنا إسحاق بن الحجاج ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، عن سليمان بن أرقم ، عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قميص قُوهِيّ (٢) محلول الزرّ ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب ، وينهى عن اللعب بالحمام ، ثم قال : يا أيها الناس ، اتقوا الله فى هذه السرائر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى نفس محمد بيده ، ما عمل أحد قط سرّا إلا ألبسه الله رداء علانية ، إن خيرا فخيراً وإن شراً فشراً . ثم تلا هذه الآية : (ورياشاً — ولم يقرأ : وريشاً — ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله) » قال : السمت الحسن (٣) .

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم ، وفيه ضعف : وقد روى الأئمة : الشافعى ، وأحمد ، والبخارى فى «كتاب الأدب» من طرق صحيحة ، عن الحسن البصرى : أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام ، يوم الجمعة على المنبر (٤) .

وأما المرفوع منه ، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير له شاهدا من وجه آخر ، حيث قال : حدثنا ... »(٥) .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى محذرا بنى آدم من إبليس وقبيله ، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام ، فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم ، إلى دار التعب والعناء ، والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا)(٦) .

---

(١) ينظر بعض هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٢/٣٦٦ – ٣٧٢ .

(٢) القميص القوهى : منسوب إلى قوهستان ، وهى أرض متصلة بنواحى هراة ونيسابور ، ينسب إليها ضرب من الثياب .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٤٦ : ١٢/٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) مسند أحمد : ١/٧٢ .

(٥) بعده فراغ فى المخطوطة ، ومخطوطة دار الكتب نحو سبعة أسطر .

(٦) سورة الكهف ، آية : ٥٠ .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا . فتضع المرأة على فرجها النِّسعة(١) ، أو الشيء وتقول :

اليوم يبدُو بعضُهُ أو كلّه ٭ وما بَدا منه فلا أحلّهُ

فأنزل الله : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) ... الآية (٢) .

قلت : كانت العرب ــ ماعدا قريشا ــ لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لايطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش ــ وهم الحُمْس ــ يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، فمن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحمسى ثوبا ، طاف عريانا . ومن كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئا يستره بعض الشيء وتقول :

اليوم يبدُو بعضُه أو كلُّه ٭ وما بَدا منه فلا أحلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، فقال : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) ، فقال تعالى ردا عليهم : (قل) ، أى : قل يا محمد لمن ادعى ذلك : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) : أى : هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك . (أتقولون على الله مالا تعلمون) ، أى : أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته :

وقوله : (قل أمر ربى بالقسط) ، أى : بالعدل والاستقامة، (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) ، أى : أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وما جاءوا به من الشرائع ، وبالإخلاص له فى عبادته ، فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صوابا موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك :

وقوله تعالى : (كما بدأكم تعودون) ... إلى قوله : (الضلالة) ــ اختلف فى معنى (كما بدأكم تعودون)، فقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) : يحييكم بعد موتكم (٣) .

---

(١) النسعة ــ بكسر النون : قطعة من جلد مضفورة عريضة ، توضع على صدر البعير .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٦٢ : ٣٧٧/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٩٨ : ٣٨٥/١٢ .

وقال الحسن البصرى : كما بدأكم فى الدنيا ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء(١) .

وقال قتادة : (كما بدأكم تعودون) ، قال : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم ذهبوا ، ثم يعيدهم(٢) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولا ، كذلك يعيدكم آخرا(٣) .

واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير ، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلا ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين(٤) » .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين ، من حديث شعبة ، وفى صحيح البخارى أيضا من حديث الثورى(٥) به .

وقال وِقَاءُ بن إياس أبو يزيد ، عن مجاهد : (كما بدأكم تعودون) ، قال : يبعث المسلم مسلما ، والكافر كافراً(٦) .

وقال أبو العالية : (كما بدأكم تعودون) : رُدّوا إلى علمه فيهم(٧) .

وقال سعيد بن جبير : (كما بدأكم تعودون) : كما كتب عليكم(٨) تكونون — وفى رواية : كما كنتم تكونون عليه تكونون .

وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى : (كما بدأكم تعودون) : من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه ، وإن عمل بأعمال أهل السعادة [كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة ، ثم صار إلى ما ابتُدِىء عليه خلقه](٩) . ومن ابتَدِىء خلقه على السعادة ، صار إلى ما ابتدىء خلقه عليه ، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء(١٠) ، ثم صاروا إلى ما ابتدئوا عليه(١١) .

وقال السدى : (كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ، يقول : (كما بدأكم تعودون) كما خلقناكم ، فريق مهتدون وفريق ضلال ، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم(١٢) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٩٥ : ٣٨٥/١٢ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٩٦ : ٣٨٥١/٢ ، ولفظه : « بدأ خلقهم ... » .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٩٩ : ٣٨٥/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٥٠٠ — ١٤٥٠٢ : ٣٨٦/١٢ .
(٥) مضى تخريج الحديث فى سورة المائدة ، عند الآية ١١٧ منها . ينظر : ٢٢٨/٣ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٨٥ : ٣٨٣/١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الآثر ١٤٤٨٢ : ٣٨٣/١٢ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٨٦ : ٣٨٣/١٢ .
(٩) عن تفسير الطبرى .
(١٠) يعنى سحرة فرعون .
(١١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٨٣ : ٣٨٣/١٢ .
(١٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٨٨ : ٣٨٤/١٢ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (كما بدأكم تعودون : فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ، قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ، كما قال : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم ، مؤمنا وكافرا (١) .

قلت : ويتأيد هذا القولُ بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى : « فوالذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع – أو : ذراع – فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع – أو : ذراع – فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة (٢) » .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو [غسان] ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل – فيما يرى الناس – بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه ليعمل – فيما يرى الناس – بعمل أهل النار ، وأنه من أهل الجنة . وإنما الأعمال بالخواتيم (٣) » .

هذا قطعة من حديث رواه البخارى من حديث أبى غسان محمد بن مطرّف المدنى ، فى قصة « قُزْمان » يوم أحد (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تبعث كل نفس على ما كانت عليه (٥) » .

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن الأعمش ، به – ولفظه : « يبعث كل عبد على ما مات عليه (٦) » .

قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول – إن كان هو المراد من الآية – وبين قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرت الله التى فطر الناس عليها (٧)) ، وما جاء فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » ... الحديث (٨) – ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٧٨ : ٣٨٤/١٢ .

(٢) البخارى ، كتاب القدر : ١٥٢/٨ .

(٣) الحديث فى تفسير البغوى أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى : ٢٢٢/٢ . قال : أخبرنا عبد الواحد المليجى ، أنبأنا عبد الرحمن بن أبى شريح ، أنبأنا أبو القاسم البغوى ، وذكره .

(٤) البخارى ، كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم : ١٥٥/٨ . وكتاب الرقاق ، باب الأعمال بالخواتيم : ١٢٨/٨ . وينظر خبر « قزمان » فى سيرة ابن هشام : ٨٨/٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٤٨٩ : ٣٨٤/١٢ .

(٦) مسلم ، كتاب الجنة ، باب إثبات الحساب : ١٦٥/٨ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب النية ، الحديث ٤٣٢٠ : ١٤١٤/٢ ، ولفظه : « يحشر الناس على نياتهم » .

(٧) سورة الروم ، آية : ٣٠ .

(٨) مضى تخريج هذين الحديثين فى سورة النساء ، عند الآية ١١٩ : ٣٦٨/٢ .

وكافر ، فى ثانى الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق ، وجعله فى غرائزهم وفطَرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا : (هو الذى خلقكم ، فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ، وفى الحديث : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها [١] » ، وقدر الله نافذ فى بريته ، فإنه هو (الذى قدر فهدى [٢]) ، و (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [٣]) — وفى الصحيحين : « فأما من كان منكم من أهل السعادة ، فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل [أهل] الشقاوة[٤] » — ولهذا قال تعالى : (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ، ثم علل ذلك فقال : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) ... الآية .

قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عنادا منه لربه فيها . لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه هاد ، وفريق الهدى ، فرق . وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية [٥] .

* ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة ردّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة ، كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير — واللفظ له — من حديث شعبة ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن مسلم البَطِين ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة [الرجال والنساء] : الرجال بالنهار ، والنساء بالليل . وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلّه ... وما بَدَا منْهُ فلا أحِلّهُ

فقال الله تعالى : (خذوا زينتكم عند كل مسجد[٦]) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) ... الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة — والزينة : اللباس ، وهو مايوارى السوأة ، وما سوى ذلك من جيّد البزّ والمتاع — فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد[٧] :

---

(١) مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء : ١٤٠/١ .
(٢) سورة الأعلى ، آية : ٣ .
(٣) سورة طه ، آية : ٥٠ .
(٤) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر : ١٢٠/٢ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته : ٤٦/٨ ، ٤٧ . وفيهما : « فسيصير إلى عمل أهل السعادة ... فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة » .
(٥) تفسير الطبرى : ٣٨٨/١٢ .
(٦) مسلم ، كتاب التفسير ، باب فى قوله تعالى : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) : ٢٤٣/٨ ، ٢٤٤ . والنسائى ، كتاب الحج ، باب قول الله عز وجل : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) : ٢٣٣/٥ ، ٢٣٤ . وتفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٠٤ : ٣٩٠/١٢ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٠٨ : ٣٩١/١٢ .

وكذا قال مجاهد ، وعطاء ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدى ، والضحاك ، ومالك عن الزهرى ، وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها : أنها [نزلت] فى طواف المشركين بالبيت عراة .

وقد روى الحافظ بن مَرْدُويه ، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعى ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعا : أنها أنزلت فى الصلاة فى النعال : ولكن فى صحته نظر ، والله أعلم .

ولهذه الآية ، وما ورد فى معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب لأنه من الزينة ، والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل الثياب البياض ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا على بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البسوا من ثيابكم البياض ، فانها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم ، وإن من خير أكحالكم الإثمد ، فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر (١) » .

هذا حديث جيد الإسناد ، رجاله على شرط مسلم : ورواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث عبد الله ابن عثمان بن خُثَيم ، به : وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وللإمام أحمد أيضا ، وأهل السنن بإسناد جيد ، عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالثياب البياض فالبسوها ، فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم (٣) » .

وروى الطبرانى بسند صحيح ، عن قتادة ، عن محمد بن سيرين : أن تميما الدارى اشترى رداء بألف فكان يصلى فيه .

وقوله تعالى : (وكلوا واشربوا) ... الآية ، قال بعض السلف : جمع الله الطب كله فى نصف آية : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

وقال البخارى : قال ابن عباس : كل ماشئت ، والبس ماشئت ، ما أخطأتك خصلتان سرَف ومَخيلة (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب ، مالم يكن سرَفا أو مَخيلة (٥) .

إسناده صحيح .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٤٧/١ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب فى البياض ، الحديث ٤٠٦١ : ٥١/٤ ، وكتاب الطب ، باب فى الأمر بالكحل ، الحديث ٣٨٧٨ : ٨/٤ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الجنائز ، باب ما يستحب من الأكفان ، الحديث ٩٩٩ : ٧٢/٤ ، ٧٣ . وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء فيما يستحب من الكفن ، الحديث ١٤٧٢ : ٤٧٣/١ .

(٣) ينظر مسند الإمام أحمد : ٧/٥ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ .

(٤) البخارى ، كتاب اللباس ، باب قول الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) : ١٨٢/٧ .
والسرف – بفتحتين – : الإسراف ، ومجاوزة القصد . والمخيلة – بفتح الميم وكسر الخاء – : الاختيال والكبر .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٢٩ : ٣٩٤/١٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْز ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا [في] غير مخيلة ولا سَرَف ؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده[١]» .

ورواه النسائي وابن ماجه ، من حديث قتادة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «كلوا وتصدقوا والبسوا ، في غير إسراف ولا مَخِيلة» .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا سليمان بن سليم الكناني،حدثنا يحيى بن جابر الطائي،سمعت المقدام ابن معد يكرب الكندي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ،حَسْبُ ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان فاعلا لا محالة ، فثلث ، طعامٌ ، وثلث شرابٌ ، وثلث لنفسه[٢]» .

ورواه النسائي والترمذي،من طرق،عن يحيى بن جابر،به . وقال الترمذي:حسن — وفي نسخة:حسن صحيح[٣] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا سويد بن عبد العزيز ، حدثنا بقية ، عن يوسف بن أبي كثير ، عن نوح بن ذكوان ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» .

ورواه الدارقطني في الأفراد ، وقال : هذا حديث غريب تفرد به بقية .

وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عراة ، يحرمون عليهم الوَدَك[٤] ما أقاموا في الموسم ؛ فقال الله لهم : (كلوا واشربوا) ... الآية ، يقول : لا تسرفوا في التحريم[٥] .

وقال مجاهد : أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم[٦] الله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (ولا تسرفوا) ، يقول : ولا تأكلوا حراما ، ذلك الإسراف .

وقال عطاء الخراساني ، عن ابن عباس قوله : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) ، في الطعام والشراب[٧] .

وقال ابن جرير : «وقوله : (إنه لا يحب المسرفين) ، يقول الله : إن الله لا يحب المتعدين حَدَّه في حلال أو حرام ، الغالين فيما أحل [أو حرّم[٨]] ، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ، ويحرم ما حرم ، وذلك العدل الذي أمر به» .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٨٢/٢ . وينظر : ١٨١/٢ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١٣٢/٤ .
(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ، الحديث ٢٤٨٦ : ٥١/٧ .
(٤) الودك — بفتح الواو والدال — : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه ، ويعني بالموسم : موسم الحج .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٥٣١ : ٣٩٤/١٢ ، ٣٩٥ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٥٣٢ : ٣٩٥/١٢ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٥٣٠ : ٣٩٤/١٢ .
(٨) من تفسير الطبري .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ردّاً على من حرّم شيئاً من المآكل والمشارب ، والملابس ، من تلقاء نفسه ، من غير شرع من الله : (قل) يا محمد ، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم : (من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده) ... الآية ، أى : هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حساً فى الدنيا ، فهى لهم خاصة يوم القيامة ، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرّمة على الكافرين .

قال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضى ، حدثنا يحيى الحمانى ، حدثنا يعقوب القُمِّى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة ، يصفرون ويُصفّقون ، فأنزل الله : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) ، فأمرو بالثياب (١) » .

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أحد أغير من ، الله [فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من (٢) الله] .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن مهْران الأعمش ، عن شقيق أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود ، وتقدم الكلام فى سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وقوله : (والإثم والبغى بغير الحق) ، قال السدى : أما الإثم فالمعصية ــ والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق (٣) .

وقال مجاهد : الإثم المعاصى كلها ، وأخبر أن الباغى بغيه كائن على نفسه (٤) .

وحاصل ما فُسّر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى هو التعدى إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا .

وقوله : (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما تعلمون) ، أى : تجعلوا له شريكا فى عبادته ، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك ، مما لا علم لكم به كما قال تعالى : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ... الآية (٥) .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ٣/٨٠ ، وفيه : « فأمروا بالثياب أن يلبسوها » .
(٢) مضى تخريج هذا الحديث ، عند الآية ١٥٧ من سورة الأنعام .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٥٢ : ١٢/٤٠٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٥٣ : ١٢/٤٠٣ .
(٥) سورة الحج ، آية : ٣٠ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

يقول تعالى : (ولكل أمة) ، أي : قرن وجيل (أجل ، فإذا جاء أجلهم) ، أي : ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون ساعة — عن ذلك— ولا يستقدمون) :

ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلا ، يقصون عليهم آياته ، وبشّر وحذّر فقال : (فمن اتقى وأصلح) ، أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) ، أي : كذبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ، أي : ماكثون فيها مكثا مخلدا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

يقول : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) ، أي : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، أو كذب بآيات الله المنزلة .

(أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) ، اختلف المفسرون في معناه ، فقال العوفى (عن ابن عباس) : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسودّ (١) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس يقول : نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيرا جزى به ، ومن عمل شرا جزى (٢) به :

وقال مجاهد : ما وعدوا فيه من خير وشر (٣) .

وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغير واحد . واختاره ابن جرير (٤) .

وقال محمد بن كعب القرظى : (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) ، قال : عمله ورزقه وعمره (٥) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٨٨ : ١٢/٤١٣ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٧٣ : ١٢/٤١١ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٨٢ : ١٢/٤١٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٢/٤١٤ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٥٩٠ : ١٢/٤١٣ .

وكذا قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا القول قوى فى المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (١) ، وقوله : (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا (٢) الآية .

وقوله : (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) ... الآية ، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه . قالوا : (ضلوا عنا) أى : ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ، ولا خيرهم . (وشهدوا على أنفسهم) ، أى : أقروا واعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا كافرين) .

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه المكذبين بآياته : (ادخلوا فى أمم) ، أى : من أشكالكم وعلى صفاتكم ، (قد خلت من قبلكم) ، أى : من الأمم السالفة الكافرة .

(من الجن والإنس فى النار) ، يحتمل أن يكون بدلا من قوله : (فى أمم) ، ويحتمل أن يكون (فى أمم) ، أى : مع أمم .

وقوله : (كلما دخلت أمة لعنت أختها) ، كما قال الخليل عليه السلام : (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) ... الآيه(٣) . وقوله تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (٤) .

وقوله : (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً) ، أى : اجتمعوا فيها كلهم ، (قالت أخراهم لأولاهم) ، أى : أخراهم دخولا ـ وهم الأتباع ـ لأولاهم ـ وهم المتبوعون ـ لأنهم أشد جرماً من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون : (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من

---

(١) سورة يونس ، آية : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ ، ١٦٧ .

النار) ، أى : أضعف عليهم العقوبة ، كما قال تعالى : (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب) (١) ... الآية .

وقوله : (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) ، أى : قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه ، كما قال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً) (٢) ... الآية ، وقال تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) (٣) ، وقال : (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم)(٤) ... الآية .

(وقالت أولاهم لأخراهم) ، أى : قال المتبوعون للأتباع : (فما كان لكم علينا من فضل) ، قال السدى : فقد ضللتم كما ضللنا (٥) .

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم ، فى قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن بعد الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)(٦) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله : (لا تفتح لهم أبواب السماء) ، قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء .

قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير . ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة ، عن ابن عباس . وكذا رواه الثورى ، عن ليث ، عن عطاء ، عن ابن عباس(٧) .

وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء .

رواه الضحاك ، عن ابن عباس . وقاله السدى وغير واحد(٨) ، ويؤيده ما قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن المنهال — هو ابن عمرو — عن زاذان ، عن البراء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء ، [قال] : فيصعدون

(١) سورة الأحزاب ، الآيات : ٦٦ — ٦٨ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ١٣ .
(٤) سورة النحل ، آية : ٢٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٠٠ : ٤٢٠/١٢ .
(٦) سورة سبأ ، الآيات : ٣١ — ٣٣ .
(٧) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ٤٢٢/١٢ ، ٤٢٣ .
(٨) تفسير الطبرى : ٤٢١/١٢ ، ٤٢٢ .

بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : « ما هذه الروح الخبيثة ؟ » فيقولون : « فلان » ، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تفتح لهم أبواب السماء) ... الآية(١) »

هكذا رواه ، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، من طرق ، عن المنهال بن عمرو ، به : وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد . فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر — مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال إلى الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة(٢) ، وحنوط من حَنُوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر : ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان »

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط : ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض « فيصعدون بها فلا يمرون — يعني — بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : « فلان بن فلان » ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : « اكتبوا كتاب عبدي في عِلّيين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى » .

قال : فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : « من ربك ؟ » فيقول : « ربي الله » : فيقولان له : « ما دينك ؟ » فيقول : ديني الإسلام : فيقولان له : « ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ » فيقول : « هو رسول الله صلى الله عليه وسلم » : فيقولان له : « وما علمك ؟ » فيقول : : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت : فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٦١٤ : ١٢/٤٢٤ .

(٢) ليس في الجنة موت ولا أكفان بالمعنى الذي نعرفه . ولعل هذا الكفن الذي يؤتى به من الجنة ، لتدرج فيه النفس الطيبة ، هو ثوب أعده الله لذلك ، أو هو نفحة من النور الإلهي ، تحيط بهذه النفس ، كما يحيط الكفن بالجسم ، أو أن هذا كله كناية عما أعد للنفس الطيبة من الكرامة عند مغادرتها الجسم .

قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرُّك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه(١) يجىء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر ، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مَدّ البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال : فَتَفَرّق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود(٢) من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : « فلان بن فلان » ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تُفَتّح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) ، فيقول الله عز وجل : « اكتبوا كتابه فى سجّين فى الأرض السفلى » . فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق (٣)) ،

فتعاد روحه فى جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : « من ربك ؟ » فيقول : هاه هاه ! لا أدرى . فيقولان : « ما دينك ؟ » فيقول : هاه هاه ! لا أدرى . فيقولان : « ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ » فيقول : هاه هاه ! لا أدرى . فينادى مناد من السماء : « أن كذب ، فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك . هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة »(٤) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يونس بن خباب ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة — فذكر نحوه .

وفيه : حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك فى السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم .

وفى آخره : ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مِرْزَبَّة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين — قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار(٥) .

---

(١) فى المخطوطة : « فوجهك اليوم يجىء » . والمثبت عن مسند الإمام أحمد .

(٢) السفود : حديدة يشوى بها .

(٣) سورة الحج ، آية : ٣١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ .

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - من حديث محمد بن عمرو ابن عطاء ، عن سعيد بن يسَار ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : « اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حَميدة ، وأبشرى بروْح وريحان ، ورب غير غضبان » ، فيقولون ذلك حتى يُعْرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : « من هذا ؟ » فيقولون : « فلان » : فيقال : « مرحباً بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب » ، ادخلى حميدة ، وأبشرى بروْح وريحان ، ورب غير غضبان » ، فيقال لها ذلك حتى ينتهى به إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السَّوْء قالوا : « اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة ، وأبشرى بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج » ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : « من هذا ؟ » فيقولون : « فلان » : فيقولون : « لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة ، فانه لم تفتح لك أبواب السماء » ، فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلى القبر »(١) .

وقد قال ابن جريج فى قوله : (لا تفتح لهم أبواب السماء) ، قال : لا تفتح لأعمالهم ، ولا لأرواحهم(٢) .

وهذا فيه جمع بين القولين ، والله أعلم .

وقوله : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجَمَل فى سَمّ الخياط) هكذا قرأه الجمهور ، وفسروه بأنه البعير .

قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة - وفى رواية : زوج الناقة(٣) .

وقال الحسن البصرى : حتى يدخل البعير فى خرْق الإبرة(٤) .

وكذا قال أبو العالية ، والضحاك . وكذا روى على بن أبى طلحة ، والعوفى عن ابن عباس .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها (يلج الجُمَّل فى سَمّ الخياط) ، بضم الجيم ، وتشديد(٥) الميم - يعنى الحبل الغليظ فى خرم الإبرة .

وهذا اختيار سعيد بن جبير . وفى رواية أنه قرأ (حتى يلج الجُمَّلُ) يعنى قُلُوس(٦) السفن ، وهى الحبال الغلاظ .

وقوله : (لهم من جهنم مهاد) ، قال محمد بن كعب القرظى : (لهم من جهنم مهاد) ، قال : الفرش ، (ومن فوقهم غواش) ، قال : اللحُفُ(٧) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦١٥ : ١٢/٤٢٤ ، ٤٢٥ . وقد مضى تخريج الحديث فى مسند الإمام أحمد فى سورة الأنعام ، عند الآية ٦٢ من سورة الأنعام : ٣/٣٦٢ . والحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب ذكر الموت برقم ٤٢٦٢ : ٢/١٤٢٣ ، ١٤٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦١٣ : ١٢/٤٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٦١٧ - ١٤٦٢١ : ١٢/٤٢٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٢٣ : ١٢/٤٢٩ .

(٥) تفسير الطبرى ، الآثار ١٤٦٣٦ - ١٤٦٤١ : ١٢/٤٣١ ، ٤٣٢ .

(٦) القلوس : جمع قلس - بفتح فسكون - وهو : حبل ضخم غليظ من ليف أو خوص ، وهو من حبال السفن .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٥٥ : ١٢/٤٣٦ .

وكذا قال الضحاك بن مزاحم ، والسدى ، (وكذلك نجزى الظالمين) :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، عطف بذكر حال السعداء ، فقال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله ، واستكبروا عنها .

وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه تعالى قال : (لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غل) ، أى : من حسد وبغضاء ، كما جاء فى الصحيح للبخارى ، من حديث قتادة ، عن أبى المتوكل الناجى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا [خلص المؤمنون من النار] حُبسوا على قنطرة(١) بين الجنة والنار ، فاقتص(٢) لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفسى بيده ، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدلّ منه بمسكنه كان فى الدنيا » (٣).

وقال السدى فى قوله : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار) ... الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة [فبلغوا] ، وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما ، فينزع ما فى صدورهم من غل ، فهو « الشراب الطهور » ، واغتسلوا من الأخرى ، فجرت عليهم « نضرة النعيم » ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً » (٤) .

وقد روى أبو إسحاق [عن عاصم] عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحوا من ذلك ، كما سيأتى فى قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) (٥)، إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال قتادة : قال على رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) . رواه ابن جرير(٦) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة ، عن إسرائيل قال : سمعت الحسن يقول : قال على : فينا والله أهل بدر نزلت : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) (٧).

---

(١) لفظ الصحيح : « حبسوا بقنطرة » .
(٢) لفظ الصحيح : « فيتقاصون مظالم ... » .
(٣) صحيح البخارى ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم : ٣/١٦٧ ، ١٦٨ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٦٣ : ١٢/٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وفيه : « فلم يتسخوا » .
(٥) سورة الزمر ، آية : ٧٣ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٦٢ : ١٢/٤٣٨ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٦١ : ١٢/٤٣٨ .

وروى النسائي وابن مَرْدُويه ــ واللفظ له ــ من حديث أبي بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شكراً ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني ، فيكون له حسرة» .

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون : أى : بسبب أعمالكم [نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم] : وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١) .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى بما يخاطب أهلُ الجنة أهلَ النار إذا استقروا فى منازلهم ، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ : (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) ، « أن» هاهنا مفسِّرة للقول المحذوف ، « وقد » للتحقيق ، أى : قالوا لهم : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم . كما أخبر تعالى فى سورة « الصافات » عن الذى كان له قرين من الكفار : (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم • قال : تالله إن كدت لتردين • ولولا نعمةُ ربى لكنت من المحضرين • أفما نحن بميتين : إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين)(٢) . أى : ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ، ويقرّعه بما صار إليه من العذاب والنكال ، وكذا تقرعهم الملائكة يقولون لهم : (هذه النار التى كنتم بها تكذبون • أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون • اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) (٣) : وكذلك قرّع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قتلى القَليب(٤) يوم بدر ، فنادى : « يا أبا جهل بن هشام ، وياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ــ وسمّى رءوسهم ــ : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً . وقال عمر : يارسول

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل : ١٢٢/٨ ، ١٢٣ . وكتاب المرضى ، باب تمنى المريض الموت : ١٥٧/٧ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى : ١٣٩/٨ ، ١٤٠ .

(٢) الآيات : ٥٤ ــ ٥٩ .

(٣) سورة الطور ، الآيات : ١٤ ــ ١٦ .

(٤) القليب : بئر ببدر ، طرحت فيه جثث المشركين . وقد ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء أهل الجنة لأهل النار يوم القيامة ، بعد استقرار كل فريق فى مثواه الذى شاء الله أن يستقر فيه . وأنت خبير بما فى هذا المشهد الذى ساقه الله تعالى فى هذه الآية من الروعة التى تأخذ بمجامع القلوب ، وتحفز المؤمنين إلى المسارعة فى الخير ، وتردع العصاة عن الإيغال فى الشر ، وهذا هو أحد المقاصد التى من أجلها سيقت هذه المشاهد فى القرآن ، والله أعلم .

الله ، تخاطب قوماً قد جيّفوا ؟. فقال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »(١) .

وقوله : (فأذن موذن بينهم) ، أى : أعلم معلم ونادى منَادٍ : (أن لعنة الله على الظالمين) ، أى : مستقرة عليهم .

ثم وصفهم بقوله : (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) ، أى : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة ، حتى لا يتبعها أحد : (وهم بالآخرة كافرون) ، أى : وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون ، أى : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به . فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أعمالا وأقوالا .

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار ، نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة .

قال ابن جرير : وهو السور الذى قال الله تعالى : (فضُرِب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) : وهو الأعراف الذى قال الله تعالى : (وعلى الأعراف رجال)(٢) .

ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله : (وبينهما حجاب) وهو « السور » ، وهو « الأعراف »(٣) .

وقال مجاهد : الأعراف ، حجاب بين الجنة والنار ، سور له باب(٤) .

قال ابن جرير : « والأعراف » جمع « عُرْف » ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى « عرفاً » ، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه(٥) .

وحدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن عيينة ، عن عُبَيْد الله بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : الأعراف : هو الشيء المشرف(٦) .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال :

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه : ١٦٣/٨ ، ١٦٤ . والبخارى ، كتاب المغازى ، باب قتل أبى جهل : ٩٧/٥ ، ٩٨ . وسيرة ابن هشام : ٦٣٨/١ ، ٦٣٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ٤٤٩/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٢ : ٤٤٩/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٧ : ٤٥١/١٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٤٤٩/١٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٣ : ٤٥٠/١٢ .

« الأعراف » ، سور كعُرْف الديك[1] ».

وفى رواية عن ابن عباس : « الأعراف » ، تل بين الجنة والنار ، حُبِس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار[2].

وفى رواية عنه : هو سور بين الجنة والنار[3] . وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير .

وقال السدى : إنما سمى « الأعراف » أعرافاً ، لأن أصحابه يعرفون الناس .

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه .

حدثنا عبد الله بن إسماعيل ، حدثنا عبيد بن الحسين ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا النعمان بن عبد السلام ، حدثنا شيخ لنا يقال له : أبو عباد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته ، فقال : « أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون »[4] .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورواه من وجه آخر ، عن سعيد بن سلمة بن أبى الحسام ، عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف[5] ، فقال : إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم ، فقتلوا فى سبيل الله » .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا أبو معشر ، حدثنا يحيى بن شبل ، عن يحيى[6] بن عبد الرحمن المزنى ، عن أبيه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « أصحاب الأعراف » فقال : « هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله » .

هكذا رواه ابن مردويه ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من طرق ، عن أبى معشر به . وكذلك رواه ابن ماجه مرفوعاً ، من حديث ابن عباس وأبى سعيد الخدرى ، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٥ ، ١٤٦٧٦ : ٤٥٠/١٢ ، ٤٥١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٧ : ٤٥١/١٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٧٩ : ٤٥١/١٢ .
(٤) الدر المنثور للسيوطى : ٨٧/٣ .
(٥) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته الأعراف » . والنص غير مستقيم ، والمثبت من الدر المنثور للسيوطى : ٨٨/٣ .
(٦) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير . وفى تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٠٥ /٤٥٨/١٢ : « محمد بن عبد الرحمن » . وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١٥٧/٢/٤ أن « يحيى بن شبل » روى عن « عمر بن عبد الرحمن المزنى » ، وعنه أبو معشر .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا حصين ، عن الشعبى ، عن حذيفة : أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلّفت بهم حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم(١) .

وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق قال : قال الشعبى : أرسل إلىّ عبد الحميد ابن عبد الرحمن — وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش — وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا ، فقلت لهما : إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا : هات . فقلت : إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا :(ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) ، فبينا هم كذلك ، اطلع عليهم ربك فقال لهم:اذهبوا فادخلواالجنة ، فإنى قد غفرت لكم(٢) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن أبى بكر الهذلى قال : قال سعيد بن جبير ، وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار . ثم قرأ قول الله : (فمن ثقلت موازينه) ... الآيتين، ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا : « سلام عليكم » ، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أصحاب النار قالوا : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) ، فتعوذوا بالله من منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات ، فإنهم يعطون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً ، وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة مالقى المنافقون قالوا : (ربنا أتمم لنا نورنا) . وأما أصحاب الأعراف ، فإن النور كان فى أيديهم فلم ينزع ، فهنالك يقول الله تعالى : (لم يدخلوها وهم يطمعون) ، فكان الطمع دخولا . قال وقال ابن مسعود : على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة . ثم يقول : هلك من غلبت واحدته أعشاره(٣) .

رواه ابن جرير ، وقال أيضا :

حدثنى ابن وكيع وابن حميد قالا : حدثنا جرير ، عن منصور ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال : « الأعراف » : السور الذى بين الجنه والنار ، وأصحاب الأعراف بذلك المكان ، حتى إذا بدا الله أن يعافيهم ، انطُلِق بهم إلى نهر يقال له : « الحياة(٤) » ، حافتاه قصب الذهب ، مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، فألقوا

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٨٦ : ٤٥٣/١٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٨٥ : ٤٥٢/١٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٩٠ : ٤٥٣/١٢ ، ٤٥٤ .

(٤) فى الطبعات السابقة : « يقال له : نهر الحياة » ، والمثبت من مخطوطة الأزهر ، وهو موافق لنص الطبرى ، الأثر ١٤٦٩٣ : ٤٥٥/١٢ .

فيه حتى تصلح ألوانهم ، وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال : تمنوا ما شئتم فيتمنون ، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً . فيدخلون الجنة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، يسمّون مساكين أهل الجنة .

وكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن يحيى بن المغيرة ، عن جرير ، به : وقد رواه سفيان الثورى ، عن حبيب ابن أبى ثابت ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن الحارث ، من(١) قوله . وهذا أصح ، والله أعلم . وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد .

وقال سنيد بن داود : حدثنى جرير ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف قال : « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من فصله بين العباد قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عُتَقَائى ، فارعوا من الجنة حيث شئتم » . وهذا مرسل حسن(٢) .

وقيل : هم أولاد الزنا : حكاه القرطبى (٣) .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « الوليد بن موسى » ، عن شيبة بن عثمان ، عن عروة بن رويم ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب ، فسألناه عن ثوابهم(٤) ، فقال : على الأعراف ، وليسوا فى الجنة مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . فسألناه : وما الأعراف ؟ فقال : حائط الجنة تجرى فيه الأنهار ، وتنبت فيه الأشجار والثمار .

رواه البيهقى (٥) ، عن ابن بشران ، عن على بن محمد المصرى ، عن يوسف بن يزيد ، عن الوليد بن موسى ، به .

وقال سفيان الثورى ، عن خُصَيف ، عن مجاهد قال : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن سليمان التيمى ، عن أبى مِجْلَز فى قوله تعالى : (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) ، قال : هم رجال من الملائكة ، يعرفون أهل الجنة وأهل النار ، قال : (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، ونادى أصحاب الأعراف رجالا) فى النار (يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٦٩٤ : ١٢/٤٥٥ ، ٤٥٦ .
(٢) أخرجه الطبرى عن القاسم ، عن الحسين ، عن جرير ، به . ينظر الأثر ١٤٧١٠ : ١٢/٤٦١ .
(٣) تفسير القرطبى : ٧/٢١٢ .
(٤) لفظ مخطوطة الأزهر : « فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم » ، و « عن مؤمنيهم » ليست فى الدر المنثور ، والسياق لا يقتضيها .
(٥) قال السيوطى فى الدر المنثور ٣/٨٨ : « وأخرج البيهقى فى البعث عن أنس بن مالك ... » وذكره .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٠٦ : ١٢/٤٥٨ .

عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) ، قال : فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة : (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون[(١)]) .

وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين ، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق : وقول الجمهور مقدم على قوله ، بدلالة الآية على ماذهبوا إليه . وكذا قول مجاهد : « إنهم قوم صالحون علماء فقهاء » ، فيه غرابة أيضا ، والله أعلم .

وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولا منها : أنهم شهدوا أنهم صلحاء تفرغوا من فزع الآخرة، دخلوا يطلعون على أخبار الناس[(٢)] . وقيل : هم أنبياء . وقيل : ملائكة[(٣)] .

وقوله تعالى : (يعرفون كلا بسيماهم) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : « يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه[(٤)] » . وكذا روى الضحاك ، عنه[(٥)] .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (أنزلهم الله بتلك المنزلة ، ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين . وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ، لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله[(٦)] .

وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، والسدي ، والحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال معمر ، عن الحسن : إنه تلا هذه الآية : (لم يدخلوها وهم يطمعون) ، قال : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم ، إلا لكرامة يريدها بهم[(٧)] .

وقال قتادة : « أنبأكم الله بمكانهم من الطمع[(٨)] » .

وقوله : (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ، قالوا : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)[(٩)] .

وقال السدي : وإذا مروا بهم — يعني بأصحاب الأعراف — بزمرة يُذْهَب بها إلى النار قالوا : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)[(١٠)] .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٠٧ : ١٢/٤٥٩ .

(٢) كذا في المخطوطة ، وفي تفسير القرطبي ٧/٢١٢ من القشيري قال : « وقيل : هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة حال الناس » .

(٣) تفسير القرطبي : ٧/٢١٣ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧١٦ : ١٢/٤٦٢ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٢٠ : ١٢/٤٦٢ .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧١٧ : ١٢/٤٦٢ .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٢٩ : ١٢/٤٦٥ .

(٨) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٣٠ : ١٢/٤٦٥ .

(٩) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٣٥ : ١٢/٤٦٦ .

(١٠) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٣٤ : ١٢/٤٦٦ .

وقال عكرمة : تحدد(١) وجوههم فى النار ، فاذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم (٢) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) ، فرأوا وجوههم مسودة ، وأعينهم مزرقة — (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) (٣)

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم فى النار بسيماهم : (ما أغنى عنكم جمعكم) أى : كثرتكم ، (وماكنتم تستكبرون) ، أى : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال .

(أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى أصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون (٤)) .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن سعد ، حدثنى أبى ، حدثنى عمى حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) ... الآية قال : فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا — يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار — قال الله لأهل التكبر والأموال : (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون)(٥) :

وقال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت(٦) أعمالهم ، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجُعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم . فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم ، أنت أبونا ، فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمتُه إليه غضبَه ، وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون : لا : فيقول : ما علمت كنهه (٧) ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم . فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : تعلمون من أحد اتخذه الله خليلا ؟ هل تعلمون أن أحدا أحرقه قومه فى النار فى الله غيرى ؟ فيقولون : لا : فيقول ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم . ولكن ائتوا ابنى موسى . فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون

---

(١) كذا فى نسخة الأزهر ودار الكتب « ١ » تفسير ، وفى تفسير الطبرى : « تحرد وجوههم النار » وفى الدر المنثور للسيوطى ٣/٨٩ : « تجرد وجوههم للنار » .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٣٦ : ١٢/٤٦٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٣٧ : ١٢/٤٦٧ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٤٣ : ١٢/٤٦٩ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٤٥ : ١٢/٤٦٩ .

(٦) فى مخطوطة الأزهر ، ودار الكتب «١» تفسير : « تكافئت » ، والمثبت من تفسير الطبرى .

(٧) فى تفسير الطبرى : « ما علمت فيه كنه ما أستطيع أن أشفع لكم » .

من أحد كلمه الله تكليما وقربه نجيا غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى . فيأتونه عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحدا خلقه الله من غير أب [غيرى(١)] ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله غيرى ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسى . ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم . ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم . فيأتونى ، فأضرب بيدى على صدرى ، ثم أقول : أنا لها . ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش ، فآتى(٢) ربى عز وجل ، فيفتح لى من الثناء مالم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد فيقال لى : يا محمد ، ارفع رأسك ، وسل تُعْطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى ، فأقول : ربى أمتى . فيقول : هم لك . فلا يبقى نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، إلا غبطنى بذلك المقام ، وهو المقام المحمود . فآتى بهم الجنة ، فأستفتح فيفتح لى ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : « نهر الحيوان » ، حافتاه قصب(٣) مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت . فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة . وريح(٤) ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال [لهم] : مساكين أهل الجنة(٥) .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ؛

قال السدى : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) ، يعنى : الطعام(٦) ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم(٧) .

وقال الثورى ، عن عثمان الثقفى ، عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال : ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول : « قد احترقت ، أفض علىّ من الماء . فيقال لهم : أجيبوهم . فيقولون : (إن الله حرمهما على الكافرين(٨)) .

وروى من وجه آخر عن سعيد ، عن ابن عباس ، مثله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (إن الله حرمهما على الكافرين) : يعنى طعام الجنة وشرابها(٩) ؛

(١) عن تفسير الطبرى .

(٢) فى تفسير الطبرى : « فأثنى على ربى » .

(٣) القصب : أنابيب مستطيلة مجوفة ، من الجوهر ، أو الذهب ، أو الفضة .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة الطبرى ، وقد زاد السيد المحقق تفسير الطبرى بعد كلمة « وريح » : « أهل الجنة » فصارت العبارة : « وريح أهل الجنة » اعتماداً على ما طبع من قبل من تفسير ابن كثير .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٤٦ : ١٢/٤٦٩ — ٤٧١ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٤٩ : ١٢/٤٧٣ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٥٠ : ١٢/٤٧٣ .

(٨) هذا نص رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ، كما فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٥١ : ١٢/٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٥٣ : ١٢/٤٧٤ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا نصر بن علي ، أخبرنا موسى بن المغيرة ، حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال : سألت ابن عباس ــ أو : سئل ــ أيّ الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار [لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا(١)] : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

وقال أيضاً : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال : لما مرض أبو طالب قالوا له : لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا ، فيرسل إليك بعنقود من الجنة ، لعله أن يَشفيك به . فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : إن الله حرمهما على الكافرين .

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة .

قوله : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) ، أي : نعاملهم معاملة من نَسِيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : (في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى(٢)) .

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : (نسوا الله فنسيهم) ،(٣) وقال : (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (٤)) ، وقال تعالى : (وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا (٥)) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) ، قال : نسيهم الله من الخير ، ولم ينسهم من (٦) الشر .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : نتركهم ، كما تركوا لقاء يومهم هذا (٧) .

[وقال مجاهد : نتركهم في النار . وقال السدي : نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا] .

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذَرْك ترأس وتَرْبَع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله : فاليوم أنساك كما نسيتني(٨).

---

(١) من الدر المنثور للسيوطي ٩٠/٣ ، ٩١ ، ومكانه في مخطوطة الأزهر : « قال » .
(٢) سورة طه ، آية : ٥٢ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة طه ، آية : ١٢٦ .
(٥) سورة الجاثية ، آية : ٣٤ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٥٩ : ٤٧٦/١٢ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٧٥٨ : ٤٧٦/١٢ ، ونصه : « نتركهم من الرحمة . كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا » .
(٨) مسلم ، كتاب الزهد عن أبي هريرة : ٢١٦/٨ . وقد مضى الحديث في سورة البقرة عند تفسير الآية ٤٦ منها ، ينظر : ١٢٦/١ ، وهنالك شرح غريب هذا الحديث .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ، كما قال تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت (١)) ... الآية .

وقوله : (فصلناه على علم) ، أى : على علم منا بما فصلناه به ، كما قال تعالى (أنزله بعلمه)(٢) .

قال ابن جرير : وهذه الآية مردودة على قوله: (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه (٣)) ... الآية (ولقد جئناهم بكتاب) ... الآية .

وهذا الذى قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ، ولا دليل على ذلك ، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار فى الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدار الدنيا ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٤)) ، ولهذا قال : (هل ينظرون إلا تأويله)، أى: ما وُعد من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد .

وقال مالك : ثوابه .

وقال الربيع : لا يزال يجىء من تأويله أمر ، حتى يتم يوم الحساب ، حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ .

(يوم يأتى تأويله) ، أى : يوم القيامة، قاله ابن عباس (٥) — (يقول الذين نسوه من قبل) ، أى : تركوا العمل به ، وتناسوه فى الدار الدنيا : (قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) ، أى : فى خلاصنا مما نحن فيه ، (أو نرد) إلى الدار الدنيا (فنعمل غير الذى كنا نعمل) ، كما قال تعالى : (ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون)(٦) ، كما قال هاهنا : (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ، أى : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ، (وضل عنهم ما كانوا يفترون) ، أى : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم ، ولا يشفعون لهم ، ولا ينقذونهم مما هم فيه .

---

(١) سورة هود ، آية : ١ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٢ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٦٧ : ١٢/٤٧٩ .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ ، ٢٨ .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٤)

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم : سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هى : الأحد ، والإثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة — وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام : واختلفوا فى هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ؟ كما نص على ذلك مجاهد ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس . فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت ، وهو القطع .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا حجاج ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنى إسماعيل ابن أمية عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع — مولى أم سلمة — عن أبى هريرة قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل (١) » .

فقد رواه مسلم(٢) بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه ، عن حجاج — وهو ابن محمد الأعور — عن ابن جريج به . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال فى ستة أيام . ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبى هريرة ، عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعا ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) ، فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك ، والأوزاعى ، والثورى ، والليث بن سعد ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله ، فإن الله لا يشبهه شىء من خلقه ، و(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، بل الأمر كما قال الأئمة — منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى — : « من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر » . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى (٣) .

وقوله تعالى : (يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا) ، أى : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، أى : سريعا لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب هذا ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٢٧/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام : ١٢٧/٨ .

(٣) وعلى هذا الأساس يكون الاستواء المتعارف — وهو الجلوس والارتفاع المادى — منفى عنه سبحانه ، ويكون له استواء على عرشه كما أخبر ، لا كما يعلم البشر .

كما قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)(١) فقوله : (ولا الليل سابق النهار) ، أى : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما ، ولهذا قال : (يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) — منهم من نصب (٢) ، ومنهم من رفع ، وكلاهما قريب المعنى ، أى : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ، ولهذا قال منها :... (ألا له الخلق والأمر) ، أى : له الملك والتصرف ، (تبارك الله رب العالمين) ، كما قال : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا (٣)) ... الآية .

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا عبد الغفار ابن عبد العزيز الأنصارى ، عن عبد العزيز الشامى ، عن أبيه — وكانت له صحبة — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح ، وحَمِد (٤) نفسه ، فقد كفر وحبط عمله . ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا ، فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » ، لقوله : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (٥) .

وفى الدعاء المأثور ، عن أبى الدرداء — وروى مرفوعا — : « اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله » .

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تعالى عباده إلى دعائه ، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم ، فقال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) ، معناه : تذللا واستكانة ، و (خفية) ، كما قال : (واذكر ربك فى نفسك (٦)) ... الآية ، وفى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، اربَعُوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ، إن الذى تدعونه سميع قريب » (٧) ... الحديث .

---

(١) سورة يس ، الآيات : ٣٧ — ٤٠ .

(٢) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٤/٣٠٩ : « انتصب مسخرات على الحال من المجموع ، أى : وخلق الشمس . وقرأ ابن عامر بالرفع فى الأربعة على الابتداء والخبر » .

(٣) سورة الفرقان ، آية : ٦١ .

(٤) نص الطبرى : « وحمد نفسه ، قل شكره ، وحبط عمله » .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٧٦ : ١٢/٤٨٤ .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ٢٠٥ .

(٧) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة : ٨/١٠١ ، ١٠٢ . وكتاب القدر ، باب لا حول ولا قوة إلا بالله : ٨/١٥٥ ، ١٥٦ . وكتاب التوحيد : ٩/١٤٤ ، كما أخرجه فى كتاب الجهاد ، باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير : ٤/٦٩ . وأخرجه مسلم فى كتاب الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر : ٨/٧٣ ، ٧٤ .

وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس فى قوله : (تضرعا وخفية) ، قال : السر (١).

وقال ابن جرير : (تضرعا) : تذللا واستكانة لطاعته ــ (وخفية) ، يقول : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه ، لا جهارا ومراءاة (٢).

وقال عبد الله بن المبارك ، عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إنْ كانَ الرجل لقد جمع القرآن ، وما يشعر به الناس (٣) . وإن كان الرجل لقد فقُه الفقه الكثير ، وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْر (٤) ، وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر ، فيكون علانية أبدا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : (ادعوا ربكم تضرعا وخيفة) ، وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رَضِى فعله فقال : (إذْ نادى ربه نداء خفيا (٥)) .

وقال ابن جريج : يكره رفعُ الصوت والنداءُ والصياحُ فى الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة ــ ثم روى عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس فى قوله : (إنه لا يحب المعتدين) : فى الدعاء ولا فى غيره (٦).

وقال أبو مجلز : (إنه لا يحب المعتدين) : لا يسأل منازل الأنبياء (٧).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا شعبة ، عن زياد بن مخراق ، سمعت أبا نعامة (٨) ، عن مولى لسعد : أن سعدا سمع ابنا له يدعو وهو يقول : « اللهم ، إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها » . فقال : لقد سألت الله خيرا [كثيرا] وتعوذت بالله من شر كثير ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » وقرأ هذه الآية : (ادعوا ربكم تضرعا) الآية ــ وإن بحسبك أن تقول : « اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل (٩) » .

ورواه أبو داود ، من حديث شعبة ، عن زياد بن مخراق ، عن أبى نعامة عن ابن لسعد ، عن سعد ... فذكره ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٧٩ : ١٢/٤٨٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٢/٤٨٥ .
(٣) فى تفسير الطبرى : « وما يشعر به جاره » .
(٤) الزور ــ بفتح الزاى وسكون الواو ــ : جمع زائر .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٧٧ : ١٢/٤٨٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٨١ : ١٢/٤٨٦ ، ٤٨٧ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٨٠ : ١٢/٤٨٦ .
(٨) فى المسند ١/٧٢ : « سمعت أبا عباية » ولعل الصواب « ابن عباية » ، وهو قيس بن عباية ، يكنى أبا نعامة . وفى المخطوطة : « أبا عيلة » وقد أثبتنا ما فى الطبعات السابقة .
(٩) مسند الإمام أحمد : ١/١٧٢ ، وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، الحديث ١٤٨٠ : ٢/٧٧ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا الجريري ، عن أبي نعامة : أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : « اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يا بني ، سل الله الجنة ، وَعُذْ به من النار ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور (١) » .

وهكذا رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن عفان به . وأخرجه أبو داود ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن سعيد بن إياس الجَرَيري ، عن أبي نَعَامة — واسمه : قيس بن عباية الحنفي البصري — وهو إسناد حسن لا بأس به ، والله أعلم (٢) .

وقوله تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ، ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح ! فإنه [إذا كانت] الأمور ماشية على السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضر ما يكون على العباد . فنهى تعالى عن ذلك ، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه ، فقال : (وادعوه خوفا وطمعاً) ، أي : خوفا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب .

ثم قال : (إن رحمت الله قريب من المحسنين) ، أي : إن رحمته مُرْصَدة (٣) للمحسنين ، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون)(٤) ... الآية .

وقال : (قريب) ، ولم يقل : « قريبة » ، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله ، فلهذا قال : قريب من المحسنين .

وقال مطر الوراق : « تَنَجَّزُوا موعود الله بطاعته ، فانه قضى أن رحمته قريب من المحسنين » : رواه ابن أبي حاتم .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر — نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال : (وهو الذي يرسل الرياح نُشراً)(٥) ، أي : ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ (بُشْرا) ، كقوله : (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٥٥ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب كراهية الاعتداء في الدعاء ، الحديث ٣٨٦٤ : ٢/١٢٧١ . وسنن أبو داود كتاب الطهارة ، الحديث ٩٦ : ١/٢٤ .

(٣) يقال : « أرصد له الأمر » ، أي : أعده . اللسان .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٥٦ .

(٥) قرىء : (نشرا) بضم النون والشين ، وبضم النون وتسكين الشين ، وقرى أيضاً : (نشرا) بفتح النون وتسكين الشين . ينظر البحر المحيط : ٤/٣١٦ ، وتفسير الطبري : ١٢/٤٩٠ ، ٤٩١ .

وقوله : (بين يدى رحمته) ، أى: بين يدى المطر ، كما قال : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته وهو الولى الحميد (١)) ، وقال: (فانظر إلى أثر (٢) رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير (٣)) .

وقوله : (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا) ، أى : حملت الرياح سحاباً ثقالا ، أى : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله (٤) :

وأسلمتُ وجْهِي لِمَنْ أسْلَمَتْ   لَهُ المُزْنُ تَحْمِل عَذْباً زُلالا
وأسلَمْتُ وَجْهِى لمن أسلَمَتْ   له الأرض تحملُ صخرا ثقالا

وقوله : (سقناه لبلد ميت) ، أى : إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ، كما قال تعالى : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) ... الآية ، ولهذا قال : (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى) ، أى : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها ، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيما يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوما ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض . وهذا المعنى كثير فى القرآن ، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها ، ولهذا قال : (لعلكم تذكرون) .

وقوله : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) ، أى : والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسنا ، كما قال: (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها (٥) نباتاً حسناً) .

(والذى خبث لا يخرج إلا نكداً) ، قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها (٦) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر (٧) .

وقال البخارى : حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا حماد بن أسامة ، عن بُرَيد بن عبد الله ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٢٨ .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر : « أثر » بالإفراد ، وهى قراءة الحرميين وأبى عمرو وأبى بكر . وقرأ باقى السبعة بالجمع ، البحر المحيط : ٧/١٧٩ .
(٣) سورة الروم ، آية : ٥٠ .
(٤) الأبيات فى سيرة ابن هشام : ١/٢٣١ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٨٧ : ١٢/٤٩٧ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٧٨٦ : ١٢/٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ونصه : « فهذا مثل ضربه الله المؤمن ، يقول : هو طيب ، وعمله طيب ، كما البلد الطيب ثمره طيب . ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التى يخرج منها النز [النز : هو الماء تتحلب منه الأرض] ، فالكافر هو الخبيث ، وعمله خبيث » .

الكثير أصاب [أرضا] ، فكانت منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي [قيعان] لا تمسك ماء ولا تنبت فذلك [مثل] من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به(١) » .

رواه مسلم والنسائي من طرق ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، به(٢) .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة ، وما يتعلق بذلك ويتصل به ، وفرغ منه ، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول َ فالأول َ ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام ، وهو : نوح بن لامك بن متوشلخ بن خَنُوخ — وهو إدريس عليه السلام — فيا ، يزعمون ، وهو أول من خط بالقلم — ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام .

هكذا نسبه ابن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب ، قال محمد بن إسحاق : ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل .

وقال يزيد الرقاشي : إنما سُمِّيَ نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه(٣) .

وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة َ أولئك فيها ، ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجسادا على تلك الصور . فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودّا وسواعا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسرا) ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى — وله الحمد والمنة — رسوله نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال : (يا قوم ، اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ، أي : من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون به . (قال الملأ من قومه) ، أي : الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : (إنا لنراك في ضلال مبين) ، أي : في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا . وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ، كما قال تعالى : (وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون(٥)) ، (وقال الذين

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم : ١/٣٠ .

(٢) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم : ٦٣/٧ .

(٣) الدر المنثور للسيوطي : ٩٤/٣ .

(٤) سورة المطففين ، آية : ٣٢ .

كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)(١) ، إلى غير ذلك من الآيات :

(قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين) ، أي : ما أنا ضال ، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ، (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) . وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحا ناصحا بالله ، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : « أيها الناس ، إنكم مسئولون (٢) عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك [قد] بلغت وأديت [ونصحت] ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد (٣) .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى إخبارا عن نوح أنه قال لقومه : (أو عجبتم) ... الآية ، أي : لا تعجبوا من هذا ، فإن هذا ليس يعجَب أن يوحى الله إلى رجل منكم ، رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم ، لإنذاركم و لتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ، (ولعلكم ترحمون) .

قال الله تعالى : (فكذبوه) ، أي : فتمادوا على تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما نص عليه تعالى في موضع آخر ، (فأنجيناه والذين معه في الفلك) ، وهي السفينة ، كما قال : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) (٤) ، (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ، كما قال : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) (٥) .

وقوله : (إنهم كانوا قوما عمين) ، أي : عن الحق ، لا يبصرونه ولا يهتدون له .

فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا) ... الآية إلى قوله : (ولهم سوء الدار) (٦) .

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجّى نوحا وأصحابه المؤمنين .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ١١ .
(٢) لفظ مسلم : « وأنتم تسألون عني » .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤١/٤ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية : ١٥ .
(٥) سورة نوح ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة غافر ، آية : ٥١ ، ٥٢ .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز .

وقال ابن وهب : بلغني عن ابن عباس : أنه نجا مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا ، أحدهم «جُرْهم» ، وكان لسانه عربيا ، رواهن ابن أبى حاتم . وقد روى هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلا عن ابن عباس ، رضى الله عنه .

* ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا ، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا .

قال محمد بن إسحاق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح :

قلت : وهؤلاء هم عاد الأولى ، الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون [إلى] العَمَد فى البر ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد : إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد)(١) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، سمعت على ابن أبى طالب يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر تخالطه مَدَرَة(٢) حمراء ذا أراكٍ وسِدْر(٣) كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . و الله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدّثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبرُ هود عليه السلام .

رواه ابن جرير(٤) : وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، وأن هودا عليه السلام دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسبا ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد

(١) سورة الفجر ، الآيات : ٦ - ٨ .
(٢) المدرة : الطين لا رمل فيه .
(٣) الأراك والسدر : نبتان .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٠٣ : ١٢/٥٠٧ .

على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه .

(قال الملأ الذين كفروا من قومه) ــ والملأ هم : الجمهور والسادة والقادة منهم ــ : (إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) ، أى : فى ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام ، والإقبال إلى عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد (فقالوا) : (أجعل الآلهة إلهاً واحدا) (١) ... الآية .

(قال : يا قوم ، ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) ، أى : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء ، فهو رب كل شىء ومليكه (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) . وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة .

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) ، أى : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذاكم ، (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) ، أى : واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح ، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته ، لما خالفوه وكذبوه ، (وزادكم فى الخلق بسطة) ، أى : زاد طولكم على الناس بسطة ، أى : جعلكم أطول من أبناء جنسكم ، كما قال تعالى : فى قصة طالوت : (وزاده بسطة فى العلم والجسم) (٢) : (فاذكروا آلاء الله) ، أى : نعمه ومنته عليكم (لعلكم تفلحون) .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام : (قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده) ــ الآية ، كما قال الكفار من قريش : (وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (٣) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره : أنهم كانوا يعبدون أصناما ، فصنم يقال له : صداء ، وآخر يقال له : صَمُود ، وآخر يقال له : الهباء (٤) .

---

(١) سورة « ص » ، آية : ٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٧ .

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٣٢ .

(٤) ينظر كتاب الأصنام ، لابن الكلبى التكلة : ١١٠ ، ١١١ . وأثر ابن اسحاق فى تفسير الطبرى رقم ١٤٨٠٤ : ٥٠٧/١٢ ، ٥٠٨ .

ولهذا قال هود عليه السلام : (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) ، أى : قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس ، قيل : هو مقلوب من رجز . وعن ابن عباس : معناه السخَطُ والغضب .

(أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) ، أى : أتحاجوننى فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ، ولهذا قال : (مانزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) .

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقب بقوله : (فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين) .

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخَر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ، ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال فى الآية الأخرى . (وأما عاد فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية . سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية(١)) — لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أمّ رأسه فتثلغُ (٢) رأسه حتى تُبينه من جثته ، ولهذا قال : (كأنهم أعجاز نخل خاوية) .

وقال محمد بن إسحاق : كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضر موت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها ، بفضل قوتهم التى آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله إليهم هودا عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسبا ، وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم(٣) ، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه ، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا ، وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون(٤)).(قالوا: ياهود ، ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ، أى : بجنون ، (قال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم (٥)) .

قال محمد بن إسحاق : فلما أبوا إلا الكفر به ، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين ، فيما يزعمون ، حتى جهدهم ذلك ، قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان ، فطلبوا من الله الفرج فيه ، إنما يطلبونه بحُرْمة ومكان بيته ، وكان

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ٦ — ٨ .

(٢) ثلغ رأسه : هشمه وشدخه . وتبينه : تفصله .

(٣) بعده فى تفسير الطبرى ١٢/٥٠٨ : « وكان ممن آمن به وصدق ، رجل من عاد يقال له : « مرثد بن سعد بن عفير » ، وكان يكتم إيمانه » .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ١٢٨ — ١٣١ .

(٥) سورة هود ، الآيات : ٥٣ — ٥٦ .

معروفا عندالمـلل(١) ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ(٢) بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له : « معاوية بن بكر » ، وكانت له أم من قوم عاد ، واسمها كلهدة(٣) ابنة الخيبرى ، قال : فبعث عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم ، ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ــ قينتان لمعاوية ــ وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر ، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ، عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنياهم به ، فقال(٤) :

ألا يا قيل ، ويحك : قُمْ فَهَيْنِمْ   لعلَّ اللهَ يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فَيَسْقِى أرضَ عادٍ إنَّ عاداً   قَدَ امْسَوا لا يُبِينُونَ الكَلَامَا
من العطش الشديد ، فليس نَرْجُو   به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلَامَا
وقد كانت نساؤهُمُ بخير   فقد أمست نساؤهم عَيَامَى(٥)
وإنَّ الوحشَ تأتيهمْ جِهاراً   ولا تَخْشَى لعادىَ سِهَامَا
وأنتُمْ هاهُنَا فيما اشتَهَيْتُمْ   نَهارَكُمُ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُم من وَفْدِ قَوْمٍ   ولا لُقُّوا التحيَّةَ والسَّلَامَا

قال : فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم ، وهو : « قيل بن عنز » ، فأنشأ الله سحابات ثلاثا : بيضاء ، وسوداء ، وحمراء ، ثم ناداه مناد [من(٦) السماء : « اختر لنفسك ــ أو : لقومك ــ من هذا السحاب » ، فقال : « اخترت هذه السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء » ، فناداه مناد] : اخترتَ رَمَادا رِمْدَداً(٧) ، لا تبقى من عاد أحدا ، لا والدا تترك ولا ولدا ، إلا جعلته هَمَدا ، إلا بنى اللَّوذِيَّة المهندا(٨) قال : وبنو اللوذية : بطن من عاد مقيمون بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم ــ قال : وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة ــ قال : وساق الله السحابة السوداء ، فيما يذكرون ، التى اختارها « قيل بن عنز » بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من واد يقال له : « المغيث » ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : (هذا عارض ممطرنا) يقول : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها)(٩) ، (أى : تهلك كل شىء مرّت به) ، فكان أول

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى تفسير الطبرى : « وكان البيت فى ذلك الزمان معروفا مكانه » .
(٢) فى المخطوطة : « لاوم » ، والمثبت عن تفسير الطبرى ، والقاموس المحيط ، مادة : لوذ .
(٣) فى المخطوطة : « جلهدة » والمثبت من تفسير الطبرى .
(٤) الأبيات فى تفسير الطبرى : ١٢/٥١٠ .
(٥) « أعام القوم » : هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . « والعيمة » : شدة شهوة اللبن . و « عام القوم » : قل لبنهم من القحط ، و « رجل عيمان » ، وامرأة عيمى » ، والجمع : « عيام » و « عيامى » .
(٦) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الطبعات السابقة ، وهو ثابت فى تفسير الطبرى : ١٢/٥١٢ ، ولكن فيه : « ثم ناداه مناد من السحاب » .
(٧) « رماد رمدد » ــ بكسر الراء وسكون الميم وكسر الدال ــ متناه فى الاحتراق .
(٨) كذا فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب « ١ » تفسير . وفى تفسير الطبرى : « المهدى » .
(٩) سورة الأحقاف ، آية : ٢٤ ، ٢٥ .

من أبصر ما فيها وعرفت أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها : [مَهْدَد(١)] ، فلما تبينت ما فيها صاحت ، ثم صَعِقت ؛ فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا مَهْدَد ؟ قالت : ريحا فيها شُهُب النار ، أمامها رجال يقودونها ؛ فسخَّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، كما قال الله(٢) — « والحسوم » الدائمة — فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك واعتزل هُود عليه السلام ، فيما ذكر لى ، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه الا ما تلين عليه الجلود ، وتلتذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظَّعن ما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة(٣) » » .

وذكر تمام القصة بطولها ، وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة ، وقد قال الله تعالى : (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)(٤) .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد [فى مسنده(٥) قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار ، رحمه الله .

قال الإمام أحمد] : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى أبو المنذر سَلاّم بن سليمان النحوى ، حدثنا عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل ، عن الحارث البكرى قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها ، فقالت [لى] يا عبد الله ، إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد بسيف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما شأن الناس ؟ فقالوا : يريد أن يبعث عمرو ابن العاص وجها ؛ قال : فجلست ، فدخل منزله — أو قال : رحله — فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل بينكم وبين تميم شىء ؟ قلت : نعم ، وكانت لنا الدَّبْرة(٦) عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها ، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهاهى بالباب ؛ فأذن لها ، فدخلت ، فقلت : يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا ، فاجعل الدهناء ؛ فحَمِيت العجوز واستوفزت(٧) ، فقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يضطر مُضَرُك(٨) ، قال قلت : إن مثلى ما قال الأول : « معزَى حَمَلت حتفها(٩) » ، حملت هذه ولا أشعر أنها

---

(١) فى المخطوطة : « مهد » . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ٧ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٠٤ : ١٢/٥٠٧ ، ٥١٣ . وقد اختصره الحافظ ابن كثير .

(٤) سورة هود ، آية : ٥٨ .

(٥) ما بين القوسين المعقوفين من الطبعات السابقة ، وهو ساقط من مخطوطة الأزهر . ولكن كان فى هذه الطبعات : « قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله ، وقال الإمام أحمد » وهو ما يشعر أن الإمام أحمد روى الأثر المتقدم ، ولم نجده فى المسند ، فحذفناه « واو » ، « وقال » .

(٦) فى المخطوطة : « الدائرة » والمثبت من مخطوطة دار الكتب « ١ » تفسير ، ومن مسند الإمام أحمد ، وتفسير الطبرى . والدبرة : الهزيمة لهم ، والدولة والظفر للآخرين .

(٧) استوفزت : استقلت على رجليها متهيئة الوثوب .

(٨) فى المخطوطة : « نصرك » ، وفى نسخة دار الكتب النقطة على الصاد . والمثبت من المسند وتفسير الطبرى . و « مضر » جذم العرب ، وهو « مضر بن نزار بن معد بن عدنان » ، ومنه تفرعت قريش وبنو تميم ، ولذلك قالت المرأة من تميم لرسول الله « مضرك » ، لأنه جده وجدها .

(٩) أى : حملت منيتها ، وهذا مثل يضرب لمن يحمل ما فيه هلاكه .

كانت لى خصما ، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد ! . قال هيه ، وما وافد عاد؟ ــ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ــ قلت : إن عادا قُحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له : قيل ، فمر بمعاوية بن بكر ، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان ، يقال لهما « الجرادتان » ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال (١) مَهْرة ، فقال : « اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سُودٌ ، فنودى منها : « اختر » . فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها . « خذها رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا . قال : فما بلغنى أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا ، حتى هلكوا ــ قال أبو وائل : وصدق ــ قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم قالوا : « لا تكن كوافد عاد (٢) » .

هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند ، ورواه الترمذى (٣) ، عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحباب ، به نحوه ؛ ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر ، عن عاصم ــ وهو ابن بهدلة ــ ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا ، عن أبى وائل ، عن الحارث بن حسان البكرى ، به . ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد بن حُبَاب ، به . ووقع عنده : « عن الحارث بن يزيد البكرى » فذكره (٤) ورواه أيضا عن أبى كريب ، عن أبى بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن الحارث بن حسان البكرى (٥) : فذكره ولم أر فى النسخة « أبا وائل » ، والله أعلم .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٧٨) ﴾

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر (٦) بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جَدِيس بن عاثر (٦) ، وكذلك قبيلة طَسْم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة (٧) قبل إبراهيم الخليل عليه السلام. وكانت ثمود بعد عاد ،

(١) فى المسند : « خرج (إلى) جبال تهامة فنادى » ، وفى الصفحة نفسها من المسند رواية أخرى ، وفيها : « حتى أتى على جبال مهرة » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٨٢/٣ .

(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الذاريات ، الحديث ٣٣٢٨ : ١٦١/٩ ، ١٦٢ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٠٦ : ٥١٦/١٢ - ٥١٨ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٠٥ : ٥١٣/١٢ - ٥١٥ .

(٦) فى تفسير الطبرى ٥٢٤/١٢ : « ثمود بن غاثر » بالغين المعجمة .

(٧) ينظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٧ .

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قراهم ومساكنهم ، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جُوَيرية ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما نزل[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على [2] تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا منها القدور[3] . فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجينَ الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا [وقال] : « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم [4] » .

وقال أحمد ايضا : حدثنا عفان ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء[5] المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم [6] » .

وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه [7] .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا المسعودى ، عن إسماعيل بن أوسط ، عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى ، عن أبيه قال : لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر ، يدخلون عليهم . فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى الناس : « الصلاة جامعة » — قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعيره [8] وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم . فناداه رجل منهم : نعجبُ منهم يا رسول الله . قال : أفلا أنبئكم [9] بأعجب من ذلك : رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا . فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا [10] » .

لم يخرجه أحد من أصحاب السنن ، وأبو كبشة اسمه : عمر بن سعد ، ويقال : عامر بن سعد [11] ، والله أعلم .

---

(١) فى المسند : « نزل رسول الله ... » والسياق يقتضى ذكر « لما » .
(٢) فى المسند : « عام تبوك » .
(٣) فى المسند : « ونصبوا القدور باللحم » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١١٧/٢ .
(٥) فى المسند : « هؤلاء القوم المعذبين » .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٧٤/٢ .
(٧) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة فى مواضع الخسف : ١١٨/١ . ومسلم ، كتاب الزهد ، باب « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين » : ٢٢٠/٨ ، ٢٢١ .
(٨) فى المخطوطة : « بعنزة » والمثبت من المسند .
(٩) فى المسند : « أفلا أنذركم » .
(١٠) مسند الإمام أحمد : ٢٣١/٤ .
(١١) جمع الحافظ ابن حجر الأقوال فى اسم أبى كبشة ، ينظر الإصابة ، باب الكنى ، الترجمة ٩٥٨ : ١٦٤/٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت ــ يعني الناقة ــ ترد من هذا الفَجّ ، وتَصْدُر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلا واحداً كان في حَرَم الله . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رِغال (١) ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه (٢) .

وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة ، وهو على شرط مسلم .

فقوله تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) ، أي : ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ،(قال : ياقوم ، اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون)(٣) ، وقال: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت(٤) .

وقوله : (قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية) ، أي : قد جاءتكم حجة من الله على صدق ماجئتكم به . وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر ، يقال لها : الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَض(٥) ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفاء وَبْراء يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو : « جُندَع بن عمرو » ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم « ذُؤاب بن عمرو بن لبيد » « والحباب » صاحب أوثانهم ، ورباب بن صمعر بن جلهس (٦) ، وكان « لجندع بن عمرو » ابن عم يقال له : « شهاب بن خليفة بن مخلاة ابن لبيد بن جواس » ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط ، فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود ، يقال له : مهوس بن عنمة بن الدميل رحمه الله(٧) :

وكانت عُصْبَةٌ من آل عَمْرو ... إلى دين النبيّ دَعَوْا شهابا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهم جميعا ... فَهَمَّ بأن يُجيب فلو أجابا

---

(١) ينظر فيما تقدم : ٢/١٨٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٢٩٦ . وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره عن المثنى ، عن إسحاق ، عن عبد الرزاق ، بإسناده نحوه ، الأثر ١٤٨١٨ : ١٢/٥٣٨ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٤) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٥) « تمخض » : أي يأخذها الطلق .

(٦) في المخطوطة : « وزبان بن صمر بن جلمس » . والمثبت عن تفسير الطبري : ١٢/٥٢٩ .

(٧) في المخطوطة : « مهوش » بالشين ، و « الدميل » بالذال ، وأثبت ما في تفسير الطبري .

لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً وما عدَلوا بصاحبهم ذُوَابا

ولكنّ الغُوَاة من آل حُجْرٍ توَلّوا بعد رُشْدهم ذئابا(١)

فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة ، تشرب ماء بئرها يوما ، وتدعه لهم يوما ؛ وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر(٢) ، وقال تعالى : (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم)(٣) ؛ وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ترد من فجّ وتصدر من غيره ليسعها ، لأنها كانت تتضلّع(٤) من الماء ، وكانت — على ما ذكر — خلْقاً هائلا ومنظراً رائعا ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها . فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه السلام ، عزموا على قتلها ، ليستأثروا بالماء كل يوم ، فيقال : إنهم اتفقوا كلّهم على قتلها .

قال قتادة : بلغنى أن الذى قتل الناقة طاف عليهم كلّهم ، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء فى خدورهن ، وعلى الصبيان :

قلت : وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول : (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)(٥) ، وقال : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) ، وقال : (فعقروا الناقة) . فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وغيره من علماء التفسير فى سبب قتل الناقة : أن امرأة منهم يقال لها : « عنيزة ابنة غنم بن مجلز (٦) » ، وتكنى أم غنْم (٧) ، كانت عجوزا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل ، وكان زوجها ذُوَاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرى يقال لها : « صدوف ابنة المحيا بن دهر بن المحيا »(٨) ذات حسب [ومال] وجمال ، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ، ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت « صدوف » رجلا يقال له : « الحباب » وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة ، فأبى عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له : « مصدع بن مهرج بن المحيا » ، فأجابها إلى ذلك — ودعت « عنيزة بنت غنم » قدار بن سالف بن جُنْدَع(٩) ، وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه [كان] ولد

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب . وفى تفسير الطبرى : « ذبابا » .

(٢) سورة القمر ، آية : ٢٨ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٥٥ .

(٤) تتضلع : تمتلئ رياً .

(٥) سورة الشمس ، آية : ١٤ .

(٦) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب « ١ » تفسير : « مجلزم » وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٧) فى المخطوطتين السابقتين : « وتكنى أم عثمان » . هو خطأ ، وسوّد بعد قليل على الصواب ، وكنيتها فى تفسير الطبرى : « أم غنم » كذلك .

(٨) فى المخطوطتين أيضاً : « المحيا بن زهير بن المختار » ، وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٩) فى المخطوطتين : « سالف بن جذع » والمثبت من الطبرى .

زَنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه ، [وهو] سالف ، وإنما هو من رجل يقال له : « صهياد(١) » ، ولكن ولد على فراش « سالف » ، وقالت له : أعطيك أىّ بناتى شئتَ على أن تعقر الناقة ! فعند ذلك انطلق « قدار بن سالف » « ومصدع بن مهرج » ، فاستفزا(٢) غُوَاة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون(٣)) ، وكانوا رؤساء فى قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها ، فطاوعتهم على ذلك ، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها « قدار » فى أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها « مصدع » فى أصل أخرى ، فمرت على « مصدع » فرماها بسهم فانتظم به عضلَة ساقها وخرجت « أم غَنْم عنيزة » ، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها ، فسفرت عن وجهها لقدار وذمّرته(٤) فشدّ على الناقة بالسيف ، فكسَفَ(٥) عرقوبها ، فخرت ساقطة إلى الأرض ، ورغت رَغاةً واحدة تحذّر سَقْبَها(٦) ، ثم طعن فى لَبَّتها فنحرها ، وانطلق سقبها ــ وهو فصيلها ــ حتى أتى جبلا منيعا ، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا ــ فروى عبد الرزاق ، عن معمر عمن سمع الحسن البصرى أنه قال : يارب ، أين أمى(٧) ؟ ويقال : إنه رغا ثلاث مرات ، وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعقروه مع أمه ، فالله أعلم .

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، بلغ الخبر صالحا عليه السلام ، فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى وقال : (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام(٨)) ... الآية ، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقا عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته ! (قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) ... الآية .

فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبى الله صالح ، أرسل الله ــ سبحانه وتعالى ، وله العزة ولرسوله ــ عليهم حجارة فرضَختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم ، وأصبح ثمود يوم الخميس ، وهو اليوم

---

(١) فى المخطوطتين : « صيبان » ، والمثبت من الطبرى .

(٢) فى المخطوطتين : « فاستفزوا » . والمثبت من الطبرى .

(٣) سورة النمل ، آية : ٤٨ .

(٤) ذمرته : شجعته وحثته وحرضته .

(٥) فى المخطوطتين : « فكشف عن عرقوبها » . وكان فى مطبوعة الطبرى الأولى : « فكشف عرقوبها » . وقد أثبت السيد المحقق : « فخشف عرقوبها » ، وقال : « خشف رأسه بالحجر : شدخه ، وكل ما شدخ فقد خشف ، وقيل : سيف خاشف وخشيف وخشوف : ماض » . وقال المحقق : « و « فحسف » هكذا غير منقوطة فى المخطوطة » .

والصواب ما أثبتناه : « فكسف عرقوبها » ولا شك أن « الحاء » فى مخطوطة الطبرى محرفة من « الكاف » . ومعنى « الخشف » هنا بعيد ، وفى اللسان : « وكسف عرقوبه يكسفه كسفاً : قطع عصبته دون سائر الرجل ، ويقال : استدبر فرسه فكسف عرقوبيه » وفى الحديث أن صفوان كسف عرقوب راحلته ، أى : « قطعه » .

هذا وقد مر فى سورة المائدة ١٤/٣ : أن سحيم بن وثيل وغالبا أبا الفرزدق جعلا يكسفان عراقيب نوقهما ، وشرحنا هناك كلمة « عراقيب » .

(٦) السقب ــ بفتح فسكون ــ : ولد الناقة .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨١٤ : ٥٣٦/١٢ .

(٨) سورة هود ، آية : ٦٥ .

الأول من أيام النَّظرة ، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام . وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل ، وهو يوم الجمعة ، ووجوههم محمرة . وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ، ووجوههم مسودة ؛ فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذا بالله من ذلك ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس ، جاءتهم صيحة من السماء ورَجْفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس فى ساعة واحدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ، أى : صرعى لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، لا ذكر ولا أنثى – قالوا : إلا جارية كانت مقعدة – واسمها : « كلبة(١) ابنة السلْق » ، ويقال لها : « الزريقة (٢) » – وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب ، أطلقتْ رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ، ثم استسقتهم من الماء ، فلما شربت ماتت .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد ، سوى صالح عليه السلام ومن اتبعه رضى الله عنهم ، إلا أن رجلا كان يقال له : « أبو رغال » ، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما فى الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحلّ جاءه حجر من السماء فقتله .

وقد تقدم فى أول القصة حديث « جابر بن عبد الله » فى ذلك ، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد « ثقيف » الذين كانوا يسكنون الطائف .

قال عبد الرزاق : قال معمر : أخبرنى إسماعيل بن أمية : أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبر أبى رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر أبى رغال ، رجل من ثمود ، كان فى حرم الله ، فمنعه حرمُ الله عذابَ الله . فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن هاهنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن (٣) » .

وقال عبد الرزاق : قال معمر : قال الزهرى : أبو رغال ، أبو ثقيف (٤) .

هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روى متصلا من وجه آخر ، كما قال محمد بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أمية ، عن بُجَير بن أبى بجير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبر فقال : « هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم فدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان ، فدفن فيه . وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذَهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه ، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » .

---

(١) فى المخطوطة : « كلب » والمثبت من تفسير الطبرى .
(٢) فى مخطوطة الأزهر : « الذريقة » بالذال ، والمثبت من مخطوطة دار الكتب « ١ » تفسير ، وتفسير الطبرى .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨١٨ : ٥٣٨/١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨١٩ : ٥٣٨/١٢ .

وهكذا رواه أبو داود ، عن يحيى بن معين ، عن وهب بن جرير بن حازم ، عن أبيه ، عن ابن إسحاق ، به [١] ، قال شيخنا أبو الحجاج المزى : وهو حديث حسن عزيز [٢] .

قلت : تفرد بوصله « بجير بن أبى بجير » هذا ، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين : ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية [٣] .

قلت : وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أخذه من الزاملتين .

قال شيخنا أبو الحجاج ، بعد أن عرضت عليه ذلك : وهذا محتمل ، والله أعلم .

وقوله تعالى :

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه ، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه ، وتمردهم على الله ، وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى ـ قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر ، أقام هناك ثلاثا ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ، ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر، فجعل يقول : « يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا . فقال له عمر : يا رسول الله ، ماتُكلّم من أقوام قد جيّفوا ؟. فقال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون [٤] » .

وفى السيرة أنه عليه السلام قال [لهم] : « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم [٥] » .

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه : (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) ، أى : فلم تنتفعوا بذلك ، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا . ولهذا قال : (ولكن لا تحبون الناصحين) .

وقد ذكر بعض المفسرين أن كلّ نبى هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم فى الحرم ، حرم مكة ، فالله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى عُسْفان حين حجّ قال : يا أبا بكر ، أىّ واد هذا ؟ قال : هذا

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة ، باب نبش القبور العادية يكون فيها المال ، الحديث ٣٠٨٨ : ٣/١٨١،١٨٢.

(٢) العزيز : ما انفرد عن راويه اثنان أو ثلاثة ، ولو رواه بعد ذلك عن هذين الإثنين أو الثلاثة مائة . وسمى عزيزاً لقلته .

(٣) ميزان الاعتدال للذهبى : ١/٢٩٧ .

(٤) مضى تخريج هذا الحديث عند الآية : ٤٤ من هذه السورة .

(٥) سيرة ابن هشام : ١/٦٣٩ .

وادى عُسْفَان . قال : لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكَرَات [حُمْر] خُطُمها الليف ، أزُرُهم العبَاء ، وأرديتهم النّمار ، يلبوّن ، يحجّون البيت(١) العتيق » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى : (و) لقد أرسلنا (لوطا) ، أوتقديره: (و) اذكر (لوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين) .

ولوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل « سَدُوم » وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور . وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل « سَدُوم » عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار ، قوله : (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ، قال : مانزا ذكر على ذكر ، حتى كان قوم لوط(٢) .

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بانى جامع دمشق ، لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً .

ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) ، أى : عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، وهذا إسراف منكم وجهل ، لأنه وضع الشىء فى غير محله ، ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى : (هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين)(٣) ، فأرشدهم إلى نسائهم ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ، (قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد)(٤) ، أى : لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء ، ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك .

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم [كن] قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٣٢/١ . وما بين القوسين عنه . والبكرات : جمع بكرة – بفتح فسكون – مؤنث بكر ، وهو الفتى من الإبل . والخطم – بضمتين – جمع خطام ، وهو : الحبل الذى يقاد به البعير . والنمار : جمع نمرة ، وهى : شملة مخططة .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٣٥ : ٥٤٨/١٢ ، وفيه : «ما نزا ذكر ... » .

(٣) سورة الحجر ، آية : ٧١ .

(٤) سورة هود ، آية : ٧٩ .

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أى : ما أجابوا لوطاً إلا أن هَمّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالما ، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين .

وقوله تعالى : (إنهم أناس يتطهرون) ، قال قتادة : عابوهم بغير عيب(١) .

وقال مجاهد : (إنهم أناس يتطهرون) من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً (٢) .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى : فأنجينا لوطاً وأهله ، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣) ، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدَم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام أن يَسْرى بأهله أمر أن لا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول : بل اتبعتهم ، فلما جاء العذابَ التفتت هى فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم ، ولهذا قال ها هنا : (إلا امرأته كانت من الغابرين) ، أى : الباقين . ومنهم من فسر ذلك (من الغابرين) الهالكين ، وهو تفسير باللازم .

وقوله : (وأمطرنا عليهم مطراً) ، مفسر بقوله : (وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد)(٤) ، ولهذا قال : (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) ، أى : انظر — يامحمد — كيف كان عاقبة من تجهرم على معاصى الله وكذّب رسله .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن . وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله ، والحجة ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث الدراوردى ، عن عمرو بن أبى عَمْرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به »(٥) .

وقال آخرون : هو كالزانى ، فإن كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة . وهو القول الآخر للشافعى .

وأما إتيان النساء فى الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء ، إلا قولا شاذا لبعض السلف . وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى الأثر ١٤٨٤١ : ١٢/٥٥٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٣٦ ، ١٤٨٣٩ : ١٢/٥٥٠ .
(٣) سورة الذاريات ، آية : ٣٥ ، ٣٦ .
(٤) سورة هود ، آية : ٨٢ ، ٨٣ .
(٥) مضى هذا الحديث عند الآية « ١٦ » من سورة النساء : ٢/٢٠٥ ، وخرجناه هناك .
(٦) ينظر تفسير الآية ٢٢٣ من سورة البقرة : ١/٣٨٠ — ٣٨٩ .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة « مدين بن مديان بن إبراهيم » : وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر(١) — قال : واسمه بالسريانية « يثرون » .

قلت : وتطلق مدين على القبيلة ، وعلى المدينة — وهى التى بقرب « مَعَان » من طريق الحجاز ، قال الله تعالى : (ولما ورد ماء مَدْيَنَ وجد عليه أمة من الناس يسقون) (٢) ، وهم أصحاب الأيكة ، كما سنذكره إن شاء الله ، وبه الثقة :

(قال : ياقوم ، اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، هذه دعوة الرسل كلهم(٣)، (قد جاءتكم بينة من ربكم) ، أى : قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به . ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى : لايخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس ، وهو : نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً ، كما قال تعالى : (ويل للمطففين) إلى قوله : (لرب العالمين) (٤) ، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد ، نسأل الله العافية منه :

ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب ، الذى يقال له : « خطيب الأنبياء » ، لفصاحة عبارته ، وجزالة موعظته :

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى ، بقوله : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ، أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .

---

(١) فى المخطوطة : « يشجن » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى : ١٢/٥٤٤ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٢٣ .

(٣) ما من نبى أرسل إلى أمة إلا ودعاها أول ما دعاها إلى وحدانية الله عزوجل ، وأنت ترى هذا واضحاً فى دعوة نوح وهود وصالح وشعيب . ولعلك قد لاحظت أن لوطاً عليه السلام ، لم تجر قصته على غرار قصص الأنبياء من قبله ومن بعده فى هذه السورة ، فقد بدأت قصصهم جميعاً بدعوة أقوامهم إلى وحدانية الله ، وبدأت قصته هو بإنكاره على قومه هذه الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالم ، ومرجع هذا فى رأينا إلى سببين : أحدهما : شذوذ هذه الفاحشة وخطورتها على النوع الإنسانى . وثانيهما : أن إبراهيم كان معاصراً له ، وكانت صيحته بالوحدانية تجلجل فى أرضه وفى أرض لوط على السواء .

(٤) سورة المطففين ، الآيات : ١ — ٦ .

قال السدي وغيره : كانوا عشارين(١) . وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد : (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ، أي : تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه(٢) . والأول أظهر ؛ لأنه قال : (بكل صراط) ، وهي الطرق ، وهذا الثاني هو قوله : (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) ، أي : وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة . (واذكروا إذكنتم قليلا فكثركم) ، أي : كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ، (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ، أي : من الأمم الخالية والقرون الماضية ، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله .

وقوله : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) أي : اختلفتم عليّ ، (فاصبروا) ، أي : انتظروا (حتى يحكم الله بيننا) وبينكم ، أي : يفصل ، (وهو خير الحاكمين) ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

* قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هذا إخبار من الله عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية ، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معهم على الملة .

وقوله : (أو لو كنا كارهين) ، يقول : أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه ؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ؟ وهذا تعبير منه عن اتباعه — (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) ، وهذا ردّ إلى المشيئة ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علماً ، (على الله توكلنا) ، أي : في أمورنا ما نأتي منها وما نذر (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) ، أي : افصل بيننا وبين قومنا ، وانصرنا عليهم ، (وأنت خير الفاتحين) ، أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : (لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون) ، فلهذا عقب ذلك بقوله : (فأخذتهم الرجفة

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٨٥٢ : ١٢/٥٥٧ .
(٢) تفسير الطبري ، الآثار ١٤٨٤٦ — ١٤٨٥٠ : ١٢/٥٥٦ ، ٥٥٧ .

فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ، أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم فى سورة « هود » فقال : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين)(١) : والمناسبة فى ذلك — والله أعلم — أنهم لما تهكموا بنبى الله شعيب فى قولهم : (أصلاتك تأمرك)(٢) أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) : فجاءت الصيحة أسكتتهم .

وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم)(٣) ، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة : (فأسقط علينا كسفا من السماء)(٤) ... الآية ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله : أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد ، (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) .

ثم قال تعالى (كأن لم يغنوا فيها) ، أى : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال مقابلا لقيلهم : (الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) .

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أى : فتولى عنهم « شعيب » عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعاً لهم وموبخاً : (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) ، أى : قد أديتُ إليكم ما أرسلتُ به ، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به ، ولهذا قال : (فكيف آسى على قوم كافرين ؟) .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء ، بالبأساء والضراء ، يعنى (بالبأساء) ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام . (والضراء) ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ، (لعلهم يضرعون) ، أى : يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم .

---

(١) سورة هود ، آية : ٩٤ .
(٢) سورة هود ، آية : ٨٧ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٨٩ .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ١٨٧ .

وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئاً من الذى أراد الله منهم ، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ، ولهذا قال : (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) ، أى : حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، فما فعلوا :

وقوله : (حتى عفَوا) ، أى : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشىء إذا كثر ، (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) . يقول تعالى : ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، بل قالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين . وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت فى الصحيحين : « عجباً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صَبَرَ فكان خيرا له »(١) فالمؤمن [من] يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء ، ولهذا جاء فى الحديث : « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لايدرى فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه » ، أو كما قال .

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله : (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) ، أى : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أى : على بغتة منهم ، وعدم شعور منهم ، أى : أخذناهم فجأة كما جاء فى الحديث : « موت الفجأة رحمة للمومن وأخذة أسف للكافر »(٢) .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)(٣) ، أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا العذاب ، كما قال تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف او يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين (٤) ، وقال تعالى : (وما أرسلنا فى قرية من نذير) (٥) ... الآية .

---

(١) مسلم ، كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير : ٢٢٧/٨ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب موت الفجأة ، الحديث ٣١١٠ : ١٨٨/٣ ، ومسند الإمام أحمد كلاهما عن عبيد بن خالد السلمى : ٤٢٤/٣ ، ٢١٩/٤ ، ولفظه فيهما : «موت الفجأة أخذة أسف» .

(٣) سورة يونس ، آية : ٩٨ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٣٤ .

وقوله تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) ، أى : آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل وصدقت به واتبعته ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ، (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ، أى : قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى : (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) ، أى : ولكن كذبوا رسلهم ، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم .

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره ، والتجرؤ على زواجره : (أفأمن أهل القرى) ، أى : الكافرة (أن يأتيهم بأسنا) ، أى عذابنا ونكالنا ، (بياتاً) ، أى : ليلا (وهم نائمون . أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون) ، أى : فى حال شغلهم وغفلتهم ، (أفأمنوا مكر الله) ، أى : بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ، (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ، ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) : أولم نُبَيِّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم[1] .

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها : يقول تعالى : أولم نبيّن للذين يستخلفون فى الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها ، فساروا سيرتهم ، وعملوا أعمالهم ، وعتوا على ربهم : (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) ، يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ، (ونطبع على قلوبهم) ، يقول : ونختم على قلوبهم — (فهم لايسمعون) ، موعظة ولا تذكيراً[2] .

قلت : وهكذا قال تعالى : (أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى)[3] ، وقال تعالى : (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون)[4] ، وقال : (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم)[5] ... الآية، وقال تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تُحِسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)[6] ، أى : هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً . وقال تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٨٩٧ ، ١٤٨٩٨ : ١٢/٥٨٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٢/٥٧٩ ، ٥٨٠ .
(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٨ .
(٤) سورة السجدة ، الآية : ٢٩ .
(٥) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٤ ، ٤٥ .
(٦) سورة مريم ، الآية : ٩٨ .

نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) (١) ، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد : (فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنُهم كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكنّاهم فيما إنْ مكنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) (٢) ، وقال تعالى : (وكذب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشارَ ما آتيناهم فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير) (٣) ، وقال تعالى : (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) (٤) ، وقال تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مَشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٥) ، وقال تعالى : (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، وحصول نعمه لأوليائه ، ولهذا عقب ذلك بقوله ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين :

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبَر قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم [الحق] بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : (تلك القرى نقص عليك) ، أى : يا محمد (من أنبائها) ، أى : من أخبارها ، (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) ، أى : بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولا) (٧) ، وقال تعالى : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم (٨)

وقوله تعالى : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ، الباء سببية ، أى : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن ، كقوله : (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)(٩) ... الآية، ولهذا قال هنا :

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٦ .
(٢) سورة الأحقاف ، الآيات : ٢٥ — ٢٧ .
(٣) سورة سبأ ، الآية : ٤٥ .
(٤) سورة الملك ، الآية : ١٨ .
(٥) سورة الحج ، الآية : ٤٥ ، ٤٦ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : ١٠ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية : ١٥ .
(٨) سورة هود ، الآية : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٩) سورة الأنعام ، الآية : ١١٠ ، ١١١ .

(كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين : وما وجدنا لأكثرهم) ، أى : لأكثر الأمم الماضية (من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ، أى : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال . والعهد الذى أخذه هو [ما] جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، فأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك ، كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ،وحرَّمَتْ عليهم ماأحللتُ لهم » ، وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »(1) ... الحديث ، وقال تعالى فى كتابه العزيز : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)(2) ، وقال تعالى : (واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)(3) . وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(4) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل)، ما روى أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب فى قوله: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال : « كان فى علمه تعالى يوم أقرّوا له بالميثاق(5) ، أى : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك ، وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير(6) .

وقال السدى : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ، قال : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها(7) .

وقال مجاهد فى قوله : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) : هذا كقوله : (ولو رُدُّوا لعادوا) ... الآية (8) .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى : (ثم بعثنا من بعدهم) ، أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين — (موسى بآياتنا) ، أى : بحُججنا ودلائلنا البينة إلى « فرعون » وهو ملك مصر فى زمان موسى ، (وملئه) ، أى : قومه ، (فظلموا بها) ، أى : جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا ، كقوله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)(9) ، أى : الذين صدوا

---

(1) مضى هذان الحديثان عند تفسير الآية ١١٩ من سورة النساء . ينظر : ٣٦٨/٢ . وقد خرجناهما هنا لك .
(2) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٥ .
(3) سورة الزخرف ، الآية : ٤٥ .
(4) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .
(5) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٠٢ : ٨/١٣ ، وأثر الربيع بن أنس بعده .
(6) تفسير الطبرى ، ٩/١٣ .
(7) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٠١ : ٨/١٣ .
(8) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٠٤ : ٩/١٣ .
(9) سورة النمل ، الآية : ١٤ .

عن سبيل الله وكذبوا رسله ، أى : انظر – يا محمد – كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه . وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه إياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر ، فقال تعالى : (وقال موسى : يافرعون ، إنى رسول من رب العالمين) ، أى : أرسلنى الذى هو خالقُ كل شىء وربه ومليكه .

(حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) ، فقال بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أى : جدير بذلك وحَرِىٌّ به .

قالوا : « والباء » و « على » يتعاقبان ، فيقال : « رميت بالقوس » و « على القوس » و « جاء على حال حسنة » و « بحال حسنة » .

وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق .

وقرأ آخرون من أهل المدينة (حقيق علَىَّ) بمعنى واجب وحق علىَّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق ، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه .

(قد جئتكم ببينة من ربكم) ، أى : بحجة قاطعة من الله ، أعطانيها دليلا على صدقى فيما جئتكم به ، (فأرسلْ معى بنى إسرائيل) ، أى : أطلقهم من أسْرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربك وربهم ؛ فإنهم من سلالة نبى كريم إسرائيل ، وهو : يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن .

(قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) ، أى : قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمطيعك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها ، إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (ثعبان مبين) ، الحية الذكر(١) . وكذا قال السدى ، والضحاك .

وفى حديث « الفُتُون » ، من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد ، عن القاسم بن أبى أيوب ، عن سعيد

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩١٤ : ١٣/ ١٦ .

ابن جبير ، عن ابن عباس قال : (فألقى عصاه) فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها ، مسرعة إلى فرعون ، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه ، اقتحم (١) عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفها ففعل (٢) .

وقال قتادة : تحولت حية عظيمة مثل المدينة (٣) .

وقال السدى فى قوله :(فإذا هى ثعبان مبين)، والثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها ، واضعة لَحْيَها (٤)، الأسفل فى الأرض ، والآخر على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه . فلما رآها ذُعر منها ، ووثب وأحدث ، ولم يكن يُحْدث قبل ذلك ، وصاح : يا موسى ، خذها وأنا أومن بك ، وأرسل معك بنى إسرائيل . فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا (٥) .

وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا .

وقال وهب بن منبه : لما دخل موسى على فرعون ، قال له فرعون : أعرفك ؟ قال : نعم ! قال : (ألم نُرَبِّكَ فينا وليدا) (٦) ؟ قال : فرد إليه موسى الذى ردّ ، فقال فرعون : خذوه ! فبادره موسى (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) ، فحملت على الناس فانهزموا منها ، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ، قتل بعضهم بعضا ، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت .

رواه (٧) ابن جرير ، والإمام أحمد فى كتابه « الزهد » ، وابن أبى حاتم : وفيه غرابة فى سياقه ، والله أعلم .

وقوله : (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) ، أى : نزع يده : أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برَص ولا مرض ، كما قال تعالى : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) (٨) ... الآية .

وقال ابن عباس فى حديث الفتون (من غير سوء) ، يعنى من غير برص ، ثم أعادها إلى كمه ، فعادت إلى لونها الأول (٩) . وكذا قال مجاهد وغير واحد .

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أى : قال الملأ — وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون — موافقين لقول فرعون فيه ، بعد ما رجع إليه روعه ، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله : (إن هذا لساحر عليم) ، فوافقوه وقالوا كمقالته ، وتشاوروا

---

(١) اقتحم عن سريره : رمى بنفسه وسقط عن سريره .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩١٣ : ١٣/١٦ .
(٣) الأثر فى تفسير الطبرى ١٤٩٠٩ : ١٣/١٥ ، ولفظه : « قال : تحولت حية عظيمة . وقال غيره : مثل المدينة » .
(٤) اللحى — بفتح وسكون — ، ومثناه لحيان : وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩١١ : ١٣/١٥ ، ١٦ ، وأثر عكرمة عن ابن عباس بعده .
(٦) سورة الشعراء ، آية : ١٨ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩١٥ : ١٣/١٦، ١٧ .
(٨) سورة النمل ، الآية : ١٢ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩١٨ : ١٣/١٧ .

فى أمره ، وماذا يصنعون فى أمره ، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته ، وظهور كذبهم وافترائهم ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم ، وإخراجه إياهم من أرضهم . والذى خافوا منه وقعوا فيه ، كما قال تعالى : (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون[1]) : فلما تشاوروا فى شأنه ، وائتمروا فيه ، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى :

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قال ابن عباس : (أرجه) : أخّره . وقال قتادة : احبسه (٢) : (وأرسل) ، أى : ابعث (فى المدائن) ، أى : فى الأقاليم ومعاملة ملكك ، (حاشرين) ، أى : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم .

وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا ، واعتقد من اعتقد منهم ، وأوهم من أوهم منهم ، أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم : فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال : (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى : قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى . فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى[3]) : وقال تعالى هاهنا :

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام : إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا : فوعدهم ومناهم أنه يعطيهم ما أرادوا ، وليجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم : (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) ، أى : قبْلك . كما قال فى الآية الأخرى : (وإما أن نكون أول من ألقى[4]) . فقال لهم موسى عليه السلام : (ألقوا) ، أى : أنتم أولا قبلى : والحكمة فى هذا ـ والله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فُرغ من بهرجهم ومُحَالهم ،

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٦ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثران ١٤٩٢٤ ، ١٤٩٢٥ : ١٣/٢٢ .
(٣) سورة طه ، الآيات : ٥٧ – ٦٠ .
(٤) سورة طه ، آية : ٦٥ .

جاءهم الحق الواضح الجلى بعد تطلب له وانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس . وكذا كان ، ولهذا قال تعالى : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) ، أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه لهحقيقة فى الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، كما قال تعالى : (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إن ماصنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (١)) .

قال سفيان بن عيينة : حدثنا أبو سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا . قال : فأقبلت يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : صَفّ خمسة عشر ألف ساحر ، مع كل ساحر حباله وعصيه . وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكىء على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون فى مجلسه معه أشراف أهل مملكته ، ثم قال السحرة : (يا موسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم) ، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ، ثم أبصار الناس بعد . ثم ألقى كل رجل [منهم] مافى يده من الحبال والعصى ، فإذا حيات كأمثال الجبال ، قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا (٣) .

وقال السدى : كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ، ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا ، (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) ، يقول : فرّقوهم أى من الفَرَق (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن هشام الدَّستوائى ، حدثنا القاسم بن أبى بزة قال : جمع فرعون سبعين ألف ساحر ، فألقوا سبعين ألف حبل ، وسبعين ألف عصا ، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (٥) .

ولهذا قال تعالى : (وجاءوا بسحر عظيم) .

---

(١) سورة طه ، الآيات : ٦٦ — ٦٩ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٣٩ : ١٣/٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٤٠ : ١٣/٢٨ .

(٤) الفرق : الفزع .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٤١ : ١٣/٢٨ .

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢)

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم ، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقى مافى يمينه وهى عصاه ، (فإذا هى تلقف) ، أى : تأكل (ما يأفكون) ، أى : ما يلقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

قال ابن عباس : فجعلت لاتمرّ بشىء من حبالهم ولا من خُشُبهم إلا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا أمرٌ من السماء ، وليس هذا بسحر ، فخروا سجدا وقالوا : (آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) (١) .

وقال محمد بن إسحاق : جعلت تبتلع(٢) تلك الحبال والعصى واحدة واحدة ، حتى مايُرَى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا : ثم أخذها موسى ، فإذا هى عصا فى يده كما كانت ، ووقع السحرة سجدا (قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) ، لو كان هذا ساحرا ماغُلبنا (٣) .

وقال القاسم بن أبى بَزَّة : أوحى الله إليه أن ألق عصاك ، [فألقى عصاه] فإذا هى ثعبان فاغر فاه ، يبتلع حبالهم وعصيهم . فألقى السحرة عند ذلك سجدا ، فما رفعوا رءوسهم حتى رأو الجنة والنار وثواب أهلهما (٤) .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

يخبر تعالى عما توعد به فرعونُ ، لعنه الله ، السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره فى قوله : (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) ، أى : إن غَلَبَه لكم فى يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك ، كقوله فى الآية الأخرى : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر (٥) ، وهو يعلم وكلّ من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل ؛ فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من « مَدْيَن » دعا فرعون

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٤٣ : ١٣/٢٩ .
(٢) فى المخطوطة : « تتبع تلك الحبال » . والمثبت من الطبرى ، فنص الأثر : « فجعلت تلقفها ، تبتلعها ، حية ، حية » .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٤٥ : ١٣/٣٠ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٤٦ : ١٣/٣٠ .
(٥) سورة طه ، الآية : ٢٢٨ .

إلى الله ، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ، ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل . وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك ، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رَعاع دولته وجَهَلتهم ، كما قال تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) (١) ، فإن قوما صدّقوه فى قوله :(أنا ربكم الأعلى) (٢) من أجْهَل خلق الله وأضلهم .

وقال السدى فى تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة ، فى قوله تعالى : (إن هذا المكر مكرتموه فى المدينة) ، قالوا : التقى موسى عليه السلام وأميرُ السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى ، وتشهد أن ماجئت به حق ؟ قال الساحر : لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتنى لأومنن بك ولأشهدن أنك حق . وفرعون ينظر إليهما ، قالوا : فلهذا قال ماقال (٣) .

وقوله : (لتخرجوا منها أهلها) ،أى : تجتمعوا أنتم وهو ، وتكون لكم دولة وصولة ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء ، وتكون الدولة والتصرف لكم ، (فسوف تعلمون) ، أى : ما أصنع بكم .

ثم فسر هذا الوعيد بقوله : (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) ، يعنى : يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس ، و (لأصلبنكم أجمعين) . وقال فى الآية الأخرى : (فى جذوع النخل) ، أى : على الجذوع .

قال ابن عباس : وكان أولَ من صلب ، وأولَ من قطع الأيدى والأرجل من خلاف ، فرعون(٤) .

وقول السحرة : (إنا إلى ربنا منقلبون) ، أى : قد تحققنا أنا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله ما تدعونا إليه ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ، ولهذا قالوا : (ربنا أفرغ علينا صبرا) ، أى : عمنا بالصبر على دينك ، والثبات عليه ، (وتوفنا مسلمين) ، أى : متابعين لنبيك موسى عليه السلام . وقالوا لفرعون : (فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) (٥) ، فكانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخر شهداء بررة .

قال ابن عباس ، وعُبَيد بن عمير ، وقتادة ، وابن جريج : كانوا فى أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء (٦) .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥٤ .
(٢) سورة النازعات ، الآية : ٢٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٥٥ : ١٣/٣٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٥٦ : ١٣/٣٤ .
(٥) سورة طه ، الآيات : ٧٢ — ٧٥ .
(٦) هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٣/٣٦ .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أظهروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة : (وقال الملأ من قوم فرعون) ، أى : لفرعون (أتذر موسى وقومه) ، أى : أتدعهم ليفسدوا فى الأرض ، أى: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، يالله للعجب ! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون . ولهذا قالوا : (ويذرك وآلهتك) ، قال بعضهم : «الواو » هنا حالية ، أى : أتذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب : (وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك) ،حكاه ابن جرير (١) .

وقال آخرون : هى عاطفة ، أى : لاتدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلهتك (٢) .

وقرأ بعضهم : (إلاهتك) ، أى : عبادتك ، ورُوى ذلك عن ابن عباس ومجاهد (٣) .

وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده . قال الحسن البصرى : كان لفرعون إله يعبده فى السر (٤) .
وقال فى رواية أخرى : (كان له) جُمَانة (٥) فى عنقه معلقة يسجد لها :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٦١ : ١٣/ ٣٧ .
هذا وقد وجه الطبرى نصب الفعل مع أن الجملة حالية بأن ذلك من قبيل « الصرف » ، وهو مصطلح كوفى ، بينه الفراء فى كتابه معانى القرآن ١/ ٣٣ ، ٣٤ بقوله : « فان قلت : وما الصرف ؟ قلت : أن تأتى بالواو معطوف على كلام فى أول حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها ، فان كان ذلك فهو الصرف ، كقول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة « لا » فى « تأتى مثله » ، فلذلك سمى صرفا ، إذا كان معطوفاً ، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذى قبله » .

(٢) توجيه العطف فى عبارة ابن جرير أوضح ، قال : « والثانى : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، وليذرك وآلهتك ــ كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين ، وإذا وجه الكلام ، كان نصب « ويذرك » على العطف على « ليفسدوا » .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣/ ٣٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٦٤ : ١٣/ ٣٩ .

(٥) فى المخطوطة : « حنانة » . والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٦٣ : ١٣/ ٣٩ .

وقال السدى فى قوله تعالى : (ويذرك وآلهتك) : وآلهته ، فيما زعم ابن عباس ، [كانت البقر] (١) كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها ، فلذلك أخرج لهم عجلا جسدا (٢) .

فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله : (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى عليه السلام ، حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضدّ ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضا ، إنما أراد قهر بنى إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : نصرهم الله عليه وأذله ، وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده .

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل (قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا) ، ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم فى قوله : (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) ، أى : قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك . فقال منبها لهم على حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه فى ثانى الحال : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) .. الآية ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر ، عند حلول النعم وزوال النقم .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون) ، أى : اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم (بالسنين) ، وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ، (ونقص من الثمرات) ، قال مجاهد : وهو دون ذلك (٣) .

وقال أبو إسحاق ، عن رجاء بن حَيْوة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة .

(لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة) ، أى : من الخصب والرزق (قالوا : لنا هذه) ، أى : هذا لنا بما نستحقه ، (وإن تصبهم سيئة) ، أى : جدْب وقحْط (يطيروا بموسى ومن معه) ، أى : هذا بسببهم وما جاءوا به .

(ألا إنما طائرهم عند الله) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ألا إنما طائرهم عند الله) يقول : مصائبهم عند الله ، قال [الله] : (ولكن أكثرهم لا يعلمون (٤) .

وقال ابن جريج ، عن ابن عباس قال : (ألا إنما طائرهم عند الله) ، قال : إلا من قِبَل الله .

---

(١) سقط من المخطوطة ، والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٦٢ : ٣٨/١٣ ، ٣٩
(٢) نص الطبرى : « ... أخرج لهم عجلا ، بقرة » .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٧٧ : ٤٦/١٣ ، وأثر « رجاء بن حيوة » بعده .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٨٦ : ٤٨/١٣ .

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تَمَرّد قوم فرعون وعتوهم ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم : (مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) ، يقولون : أىُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان) .

اختلفوا(١) فى معناه ، فعن ابن عباس فى رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار . وبه قال الضحاك ابن مزاحم .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى : هو كثرة الموت . وكذا قال عطاء .

وقال مجاهد : (الطوفان) : الماء ، والطاعون على كل حال .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو هشام(٢) الرفاعى ، حدثنا يحيى بن يمان ، حدثنا المنهال بن خليفة ، عن الحجاج ، عن الحكم بن ميناء ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطوفان الموت(٣) » .

وكذا رواه ابن مردويه ، من حديث يحيى بن يمان ، به . وهو حديث غريب .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) .

وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يَعفُور قال : سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد ، فقال : « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد (٤) » .

وروى الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الحوت والجراد ، والكبد والطحال (٥) » .

---

(١) ينظر الآثار فى ذلك فى تفسير الطبرى : ١٣/٥٠ ، ٥٢ .

(٢) فى المخطوطة : « ابن هشام » . والمثبت من تفسير الطبرى ، والتهذيب ، ترجمة يحيى بن يمان : ١١/٣٠٦ ، وترجمة أبى هشام محمد بن يزيد : ٩/٥٢٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٤٩٩٦ : ١٣/٥٠ ، ٥١ .

(٤) البخارى ، كتاب الذبائح والصيد ، باب أكل الجراد : ٧/١١٧ . ومسلم كتاب الصيد ، باب إباحة الجراد : ٦/٧٠ ، ٧١ .

(٥) معنى هذا الحديث عند الآية رقم ٣ ، ٩٦ من سورة المائدة ، وخرجناه هنالك ، ينظر : ٣/١٢ ، ١٩٣ .

ورواه أبو القاسم البغوى ، عن داود بن رشيد ، عن سويد بن عبد العزيز ، عن أبى تمام الأيلى ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله .

وروى أبو داود ، عن محمد بن الفرج ، عن محمد بن الزبرقان الأهوازى ، عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان ، عن سلمان قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجراد فقال : أكثر جنود الله ، لا آكله ، ولا أحرمه (١) » .

وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه ، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب ، وأذن فيه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد ، من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى ، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد ، حدثنا يحيى بن خالد ، عن ابن جريج ، عن عطاء، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل الجراد ، ولا الكلوتين ، ولا الضب ، من غير أن يحرمها . أما الجراد فرجزٌ وعذاب ، وأما الكلوتان فلقربهما من البول ، وأما الضب فقال : « أتخوف أن يكون مسخا » ، ثم قال : غريب ، لم أكتبه إلا من هذا الوجه .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشتهيه ويحبه ، فروى عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر : أن عمر سُئل عن الجراد [فقال] : ليت أن عندنا منه قَفْعَة أو قَفْعَتين نأكله(٢) .

وروى ابن ماجه : حدثنا أحمد بن مَنيع ، عن سفيان بن عيينة ، عن أبى سعد سعيد بن المرزبان البقال ، سمع أنس بن مالك يقول : كان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يتهادَين الجراد على الأطباق (٣) .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن نُمَير بن يزيد القَيْنى ، حدثنى أبى ، عن صُدَى بن عَجْلان ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها أن يطعمها لحما لادم له ، فأطعمها الجراد ، فقالت : اللهم أعشه بغير رضاع ، وتابع بَيْنَه بغير شياع (٤) » وقال نُمَير : « الشِّيَاع » ، الصوت .

وقال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا أبو تقى هشام بن عبد الملك اليَزَنى ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا إسماعيل ابن عياش ، عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى زهير النميرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاتلوا الجراد ، فإنه جند الله الأعظم » . غريب جداً .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الجراد ، الحديث ٣٩١٣ : ٣٥٧/٣ .

(٢) أخرجه الإمام فى الموطأ ، كتاب صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، باب جامع ما جاء فى الطعام والشراب ، الحديث ٣٠ : ٩٣٣/٢ .

والقفعة - بفتح القاف وسكون الفاء - : شىء كالقفة واسعة الأسفل ضيقة الأعلى .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الصيد ، باب صيد الحيتان والجراد ، الحديث ٣٢٢٠ : ١٠٧٣/٢ .

(٤) فى مجمع الزوائد ٣٩/٤ : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه بقية وهو ثقة ، ولكنه مدلس ، ويزيد القينى لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

وفى النهاية : الشياع - بالكسر - : الدعاء بالإبل لتساق وتجتمع . والمعنى : تابع بينه من غير أن يصاح به .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، فى قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد) ، قال : كانت تأكل مسامير أبوابهم ، وتدع الخشب .

وروى ابن عساكر من حديث على بن زيد الخرائطى ، عن محمد بن كثير ، سمعت الأوزاعى يقول : خرجت إلى الصحراء ، فاذا أنا برِجْل (١) من جراد فى السماء ، وإذا برَجُل راكب على جرَادة منها ، وهو شاك فى الحديد ، وكلما قال (٢) بيده هكذا مال الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل باطل ، ما فيها الدنيا باطل باطل ، ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها .

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريرى ، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد ، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم ، أخبرنا وكيع ، عن الأعمش ، أنبأنا عامر قال : سئل شريح القاضى عن الجراد ، فقال : قبح الله الجرادة . فيها خلقة سبعة جبابرة : رأسها رأس فرس ، وعنقها عنق ثور ، وصدرها صدر أسد ، وجناحها جناح نسر ، ورجلاها رجلا جمل . وذنبها ذنب حية . وبطنها بطن عقرب .

وقدمنا عند قوله تعالى : (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) حديث حماد بن سلمة [عن أبى المُهَزِّم ، عن أبى هريرة] قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حج أو عمرة ، فاستقبلنا رِجْلُ جراد ، فجعلنا نضربه ، بالعصى ، ونحن محرمون ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا بأس بصيد البحر (٣) » .

وروى ابن ماجه ، عن هارون الحَمَّال(٤) ، عن هاشم(٥) بن القاسم ، عن زياد بن عبد الله بن عُلاثة(٦) ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أنس وجابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا دعا على الجراد قال : « اللهم أهلك كباره ، واقتل صغاره ، وأفسد بيضه ، واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء . فقال له جابر(٧) : يا رسول الله ، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال : إنما هو نثرة حوت فى البحر . قال هاشم : أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت (٨) . قال : من حقق ذلك أن السمك إذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس ، أنه يفقس كله جرادا طيارا .

---

(١) الرجل ــ بكسر الراء ــ : الجراد الكثير .

(٢) قال بيده : أشار .

(٣) مضى الحديث وتخريجه فى : ١٩١/٣ .

(٤) فى المخطوطة : « الحانى » . وهو خطأ ، والمثبت من سنن ابن ماجه ، وينظر التهذيب : ٨/١١ .

(٥) فى المخطوطة : « هشام » . وهو خطأ ، والمثبت من سنن ابن ماجه ، وينظر التهذيب : ١٨/١١ ، ١٩ .

(٦) وقع فى مخطوطة الأزهر بعد « عبد الله بن علاثة » : « عن أبى المهزم ، عن أبى هريرة » وهى زيادة لا موضع لها هنا ، وقد سقطت من الحديث المتقدم على هذا .

(٧) فى سنن ابن ماجه : « فقال له رجل » .

(٨) إلى هنا ينتهى نص الحديث كما فى سنن ابن ماجه ، كتاب الصيد ، باب صيد الحيتان ، الحديث ٣٢٢١ : ١٠٧٣/٢ ، ١٠٧٤ . ولفظ سنن ابن ماجه : « من رأى الحوت ينثره » .

وقدمنا عند قوله : (إلا أمم أمثالكم) حديث عُمَر رضى الله عنه : « إن الله خلق ألف أمة ، ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر ، وإن أولها هلاكا الجراد » (١) :

وقال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا يزيد بن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن بن قيس ، حدثنا سالم بن سالم ، حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك ، عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا وَبَاء مع السيف ، ولا نجاء مع الجراد » : حديث غريب (٢) :

وأما (القُمَّل) فعن ابن عباس : هو السوس الذى يخرج من الحنطة : وعنه أنه الدبى — وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له : وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة (٣) :

وعن الحسن وسعيد بن جبير : (القمل) ، دواب سود صغار :

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (القمل) ، البراغيث :

وقال ابن جرير : (القُمَّل) : جمع واحدتها « قُمَّلة » ، وهى دابة تشبه القَمْل ، تأكلها الإبل فيما بلغنى ، وهى التى عناها الأعشى بقوله :

قَوْمٌ تُعَالِج قُمَّلاً [أبناؤهم] وَسَلَاسِلاً أُجُداً وبابا مُؤْصَدا (٤)

قال : وكان بعض (٥) أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القُمَّل عند العرب « الحَمْنان » ، واحدتها « حَمْنانة » ، وهى صغار القِرْدان فوق القَمْقَامة (٦) :

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد الرازى ، حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معى بنى إسرائيل ! فأرسل الله عليهم

---

(١) ينظر : ٣/٢٤٩ ، عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

(٢) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب « ١ » تفسير : « لا دبا مع السيف ، ولا نجاء مع الجراد » . والحديث ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ٦/٤٣٩ ، وذكر أنه ضعيف ، وأقر ضعفه المناوى فى فيض القدير .

(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٥٤ ، ٥٥ .

(٤) ديوانه : ١٥٤ ، واللسان ، مادة : قمل .

« والأجد » — بضمتين — : القوى الموثق ؛ يقال : « ناقة أجد » : قوية وثيقة التركيب . و « المؤصد » : من أوصد الباب ، إذا أغلقه .

يقول الأعشى مخاطبا كسرى : لسنا كإياد التى أعطتك الرهائن ، فهم قوم حراثون قد قملوا ، فقام أبناؤهم يعالجون القمل ، ويجرون السلاسل ليشدوها على الأجران ، ويجهدون فى تغليق أبوابها ؛ أما نحن فقد جعل الله إبلنا رزقنا ، ونزعنا عن أعناقنا ربقة عبودية الأمصار والقرى ، إلى حرية البادية ، نغدو ونروح ، ليس لك علينا سلطان . وهذا من شعر أحرار العرب . ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٥٦ .

(٥) هو أبو عبيدة ، ينظر مجاز القرآن : ١/٢٢٦ ، ولسان العرب ، مادة : قمل

(٦) القمقام والحمنان فى كتب اللغة واحد ، وهى صغار القردان . ويعنى بقوله : « فوق القمقامة » أنه أكبر منها . وينظر تفسير الطبرى : ١٣/٥٦ .

الطوفان ــ وهو المطر ــ قصب عليهم منه شيئا ، خافوا أن يكون عذابا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر ، فنؤمنَ لك ، ونرسلَ معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل . فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ . فقالوا : هذا ما كنا نتمنى . فأرسل الله عليهم الجراد ، فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يُبقِى الزرع ، فقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا(١) فى البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا . فأرسل الله عليهم القُمَّل ــ وهو السوس الذى يخرج منه ــ فكان الرجل يخرج عشرة أجْربة إلى الرَّحى ، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا القمَّل ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فبينا هو جالس عند فرعون ، إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ماتلقى أنت وقومك من هذا . قال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنه فى الضفادع ، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع فى فيه . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمنَ لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل [فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا] (٢) وأرسل الله عليهم الدم ، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان فى أوعيتهم ، وجدوه دما عَبيطا (٣) ، فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم ! ! . فقالوا : من أين سحرنا ، ونحن لا نجد [فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عَبيطا ؟ فأتوه وقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ، ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل (٤) .

وقد روى نحو هذا عن ابن عباس ، والسدى ، وقتادة وغير واحد من علماء السلف(٥) .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : فرجع عَدُوّ الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر ، والتمادى فى الشر ، فتابع الله عليه الآيات ، وأخذه بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات . فأرْسَل الطوفان ــ وهو الماء ــ ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا ، حتى جُهِدوا جوعا ، فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) ، فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشىء [مما قالوا] ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر ، فيما بلغنى ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ماقالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشىء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القُمَّل ، فذُكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى

---

(١) داسوا الحب : درسوه ، وأحرزوه : حفظوه .

(٢) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، ونصها موافق لنص مخطوطة الطبرى . وقد قدر السيد محقق تفسير الطبرى ما به يستقيم السياق .

(٣) الدم العبيط : الطرى .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠١٤ : ١٣/٥٧ ، ٥٨ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٥٨ ــ ٦٢ .

كثيب أهْيَل(١) عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار؛ فلما جَهَدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع ، قد غلبت عليه ؛ فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا . فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد دما عبيطا (٢) ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور المروزى ، أنبأنا النضر ، أنبأنا إسرائيل ، أنبأنا جابر بن يزيد ، عن عكرمة ، قال عبد الله بن عمْرو : لا تقتلوا الضفادع ، فانها لما أرسلت على [قوم فرعون(٣)] انطلق ضفدع منها، فوقع فى تنور فيه نار ، يطلب بذلك مرضاة الله ، فأبدلهن الله [من هذا] أبرد شيء يعلمه من الماء ، وجعل نقيقهن التسبيح . وروى من طريق عكرمة ، عن ابن عباس ، نحوه (٤) ؛

وقال زيد بن أسلم : يعنى بالدم : الرعاف . رواه ابن أبي حاتم(٥) ؛

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتَوا وتمرّدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة ، انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم ، وهو البحر الذى فرَقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورَدَه فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها .

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون — وهم بنو إسرائيل — (مشارق الأرض ومغاربها) كما قال تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكنَ لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)(٦) ، وقال تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين (٧) .

---

(١) كثيب أهيل : منهال ، لا يثبت رمله حتى يسقط .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٢٣ : ٦٣/١٣ ، ٦٤ .

(٣) فى المخطوطة : « على بنى إسرائيل » . وأثبتنا ما فى الطبعات السابقة .

(٤) رواه ابن جرير الطبرى ، الأثر ١٥٠٢٢ : ٦٣/١٣ ، ونسوق نصه ليتضح المقصود برواية ابن أبي حاتم : «كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون ، سمعت وأطاعت ، فجعلت تغرق أنفسها فى القدور وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور ، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء » .

(٥) وكذا رواه الطبرى ، الأثر ١٥٠٢٨ : ٦٨/١٣ .

(٦) سورة القصص ، الآية : ٥ ، ٦ .

(٧) سورة الدخان ، الآيات : ٢٥ — ٢٨ .

وعن الحسن البصرى وقتادة ، فى قوله : (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) ، يعنى : الشام (١) .

وقوله : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) ، قال مجاهد وابن جرير : وهى قوله تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) (٢) .

وقوله : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) ، أى : وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ، (وماكانوا يعرشون) ، قال ابن عباس ومجاهد : (يعرشون) : يبنون (٣) .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، (فأتوا) ، أى : فمروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم) ، قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ؛ وقيل : كانوا من لخم (٤) .

قال ابن جريج (٥) : وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون) :

أى : تجهلون عظمة الله وجلاله ، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ؛

(إن هؤلاء متبر ماهم فيه) ، أى : هالك (وباطل ما كانوا يعملون) :

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم ، عن الزهرى ، عن سنان بن أبى سنان ، عن أبى واقد الليثى : أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : « ذات أنواط » ، قال : فمررنا بسدرة (٦) خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قال قوم موسى لموسى : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة : قال : إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) (٧) :

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٠٤٣ ـ ١٥٠٤٧ : ١٣/٧٦ ، ٧٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣/٧٧ ، ٧٨ . والآيتان من سورة القصص : ٥ ، ٦ .

(٣) تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٠٥٠ ـ ١٥٠٥٢ : ١٣/٧٨ ، ٧٩ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٣/٨١ .

(٥) أثر ابن جريج فى تفسير الطبرى ١٥٠٥٣ : ١٣/٨٠ .

(٦) السدرة : شجرة النبق .

(٧) الآثار فى تفسير الطبرى برقم ١٥٠٥٥ ـ ١٥٠٥٨ : ١٣ / ٨١ ، ٨٢ . وقد وقد ساق ابن كثير رواية عقيل عن ابن شهاب ، وخاتمة هذه الرواية : « قال : قلتم ، والذى نفسى بيده ، ما قال قوم موسى : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون) إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن سنان بن أبى سنان [الديلى] ، عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حنين ، فررنا بسدرة ، فقلت : يانبى الله ، اجعل لنا هذه « ذات أنواط » ، كما للكفار ذات أنواط . وكان الكفار ينوطون(١) سلاحهم بسدرة ، ويعكفون حولها : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) إنكم تركبون سنن من قبلكم(٢) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن أبيه ، عن جده مرفوعاً :

قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يذكرهم موسى عليه السلام بنعمة الله عليهم ، من إنقاذهم من اسر فرعون وقهره ، وماكانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه : وغرقه ودماره . وقد تقدم تفسيرها فى البقرة(٣) .

* وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل ، بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة .

قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين .

وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة ، والعشر عشر ذى الحجة ، ؛ قاله مجاهد ، ومسروق ، وابن جريج . وروى عن ابن عباس . فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا(٤) .

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور ، كما قال تعالى : (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن) (٥) ... الآية ، فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ، وأوصاه

---

(١) ينوطون : يعلقون .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٢١٨ .
(٣) ينظر فيما تقدم : ١/١٢٨ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٣ .
(٥) سورة طه ، الآية : ٨٠ .

بالإصلاح وعدم الإفساد ، وهذا تنبيه وتذكير ، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله ، وله وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى ، وحصل له التكليم من الله ؛ سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال : (رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى) .

وقد أشكل حرف « لن » هاهنا على كثير من العلماء ، لأنها موضوعة لنفى التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة . وهذا أضعف الأقوال ، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة ، كما سنوردها عند قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) .

وقوله تعالى إخباراً عن الكفار : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

وقيل : إنها لنفى التأبيد فى الدنيا ، جمعا بين هذه الآية ، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة ؛

وقيل : إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ، وقد تقدم ذلك فى الأنعام(١) .

وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : « ياموسى ، إنه لايرانى حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده(٢) » ، ولهذا قال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً) .

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية : حدثنا أحمد بن سهيل الواسطى ، حدثنا قُرّة بن عيسى ، حدثنا الأعمش ، عن رجل ، عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لما تجلى ربه للجبل ، أشار بإصبعه ، فجعله دكاً — وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة (٣) .

هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال :

حدثنى المثنى ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد ، عن ليث ، عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) ، قال(٤) هكذا بإصبعه — ووضع النبى صلى الله عليه وسلم إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر — فساخ الجبل(٥) .

---

(١) ينظر تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام : ٣/٣٠٢ — ٣٠٥ .
(٢) مضى هذا الأثر فى : ٣/٣٠٤ وشرح غريبه هناك .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٨٦ : ١٣/٩٨ .
(٤) « قال » هنا بمعنى : أشار .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٨٧ : ١٣/٩٨ .

هكذا وقع فى هذه الرواية «حماد بن سلمة ، عن ليث ، عن أنس» . والمشهور : «حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس» ، كما قال ابن جرير :

حدثنى المثنى ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) ، قال : وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره ، قال : فساخ الجبل — قال حميد لثابت : تقول هذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حُمَيد ، وقال : يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقوله أنس ، وأنا أكتمه(١) ؟ .

وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو المثنى ، معاذ بن معاذ العنبرى ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت البُنَانى ، عن أنس بن مالك ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (فلما تجلى ربه للجبل) ، قال : قال هكذا — يعنى أنه أخرج طرف الخنصر — قال أحمد : أرانا معاذ ، فقال له حُمَيد الطويل : ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟ قال : فضرب صدره ضربة شديدة وقال : من أنت ياحميد ؟ ! وما أنت يا حميد ؟ ! يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم [فتقول أنت] (٢) ما تريد إليه ؟ !

وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الورّاق ، عن معاذ بن معاذ ، به — وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن سليمان بن حرب ، عن حماد ، به . ثم قال : «هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث حماد»(٣) .

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق ، عن حماد بن سلمة ، به . وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (٤)» .

ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال ، عن محمد بن على بن سويد ، عن أبى القاسم البغوى ، عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة ، فذكره وقال : هذا إسناد صحيح لا علة فيه .

وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعاً ، بنحوه .

وأسنده ابن مردويه من طريقين ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعاً [بنحوه ، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلمانى ، عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعاً] ، ولا يصح أيضاً .

وقال السدى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قول الله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل) ، قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر — (جعله دكا) ، قال : تراباً — (وخر موسى صعقاً) ، قال : مغشياً عليه .

رواه ابن جرير(٥) .

وقال قتادة : (وخر موسى صعقا) ، قال : ميتاً .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٨٨ : ٩٩/١٣ .

(٢) مكانه فى مخطوطة الأزهر : «يقول» ، والمثبت من مسند الإمام أحمد : ١٢٥/٣ .

(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأعراف ، الحديثان ٥٠٦٩ ، ٥٠٧٠ : ٤٥١/٨ ، ٤٥٢ .

(٤) المستدرك ، تفسير سورة الأعراف : ٣٢٠/٢ ، ٣٢١ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٧٨ : ٩٧/١٣ .

وقال سفيان الثورى : ساخ الجبل فى الأرض ، حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه(١) .

وقال سنيد(٢) ، عن حجاج بن محمد الأعور ، عن أبى بكر الهذلى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) ، انقعر فدخل تحت الأرض ، فلا يظهر إلى يوم القيامه .

وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخ فى الأرض ، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة ، رواه ابن مردويه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن شبّة ، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن معاوية بن عبد الله ، عن الجلد بن أيوب ، [عن معاويه] بن قرة(٣) عن أنس بن مالك : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لما تجلى الله للجبال ، طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ، بالمدينة : أحد ، وَوَرِقان ، ورضوى ؛ ووقع بمكة : حراء ، وثَبِير ، وثور » .

وهذا حديث غريب ، بل منكر .

وقال ابن أبى حاتم : ذُكرَ عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج ، حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا عثمان بن حصين ابن علاق ، عن عروة بن رُوَيم قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُمّاً مُلْساً ، فلما تجلى الله لموسى على الطور دُكّ ، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف .

وقال الربيع بن أنس : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا) ، وذلك أن الجبل حين كُشِف الغطاء ورأى النور ، صار مثل دَكّ من الدكاك(٤) . وقال بعضهم : (جعله دكا) أى : فتته .

وقال مجاهد فى قوله : (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى) ، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ، (فلما تجلى ربه للجبل) ، فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله(٥) ، ورأى موسى ما يصنع الجبل ، فخر صعقاً .

وقال عكرمة : (جعله دكّاء) ، قال : نظر الله إلى الجبل ، فصار صحراء تراباً(٦) .

وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء(٧) ، واختارها ابن جرير ، وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مَرْدُويه .

---

(١) أثر قتادة فى تفسير الطبرى برقم ١٥٠٨١ : ١٣/٩٧ . وأثر الثورى برقم ١٥٠٧٤ : ١٣/٩٨ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١٣/٧٨ : « حسين ، عن الحجاج » وسنيد هو ابن داود المصيصى ، أبو على المحتسب ، واسمه الحسين ، وسنيد لقب . ينظر التهذيب : ٤/٢٤٤ .

(٣) فى المخطوطة : « أيوب بن قرة » والمثبت عن الجرح لابن أبى حاتم : ١/١/٥٤٨ .

(٤) الدك : ما استوى من الرمل ، وجمعه : دكاك بكسر الدال . والأثر فى تفسير الطبرى رقم ١٥٠٨٩ : ١٣/٩٩ ، وفيه : « دك من الدكات » .

(٥) فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٩٠ : ١٣/١٠٠ : « يندك على أوله » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٩١ : ١٣/١٠١ .

(٧) هى قراءة حمزة والكسائى . ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٤/٣٨٤ .

والمعروف أن « الصَّعْق » هو الغَشْي هاهنا ، كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت ، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة ، كقوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (١) ، فان هنا قرينة تدل على الموت كما أن هناك قرينة تدل على الغشى ، وهي قوله : (فلما أفاق) ، والإفاقة إنما تكون من غَشْي .

(قال سبحانك) ، تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد في الدنيا إلا مات .

وقوله : (تبت إليك) ، قال مجاهد : أن أسألك الرؤية(٢) .

(وأنا أول المؤمنين) ، قال ابن عباس ومجاهد : من بني إسرائيل(٣) : واختاره ابن جرير ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك أحد(٤) : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

وهذا قول حسن له اتجاه . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثراً طويلا فيه غرائب وعجائب ، عن محمد ابن إسحاق بن يسار(٥) ، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم .

وقوله : (وخر موسى صعقا) ، فيه أبو سعيد وأبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا ، فقال :

حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحيى المازني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لُطِم وجهُه ، فقال : يامحمد ، إن رجلا من أصحابك من الأنصار [لَطَم في وجهي(٦)] . قال : ادعُوه : فدعَوه ، قال : لِمَ لطمتَ وجهه ؟ قال : يارسول الله ، إني مررت باليهود فسمعتُه يقول : والذي اصطفى موسى على البشر : قال ، [قلت] : وعلى محمد ؟ فأخذتني غضبة فلطمته ، قال : لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور »(٧) .

وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ، ومسلم(٨) في أحاديث الأنبياء من صحيحه ، وأبو داود في كتاب(٩) « السنة » من سننه من طرق ، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني ، عن أبيه ، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ، به .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٨ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٠٩٨ : ١٠٣/١٣ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٥١٠٠ : ١٠٤/١٣ ، وأثر مجاهد بعده .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٠٩٥ : ١٠٣/١٣ ، وأثر أبي العالية قبله .
(٥) هو الأثر رقم ١٥٠٧٧ : ٩١/١٣-٩٦ .
(٦) في المخطوطة : « لطف وجهه » . وهو خطأ ، والمثبت من الصحيح .
(٧) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأعراف : ٧٤/٦ ، ٧٥ . وكتاب الديات ، باب إذا لطم المسلم يهودياً : ١٦/٩ .
(٨) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم : ١٠٢/٧ .
(٩) سنن أبي داود ، كتاب السنة : ، باب ١٣

وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده :

حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : استب رجلان : رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : « والذي اصطفى محمداً على العالمين » وقال اليهودي : « والذي اصطفى موسى على العالمين » ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه(١) ، فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره(٢) ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترف بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخيروني على موسى ؛ فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى ممسكاً بجانب العرش ، فلا أدرى أكان (٣) ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثناه الله عز وجل(٤) .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث الزهري(٥) ، به .

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله : أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار ، وهذا هو أصح وأصرح ، والله أعلم .

والكلام في قوله عليه السلام : « لا تخيروني على موسى » ، كالكلام على قوله : « لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى » ، قيل : من باب التواضع . وقيل : قبل أن يعلم بذلك . وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب . وقيل : على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى ، والله أعلم .

وقوله : « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » ، الظاهر أن هذا الصَّعق يكون في عرَصَات القيامة ، يحصل أمر يصعقون منه ، والله أعلم به . وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتَجلَّى للخلائق الملكُ الديان ، كما صُعِق موسى من تجلى الرب عز وجل ، ولهذا قال عليه السلام : « فلا أدرى أفاق قبلي أم جُوزِى بصَعْقَة الطور » ؟

وقد روَى القاضي عياض في أوائل كتابه « الشفاء » بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق : حدثنا قتادة ، حدثنا الحسن ، عن قتادة ، عن يحيى بن وثَّاب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما تجلى الله لموسى عليه السلام ، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء ، مسيرة عشرة فراسخ » ، ثم قال : « ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوة بما رأى من آيات ربه الكبرى » .

انتهى ما قاله ، وكأنه صَحّح هذا الحديث ، وفي صحته نظر ، ولا يخلو رجالُ إسناده من مجاهيل لا يعرفون ، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله ، حتى ينتهى إلى منتهاه ، والله أعلم .

---

(١) لفظ المسند : « فغضب المسلم فلطم عين اليهودي » .
(٢) لفظ المسند : « فأتى اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك ، فدعاه ... » .
(٣) في المسند : « فيمن صعق » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٦٤ .
(٥) صحيح البخاري ، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي : ٣/٥٨ . وكتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعد : ٤/١٩٢ . وكتاب الرقاق ، باب نفخ الصور : ٨/١٣٥ . ومسلم كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم : ٧/١٠١ ، ١٠٢ .

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥)﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه تعالى ، ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين ، التي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم موسى كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال تعالى له : (فخذ ما آتيتك) ، أي : من الكلام والمناجاة (وكن من الشاكرين)، أي : على ذلك ، ولا تطلب مالا طاقة لك به .

ثم أخبر تعالى أنه كتب « له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء » ، قيل : كانت الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظَ وأحكاماً مفصَّلة مبينّة للحلال من الحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله فيها : (ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائرَ للناس)(١) .

وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، فالله أعلم . وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنع منه ، والله أعلم .

وقوله : (فخذها بقوة) ، أي : بعزم على الطاعة ، (وَأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها) ، قال سفيان بن عيينة : حدثنا أبو سَعْد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : (أُمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشدّ ما أمر قومه(٢) .

وقوله : (سأريكم دار الفاسقين) ، أي ستَرون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ؟ .

قال ابن جرير : وإنما قال : (سأريكم دار الفاسقين) ، كما يقول القائل لمن يخاطبه : « سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري » ، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره(٣) .

ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري(٤) .

وقيل : معناه (سأريكم دار الفاسقين) ، أي : من أهل الشام ، وأعطيكم إياها . وقيل : منازل قوم « فرعون » ، والأول أولى ، والله أعلم ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٤٣ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٥١١٦ : ١٣/١١٠ .
(٣) تفسير الطبري : ١٣/١١٠ .
(٤) ينظر آثارهما في تفسير الطبري : ١٣/١١١ .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ، أى : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوبَ المتكبرين عن طاعتى ، ويتكبرون على الناس بغير حق ، أى : كما استكبروا بغير حق أذلّهم الله بالجهل ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) (١) ، وقال تعالى : (فلما زاغو أزاغ الله قلوبهم) (٢) .

وقال بعض السلف : لا ينال العلم حيىٌّ ولامستكبر .

وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة ، بقى فى ذل الجهل أبدا .

وقال سفيان بن عُيَينة فى قوله : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ، قال : أنزع عنهم فهم القرآن ، وأصرفهم عن آياتى (٣) .

قال ابن جرير : وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة (٤) .

قلت : ليس هذا بلازم ؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كلّ أمة ، ولا فرق بين أحد وأحد فى (٥) هذا، والله أعلم .

وقوله : (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (٦) .

وقوله : (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) ، أى : وإن ظهر لهم « سبيل الرشد » ، أى : طريق النجاة لايسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال « يتخذوه سبيلا » .

ثم علل مصيرهم إلى هذه [الحال] بقوله : (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) ، أى : كذبت بها قلوبهم ، (وكانوا عنها غافلين) ، اى : لا يعلمون شيئاً مما فيها .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٠ .

(٢) سورة الصف ، الآية : ٥ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١١٢ : ١١٢/١٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ١١٣/١٣ .

(٥) فى هذا الاعتراض على فهم ابن جرير لكلام ابن عيينة نظر ؛ فإنه قال : « أنزع عنهم فهم القرآن » ، والقرآن لم ينزل إلا على هذه الأمة .

(٦) سورة يونس ، الآية : ٩٦ ، ٩٧ .

وقوله : (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) ، أى : من فَعَل منهم ذلك واستمرّ عليه إلى الممات ، حبط عمله :

وقوله : (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ، أى : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها ، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر ، وكما تَدين تُدان

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضَلّ من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل ، الذى اتخذه لهم السامرىّ من حُلىّ القبط ، الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلا ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلا جسداً له خُوار ، « والخُوَار » صوت البقر : وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة : (قال : فإنا قد فتَنّا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) (١) .

وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل : هل صار لحما ودما له خوار ؟ أو استمر على كونه من ذَهَب ، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر ؟ على قولين ، والله أعلم .

ويقال : إنهم لما صَوّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتُتِنوا به ، (فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى) ، فقال الله تعالى : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) (٢) .

وقال فى هذه الآية الكريمة : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) ، ينكر تعالى عليهم فى ضَلالهم بالعجل ، وذُهُولهم عن خالق السموات والأرض وربّ كل شىء ومليكه ، أن عبدوا معه عجلا جسداً له خُوَار لا يكلمهم ، ولا يرشدهم إلى خير . ولكن غَطّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال ، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبك الشىء يُعْمى ويُصِم » (٣) :

وقوله : (ولما سُقِط فى أيديهم) ، أى : ندموا على ما فعلوا ، (ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) ، وقرأ بعضهم : (لئن (٤) لم تَرْحمنا) ، بالتاء المثناة من فوق ، (رَبَّنا) منادى ، (وتَغْفِر لنا) ، (لنكونن من الخاسرين) ، أى : من الهالكين . وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٨٥ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٨٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/١٩٤ ، ٦/٤٥٠ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب ١١٦ .

(٤) هذه قراءة عامة أهل الكوفة ، وأما القراءة الأولى فهى قراءة أهل المدينة ومكة والبصرة . ينظر تفسير الطبرى : ١٣/١١٩ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٤/٣٩٤ .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف ؛

قال أبو الدرداء « الأَسَف » : أشد الغضب(١) .

(قال بئسما خلفتمونى من بعدى) ، يقول : بئس ما صنعتم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم ؛

[وقوله : (أعجلتم أمر ربكم) ، يقول : استعجلتم مجيئى إليكم ، وهو مقدَّر من الله تعالى(٢)] .

وقوله : (وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه) ، قيل : كانت الألواح من زُمُرُّد . وقيل : من ياقوت ؛ وقيل : من بَرَد(٣) . وفى هذا دلالة على ماجاء فى الحديث « ليس الخبر كالمعاينة(٤) » .

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه ، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا . وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولا غريبا(٥) ، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد ردَّه ابن عطية وغير واحد من العلماء ، وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب ، وفيهم كذابون ووضّاعون وأفاكون وزنادقة .

وقوله : (وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه) خوفاً أن يكون قد قصر فى نهيهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألاّ تتبعن أفعصيتَ أمرى . قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقُبْ قولى) (٦) ، وقال هاهنا : (ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) ، أى : لا تسقنى مَسَاقهم ، ولا تخلطنى معهم . وإنما قال : (ابن أمّ) لتكون أرأف وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه . فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون ،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٢٤ : ١٣/١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) قال الطبرى عند تفسير هذه الآية ١٣/١٢٢ : « قوله : (أعجلتم أمر ربكم) ، يقول : أسبقتم أمر ربكم فى نفوسكم وذهبتم عنه ؟ يقال منه : « عجل فلان هذا الأمر » ، إذا سبقه — و « عجل فلان فلانا » ، إذا سبقه — و « لا تعجلنى يا فلان » ، لا تذهب عنى وتدعنى — و « أعجلته » ، استحثثته » .

(٣) ينظر الآثار فى ذلك فى تفسير الطبرى : ١٣/١٢٦ ، ١٢٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس ، المسند : ١ / ٢١٥ ، ٢٧١ ، ولفظه فى الرواية الثانية يوضح المقصود بهذا الحديث هنا ، قال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبر كالمعاينة ؛ إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل ، فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح ، فانكسرت » . وستأتى رواية ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، وهى موافقة لما هنا .

(٥) انظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٣٢ : ١٣/١٢٣ ، ١٢٤ . وسيورده ابن كثير عند قوله تعالى : « ولما سكت عن موسى الغضب » .

(٦) سورة طه ، الآيات : ٩٢ – ٩٤ .

كما قال تعالى : (ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم ، إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري) (١) ـ فعند ذلك قال موسى : (رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله موسى ، ليس المعاين كالمخبر ؛ أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده ، فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة ، حتى قتل بعضهم بعضاً ، كما تقدم في سورة البقرة : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم) (٢) .

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغاراً في الحياة الدنيا ، وقوله : (وكذلك نجزي المفترين) نائلة لكل من افترى بدعة ، فان ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : « إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هَمْلَجَت (٣) بهم البغلات ، وطَقْطَقَت (٤) بهم البراذين .

وهكذا روى أيوب السختياني ، عن أبي قلابة الجرْمي أنه قرأ هذه الآية : (وكذلك نجزي المفترين) ، قال : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة (٥) .

وقال سفيان بن عيينة : « كل صاحب بدعة ذليل (٦) » .

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق . ولهذا عقب هذه القصة بقوله : (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك) ، أي : يا محمد ، يا رسول الرحمة ونبي النور (من بعدها) ، أي : من بعد تلك الفعلة (لغفور رحيم) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا أبان ، حدثنا قتادة ، عن عَزْرَة ، عن الحسن العُرَني ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود : أنه سئل عن ذلك — يعني عن الرجل يزني بالمرأة ، ثم يتزوجها —

---

(١) سورة طه ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٥٤ . وينظر فيما تقدم من هذا التفسير : ١/١٣٠ — ١٣٢ .

(٣) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة .

(٤) الطقطقة : صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة . والبرذون — كما في تاج العروس — : الجافي من الخيل الجلد على السير في الشعاب الغليظ الأعضاء . ويقابل البراذين : العراب ، وهي أضمر وأرق أعضاء .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٥١٤٩ : ١٣/١٣٥ .

(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٥١٥١ : ١٣/١٣٦ .

فتلا هذه الآية : (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ، فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يقول تعالى : (ولما سكت) ، أى : سكن (عن موسى الغضب) ، أى : غضبه على قومه (أخذ الألواح) ، أى : التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرةً لله وغضبا له (وفى نسختها هدى ورحمة) .

يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ، ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هدى ورحمة . وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودا فى خزائن الملوك لبنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهى من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة (١) :

(للذين هم لربهم يرهبون) ، ضمن الرهبة معنى الخضوع ، ولهذا عداها باللام .

وقال قتادة (٢) : فى قوله تعالى (أخذ الألواح) ، قال : ربِّ ، إنى أجدُ فى الألواح أمةً خيرَ أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون ــ أىْ آخرون فى الخلق ــ السابقون(٣) فى دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها ــ كتابهم ــ وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ، ولم يعرفوه . [قال قتادة] (٤) وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم ــ قال : رب ، اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب، إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فصول الضلالة ، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد. قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ــ وكان مَنْ قبلهم [من الأمم](٤) إذا تصدق بصدقة فقبلت منه ، بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه تُركت ، فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم ــ قال : رب ، اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة إذاهمّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فان عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة

---

(١) كذا ، ولم يتضح وجه الدليل . ولعل فى الكلام سقطاً .

(٢) هذا هو الأثر الذى قال ابن كثير عنه أنه لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وكأنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب . ينظر تفسير الآية ١٥٠ من هذه السورة .

(٣) فى المخطوطة : « سابقون فى دخول الجنة » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٣٢ : ١٢٣/١٣ .

(٤) عن المرجع السابق : ١٢٤/١٣ .

لم تكتب عليه حتى يعملها ، فاذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتى : قال : تلك أمة أحمد : قال : رب ، إنى جد فى الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم ، فاجعلهم أمتى : قال : تلك أمة أحمد : قال : رب ، إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتى : قال : تلك أمة أحمد (!) : قال قتادة : فذكر لنا أن نبى الله موسى نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : كان الله أمرَه أن يختار من قومه سبعين رجلا ، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دَعَوُا الله قالوا : اللهم اعطنا مالم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة ، قال موسى : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى (٢) : الآية :

وقال السدى : إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعدا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا : فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة ، فانك قد كلمته ، فأرناه . فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى [يبكى و] يدعو الله ويقول : رب ، ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) (٣) :

وقال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا ، الخيِّرَ فالخيِّر ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهَّروا ، وطهِّروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقَّته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم : فقال له السبعون — فيما ذكر لى — حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمودُ الغمام ، حتى تغشى الجبل كله . ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه . فضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سُجُودا ، فسمعوه وهو يكلّم موسى ، يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . فلما فرغ إليه من أمره ، انكشف عن موسى الغمام . فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذتهم الرجفة — وهى الصاعقة — فافتُلِتَتْ (١) أرواحهم ، فماتوا جميعا . فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ، ويقول : (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) . قد سفهوا ، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل .

---

(١) تفسير الطبرى ١٣: / ١٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٥٤ : ١٣/١٤١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٥٢ : ١٣/١٤٠ .

(٤) فى المخطوطة : «فالتقت» ، ومثله فى مخطوطة ومطبوعة الطبرى الأولى . وقد ارتضى السيد المحقق ما أثبتناه عنه ويقال : افتلتت نفسه — بالبناء للمجهول — : مات فلتة ، أى بغتة . ينظر تفسير الطبرى : ٨٧/٢ ، ١٤١/١٣ .

وقال سفيان الثورى : حدثنى أبو إسحاق ، عن عمارة بن عبد السَّلُولى ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : انطلق موسى وهارون وشبر وشبير ، فانطلقوا إلى سفح جَبَل ، فنام هارون على سرير ، فتوفاه الله عز وجل . فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له : أين هارون ؟ قال : توفاه الله عز وجل . قالوا : أنت قتلته ، حَسَدتنا على خُلقه ولينه — أو كلمة نحوها — قال : فاختاروا من شئتم . قال : فاختاروا سبعين رجلا . قال : فذلك قوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا) ، فلما انتهوا إليه قالوا : يا هارون ، من قتلك ؟ قال : ما قتلنى أحد ، ولكن توفانى الله . قالوا : يا موسى ، لن تعصى بعد اليوم : قال : فأخذتهم الرجفة . قال : فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا ، وقال : يا (رب ، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) ، قال : فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم(١) .

هذا أثر غريب جدا ، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه(٢) : وقد رواه شعبة ، عن أبى إسحاق عن رجل من بنى سلول [عن على] ، فذكره(٣) :

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل، ولا نهوهم(٤)

ويتوجه هذا القول بقول موسى : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) :

وقوله : (إن هى إلا فتنتك) ، أى : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك : قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف : ولا معنى له غير ذلك ؛ يقول : ان الأمرُ إلا أمرُك ، وإن الحكمُ إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء ، وتهدى من تشاء ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

وقوله : (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) ، الغَفْر هو : الستر ، وترك المؤاخذة بالذنب ؛ والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه(٥) فى مثله فى المستقبل ، (وأنت خير الغافرين) ، أى : لا يغفر الذنوب لا أنت ، (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) ، هناك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور ، وهذا لتحصيل المقصود — (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) ، أى : أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة ، وقد تقدم ذلك فى سورة البقرة(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٥٧ : ١٣/١٤٢ .

(٢) عمارة بن عبد مترجم له فى الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/١٥٨ ، وقال : « عمارة بن عبد السلولى » ، روى عن على وحذيفة » . وكذلك له ترجمة فى ميزان الاعتدال برقم ٦٠٣٠ : ٣/٧٧ ، ويقول الذهبى : « عمارة بن عبد ، عن على . مجهول لا يحتج ، قال أبو حاتم . وقال أحمد : مستقيم الحديث ، لا يروى عنه غير أبى إسحاق » . وينظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/٣٦٧ ، وتفسير الطبرى ١٣/١٤٢ ، فقد رجعنا السيد المحقق إلى هذه المراجع ، وقال : « فقد تبين فما ذكرت أنه معروف ، وأن ابن كثير لم يستوعب بحثه » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥١٥٨ : ١٣/١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) ينظر آثارهم فى تفسير الطبرى : ١٣/١٤٣ ، ١٤٤ .

(٥) فى المخطوطة : « أن لا يرفعه » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٦) وذلك عند الآية ٢٠١ من سورة البقرة ، ينظر : ١/٣٥٥ — ٣٥٧ .

(إنا هُدْنا إليك) ، أي : تبنا ورجعنا وأنبْنَا إليك . قاله ابن عباس ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وإبراهيم التيمي ، والسدي ، وقتادة ، وغير واحد : وهو كذلك لُغَة :

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن شريك ، عن جابر ، عن عبد الله بن نُجَيّ[1] ، عن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا : (إنا هدنا إليك) .

جابر — هو ابن يزيد الجُعْفي — : ضعيف .

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قال تعالى مجيبا لموسى في قوله : (إن هي إلا فتنتك) ... الآية : (عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء) ، أي : أفعل ما أشاء ، وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو .

وقوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) آية عظيمة الشمول والعموم ، كقوله إخباراً عن حَمَلَة العرش ومن حوله أنهم يقولون : (ربنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلما[2]) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبي ، حدثنا الجُرَيري ، عن أبي عبد الله الجُشَمي ، حدثنا جندب — هو بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه — قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عَقَلَها ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلتَه فأطلق عقالها ، ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ، ارحمني ومحمدا ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أتقولون][3] هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال ؟ قالوا : بلى . قال : لقد حَظَرْتَ رحمةً واسعة ؛ إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمةً [واحدة][3] يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها ، وأخَّرَ[4] عنده تسعا وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ [5] » .

ورواه أبو داود عن علي بن نصر ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، به[6] :

---

(١) في تفسير الطبري ، الأثر ١٥١٩٩/١٣/١٥٥ : « عن عبد الله بن يحي » . ويقول السيد المحقق إن في المخطوطة : « جابر بن عبد الله بن يحي » ، وفي المطبوعة : « جابر ، عن عبد الله بن يحي . ولم أجد لشيء من ذلك ذكراً في الكتب ، وهو محرف بلا شك عن شيء آخر » . وما أثبتناه هو نص مخطوطة الأزهر ، وهو الصواب ، ينظر التهذيب : ٦/٥٥ . ففيه أنه يروى عن علي رضي الله عنه ، ويروى عنه جابر الجعفي .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٧ .

(٣) عن مسند الإمام أحمد .

(٤) لفظ المسند : « وعنده تسع ... » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٤ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ٣٦ .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان ، عن أبي عثمان ، عن سلمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل مائةَ رحمةٍ (١) ، فمنها رحمة يتراحَمُ بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة (٢) » .

تفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من حديث سُلَيمان ــ هو ابن طَرْخان ــ وداود بن أبي هند كلاهما ، عن أبي عثمان ــ واسمه عبد الرحمن بن مِلّ ــ عن سلمان ، هو الفارسي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد(٤) ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لله مائة رحمة ، عنده تسعة وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق ، فاذا كان يوم القيامة ضمها إليه » (٥) : تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا(٦) عفان ، حدثنا عبد الواحد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله مائة رحمة ، فقسم منها جزءا واحدا بين الخلق ، [فبه] يتراحم الناس والوحش والطير (٧) » .

ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش ، به (٨) ..

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن يونس (٩) حدثنا سعد أبو غَيْلان الشيباني ، عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم ، عن صِلة بن زُفَر ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليدخلن [الجنة] الفاجرُ في دينه ، الأحمق في معيشته . والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد مَحَشَته(١٠) النار بذنبه . والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه » .

هذا حديث غريب جدا ، « وسعد » هذا لا أعرفه .

وقوله : (فسأكتبها للذين يتقون) ... الآية يعني فسأوجب حُصُول رحمتي مِنَّةً مني وإحسانا إليهم ، كما قال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة)(١١) .

---

(١) لفظ المسند : « إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ... » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٣٩/٥ .
(٣) مسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه : ٩٥/٨ .
(٤) في مخطوطة الأزهر : « حدثنا عفان بن حماد » وهو خطأ . وعفان هو ابن مسلم ، يروى عنه الإمام أحمد : ينظر التهذيب : ٢٣٠/٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٥٥ ، ٥٦ .
(٦) في مخطوطة الأزهر : « حدثنا عثمان » وهو خطأ . والمثبت من المسند . وعفان هو ابن مسلم المتقدم ذكره ، يروى عن عبد الواحد بن زياد ، ينظر التهذيب : ٤٣٤/٦ ، ٢٣٠/٧ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٥٥/٣ .
(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، الحديث ٤٢٩٤ : ١٤٣٥/٢ .
(٩) هو أحمد بن عبد الله بن يونس . ينظر الجرح : ٩٩/١/٢ ، ١٠٠ ، والتهذيب : ٥٠/١ .
(١٠) المحش : احتراق الجلد وظهور العظم .
(١١) سورة الأنعام ، آية : ٥٤ .

وقوله : (للذين يتقون) ، أى ، سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتقون أى : الشرك والعظائم من الذنوب :

(ويؤتون الزكاة) ، قيل : زكاة النفوس : وقيل : الأموال : ويحتمل أن تكون عامة لهما ؛ فإن الآية مكية ؛ (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى : يصدقون :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(الذين يتبعون الرسول النبيّ الأُميّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) ، وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته : ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم كما قال الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، عن الجُرَيرى ، عن أبى صخر العُقَيلى ، حدثنى رجل من الأعراب : قال : جلبت جَلُوبَةً(١) إلى المدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقينّ هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم [فى أقفائهم](٢) حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجد فى كتابك ذا صفتى ومخرجى ؟ فقال(٣) برأسه هكذا ، أى : لا : فقال ابنه ، إى : والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومَخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ؛ فقال : أقيموا اليهودى عن أخيكم . ثم ولى كفنه والصلاة(٤) عليه .

هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح ، عن أنس :

وقال الحاكم صاحب المستدرك : أخبرنا أبو محمد — عبد الله بن إسحاق(٥) البغوى ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن شُرَحبيل بن مسلم ، عن أبى أمامة الباهلى ، عن هشام بن العاص الأموى قال : بَعثت انا ورجل(٦) آخر إلى هرَقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ،

---

(١) فى المخطوطة : « جلبت حلوة » . والمثبت عن المسند .

(٢) عن مسند الإمام أحمد .

(٣) قال برأسه : أشار .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤١١/٥ .

(٥) فى مخطوطة الأزهر : « أخبرنا محمد بن عبد الله بن إسحاق » . وهو خطأ ، صوابه من دلائل النبوة للبيهقى ، ورقة ١١٧ . وميزان الاعتدال للذهبى : ٣٩٢/٢ ، والعبر للذهبى أيضاً : ٢٨٢/٢ .

(٦) فى الدلائل أيضاً : « أنا ورجل من قريش إلى صاحب الروم » .

فخرجنا حتى قدمنا الغوطة – يعنى غوطة دمشق(١) فنزلنا على جبلة ابن الأيهم الغسانى ، فدخلنا عليه ، فإذا هو على سرير له ، فأرسل إلينا برسول نكلمه ، فقلنا : والله لا نكلم رسولا ، إنما بعثنا إلى الملك ، فإن أذن لنا كلمناه ، وإلا لم نكلم الرسول . فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا فقال : تكلموا : فكلّمه هشام بن العاص ، ودعاه إلى الإسلام ، فإذا عليه ثيابُ سَوَادٍ ، فقال له هشام : وما هذه التى عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام . قلنا : ومجلسك هذا ، والله لنأخذنّه منك ، ولنأخذنّ مُلك الملك الأعظم ، إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم . قال : لستم بهم . بل هم قوم يصومون بالنهار ، ويقومون(٢) بالليل ، فكيف صومكم ؟ فأخبرناه ، فمُلِىء وجهه سَوَاداً فقال : قوموا . وبعث معنا رسولا إلى الملك ، فخرجنا ، حتى إذا كنا قريبا من المدينة ، قال لنا الذى معنا : إنّ دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم على بَراذين وبغال(٣) ؟ قلنا : والله لا ندخل إلا عليها . فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا ، حتى انتهينا إلى غرفة ، فأنخنا فى أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : « لا إله إلا الله ، والله أكبر » : فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة(٤) حتى صارت كأنها عذق(٥) تَصَفّقه الرياح . فأرسل إلينا : ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم : وأرسل إلينا : « أن ادخلوا » فدخلنا عليه وهو على فراش له ، وعنده بطارقته من الروم ، وكل شىء فى مجلسه أحمر ، وما حوله حمرة ، وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه فضحك ، فقال : ما كان عليكم لو حييتمونى بتحيتكم (٦) فيما بينكم ؟ . وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك ، وتحيتك التى تُحَيّىَ بها لا تحل لنا أن نحييك بها . قال : [كيف] تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا : السلام عليك . قال : وكيف تحيون ملككم (٧) ؟ قلنا : بها . قال وكيف يرد عليكم ؟ قلنا : بها . قال : فما أعظمُ كلامكم ؟ قلنا : « لا إله إلا الله ، والله أكبر » فلما تكلمنا بها والله يعلم – لقد تَنَفَّضَت الغرفة حتى رفع رأسه إليها ، قال : فهذه الكلمة التى قلتموها حيث تَنَفَّضَت الغرفة ، كلما قلتموها فى بيوتكم تنفضت(٨) عليكم غرفكم ؟ قلنا : لا ، ما رأيناها فعلت هذا قطّ إلا عندك . قال : لوددت أنكم كلما قلتم تَنَقَّضَ كلّ شىء عليكم . وأنى خرجت من نصف ملكى . قلنا : لم ؟ قال : لأنه كان أيسر لشأنها ، وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس . ثم سألنا عما أراد ، فأخبرناه . ثم قال : كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا . [فقمنا] فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُل [كثير] ، فأقمنا ثلاثاً .

---

(١) فى الدلائل : « يعنى دمشق » .

(٢) فى دلائل النبوة : « ويفطرون بالليل » .

(٣) البراذين : جمع برذون – بكسر فسكون ، ففتح الذال فسكون الواو – وهو العظيم الخلقة من الخيل ، الجافى ، ويقابله : العراب ، وهى كرائم الخيل .

(٤) أى : تشققت ، وسمع صوتها .

(٥) العذق – بكسر العين – : العرجون بما فيه من الشماريخ ، وتصفقه الرياح : تحركه .

(٦) فى المخطوطة : « لو جئتمونى » . والمثبت عن الدلائل .

(٧) فى الدلائل : « تنقض بيوتكم عليكم » .

(٨) النزل – بضم النون ، وسكون الزاى وتضم أيضاً – : ما يهيأ للضيف .

فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا ، فأعدناه ، ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَة العظيمة[١] مذهبة ، فيها بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح بيتا وقفلا ، فاستخرج حريرة سوداء ، فنشرها ، فاذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا آدم عليه السلام : وإذ هو أكثر الناس شعراً .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا له شعر [كشعر] القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا . لا . قال : هذا نوح عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين صَلْتَ الجبين[٢] ، طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا . لا . قال : هذا إبراهيم عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء ، وإذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وبكينا . قال : والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس ، وقال : والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو ، كأنك تنظر إليه . فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء ، وإذا رجل جعد قَطَط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس متراكب [الأسنان] ، مُقَلَّص[٣] الشفة كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا موسى عليه السلام . وإلى جانبه صورة تشبهه ، إلا أنه مُدْهَان[٤] الرأس ، عريض الجبين ، فى عينيه قَبَل[٥] ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا هارون بن عمران عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فاذا فيها صورة رجل آدم سَبْط[٦] ربعة . كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا لوط عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فاذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمْرة ، أقنى[٧] ، خفيف العارضين حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا إسحاق عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فاذا فيها صورة تشبه إسحاق ، إلا أنه على شفته خال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . هذا يعقوب عليه السلام .

---

(١) الربعة — بفتح الراء وسكون الباء — : إناء مربع .
(٢) صلت الجبين — بفتح الصاد وسكون اللام — : أى واسعه ، وقيل : الصلت البارز ، وقيل أيضاً : الأملس .
(٣) أى : مجتمعة منضمة .
(٤) أى : دهين الشعر .
(٥) القبل — بفتحتين — : هو إقبال السواد على الأنف ، وقيل : هو ميل كالحول .
(٦) السبط — بفتح فسكون — التام الخلق . والسبط أيضاً الشعر : المنبسط المسترسل .
(٧) القنا فى الأنف : طوله ، ورقة أرنبته ، مع حدب فى وسطه .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه ، أقنى الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف فى وجهه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا إسماعيل جد نبيكم عليهما السلام .

ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة كأنها آدم عليه السلام ، كأن وجهه الشمس ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا يوسف عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش(١) الساقين ، أخفش العينين(٢)، ضخم البطن ربعة متقلد سيفا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا داود عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء ، فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرسا ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا سليمان بن داود عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شابٌّ شديد سَوَاد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا عيسى ابن مريم عليه السلام .

قلنا : من أين لك هذه الصور ؟ لأنا نعلم أنها على ما صُوِّرت عليه الأنبياء عليهم السلام ، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله . فقال : إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكان فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسى طابت بالخروج من مُلكى وأنى كنت عبدا لأشركم ملكة ، حتى أموت . ثم أجازنا فأحسن جائزتنا ، وسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه [فحدثناه بما أرانا ، وبما قال لنا ، وما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر] وقال : مسكين ! لو أراد الله به خيراً لفعل . ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم .

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقى رحمه الله فى كتاب « دلائل(٣) النبوة » ، عن الحاكم إجازة ، فذكره ، وإسناده لا بأس به .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى (٤) ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، حدثنا فُلَيح ، عن هلال بن على ، عن عطاء بن يَسَار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة . قال : أجل والله ، إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن: يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزًا للأُمِّيين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، [ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو

---

(١) يقال : رجل حَمش الساقين – بفتح فسكون – وأحمش : أى دقيقهما .
(٢) الخفش فى العين : فساد فيها ، يضعف منه نورها ، وتغمص دائماً من غير وجع .
(٣) ينظر دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٧٠١ حديث ، ورقة : ١١٧ – ١٢٠ .
(٤) فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٢٥/١٣/١٦٤ : «حدثنا ابن المثنى» .

يصفح(١) ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : « لا إله إلا الله » ويفتح به قلوبا غلفا ، وآذانا صُمًّا ، وأعينا عميا – قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك ، فما اختلفا حرفا، إلا أن كعبا قال بلغته ، قال : اوبا غُلُوفيا وآذانا صُمُومِيا وأعينا عُمُومِيا .

وقد رواه البخارى فى صحيحه ، عن محمد بن سنان ، عن فُلَيح ، عن هلال بن على – فذكر بإسناده نحوه ، زاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ : « ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح (٢) .

ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق « التوراة » على كتب أهل الكتاب . وقد ورد فى بعض الأحاديث مايشبه هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا محمد بن إدريس [وراق] (٣) الحميدى، حدثنا محمد (٤) بن عمر بن إبراهيم – من ولد جبير بن مطعم – قال : حدثتنى أم عثمان بنت سعيد – وهى جدتى – عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير ، عن ابيه محمد بن جبير ،عن أبيه جبير بن مطعم قال:خرجت تاجرا إلى الشام،فلما كنت بأدنى الشام لقينى رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبيا ؟ قلت : نعم . قال : هل تعرف صورته إذا رأيتها ؟ قلت : نعم . فأدخلنى بيتا فيه صُوَر ، فلم أر صورة النبى صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة مادخلت نظرتُ إلى صورة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا رجل آخذ بعقب النبى صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن [نبى إلا كان] بعده نبى [إلا] هذا [النبى] فإنه لا نبى بعده ، وهذا الخليفة بعده ، وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه .

وقال أبو داود : حدثنا عمر بن حفص أبو عمر الضرير ، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم ، عن عبد الله بن شقيق العقيلى ، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال : بعثنى عمر إلى الأسقُفّ ، فدعوته ، فقال له عمر : هل تجدنى فى الكتاب ؟ قال : نعم . قال : كيف تجدنى ؟ قال : أجدك قَرْنا . قال : فرفع عمر الدرة وقال : قرن مَهْ ؟ قال : قرن حديد ، أمير (٥) شديد . قال : فكيف تجد الذى بعدى (٦) ؟ قال : أجد خليفة صالحا ، غير أنه

---

(١) عن تفسير الطبرى ، وسيذكر ابن كثير رواية البخارى لهذا الحديث ، ويقول إن فيها زيادة ، وهى الزيادة التى نقلناها بين القوسين عن تفسير الطبرى ، ويبدو أن نسخة ابن كثير لتفسير الطبرى قد وقع فيها سقط .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب البيوع ، باب كراهية السخب فى الأسواق : ٨٧/٣ . وقد رواه البخارى أيضاً فى كتاب التفسير ، تفسير سورة الفتح عن عبد الله بن سلمة ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة ، عن هلال ، به : ١٦٩/٦ ، ١٧٠ . وفيهما « سخاب » بالسين » .

(٣) فى مخطوطة الأزهر : « محمد بن إدريس بن الحميدى » . وفى الطبعات السابقة : « محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى » . والمثبت عن الجرح لابن أبى حاتم : ٢٠٤/٢/٣ ، قال : « محمد بن إدريس أبو بكر وراق الحميدى ، مكى . روى عن أبى عبد الرحمن المقرىء ، وعثمان بن اليمان ... سمعت منه بمكة ، وهو صدوق » .

(٤) ينظر الجرح لابن أبى حاتم : ١٩/١/٤ .

(٥) فى سنن أبى داود : « أمين شديد » .

(٦) فى سنن أبى داود : « الذى يجىء من بعدى » .

يؤثر قرابته : قال عمر : يرحم الله عثمان ، ثلاثا . قال : كيف تجد الذى بعده ؟ قال : أجد صدَأ (١) حديد . قال : فوضع عمر يده على رأسه وقال : يادَفْراه ، يادَفْراه ! قال : يا أمير المؤمنين ، إنه خليفة صالح ، ولكنه يستخلف حين يُستخلف والسيف مسلول ، والدم مهراق (٢) .

وقوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) ، هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة ، وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام ، لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : « إذا سمعت الله يقول : (يا أيها الذين آمنوا) فأرْعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » . ومن أهم ذلك وأعظمه مابعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهى عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله ، كما قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر – هو العقَدى عبد الملك بن عمرو – حدثنا سليمان – هو ابن بلال – عن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن ، عن عبد الملك بن سعيد ، عن أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم الحديث عنّى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعارُكم وأبشاركم ، وترَون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به . وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفِر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه » (٤) .

هذا جيد الإسناد ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى البَختَرى ، عن على رضى الله عنه قال : إذا حُدِّثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظُنّوا به الذى هو أهدى ، والذى هو أهنا(٥) ، والذى هو أتقى (٦) .

ثم رواه عن يحيى بن سعيد ، عن مسعر ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى البَختَرى ، عن أبى عبد الرحمن ، عن على رضى الله عنه قال : إذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ، فظنوا به الذى هو أهداه وأهناه وأتقاه (٦) .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر : « الصدى » . والمثبت من سنن أبى داود ، وفى النهاية : « صدأ من حديد – ويروى : صدع – بفتحتين – أراد دوام لبس الحديد ، لاتصال الحروب فى أيام على ، وما مُنى به من مقاتلة الخوارج والبغاة وملابسة الأمور المشكلة ، والخطوب المعضلة ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : « وادفراه » تضجراً من ذلك ، ورواه أبو عبيد غير مهموز ، كأن الصدا لغة فى الصدع ، وهو اللطيف الجسم ، أراد أن علياً رضى الله عنه خفيف ، يخف إلى الحروب ولا يكسل ، لشدة بأسه وشجاعته » .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى الخلفاء ، الحديث ٤٦٥٦ : ٢١٢/٤ ، ٢١٤ ، وقال أبو داود : « والدفر النتن » .

(٣) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٩٧/٣ ، ٤٢٥/٥ .

(٥) فى مسند الإمام أحمد : « أهيأ » ، بالياء – ، وهو خطأ . و « أهنا » أصله « أهنأ » بالهمز ، وهو اسم تفضيل من هنؤ الشىء هناءة : تيسر من غير مشقة ولا عناء ، لكن قلبت همزته ألفاً للازدواج والمشاكلة مع « أهدى » و « أتقى » ، فمعنى أهنا على هذا : أيسر . و « أتقى » : اسم تفضيل من الاتقاء .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٢٢/١ ؛ وينظر أيضاً : ١٣٠/١ ، ١٣١ ، ٣٨٥ ، ٤١٥ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضه ، الحديث ١٩ ، ٢٠ ، ٩/١ .

وقوله : (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) ، أى : يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك ، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : كلحم الخنزير والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى (١) .

وقال بعض العلماء : كل ما أحل الله تعالى فهو طيب نافع فى البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين .

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له .

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حِلِّ المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها ، إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها ، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته . وفيه كلام طويل أيضا .

وقوله : (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) ، أى : إنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طُرُق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة (٢) » . وقال لأميريه مُعَاذ وأبى موسى الأشعرى ، لما بعثهما إلى اليمن : « بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا (٣) » . وقال صاحبُه أبو بَرْزَةَ الأسلمى : إنى صَحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت تيسيره (٤) .

وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم ، فوسّع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهّلها لهم ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى ما حدَّثت به أنفسها ، ما لم تقُل أو تعمَل (٥) » ؛ وقال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه (٦) » ولهذا قد (٧) أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) . وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلتُ ، قد فعلتُ (٨) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٢٩ : ١٣/٦٦ .

(٢) مسند أحمد عن أبى أمامة : ٥/٢٦٦ . وعن عائشة : ٦/١١٦ ، ٢٣٣ .

(٣) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصى إمامه : ٤/٧٩ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير : ٥/١٤١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٢٠ ، ٤٢٣ .

(٥) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب الطلاق فى الإغلاق والكره والسكران : ٧/٥٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر : ١/٨١ ، ٨٢ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسى ، الحديث : ٢٠٤٥ : ١/٦٥٩ .

(٧) فى المخطوطة : « ولهذا قال : أرشد الله ... » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٨) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه » : ١/٨١ .

وقوله : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه) ، أى : عظموه ووقروه ، (واتبعوا النور الذى أنزل معه) ، [أى : القرآن والوحى الذى جاء به مبلغا إلى الناس] ، (أولئك هم المفلحون) ، أى : فى الدنيا والآخرة .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (قل) يا محمد : (يا أيها الناس) ، وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربى والعجمى ، (إنى رسول الله إليكم جميعا) ، أى : جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى : (قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىَّ هذا القرآنُ لأنذركم به ومن بلغ(١) ، وقال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (٢) وقال تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ(٣) . والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورةً أنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ رسولُ الله إلى الناس كلهم .

قال البخارى رحمه الله فى تفسير هذه الآية : حدثنا عبد الله ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، حدثنى بُسر بن عُبَيد الله ، حدثنى أبو إدريس الخولانى قال : سمعت أبا الدرداء ــ رضى الله عنه ــ يقول : كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة، فأغضب أبو بكر عمرَ ، فانصرف عمر عنه مغضبا ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فقال أبو الدرداء : ونحن عنده ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم هذا فقد غامَرَ ــ أى : غاضب وحاقد(٤) ــ قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلَّم وجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم [الخبر (٥) ــ قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم] وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [هل أنتم تاركولى صاحبى ؟](٥) إنى قلت : يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم : كذبت . وقال أبو بكر : صدقت(٦) » . انفرد به البخارى .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٢٠ .
(٤) كذا فسر ابن كثير « غامر » . وفى النهاية : « أما صاحبكم فقد غامر » ، أى خاصم غيره . ومعناه دخل فى غمرة الخصومة ، وهى معظمها ، والمغامر الذى يرمى نفسه فى الأمور المهلكة » .
(٥) من صحيح البخارى .
(٦) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأعراف : ٦/٧٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن مقسم ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي — ولا أقوله(١) فخرا — : بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئا (٢) » : إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا بكر بن مُضَر ، عن ابن (٣) الهاد ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تَبُوك ، قام من الليل يصلي ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم : « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي ، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان مَن قبلي إنما يُرسَل إلى قومه : ونصرت على العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملىء مني رعبا . وأحلت لي الغنائم آكلها ، وكان مَن قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها : وجعلت [لي] الأرض مساجد وطهورا ، أينما أدركتني الصلاة تَمَسَّحتُ وصليتُ ، وكان مَن قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في بِيَعهم وكنائسهم . والخامسة هي ما هي . قيل لي : « سل ؛ فإن كل نبي قد سأل » . فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله (٤) » . إسناد جيد قوي أيضا ولم يخرجوه .

[وقال] أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سَمِع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني ، فلم يؤمن بي ، لم يدخل الجنة (٥) » .

وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر ، عن أبي موسى (٦) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار »

وقال الإمام احمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس — وهو سليم بن جبير — عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنه قال] : « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي أو نصراني ، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار (٧) » . تفرد به أحمد .

---

(١) في المسند : « ولا أقولهن » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠١/١ . وقد رواه الإمام أحمد أيضاً من وجه آخر ، ينظر المسند : ٢٥٠/١ .

(٣) في مخطوطة الأزهر : « عن أبي الهاد » . وهو خطأ ، واسمه « يزيد بن الهاد » ، ينظر التهذيب ، ترجمة بكر بن مضر : ٤٨٧/١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٢٢/٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٩٦/٤ .

(٦) كذا قال : « عن أبي موسى » ، ولم نجده ، وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة . وفي الصحيح رواية أخرى عن أبي موسى . ينظر مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد : ٩٣/١ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٥٠/٢ . وما بين القوسين منه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي برده ، عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحِل لمن كان قبلى ، ونُصرتُ بالرعب شهراً ، وأعطيت الشفاعة ــ وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة ، وإنى قد اختبأت شفاعتى ، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئا (١) » .

وهذا أيضا إسناد صحيح ، ولم أرهم خرجوه ، والله أعلم وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضا ، من حديث جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامة (٢) » .

وقوله : (الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت) صفة الله تعالى : فى قوله : (رَسُولُ الله) ، أى : الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه ، الذى بيده الملك والإحياء والإماته ، وله الحكم .

وقوله : (فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى) ، أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ، (النبى الأمى) ، أى : الذى وُعِدتم به وبُشرتم به فى الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم ، ولهذا قال (النبىّ الأمى الذى يؤمنُ بالله وَكلماتِه) ، أى : يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه (واتبعوه) ، أى : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، (لعلكم تهتدون) ، أى : إلى الصراط المستقيم .

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقولُ تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتّبعون الحقّ ويَعدلون به ، كما قال تعالى : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)(٣) ، وقال تعالى : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ، وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب (٤) وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)(٥) ... الآية ، وقال تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون(٦) به) ... الآية ، وقال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) (٧) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٤١٦ .
(٢) مضى تخريج الحديث فى سورة النساء ، عند الآية ٤٣ . ينظر ٢/٢٨١ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١١٣ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٩٩ .
(٥) سورة القصص ، الآيات : ٥٢ ــ ٥٤ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٢١ .
(٧) سورة الإسراء ، الآيات : ١٠٧ ، ١٠٩ .

وقد ذكر ابن جرير فى تفسير ها خبراً عجيباً ، فقال : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج قوله : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ، قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا – وكانوا اثنى عشر سبطا – تبرأ سبط منهم مما صنعوا ، واعتذروا ، وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح الله لهم نَفَقاً فى الأرض ، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين ، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا – قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض، فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا (١) ، « ووعد الآخرة » : عيسى بن مريم (٢) – قال ابن جريج : قال ابن عباس : ساروا فى السرب سنة ونصفا (٣) .

وقال ابن عيينة ، عن صدقة أبى الهُذَيل ، عن السدى : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ، قال : قوم بينكم وبينهم نهر من (٤) شُهْد .

وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله فى سورة « البقرة » ، وهى مدنية ، وهذا السياق مكى ، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته ، ولله الحمد والمنة (٥) .

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين) ، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : (واسألهم) ، أى : واسأل هؤلاء اليهود [الذين] بحضرتك عن قصة أصحابهم

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٠٤ .
(٢) لفظ الطبرى : « ووعد الآخرة : عيسى بن مريم ، يخرجون معه » .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٥١ : ١٣/١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٥٠ : ١٣/١٧٣ .
(٥) ينظر تفسير الآية رقم ٦٠ من سورة البقرة : ١/١٤٣ / ١٤٤ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٦٥ . وينظر : ١/١٥٠ – ١٥١ .

الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة . وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحلّ بهم ماحل بإخوانهم وسلفهم . وهذه القرية هى « أيلة » ، وهى على شاطىء بحر القلزم .

قال محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) ، قال : هى قرية يقال لها « أيلة » بين مَدْين والطور (١) .

وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى .

وقال عبد الله بن كثير القارىء ، سمعنا أنها أيلة (٢) .

وقيل : هى مدين ، وهو رواية عن ابن عباس .

وقال ابن زيد : هى قرية يقال لها . « مقنا » بين مدين (٣) وعيْنُونى .

وقوله : (إذ يعدون فى السبت) ، أى : يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك .

(إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس : أى ظاهرة على الماء (٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس (شرّعاً) : من كل مكان (٥) .

قال ابن جرير : وقوله : (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) ، أى : نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم فى اليوم المحلل لهم صيده — (كذلك نبلوهم) : نختبرهم — (بما كانوا يفسقون) ، يقول : بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم (٦) عنها .

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله ، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام .

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله ابن بَطّة رحمه الله : حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم ، حدثنا الحسن بن محمد ابن الصباح الزعفرانى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل » .

وهذا إسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب فى تاريخه (٧) — ووثقه ، وباقى رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٥٢ : ١٣/١٨٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٥٣ : ١٣/١٨٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٦٠ : ١٣/١٨١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٦٢ : ١٣/١٨٣ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٦٣ : ١٣/١٨٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٣/١٨٣ ، ١٨٤ .
(٧) تاريخ بغداد : ٥/٩٨ ، ٩٩ .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة ؛ وفرقة نَهَت عن ذلك ، واعتزلتهم ؛ وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً) ، ؟ أى : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم ؛ قالت لهم المنكرة : (معذرةٌ إلى ربكم) — قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقديره : هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب ، أى : نفعل ذلك (معذرةً إلى ربكم) ، أى : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — (ولعلهم يتقون) يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ماهم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فاذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى : (فلما نسوا ماذكروا به) ، أى : فلما أبى الفاعلون المنكرَ قبولَ النصيحة ، (أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا) ، أى : ارتكبوا المعصية (بعذاب بئيس) ، فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيما فيُذَمّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين :

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً) ، هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها : « أيلة » ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر ، فاذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها . فمضى (١)على ذلك ماشاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ؛ فلم يزدادوا إلا غيّا وعتوّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم [قد] حق عليهم العذاب ، (لم تعظون قوما الله مهلكهم) ، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) ، وكلّ قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : (لم تعظون قوما الله مهلكم) والذين قالوا : (معذرة إلى ربكم) وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان ، فجعلهم قردة (٢) .

وروى العوفى ، عن ابن عباس قريبا من هذا (٣) .

---

(١) فى تفسير الطبرى : « فكثوا بذلك ما شاء الله » .

(٢) فى تفسير الطبرى : « فجعلهم قردة وخنازير » . ينظر الأثر : ١٥٢٦٦ : ١٨٦١/٣ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٦٧ : ١٣/١٨٦ ، ١٨٧ .

وقال حماد بن زيد ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) ، قال : ما أدرى أنجا الذين قالوا : « أتعظون قوما الله مهلكهم » ، أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا ، فكسانى حُلة (١).

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج ، حدثنى رجل ، عن عكرمة قال : جئت ابن عباس يوما وهو يبكى ، وإذا المصحف فى حجره ، فأعظمت أن أدنو ، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدّمت فجلست ، فقلت : ما يبكيك ياأباعباس(٢) جعلنى الله فداك . قال : فقال : هؤلاء الورقات . قال : وإذا هو فى « سورة الأعراف » ، قال : تعرف أيلة قلت : نعم . قال : فانه كان بها حى من يهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا(٣) بعدكد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم السبت شرّعا بيضاً سمانا كأنها الماخض (٤)، تَتَبَطّح ظهورها لبطونها (٥) بأفنيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ، فخذوها فيه ، وكلوها فى غيره من الأيام . فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نُهيتم عن أكلها وأخذها ، صيدها يوم السبت . فكانوا كذلك ، حتى جاءت الجمعة المقبلة ، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين ، وتنحّت ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت . وقال الأيمنون : ويلكم . اللهَ ، [الله](٦) ننهاكم أن (٧)تتعرضوا لعقوبة الله ، وقال الأيسرون : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) ؟ قال الأيمنون : (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) ، إن ينتهوا فهو أحب (٨) إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم . فمضوا على الخطيئة ، وقال الأيمنون : فقد فعلتم ، يا أعداء الله . والله لا نُبَايِتُكم (٩) الليلة فى مدينتكم ، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ماعنده من العذاب . فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا ، فلم يجابوا ، فوضعوا سلما ، وأعلوا سور المدينة رجلا ، فالتفت إليهم فقال : أى عباد الله ، قردةٌ والله تَعَاوَى لها أذناب . قال : ففتحوا فدخلوا عليهم ، فعرفت القرود أنسابها من الإنس ، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتَتَشَمّ ثيابه وتبكى ، فتقول : ألم ننهكم عن كذا ؟ فتقول برأسها(١٠) ، أى نعم . ثم قرأ ابن عباس : (فلما نسوا

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٦٩ : ١٣/١٨٧ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « يا ابن عباس » . والمثبت عن مخطوطة الأزهر ، وقد كان عبد الله عباس يكنى « أبا عباس » بابنه عباس . ينظر أسد الغابة ، الترجمة ٣٠٣٥ : ٣/٢٩٠ بتحقيقنا .

(٣) فى المخطوطة : « حتى يعصو » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٤) الماخض : التى قد دنا ولا دها .

(٥) فى المخطوطة : تتنطح . والمثبت من تفسير الطبرى . وتتبطح : تتمرغ فى البطحاء .

(٦) عن تفسير الطبرى .

(٧) فى مخطوطة الأزهر : « ننهاكم عن لا » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٨) نص الطبرى : « ولعلهم يتقون ، أى ينتهون ، فهو أحب إلينا » . وهو غير مستقيم . وصوابه ما فى مخطوطة الأزهر .

(٩) فى مخطوطة الأزهر : « لنبايتنكم » ، وما أثبتناه هو الصواب ، على الرغم من أن نص المخطوطة يوافق مخطوطة الطبرى ، والدر المنثور ٣/١٣٧ . فسياق الرواية يقتضى أن هؤلاء القوم اعتزلوهم فلم يبايتوهم فى مدينتهم . وقد مال إلى هذا أيضاً السيد محقق تفسير الطبرى .

(١٠) تقول برأسها : أى تشير .

ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) ، قال : فأرَى الذين نَهَوْا قد نجوا ، ولا أرى الآخرين ذُكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال : قلت : جعلني الله فداك ، ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه ، وخالفوهم وقالوا : (لم تعظون قوما الله مهلكهم) ؟ قال : فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين (١) .

وكذا روى مجاهد ، عنه (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز ، عن مالك ، قال : زعم ابن رُومان أن قوله تعالى : (تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) ، قال : كانت تأتيهم يوم السبت ، فاذا كان المساء ذهبتْ ، فلا يُرَى منها شيء إلى يوم السبت الآخر . فاتخذ لذلك رجل خيطا وَوَتدا ، فربط حوتا منها فى الماء يوم السبت ، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجد الناس ريحه ، فأتوه فسألوه عن ذلك ، فجحَدهم ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : « فإنه جلد حوت وجدناه » . فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك — ولا أدرى لعله قال : ربط حوتين — فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاءوا فسألوه ، فقال لهم : « لو شئتم صنعتم كما أصنع » ، فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل مافعل ، حتى كثر ذلك . وكانت لهم مَدينة لها ربَض (٣) يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم . فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم ، يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم ، فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوّروا عليهم ، فاذا هم قردة ، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ، ويدنو منه ويتمسح به (٤) .

وقد قدمنا فى سورة « البقرة (٥) » من الآثار فى خبر هذه القرية مافيه مَقْنَع وكفاية ، ولله الحمد والمنة .

القول الثانى : أن الساكتين كانوا من الهالكين :

قال محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : ابتدعوا السبت فابتلوا فيه ، فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم البست شَرَعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر . فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تُر حتى السبت المقبل ، فاذا جاء السبت جاءت شُرعا ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه (٦) ثم ، ضرب له وتداً فى الساحل ، وربطه وتركه فى الماء . فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ، ولا ينهاه منهم أحد ، إلا عصبة منهم نهوه ، حتى ظهر ذلك فى الأسواق ، ففُعل علانية . قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا . قالوا معذرة

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٧٢ : ١٣/١٨٨ — ١٩٠ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٧٤ : ١٣/١٩١ .

(٣) الربض — بفتحتين — : فضاء حول المدينة . وفى تفسير الطبرى : « ... لها ربض ، فغلقوها » .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٧٧ : ١٣/١٩٣ .

(٥) ينظر تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة : ١/١٥٠ — ١٥٣ .

(٦) فى تفسير الطبرى : « فخزمه بأنفه » . وخزم الدابة : ثقب فى أنفها ثقباً .

إلى ربكم) ، فقالوا : سخط أعمالهم[1] (ولعلهم يتقون : فلما نسوا ما ذكروا به) إلى قوله : (قردة خاسئين) ، قال ابن عباس : كانوا أثلاثا : ثلث نهوا ، وثلث قالوا : (لم تعظون قوما الله مهلكهم) ، وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم[2] .

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين أولى من القول بهذا ، لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) ، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا ،

و (بئيس) فيه قراءات[3] كثيرة ، ومعناه فى قول مجاهد « الشديد » ، وفى رواية : « أليم » . وقال قتادة : « موجع » ، والكل متقارب ، والله أعلم .

وقوله : (خاسئين) ، أى : ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(تأذن)[4] : تفعّل من الإذن أى : أعلم ، قاله مجاهد . وقال غيره : أمر .

وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا تُلُقِّيَت باللام فى قوله : (ليبعثن عليهم) ، أى : على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) ، أى : بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم .

ويقال : إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج ـ ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ، ثم صاروا فى قهر النصارى وإذلالهم إياهم

---

(١) نص الطبرى : « قالوا معذرة إلى ربكم ، فى سخطنا أعمالهم » .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٢٧٨ : ١٣/ ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٤/ ٤١٣ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى القاموس المحيط : « أذن بالشىء ـ كسمع ـ إذنا ، بالكسر ، ويحرك ، وأذانا ، وأذانة : علم به . وفى تفسير الطبرى : « وهو تفعل من الإيذان ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

أذن اليوم جيرتى بخفوف * صرموا حبل آلف مألوف

يعنى بقوله : أذن : أعلم » .

ولم نجد فى المعاجم أذن ـ فعلا ثلاثيا ـ بمعنى أعلم ، وإن كان يؤكد نص مخطوطة الأزهر ، وهو « تفعل من الإذن » فيكون « الإذن » مصدرا لأذن الثلاثى بمعنى : أعلم .

وأخذهم منهم الجزى(١) والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت صغاره(٢) وذمته يؤدون الخراج والجزى.

قال العوفى، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: هى المسكنة، وأخذ الجزية منهم (٣).

وقال على بن أبى طلحة، عنه: هى الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، إلى يوم القيامة (٤).

وكذا قال سعيد بن جُبَير، وابن جُريج، والسدى، وقتادة.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية (٥).

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: (إن ربك لسريع العقاب)، أى: لمن عصاه وخالف شرعه، (وإنه لغفور رحيم)، أى: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمما، أى: طوائف وفرقاً، كما قال: (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل: اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنابكم لفيفا)(٦).

(١) الجزى – بكسر ففتح – واحدها: جزية.
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر. وفى مخطوطة دار الكتب «١» تفسير: «صفاره»، بالفاء.
(٣) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٣٠٠: ١٣/٢٠٥.
(٤) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٢٩٩: ١٣/٢٠٥.
(٥) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٣٠٨: ١٣/٢٠٦، ٢٠٧.
(٦) سورة الإسراء، آية: ١٠٤.

(منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك) ، أى : فيهم الصالح وغير ذلك ، كما قالت الجن : (وأنامنا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً[١] ، (وبلوناهم) أى اختبرناهم (بالحسنات والسيئات) أى : بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة . والعافية والبلاء ، (لعلهم يرجعون) .

ثم قال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) ، يقول تعالى : فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح ، خَلْف آخر لاخير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ــ وقال مجاهد : هم النصارى[٢] ــ وقد يكون أعم من ذلك ، (يأخذون عرض هذا الأدنى) ، أى : يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوّفون أنفسهم ويَعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه : ولهذا قال : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) ــ كما قال سعيد بن جبير : يعملون الذنب ، ثم يستغفرون الله منه ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه[٣] .

وقال مجاهد فى قوله : (يأخذون عرض هذا الأدنى) ، قال : لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه ، حلالا كان أو حراماً ، ويتمنون المغفرة ، ويقولون : « سيغفر لنا » وإن يجدوا عرضاً مثله يأخذوه[٤] .

وقال قتادة فى (فخلف من بعدهم خَلْف) ، إى والله ، لَخَلْف سوء ، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم ، ورثهم الله وعَهِد إليهم ، وقال الله فى [آية] أخرى : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) [٥] ، قال : : (يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا) ، تمنوا على الله أمانى ، وغِرَّة يغترّون بها ــ (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) ، لا يشغلهم شيء عن شيء ، ولا ينهاهم شيء عن ذلك ، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه ، ولا يبالون حلالا كان أو حراما[٦] » .

وقال السدى قوله : (فخلف من بعدهم خلف) إلى قوله : (ودرسوا ما فيه) ، قال : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم ، وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يَرْتَشى[٧] ، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى ، فيقال له : ما شأنك ترتشى فى الحكم ؟ فيقول : « سيغفر لى » ، فيطعُن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع ، فإذا مات ، أو نُزِع ، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه ، فرتشى ، يقول : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه[٨] » .

---

(١) سورة الجن ، آية : ١١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣١٣ : ١٣/ ٢١٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣١٤ : ١٣/ ٢١٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٢٠ : ١٣/ ٢١٢ .
(٥) سورة مريم ، آية : ٥٩ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٢١ : ١٣/ ٢١٣ .
(٧) يعنى : وأن لا يرتشى القاضى . هكذا النص فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى مخطوطة الطبرى . وقد أثبت السيد المحقق ما فى الطبعة السابقة ، وهو : أن لا يفعلوا ولا يرتشوا » ، وقال إنه الصواب ؟
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٢٣ : ١٣/ ٢١٣ . وللأثر بقية ، هى : « وأما « عرض الأدنى » ، فعرض الدنيا من المال » .

قال الله تعالى : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) ، يقول تعالى منكرا عليهم فى صنيعهم هذا ، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبيّنن الحق للناس ولا يكتمونه [كقوله : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه] فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون)

وقال ابن جريج : قال ابن عباس : (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) ، قال : فيما يُوجِبُون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ، ولا يتوبون منها .

وقوله تعالى : (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) ، يرغبهم تعالى فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه ، أى : وثوابى وما عندى(١) خير لمن اتقى المحارم ، وترك هوى نفسه ، وأقبل على طاعة ربه .

(أفلا تعقلون) ، يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندى عَقْل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى : (والذين يمسّكون بالكتاب) ، أى : اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره (وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين) .

* وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) ، يقول : رفعناه ، وهو قوله : (ورفعنا فوقهم الطور (٢) بميثاقهم) :

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رفعته الملائكة فوق رءوسهم :

وقال القاسم بن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمره الله تعالى — أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقربوها حتى ينتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، قال : رفعته الملائكة فوق رءوسهم . رواه النسائى بطوله(٣) :

وقال سنيد بن دواد فى تفسيره ، عن حجاج بن محمد ، عن أبى بكر بن عبد الله قال : هذا كتاب ، أتقبلونه بما فيه ، فإن فيه بيان ما أحلّ لكم وما حرم عليكم ، وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا : انشر علينا ما فيها ، فإن كانت فرائضها [يسيرة](٤) ، وحدودها خفيفة قبلناها . قال : اقبلوها بما فيها . قالوا : لا ، حتى نعلم ما فيها ، كيف حدودها

---

(١) فى المخطوطة : « وخير ما عندى » .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٥٤ .
(٣) لم نجده فيما طبع من سنن النسائى .
(٤) من تفسير الطبرى .

وفرائضها ، فراجعوا موسى مرارا ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء ، حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون مايقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم(١) بهذا الجبل ـ قال : فحدثنى الحسن البصرى قال : لما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل ساجدا على حاجبه الأيسر ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل ، فَرَقا من أن يسقط ، فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، يقولون : هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة ـ قال أبو بكر : فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبَه بيده ، لم يبق على وجه الأرض جبَل ولا شجَر ولا حَجَر إلا اهتز ، فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير ، ولا كبير ، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفَض لها رأسه(٢)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرّية بنى آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فَطَرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ــ وفى رواية : على هذه الملة ــ فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم (٣) » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى السرى ابن يحيى : أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم ، عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعَ غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ماقتَلوا المُقَاتلة ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد عليه ، ثم قال : مابال أقوام يتناولون الذرية ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : إن خياركم أبناءُ المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا وُلدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها ــ قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) ـ الآية (٤) .

---

(١) فى مخطوطة الأزهر : « لا زمينكم بهذا الحيط » ، والمثبت من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٣٧ : ١٣/٢١٩ .
(٣) سبق تخريج حديث الصحيحين ، وحديث مسلم فى : ٢/٣٦٨ ، ٣/٢٨٦ . وانظر شرح الغريب هناك .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٥٣ : ١٣/٣٢١ .

وقد رواه الإمام أحمد ، عن إسماعيل ابن عُلَيّة ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن البصرى [١] ، به : وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن قال : حدثنا الأسود بن سريع ، فذكره — ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك :

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صُلْب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن أبى عمران الجَوْنى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على [الأرض] من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بى [٢] » :

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث شعبة ، به :

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير — يعنى ابن حازم — عن كلثوم ابن جابر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان : يعنى عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قِبَلاً [٣] ، قال : (ألست بربكم؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن يقولوا [٤] يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا [٤] (إلى قوله : (المبطلون) [٥] »

وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه ، عن محمد بن عبد الرحيم — صاعقة — عن حسين بن محمد المروزى ، به : ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد ، به ، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفا : وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره ، عن جرير بن حازم ، عن كلثوم بن جَبْر ، به : وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر [٧] » . هكذا قال ، وقد رواه عبدالوارث ، عن كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فوقفه [٨] . وكذا رواه إسماعيل ابن علية ووكيع [٩] عن ربيعة بن كلثوم عن

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٣٥/٣ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١٢٧/٣ .
(٣) ينظر شرح هذه الكلمة فى : ١١٢/١ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر : « يقولوا » بالياء . وهى قراءة أبى عمرو ، وأما قراءة باقى السبعة فبالتاء على الخطاب . ينظر البحر المحيط : ٤٢١/٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٧٢/١ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٣٨ : ٢٢٢/١٣ .
(٧) المستدرك ، كتاب الإيمان : ٢٧/١ ، ٢٨ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٣٩ : ١٧٢/١٣ .
(٩) أثر إسماعيل ابن علية فى تفسير الطبرى برقم ١٥٣٤١ : ٢٢٤/١٣ ، وأثر وكيع برقم ١٥٣٥٠ : ٢٢٩/١٣ .

جبير ، عن أبيه ، به : وكذا رواه عطاء بن السائب[١] ، وحبيب بن أبي ثابت[٢] ، وعلى بن بذيمة[٣] عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قوله وكذا رواه العوفى[٤] وعلى بن أبي طلحة[٥] عن ابن عباس . فهذا أكثر وأثبت والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن أبى هلال عن أبى جَمْرَة[٦] الضُّبَعى ، عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر ، وهو فى آذىّ من الماء[٧] .

وقال أيضا : حدثنا على بن سهل ، حدثنا ضمرة بن ربيعة ، حدثنا أبو مسعود عن جويبر قال : مات ابن للضحاك ابن مزاحم ، ابن ستة أيام . قال : فقال : يا جابر ، إذا أنت وضعت ابنى فى لحده ، فأبرز وجهه ، وحُل عنه عقده ، فإن ابنى مُجْلَس ، ومسئول . ففعلت به الذى أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله ، عمّ يُسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يُسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم . قلت يا أبا القاسم ، وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم فى صلبه . فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به ، نفعه الميثاق الأول . ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف[٨] به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر ، مات على الميثاق الأول على الفطرة[٩] .

فهذه الطرق كلها مما تقوّى وقْف هذا على ابن عباس ، والله أعلم .

حديث آخر ، وقال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبى طيبة ، عن سفيان بن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك [و][١٠] عن منصور ، عن مجاهد — عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريّاتهم) ، قال : أخذوا من ظهره ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : (ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .) ، قالت الملائكة : (شهدنا أن يقولوا[١١] يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٤٢ ، ١٥٣٤٣ : ١٣/٢٢٤ – ٢٢٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٤٤ : ١٣/٢٢٧ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٤٨ : ١٣/٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٦١ : ١٣/٢٢٧ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٦٠ : ١٣/٢٢٦ .
(٦) فى المخطوطة : « أبى حمزة » . وهو خطأ ، ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٥١ : ١٣/٢٢٩ . والتهذيب : ١٠/٤٣١ .
(٧) فى المخطوطة : « أذى » . والآذى : الموج الشديد . والآذى أيضاً — كما يقول ابن شميل — : الأطباق التى تراها ترفعها من متنه الريح دون الموج . وهذا التفسير أقرب .
(٨) فى المخطوطة : « فلم يقربه » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٥٢ : ١٣/٢٣٠ ، ٢٣١ .
(١٠) الواو من تفسير الطبرى .
(١١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وقد سبق أن ذكرنا أنها قراءة أبى عمرو .

أحمد بن أبي طيبة هذا هو : أبو محمد الجرجاني قاضي قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه . وقال ابن عدي : حدث بأحاديث أكثرها غرائب[١] .

وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمرو ، قوله[٢] وكذا رواه جرير[٣] ، عن منصور ، به . وهذا أصح ، والله أعلم .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا روح — هو ابن عبادة — حدثنا مالك — وحدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك — عن زيد بن أبي أنيسة : أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره ، عن مسلم بن يَسَار الجُهَنِي : أن عمر بن الخطاب سُئِل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ... الآية ، فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُئِل عنها ، فقال : إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء [للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء[٤]] للنار وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خلق الله [العبد] للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار[٥] » .

وهكذا رواه أبو داود[٦] عن القعنبي — والنسائي عن قتيبة — والترمذي عن إسحاق بن موسى ، عن معن — وابن أبي حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب — وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد ابن جعفر — وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، من رواية أبي مصعب الزبيري ، كلهم عن الإمام مالك بن أنس ، به .

قال الترمذي : « وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يَسَار لم يسمع عُمَر » . وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة — زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة .

وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه ، عن محمد بن مصفى ، عن بقية ، عن عمر بن جُعْثُم القرشي ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار الجهني ، عن نعيم ابن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ، وقد سئل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) ... فذكره .

---

(١) في المخطوطة : « بأحاديث كثيرة غرائب » . والمثبت من التهذيب : ١/٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري من رواية يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، الأثر ١٥٣٥٥ : ١٣/٢٣٣ .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٣٥٦ : ١٣/٢٣٣ .

(٤) عن مسند الإمام أحمد .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤ ، ٤٥ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، الحديث ٤٧٠٣ : ٤/٢٢٦ ، ٢٢٧ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأعراف ، الحديث ٥٠٧١ : ٨/٤٥٣ – ٤٥٦ .

وقال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جعثم يزيد(١) بن سنان أبو فروة الرهاوى ، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك ، والله أعلم .

قلت : الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر « نعيم بن ربيعة » عمدا لما جهل حاله(٢) ولم يعرفه ، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث ، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ، ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ، ويقطع كثيرا من الموصولات ، والله أعلم .

حديث آخر ، قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نَسَمَة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا(٣) من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أىْ ربّ ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريّتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيص ما بين عينيه ، فقال : أىْ ربّ ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذُرّيتك ، يقال له : داود . قال : رب ، وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال أىْ ربّ ، زده من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أوَ لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخَطِىءَ آدم فخَطِئت ذريته » .

ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وقد رُوِى من غير وجه عن أبى هريرة ، عن النبى(٤) صلى الله عليه وسلم .

ورواه الحاكم فى مستدركه ، من حديث أبى نُعَيم الفضل بن دكين ، به ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه(٥)

ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم ، هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب ، لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال : كى تشكر نعمتى . وقال آدم : يارب ، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نورا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » . ثم ذكر قصة داود ، كنحو ما تقدم(٦) .

---

(١) فى المخطوطة : « ... جعثم بن زيد بن سنان ... » وينظر التهذيب : ١١/٣٣٥ .

(٢) فى التهذيب ١٠/٤٦٤ : « نعيم بن ربيعة الأزدى . عن عمر بن الخطاب فى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) وعنه مسلم بن يسار الجهنى ، ذكره ابن حبان فى الثقات » .

(٣) الوبيص : البريق .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأعراف ، الحديث ٥٠٧٢ : ٨/٤٥٧ – ٤٥٩ .

(٥) المستدرك ، تفسير سورة الأعراف : ٢/٣٢٥ .

(٦) الدر المنثور : ٣/١٤٢ ، ١٤٣ .

حديث آخر ، قال عبد الرحمن بن قتادة النَّصْرى ، عن أبيه ، عن هشام بن حكيم رضى الله عنه : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتبدأ الأعمال ، أم قد قُضِى القضاء ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض[(١)] بهم فى كفيه ، ثم قال : « هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار » ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » .

رواه ابن جرير [(٢)] ، وابن مردويه من طرق عنه .

حديث آخر ، روى جعفر بن الزبير [(٣)] — وهو ضعيف — عن القاسم ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله ، فقال : يا أصحاب اليمين . فقالوا : لبيك وسعديك . قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . قال : يا أصحاب الشمال . قالوا : لبيك وسعديك . قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . ثم خلط بينهم ، فقال قائل : يا رب ، لم خلطت بينهم . قال : « لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم فى صلب آدم » . رواه ابن مردويه .

أثر آخر ، قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب فى قول الله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) ، الآية والتى بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعا ، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فجعلهم [أرواحا] ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، .. الآية ، قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة : « لم نعلم بهذا » . اعلموا أنه لا إله غيرى ، ولا رب غيرى ، فلا تشركوا بى شيئاً ، وإنى سأرسل إليكم رسلا يذكرونكم [(٤)] عهدى وميثاقى ، وأنزل عليكم كتبى . قالوا : « نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك » . فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك . فقال : يا رب ، لو سَوّيتَ بين عبادك ؟ قال : إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرُج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذى يقول تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) .. الآية ، وهو الذى يقول : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله) الآية ، ومن ذلك قال : (هذا نذير من النذر الأولى) ، ومن ذلك قال : (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) ... الآية .

---

(١) أفاض بهم فى كفيه ، أى : بسطهم متفرقين .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٧٧ : ١٣/٢٤٤ .
(٣) قال الذهبى فى ميزان الاعتدال ١/٤٠٦ : « كذبه شعبة ، وقال ابن معين : ليس بثقة . وقال البخارى : تركوه . وقال ابن عدى : الضعف على حديثه بين » .
(٤) فى المخطوطة : « ينذرونكم » . والمثبت من المسند ، ومجمع الزوائد : ٧/٢٥ .

رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه ، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وابن مَرْدُويه فى تفاسيرهم ، من رواية أبى جعفر الرازى ، به . وروى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث ، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها ، وبالله المستعان .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار : وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ــ وفى حديث عبد الله ابن عمرو ــ وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد ، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمَار المُجاشعى ، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع . وقد فسر الحسن البصرى الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ، ولم يقل : « من آدم » ، (من ظهورهم) ، ولم يقل : « من ظهره » (ذرياتهم) ، أى : جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كما قال تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض)[1] ، وقال : (ويجعلكم خلفاء الأرض)[2] ، وقال : (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)[3] .

ثم قال : (وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) ، أى : أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا . والشهادة تارة تكون بالقول ، كما قال : (قالوا شهدنا على أنفسنا) ... الآية ، وتارة تكون حالا ، كما قال تعالى : (ماكان للمشركين أن يعمروا مسجد[4] الله شاهدين على أنفسهم بالكفر)[5] ، أى : حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذلك قوله تعالى : (وإنه على ذلك لشهيد)[6] ، كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كما فى قوله : (وآتاكم من كل ما سألتموه)[7] ، قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه : فإن قيل : إخبار الرسول به كاف فى وجوده . فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه على الفطرة التى فُطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : (أن يقولوا) ، أى : لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا) ، أى : التوحيد ، غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا) ... الآية .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .
(٢) سورة النمل ، آية : ٦٢ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٣٣ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والجحدرى . ينظر البحر المحيط : ١٨/٥ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ١٧ .
(٦) سورة العاديات ، آية : ٧ .
(٧) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قال عبد الرزاق ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ومنصور ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) ...الآية ، قال : هو رجل من بنى إسرائيل ، يقال له : بلعم بن أبَرَ : وكذا رواه شعبة وغير واحد ، عن منصور ، به[1] .

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : هو صيفى بن الراهب :

قال قتادة : وقال كعب : كان رجلا من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيما بيت المقدس مع الجبارين .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هو رجل من أهل اليمن ، يقال له : بَلْعَم ، آتاه الله آياته فتركها .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه فى الشدائد ، بعثه نبى الله موسى إلى ملك مَدْين يدعوه إلى الله ، فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام .

وقال سفيان بن عيينة ، عن حصين ، عن عمران[2] بن الحارث ، عن ابن عباس : هو بلعم بن باعر : وكذا قال مجاهد وعكرمة :

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا إسرائيل ، عن مغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : هو بلعام — وقالت ثقيف : هو أمية بن أبى الصلت[3] .

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٢٥٤–٢٥٥ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر : « عثمان بن الحارث » . وهو خطأ ، وعمران بن الحارث هو السلمى أبو الحكم الكوفى ، يروى عن ابن عباس وابن الزبير وابن عمر ، وعنه قتادة وسلمة بن كهيل وحصين بن عبد الرحمن ، قال عنه أبو حاتم : صالح الحديث . ينظر التهذيب : ٨/١٢٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٣٩٩ : ١٣/٢٥٥ ، وقال السيد محقق تفسير الطبرى إن هذه الجملة « وقالت ثقيف ... » : تحتمل أن تكون من كلام الطبرى ، أو بعض رواة الخبر عن ابن عباس ، أو من كلام ابن عباس . ورجح أنها من كلام بعض الرواة .

وقال شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، عن نافع بن عاصم ، عن عبد الله بن عمرو فى قوله : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه) ... الآية ، قال : هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت(١) .

وقد روى من غير وجه ، عنه : وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بايغة(٢) قبحه الله . وقد جاء فى بعض الأحاديث : « أنه ممن آمن لسانه ، ولم يؤمن قلبه » ؛ فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر(٣) ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعيد الأعور ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) ، قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذى تريدين؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل . فدعا الله ، فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان . فجاء بنوها فقالوا : : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليها ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث ، وسميت البسوس(٤) . غريب .

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمان بنى إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : « بلعام » ، وكان يعلم اسم الله الأكبر(٥) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٠٣ : ٢٥٦/١٣ . ونافع بن عاصم راوى الأثر عن عبد الله بن عمرو من ثقيف ، ولذلك قال له عبد الله بن عمر : « هو صاحبكم » .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام : ٣٠/٢ ، ٣٢ .

(٣) فى المخطوطة : « ابن أبى نمر » ، وهو خطأ ، فابن أبى نمر هو شريك بن عبد الله القرشى ، وهو متقدم يروى عن أنس ، وأما « ابن أبى عمر » فهو : محمد بن يحيى بن أبى عمر العدنى المكى ، يروى عن سفيان بن عيينة ، وعنه أبو حاتم ، ينظر الجرح : ١٢٤/١/٤ ، وما تقدم من هذا التفسير : ١٤٧/١ .

(٤) الدر المنثور : ١٤٥/٣ ، ١٤٦ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٠١ : ٢٥٥/١٣ ، والأثر ١٥٤١٢ : ٢٥٨/١٣ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤١٣ : ٢٥٨/١٣ .

وأغرب ، بل أبعد ، بل أخطأ من قال : كان قد أوتى النبوة فانسلخ منها : حكاه ابن جرير ، عن بعضهم ، ولا يصح : (١)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لما نزل موسى بهم — يعنى بالجبارين — ومن معه ، أتاه — يعنى بلعام — أتاه بنو عمه وقومه ، فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه : قال : إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ، ذهبت دنياى وآخرتى : فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخه [الله] ماكان عليه ، فذلك قوله تعالى : (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان) ... الآية (٢) :

وقال السدى : إن الله لما انقضت الأربعون سنة التى قال الله : (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) ، بعث يوشع بن نون نبيا ، فدعا بنى إسرائيل ، فأخبرهم أنه نبى ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه — وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له : « بلعم » وكان عالما ، يعلم الإسم الأعظم [المكتوم] ، فكفر — لعنه الله — وأتى الجبارين وقال لهم : لا ترهبوا بنى إسرائيل ، فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون ! وكان عندهم فيا شاء من الدنيا ، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتى النساء ، يعظمهن (٣) ، فكان ينكح أتانا له (٤) ، وهو الذى قال الله تعالى : (فانسلخ منها) (٥)

وقوله : (فأتبعه الشيطان) ، أى : استحوذ عليه وغلبه على أمره ، فمهما أمره امتثل وأطاعه ، ولهذا قال : (فكان من الغاوين) ، أى : من الهالكين الحائرين البائرين .

وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حيث قال : حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا محمد بن بكر ، عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن ، حدثنا جندب البجلى فى هذا المسجد : أن حذيفة — يعنى ابن اليمان ، رضى الله عنه — حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أتخوف عليكم رجُلٌ قرأ القرآن ، حتى إذا روئيت (٦) بهجته عليه وكان ردءُ (٧) الاسلام اعتراه (٨) إلى ما شاء الله : انسلخ منه ، ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك . قال قلت : يا نبى الله ، أيهما أولى بالشرك : المرمىّ أو الرامى ؟ قال : بل الرامى .

هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام (٩) كان من ثقات الكوفيين ، ولم يرم بشىء سوى الإرجاء ، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤١٥ ، ١٥٤١٦ : ١٣/٢٥٩ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤١٧ : ١٣/٢٦٠ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى : « من عظمهن » . ومعنى « يعظمهن » : يراهن عظيمات .

(٤) الأتان : أنثى الحمار .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤١١ : ١٣/٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٦) فى المخطوطة : « ريت » . والمثبت من الطبعات السابقة ، وفى مجمع الزوائد من مسند البزار : ١/١٨٨ : « حتى إذا رؤى عليه بهجته » .

(٧) فى مجمع الزوائد : « وكان ردىء . وفى الطبعات السابقة : « رداؤه الإسلام » .

(٨) فى المخطوطة : « اعتره » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٩) ينظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٤٣٨ ، ٤٣٩ ، والتهذيب : ٧/٤٣٢ ، ٤٣٣ . فقد وقع حول اسم « الصلت » خلاف ، ويبدو أن صوابه « الصلت بن مهران » فهو الذى يروى عن الحسن ، ويروى عنه محمد بن بكر .

وقوله تعالى : (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) ، يقول تعالى : (ولو شئنا لرفعناه بها) ، أى : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها ، (ولكنه أخلد إلى الأرض) ، أى : مال إلى زينة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنهى .

وقال أبو الزاهرية (١) فى قوله تعالى : (ولكنه أخلد إلى الأرض) ، قال تراءى (٢) له الشيطان على غَلْوة (٣) من قنطرة بانياس (٤) ، فسجدت الحمارة لله ، وسجد بلعام للشيطان . وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، وغير واحد .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : وكان من قصة هذا الرجل ما : ــ حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه : أنه سُئل عن هذه الآية : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) ، فحدث عن سيّار أنه كان رجلا يقال له بلعام [وكان قد أوتى النبوة](٥) وكان مجاب الدعوة ، قال : وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام ــ أو قال : الشام ــ قال : فرُعب الناس منه رعبا شديدا ، قال : فأتوا بلعام ، فقالوا : ادع الله على هذا الرجل وجيشه ! قال حتى أوَامر ربى ــ أو : حتى أوّامر (٦) ــ قال : فوامر فى الدعاء عليهم ، فقيل له : لا تدع عليهم ، فإنهم عبادى ، وفيهم نبيهم . قال : فقال لقومه : إنى قد وامرت ربى فى الدعاء عليهم ، وإنى قد نُهيت ؛ فأهدوا له هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع عليهم . فقال : حتى أوَامر : فوَامر ، فلم يَحُرُ إليه (٧) شىء . فقال : قد وامرت فلم يَحُرْ إلىّ شىء ! فقالوا : لوكره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرةَ الأولى : قال : فأخذ يدعو عليهم ، فإذا دعا عليهم جرَى على لسانه الدعاء على قومه ، وإذا أراد [أن يدعو] أن يُفْتَح لقومه ، دعا أن يفتح لموسى وجيشه ــ أو نحوا من ذا إن شاء الله : قال : فقالوا : مانراك تدعو إلا علينا : قال : ماجرى على لسانى إلا هكذا ، ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لى ، ولكن سأدلكم على أمر عَسَى أن يكون فيه هلاكهم : إن الله يُبغض الزنا ، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا ، ورجوت أن يهلكهم الله ، فأخرجوا النساء يَسْتقبلنَهم ؛ فإنهم قوم مسافرون ، فعسى أن يزنوا فيهلكوا . قال : ففعلوا : قال : فأخرجوا النساء يستقبلنهم : قال :وكان للملك ابنة ، فذكر من عظَمها ما الله أعلم به ! قال : فقال أبوها ــ أو بلعام ــ : لا تُمكِّنِى نفسك إلا من موسى ! قال : ووقعوا فى الزنا : قال وأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل ، قال : فأرادها على نفسه . فقالت : ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى . قال : فقال : إن منزلتى كذا وكذا ، وإن من حالى كذا وكذا : قال : فأرسلت إلى أبيها تستأمره ، قال : فقال لها فأمكنيه قال : ويأتيهما

(١) فى المخطوطة : « أبو الراهوية » ، ولم نجده ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، وهو : حدير بن كريب الحضرمى الكوفى ، يروى عن حذيفة وأبى الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاصى . ينظر التهذيب : ٢١٨/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « تزايا له الشيطان » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) فى المخطوطة والطبعات السابقة : « علوة » بالعين المهملة ، ولم نجده . والغلوة : قدر رمية بسهم .

(٤) بانياس : من أنهار دمشق (مراصد الاطلاع) .

(٥) من تفسير الطبرى ، ونحسب أنها سقط نظر .

(٦) يعنى أنه قال : « أوامر » ، بقلب الهمزة واواً . أو « أؤامر » بإبقاء الهمزة ، وكلتاهما جائزة .

(٧) لم يحر إليه شىء : لم يرجع .

رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنُهما . قال : وأيّده الله بقوة ، فانتظمهما جميعا ، ورفعهما على رمحه ، فرآهما الناس — أو كما حدث — قال : وسلط الله عليهم الطاعون . فمات منهم سبعون ألفا .

قال [أبو] المعتمر : فحدثني سيَّار : أن بلعاما ركب حمارةً له حتى أتى العلولى (١) — أو قال : طريقا من العلولى — جعل يضربها ولا تُقْدِم ، وقامت عليه فقالت : علام تضربنى ؟ أما ترى هذا الذى بين يديك ! فإذا الشيطان بين يديه ؛ قال : فنزل وسجد له ، قال الله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) إلى قوله : (لعلهم يتفكرون) ؛ قال : فحدثنى بهذا سيار ، ولا أدرى لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره (٢) .

قلت : هو بلعام — ويقال : بلعم — بن باعوراء ، ويقال : ابن أبر . ويقال : ابن باعور بن شهوم بن قوشتم ابن ماب بن لوط بن هاران — ويقال : ابن حران — بن آزر . وكان يسكن قرية من قرى البلقاء .

قال ابن عساكر : « وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم ، فانسلخ من دينه ، له ذكر فى القرآن » ؛ ثم أورد من قصته نحوا مما ذكرنا هاهنا ، أورده عن وهب وغيره ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم أبى النضر : أنه حدّث : أن موسى عليه السلام لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام ، أتى قومُ بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل ، قدجاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحلّها بنى إسرائيل ، وإنا قومك ، وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم . قال : ويلكم ! نبى الله معه الملائكة والمؤمنون ، كيف أذهب أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ ! قالوا له : مالنا من منزل ! فلم يزالوا به يُرَقّقونه ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتُتِن ، فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل ، وهو جبل حُسْبان (٣) ، فلما سار عليها غير كثير ، ربضت به ، فنزل عنها فضربها ، حتى إذا أذلقها (٤) قامت فركبها . فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها أذن [الله] (٥) لها فكلمته حُجّةً عليه ، فقالت : ويحك يابلعم ، أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تَرُدّنى عن وجهى هذا ؟ أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها يضربها ، فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذلك . فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسْبَان ، على عسكر موسى وبنى إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل . فقال له قومه : أتدرى يابلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم ، وتدعو علينا ! قال : فهذا مالا أملك ، هذا شيء قد غَلَب الله عليه ! قال : واندلع(٦) لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ؛

---

(١) فى المخطوطة : « العلولى » . وكان فى مخطوطة الطبرى : « العلول » . وقد أثبت السيد المحقق مكان ذلك « الفلول » بالفاء ، وقال : « وصححت قراءتها كما أثبتها ، لأن جيش موسى لما نزل به العذاب ، فهلك منه سبعون ألفاً ، صار من بقى منه فلولا » .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٢٠ : ١٣/٢٦١ — ٢٦٤ .

(٣) كذا ضبط فى تفسير الطبرى . ولم يرد لهذا الجبل ذكر فى كتب المعاجم .

(٤) الإذلاق : أن يبلغ منه الجهد ، حتى يقلق ويتضور .

(٥) عن تفسير الطبرى .

(٦) اندلع لسانه : خرج من الفم واسترخى كلسان الكلب .

جمّلوا النساء وأعطوهن السلَع ، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومُرُوهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتُموهم . ففعلوا . فلما دخل النساء العسكر ، مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبى ابنة صور ، رأس أمته » ، برجل من عظماء بنى إسرائيل ، وهو « زِمْرى بن شلوم » ، رأس سبط سمعان[1] ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، [فقام إليها ، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام][2]، فقال : إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال أجل ، هى حرام عليك ، لا تقربها ؛ قال : فوالله لا نطيعك فى هذا . ثم دخل بها قُبّته فوقع عليها . وأرسل الله عز وجل الطاعون فى بنى إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون ، صاحب أمر موسى ، وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع ، فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته ، وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لَحْيَيْه[3] ــ وكان بكر العيزار ــ وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك . ورفع الطاعون ، فحُسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمْرى المرأة إلى أن قتله فنحاص ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا ــ والمقلّل لهم يقول : عشرون ألفا ــ فى ساعة من النهار . فمن هنالك تُعطى بنو إسرائيل ولد فنْحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَةَ[4] والذراع واللَّحْىَ ــ [لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحييه][5] ــ والبِكْرَ من كل أموالهم وأنفسهم ، لأنه كان بكر أبيه العيزار . ففى بلعام بن باعوراء أنزل الله : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) إلى قوله : (لعلهم يتفكرون[6]) .

وقوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) ، اختلف المفسرون فى معناه فأما على سياق ابن إسحاق ، عن سالم بن أبى النضر : أن بلعاما اندلع لسانه على صدره ــ فتشبيهه بالكلب فى لَهْثه[7] فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك[8] . وقيل معناه : فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب فى لَهْثه فى حالتيه ، إن حملت عليه وإن تركته ، هو يلهث فى الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ؛ كما قال تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)[9] (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) [10] ، ونحو ذلك .

---

(1) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى : « شمعون بن يعقوب » .

(2) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه عن تفسير الطبرى .

(3) فى المخطوطة : « لحيته » . والصواب عن تفسير الطبرى . واللحى ــ بفتح اللام وسكون الحاء ــ منبت اللحية . وسيأتى فى السياق ما يؤكد ما أثبتناه .

(4) القبة ــ بكسر القاف وفتح الباء مخففة ــ : من الكرش .

(5) عن تفسير الطبرى . ونحسب أنه سقط نظر .

(6) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٢٢ : ١٣/٢٦٤ ــ ٢٦٧ .

(7) فى المخطوطة : « فى لحيته » ولم نجد « لحيتا » فى المعاجم .

(8) فى اللسان ، مادة لهث : « إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا ، وإن تركته شد عليك ونبح ؛ فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

(9) سورة البقرة ، آية : ٦ .

(10) سورة التوبة ، آية : ٨٠ .

وقيل : معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب ، فَعُبِّر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .

وقوله تعالى : (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) ، يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (فاقصص القصص لعلهم) ، أي : لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه ــ في تعليمه الاسم الأعظم الذي ، إذا سئل به أعطى ، وإذا دعيَ به أجاب ــ في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشَعْب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران ، ولهذا قال : (لعلهم يتفكرون) ، أي : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علما ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته ، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم في كتابه وكتمه فلم يُعْلِم به العباد أحَلَّ الله به ذلا في الدنيا موصُولا بذل الآخرة .

وقوله : (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) ، يقول تعالى : ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي : ساء مثلهم أنشُبِّهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيها بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد [في هبته] كالكلب يعود في قيئه » (1).

وقوله : (وأنفسهم كانوا يظلمون) ، أي : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى : من هداه الله فانه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ...

---

(1) البخاري ، كتاب الهبة ، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته : ٢١٥/٣ . ومسلم ، كتاب الهبات ، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة : ٦٥/٥ . وابن ماجه ، كتاب الصدقات ، باب الرجوع في الصدقة ، الحديث ٢٣٩١ : ٧٩٩/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب الرجوع في الهبة ، الحديث ٣٥٣٨ : ٢٩١/٣ . ومسند الإمام احمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٤٠/١ ، ٥٤ ، ومن ابن عباس : ٢١٧/١ ، ٢٣٧ ، ٢٨٩ ، ٣٤٩ - ٣٥٠ . ومن ابن عمر وابن عباس : ٢٧/٢ ، ومن عبد الله بن عمرو : ١٧٥/٢ ، ٢٠٨ .

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد (١)، وأهل السنن ، وغيرهم .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى : (ولقد ذرأنا) ، أى : خلقنا وجعلنا (لجهنم كثيراً من الجن والإنس)، أى: هيّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء (٢) » .

وفى صحيح مسلم أيضا ، من حديث عائشة بنت طلحة (٣)، عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صَبِىّ من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طُوبى (٤) له . عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال : « أوَ غيرَ ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلا (٥) ، وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا ، وهم فى أصلاب آبائهم (٦) » .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثم يُبْعَثُ إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشَقِىّ أم سعيد (٧) » ...

وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، قال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٣٢ ، وقد رواه عن ابن عباس فى : ١/٣٠٢ ، ٣٥٠ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب الرجل يخطب على قوس ، الحديث ١٠٩٧ : ١/٢٨٧ ، وكتاب النكاح ، باب خطبة النكاح ، الحديث ٢١١٨ : ٢/٢٣٨ ، ٢٣٩ ، والنسائى فى كتاب الجمعة ، باب كيفية الخطبة : ٣/١٠٤ ، ١٠٥ ، وكتاب النكاح ، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح : ٦/٨٩ . وابن ماجه فى كتاب النكاح ، باب خطبة النكاح ، الحديث ١٨٩٢ : ١/٦٠٩ .

هذا وقد رواه الإمام مسلم عن ابن عباس فى كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة : ٣/١١ ، ١٢ .

(٢) مسلم ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام : ٨/٥١ . ولفظه : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتب الله مقادير ... » .

(٣) أم عائشة بنت طلحة بن عبيد الله هى أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق . ينظر كتاب نسب قريش : ٢٨٣ .

(٤) لفظ مسلم : « طوبى لهذا » .

(٥) لفظ مسلم : « إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » .

(٦) مسلم ، كتاب القدر ، باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين » : ٨/٥٤ ، ٥٥ .

(٧) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » : ٩/١٦٥ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته » : ٨/٤٤ .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، ومسألة القَدَر كبيرة ليس هذا موضع بسطها ؛

وقوله تعالى : (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها) ، يعنى : ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله ، كما قال تعالى : (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله)(١) ... الآية . وقال تعالى : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون)(٢) ، هذا فى حق المنافقين ، وقال فى حق الكافرين : (صم بكم عمى فهم لا يعقلون)(٣) ، ولم يكونوا صما بكما عميا إلا عن الهدى ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)(٤) ، وقال : (فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)(٥) ، وقال : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)(٦) ؛

وقوله تعالى : (أولئك كالأنعام) ، أى : هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء)(٧) ، أى : ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال فى هؤلاء : (بل هم أضل) ، أى : من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبَسّ بها(٨) ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من البشر ، كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى : (أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسما [مائة إلا واحدا] ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(٩) ؛

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٢٣ .
(٥) سورة الحج ، آية : ٤٦ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٣٦ ، ٣٧ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .
(٨) البس : السوق والزجر .
(٩) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « لله مائة اسم غير واحد » : ٨/١٠٩ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « فى أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها » : ٨/٦٣ .

أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عنه : رواه البخاري ، عن أبي اليان ، عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد به (١) : وأخرجه الترمذي ، عن الجوزجاني ، (٢) عن صفوان ابن صالح، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب فذكر بسنده مثله ، وزاد بعد قوله : «يحب الوتر»(٣): هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارى ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحَكَم ، العَدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد(٤) الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العَفُوّ ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » :

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب :.. وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . (٥) .

ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من طريق صفوان ، به : وقد رواه ابن ماجه فى سننه(٦) ، من طريق آخر ، عن موسى ابن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعا ، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان :

والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سَرد الأسماء فى هذا الحديث مُدرج(٧) فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى ، عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى : أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوى ، والله أعلم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ، عن يزيد ابن هارون ، عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي سلمة (٨) الجهنى ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله

---

(١) البخارى ، كتاب الشروط ، باب « ما يجوز من الاشتراط » : ٢٥٩/٣ . وكتاب التوحيد ، باب « إن لله مائة اسم إلا واحداً » : ١٤٥/٩ .

(٢) الجوزجانى هو : إبراهيم بن يعقوب .

(٣) لم ترد هذه العبارة فى سنن الترمذى ، كما فى تحفة الأحوذى ، والزيادة التى ساقها ابن كثير هى بعد قوله عليه السلام : « من أحصاها دخل الجنة » .

(٤) لفظ الترمذى : « الواحد الصمد » فلم يرد فيه : « الأحد الصمد » .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٧٤ : ٤٨٢/٩ — ٤٨٩ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب أسماء الله عزوجل ، الحديث ٣٨٦١ : ١٢٦٩/٢ ، ١٢٧٠ .

(٧) المدرج فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو : أن يذكر الراوى عقيبه كلاماً لنفسه أو لغيره ، فيرويه بعده متصلا بالحديث من غير فصل ، فيتوهم أنه من الحديث .

(٨) فى مخطوطة الأزهر : « من أبي مسلم الجهنى » . والمثبت عن مسند الإمام أحمد .

ابن مسعود - رضى الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهم، إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فى حكمك، عَدْلٌ فىَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هولك سَمَّيت به نفسك، أو أعلمته أحدا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أواستأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاءَ حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغى لكل[1] من سمعها أن يتعلمها[2] ».

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حِبَّان البُستى فى صحيحه بمثله.

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه « الأحوذى فى شرح الترمذى » أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم[3].

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) [قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا « اللات » فى أسماء الله[4].

وقال ابن جريج، عن مجاهد: (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه)]، قال: اشتقوا « اللات » من الله، واشتقوا « العُزَّى » من العزيز[5].

وقال قتادة: (يلحدون): يشركون[6]. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: « الإلحاد »: التكذيب[7].

وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: (وممن خلقنا)، أى: ومن الأمم (أمة) قائمة بالحق، قولا وعملا، (يهدون بالحق) يقولونه ويدعُون إليه، (وبه يعدلون)، يعملون ويقضون.

وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية هى هذه الأمة المحمدية:

---

(١) فى المسند: « ينبغى لمن سمعها ».
(٢) مسند الإمام أحمد: ١/٣٩١، ٤٥٢.
(٣) ينظر الأحوذى، أبواب الأدب: ١٠/٢٨١.
(٤) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٤٥٣: ١٣/٢٨٢.
(٥) ما بين القوسين سقط فى مخطوطة أثبتناه من تفسير الطبرى.
(٦) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٤٥٤: ١٣/٢٨٣.
(٧) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٤٥٦: ١٣/٢٨٣.
(٨) تفسير الطبرى، الأثر ١٥٤٥٥: ١٣/٢٨٣.

قال سعيد ، عن قتادة فى تفسير هذه الآية : بلغنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[١] » .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى قوماً على الحق ، حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل [٢] » .

وفى الصحيحين ، عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة ــ وفى رواية ــ : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ــ وفى رواية ــ : وهم بالشام »[٣] .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ، ومعناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا ، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء ، كما قال تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[٤] ولهذا قال تعالى : (وأملى لهم) ، أى : وسأملى لهم ، أطول لهم ما هم فيه (إن كيدى متين) أى : قوى شديد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى : (أو لم يتفكروا) هؤلاء المكذبون بآياتنا (ما بصاحبهم) يعنى محمدا ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ (من جنة) ، أى : ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقا دعا إلى حق ، (إن هو إلا نذير مبين) ، أى: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعى به ، كما قال تعالى : (وما صاحبكم بمجنون)[٥] ، وقال تعالى : (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد)[٦] ، يقول : إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، (مثنى وفرادى) ، أى : مجتمعين ومتفرقين ، (ثم تتفكروا) فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله : أبه جنون أم لا ؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول حقا وصدقا .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٦٠ : ١٣/٢٨٦ .
(٢) الدر المنثور : ٣/١٤٩ .
(٣) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : « إنما قولنا لشىء » : ٩/١٦٧ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين ... » : ٦/٥٣ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٤٤ ، ٤٥ .
(٥) سورة التكوير ، آية : ٢٢ .
(٦) سورة سبأ ، آية ٤٦ .

وقال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان على الصفا ، فدعا قريشا فجعل يفخذهم[1] فخذا فخذا : « يا بني فلان ، يا بني فلان » ، فحذرهم بأس الله ووقائع الله ، فقال قائلهم : « إن صاحبكم هذا مجنون . بات يصوت إلى الصباح — أو : حتى أصبح » ، فأنزل الله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين[2]) .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)

يقول تعالى : (أو لم ينظروا) — هؤلاء المكذبون بآياتنا — في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض ، وفيما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه .

وقوله : (فبأي حديث بعده يؤمنون) ؟ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب — بعد تحذير محمد وترهيبه ، الذي آتاهم به من عند الله في آي كتابه — يصدقون ؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله ، عز وجل .

وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعفان بن مسلم[3] وعبد الصمد بن عبد الوارث ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد بن جُدْعان ، عن أبي الصلت ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسري بي ، لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق ، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، قال : وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا : فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني ، فإذا أنا برَهَج[4] ودخان وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يُحَرِّفون[5] على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب[6] » .

---

(١) جعل يفخذهم : أي يناديهم فخذا فخذا ، والفخذ : فرقة من فرق الجماعات والعشائر .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٤٦١ : ١٣/٢٨٩ .
هذا ، وقد أمعن المشركون في اتهام محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بالجنون ، ولهذا كثرت الآيات التي نزلت لنفي هذه التهمة عنه ، وكذلك كانت الأمم السابقة ترمي أنبياءها بهذه التهمة ؛ والسر في ذلك هو أن الأنبياء كانوا ينقدون مجتمعاتهم التي أرسلوا إليها ، ويعملون على تنقيتها مما ران عليها من العيوب . ولقداسة عادات هذه الأمم في نظرهم ، وتوارثهم إياها جيلا بعد جيل فقد كانوا يرون الخروج عليها خروجاً على العقل . ومن ها هنا كانوا يرمون الرسل والأنبياء بالجنون ، والله أعلم .

(٣) في المخطوطة : « عثمان بن مسلم » . وهو خطأ ، ينظر التهذيب : ٧/٢٣٠ .

(٤) الرهج — بفتحتين — : الغبار .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومثله في إحدى روايتي المسند ، وفي الرواية الأخرى : « يحومون على أعين » ، وهو الذي أثبت في الطبعات السابقة لتفسير ابن كثير . ومعنى « يحرفون » : يميلون ، في اللسان : « يحرف القلوب : يميلها ، ويجعلها على حرف ، أي جانب وطرف » فإذا كان النص : « يحرفون على أعين بني آدم » فمعناه حينئذ : يميلونها كائنين عليها . والله أعلم .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٥٣ ، ٣٦٣ .

على بن زيد بن جدعان له منكرات :

ثم قال تعالى :

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر ، فانه لا يجزى عنه شيئاً ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) ، قال تعالى : (قل : انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(١) .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى : (يسألونك عن الساعة) ، كما قال تعالى : (يسألك الناس عن الساعة) (٢) ؛

قيل : نزلت فى قريش . وقيل : فى نفر من اليهود . والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعادا لوقوعها ، وتكذيبا بوجودها ؛ كما قال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)(٣) ، وقال تعالى : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) (٤) .

وقوله : (أيان مرساها) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « منتهاها (٥) » ؛ أى : متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة .

(قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) ، أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يرد علمها إلى الله تعالى ؛ فانه هو الذى يجليها لوقتها ، أى : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ، ولهذا قال : (ثقلت فى السموات والأرض) :

قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة فى قوله : (ثقلت فى السموات والأرض) ، قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض ، إنهم لا يعلمون(٦) .

---

(١) سورة يونس ، آية : ١٠١ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٦٣ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٣٨ .
(٤) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٦٧ : ١٣/٢٩٤ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٧٣ : ١٣/٢٩٥ .

قال معمر : قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض : يقول : كَبُرت عليهم (١) :

وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (ثقلت فى السموات والأرض) ، قال : ليس شَىء من الخلق إلا يصيبه من ضَرَر يوم القيامة .

وقال ابن جريج : (ثقلت فى السموات والأرض) ، قال : إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكوِّرت الشمس ، وسُيِّرت الجبال ، وكان ما قال الله عز وجل . فذلك ثقلها (٢) .

واختار ابن جرير رحمه الله : أن المراد : ثَقُل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، كما قال قتادة (٣) :
وهو كما قالاه ، كقوله تعالى : (لا تأتيكم إلا بغتة) ، ولا ينفى ذلك ثقلَ مجيئها على أهل السموات والأرض ، والله أعلم .

وقال السدى : (ثقلت فى السموات والأرض) ، يقول : خَفِيت فى السموات والأرض ، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملَك مُقَرَّب ، ولا نبى مرسل (٤) .

(لا تأتيكم إلا بغتة) ، يبغتهم قيامها ، تأتيهم على غفلة :

وقال قتادة فى قوله تعالى : (لا تأتيكم إلا بغتة) ، قضى الله أنها (لا تأتيكم إلا بغتة) — قال : وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الساعة تَهِيج بالناس ، والرجل يُصْلِح حوضه ، والرجل يسقى ماشيته ، والرجل يقيم سلْعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه (٥) » :

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، ولتقومَنّ الساعةُ وقد نَشَر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبن لقْحته فلا يطعَمُه : ولتقومَنّ الساعةُ وهو يَليط حوضه (٦) فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة والرجل قد رَفَع أُكْلَته إلى فيه فلا يَطعَمها (٧) » .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٧٤ : ٢٩٦/١٣ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٧٥ : ٢٩٦/١٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٩٦/١٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٧٢ : ٢٩٥/١٣ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٧٩ : ٢٩٧/١٣ .
(٦) لاط الحوض يليطه ويلوطه : طينه .
(٧) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « طلوع الشمس من مغربها » : ١٣٢/٨ . وكتاب الفتن ، ٧٤/٩ .

أبي هريرة يبلغ به [النبي صلى الله عليه وسلم (١)] قال : « تقوم الساعة والرجل حلب اللقحة ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم (٢) » .

وقوله : (يسألونك كأنك حفي عنها) ، اختلف المفسرون في معناه ، فقيل معناه كما قال العوفي عن ابن عباس : (يسألونك كأنك حفي عنها) ، يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون ان محمدا حفي بهم ، فأوحى الله إليه : إنما علمها عنده ، استأثر بعلمها ، فلم يطلع الله عليها ملكا مقربا ولا رسولا (٣) .

وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فاسر إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : (يسألونك كأنك حفي عنها) (٤) .

وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وأبي مالك ، والسدى ، وهذا قول . والصحيح عن مجاهد — من رواية ابن أبي نجيح وغيره — : (يسألونك كأنك حفي عنها) ، قال : استحفيت عنها السؤال ، حتى علمت وقتها (٥) .

وكذا قال الضحاك ، عن ابن عباس : (يسألونك كأنك حفي عنها) ، يقول : كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، (قل إنما علمها عند الله) .

وقال معمر ، عن بعضهم : (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها (٦) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها على خلقه ، وقرأ : (إن الله عنده علم الساعة (٧)) الآية .

وهذا القول أرجح في المعنى من الأول ، والله أعلم .

ولهذا قال : (قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ، ليعلم الناس أمر دينهم ، فجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس السائل المسترشد ، وسأله عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ، أى : لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله عنده علم الساعة) الآية .

---

(١) من صحيح مسلم .
(٢) مسلم ، كتاب الفتن ، باب قرب الساعة : ٨/٢١٠ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٨٠ : ١٣/٢٩٨ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٨١ : ١٣/٢٩٨ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٨٦ ، ١٥٤٨٧ : ١٣/٢٩٩ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٩١ : ١٣/٢٩٩ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٩٢ : ١٣/٢٩٩ ، ٣٠٠ .

وفى رواية : فسأله عن أشراط الساعة ، فبين له أشراط الساعة ، ثم قال : فى خمس لا يعلمهن إلا الله : وقرأ هذه الآية ، وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب : « صدقت » ، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » :

وفى رواية قال : « وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها ، إلا صورته هذه » :

وقد ذكرت[1] هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد ، فى أول شرح صحيح البخارى ، ولله الحمد والمنة :

ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال : يا محمد : قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاءَ[2] — على نحو من صوته — قال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! إن الساعة آتية ، فما أعددت لها ؟ قال : [ما] أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب . فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث .

وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « المرء مع من أحب[3] » ، وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين :

ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه ، أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك ، والتهيؤ له قبل نزوله ، وإن لم يعرفوا تعيين وقته :

ولهذا قال مسلم فى صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا أبو أسامة ، عن هشام ، عن أبيه ،

---

(١) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان : ١/١٩ ، ٢٠ . وكتاب التفسير ، تفسير سورة لقمان : ٦/١٤٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة » : ١/٢٨ ، ٢٩ ، وباب « الإيمان ما هو ؟ وبيان خصاله : ١/٣٠ ، وباب « الإسلام ما هو ؟ وبيان خصاله » : ١/٣٠ ، ٣١ . وسنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى القدر ، الحديث ٤٦٩٥ : ٤/٢٢٣ ، ٢٢٤ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الإيمان ، باب ما جاء فى وصف جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم الإيمان والإسلام ، الحديث ٢٧٣٨ : ٧/٣٤٣ ، والنسائى كتاب الإيمان ، باب نعت الإسلام : ٨/٩٧ — ١٠١ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب فى الإيمان ، الحديث ٦٤ : ١/٢٥ ، باب أشراط الساعة ، الحديث ٤٠٤٤ : ٢/١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٤٢٦ .

(٢) فى المخطوطة : « هاؤم » ، والمثبت من المسند ٤/٢٤٠ . و « هاء » — كما فى تاج العروس — : كلمة إجابة وتلبية .

(٣) البخارى ، كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب عمر : ٥/١٤ ، ١٥ ، وكتاب الأدب ، باب علامة حب الله عز وجل : ٨/٤٨ ، ٤٩ ، وكتاب الأحكام ، باب القضاء والفتيا فى الطريق : ٩/٨٠ ، ٨١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب المرء مع من أحب : ٨/٤٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب المرء مع من أحب ، الحديث ٢٤٩٣ : ٧/٦١ ، ٦٢ . ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ١/٣٩٢ . وعن أنس بن مالك : ٣/١٠٤ ، ١١٠ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ . وعن جابر بن عبد الله : ٣/٣٣٦ ، ٣٩٤ — ولفظ رواية جابر : « العبد مع من أحب » . وعن صفوان بن عسال : ٤/٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ . وعن أبى موسى الأشعرى : ٤/٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت الأعرابُ إذا قَدِمُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنَظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : « إن يعش هذا لم يُدْرِكْه الهَرَم حتى قامت ساعتكم(١) » : يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برْزَخ الدار الآخرة .

ثم قال مسلم : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يونس بن محمد ، عن حماد بن سَلَمة ، عن ثابت ، عن أنس : أن رَجُلاً سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة(٢) [وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد(٣)] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن يعش هذا الغلامُ فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » . انفرد به مسلم(٤) .

وحدثنى حجاج بن الشاعر ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حَمَّاد بن زيد ، حدثنا مَعْبد بن هلال العَنَزِىّ(٥) ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم قال : متى الساعة(٦) ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هُنَيْهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة ، فقال : « إن عُمِّر هذا لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة » - قال أنس : ذلك الغلام من أترابى(٧) .

وقال : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن أنس قال : مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أقْرانى - فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن يؤخر هذا لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة(٨) » .

ورواه البخارى فى كتاب « الأدب » من صحيحه ، عن عمرو بن عاصم ، عن همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن أنس : أن رجلا من أهل البادية قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ ... فذكر الحديث ، وفى آخره : « فمر غلام للمغيرة ابن شعبة »(٩) ، وذكره .

وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ « ساعتكم » فى حديث عائشة رضى الله عنها .

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى أبو الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) مسلم ، كتاب الفتن ، باب قرب الساعة : ٢٠٩/٨ . وقد رواه البخارى من وجه آخر عن عائشة . ينظر كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت : ١٣٣/٨ . ولفظ مسلم : « لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم » .

(٢) لفظ مسلم : « متى تقوم الساعة ؟ » .

(٣) عن صحيح مسلم .

(٤) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٢٠٩/٨ .

(٥) فى مخطوطة الأزهر : « سعيد بن أبى هلال المصرى » . والمثبت عن مسلم ، والتهذيب : ٢٢٥/١٠ .

(٦) لفظ مسلم : « متى تقوم الساعة ؟ » .

(٧) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٢٠٩/٨ .

(٨) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ٢٠٩/٨ ، ٢١٠ .

(٩) البخارى ، كتاب الأدب ، باب ما جاء فى قول الرجل ويلك : ٤٨/٨ .

قبل أن يموت بشهر قال : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة ، تأتي عليها مائة سنة (١) » . رواه مسلم .

وفي الصحيحين ، عن ابن عمر مثله ، قال ابن عمر : وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرام ذلك القرن (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، أنبأنا العوام عن ، جبلة بن سُحَيْم ، عن مؤثر بن عَفَازة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى ، قال : فتذاكروا أمر الساعة ، قال : فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام ، فقال : لا علم لي بها . فردوا [أمرهم](٣) إلى موسى ، فقال: لا علم لي بها . فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال عيسى : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إليَّ ربي عز وجل أن الدجال خارج ، قال : ومعي قضيبان ، فاذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله عز وجل اذا رآني ، حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافرا فتعال فاقتله » . قال : فيهلكهم الله عز وجل ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حَدَب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس إليَّ فيشكونهم ، فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم ، حتى تَجْوَى الأرض من نَتْن ريحهم — أي : تُنْتن — قال : فينزل الله المطر ، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر .

قال أحمد : قال يزيد بن هارون : ثم تنسف الجبال ، وتُمَدّ الأرض مد الأديم — ثم رجع إلى حديث هشيم قال : ففيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك ، فان الساعة كالحامل المُتِمّ لا يدرى أهلها متى تَفْجَأهم بولادها ليلا أو نهارا » .

ورواه ابن ماجه ، عن بندار عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب بسنده ، نحوه (٤) .

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين ، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين ، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها ، لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذا لأحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أبي بكير ، حدثنا عُبَيْد الله بن إياد بن لقيط(٥) قال : سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال : سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « علمها عند ربي لا يُجَلّيها لوقتها إلا هو ،

---

(١) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة » : ١٨٧/٧ . ولفظ مسلم : « وأقسم ما على الأرض اليوم ... » .

(٢) مسلم ، الكتاب والباب المتقدمان : ١٨٦/٧ ، ١٨٧ .

(٣) من مسند الإمام أحمد .

(٤) سبق تخريج حديث الإمام أحمد ، وحديث ابن ماجه في : ٤٠٩/٢ ، ٤١٠ . وشرح الغريب هنالك .

(٥) في المخطوطة : « عبد الله بن زياد » والمثبت من المسند ، وترجمته في التهذيب : ٤/٧ .

(٦) مشاريط الشيء : أوائله ، الواحد : مشراط ، بكسر الميم .

ولكن سأخبركم بمشاريطها (١)، وما يكون بين يديها : إن بين يديها فتنة وهرَجا . قالوا: يا رسول الله ، الفتنة قد عرفناها فالهرج ماهو ؟ قال : بلسان الحبشة : القتلُ. قال « ويُلْقَى بين الناس التَّنَاكرُ ، فلا [يكاد] أحد يعرف أحداً (٢)» لم يروه أحد من أصحاب الكتب [الستة] من هذا الوجه .

وقال وكيع : حدثنا ابن أبي خالد ، عن طارق بن شهاب ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) ... الآية .

ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، به . وهذا إسناد جيد قوى ؛

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ نبي الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والعاقب والمُقَفَّى ، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل ابن سعد رضي الله عنهما : « بعثت أنا والساعة كهاتين(٣) » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها ــ ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يَرُدّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها ، فقال : (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) (٤) ... الآية .

وقوله : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) ، قال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) ، قال : لو كنت أعلم متى أموت ، لعملت عملا صالحا .

وكذلك روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد . وقال مثله ابن جريج(٥) .

وفيه نظر ؛ لأن « عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دِيمَة »(٦) ــ وفي رواية ــ « كان إذا عمل عملا أثبته(٧) » ،

(١) مشاريط الشيء : أوائله الواحد مشراط بكسر الميم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨٩ . وما بين القوسين عنه .

(٣) البخاري ، كتاب الطلاق ، باب اللعان : ٧/٦٨ . ومسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة : ٣/١١ .

(٤) سورة الجن ، آية : ٢٦ .

(٥) تفسير الطبري ، الأثران ١٥٤٩٤ ، ١٥٤٩٥ : ١٣/٣٠٢ .

(٦) البخاري ، كتاب الصوم ، باب هل يخص شيئاً من الأيام : ٣/٥٥ . ومسلم ، كتاب المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم : ٢/١٨٩ .

وكان عمله ديمة ــ بكسر الدال وسكون الياء ــ : أي دائماً غير مقطوع . والديمة في الأصل : المطر الدائم ، شبه به عمله في دوامه مع الاقتصاد .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة ، الحديث : ١٣٧ : ٢/٤٨ . وينظر صحيح مسلم ، كتاب المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم : ٢/١٨٨ ، ١٨٩ .

ومعنى أثبته : لازمه وداوم عليه .

فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشدَ غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم .

والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك ، عن ابن عباس : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) ، أى : من المال — وفى رواية : لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه [وما مسنى السوء ، قال] ولا يصيبنى الفقر(١) .

وقال ابن جرير : وقال آخرون معنى ذلك : « لو كنت أعلم الغيب » ، لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولعرفتُ(٢) الغلاءَ من الرخص ، فاستعددت له من الرخص(٣) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وما مسنى السوء) ، قال : لا جتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون ، واتقيته(٤) .

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير ، أى : نذيرٌ من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات ، كما قال تعالى : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا)(٥) .

* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجه حواء ، ثم انتشر [الناس] منهما ، كما قال تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(٦) وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)(٧) ... الآية .

وقال فى هذه الآية الكريمة : (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) ، أى : ليألفها ويسكن بها ، كما قال : تعالى :

---

(١) الدر المنثور عن ابن أبى حاتم وأبى الشيخ : ٣/١٥١ ، وما بين القوسين عنه .

(٢) فى المخطوطة : « ولوقت الغلاء » . ولا يستقيم النص عليه . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣/٣٠٢ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٤٩٦ : ١٣/٣٠٢ .

(٥) سورة مريم ، آية : ٩٧ .

هذا ، وقد نفت هذه الآية قدرة النبى صلى الله عليه وسلم على جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها ، ونفت كذلك عنه العلم بالغيب ، وبرهنت على ذلك بأنه لو لم يكن كذلك لاستكثر من الخير ، وهذه الآية توضح بشريته — صلوات الله وسلامه عليه — بما لا يدع مجالا لشبهة ، وذلك حتى لا تتورط أمته فى شأنه ، كما تورطت الأمم السابقة فى شأن أنبيائها ، فارتفعت بهم عن البشرية ، وخلعت عليهم من الصفات الإلهية ما الله به أحق وأولى .

(٦) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .

(٧) سورة النساء ، آية : ١ .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) (١) ، فلا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه .

(فلما تغشاها) ، أي : وطئها (حملت حملا خفيفا) ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألما ، إنما هي النُّطفة ، ثم العَلَقة ثم المُضْغة .

وقوله : (فمرت به) ، قال مجاهد : استمرت بحمله (٢) : وروى عن الحسن ، وإبراهيم النخعي ، والسدى ، نحوه .

وقال ميمون بن مهران ، عن أبيه استخفته .

وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : (فمرت به) قال : لو كنتَ رجلا عربيا لعرفت ما هي ؟ إنما هي : فاستمرّت به (٣) .

وقال قتادة : (فمرت به) ، واستبان حملها .

وقال ابن جرير : استمرت بالماء ، قامت به وقعدت (٤) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : استمرت به ، فشكت : احملت أم لا (٥) .

(فلما أثقلت) ، أي : صارت ذات ثقل بحملها .

وقال السدى : كبر الولد في بطنها (٦)

دعوا الله ربهما لئن آتينا (صالحا) ، أي بشرا سويا ، كما قال الضحاك ، عن ابن عباس : أشفقا أن يكون بهيمة (٧) .

وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنسانا (٨) .

وقال الحسن البصرى : لئن آتيتنا غلاما (٩) .

(لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) ، ذكر المفسرون هاهنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك ، إن شاء الله وبه الثقة .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٢ : ١٣/٣٠٥ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٠ : ١٣/٣٠٤ ، ٣٠٥ . وأثر قتادة بعده .
(٤) تفسير الطبرى : ١٣/٣٠٤ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٤ : ١٣/٣٠٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٥ : ١٣/٣٠٥ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠١٠ : ١٣/٣٠٦ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٧ ، ١٥٠٠٨ : ١٣/٣٠٦ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٠٠٦ : ١٣/٣٠٦ .

قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسن ، عن سَمُرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما ولدت(١) حواء طاف بها إبليس — وكان لا يعيش لها ولد — فقال : « سميه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش » ، فسمته عبد الحارث ، فعاش . وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره(٢) » .

وهكذا رواه ابنُ جرير ، عن محمد بن بشار ، بندار — عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، به(٣) ؛

ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى ، عن عبد الصمد ، به ؛ وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم [عن قتادة](٤) ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه(٥) .

ورواه الحاكم فى مستدركه ، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٦) .

ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره ، عن أبى زرعة الرازى ، عن هلال بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم ، به مرفوعاً .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض ، عن عمر بن إبراهيم ، به مرفوعا .

قلت : « وشاذ » ، هو : هلال ، وشاذ لقبه ؛ والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج(٧) به ؛ ولكن رواه ابن مَرْدُويه من حديث المعتمر ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة ، مرفوعا فالله أعلم .

الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، ليس مرفوعا ، كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه — [و](٨) حدثنا [ابن علية](٩) ، عن سليمان التيمى — عن أبى العلاء بن الشخير ، عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه « عبد الحارث » .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا ، لما عدل عنه .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهل بن يوسف ، عن عمرو ، عن الحسن : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) ، قال : كان هذا فى بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم(١٠) .

---

(١) فى المسند : « لما حملت حواء » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١١/٥ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥١٣ : ٣٠٩/١٣ .
(٤) من تحفة الأحوذى .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأعراف ، الحديث ٥٠٧٣ : ٤٥٩/٨ — ٤٦٠ .
(٦) المستدرك ، كتاب التاريخ : ٥٤٥/٢ .
(٧) ينظر ميزان الإعتدال ، الترجمة ٦٠٤٢ : ١٧٩/٣ .
(٨) فى المخطوطة : « عن أبيه ، حدثنا » وأثبتنا « الواو » ليستقيم السند ، فابن جرير رواه أولا عن محمد بن عبد الأعلى ، عن المعتمر ، عن أبيه ، عن أبى العلاء ، وذلك فى الأثر ١٥٥١٤ : ٣١٠/١٣ ، ثم رواه فى الأثر الذى يليه عن محمد بن عبد الأعلى ، عن المعتمر ، عن أبيه ، عن ابن علية ، عن سليمان التيمى ، عن أبى العلاء . فقد أدرج ابن كثير أحد السندين فى الآخر .
(٩) مكانه فى المخطوطة : « بكر بن عبد الله » ، وينظر التعليق المتقدم . وبكر بن عبد الله يروى عن أنس . ينظر التهذيب ٤٨٤/١ .
(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٢٦ : ٣١٤/١٣ .

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر قال : قال الحسن : عنى بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده ـ يعنى : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) (١)

وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولادا ، فهوّدوا ونصّروا (٢) .

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما عدل [عنه] هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه لله وَوَرَعه ، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب ، من آمن منهم ، مثل : كعب أو وهب بن مُنَبّه وغيرهما ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع ، و الله أعلم .

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن داود بن الحُصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيُعبّدهم لله ويُسَمّيه : « عبد الله » ، « وعبيد الله » ، ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاها إبليسُ وآدمَ فقال : إنكما لو تُسمّيانه بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال : فولدتْ له رجلا فسماه « عبد الحارث » ، ففيه أنزل الله ، يقول الله : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) إلى قوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) ... إلى آخر الآية (٣) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله فى آدم : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) إلى قوله : (فمرت به) ، شكّت : أحَبَلَتْ أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) ، فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟أم هل تدريان مايكون؟أبهيمة [يكون] (٤) أم لا ؟ وزيّن لهما الباطل ؛ إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بى ، لم يخرج سويا ، ومات كما مات الأولان (٥) فسميا ولدهما «عبد الحارث» ، فذلك قول الله :(فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) ... الآية (٦) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن شَريك ، عن خُصيف ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس فى قوله : (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما)، قال : قال الله تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها) آدم (حملت) ،فأتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لَتُطيعنَّنى أو لأجعلنَّ قرنى له أيل فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلنّ ولأفعلنّ ـ يخوفهما ـ فسمّياه « عبد الحارث » ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا [ثم حملت الثانية ، فأتاهما أيضا فقال : أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت ، لتفعلُنّ أو لأفعلَنّ

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٢٧ : ١٣/٣١٤ ، ٣١٥ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٢٨ : ١٣/٣١٥ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥١٦ : ١٣/٣١٠ .
(٤) من تفسير الطبرى .
(٥) فى المخطوطة : « الأول » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥١٧ : ١٣/٣١٠ ، ٣١١ .

يخوفهما — فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا] ، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا ، فذكر لهما ، فأدركهما حُبُّ الولد ، فسمياه «عبد الحارث» ، فذلك قوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) . رواه ابن أبي حاتم[(١)] .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه ، كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : ومن الطبقة الثانية : قتادة ، والسدى ، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه — والله أعلم — أصله مأخوذ من أهل الكتاب ، فإن ابن عباس رواه عن أُبَيّ بن كعب ، كما رواه ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، حدثنا سعيد — يعني ابن بشير — عن عقبة ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبَيّ بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان ، [فقال لها] : أتطيعيني ويَسْلَم لك ولدك ، سميه «عبد الحارث» ، فلم تفعلْ ، فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك ، فلم تفعل ، ثم حملت الثالث فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم ، وإلا فانه يكون بَهيمة ، فهيَّبهما فأطاعا[(٢)] .

وهذه الآثار يظهر عليها — والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم[(٣)]» ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام ، فمنها : ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبه ، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته ، بقوله عليه السلام : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[(٤)] وهو الذى لا يصدَّق ولا يكذب ، لقوله : «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» — وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابيّ أو تابعي ، فإنه يراه من القسم الثالث[(٥)] وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته . ولهذا قال الله : (فتعالى الله عما يشركون) ، ثم قال :

---

(١) الأثر في الدر المنثور عن سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس : ١٥٢/٣ .

(٢) الأثر في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ عن أبي بن كعب : ١٥١/٣ .

(٣) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها : ٢٣٧/٣ ، وتفسير سورة البقرة ، ٢٥/٦ . وكتاب الاعتصام ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تسألوا أهل الكتاب» : ١٣٦/٩ . وكتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها : ١٩٣/٩ . ومسند الإمام أحمد — وهذا لفظه — عن أبي نملة الأنصارى : ١٣٦/٤ . وسنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب ، الحديث ٣٦٤٤ : ٣١٨/٣ .

(٤) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل : ٢٠٧/٤ . وتحفة الأحوذى ، أبواب العلم ، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ، الحديث ٢٨٠٦ : ٤٣١/٧ ، ٤٣٢ ، وقال الترمذى : «هذا حديث حسن صحيح» . ومسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى : ٤٦/٣ .

(٥) كذا النص في مخطوطة الأزهر ، ومخطوطة دار الكتب «١٥ تفسير» والطبعات السابقة . ولعل فيه سقطاً .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال : (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون) ، أي : أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك ، كما قال تعالى : (يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز)(١) أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو استلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت ، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها ، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ؟ . ولهذا قال تعالى : (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) ، أي : بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل : (أتعبدون ما تنحتون(٢)) ... الآية .

ثم قال تعالى : (ولا يستطيعون لهم نصراً) ، أي : لعابديهم (ولا أنفسهم ينصرون) ، يعني : ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة ، كما أخبر تعالى عنه في قوله : (فراغ عليهم ضربا باليمين(٣)) ، وقال تعالى : (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون(٤)) ، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ــ وكانا شابين قد أسلما [لما] قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ــ فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتأوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن الجموح ــ وكان سيداً في قومه ــ كان له صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ، ويلطخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : « انتصر » يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضا ، حتى أخذه مرة فقرنا معه جرو

(١) سورة الحج ، آية : ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) سورة الصافات ، آية : ٩٥ .
(٣) سورة الصافات ، آية : ٩٣ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٥٨ .

كلب ميت ، ودلَّياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال : [١]

تَاللهِ لَوْ كُنتَ إلَهاً مُسْتَدَنْ لَمْ تَكُ وَالكَلْبُ جَمِيعاً فِى قَرَنْ [٢]

ثم أسلم فَحَسُنَ إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه .

وقوله : (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) .. الآية ، يعنى : أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواءٌ لديها من دعاها ومن دَحاها [٣] ، كما قال إبراهيم : (يا أبت ، لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) [٤] ؟ .

ثم ذكر تعالى أنها عَبِيد مثل عابديها ، أى : مخلوقات مثلهم ، بل الأناسِيّ أكمل منها ، لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك .

وقوله : (قل ادعوا شركاءكم) ... الآية ، أى : استنصروا بها علىّ ، فلا تؤخرونى طرفة عَيْن ، واجهَدوا جُهْدكم ! (إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ، أى : الله حسبى وكافىّ ، وهو نصيرى ، وعليه متكلى ، وإليه ألجأ ، وهو وليى فى الدنيا والآخرة ، وهو ولى كل صالح بعدى . وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال: إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربىعلى صراط مستقيم) [٥] ، وكقول الخليل : (أفرأيتم ماكنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا ربالعالمين . الذى خلقنى فهو يهدين) [٦] ... الآيات ، وكقوله لأبيه وقومه : (إننى براء مما تعبدون . إلا الذىفطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عَقِبه لعلهم يرجعون) [٧] .

وقوله : (والذين تدعون من دونه) ... إلى آخر الآية ، مؤكد لما تقدم ، إلا أنه بصيغة الخطاب ، وذلك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال : (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) .

---

(١) الرجز فى سيرة ابن هشام : ١/٣٥٤ ، وروايته فيه :

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقاك إلها مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن

ونحوه فى أسد الغابة ، ترجمة عمرو بن الجموح .

(٢) قال السهيلى فى الروض الأنف ١/٢٨٠ : « وقوله « إلها مستدن » من السدانة ، وهى خدمة البيت وتعظيمه ، والقرن — بفتحتين — : الحبل .

(٣) دحاها : رماها .

(٤) سورة مريم ، آية : ٤٢ .

(٥) سورة هود ، الآيات : ٥٤ — ٥٦ .

(٦) سورة الشعراء ، الآيات : ٧٥ — ٧٨ .

(٧) سورة الزخرف ، الآيات : ٢٦ — ٢٨ .

وقوله : (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ، كقوله تعالى : (إن تَدْعوهم لا يسمعوا دعاءكم)[1] ... الآية .

وقوله : (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ، إنما قال : (ينظرون إليك) ، أى : يقابلونك بعيون مُصَوَّرة كأنها ناظرة ، وهى جَمَاد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها على صُوَر مصورة كالإنسان ، (وتراهم ينظرون إليك)، فعبر عنها بضمير من يعقل .

وقال السدى : المراد بهذا المشركون »[2] . ورُوى عن مجاهد نحوه . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ،[3] وقاله قتادة .

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (خذ العفو) ، يعنى : « خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شىء فخذه . وكان هذا قبل أن تنزل « براءة » بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وما انتهت إليه الصدقات[4] » . قاله السدى .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس (خذ العفو) أنفق الفضل .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : (خذ العفو) ، قال : الفضل .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ١٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٣٣ : ١٣/٣٢٤ ، وأثر مجاهد بعده .

(٣) أيد الإمام ابن جرير اختياره بما أثر عن العرب فى ذلك ، قال ١٣/٣٢٥ ، ٣٢٦ : « فإن قال قائل : فما معنى قوله : (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ، وهل يجوز أن يكون شىء ينظر إلى شىء ولا يراه ؟ .

قيل : إن العرب تقول للشىء إذا قابل شيئاً أو حاذاه : « هو ينظر إلى كذا » ، ويقال : « منزل فلان ينظر إلى منزلى » ، إذا قابله . وحكى عنها : « إذا أتيت موضع كذا وكذا ، فنظر إليك الجبل ، فخذ يميناً أو شمالا » ، وحدثت عن أبى عبيد قال : قال الكسائى : « الحائط ينظر إليك » ، إذا كان قريباً منك حيث تراه ، ومنه قول الشاعر :

إذا نظرت بلاد بنى تميم * بعين أو بلاد بنى صباح

يريد : تقابل نبتها وعشبها وتحاذى .

قال أبو جعفر : فمعنى الكلام : وترى – يا محمد – آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان ، يقابلونك ويحاذونك ، وهم لا يبصرونك ، لأنه لا أبصار لهم » .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٤٣ : ١٣/٣٢٨ . وأثر السدى بعده .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (خذ العفو) : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم [١] . واختار هذا القول ابن جرير [٢] .

وقال غير واحد ، عن مجاهد في قوله تعالى : (خذ العفو) ، قال : من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس [٣] .

وقال هشام بن عروة ، عن أبيه : أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس [٤] — وفي رواية قال : خذ ما عفا لك من أخلاقهم .

وفي صحيح البخاري ، عن هشام ، عن أبيه عروة ، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال : إنما أنزل : (خذ العفو) من أخلاق الناس[٥] . وفي رواية لغيره : عن هشام ، عن أبيه ، عن ابن عمر . وفي رواية : عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك ، والله أعلم .

وفي رواية سعيد بن منصور ، عن أبي معاوية ، عن هشام ، عن وهب بن كيسان ، عن ابن [٦] الزبير : (خذ العفو) قال : من أخلاق الناس ، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم .

وهذا أشهر الأقوال ، ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا : حدثنا يونس ، حدثنا سفيان — هو ابن عيينة — عن أُمَيّ [٧] قال : «لما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك» .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٤٦ : ١٣/٣٢٨ .

(٢) قال ابن جرير ١٣/٣٢٩ : «وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن الله — جل ثناؤه — أتبع ذلك تعليمه نبيه صلى الله عليه وسلم محاجته المشركين في الكلام ، وذلك قوله : (قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، وعقبه بقوله : (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها) ، فما بين ذلك ، بأن يكون من تأديبه نبيه صلى الله عليه وسلم في عشرتهم به ، أشبه وأولى ، من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين » .

(٣) في المخطوطة : «تحسيس» ومثله في مخطوطة الطبري ، ولم نجده ، وأثبتنا ما أثبته السيد محقق تفسير الطبري ، قال : «كأنه يعني الاستقصاء في الطلب » . والأثر في تفسير الطبري برقم ١٥٥٣٥ : ١٣/٣٢٦ ، ورقم ١٥٥٣٩ : ١٣/٣٢٧ ، وبرقم ١٥٥٤٢ : ١٣/٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٣٧ : ١٣/٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٥) صحيح البخاري ، تفسير سورة الأعراف : ٦/٧٦ ، ولفظه : «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس» . وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب ، باب التجاوز في الأمر ، الحديث ٤٧٨٧ : ٤/٢٥٠ عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن الزبير أيضاً . وكذلك هو عن ابن الزبير في تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٣٨ : ١٣/٣٢٧ .

(٦) في المخطوطة : «أبي الزبير» . وهو خطأ لا شك فيه ، وقد ورد مثله في مخطوطة الطبري وطبعتها الأولى . وكنية عبد الله بن الزبير هي: أبو بكر ، وأبو خبيب . ينظر أسد الغابة ، الترجمة ٢٩٤٧ : ٣/٢٤٢ بتحقيقنا .

(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٤٨ : ١٣/٣٣٠ . و «أمي» هو : «أمي بن ربيعة المرادي الصيرفي» سمع الشعبي ، وعطاء وطاوس ، وروى عنه سفيان بن عيينة ، وشريك . ثقة . ينظر التهذيب : ١/٣٦٩ ، ٣٧٠ . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/١/٣٤٧ .

وقد رواه ابن أبي حاتم أيضا ، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة ، عن أصبغ بن الفرج ، عن سفيان عن أميّ عن الشعبي . نحوه ، وهذا على كل حال مرسل ، وقد روى له شاهد من وجوه أخر ، وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس ابن سعد بن عبادة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أسندهما ابن مَرْدُويه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعة ، حدثني على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن عقبة بن عامر ــ رضي الله عنه ــ قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواصل الأعمال . فقال : «ياعقبة صل من قطعك ، واعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك»(١) .

وروى الترمذي نحوه ، من طريق عبيد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، به . وقال : حسن .

قلت : ولكن «على بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن» ، فيهما ضعف .

وقال البخاري قوله : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، «العرف» : المعروف ــ حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله [بن عتبة(٢)] : أن ابن عباس قال : قدم عُيَيْنة بن حصن ابن حُذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ــ وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مَجَالس عُمَر ومشاورته ــ كُهُولا كانوا أو شبانا ــ فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه . قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل [عليه] قال : هيْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزْل ، ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى هَمّ أن يُوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافا عند كتاب الله عز وجل(٣) . انفرد باخراجه البخاري .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني مالك بن أنس ، عن عبد الله ابن نافع : أن سالم بن عبد الله بن عمر مرّ على عير لأهل الشام وفيها جرَس ، فقال : إن هذا منهى عنه ، فقالوا : نحن أعلم بهذا منك ، إنما يكره الجلْجل الكبير ، فأما مثل هذا فلا بأس به . فسكت سالم وقال : (وأعرض عن الجاهلين(٤)) .

وقول البخاري : «العرف» : المعروف ، نص عليه عروة بن الزبير ، والسدي ، وقتادة ، وابن جرير ، وغير واحد . وحكى ابن جرير أنه يقال : «أوليته عُرْفا(٥) ، وعارفا ، وعارفةً ، كل ذلك بمعنى : «المعروف» ، قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٤٨/٤ من حديث طويل .
(٢) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من الصحيح .
(٣) صحيح البخاري ، تفسير سورة الأعراف : ٧٦/٦ .
(٤) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ١٥٣/٢ ، ١٥٤ .
(٥) في المخطوطة : «معروفا» ، والمثبت من تفسير الطبري : ٣٣١/١٣ .

وقد أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميعُ الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم ، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين (١) حَرْب »

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة في قوله : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، قال : هذه أخلاق أمر الله بها نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ودلّه عليها (٢) .

وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى ، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال :

خُذ العفو وأمر بعُرفٍ كَمَا أُمِرتَ وأعْرِض عَن الجَاهلِينْ
ولِنْ في الكَلاَم لكُلِّ الأنَام فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الجاه لِينْ

وقال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيء ، فمره بالمعروف ، فإن تمادَى على ضلاله واستعصى عليك واستمرّ في جهله ، فأعرِض عنه ، فلعلّ ذلك أن يردّ كيدَه ، كما قال تعالى : ([ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون : وقل ربِّ أعوذُ بك من هَمَزَات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون) (٣) ، وقال تعالى : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة]) ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها — أي هذه الوصية — إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم (٤) وقال في هذه السورة الكريمة أيضا : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) ، فهذه الآيات الثلاث في « الأعراف » ، « والمؤمنون » ، « وحم السجدة » ، لا رابع لهن ، فانه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس(٥) بالمعروف والتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، [ولهذا قال : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به] من شيطان الجان ، فانه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فانه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك .

قال ابن جرير في تفسير قوله : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) : وإما يغضبنّك من الشيطان غَضَبٌ يصُدّك عن الإعراض عن الجاهلين ، ويحملك على مجازاتهم — (فاستعذ بالله) ، يقول : فاستجر بالله من نزغه — (إنه سميع عليم)، يقول : [إن الله الذى تستعيذ به من نزغ الشيطان] — (٦) سميع لجهل الجاهل عليك ، والإستعاذة به من نَزْغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان ، وغير ذلك من أمور خلقه .

---

(١) تفسير الطبري : ١٣/٣٣١ ، ٣٣٢ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٥٢ : ١٣/٣٣٢ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات : ٩٦ — ٩٨ .
(٤) سورة فصلت — حم . السجدة — الآيات : ٣٤ — ٣٦ .
(٥) في المخطوطة : « العاصي من الأمر » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٦) ما بين القوسين من تفسير الطبري : ١٣/٣٣٣ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزل : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، قال : [رسول الله صلى الله عليه وسلم] : يارب ، كيف بالغضب ؟ ، فأنزل الله : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) (١)

قلت : وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » : فقيل له ، فقال : ما بى من جنون (٢) .

وأصل « النزغ » الفساد ، إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) ، و« العياذ » : الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما « الملاذ » ففى طلب الخير ، كما قال : [أبو الطيب] المتنبى (٣)

يا مَنْ ألوذُ به فيما أؤمِّلُه ... وَمَنْ أعُوذُ به مما أحاذِرُه
لاَ يَجْبُرُ الناسُ عَظْماً أنت كاسِرُه ... ولاَيَهيضُون عَظْماً أنتَ جابِرُه (٤)

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يُخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ماعنه زَجَر ، أنهم (إذا مسهم) ، أى : أصابهم (طَيْفٌ) (٥) — وقرأ آخرون : (طائف) ، وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان ، فقيل : بمعنى واحد . وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهَمّ بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب .

وقوله : (تذكروا) ، أى : عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا ، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب . (فإذا هم مبصرون) ، أى : قد استقاموا وصَحَوا مما كانوا فيه .

---

(١) الأعراف : ٢٠٠

(٢) ينظر فيما تقدم من هذا التفسير : ١/٢٩ . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب ما ينهى من السباب واللعن : ٨/١٩ ، وباب الحذر من الغضب : ٨/٣٤ ، ٣٥ . ومسلم ، كتاب البر ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب : ٨/٣٠ ، ٣١ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب ما يقول عند الغضب ، الحديث ٣٥١٦ ، ٣٥١٧ : ٩/٤١٥ ، ٤١٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقال عند الغضب ، الحديث ٤٧٨١ : ٤/٢٤٩ . ومسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل : ٥/٢٤٠ ، ٢٤٤ .

(٣) فى المخطوطة : كما قال الحسن بن المتنبى . وهو خطأ . وفى الطبعات السابقة : الحسن بن هانىء ، وهو خطأ أيضاً ، فالبيتان للمتنبى أبى الطيب أحمد بن الحسين .

(٤) ديوان المتنبى بتحقيق البرقوقى : ٢/٢٧٢ .

(٥) قال الطبرى ١٣/٣٣٤ : إن (طيف) هى قراءة بعض المكيين والبصريين والكوفيين ، وإن (طائف) هى قراءة عامة قراء أهل المدينة والكوفة . وينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٤/٤٤٩ .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه هاهنا حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبها طَيْفٌ فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يشفيني : فقال : إن شئت دعوت الله فشفاك ، وإن شئت فاصبري ولا حسابَ عليك : فقالت : بل أصبر ، ولا حساب عليّ .

ورواه غير واحد من أهل السنن ، وعندهم : « قالت : يا رسول الله، إني أُصْرَعُ وأتكَشَّفُ (١)، فادع الله أن يشفيني . فقال : إن شئت دعوت الله أن يشفيك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة ؟ فقالت : بل أصبر ، ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكَشَّف ، فدعا لها ، فكانت لا تَتَكَشَّفُ .

وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (٢) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة « عمرو بن جامع » من تاريخه : أن شابا كان يتعبد في المسجد ، فهَوِيته امرأة ، فدعته إلى نفسها ، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل ، فذكر هذه الآية : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ، فخر مغشيا عليه ، ثم أفاق فأعادها ، فمات : فجاء عُمَر فعزّى فيه أباه ، وكان قد دفن ليلا ، فذهب فصلى على قبره بمن معه ، ثم ناداه عمر فقال : يافتى ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ؟ فأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر ، قد أعطانيهما ربي ، عز وجل ، في الجنة مرّتين .

وقوله : (وإخوانهم) ، أي : وإخوان الشياطين من الإنس ، كقوله : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم (يمدونهم في الغي) ، أي : تساعدهم الشياطين على المعاصي ، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم .

وقال ابن كثير : « المد » الزيادة (٣) : يعني : يزيدونهم في الغي ، يعني : الجهل والسفه .

(ثم لا يقصرون) ، قيل معناه : إن الشياطين تَمُدّ ، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك : كما قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) ، قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون [من السيئات] ، ولا الشياطين تمسك عنهم(٤) .

وقيل : معناه كما رواه العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) ، قال : هم الجن ، يوحون إلى أوليائهم من الإنس (ثم لا يقصرون) ، يقول : لا يسأمون (٥) .

---

(١) تكشف الشيء : انكشف ، وفلان : افتضح .

(٢) المستدرك ، كتاب الطب : ٤/٢١٨ .

هذا وقد أخرج الحديث عن ابن عباس البخاري في كتاب الطب ، باب فضل من يصرع من الريح : ٧/١٥٠ ، ١٥١ ، ومسلم في كتاب البر ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها : ٨/١٦ ، والإمام أحمد : ١/٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٣) أثر عبد الله بن كثير في تفسير الطبري ، برقم ١٥٥٦٧ : ١٣/٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٦٤ : ١٣/٣٣٨ . وما بين القوسين عنه .

(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٥٦٥ : ١٣/٣٣٨ . وأثر السدي بعده.

وكذا قال السدى وغيره : يعنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه ، كما قال تعالى : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً)(١) ، قال ابن عباس وغيره : تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (قالوا لولا اجتبيتها) ، يقول : لولا تلقيتها — وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها (٢) .

وقال ابن جرير ، عن عبد الله بن كثير ، عن مجاهد فى قوله : (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) ، قال : لولا اقتضبتها (٣) ، قالوا : تخرجها من نفسك (٤) . وكذا قال قتادة ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (٥) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (لولا اجتبيتها) ، يقول : تلقيتها من الله عز وجل (٦) .

وقال الضحاك : (لولا اجتبيتها) ، يقول : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء (٧) .

ومعنى قوله تعالى : (وإذا لم تأتهم بآية) ، أى : معجزة وخارق ، كما قال تعالى : (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ، يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم : ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات حتى نراها ونؤمن بها ، قال الله تعالى له : (قل إنما أتبع مايوحى إلىّ من ربى) ، أى : أنا لا أتقدم إليه تعالى فى [شىء] ، وإنما أتبعُ ما أمرنى به فأمتثل مايوحيه إلىّ ، فان بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها ؛ إلا أن يأذن لى فى ذلك ، فإنه حكيم عليم .

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات ، فقال : (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٨٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٧٤ : ١٣/٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٣) اقتضب الكلام : ارتجله من غير تهيئة ولا إعداد له .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٧٢ : ١٣/٣٤١ .

(٥) قال ابن جرير فى تفسيره ١٣/٣٤٢ ، ٣٤٣ : « وأولى التأويلين بالصواب فى ذلك ، تأويل من قال : تأويله هلا أحدثتها من نفسك ؟ لدلالة قول الله : (قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ، هذا بصائر من ربكم) ، فبين ذلك أن الله إنما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه ، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولا وينشئه فيدعو الناس إليه » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٧٧ : ١٣/٣٤٢ ، ولفظه : « لولا تقبلتها » .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٧٩ : ١٣/٣٤٢ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنّ القرآن بصائرُ للناس وهُدًى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراما ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه [1] ﴾ ، ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الإمام ليؤتمّ به ، فاذا كبر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا [2] » ، وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة[3] ، وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ، ولم يخرجه فى كتابه[4] . وقال إبراهيم بن مسلم الهجرى ، عن أبى عياض ، عن أبى هريرة قال : كانوا يتكلّمون فى الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له ﴾ ، والآية الأخرى ، أمروا بالإنصات[5] .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عاصم ، عن المسيب بن رافع ، قال ابن مسعود : كنا يُسلّم بعضنا على بعض فى الصلاة [سلام على فلان ، وسلام على فلان] فجاء القرآن : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ [6]

وقال أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا المحاربى ، عن داود بن أبى هند ، عن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرأون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا[7] ؟ أما آن لكم أن تعقلوا ؟ ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ ، كما أمركم الله [8] .

قال : وحدثنى أبو السائب ، حدثنا حفص ، عن أشعث ، عن الزهرى قال : نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قرأ شيئا قرأه ، فنزلت : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا [9] ﴾ .

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن ، من حديث الزهرى ، عن ابن أكيمة الليثى ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاة جَهَر فيها بالقراءة ، فقال : هل قرأ أحد منكم معى آنفا ؟ [قال رجل : نعم

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٢٦ .

(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب التشهد فى الصلاة : ٢/١٤ ، ١٥ .

(٣) سنن النسائى ، كتاب الافتتاح ، باب تأويل قول الله تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن ﴾ : ٢/١٤١ ، ١٤٢ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « إذا قرأ الإمام فأنصتوا » ، الحديث ٨٤٦ : ١/٢٧٦ . ومسند الإمام أحمد : ٢/٣٧٦ ، ٤٢٠

(٤) قال أبو بكر بن أخت النضر للإمام مسلم بعد أن ساق حديث أبى موسى : « فحديث أبى هريرة ؟ فقال : هو صحيح — يعنى : « إذا قرأ فأنصتوا » ، فقال : هو عند صحيح — فقال : لم لم تضعه ها هنا ؟ قال : ليس كل شىء عندى صحيح وضعته ها هنا ، إنما وضعت ها هنا ما أجمعوا عليه » . ينظر مسلم ، كتاب الصلاة ، باب التشهد فى الصلاة : ٢/١٥

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٢ : ١٣/٣٤٥

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٢ : ١٣/٣٤٥ ، وما بين القوسين عنه .

(٧) فى تفسير الطبرى : « أن تفقهوا » .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٤ : ١٣/٣٤٦ .

(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٣ : ١٣/٣٤٦ .

يا رسول الله : قال : إنى أقول : مالى أنازَع (١) القرآن] قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصلوات ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » : وصححه أبو حاتم الرازى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن يونس ، عن الزهرى قال : لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته ، ولكنهم يقرأون (٣) فيما لا يجهر به سرا فى أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولا علانية ، فإن الله تعالى قال : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٤)) .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولى الشافعى ، وهو القديم كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة : وقال فى الجديد : يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب على المأموم قراءة أصلا فى السرية ولا الجهرية ، لما ورد فى الحديث : « من كان له إمام فقراءته له قراءة (٥) » : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعا ، وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان ، عن جابر موقوفا ، وهذا أصح . وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع ، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفا على حدة ، واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضا ، والله أعلم .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) ، يعنى : فى الصلاة المفروضة (٦) . وكذا روى عن عبد الله بن المغفل .

وقال ابن جرير : حدثنا حميد بن مسعدة ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا الجريرى ، عن طلحة بن عبيد الله ابن كَرِيز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان ، والقاصّ يقص ، فقلت : ألا تسمعان إلى (الذكر) وتستوجبان الموعود ؟ قال : فنظرا إلى ، ثم أقبلا على حديثهما . قال : فأعدت ، فنظرا إلى ، وأقبلا على حديثهما . قال : فأعدت الثالثة ، قال : فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة : (وإذا قرىء القرآن ، فاستمعوا له وأنصتوا (٧) .

---

(١) أى : أداخل فى القراءة وأغالب عليها .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٠١ ، ٣٠٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة » ، الحديث ٣١١ : ٢/٢٣١ ، ٢٣٢ . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به : ٢/١٤٠ ، ١٤١ ، والموطأ ، كتاب الصلاة ، باب ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به ، الحديث ٤٤ : ١/٨٦ ، ٨٧ .

(٣) مخطوطة الأزهر : « ولكنهم يجهرون » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٠٧ : ١٣/٣٥٠ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٣٩ . وقد رواه ابن ماجه عن جابر مرفوعا أيضاً ، ينظر كتاب الإقامة ، باب « إذا قرأ الإمام فأنصتوا » ، الحديث ٨٥٠ : ١/٢٧٧ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٠٤ : ١٣/٣٤٩ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٤ : ١٣/٣٤٦ .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد فى قوله : (وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) ، قال : فى الصلاة [1] . وكذا رواه غيرُ واحد عن مجاهد .

وقال عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم [2] .

وكذا قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وإبراهيم النخعى ، وقتادة ، والشعبى ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : أن المراد بذلك فى الصلاة .

وقال شعبة ، عن منصور ، سمعت إبراهيم بن أبى حُرّةُ يحدّث أنه سَمِع مجاهداً يقول فى هذه الآية : (وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) ، قال : فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة [3] .

وكذا رَوى ابنُ جُرَيج ، عن عطاء ، مثله [4] .

وقال هشيم ، عن الربيع بن صُبَيح ، عن الحسن قال : فى الصلاة وعند الذكر [5] .

وقال ابن المبارك ، عن بقية : سمعت ثابت بن عجلان يقول : سمعت سعيدَ بن جُبَير يقول فى قوله : (وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) ، قال : الإنصات يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، ويوم الجمعة ، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة [6] .

وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك خلف الإمام وحال الخطبة .

وقال عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن ليث ، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً ، قال : السكوت .

وقال مبارك بن فضالة ، عن الحسن : إذا جلست إلى القرآن فأنصت له .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا عباد بن ميسرة ، عن الحسن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة [7] » . تفرد به أحمد ، رحمه الله .

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يأمر تعالى بذكره اول النهار وآخره ، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب [8]) . وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وهذه الآية مكية .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٥٨٧ : ١٣/٣٤٧ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٠٥ : ١٣/٣٤٩ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦١١ : ١٣/٣٥١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦١٨ : ١٣/٣٥٢ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦١٧ : ١٣/٣٥٢ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦١٦ : ١٣/٣٥١ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٤١ .
(٨) سورة ق ، آية : ٣٩ .

وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار : « والآصال » : جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين .

وأما قوله : (تضرعا وخيفة) ، أي : اذكر ربك فى نفسك رهبة ورغبة ، وبالقول لا جهرا ، ولهذا قال : (ودون الجهر من القول) ، وهكذا يُستحَبّ أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ؛ ولهذا لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) [(١)] .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اربَعُوا [(٢)] على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ؛ إن الذى تدعونه سميع قريب [(٣)] » .

وقد يكون المرادُ من هذه الآية كما فى قوله تعالى : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا [(٤)]) ؛ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبُّوه ، وسبوا من أنزله ومن جاء به ؛ فأمره الله تعالى أن لا يجهر به ، لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسْمِعَهم ، وليتخذْ سبيلا بين الجهر والإسرار ؛ وكذا قال فى هذه الآية الكريمة : (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين) .

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة [(٥)] . وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به ، ثم المراد بذلك فى الصلاة ، كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصاتَ إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرا أو جهرا ، فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقال : (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) .. الآية . وإنما ذكرهم بهذا ليُتَشَبَّهَ بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم . ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ، عز وجل ، كما جاء فى الحديث : « ألا تَصُفُّون كما تَصُفّ [الملائكة] عند ربها ، يتمون الصفوف الأول ، ويتراصون فى الصف [(٦)] » .

وهذه أول سجدة فى القرآن ، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورَدَ فى حديث رواه ابن ماجه [(٧)] ، عن أبى الدرداء ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه عدّها فى سجدات القرآن .

آخر سورة الأعراف ، ولله الحمد والمنة

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه ، ينظر فيما سبق الآية ١٨٦ من سورة البقرة : ١ / ٣١٣ .

(٢) أى : ارفقوا .

(٣) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة : ٨ / ١٠١ ، ١٠٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر : ٨ / ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٣ / ٣٥٣ .

(٦) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الأمر بالسكون فى الصلاة والنهى عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام ، وإتمام الصفوف الأول ، والتراص فيها ، والأمر بالاجتماع : ٢ / ٢٩ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف ، الحديث ٦٦١ ، ١ / ١٧٧ ، ١٧٨ . والنسائى ، كتاب الإمامة ، باب حث الإمام على رص الصفوف : ٢ / ٩٢ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة باب إقامة الصفوف ، الحديث ٩٩٢ : ١ / ٣١٧ . ومسند الإمام أحمد عن جابر بن سمرة : ٥ / ١٠١ ، وينظر : ٢ / ٩٨ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب عدد سجود القرآن ، الحديث ١٠٥٦ : ٢ / ٣٣٥ .

تفسير سورة الأنفال

وهى مدنية ، آياتها سبعون وست آيات ، كلماتها ألف كلمة ، وستمائة كلمة ، وإحدى وثلاثون كلمة ؛ حروفها خمسة آلاف ومائتان ، وأربعة وتسعون حرفا ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)

قال البخارى : قال ابن عباس : « الأنفال » الغنائم — : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، أخبرنا هشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الأنفال ؟ قال : نزلت فى بدر [1] .

أما ما علّقه [2] عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس أنه قال : « الأنفال » الغنائم [3] ، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، ليس لأحد منها شىء . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى ، ومقاتل بن حيّان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد أنها الغنائم .

وقال الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس أنه قال : « الأنفال » : الغنائم ، قال فيها لبيد [4] :

إنّ تقوَى ربّنا خيرُ نفَلْ   وبإذْن الله ريْثى وعَجَلْ

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن « الأنفال » ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : الفرس من النَّفَل ، والسلَب من النفل . ثم عاد لمسألته ، فقال ابن عباس ذلك أيضا . ثم قال الرجل : « الأنفال » التى قال الله فى كتابه ، ما هى ؟ قال القاسم : فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ، مثل صَبِيغ الذى ضربه عمر ابن الخطاب [5] .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٦ / ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) المعلق : ما حذف من مبدأ إسناده واحد فأكثر على التوالى ، ويعزى الحديث إلى ما فوق المحذوف من رواته ، مثل ما رواه البخارى عن ابن عباس من تفسير الأنفال بالمغانم ، فقد حذف رواته من مبدأ إسناده إلى ابن عباس .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٣٣ : ١٣ — ٣٦٢ .

(٤) ديوان : ٢ — ١١ ، ومجاز القرآن لابن عبيدة : ١ — ٤٠ ، واللسان ، مادة نفل .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٤٦ : ١٣ — ٣٦٤ .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا سُئل عن شىء قال : « لا آمرك ولا أنهاك » ، ثم قال ابن عباس : والله ما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلا زاجرا آمرا مُحلاً محرما — قال القاسم : فَسُلِّط على ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال ، فقال ابن عباس : كان الرجل يُنَفَّل فرس الرجل وسلاحه . فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم أعاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مَثَل هذا ؟ مثل صَبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب ، حتى سالت الدماء على عقبيه — أو على رجليه — فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم (١) الله لعمر منك .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : أنه فسرّ النَّفَل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَب أو نحوه ، بعد قَسْم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفَل ، والله أعلم .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخُمُس بعد الأربعة الأخماس ، فنزلت : (يسألونك عن الأنفال) (٢) .

وقال ابن مسعود ومسروق : لا نَفَل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف . رواه ابن أبى حاتم عنهما .

وقال ابن المبارك وغير واحد ، عن عبد الملك بن أبى سليمان ، عن عطاء بن أبى رباح : (يسألونك عن الأنفال) ، قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء (٣) .

وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : هى أنفال السرايا .

حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا على بن صالح بن حى قال : بلغنى فى قوله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) ، قال : السرايا (٤) .

ويعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قَسْمهم مع بقية الجيش ، وقد صرح بذلك الشعبى ، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم (٥) ، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو إسحاق الشيبانى ، عن محمد بن عبيد الله الثقفى ، عن سعد بن أبى وقاص قال :

= « وصبيغ » هو « صبيغ بن عسل » ، ويقال : « صبيغ بن سهل » الحنظلى ، ترجم له ابن حجر فى الإصابة ، الترجمة ٤١٢٣ ، ٢ / ١٩١ ، وكان قد قدم المدينة ، وجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . قال : وأنا عبد الله عمر — فضربه حتى أدمى رأسه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى . ثم نفاه إلى البصرة .

(١) فى المخطوطة : « اسم الله » . والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٤٧ : ١٣/ ٣٦٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٤٧ : ١٣/ ٣٦٥ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٤٧ : ١٣/ ٣٦٥ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٣٨ : ١٣/ ٣٦٢ .

(٥) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/ ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

« لما كان يوم بدر ، وقتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى « ذا الكَتيفَة » ، فأتيت به نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهب فاطرحه فى القَبَض . قال : فرجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى ، قال : فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فخذ سيفك » (١) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن مالك قال ، قال : يا رسول الله، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف . فقال : إن هذا السيف لا لك(٢) ولا لى، ضعه . قال: فوضعته: ثم رجعت قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى(٣) بلائى! . قال رجل يدعونى من ورائى ، قال قلت : قد أنزل الله فى شيئاً ؟ قال : كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى وإنه قد وهب لى ، فهو لك : قال : وأنزل الله هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول (٤)) .

ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى من طرق ، عن أبى بن عياس ، به : وقال الترمذى : حسن صحيح (٥) .

وهكذا رواه أبو داود الطيالسى : أخبرنا شعبة ، أخبرنا سماك بن حرب ، قال سمعت مصعب بن سعد ، يحدث عن سعد قال : نزلت فى أربع آيات : أصبت سيفا يوم بدر ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : نَفِّلْنيه . فقال : ضعه من حيث أخذته ، مرتين ، ثم عاودته فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ضعه من حيث أخذته : فنزلت هذه الآية : (يسألونك عن الأنفال) .

وتمام الحديث فى نزول : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) (٦) ، وقوله تعالى : (إنما الخمر والميسر (٧)) ، وآية الوصية (٨) . وقد رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث شعبة (٩) ، به .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسَيد مالك بن ربيعة يقول : أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر ، وكان السيف يدعى بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما فى أيديهم من النَّفَل ، أقبلت به فألقيته فى النَّفَل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يُسأله ، فرآه الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ، فسأله رسول الله ، فأعطاه (١٠) إياه .

ورواه ابن جرير من وجه آخر (١١) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/١٨٠ . والكتيفة - بفتح الكاف - : السيف العريض . والقبض - بفتح القاف والباء - : بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(٢) فى المسند : « ليس لك ولا لى » .

(٣) فى المسند : « من لم يبل » ولفظ المخطوطة موافق للترمذى .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/١٧٨ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى النفل ، الحديث ٢٧٤٠ : ٣/٧٧ ، ٧٨ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأنفال ، الحديث ٥٠٧٤ : ٨/٤٦٦ - ٤٦٨ .

(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٨ .

(٧) سورة المائدة ، آية : ٩٠ . وقد مضى الحديث عند هذه الآية عن سنن البيهقى : ٣/١٧٦ .

(٨) هى الآية ١٥ من سورة لقمان .

(٩) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فى فضل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : ٧/١٢٦ ، ١٢٧ .

(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٦٠ : ١٣/٣٧٤ .

(١١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٦١ : ١٣/٣٧٥ .

(سبب آخر فى نزول الآية)

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن ، عن سليمان بن موسى ، عن مكحول عن أبى أمامة قال : سألت عُبادة عن الأنفال ، فقال : فينا — أصحاب بدر — نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء — يقول : عن سواء[1] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا معاوية بن عمرو[2] أخبرنا أبو إسحاق[3] عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة ، عن سليمان بن موسى عن أبى سلام ، عن أبى أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبَّت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن منعنا[4] عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : [لستم بأحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم] ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، فنزلت : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغار فى أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل ، وكلّ الناس راجعا ، نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال[5] (ويقول : ليرد قوى المؤمنين على ضعيفهم) .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث سفيان الثورى ، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن[6] . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث ، وقال الحاكم ، صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه[7] .

وروى أبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن مردويه — واللفظ له — وابن حبان ، والحاكم من طرق ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صنع

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٢٢ .

(٢) فى المخطوطة : « معاوية بن عمر » . وصوابه ما أثبتناه ، عن التهذيب : ١٠/٢١٥ . وهو معاوية بن عمرو بن المهلب المعنى أبو عمر البغدادى ، يروى عن أبى إسحاق الفزارى .

(٣) فى المخطوطة : ابن إسحاق . ينظر التعليق السابق ، والتهذيب : ٦/١٥٦ .

(٤) فى المسند : « نحن نفينا عنها » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٢٤ . وما بين الأقواس المعقوفة منه .

(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب فى النفل ، الحديث ١٦٠٦ : ٥/١٧٥ ، ١٧٦ ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب النفل ، الحديث ٢٨٥٢ : ٢/٩٥١ .

(٧) المستدرك ، كتاب قسم الفىء : ٢/١٣٦ . وكتاب التفسير ، تفسير سورة الأنفال : ٢/٣٢٦ وفى هذه الرواية : « الحارث بن عبد الرحمن » ، وهو خطأ لا شك فيه .

كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع في ذلك شبان(١) الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم ، جاءوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فانا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم (٢) لفئتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) إلى قوله : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)(٣) .

وقال الثورى ، عن الكلبى ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا . فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول الله ، وعدتنا ، فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك ، فتشاجروا ، ونزل القرآن : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) ، قال : ونزل القرآن : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) إلى آخر الآية .

وقال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سلام ، رحمه الله ، فى كتاب « الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها » : أما الأنفال فهى المغانم ، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى : (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) ، فقسَّمها يوم بدر على ما أراده الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه فى حديث سعد . ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى (٤) .

قلت : هكذا روى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، سواء (٥) . وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، والسدى .

وقال ابن زيد : ليست منسوخة بل هى محكمة (٦) .

قال أبو عبيد : وفى ذلك آثار ... والأنفال أصلها جمع الغنائم ، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب ، وجرت به السنة . ومعنى الأنفال فى كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو [شىء] خصه الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمه على الأمم قبلهم فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل(٧) .

قلت : شاهد هذا فى الصحيحين عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . : فذكر الحديث إلى أن قال : وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » ، وذكر تمام الحديث(٨) .

---

(١) فى المخطوطة : « فتنازع فى ذلك » والمثبت عن تفسير الطبرى ، الاثر ١٥٦٥١ : ١٣/٣٦٨ ، فهو أقرب إلى رواية ابن مردويه .

(٢) انكشفتم : انهزمتم .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى النفل ، الحديث ٢٧٣٧ : ٣/٧٧ . وتفسير الطبرى ، الآثار ١٥٦٥١ - ١٥٦٥٣ : ١٣/٣٦٨ ، ٣٦٩ . والمستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢/٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى : صحيح .

(٤) الأموال لأبى عبيد : ٤٢٦ . ط دار الشرق للطباعة .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٦٧ : ١٣/٣٧٨ ، وآثار مجاهد وعكرمة والسدى فى الطبرى : ١٣/٣٨٠ .

(٦) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٣٨١ .

(٧) الأموال لأبى عبيد : ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ .

(٨) سبق تخريج هذا الحديث عند الآية ٤٣ من سورة النساء ، ينظر : ٢/٢٨١ .

ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو . وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع ، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى :

فإحداهن في النفل لا خمس فيه ، وذلك السلب .

والثانية : في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس . وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس .

والثالثة : في النفل من الخمس نفسه . وهو أن تحاز الغنيمة كلها ، ثم تخمس ، فاذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى .

والرابعة : في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسوّاق لها ، وفي كل ذلك اختلاف (١) .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب (٢) .

قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، وذلك من خمس النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فان له خمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإمام أن يجتهد ، فاذا كثر العدو واشتدت شوكتهم ، وقل من بإزائه من المسلمين ، نفل منه اتباعا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل .

والوجه الثالث من النفل : إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً ، فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئاً فله بعد الخمس ، فذلك لهم على ما شرط الإمام ؛ لأنهم على ذلك غزوا ، وبه رضوا . انتهى كلامه .

وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : « إن غنائم بدر لم تخمس » نظر ، ويرد عليه حديث على بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلاله من الخمس يوم بدر ، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانا شافيا ، ولله الحمد .

وقوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) ، أي : اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ، (وأطيعوا الله ورسوله) ، أي : في قسمه بينكم على ما أراده الله ، فانه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف .

وقال ابن عباس : هذا تحريج من الله [على المؤمنين](٣) أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم . وكذا قال مجاهد .

وقال السدي : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) ، أي : لا تستبّوا (٤) . ولنذكر هاهنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلي رحمه الله في مسنده فانه قال : حدثنا مجاهد بن موسى ، حدثنا عبد الله بن بكر(٥) ،

---

(١) ينظر كتاب الأموال لأبي عبيد : ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) ينظر كتاب الأم : ٤/٦٦ .

(٣) من تفسير الطبري ، الأثر ١٥٦٨١ : ١٣/٣٨٤ . والتحريج التضييق . وأثر مجاهد قبله .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٦٨٢ : ١٣/٣٨٤ .

(٥) في المخطوطة : « عبد الله بن بكير » . والمثبت من ميزان الاعتدال ، ترجمة عباد بن شيبة الحبطي ٢/٣٦٦ ، قال الذهبي : « روى عنه عبد الله بن بكر السهمي » .

حدثنا عباد بن شيبة الحبطي ، عن سعيد بن أنس ، عن أنس رضى الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال : رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة تبارك وتعالى ، فقال أحدهما : يارب ، خذ لى مظلمتى من أخى : قال الله تعالى أعط أخاك مظلمته . قال : يا رب ، لم يبق من حسناتى شيء . قال : رب ، فليحمل عنى من أوزارى — قال : قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم — فقال الله تعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه فقال: يارب ، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ ، لأى نبى هذا ؟ لأى صديق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن ؟ قال : يارب ، ومن يملك ذلك ؟ قال: أنت تملكه : قال : ماذا يا رب ؟ قال : تعفو عن أخيك : قال : يارب ، فإنى قد عفوت عنه . قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند [أداء] فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، فأدوا فرائضه — (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) ، يقول : تصديقاً — (وعلى ربهم يتوكلون) ، يقول : لا يرجون غيره (١) .

وقال مجاهد : (وجلت قلوبهم) ، فرقت . أى : فزعت وخافت . وكذا قال السدى وغير واحد (٢) .

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون (٣) . وكقوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى) (٤) . ولهذا قال سفيان الثورى سمعت السدى يقول فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، قال : هو الرجل يريد أن يظلم — أو قال : يهم بمعصية — فيقال : له اتق الله فيجل قلبه .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٨٤ : ١٣/٣٨٦ .
(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٦٨٩ — ١٥٦٩٢ : ١٣/٣٨٦ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٣٥ .
(٤) سورة النازعات ، آية : ٤٠ ، ٤١ .

وقال الثورى أيضاً ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء فى قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، قالت : الوجل فى القلب إحراق السعفة ، أما تجد لها قشعريرة ؟ قال : بلى قالت لى : إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك ، فان الدعاء يذهب ذلك (١) .

وقوله : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ، كقوله : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) (٢) .

وقد استدل البخارى (٣) وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها ، على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة ، كالشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول الشرح البخارى ، ولله الحمد والمنة .

(وعلى ربهم يتوكلون) ، أى : لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان .

وقوله : (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ، ينبه بذلك على أعمالهم ، بعد ما ذكر اعتقادهم ؛ وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى .

وقال قتادة : إقامة الصلاة : المحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها .

وقال مقاتل بن حبان : « إقامتها » : المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم هذا إقامتها .

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج الزكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب ، والخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه .

قال قتادة فى قوله : (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما أعطاكم الله ، فانما هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم ، أو شكت أن تفارقها .

وقوله : (أولئك هم المؤمنون حقاً) ، أى : المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكى ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن محمد بن أبى الجهم عن الحارث بن مالك الأنصارى : أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٦٩١ : ١٣/٣٨٧ . وهو فى الطبرى عن أبى الدرداء .
(٢) سورة التوبة ، آية ٤ ٩ .
(٣) البخارى ، أول كتاب الإيمان : ١/٨ .

قل : أنظر ماذا تقول فان لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك . فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارث ، عرفت فالزم ، ثلاثا (١) .

وقال عمرو بن مرة فى قوله : (أولئك هم المؤمنون حقا) ، إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقا ، وفى القوم سادة . وفلان تاجر حقا ، وفى القوم تجار . وفلان شاعر حقا ، وفى القوم شعراء (٢) .

وقوله : (لهم درجات عند ربهم) ، أى : منازل ومقامات ودرجات فى الجنات ، كما قال تعالى : (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) (٣) .

(ومغفرة) ، أى : يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات .

وقال الضحاك فى قوله : (لهم درجات عند ربهم) : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فُضِّل عليه أحد .

ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل علّيين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ، لا ينالها غيرهم ؟ فقال : بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٤) .

وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد أهل السنن من حديث عَطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة ليتراءون [أهل] الدرجات (٥) العلى كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما (٦) » .

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى : اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه « الكاف » فى قوله : (كما أخرجك

---

(١) ينظر أسد الغابة ، ترجمة الحارث بن مالك : ٤١٤/١ .

(٢) يعنى أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات هم أجدر الناس بهذا اللقب وأحقهم به ، وإن كان غيرهم يشاركهم فيه .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٦٣ .

(٤) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة : ١٤٥/٤ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب تراءى أهل الجنة ، أهل الغرف ، كما يرى الكوكب فى السماء : ١٤٥/٨ . ولفظ الصحيح فيهما : « إن أهل الجنة ليتراءون ... » .

(٥) فى المسند : « ليرون أهل عليين » .

(٦) أنعما : زادا وفضلا . والحديث رواه الإمام أحمد فى المسند : ٦١/٣ . وعطية هو ابن سعد العوفى وينظر أيضا المسند : ٢٧/٣ . ورواه أبو داود فى كتاب الحروف ، الحديث ٣٩٨٧ : ٣٤/٤ . وابن ماجه فى المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث ٩٦ : ٣٧/١ .

وربك) ، فقال بعضهم : شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين ، اتقاؤهم ربهم ، وإصلاحهم ذات بينهم ، وطاعتهم الله ورسوله (١) .

ثم روى عن عكرمة نحو هذا .

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ــ وهم النفير الذين خرجوا لنصرَ دينهم ، وإحراز عيرهم ــ فكان عاقبة كراهتكم القتال ــ بأن قدّره لكم ، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ــ رَشَدًا وهدى ، ونصرا وفتحا ، كما قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٢) .

قال ابن جرير : وقال آخرون : معنى ذلك : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) ، على كره من فريق من من المؤمنين ، كذلك هم كارهون للقتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم(٦) ، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال : (كما أخرجك ربك) ، قال : كذلك يجادلونك في الحق (٤) .

وقال السدى : أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) ، لطلب المشركين (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) (٥) .

وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلة ، كما جادلوك يوم بدر فقالوا : « أخرجتنا للعير ، ولم تعلمنا قتالا فنستعدّ له (٣) » .

قلت : رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبي سفيان ، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام ، فيها أموال جزيلة لقريش ، فاستنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ــ من خفّ منهم ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه ، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيرا إلى مكة ، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع (٧) ما بين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا ، وجاء النفير فوردوا ماء بدر ، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد ، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل ، كما سيأتي بيانه .

---

(١) تفسير الطبري : ١٣/٣٩١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .
(٣) تفسير الطبري : ١٣/٣٩١ .
(٤) تفسير الطبري ، الآثار ١٥٧٠١ ــ ١٥٧٠٣ : ١٣/٣٩١ ، ٣٩٢ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٧٠٤ : ١٣/٣٩٢ .
(٦) تفسير الطبري : ١٣/٣٩٢ .
(٧) المقنع : المتغطى بالسلاح . وقيل : هو الذى على رأسه بيضة ــ وهى الخوذة ــ لأن الرأس موضع القناع .

والغرض أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه خروجُ النفير ، أوحى الله إليه يَعِدُه إحدى الطائفتين : إما العير وإما النَّفير ، ورَغب كثير من المسلمين إلى العير ، لأنه كسب بلا قتال ، كما قال تعالى : (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره : حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى ، حدثنا بكر بن سهل ، حدثنا عبد الله ابن يوسف ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أسلم أبى عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة : « إنى أخبرتُ عن عير أبى سفيان أنها مقبلة ؛ فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير لعل الله يُغْنِمُنَاهَا ؟ فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سِرْنا يوما أو يومين قال لنا : ما ترون فى قتال القوم ؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ فقلنا : لا ، والله ما لنا طاقة بقتال العدو ؛ ولكنا أردنا العير . ثم قال : ما ترون فى قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذاً لا نقول لك يارسول الله كما قال قومُ موسى لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، قال : فتمنينا — معشر الأنصار — أن لوقلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم : قال : فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) ... وذكر تمام الحديث [1] .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث ابن لهيعة ، بنحوه .

وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى ، عن أبيه ، عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله ، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا . قال : ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبى بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف تَرَوْن ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ، ماسلكتها قَطّ ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى « بَرْك الغماد » [2] من ذى يمن لنسيرَنّ معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث [الله] إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك ، فامض له ، فَصِلْ حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) ... الآيات . [3] .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : لما شاور النبيّ صلى الله عليه وسلم فى لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال ، وذلك يوم بدر ، أمر الناس فعبئوا للقتال ، وأمرهم بالشوكة ، فكره ذلك أهل الإيمان ، فأنزل الله : (كما أخرجك

(١) الدر المنثور : ١٦٣/٣ .

(٢) برك الغماد — يكسر الغين وضمها : موضع وراء مكة — بخمس ليال يلى البحر .

(٣) الدر المنثور : ١٦٣/٣ .

وبك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (١)) .

وقال مجاهد : يجادلونك فى الحق : فى القتال (٢) . (وقال محمد بن إسحاق : (يجادلونك فى الحق)] أى : كراهية لقاء المشركين ، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم (٣) .

وقال السدى : (يجادلونك فى الحق بعد ما تبين) ، أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به (٤) .

قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى بذلك المشركين (٥) .

حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله تعالى : (يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) ، قال : هؤلاء المشركون ، جادلوه فى الحق — (كأنما يساقون إلى الموت) ، حين يدعون إلى الإسلام — (وهم ينظرون) ، قال : وليس هذا من صفة الآخرين ، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر (٦) .

ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ، لأن الذى قبل قوله : (يجادلونك فى الحق) خبر عن أهل الإيمان ، والذى يتلوه خبر عنهم ، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين (٧) .

وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن أبى بكير (٨) وعبد الرزاق قالا : حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شىء فناداه العباس بن عبد المطلب — قال عبد الرزاق : وهو أسير فى وثاقه — ثم اتفقا : إنه لا يصلح لك : قال : ولم ؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك .

إسناد جيد ، ولم يخرجه .

ومعنى قوله تعالى : (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) ، أى : يحبون أن الطائفة التى لا حدّ لها ولا منعة ولا قتال ، تكون لهم ، وهى العير : (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) ، أى : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧١٢ : ١٣/٣٩٥ .
(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٧٠٥ — ١٥٧٠٧ : ١٣/٣٩٣ ، ٣٩٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧١٣ : ١٣/٣٩٥ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧١٦ : ١٣/٣٩٧ .
(٥) تفسير الطبرى ، ١٣/٣٩٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧١٤ : ١٣/٣٩٥ ، ٣٩٦ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٣/٣٩٦ ، ٣٩٧ .
(٨) رواية يحيى بن أبى بكير فى مسند الإمام أحمد : ١/٢٢٩ ، ورواية عبد الرزاق فى المسند : ١/٣١٤ . وقد أخرجه الترمذى فى تفسير سورة الأنفال ، عن عبد بن حميد ، عن عبد الرزاق بإسناده مثله . الحديث ٥٠٧٦ : ٨/٤٧١ ، ٤٧٢ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه أحمد » .

التي لها الشوكة والقتال ، ليُظْفِرَكم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالبا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كما قال تعالى: ﴿كُتِب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم[1]﴾ .

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله : حدثني محمد بن مسلم الزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن عبد الله بن عباس — كل قد حدثني بعض هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر — قالوا : لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا من الشام نَدَبَ المسلمين إليهم ، وقال : هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنَفِّلَكُمُوها فانتدب الناسُ ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْقَى حربا ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفا على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فَحَذِرَ عند ذلك ، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج ضمضم ابن عمرو سريعاً إلى مكة . وخَرَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له « ذَفِرَان » ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قُرَيش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله به ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون[2]﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « بَرْك الغماد » — يعني مدينة الحبشة — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له بخير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي أيها الناس — وإنما يريد الأنصار — وذلك أنهم كانوا عَدَد الناس[3] وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة ، من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل فقال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردتَ فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ؛ إنا لصُبُر عند الحرب ، صُدق عند اللقاء ، ولعل الله

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٢٤ .

(٣) أي : جمهورهم .

(٤) استعرض البحر ، أو الخطر : أقبل عليه لا يبالي خطره . ينظر تفسير الطبري : ١٣/٤٠١ ، التعليق رقم : ٣ .

يزيلك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله : فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونَشَّطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم (١) ،

وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا : وكذلك قال السدى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نوح قُرَاد ، حدثنا عكرمة بن عمّار ، حدثنا سماك الحنفى أبو زُمَيل ، حدثنى ابن عباس حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيّف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبى صلى الله عليه وسلم القبلة [ثم مدّ يديه] وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : اللهم [أين ماوعدتنى ، اللهم] أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا — قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه(٢) ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا رسول الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) . فلما كان يومئذ والتقوا ، فهزم الله المشركين ، فقُتِل منهم سبعون رجلا ، وأسر منهم سبعون رجلا . واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعلياً وعمر ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قُوّةً لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال ، قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تُمكّننى من فلان — قريب لعمر — فأضربَ عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضربَ عنقه ، وتمكن حمزة من فلان — أخيه — فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فَهَوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، وأخذ منهم الفداء : فلما كان من الغد — قال عمر — غدوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله ، ما يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدتُ بكاء بكَيتُ ، وإن لم أجد بكاء تَبَاكيتُ لبكائكما ! قال النبى صلى الله عليه وسلم : للذى (٣) عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة — وأنزل الله : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) إلى قوله : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم) من الفداء ، ثم أحل لهم الغنائم : فلما كان يوم أحد من العام المقبل

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٢٠ : ١٣/٣٩٩ — ٤٠١ . وينظر كذلك الأثر ١٥٧١٠ : ١٣/٣٩٤ ، وسيرة ابن هشام : ١/٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٢) رداه تردية : ألبسه الرداء .

(٣) فى المسند : « الذى عرض ... » وفى صحيح مسلم مثل ما فى المخطوطة ، ولفظ مسلم : « أبكى للذى ... » .

عوقبوا بما صنعوا يوم بدر ، من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفرّ أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رَباعيته ، وهُشمت البَيْضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير) ، بأخذكم الفداء (١) .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مَرْدُوَيه ، من طرق عن عكرمة بن عمار ، به : وصححه على بن المدينى والترمذى ، وقالا : « لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليانى (٢) » .

وهكذا رَوَى على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس : أن هذه الآية الكريمة قوله : (إذ تستغيثون ربكم) أنها فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم . وكذا قال يزيد بن يُثَيع ، والسدى ، وابن جريج (٣) :

وقال أبو بكر بن عياش ، عن أبى حصين ، عن أبى صالح قال : لما كان يوم بدر جعل النبى صلى الله عليه وسلم يناشد ربه أشد النِّشدَة يدعو ، فأتاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، بعض نِشْدَتِك ، فوالله ليفيَنّ الله لك بما وعدك (٤) .

وقال البخارى فى « كتاب المغازى » ، باب قول الله عز وجل : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) إلى قوله : (فإن الله شديد العقاب) : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا إسرائيل ، عن مُخَارق ، عن طارق [بن شهاب] قال : سمعت ابن مسعود يقول : شهدتُ من المقداد بن الأسود مَشْهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إلى مما عُدل به ، أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا) ، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك : فرأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره — [يعنى قوله] :

وحدثنا محمد بن عبد الله بن حَوْشب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : اللهم أنشدك عَهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعْبَد : فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك . فخرج وهو يقول : (سيُهزَم الجمعُ ويولونَ الدُّبُر (٥)) :

ورواه النسائى عن بُندار ، عن عبد الوهاب بن (٦) عبد المجيد الثقفى .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠ ، ٣١ .
(٢) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم : ٥/١٥٦ — ١٥٨ . وسنن أبى داود كتاب الجهاد ، باب فى فداء الأسير بالمال ، الحديث ٥٠٧٥ : ٨/٤٦٨ — ٤٧١ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . وتفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٣٤ : ١٣/ ٤٠٩ ، ٤١٠ .
(٣) ينظر آثار هذه الجماعة فى تفسير الطبرى : ١٣/٤١٠ ، ٤١١ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٤١ : ١٣/٤١١ .
(٥) الحديثان فى البخارى ، كتاب المغازى : ٥/٩٢ ، ٩٣ .
(٦) فى المخطوطة : « عبد الوهاب من عبد المجيد » . وهو خطأ ، ينظر ترجمته فى التهذيب : ٦/٤٤٩ ، ٤٥٠ .

وقوله تعالى : (بألف من الملائكة مردفين) ، أى : يَرْدِفُ بعضهم بعضا ، كما قال هارون بن عنترة (١) ، عن ابن عباس (مُرْدَفين) : متتابعين (٢) .

ويحتمل أن المراد (مردَفين) لكم ، أى : نجدة لكم ، كما قال العوفى ، عن ابن عباس : (مردفين) ، يقول : المدّد ، كما تقول : إئت الرجل فزده كذا وكذا(٣) .

وهكذا قال مجاهد ، وابن كثير القارىء ، وابن زيد : (مردفين) : مُمَدّين .

وقال أبو كُدَيْنة (٤) ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس (ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، قال : وراء كل ملك ملك (٥) .

وفى رواية بهذا الإسناد : (مردفين) ، قال : بعضهم على أثر بعض . وكذا قال أبو ظبيان ، والضحاك ، وقتادة .

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى ، حدثنى عبد العزيز بن عمران ، عن الزّمعى(٦) ، عن أبى الحويرث ، عن محمد بن جُبَيْر ، عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى صلى الله عليه وسلم [و فيها أبو بكر . ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى صلى الله عليه وسلم] ، وأنا فى الميسرة (٧) .

وهذا يقتضى — لو صح إسناده — أن الألف مردفة بمثلها ، ولهذا قرأ بعضهم : (مُردَفين) بفتح الدال ، فالله أعلم .

والمشهور ما رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنِّبة (٨) .

وروى الإمام أبو جعفر بن جَرير ، ومسلم ، من حديث عكرمة بن عمار ، عن أبى زُمَيْل سِماك بن وليد الحَنَفى ، عن ابن عباس ، عن عمر الحديث المتقدم : ثم قال أبو زُمَيْل : حدثنى ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتدّ (٩) فى أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوتَ الفارس [يقول : « أقدم حَيْزُومُ (١٠) » ،

---

(١) فى المخطوطة : « هارون بن هبيرة » . وهو خطأ ، وترجمته فى التهذيب : ١١/٩ ، ١٠ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٤٣ : ١٣/٤١٢ .

(٣) الأثر فى تفسير الطبرى ، برقم ١٥٧٤٢ : ١٣/٤١٣ ، ولفظه : « يقول : المزيد » . وفى مخطوطة الأزهر : « يقول المدد » ، والآثار المنقولة عن مجاهد وابن كثير تؤيد نص المخطوطة .

(٤) أبو كدينة – بضم الكاف وفتح الدال – هو : يحيى بن المهلب ، ينظر ترجمته فى التهذيب : ١١/٢٨٩ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٥٧٤٥ : ١٣/٤١٢ .

(٦) هو موسى بن يعقوب الزمعى القرشى ، ثقة . ينظر التهذيب : ١٠/٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٧) لفظ الطبرى : « وأنا فيها » والأثر فى تفسير الطبرى برقم ١٥٧٥٦ : ١٣/٤١٧ . وما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر .

(٨) مجنبة الجيش : هى التى تكون فى الميمنة والميسرة . والأثر فى تفسير الطبرى برقم ١٥٧٧٠ : ١٣/٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٩) يشتد : يسرع .

(١٠) أى : اجترىء يا حيزوم على العدو ولا تحجم . والحيزوم : اسم فرس الملك .

إذ نظر إلى المشرك أمامه ، فخر مستلقيا قال] (١) : فنظر إليه ، فإذا هو قد خُطِم [أنفه] (٢) ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضر (٣) ذلك أجمع ، فجاء الأنصارى فحدّث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : صدقتَ ، ذلك من مَدَد السماء الثالثة ، فقتَلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين :

وقال البخارى : « باب شهود الملائكة بدرا » : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقى ، عن أبيه — وكان أبوه من أهل بدر — قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين — أو كلمة نحوها — قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.(٤).

انفرد بإخراجه البخارى ، وقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خَدِيج ، وهو خطأ ، والصواب رواية البخارى ، والله أعلم .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (٥) » .

قوله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى) ... الآية ، أى : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى (ولتطمئنّ به قلوبكم) ؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ، ولهذا قال : (وما النصر إلا من عند الله) ، كما قال تعالى : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها (٦) (لهم) ، وقال تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين : وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (٧) ، فهذه حِكَمٌ شرَع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها . وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمة المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاداً الأولى بالدَّبُور ، وثمودَ بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق فى اليم ، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم فى بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر) (٨) ، وقَتْلُ المؤمنين الكافرين أشد إهانة

---

(١) ما بين القوسين عن صحيح مسلم : ١٥٧٥/٥ .

(٢) خطم أنفه : أى حصل على أنفه أثر من الضرب .

(٣) أى : فصار موضع ذلك كله أخضر .

(٤) البخارى ، كتاب المغازى ، باب شهود الملائكة بدراً : ١٠٣/٥ .

(٥) البخارى ، كتاب المغازى ، باب فضل من شهد بدرا : ٩٨/٥ ، ٩٩ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر رضى الله عنهم ، وقصة حاطب بن أبى بلتعة : ١٦٧/٧ ، ١٦٨ .

(٦) سورة محمد ، آية : ٤-٦ .

(٧) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٨) سورة القصص ، آية : ٤٣ .

للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين (١)) ، ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان . فَقَتْلُ أبي جهل فى معركة القتال وَحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموتَ على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك ، كما مات أبو لهب — لعنه الله — بالعَدَسة (٢) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى : (إن الله عزيز) ، أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ، (حكيم) فيما شرعه من قتال الكفار ، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم ، بحوله وقوته ، سبحانه وتعالى .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانا من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عَدُوّهم وقلة عَدَدهم ، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أحُد ، كما قال تعالى : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم (٣)) :

قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ، ولقد سقط السيف من يدى مرارا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف (٤) :

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا ابن مهدى ، عن شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن حارثة بن مُضَرِّب ، عن على رضى الله عنه قال : ماكان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح :

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم عن أبي رَزين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : النعاس فى القتال أمنة من الله ، وفى الصلاة من الشيطان (٥) :

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٤ .
(٢) العدسة : بثرة تشبه العدسة ، تخرج فى مواضع من الجسد ، تقتل صاحبها غالباً (النهاية) .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٥٤ .
(٤) ينظر فيما تقدم الآية ١٥٤ من سورة آل عمران ، فقد مضى هذا الأثر ، وأخرجناه ، وشرحنا كلمة الحجفة هنالك : ٢/١٢٥
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٥٨ : ١٣/٤١٩ .

وقال قتادة : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب .

قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد ، وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هى فى سياق قصة بدر ، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله . وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم ، وكما قال تعالى : (فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا) (١) ولهذا فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضى الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسما فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع (٢) . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

وقوله : (وينزل عليكم من السماء ماء) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبى صلى الله عليه وسلم — يعنى : حين سار إلى بدر — والمسلمون (٣) بينهم وبين الماء رملة دعصة (٤) ، فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وانشف (٥) الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة (٦) .

وكذا قال العوفى عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر ، فغلبوا المؤمنين عليه . فأصاب المؤمنين الظمأ ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين ، حتى تعاطوا ذلك فى صدورهم ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادى ، فشرب المؤمنون ، وملئوا الأسقية ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله فى ذلك طهورا ، وثبت الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة ، فبعث الله المطر عليها ، فضربها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام (٧) .

ونحو ذلك روى عن قتادة ، والضحاك ، والسدى .

وقد روى عن سعيد بن المسيب ، والشعبى ، والزهرى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أنه طش أصابهم يوم بدر (٨) .

---

(١) سورة الانشراح ، آية : ٥ ، ٦ .

(٢) النقع : الغبـــار .

(٣) فى المخطوطة : « والمشركون بينهم وبين الماء » . ولا يستقيم عليه السياق ، والمثبت من تفسير الطبرى .

(٤) « الدعصة » ، بكسر الدال وسكون العين : طائفة من الرمل مجتمعة ، يعنى أنها أرض لينة تسوخ فيها القدم وتغوص .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومعناه : يبس الرمل . وفى تفسير الطبرى : « وثبت الرمل » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٧٠ : ١٣/٤٢٣ ، ٤٢٤ . وقد مضى تفسير « مجنبة » عند قوله تعالى : « فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٧٠ ، ١٣/٤٢٤ .

(٨) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٤٢٢ ، ٤٢٣ . والطش : المطر القليل ، وهو فوق الرذاذ .

والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر ، نزل على أدنى ماء هناك ، أى : أول ماء وجده ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يارسول الله،هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه،أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : بل منزل نزلته للحرب والمكيدة . فقال : يارسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى لنزل على أدنى ماء يلى القوم ونُعَوِّر ماوراءه من القُلُب (١) ، ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل كذلك (٢) .

وفى مغازى « الأموى » أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ذلك الملك : يامحمد ، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأى ماأشار به « الحباب بن المنذر » ، فالتفت رسول الله إلى جبريل عليه السلام فقال : هل تعرف هذا ؟ فنظر إليه فقال : ماكل الملائكة أعرفهم ، وإنه ملك وليس بشيطان .

وأحسن مافى هذا مارواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب « المغازى » رحمه الله : حدثنى يزيد بن رُومان ، عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادى دَهْسا (٣) ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مالبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشا مالم يقدروا على أن يرتحلوا معه (٤) .

وقال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس ، فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبَّدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم(٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا أبو إسحاق عن حارثة ، عن على رضى الله عنه قال : أصابنا من الليل طَشّ من المطر ــ يعنى الليلة التى كانت فى صبيحتها وقعة بدر ــ فانطلقنا تحت الشجرَ والحَجَف ، (٦) نستظل تحتها من المطر : وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم [يدعو ربه : « اللهم ، إن تَهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض ! » ، فلما أن طلع الفجر ، نادى : « الصلاة ، عباد الله ! » ، فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٧) وحرض على القتال .

وقوله : (ليطهركم به) ، أى : من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر : (ويذهب عنكم رجز الشيطان) ، أى : من وسوسة أو خاطر سيء ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة) ، فهذا زينة الظاهر ، (وسقاهم ربهم شراباً طهورا (٨)) ، أى : مطهرا لما كان من غِلّ أو حَسَد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته .

---

(١) القلب ــ بضمتين ــ : جمع قليب ، وهو : البئر ، وفى مستدرك تاج العروس ، مادة عور : « وقال شمر : عورت عيون المياه : إذا دفنتها وسددتها » . وينظر الروض الأنف للسهيل : ٢/٦٦ .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام : ١/٦٢٠ .

(٣) الدهس : كل مكان لين .

(٤) سيرة ابن هشام ٤ ١/٦٢٠ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٧٤ : ١٣/٤٢٥ .

(٦) الحجف ــ بفتحتين ــ واحدة حجفة : وهى الترس ، يكون من الجلود ، ليس فيه خشب ولا عقب .

(٧) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، والطبعات السابقة، أثبتناه من تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٦٤ : ١٤/٤٢٢ .

(٨) سورة الإنسان ، آية : ٢١ .

(وليربط على قلوبكم) ، أى : بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ، (ويثبت به الأقدام) ، وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .

وقوله : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبّتوا الذين آمنوا) ، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ، ليشكروه عليها وهو أنه — تعالى وتقدس وتبارك وتمجد — أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا .

قال ابن إسحاق : وازروهم . وقال غيره : قاتلوا معهم : وقيل : كثروا سوادهم : وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقول : سمعت هؤلاء القوم — يعنى المشركين — يقولون : « والله لئن حملوا علينا لننكشفن » . فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاه ابن جرير ، وهذا لفظه بحروفه (١) .

وقوله : (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) ، أى : ثبّتوا أنتم المسلمين وقووا أنفسهم على أعدائهم ، عن أمرى لكم بذلك : سألقى الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمرى ، وكذب رسولى ، (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) ، أى : اضربوا الهام ففلّقوها ، واحتزّوا الرقاب فقطّعوها ، وقطّعوا الأطراف منهم ، وهى أيديهم وأرجلهم .

وقد اختلف المفسرون فى معنى : (فوق الأعناق) ، فقيل : معناه اضربوا الرءوس ، قاله عكرمة (٢) .

وقيل : معناه (فوق الأعناق) ، أى : على الأعناق ، وهى الرقاب ، قاله الضحاك ، وعطية العوفى (٣) .

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق (٤)) .

وقال وكيع ، عن المسعودى ، عن القاسم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله ، إنما بعثت بضرب الرقاب [وشد الوثاق (٥)] .

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام .

قلت : وفى مغازى « الأموى » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول :

نُفَلِّق هاما ... ...

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣/٤٢٨ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٨٧ : ١٣/٤٣٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣/٤٢٩ .
(٤) سورة محمد ، آية : ٤ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٨٥ : ١٣/٤٢٩ ، وما بين القوسين عنه .

فيقول أبو بكر :

مِنْ رجالٍ أعزّة عليْنا وهُم كانُوا أعقّ وأظْلما (١)

فيبتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول البيت ، ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه إنشاد آخره ، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر ، كما قال الله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي (٢) له) .

وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق ، وعلى البَنان مثل سمة النار قد أحرق (٣) به .

وقوله : (واضربوا منهم كل بنان) ، قال ابن جرير : معناه : واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم : « والبنان » : جمع بنانة ، كما قال الشاعر (٤) :

ألاَ ليتنِي قَطّعتُ منّي بَنَانةً وَلاَقَيْتُهُ في البَيْتِ يَقْظَانَ حَاذِرًا (٥)

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (واضربوا منهم كل بنان) يعنى بالبنان : الأطراف(٦) . وكذا قال الضحاك وابن جُرَيج .

وقال السدى : البنان الأطراف ، ويقال : كل مَفْصِل .

وقال عكرمة ، وعطية العَوْفي والضحاك — في رواية أخرى — : كل مفصل .

وقال الأوزاعي في قوله تعالى : (واضربوا منهم كل بنان) ، قال : اضرب منه الوجه والعين ، وارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك (٧)

وقال العوفى ، عن ابن عباس — فذكر قصة بدر إلى أن قال — : فقال أبوجهل : لاتقتلوهم قتلا ، ولكن خذوهم أخذا ، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ، ورغبتهم عن اللات والعزى . فأوحى الله إلى الملائكة : (أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) فقتل أبو جهل لعنه الله فى تسعة وستين رجلا ، وأُسر عقبة بن أبى مُعيط فقتل صَبْرا ، فوفّى ذلك سبعين يعنى قتيلا .

ولذلك قال تعالى : (ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله) ، أى : خالفوهما فساروا فى شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق ، — و[هو] مأخوذ أيضا من شق العصا ، وهو جعلها فرقتين — (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله

(١) البيت للحصين بن الحمام المرى ، وهو شاعر جاهلى ، يعد من أوفياء العرب ، وكان شاعراً مقلا . وقد ذكر ابن قتيبة البيت فى أبيات أخر ، ينظر الشعر والشعراء : ٦٤٨/٢ .

(٢) سورة يس ، آية : ٦٩ .

(٣) الدر المنثور للسيوطى : ٧٣/٣ .

(٤) هو العباس بن مرداس السلمى .

(٥) البيت فى تفسير الطبرى : ٤٣١/١٣ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٤٢/١ ، واللسان ، مادة « بنن » .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٩٢ : ٤٣٢/١٣ .

(٧) الدر المنثور للسيوطى : ١٧٣/٣ .

شديد العقاب) ، أي : هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لايفوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى لا إله [غيره ، ولا رب] سواه

(ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) هذا خطاب للكفار ، أي : ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار ، في الآخرة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : (ياأيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) ، أي : تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ، (فلا تولوهم الأدبار) ، أي : تفروا وتتركوا أصحابكم . (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال) ، أي : يفر بين يدى قِرْنه مكيدة ، ليريه أنه خاف منه فيتبعه ، ثم يكُرّ عليه فيقتله ، فلا بأس عليه في ذلك : نص عليه سعيد بن جُبَيْر ، والسُّدِّي(١) :

وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرى غِرّة من العدو فيصيبها :

(أو متحيزا إلى فئة) ، أي : فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونوه ، فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاص(٢) الناس حَيْصة وكنت فيمن [حاص] ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فبتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا ، بل أنتم العكّارون ،(٣) أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قَبَّلنا يده . (٤) .

وهكذا رواه أبو داود (٥) ، والترمذي ، وابن ماجه ، من طرق عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذي : حسن (٦) لانعرفه إلا من حديثه .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث يزيد بن أبي زياد ، به — وزاد في آخره : « وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (أو متحيزا إلى فئة)

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٧٩٦ : ١٣/٤٣٦ . وأثر الضحاك الذي يأتي قبله .

(٢) الحيص : الحيد عن الشيء ، يقال : حاص عنه يحيص حيصاً : رجع ، وحاصوا عن العدو : انهزموا .

(٣) العكار : الذي يفر إلى إمامه لينصره ، ليس يريد الفرار من الزحف . والفئة : الجماعة من الناس ، والطائفة التي تقوم وراء الجيش .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٧٠ ، وينظر أيضاً المسند : ٢/٨٦ ، ١٠٠ ، ١١١ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في التولي يوم الزحف » ، الحديث ٢٦٤٦ : ٣/٤٦ ، وتحفة الأحوذي ، أبواب الجهاد ، باب ما جاء في الفرار من الزحف ، الحديث ١٧٧٥ : ٥/٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٦) في تحفة الأحوذي : « حسن غريب ... » .

قال أهل العلم : معنى قوله : « العكارون » ، أى : العطافون . وكذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أبى عُبَيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو انحاز إلى كنتُ له فئة . هكذا رواه محمد بن سيرين ، عن عمر (١)

وفى رواية أبى عثمان النهدى ، عن عمر قال : لما قتل أبو عُبَيد قال عمر : ياأيها الناس ، أنا فئتكم (٢)

وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم

وقال عبد الملك بن عمير ، عن عمر : أيها الناس ، لاتغرنكم هذه الآية ، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسَّان بن عبد الله المصرى ، حدثنا خلَّاد بن سُليمان الحضرمى ، حدثنا نافع : أنه سأل ابن عمر قلت : إنا قوم لانثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة : إمامنا أو عسكرنا ؟ فقال : إن الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : إن الله يقول :(إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) ... الآية ، فقال إنما نزلت هذه الآية فى يوم بدر ، لاقبلها ولا بعدها(٣) .

وقال الضحاك فى قوله : (أو متحيزا إلى فئة) : « المتحيز » : الفار إلى النبى وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه (٤)

فأما إن كان الفرار لاعن سبب من هذه الأسباب ، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر ، لما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يارسول الله ، وما هُنّ ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٥)

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى : (فقد باء) ، أى : رجع (بغضب من الله ومأواه) ، أى : مصيره ومنقلبه يوم ميعاده (جهنم وبئس المصير)

وقال الإمام أحمد : حدثنا زكريا بن عدى ، حدثنا عبيد الله بن عَمْرو الرقى ، عن زيد بن أبى أنيسة ، حدثنا جَبَلَة ابن سُحَيم عن أبى المثنى العَبْدى ، سمعت السدوسى — يعنى ابن الخصاصية ، وهو بشير بن مَعْبَد — قال : أتيت النبى — صلى الله عليه وسلم لأبايعه ، فاشترط على : « شهادة أن لاإله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدى الزكاة ، وأن أحج حَجَّة الإسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد فى سبيل الله » . فقلت : يارسول الله ، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما : الجهاد — فإنهم زعموا أنه من ولّى الدبر فقد باء بغضب من الله ، فأخاف

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨١٢ : ١٣/٤٣٩ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨١٤ : ١٣/٤٣٩ ، ٤٤٠ . وأثر مجاهد بعده .
(٣) الدر المنثور للسيوطى : ٣/١٧٣ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٩٥ : ١٣/٤٣٦ .
(٥) مضى تخريج هذا الحديث ، عند قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ... » الآية ٣١ من سورة النساء : ٢/٢٣ .

إن حضرتُ ذلك خشعت (١) نفسى وكرهت الموت – والصدقة ، فوالله مالى إلا غُنَيْمَةٌ وعشر ذَوْد هُنَّ رَسَل (٢) أهلى وحَمُولتهم . فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، ثم حرّك يده ، ثم قال : فلا جهاد ولا صدقة ، فبم تدخل الجنة إذا ؟ . فقلت : يارسول الله ، أنا أبايعك : فبايعته عليهن كلهنّ (٣)

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه فى الكتب الستة .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر ، حدثنا يزيد بن ربيعة ، حدثنا أبو الأشعث ، عن ثوبان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لاينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » .

وهذا أيضا حديث غريب جدا

وقال الطبرانى أيضا : حدثنا العباس بن الفضل الاسفاطى (٤) حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حفص بن عُمَر الشَّنِّى ، حدثنى عمرو بن مُرّة قال : سمعت بلال بن يسار بن زيد – مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت أبى يحدث عن جدى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : « أستغفر الله الذى لا إله إلا هو وأتوب إليه » غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف » .

وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل ، به : وأخرجه الترمذى ، عن البخارى ، عن موسى بن إسماعيل به : وقال : غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه (٥) .

قلت : ولا يعرف لزيد مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، عنه سواه .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرّاما على الصحابة ، لأنه [يعنى الجهاد (٦)] كان فرض عين عليهم . وقيل : على الأنصار خاصة ، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشّط والمكره . وقيل : المراد بهذه الآية أهلُ بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد وأبى نَضْرة ، ونافع مولى ابن عمر ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم (٧) .

وحجتهم فى هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن تَهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » ، ولهذا قال عبد الله بن المبارك ، عن مبارك بن فَضَالة ، عن الحسن فى قوله : (ومن يولهم يومئذ دبره) ، قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر – أحسبه قال : فلا بأس عليه (٨) .

---

(١) فى المسند : « جشعت » . وفى أسد الغابة ١/٢٢٠ بتحقيقنا : « جبنت » .

(٢) الذود من الإبل : ما فوق الثنتين إلى التسع . والرسل – بفتحتين – : القطيع .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٢٤ .

(٤) فى المخطوطة : « الأسقاطى » بالقاف . وفى المعجم الصغير للطبرانى ١/٢٠٩ : « الأسباطى » بالباء ، وكلاهما خطأ ، ينظر اللباب : ١/٤٣ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فى الاستغفار » ، الحديث ١٥١٧ : ٢/٨٥ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٤٨ : ١٠/٣٠ ، ٣١ .

(٦) ما بين القوسين زيادة يستقيم بها السياق .

(٧) ينظر آثارهم فى تفسير الطبرى : ١٣/٤٣٦ – ٤٣٩ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٧٠٩ : ١٣/٤٣٨ .

وقال ابن المبارك أيضا ، عن ابن لَهيعة : حدثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) ، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) إلى قوله : (ولقد عفا الله عنهم) ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : (ثم وليتم مدبرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء (١)) .

وفي سنن أبي داود ، والنسائي ، ومستدرك الحاكم ، وتفسير ابن جرير ، وابن مَرْدويه ، من حديث داود بن أبي هند عن أبي نَضْرة ، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية : (ومن يولهم يومئذ دبره) : إنما أنزلت في أهل بدر (٢) .

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حرَاما على غير أهل بدر ، وإن كان سبب النزول فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف من الموبقات ، كما هو مذهب الجماهير ، والله أعلم .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم ، ولهذا قال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) ، أي : ليس بحَوْلكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي : بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة (٣)) ... الآية ، وقال تعالى : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين (٤)) ، يُعلم ــ تبارك وتعالى ــ أن النصر ليس عن كثرة العدد ، ولا بلُبس اللأمة (٥) والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى ، كما قال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٦)) .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم أيضاً في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته ، فرماهم بها ، وقال : « شاهت الوجوه » . ثم أمر أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ، أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكبتهم بها لا أنت .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨١١ : ١٣/٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب «في التولي يوم الزحف» الحديث ٢٦٤٨ : ٣/٤٦ . والمستدرك ، كتاب التفسير : ٢/٣٢٧ ، وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي . وتفسير الطبرى ، الآثار ١٥٨٠٠ – ١٥٨٠٢ : ١٣/٤٣٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٢٣ .

(٤) سورة التوبة ، آية : ٢٥ .

(٥) اللأمة : الدرع ، والسلاح .

(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٤٩ .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يعني يوم بدر ، فقال : « يارب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً . فقال له جبريل : « خذ قبضة من التراب ، فارم بها فى وجوههم » [فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوههم] فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين (١) .

وقال السدى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى «رضى الله عنه» يوم بدر : « أعطنى حصبا من الأرض » فناوله حصبا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب ، شىء ثم ردفهم (٢) المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٣)) »

وقال أبو معشر المدنى ، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب ، فرمى بها فى وجوه القوم ، وقال : « شاهت الوجوه » : فدخلت فى أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم فى رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٤)) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ، قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات فرمى بحصاة ميمنة القوم ، وحصاة فى ميسرة القوم ، وحصاة بين أظهرهم ، وقال : « شاهت الوجوه » فانهزموا (٥) .

وقد روى فى هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقتادة وغير واحد من الأئمة : أنها نزلت فى رمية النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وإن [كان] قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتا وقع من السماء ، كأنه صوت حصاة وقعت فى طست ، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الرمية فانهزمنا (٦) .

غريب من هذا الوجه . وهاهنا قولان آخران غريبان جداً ، أحدهما :

قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عوف الطائى ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنا عبد الرحمن ابن جبير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ابن أبي الحقيق بخيبر ، دعا بقوس ، فأتى بقوس طويلة ، وقال :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٢٧ : ١٣/٤٤٥ .

(٢) ردفه : تبعه .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٢٥ : ١٣ / ٤٤٥ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٢٣ : ١٣ / ٤٤٤ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٢٦ : ١٣/٤٤٥ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٢٢ : ١٣/٤٤٣ .

« جيئونى بقوس غيرها : فجاءوه بقوس كَبْداء (١) ، فرمى النبى صلى الله عليه وسلم الحصن ، فأقبل السهم يهوى حتى قتل ابن أبى الحقيق ، وهو فى فراشه ، فأنزل الله عز وجل : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٢) .

وهذا غريب ، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير ، ولعله اشتبه عليه ، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله ، وإلا فسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم ، والله أعلم .

والثانى : روى ابن جرير أيضاً ، والحاكم (٣) فى مستدركه ، باسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهرى أنهما قالا : أنزلت فى رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أبىّ بن خلَف بالحربة وهو فى لأمته ، فخدشه فى تَرْقُوته ، فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً ، حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم ، موصولا بعذاب البرزخ ، المتصل بعذاب الآخرة .

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً ، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها ، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم ، والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير فى قوله : (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) ، أى : ليُعَرِّف المؤمنين من نعمته عليهم ، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم . وقلة عَدَدهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته (٤) .

وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضا . وفى الحديث « وكلَّ بلاءٍ حسن أبلانا » .

وقوله : (إن الله سميع عليم) ، أى سميع : الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغَلَب .

وقوله : (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) : هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر : أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مُصَغِّر أمرهم ، وأنهم كل مالهم فى تبار ودمار ، ولله الحمد والمنة .

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار : (إن تستفتحوا) ، أى : تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم ، كما قال محمد بن إسحاق وغيره ، عن الزهرى ، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير : أن أبا جهل قال يوم بدر : « اللهم أقْطَعُنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرف ، فأحِنْه (٥) الغداة » . وكان ذلك استفتاحا منه فنزلت : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ... إلى آخر الآية (٦) .

---

(١) قوس كبداء : غليظة الكبد شديدتها . وكبد القوس : فويق مقبضها حيث يقع السهم .
(٢) لم نجد هذا الأثر والذى يليه فى تفسير الطبرى عند هذه الآية ، وقد نبه السيد المحقق عليه ، وذكر الأثرين وأخرجهما وقال : « فهذا كله ، يوشك أن يرجح سقوط شىء من أخبار أبى جعفر فى هذا الموضع ... » ، ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٤٤٦-٤٤٨ .
(٣) ينظر المستدرك ، كتاب التفسير : ٢/٣٢٧ .
(٤) ينظر سيرة ابن هشام : ١/٦٦٨ ، وتفسير الطبرى : ١٣/٤٤٨ .
(٥) يقال : « حان فلان » : هلك ، وأحانه الله : أهلكه .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٤٦ : ١٣/٤٥٢ ، ٤٥٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - أخبرنا محمد بن إسحاق (١) ، حدثني الزهري ، عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، اقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة(٢) ، فكان المستفتح(٣)

وأخرجه النسائي في التفسير من حديث ، صالح بن كيسان ، عن الزهري ، به ؛ وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري ، به ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٤) ؛ وروي هذا عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، ويزيد بن رومان ، وغير واحد .

وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر ، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : « اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين » فقال الله : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ، يقول : قد نصرت ما قلتم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم (٥) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو قوله تعالى إخبارا عنهم : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) ... الآية (٦) .

وقوله : (وإن تنتهوا) ، أي : عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ، (فهو خير لكم) ، أي : في الدنيا والآخرة ؛ (وإن تعودوا نعد) كقوله : (وإن عدتم عدنا) (٧) ، معناه : وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة .

وقال السدي : (وإن تعودوا) ، أي : إلى الاستفتاح (نعد) إلى الفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والنصر له وتظفيره على أعدائه ، والأول أقوى (٨) ؛

(ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت) ، أي : ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له ، فإن الله مع المؤمنين ، وهم الحزب النبوي ، والجناب المصطفوي ؛

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا

(١) في المسند : « محمد بن أبي إسحاق » . وهو خطأ .
(٢) في المسند : « فاحنه الغداء » . وهو خطأ أيضاً .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣١ .
(٤) المستدرك ، كتاب التفسير : ٢/٣٢٨ . ووافقه الذهبي .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٨٤١ : ١٣/٤٥٣ .
(٦) الأثر بتمامه في تفسير الطبري برقم ١٥٨٤٣ : ١٣/٤٥٣ .
(٧) سورة الإسراء ، آية : ٨ .
(٨) ينظر تفسير الطبري ، الأثر ١٥٨٥١ : ١٣/٤٥٦ .

قال : (ولا تولَّوا عنه) ، أى : تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ، (وأنتم تسمعون) ، أى : بعد ماعلمتم مادعاكم إليه .

(ولا تكونوا كالذين قالوا : « سمعنا » ، وهم لا يسمعون) ، قيل : المراد المشركون . واختاره ابن جرير .

وقال ابن إسحاق : هم المنافقون ؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا ، وليسوا كذلك (١) .

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر الخلق والخليقة ، فقال : (إن شر الدواب عند الله الصم) ، أى : عن سماع الحق (البُكْم) عن فَهْمه ؛ ولهذا قال : (الذين لا يعقلون) ، فهؤلاء شر البرية ؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ؛ ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء (٢)) ... الآية ، وقال فى الآية الأخرى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(٣)

وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بنى عبدالدار من قريش. رُوِى عن ابن عباس ومجاهد ، واختاره ابن جرير ؛ وقال محمد بن إسحاق : هم المنافقون (٤) .

قلت : ولامنافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا ؛ لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح .

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ، ولا قصدَ لهم صحيح لو فرض أن لهم فهما ، فقال : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) ، أى : لأفهمهم ، وتقدير الكلام : ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم ، لأنه يعلم أنه (لو أسمعهم) ، أى : أفهمهم (لتولوا) عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ، (وهم معرضون) عنه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

قال البخارى : (استجيبوا) : أجيبوا ، (لما يحييكم) : لما يصلحكم — : حدثنا إسحاق ، حدثنا روح ، حدثنا شعبة ، عن خُبَيْب بن عبد الرحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنت أصلى ، فمرّ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعانى فلم آته حتى صليتُ ، ثم أتيته فقال : مامنعك أن تأتينى ؟ ألم يقل الله : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ، ثم قال : لأُعلّمنّكَ أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرج ، فذكرت له — وقال معاذ : حدثنا شعبة ، عن خُبَيْب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم ، سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بهذا — وقال [هى] (الحمد لله رب العالمين) ، السبع المثانى (٥)

---

(١) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٥٣ : ١٣/٤٥٨ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٧٩ .
(٤) ينظر تفسير الطبرى : ١٣/٤٦٠ ، ٤٦١ .
(٥) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٦/٧٧ .

هذا لفظه بحروفه ، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طُرقه فى أول تفسير الفاتحة (١) .

وقال مجاهد فى قوله : (لما يحييكم) ، قال : الحق (٢) .

وقال قتادة : (لما يحييكم) ، قال : هو هذا القرآن ، فيه النجاة والتَّقاة والحياة (٣) .

وقال السدى : (لما يحييكم) ، ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر (٤) .

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ، أى : للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم (٥) .

وقوله تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) ، قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان (٦) .

رواه الحاكم فى مستدركه موقوفا ، وقال : صحيح ولم يخرجاه (٧) . ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا ، ولا يصح لضعف إسناده ، والموقوف أصح . وكذا قال مجاهد ، وسعيد ، وعكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وعطية ، ومقاتل بن حيان ، والسدى .

وفى رواية عن مجاهد فى قوله : (يحول بين المرء وقلبه) ، حتى تركه لا يعقل (٨) .

وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه ، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه (٩) .

وقال قتادة هو كقوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (١٠)

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما يناسب هذه الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : « يامقلّب القلوب ، ثبِّت قلبى على دينك » . قال ، فقلنا : يارسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى (١١) يقلبها .

---

(١) ينظر فيما تقدم : ١/٢٣ ، ٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٨٦٨ — ١٥٨٧١ : ١٣/٤٦٤ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٧٢ : ١٣/٤٦٤ ، ٤٦٥ : فيه « الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة » .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٦٧ : ١٣/٤٦٤ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٧٣ : ١٣/٤٦٥ . وسيرة ابن هشام : ١/٦٦٩ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٨٨١ : ١٣/٤٦٨ .

(٧) المستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢/٣٢٨ ، ووافقه الذهبى .

(٨) تفسير الطبرى ، الآثار ١٥٨٩٥ - ١٥٩٠٠ : ١٣/٤٧١ .

(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠١ : ١٣/٤٧١ .

(١٠) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠٢ : ١٣/٤٧١ .

(١١) مسند الإمام أحمد : ٣/١١٢ .

وهكذا رواه الترمذى فى «كتاب القدر» من جامعة، عن هنّاد بن السرى، عن أبى معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش ــ واسمه سليمان بن مهران ــ عن أبى سفيان ــ واسمه طلحة بن نافع ــ عن أنس، ثم قال: «حسن(١)» وهكذا روَى عن غير واحد عن الأعمش، ورواه بعضهم عنه، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى صلى الله عليه وسلم وحديث أبى سفيان عن أنس أصح»(٢).

حديث آخر: قال عبد بن حميد فى مسنده(٣): حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبى ليلى، عن بلال رضى الله عنه: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو: «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعا، وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثنى بُسْر بن عبد الله الحضرمى: أنه سمع أبا إدريس الخولانى يقول: سمعت النواس بن سمعان الكلابى رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين(٤) إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»: وكان يقول: «يامقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك» ــ قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»(٥).

وهكذا رواه النسائى وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن(٦) جابر، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم(٧) يدعو بها: «يامقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك». قالت: فقلت: يارسول الله، إنك تكثر(٨) تدعو بهذا الدعاء. فقال: إن قلب الآدمى بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه(٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثنى شهر، سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر فى دعائه يقول: «اللهم يامقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»: قالت: فقلت: يارسول الله، أو إن القلوب لتتقلب؟ قال: «نعم، ماخلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين أصبعين

---

(١) فى الترمذى، كما فى تحفة الأحوذى: «حسن صحيح».

(٢) تحفة الأحوذى، أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن، الحديث ٢٢٢٦: ٣٤٩/٦، ٣٥٠.

(٣) فى مخطوطة الأزهر: «قال الإمام أحمد، قال الإمام عبد بن حميد فى مسنده. ولعل الصواب ما أثبتناه، وينظر ترجمة عبد ابن حميد فى التهذيب: ٤٥٥/٦ ــ ٤٥٧.

(٤) لفظ المسند: «من أصابع رب العالمين، إن شاء ...».

(٥) مسند الإمام أحمد: ١٨٢/٤.

(٦) مسند ابن ماجة، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، الحديث ١٩٩: ٧٢/١.

(٧) لفظ المسند: «... يكثر يدعو بها».

(٨) فى المخطوطة: «تكثر أن تدعو»، وأثبتنا لفظ المسند، وهو مستقيم.

(٩) مسند الإمام أحمد: ٩١/٦.

من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه . فنسأل الله ربنا أن لايُزيغَ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . قالت ، قلت : يارسول الله ، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : بلى ، قولي : اللهم ربَّ النبي محمد ، اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرْني من مُضلاّت الفتن ماأحييتني (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أخبرني أبو هانىء : أنه سمع أبا عبدالرحمن الحبلي : أنه سمع عبد الله بن عمرو : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يُصَرِّف كيف شاء » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم مُصَرِّف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » (٢) .

انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري ، فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري ، به . (٣)

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين (فتنة) ، أي : اختبارا ومحنة ، يعم بها المسيء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب ، بل يعمهما ، حيث لم تدفع وترفع ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا شداد بن سعيد ، حدثنا غيلان بن جرير ، عن مطرف قال : قلنا للزبير : ياأبا عبد الله ، ما جاءبكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا الذين ظلموا منكم خاصة) ، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت . (٤)

وقد رواه البزار من حديث مطرف ، عن الزبير ، وقال : لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث .

وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم ، عن الحسن ، عن الزبير نحو هذا .

وروى ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : قال الزبير : لقد خوِّفنا بها يعني قوله : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة (٥) .

وكذا رواه حميد ، عن الحسن ، عن الزبير رضي الله عنه (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٠١ ، ٣٠٢ ، مع اختلاف يسير .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٨ ، وينظر أيضاً المسند : ٢/١٧٣ .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب « تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء » : ٨/٥١ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/١٦٥ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٩١٣ : ١٣/٤٧٥ ، ومن قوله : « ونحن مع رسول الله ... » إلى آخر الأثر سقط من تفسير الطبري . وهو سقط نظر .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٥٩٠٥ : ١٣/٤٧٤ .

وقال داود بن أبي هند، عن الحسن فى هذه الآية قال: نزلت فى على ، وعثمان ، وطلحة والزبير ، رضى الله عنهم(١).

وقال سفيان الثورى عن الصلت بن دينار ، عن عقبة بن صهبان ، سمعت الزبير يقول : لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإن نحن المعنيون بها : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب) (٢) .

وقد روى من غير وجه ، عن الزبير بن العوام .

وقال السدى : نزلت فى أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل ، فاقتتلوا (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموامنكم خاصة): يعنى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقال فى رواية له ، عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم ، فيعمهم الله بالعذاب (٤) .

وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) : هى أيضاً لكم . (٥) وكذا قال الضحاك ، ويزيد بن أبى حبيب ، وغير واحد .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن . رواه ابن جرير (٦) .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم — وإن كان الخطاب معهم — هو الصحيح ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن ، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى ، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف ، ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا أحمد بن الحجاج أخبرنا عبد الله — يعنى ابن المبارك — أنبأنا سيف بن أبى سليمان ، سمعت عدى بن عدى الكندى يقول : حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى — يعنى عدى بن عميرة — يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذ فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة (٧) » .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠٣ : ١٣/٤٧٣ . وكان فى المخطوطة : « فى على وعمار » وأثبتنا لفظ الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠٦ : ١٣/٤٧٤ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠٧ : ١٣/٤٧٤ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٠٩ : ١٣/٤٧٤ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩١٠ : ١٣/٤٧٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩١٢ : ٣/٤٧٥١ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٤/١٩٢ .

فيه رجل مبهم ، ولم يخرجوه فى الكتب الستة ، ولا واحد منهم ، والله أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان الهاشمى ، حدثنا إسماعيل — يعنى ابن جعفر — أخبرنى عمرو بن أبى عمرو ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل ، عن حُذَيفة بن اليمان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهوَنَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب (١) لكم » .

ورواه عن أبى سعيد ، عن إسماعيل (٢) بن جعفر ، وقال : « أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

وقال أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا رَزين بن حبيب الجهنى (٣) ، حدثنى أبو الرُّقاد قال : خرجت مع مولاى ، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات ؛ لتأمُرنَّ بالمعروف ، ولتنهوَنَّ عن المنكر ، ولتَحاضُّنَّ على الخير ، أو ليَسْحتنَّكم (٤) الله جميعا بعذاب ، أو ليؤمِّرَنَّ عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (٥) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد أيضا : حدثنى يحيى بن سعيد ، عن زكريا ، حدثنا عامر قال : سمعتُ النعمان بن بشير رضى الله عنه يخطب يقول — وأومأ بأصبعيه إلى أذنيه — يقول : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها — أو المُدْهِن فيها — كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم فآذَوهم ، فقالوا : « لو خرقنا فى نصيبنا خرقا ، فاستقينا منه ، ولم نؤذِ من فوقنا » فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا (٦) .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم ، فرواه فى « الشركة (٧) » « والشهادات » ، والترمذى فى الفتن من غير وجه ، عن سليمان بن مِهْران الأعمش ، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبى ، به .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن ليث ، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن المعرُور بن سُوَيد ، عن أمّ سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٨/٥ ، ٣٨٩ .

(٢) الذى أمامنا فى المسند الآن رواية « أبى سعيد مولى بنى هاشم ، عن سليمان بن بلال » . المسند : ٣٩١/٥ .

(٣) فى المخطوطة : « زر بن حبيب » . وهو خطأ ، والمثبت عن المسند ، والجرح لابن أبى حاتم : ٥٠٨/٢/١ ، والتهذيب : ٢٧٥/٣ .

(٤) ليسحتنكم : ليستأصلنكم .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٩٠/٥ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٦٩/٤ . وينظر أيضا : ٢٧٠/٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٧) صحيح البخارى ، الشركة ، باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه : ١٨٢/٣ . وكتاب الشهادات ، باب القرعة فى المشكلات : ٢٣٧/٣ ، ٢٣٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، الحديث ٢٢٦٤ : ٣٩٤/٦ ، ٣٩٥ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

« إذا ظهرت المعاصي في أمتي ، عمّهم الله بعذاب من عنده . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : بلى : قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان (١) » .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج بن محمد ، أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم يعملون بالمعاصي ، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون ، إلا عمهم الله بعقاب ــ أو : أصابهم العقاب (٢) » .

ورواه أبو داود ، عن مُسَدَّد ، عن أبي الأحوص ، عن أبي إسحاق ، به (٣) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت أبا إسحاق يحدث ، عن عُبَيد الله بن جَرير ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب (٤) » .

ثم رواه أيضاً عن وكيع ، عن إسرائيل ــ وعن عبد الرزاق ، عن معمر ــ وعن أسود ، عن شريك ويونس ــ كلهم عن أبي إسحاق السبيعي ، (٥) به .

وأخرجه ابن ماجه ، عن علي بن محمد ، عن وكيع ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا جامع بن أبي راشد ، عن منذر ، عن حسن بن محمد ، عن امرأته عن عائشة تبلغُ به النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا ظهر السوء في الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه . قالت : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال : نعم ، ثم يصيرون إلى رحمة الله (٧) » .

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها ، وقيّض لهم أهلها ، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم ، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٠٤ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦١ .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، الحديث ٤٣٣٩ : ٤/١٢٢ ، ١٢٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦٤ .
(٥) هذه الروايات في مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦٦ .
(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحديث ٤٠٠٩ : ٢/١٣٢٩ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٦/٤١ .

قال قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى قوله تعالى : (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) ، قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا . وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا [مكعومين على رأس حجر ، بين الأسدين فارس والروم ، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شئ يحسدون عليه] من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم رُدِّىَ فى النار ، يوكلون ولا يأكلون . والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس ؛ وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه ، فان ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله ».

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قال عبد الله[٢] بن أبى قتادة والزهرى: أنزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر ،حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستشاروه فى ذلك ، فأشار عليهم بذلك – وأشار بيده إلى حلقه – أى : إنه الذبح ؛ ثم فطن أبو لبابة ، ورأى أنه قد خان الله ورسوله ، فحلف لا يذوق ذواقا [حتى يموت] أو يتوب الله عليه . وانطلق إلى مسجد المدينة ، فربط نفسه فى سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام ، حتى كان [يخر] مغشيا عليه من الجهد ، ، حتى أنزل الله توبته على رسوله ؛ فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ،وأرادوا [أن] يحلوه من السارية ، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه بيده ، فحله ، فقال : يا رسول الله ،إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة . فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به[٣] ».

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا يونس بن الحارث الطائفى ، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفى ، عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان رضى الله عنه :(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) الآية[٤] .

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، الأثر ٧٥٩١ : ٧/٨٧ ، ٨٨ ، و الأثر ١٥٩١٩ : ١٣/٤٧٨ .
ومعنى مكعومين : مقهورين أذلاء ، من كعم فم البعير ، أى : شده لئلا يأكل أو يعض ، والذى يشد به كعام بزنة كتاب وقد وردت هذه اللفظة فى كلام الإمام على ، ينظر نهج البلاغة : ٥٨ ، ١١٠ بتحقيقنا .

(٢) فى المخطوطة : « عبد الرزاق بن أبى قتادة » ، وهو خطأ . والمثبت عن تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٥ ، وينظر ترجمته فى التهذيب : ٥/٣٦٠ .

(٣) ينظر قصة أبى لبابة فى سيرة ابن هشام : ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وأسد الغابة ، باب الكنى : ٥/٢٨٤ ، ٢٨٥ ط الوهبية ، وتفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٣ : ١٣/٤٨١ ، ٤٨٢ . أما قصة أنخلاعه من ماله فانظرها فى مسند الإمام أحمد : ٣/٤٥٢ ، ٤٥٢ ، ٥٠٢ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٥ : ١٣/٤٨٢ .
هذا وقد كان مقتل عثمان – رضى الله عنه – بعد تمام نزول القرآن ، وبعد موت النبى – صلى الله عليه وسلم – بزمن طويل . ولعل المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – عنى بهذا انطباق الآية على هذا الحدث الجلل ، فقد كان قتله خيانة لله ورسوله ، وخيانة للأمانة ، وهى بيعتهم له .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا القاسم بن بشر بن معروف ، حدثنا شبابة بن سوار ، حدثنا محمد بن المحرم قال : لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال : حدثني جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبا سفيان [فى كذا وكذا. فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن أباسفيان(١)] فى موضع كذا وكذا ، فاخرجوا إليه واكتموا . فكتب رجل من المنافقين إليه : « إن محمدا يريدكم ، فخذوا حذركم » ، فأنزل الله : (لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم)(٢) الآية .

هذا حديث غريب جدا ، وفى سنده وسياقه نظر .

وفى الصحيحين قصة « حاطب بن أبى بلتعة » أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم عام الفتح . فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه ، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع ، فقام عمر ابن الخطاب فقال : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « دعه ، فإنه قد شهد بدرا ، ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(٣) .

قلت : والصحيح أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وتخونوا أماناتكم) : « الأمانة » الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد ــ يعنى الفريضة . يقول : لا تخونوا لا تنقضوها(٤) .

وقال فى رواية : (لا تخونوا الله والرسول) ، يقول : بترك سنته وارتكاب معصيته(٥) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير فى هذه الآية ، أى : لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم ، ثم تخالفوه فى السر إلى غيره ؛ فان ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم(٦) .

وقال السدى : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم(٧) .

وقال أيضا : كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين(٨) .

وقال عبد الرحمن بن زيد : نهاكم أن تخونوا الله والرسول ، كما صنع المنافقون(٩) .

---

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٢ : ١٣/ ٤٨٠ .
(٣) مضى تخريج هذا الحديث عند الآية « ٩ » من هذه السورة .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٣١ : ١٣/ ٤٨٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٣٢ : ١٣/ ٤٨٥ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٩ : ١٣/ ٤٨٤ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٨ : ١٣/ ٤٨٤ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٧ : ١٣/ ٤٨٣ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٢٦ : ١٣/ ٤٨٣ .

وقوله تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ، أى : اختبار وامتحان منه لكم ؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ؟ أو تشتغلون بها عنه ، وتعتاضون بها منه ، ، كما قال تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (١)) ، وقال : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة (٢)) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٣)) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) ... الآية .

وقوله : (وأن الله عنده أجر عظيم) ، أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فانه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئاً ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة .

وفى الأثر يقول تعالى : « ابن آدم ، اطلبنى تجدنى ، فان وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » .

وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان أن يلقى فى النار أحب إليه [من] أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » (٤) .

بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت فى الصحيح أنه عليه السلام قال : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين » (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

قال ابن عباس ، والسدى ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : (فرقانا) ، مخرجا — زاد مجاهد : « فى الدنيا والآخرة » .

وفى رواية عن ابن عباس : « فرقانا » : نجاة ؛ وفى رواية عنه : نصرا .

---

(١) سورة التغابن ، آية : ١٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٣٥ .

(٣) سورة المنافقون ، آية : ٩ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « حلاوة الإيمان » : ١٠/١ ، ١١ ، وباب « من كره أن يعود فى الكفر » : ١٢/١ . وكتاب الإكراه ، باب « من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر » : ٢٥/٩ . وكتاب الأدب ، باب « الحب فى الله » : ١٧/٨ . كل ذلك عن أنس بن مالك رضى الله عنه . وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان » : ٤٨/١ . عن أنس أيضاً .

(٥) صحيح مسلم عن أنس ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ٤٩/١ . والبخارى ، كتاب الإيمان ، باب « حب الرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان » : ١٠/١ .

وقال محمد بن إسحاق : (فرقانا) ، أى : فصلا بين الحق والباطل(١) .

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله ؛ فان من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا ، وسعادته يوم القيامة : وتكفير ذنوبه ـ وهو محوها ، وغفرها : سترها عن الناس ـ سبباً لنيل ثواب الله الجزيل ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم(٢) .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : (ليثبتوك) ، ليقيدوك .

وقال عطاء ، وابن زيد : ليحبسوك .

وقال السدى : « الإثبات : هو الحبس والوثاق »(٣) .

وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال ، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء .

وقال سُنَيد ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، قال عطاء : سمعت عُبَيد بن عُمَير يقول : لما ائتمروا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، قال له عمه أبو طالب : هل تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال : يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى . فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربى . قال : نعم الرب ربك ، استوص به خيرا . فقال : أنا أستوصى به ؟! بل هو يستوصى بى(٤) .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل البصرى(٥) المعروف بالوساوسى ، أخبرنا عبد الحميد بن أبى روّاد عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن المطلب بن أبى وداعة : أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى . فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربى . قال : نعم الربّ ربك ، فاستوص به خيرا . قال : أنا أستوصى به ؟! بل هو يستوصى بى . قال : فنزلت : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك(٦) الآية .

وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل ، إنما كان ليلة الهجرة سواء ، وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترءوا عليه بعد موت عمه أبى طالب ، الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه ، والدليل على

---

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٣/٤٨٨ ـ ٤٩٠ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ٢٨ .
(٣) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٣/٤٩١ ، ٤٩٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٦١ : ١٣/٤٩٣ .
(٥) فى مخطوطة الأزهر : « المصرى » . والمثبت من تفسير الطبرى ، وينظر الجرح لابن أبى حاتم : ٢/٣/١٩٠ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٦٣ : ١٣/٤٩٢ .

صحة ما قلنا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازى» عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس – قال : وحدثنى الكلبى ، عن باذان (١) مولى أم هانىء ، عن ابن عباس : أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم ، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم (٢) رأيى ونصحى . قالوا : أجل ، ادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل ، والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره – قال : فقال قائل منهم : احبسوه فى وثاق ، ثم تربصوا به [ريب] المنون ، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال : والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قال : فانظروا فى [غير] هذا .

قال : فقال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فانه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع ، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره فى غيركم . فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة وطلاوة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه (٣) ؟ والله لئن فعلتم – [ثم استعرض العرب] – ليجتمعن عليكم ، ثم ليأتين [إليكم] حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم قالوا : صدق والله : فانظروا باباً غير هذا (٤) .

قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم تصرمونه (٥) بعد ، ما أرى غيره : قالوا : وما هو ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا (٦) نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ، ثم يضربوله ضربة رجل واحد ، فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها . فانهم اذا رأوا ذلك قبلوا (٧) العقل ، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه :

قال : فقال الشيخ النجدى : هذا والله الرأى ، القول ما قال الفتى لا رأى غيره : قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون :

فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ؛ فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة « الأنفال » يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون

---

(١) فى تفسير الطبرى : « زاذان » . وهو خطأ . ينظر التهذيب : ١/٤١٦ .

(٢) لن يعدمكم : لا يعدوكم ويخطئكم .

(٣) فى المخطوطة : « وأجد القلوب ما تشبع من حديثه » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى .

(٤) فى تفسير الطبرى : « فانظروا رأيا غير هذا » .

(٥) تصرمونه : تقطعونه ، من الصرم وهو القطع ، أى نوع كان ، ومنه الحديث : « لا يحل لمسلم أن يصارم مسلما فوق ثلاث » ، أى يهجره ويقطع مكالمته . وكان فى مخطوطة الأزهر : « تفرمونه » بالفاء المعجمة ، وبحسب النقط تصحيف . ولفظ الطبرى والمطبوعات السابقة من هذا التفسير : « ما أراكم أبصرتموه بعد » . وكلمة « أبصرتموه » قلقة فى هذا الموضع . يريد أبو جهل أن يقول : إن ما أشير به عليكم هو الرأى ، لا يقبل النقض .

(٦) الوسيط : الشريف الحسيب فى قومه . والنهد : الكريم ، الذى ينهض فى معالى الأمور .

(٧) العقل : الدية .

الله والله خير الماكرين) ، وأنزل فى قولهم : « تربصوا به [ريب المنون] حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء » : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) ، وكان ذلك اليوم يسمى « يوم الزحمة » ، للذى اجتمعوا عليه من الرأى(١).

وعن السدى نحو هذا السياق ، وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا(٢)) .

وكذا روى العوفى ، عن ابن عباس : ورُوى عن مجاهد ، وعروة بن الزبير ، وموسى بن عقبة ، وقتادة ، ومقسم ، وغير واحد ، نحو ذلك .

وقال يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أمر الله ، حتى إذا اجتمعت قريش فكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا ، أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه . فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب ، فأمره أن يبيتَ على فراشه وأن يتسجى ببُرد له أخضر ، ففعل . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه ، وخرَج معه بحفنة من تراب ، فجعل يذرها على رءوسهم ، وأخذ [الله] بأبصارهم عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : (يس والقرآن الحكيم) إلى قوله : (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : ورُوى عن عكرمة ما يؤكد هذا .

وقد روى ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن سعيد ابن جُبَير ، عن ابن عباس قال : دخلت فاطمةُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك يا بنية ؟ قالت : يا أبتِ ، مالى لا أبكى . وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاقدون باللات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك ، وليس منهم إلا من قد عرَف نصيبه من دمك ، فقال : يا بنية ، ائتنى بوَضوء : فتوضأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه قالوا : إنما هو ذا : فطأطأوا رءوسهم ، وسقطت أذقانهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم . فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فحصبهم بها ، وقال : شاهت الوجوه . فما أصاب رجلا منهم حصاةً من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا .

ثم قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . ولا أعرف له علة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرنى عثمان الجزَرى(٣) ، عن مقسم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس فى قوله : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك) . قال : تشاورت قريش [ليلةً] بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوَثاق ـــ يريدون النبى صلى الله عليه وسلم ـــ وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه : فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علىّ رضى الله عنه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج

(١) تفسير الطبرى : الأثر ١٥٩٦٥ : ١٣/٤٩٤ – ٤٩٦ . وينظر سيرة ابن هشام : ١/٤٨٠ – ٤٨٣ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٦٩ : ١٣/٤٩٨ ، ٤٩٩ .
(٣) فى المخطوطة : « عثمان الجريرى » . وهو خطأ . والمثبت من مسند الإمام أحمد ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/١٧٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي صلى الله عليه وسلم . فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً ردّ الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى . فاقتصا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال (١) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير فى قوله : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ، أى : فمكرت [بهم] بكيدى المتين ، حتى خلصتك منهم (٢) .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمرّدهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون : (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) . وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا . وإنما هذا قولٌ منهم يغرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم .

وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث — لعنه الله — كما قد نص على ذلك سعيد بن جُبير ، والسدى وابن جُرَيج وغيرهم ؛ فانه — لعنه الله — كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلّم من أخبار ملوكهم رُستم واسفنديار ، ولما قدم وَجَد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان إذا قام صلى الله عليه وسلم من مجلس ، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك ، ثم يقول : بالله أيهما أحسن قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع فى الأسارى ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرَب رقبته صبْرا بين يديه ، ففُعِل ذلك ، ولله الحمد . وكان الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، كما قال ابن جرير :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبَير قال : قتل النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر صبرا عُقبة بن أبى مُعَيط ، وطُعَيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه كان يقول فى كتاب الله عز وجل ما يقول . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أغْنِ المقداد من فضلك . فقال المقداد : هذا الذى أردت . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين (٣)) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٨/١ .
(٢) ينظر سيرة ابن هشام : ٦٦٩/١ ، وتفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٧٥ : ١٣/٥٠١ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٧٩ : ١٣/٥٠٤ .

وكذا رواه هُشَيم ، عن أبى بشر جعفر بن أبى وحشية (١) ، عن سعيد بن جبير : أنه قال : « المطعم بن عدى » « بدل طعيمة (٢) » . وهو غلط ، لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : « لو كان المطعم حيا ، ثم سألنى فى هؤلاء النَّتْنَى ، لوهبتهم (٣) له » . يعنى الأسارى ؛ لأنه كان قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم رجع من الطائف .

ومعنى : (أساطير الأولين) ، وهو جمع أسطورة ، أى : كتبهم اقتبسها ، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس . وهذا هو الكذب البحت ، كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما (٤)) ، أى : لمن تاب إليه وأناب ، فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

وقوله : (وإذ قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، هذا من كثرة جهلهم وعُتُوّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم ، وهذا مما عِيبُوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : « اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه » . ولكن استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كما قال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون (٥)) ، (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (٦)) ، (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج (٧)) . وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال قوم شعيب له : (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين (٨)) ، وقال هؤلاء : (اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) .

قال شُعبة ، عن عبد الحميد صاحب الزّيادى ، عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم) ، فنزلت : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ... الآية .

---

(١) فى المخطوطة مكان « وحشية » : « حية » . وهو خطأ ، وهو جعفر بن إياس — ويقال : ابن أبى وحشية ينظر — ترجمته فى التهذيب : ٢/٨٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٨٠ : ١٣/٥٠٤ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب ما من النبى صلى الله عليه وسلم من غير أن يخمس » : ٤/١١١ . وكتاب المغازى : ٥/١١٠ . عن محمد بن جبير ، عن أبيه . ورواه أبو داود فى كتاب الجهاد ، باب « فى المن على الأسير بغير فداء » الحديث ٢٦٨٨ : ٣/٦١ . والإمام أحمد فى مسند جبير بن مطعم : ٤/٨٠ .

(٤) سورة الفرقان ، آية : ٥ ، ٦ .

(٥) سورة العنكبوت ، آية : ٥٣ .

(٦) سورة « ص » ، آية : ١٦ .

(٧) سورة المعارج ، الآيات : ١ — ٣ .

(٨) سورة الشعراء ، آية : ١٨٧ .

رواه البخارى عن أحمد ومحمد بن النضر ، كلاهما عن عُبَيد الله بن مُعَاذ ، عن أبيه ، عن شعبة[١] ، به .
وأحمد هذا هو : أحمد بن النضر بن عبد الوهاب ، قاله الحاكم أبو أحمد ، والحاكم أبو عبد الله النيسابورى ، والله أعلم .

وقال الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، قال : هو النضر بن الحارث بن كَلَدَة ، : قال : فأنزل الله : (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع) . وكذا قال مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جُبَير ، والسدى : إنه النضر بن الحارث — زاد عطاء : فقال الله تعالى : (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ، وقال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) ، وقال : (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) . قال عطاء : ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل[٢] .

وقال ابن مَرْدُويه : حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث ، حدثنا أبو غسان ، حدثنا أبو تُمَيلة ، حدثنا الحسين ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أحد على فرس ، وهو يقول : « اللهم ، إن كان ما يقول محمد حقا فاخسف بى وبفرسى » .

وقال قتادة فى قوله : (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) ... الآية ، قال : قال ذلك سَفَهة[٣] هذه الأمة وجَهَلتها ، فعاد الله بعائدته ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها[٤] .

وقوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ؛ قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن أبى زُمَيل سِماك الحنفى ، عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك . فيقول النبى صلى الله عليه وسلم : « قدْ ، قدْ ! » ويقولون : « لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » ، ويقولون : « غفرانك ، غفرانك » فأنزل الله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) . قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبى صلى الله عليه وسلم والاستغفار ، فذهب النبى صلى الله عليه وسلم وبقى الاستغفار[٥] .

وقال ابن جرير : حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا أبو معشر ، عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٦/٧٨ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٨٥ : ١٣/٥٠٦ .
(٣) كذا « سفهة » . ولم نجده فى كتب اللغة . وفى اللسان : « وسفه — بضم الفاء — : جهل ، فهو سفيه ، والجمع : سفهاء وسفاه ، والأنثى : سفيهة ، والجمع : سفيهات ، وسفائه » وسفه — بضم السين وتشديد الفاء مفتوحة — وسفاه » .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٨٨ : ١٣/٥٠٧ .
(٥) رواه ابن جرير الطبرى عن أحمد بن منصور الرمادى ، عن أبى حذيفة بإسناده ، ينظر الأثر ١٦٠٠٥ : ١٣/٥١١ ، ٥١٢ .

من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، فلما أمسوا ندموا على ماقالوا ، فقالوا : غفرانك اللهم ! فأنزل الله عز وجل : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) إلى قوله : (ولكن أكثر هم لايعلمون(١)) .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ، يقول : ما كان الله ليعذب قوما وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ، ثم قال : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، يقول : وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان ، وهو الاستغفار - يستغفرون ، يعني : يصلون ، يعني بهذا أهل مكة(٢) .

وروى عن مجاهد ، وعكرمة ، وعطية العوفي ، وسعيد بن جُبَير ، والسدّي نحو ذلك .

وقال الضحاك وأبو مالك : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، يعني : المؤمنين الذين كانوا بمكة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الغفار بن داود ، حدثنا النضر بن عَرَبي قال ابن عباس : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لايزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب مادامًا بين أظهرهم ، فأمان قَبَضه الله إليه ، وأمان بقي فيكم ، قوله : - (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) .

قال أبو صالح عبد الغفار : حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عربي حدثه هذا الحديث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس(٣) .

وروى ابن مَرْدُويه وابن جرير(٤) ، عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا . وكذا رُوي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ .

وقال الترمذي : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن نُمَير ، عن إسماعيل بن ابراهيم بنُ مهاجر ، عن عبّاد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل [الله] على أمانين لأمتي : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فاذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار [إلى يوم القيامة(٥)]

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده ، والحاكم في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، من حديث عبد الله بن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن دَرّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب ، لاأبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لاأزال أغفر لهم ما استغفروني(٦) » .

ثم قال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٠١ : ١٣/٥١٢ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠١٢ ، ١٦٠١٣ : ١٣/٥١٦ .
(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه : ٣/١٨٢ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٠٣ : ١٣/٥١٣ .
(٥) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنفال ، الحديث ٥٠٧٧ : ٨/٤٧٢ ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب ، وإسماعيل بن ابراهيم بن مهاجر يضعف في الحديث » .
(٦) الذي أمامنا في المسند رواية يزيد بن الهاد عن عمرو ، ينظر : ٣/٢٩ ، ٤١ ، كما ينظر أيضاً المسند : ٣/٧٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا رِشْدِين – هو ابن سعد – حدثني معاوية بن سعد التّجيبي ، عمن حدثه ، عن فضالة بن عُبَيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العبد آمن من عذاب الله مااستغفر الله عز وجل (١) »

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم ، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، فقُتِل صناديدهم وأُسِرَت سَرَاتهم(٢) . وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب ، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد .

قال قتادة والسدى وغيرهما : لم يكن القومُ يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون ماعذبوا (٣)

واختاره ابن جرير ، فلولا ماكان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذى لايرد ، ولكن دُفع عنهم بسبب أولئك ، كما قال تعالى فى يوم الحديبية : (هم االذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئو هم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلو ا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما (٤))

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن ابن أبزَى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأنزل الله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ، قال : فخرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فأنزل الله : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) . قال : وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون – يعنى بمكة – فلما خرجوا أنزل الله : (و مالهم أن لايعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانو ا أولياءه) ، قال : فأذن الله فى فتح مكة ، فهو العذاب الذى وعدهم (٥) :

ورُوى عن ابن عباس ، وأبى مالك ، والضحاك ، وغير واحد نحو هذا :

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٠ .
(٢) السراة : الأشراف .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر : ١٦٠٥/ ١٣/٥١٤ .
(٤) سورة الفتح ، آية : ٢٥ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٥٩٩٠ : ١٣/٥٠٩ ، ٥١٠ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحي بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال فى « الأنفال » : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، فنسختها الآية التى تليها : (وما لهم ألا يعذبهم الله) إلى قوله : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . فقوتلوا بمكة ، فأصابهم فيها الجوع والضر [١] .

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى تُمَيْلة يحي بن واضح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن ابن جُرَيج وعثمان بن عطاء ، عن عطاء عن ابن عباس : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ، ثم استثنى أهل الشرك فقال : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) [٢] .

وقوله : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أى : وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، أى الذى بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به ، ولهذا قال : (وما كانوا أولياءه) ، أى : هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين [٣]) ، وقال تعالى : (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) [٤] الآية .

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسير هذه الآية : حدثنا سليمان بن أحمد ــ هو الطبرانى ــ حدثنا جعفر ابن إلياس بن صدقة المصرى ، حدثنا نُعَيم بن حماد ، حدثنا نوح بن أبى مريم ، عن يحي بن سعيد الأنصارى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من آلُك ؟ قال : كل تقى ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أولياؤه إلا المتقون [٥]) .

وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو بكر الشافعى ، حدثنا إسحاق بن الحسن ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة ، عن أبيه ، عن جده قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فقال : هل فيكم من غيركم ؟ قالوا : فينا ابن أختنا ، وفينا حليفنا ، وفينا مولانا . فقال : حليفنا منا ، وابن أختنا منا ، ومولانا منا ، إن أوليائى منكم المتقون .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠١٧ : ١٣/٥١٧ .
(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٣/١٨٢ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ١٦ / ١٧ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢١٧ .
(٥) رواه الطبرانى فى المعجم الصغير : ١/١١٥ ، وفيه مكان : « من آلك ؟ » : « من آل محمد ؟ » وقال الطبرانى : « لم يرو عن يحيى بن سعيد إلا نوح ، تفرد به نعيم » .

ثم قال : هذا صحيح ، ولم يخرجاه (١) .

وقال عروة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق فى قوله تعالى : (إن أولياؤه إلا المتقون) ، قال : هم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم .

وقال مجاهد : هم المجاهدون ، مَن كانوا ، وحيث كانوا (٢) .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به ، فقال : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) : .

قال عبد الله بن عمر ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء العطاردى ، ومحمد بن كعب القرظى ، وحُجْر بن عَنْبَس ، ونُبيط بن شُريط ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الصفير — وزاد مجاهد : وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم .

وقال السدى : « المُكاء » ، الصفير على نحو طير أبيض يقال له : « المُكَّاء » ويكون بأرض الحجاز [و« التصدية » : التصفيق] : (٣)

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد ، حدثنا يونس بن محمد المؤدب ، حدثنا يعقوب — يعنى ابن عبد الله الأشعرى — حدثنا جعفر بن [أبى](٤) المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)، قال : كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفق — و« المكاء » : الصفير ، وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق (٥) .

وهكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس : وكذا روى عن ابن عمر ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن ، والضحاك ، وقتادة ، وعطية العوفى ، وحجر بن عَنْبَس ، وابن أبزى نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عمر ، حدثنا قرة ، عن عطية ، عن ابن عمر فى قوله : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) ، قال : « المكاء » الصفير ، و« التصدية » : التصفيق — قال قرة : وحكى لنا عطية فعل ابن عمر ، فصفر ابن عمر ، وأمال خده ، وصفق بيديه (٦) :

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال : كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويُصفقون ويُصفرون : رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره بسنده عنه (٧) .

---

(١) المستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢/٣٢٨ .

(٢) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٣/٥٢٠ .

(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٤٧ : ١٣/٥٢٦ ، ومكانه فى المخطوطة : « وتصدية » . والمكاء — بضم الميم وتشديد الكاف ، وجمعه : مكاكى — : طائر نحو القنبرة إلا أن فى جناحيه بلقاً . سمى بذلك لأنه يجمع يديه ، ثم يصفر فيهما صفيراً حسناً .

(٤) ما بين القوسين المعقوفين من ترجمته فى التهذيب : ٢/١٠٨ ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٤٩٠ .

(٥) الدر المنثور للسيوطى من ابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه والضياء : ٤/١٨٣ .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٢٩ : ١٣/٥٢٢ .

(٧) الدر المنثور للسيوطى : ٢/١٨٣ .

وقال عكرمة : كانوا يطوفون بالبيت على الشمال .

قال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته .

وقال الزهرى : يستهزئون بالمؤمنين :

وعن سعيد بن جُبَير وعبد الرحمن بن زيد : (وتصدية) ، قال : صدّهم الناس عن سبيل الله عز وجل .

قوله : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ، قال الضحاك ، وابن جريج ، ومحمد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبى . واختاره ابن جرير ، ولم يحك غيره[1] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال : عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق : حدثنى الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حَبَّان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ — قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فَلُّهم إلى مكة[2] ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم[3] وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ! ففعلوا قال : ففيهم — كما ذكر عن ابن عباس — أنزل الله عز وجل : (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم) إلى قوله : (والذين كفروا إلى جهنم يحشرون)[4] .

وهكذا روى عن مجاهد ، وسعيد بن جُبير ، والحكم بن عتيبة ، وقتادة والسدى ، وابن أبزى : أنها نزلت فى أبى سفيان ونفقته الأموال فى أحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الضحاك : نزلت فى أهل بدر[5] .

وعلى كل تقدير فهى عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق ، فسيفعلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ، (ثم تكون عليهم حسرة) ، أى : ندامة ، حيث لم تُجْدِ شيئاً ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١٣/٥٢٨ .

(٢) الفل — بفتح الفاء وتشديد اللام — : المنهزمون ، الراجعون من جيش قد هزم .

(٣) وتركم : أدرك فيكم مكروها بالقتل ، والموتور : الذى قتل له قتيل ، فلم يأخذ بثأره .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٦٣ : ١٣/٥٣٢ ، ٥٣٣ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٥٥ : ١٣/٥٢٨ .

لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين . فهذا الخزى لهم ،فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قُتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى . ولهذا قال : (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) .

وقوله تعالى: (ليميز الله الخبيث من الطيب) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (ليميز الله الخبيث من الطيب) : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء . وقال السدى : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز فى الآخرة ، كما قال تعالى : (ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم)(١)، وقال تعالى: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون(٢)) . وقال فى الآية الأخرى: (يومئذ يصدعون(٣))، وقال تعالى: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون(٤)).

ويحتمل أن يكون هذا التمييز فى الدنيا ، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون « اللام » معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون فى الصد عن سبيل الله ، أى : إنما أقدرناهم على ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) ، أى : من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم)(٥)..الآية، وقال تعالى: (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب)(٦) الآية، وقال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين(٧)، ونظيرتها فى براءة أيضا(٨) :

فمعنى الآية على هذا : إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب ، فيجعل الخبيث بعضه على بعض ، (فيركمه) ، أى : يجمعه كله ، وهو جمع الشىء بعضه على بعض ، كما قال تعالى فى السحاب : (ثم يجعله ركاما) ، أى: متراكما متراكبا ، (فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) ، أى : هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (قل للذين كفروا : إن ينتهوا) ، أى : عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة ، يغفر لهم ما قد سلف ، أى : من كفرهم ،

---

(١) سورة يونس ، آية : ٢٨ .
(٢) سورة الروم ، آية : ١٤ .
(٣) سورة الروم ، آية : ٤٣ .
(٤) سورة يس ، آية : ٥٩ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٧٩ .
(٧) سورة آل عمران ، آية : ١٤٢ .
(٨) سورة براءة « التوبة » ، آية : ١٦ .

وذنوبهم و خطاياهم ، كما جاء فى الصحيح ، من حديث أبى و ائل عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحْسَن فى الإسلام لم يُؤاخَذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر (١) » .

وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها »(٢) .

وقوله : (وإن يعودوا) ، أى : يستمروا على ماهم فيه ، (فقد مضت سنة الأولين) ، أى : فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة .

قال مجاهد فى قوله : (فقد مضت سنة الأولين) ، أى : فى قريش يوم بدر و غيرها من الأمم (٣) ، وقال السدى ومحمد بن إسحاق أى : يوم بدر (٤) :

وقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ، قال البخارى : حدثنا الحسن بن عبد العزيز ، حدثنا عبد الله بن يحيى ، حدثنا حَيْوة بن شريح ، عن بكر بن عمرو ، عن بُكير ، عن نافع ، عن ابن عمر: أن رجلا جاءه فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)... الآية ، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى ، أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعيَّر بالآية التى يقول الله عز وجل : (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) :..إلى آخر الآية ــ قال : فإن الله تعالى يقول : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ؟ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يُفتَن فى دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد ، قال : فما قولك فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : ما قولى فى على وعثمان ؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه ، وكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخَتَنُه ــ وأشار بيده ــ وهذه ابنته ــ أو : بنته ــ حيث ترون (٥) :

وحدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا بيان أن وَبَرَة حدثه قال : حدثنى سعيد بن جُبَير قال : خرج علينا ــ أو : إلينا ــ ابن عمر رضى الله عنهما ، فقال [رجل] : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك (٦) :

هذا كله سياق البخارى رحمه الله .

وقال عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر : أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى ، وأنت ابن عمر بن الخطاب ، وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعنى أن الله

---

(١) البخارى ، كتاب استتابة المرتدين : ١٧/٩ ، ١٨ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية» : ٧٧/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد عن عمرو بن العاص : ١٩٩/٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ . ولفظه فى الجميع : « وإن الهجرة تجب ما كان قبلها » .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٧٠ : ٥٣٦/١٣ .

(٤) ينظر تفسير الطبرى : ٥٣٧/١٣ .

(٥) صحيح البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٧٨/٦ ، ٧٩ .

(٦) المرجع المتقدم : ٧٧/٦ .

حرم على دم أخي المسلم ، قالوا : أو لم يقل الله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟ » ، قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله .

وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أيوب بن عبد الله اللخمى قال : كنت عند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فأتاه رجل فقال : إن الله يقول : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فقال ابن عمر : قاتلت أنا وأصحابى حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ولم تكن فتنة ، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله . رواهما ابن مَرْدُويه .

وقال أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : قال ذو البطين — يعنى أسامة بن زيد — لا أقاتل رجلا يقول : « لا إله إلا الله » أبدا ، قال : [فقال سعد بن مالك : « وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول : لا إله إلا الله أبدا] ، فقال رجل : ألم يقل الله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله) ؟ ، فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله . رواه ابن مردويه .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ، يعنى : لا يكون شرك . وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، ومقاتل بن حَيَّان ، وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن إسحاق : بلغنى عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : (حتى لا تكون فتنة) : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله : (ويكون الدين كله لله) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس فى هذه الآية : قال : يخلص التوحيد لله .

وقال الحسن وقتادة ، وابن جُرَيج (ويكون الدين كله لله) : أن يقال : « لا إله إلا الله » .

وقال محمد بن إسحاق : ويكون التوحيد خالصا لله ، ليس فيه شرك ، ويخلع مادونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (ويكون الدين كله لله) ، لا يكون مع دينكم كفر .

ويشهد له ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله » ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل »[1] وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء، أىُّ ذلك فى سبيل الله عز وجل ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله عز وجل »[2] .

وقوله : (فإن انتهوا) ، [أى : بقتالكم عماهم فيه من الكفر ، فكفّوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم] ، (فإن الله بما يعملون بصير) ، كما قال تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم[3]) ، وفى الآية الأخرى : (فإخوانكم فى الدين[4]) .

---

(١) أخرجاه فى كتاب الإيمان ، ينظر البخارى ، باب « فإن تابوا وأقاموا الصلاة .. » : ١/١٢ ، ١٣ . ومسلم ، باب « الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله » : ١/٣٨ .

(٢) البخارى ، كتاب العلم ، باب « من سأل وهو قائم عالماً جالساً » : ١/٤٢ ، ٤٣ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » : ٦/٤٦ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ٥ .

(٤) سورة التوبة ، آية : ١١ .

وقال: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة ــ لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ــ فقال لأسامة ــ : « أقتلته بعد ما قال « لا إله إلا الله » ؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذا . قال : هلاَّ شققتَ عن قلبه ؟، وجعل يقول ويكرر عليه : من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم (١) .

وقوله : (وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) ، أى : وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ، (فاعلموا أن الله مولاكم) : سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وقال محمد بن جرير : حدثنى عبد الوارث بن عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا أبان العطار ، حدثنا هشام بن عروة ، عن عروة : أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء ، فكتب إليه عروة : « سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . اما بعد، فإنك كتبت إلىّ تسألنى عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، أن الله أعطاه النبوة ، فنِعْمَ النبىُّ، ونعم السيد، ونعم العشيرةُ ، فجزاه الله خيرا ، وعرّفنا وجهه فى الجنة ، وأحيانا على ملته ، وأماتنا عليها ، وبعثنا عليها ؛ وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أنزل عليه ، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكادوا يسمعون منه ، حتى ذكر طواغيتهم : وقدم ناس من الطائف من قريش ، لهم أموال ، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق (٢) عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ؛ فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث ، ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتُتِن من افتُتِن، وعصم الله من شاء منهم . فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة : وكان بالحبشة ملك صالح يقال له « النجاشى » ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك ، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكَنًا لتجارهم ، يجدون (٣) فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا : فأمرهم بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخاف (٤) عليهم الفتن : ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم : ثم إنه فشا الإسلام

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله » : ١/٦٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « علام يقاتل المشركون » الحديث ٢٦٤٣ : ٣/٤٤ ، ٤٥ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، كتاب « الكف عمن قال : لا إله إلا الله » الحديث ٣٩٣٠ : ٢/١٣٩٦ . ومسند الإمام أحمد : ٥/٢٠٧ .

(٢) انصفق عنه الناس : رجعوا وانصرفوا .

(٣) فى المطبوعة : « يتخذون فيها رفاغاً » . وأثبتنا ما فى تفسير الطبرى والطبعات السابقة ، على أنا لم نجد فى المعاجم « رفاغا » ففى اللسان : « ورفغ عيشه ــ بالضم ــ رفاغة : اتسع ، وترفغ الرجل : توسع ، وإنه لفى رفاغة ورفاغية من العيش ، مثل ثمسانية » .

(٤) فى المخطوطة : « وخافوا عليهم » ، ومثله فى الطبعات السابقة ، ومخطوطة الطبرى وطبعتها الأولى . وقد أثبت السيد محقق تفسير الطبرى : « وخاف » نقلا من تاريخ الطبرى .

فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم (١) : فلما رأوا ذلك استرخوا (٢) استرخاءة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه . وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَل أرض الحبشة مخافتها ، وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال . فلما استرخى عنهم ودخل [في] الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون ، فرجعوا إلى مكة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون . وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : فلما رأت قريش ذلك تآمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا ، فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جَهْدٌ شديد ، فكانت الفتنة الأخيرة ، فكانت فتنتان : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة ، حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بها ، وأذن لهم في الخروج إليها — وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة . ثم إنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة سبعون نقيباً ، رءوس الذين أسلموا ، فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا ، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وخرج هو ، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٣)) .

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عروة بن الزبير : أنه كتب إلى الوليد — يعني ابن عبد الملك بن مروان — بهذا ، فذكر مثله (٤) . وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله .

---

(١) المنعة — بفتحات — جمع مانع ، مثل كفرة وكافر ، وهم الذين يمنعون من يريدهم بسوء .

(٢) أي خففوا عنهم العذاب .

(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٨٣ : ١٣/٥٣٩ — ٥٤٢ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٨٤ : ١٣/٥٤٢ .

فهرس موضوعى لسورة المائدة

فهرس موضوعي لسورة الأنعام

فهرس موضوعى لسورة الأعراف

أعلام المفسرين والفقهاء

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

غريب اللغـة

فهرس الأماكن والبلدان والأيام

فهرس القبائل والأمم والجماعات

فهرس الشعر

* ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة ، من بين سائر الأمم المتقدمة ، من إحلال المغانم ، و« الغنيمة » : هى المال المأخوذ من الكفار بإيجاف(١) الخيل والركاب ، « والفيء » ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك : هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف :

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، والغنيمة على الفيء أيضا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية « الحشر » : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين(٢)) الآية ، قال : فنسخت آية (الأنفال) تلك ، وجعلت الغنائم : أربعة أخماسها [للمجاهدين] وخمساً منها لهؤلاء المذكورين(٣) وهذا الذى قاله بعيد ، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازى قاطبة أن بنى النضير بعد بدر . هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت فى أموال الفيء وهذه فى المغانم ، ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعا إلى رأى الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام ، والله أعلم :

وقوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (٤)).

وقوله : (فأن لله خمسه وللرسول) ، اختلف المفسرون هاهنا ، فقال بعضهم : لله نصيب من الخمس يجعل فى الكعبة :

قال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع ، عن أبي العالية الرياحى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدها ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه الذى قبض كفه ، فيجعله للكعبة ، وهو سهم الله . ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم ، فيكون سهم للرسول ، وسهم لذوى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل (٥).

وقال آخرون : ذكر الله هاهنا استفتاح كلام للتبرك ، وسهم لرسول عليه السلام :

قال الضحاك ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس فى خمسة : ثم قرأ : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول) ، [قال :

---

(١) الإيجاف : سرعة السير ، وأوجف دابة : حثها .

(٢) سورة الحشر ، آية : ٨ .

(٣) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٠٨٩ : ١٣/٥٤٦ ، والدر المنثور للسيوطى ، تفسير سورة الحشر : ٦/١٩٢ ، ١٩٣ .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٦١ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٠٢ : ١٣/٥٥٠ ، ٥٥١ .

وقوله:](١) فأن الله خمسه، مفتاح كلام ، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً (٢) ؛

وهكذا قال إبراهيم النخعي ، والحسن بن محمد بن الحنفية . والحسن البصري ، والشعبي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعبد الله بن بريدة ، وقتادة ، ومغيرة ، وغير واحد : أن سهم الله ورسوله واحد .

ويؤيد هذا مارواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل [من بلقين] (٣) قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لله خمسها ، وأربعة أخماس للجيش . قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جنبك ، ليس أنت أحق به ، من أخيك المسلم (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان ، عن الحسن قال: أوصى أبو بكر(٥) بالخمس من ماله ، وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه (٦) .

ثم اختلف قائلو هذا القول ، فروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس ، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة(٧): فربع لله وللرسول [ولذي القربى ــ يعني قرابة(٨) النبي] صلى الله عليه وسلم . فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من الخمس شيئاً [والربع الثاني لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل(٨)] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو معمر المنقري ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد ، عن حسين المعلم ، عن عبد الله بن بريده في قوله : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خمسه وللرسول)، قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ــ يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا أعم وأشمل ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، عن أبي سلام الأعرج ،

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبري .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٩٥ : ١٣ / ٥٤٩ .
(٣) ما بين القوسين من السنن الكبرى البيهقي ، ومكانه في المخطوطة « بلقي » دون نقط ، و « بلقين » أصله : بنو القين ، حي من بني أسد ، كما قالوا : « بلحارث » ، و « بلهجيم » يعنون : بني الحارث ، وبني الهجيم ، تخفف العرب ذلك ، فتحذف بعض حروف هذه الإضافة . ينظر تاج العروس ، مادة : قين .
(٤) السنن الكبرى البيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة ، باب إخراج الخمس : ٦/ ٣٢٤ .
(٥) في المخطوطة : « أوصى الحسن بالخمس » ، والمثبت من تفسير الطبري .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٠٩٩ : ١٣/ ٥٥٠ .
(٧) في المخطوطة : « يقسم على أربعة أخماس » ، والمثبت من تفسير الطبري .
(٨) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبري .

عن المقدام بن معد يكرب الكندى : أنه جلس مع عبادة بن الصامت ، وأبى الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندى رضى الله عنهم ، فتذاكروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم فى غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتناول وَبَرة بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى [سبيل] الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة [عظيم] ، ينجى به الله من الهم والغم (١) ».

هذا حديث حسن عظيم ، ولم أره فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه : ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود ، والنسائى ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فى قصة الخمس والنهى عن الغلول (٢) .

وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم . رواه أبو داود والنسائى (٣) .

وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم من المغانم شىء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك ، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبى ، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى — وحسنه — عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه (٤) ذا الفَقَار يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا (٥) يوم أحد (٦) » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كانت صفية من الصَّفِىّ (٧) » . رواه أبو داود فى سننه .

وروى أيضاً بإسناده ، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أدم ، فقرأناها فإذا فيها : « من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش ، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥ : ٣١٦/٦ ، وما بين الأقواس منه ، وينظر أيضاً المسند : ٣٢٦/٥ .

(٢) مضى هذا الحديث ، عند تفسير الآية ١٦١ من سورة آل عمران ، ينظر : ١٣٤/٢ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الإمام يستأثر بشىء من الفىء لنفسه » ، الحديث ٢٧٥٥ : ٨٢/٣ ، والحديث فى مطبوعة النسائى ، كتاب قسم الفىء ، من عبادة بن الصامت ، وعمرو بن العاص ، ينظر : ١٣١/٧ .

(٤) تنفل سيفه : أى أخذه زيادة عن السهم .

(٥) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه يوم أحد أنه هز ذا الفقار ، فانقطع من وسطه ، ثم هزه هزة أخرى فعاد أحسن مما كان . (تحفة الأحوذى للحافظ أبى العلى : ١٧٧/٥) .

(٦) مسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ٢٧١/١ . وتحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب فى النفل ، الحديث ١٦٠٧ : ١٧٧/٥ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الإمارة ، باب « ما جاء فى سهم الصفى » ، الحديث ٢٩٩٤ : ١٥٢/٣

وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأديتم الخمس من المغنم ، وسهم النبي وسهم الصفي ، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله » .
فقلنا : من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته ، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه .

وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء .

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف ، وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم ، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا يصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة جماعة ، وجاء فيه حديث مرفوع .

وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين .

وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف : ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، اختاره ابن جرير (٢) .

وقال آخرون : بل سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

قال ابن جرير : وذلك قول جماعة من أهل العراق .

وقيل : إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير :

حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا عبد الغفار ، حدثنا المنهال بن عمرو ، وسألت عبد الله بن محمد بن علي ، وعلي بن الحسين ، عن الخمس فقالا : هو لنا . فقلت لعلي : فإن الله يقول : (واليتامى والمساكين وابن السبيل) ، فقالا : يتامانا ومساكيننا (٣) .

وقال سفيان الثوري ، وأبو نعيم ، وأبو أسامة ، عن قيس بن مسلم : سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى : عن قول الله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول) ، قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة . ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال قائلون : سهم النبي — صلى الله عليه وسلم تسليما — للخليفة من بعده ، وقال قائلون : لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم — وقال قائلون : سهم القرابة لقرابة الخليفة — فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٤) .

قال الأعمش ، عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع (٥) والسلاح ، فقلت لإبراهيم : ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان [علي] أشدهم فيه (٦) .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الإمارة ، الكتاب والباب المتقدمان ، الحديث ٢٩٩٩ : ٣/١٥٣ ، والنسائي ، كتاب قسم الفيء ٧/١٣٤ ، ومسند الإمام أحمد : ٥/٧٧ ، ٧٨ ، ٣٦٤ .
(٢) تفسير الطبري : ١٣/٥٥٩ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦١٢٨ : ١٣/٥٥٩ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦١٢١ : ١٣/٥٥٧ .
(٥) الكراع — بضم الكاف : يجمع الخيل والسلاح .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٦١٢٣ : ١٣/٥٥٧ .

وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله :

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية ، ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية له : مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حَمِيَّةً للعشيرة وأنفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل – وإن كانوا أبناء عمهم – فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم ونابذوهم ، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذَمّ أبى طالب لهم فى قصيدته اللامية أشدّ من غيرهم ، لشدة قربهم . ولهذا يقول فى أثناء قصيدته :

جزَى الله عنَّا عبدَ شمس ونوفلا ... [عقُوبة] شرّ عاجل غير آجل
بميزان قسْط لا يَخيس[1] شَعيرةً ... له شاهدٌ مِنْ نَفْسه غير عائل
لقد سفُهت أحلامُ قوم تبدّلوا ... بنى خلَف قَيْضًا بنا والغيَاطل[2]
ونحنُ الصَّميم من ذؤابة هاشم ... وآل قُصَىّ فى الخُطُوب الأوائل[3]

وقال جبير بن مطعم بن عدى : مشيت أنا وعثمان بن عفان – يعنى ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا ، ونحن وَهُم منك بمنزلة واحدة ، فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد .

رواه مسلم[4] . وفى بعض روايات هذا الحديث : « إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام[5] » .

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هُم بنو هاشم . ثم روى عن خُصَيف ، عن مجاهد قال : علم الله أن فى بنى هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة[6] .

وفى رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لا تحل لهم الصدقة[7] .

ثم روى عن على بن الحسين نحو ذلك[8] .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل هم قريش كلها .

---

(١) مضى شرح هذا اللفظ فى : ٢/١٨٥ .
(٢) « قيضا » : عوضا . و « الغياطل » : بنو سهم .
(٣) الأبيات فى سيرة ابن هشام : ١/٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٤) كذا قال : « رواه مسلم » . ولم نجده فيه ، والحديث رواه البخارى فى كتاب المناقب ، باب « مناقب قريش » : ٤/٢١٨ ، وكتاب المغازى ، باب « غزوة خيبر » : ٥/١٧٤ . والنسائى ، كتاب قسم الفىء : ٧/١٣٠ ، ١٣١ .
(٥) هذه الزيادة فى سنن النسائى ، ينظر التعليق السابق .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١١٢ : ١٣/٥٥٤ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١١٢ : ١٣/٥٥٤ .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١١٣ : ١٣/٥٥٤ .

حدثى يونس بن عبد الأعلى ، حدثنى عبد الله بن نافع ، عن أبى معشر ، عن سعيد المقبرى قال : كتب نجدة(١) إلى عبد الله بن عباس يسأله عن « ذى القربى » ، فكتب إليه ابن عباس : كنا نقول : إنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى (٢) .

وهذا الحديث فى صحيح مسلم ، وأبى داود ، والترمذى ، والنسائى من حديث سعيد المقبرى (٣) [عن يزيد ابن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى] ، فذكره إلى قوله : « فأبى [ذلك] علينا قومنا(٤) » . والزيادة من أفراد أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى ، وفيه ضعف .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن مهدى المصيصى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن حنش ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغبت لكم عن غسالة الأيدى لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم (٥) » .

هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم (٦) ، وقال يحيى بن معين : يأتى بمناكير . والله أعلم .

وقوله : (واليتامى) ، أى : يتامى المسلمين . واختلف العلماء : هل يختص بالأيتام الفقراء . أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين .

و (المساكين) ، هم المحاويج الذين لا يجدون مايسد خلتهم ومسكنتهم .

(وابن السبيل) ، هو : المسافر ، أو المريد للسفر ، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك . وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى « سورة براءة » ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة ، وعليه التكلان .

وقوله : (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) ، أى : امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله . ولهذا جاء فى الصحيحين ، من حديث عبد الله بن عباس ، فى حديث وفد عبد القيس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله ... ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... » الحديث بطوله ، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوب البخارى على ذلك فى

---

(١) هو نجدة بن عويمر الحرورى ، من رؤساء الخوارج .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١١٧ : ١٣/٥٥٥ .
(٣) كذا ، وهو فى سنن أبى داود والنسائى من حديث الزهرى عن يزيد بن هرمز . والزهرى وسعيد المقبرى يرويان عن يزيد . ينظر التهذيب : ١١/٣٦٩ .
(٤) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب « النساء الغازيات يرضخ لهن ... » : ٥/١٩٧ ، ١٩٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الإمارة ، باب « فى بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذى القربى » ، الحديث ٢٩٨٢ : ٣/١٤٦ ، والنسائى ، كتاب قسم الفىء : ٧/١٢٨ ، ١٢٩ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ١/٢٤٨ ، ٢٩٤ .
(٥) الدر المنثور للسيوطى : ٣/١٨٦ .
(٦) ينظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/١٣٨ ، ١٣٩ ، وميزان الاعتدال : ١/٦٨ .

« كتاب الإيمان » من صحيحه فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) ، ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه فى « شرح البخارى » ولله الحمد والمنة [١] .

وقال مقاتل بن حيان : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) ، أى : فى القسمة ، (وقوله) : (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) ، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرّق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى « الفرقان » ، لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه .

قال على بن أبى طلحة والعوفى ، عن ابن عباس : (يوم الفرقان) يوم بدر ، فرّق الله فيه بين الحق والباطل رواه [٢] الحاكم .

وكذا قال مجاهد ، ومقسم وعبيد الله بن عبد الله ، والضحاك ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وغير واحد : أنه يوم بدر .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير فى قوله : (يوم الفرقان) : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رأس المشركين عتبةُ ابن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرةَ — أو : سبع عشرةَ — مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة . فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك .

وقد روى الحاكم فى مستدركه ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن ابن مسعود قال فى ليلة القدر : تحروها لإحدى عشرة يبقين فإن صبيحتها يوم بدر . وقال : على شرطهما [٣] .

وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا ، من حديث جعفر بن برقان ، عن رجل ، عنه .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب ، عن ابن عون محمد [٤] بن عبيد الله الثقفى ، عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال الحسن بن على : كانت ليلة « الفرقان يوم التقى الجمعان » لسبع عشرة من رمضان [٥] . إسناد جيد قوى .

ورواه ابن مَرْدَوَيه ، عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، عن على قال : كانت ليلة الفرقان ، ليلة التقى الجمعان ، فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان .

---

(١) أورده البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان ، ينظر البخارى ، باب « أداء الخمس من الإيمان » : ١/٢٠ ، ٢١ . ومسلم باب « الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه » : ١/٣٥ .

(٢) وكذا رواه الطبرى ، ينظر الأثر ١٦١٣٠ : ١٣/٥٦١ ، والأثر : ١٦١٣٤ : ١٣/٥٦٢ .

(٣) المستدرك ، كتاب المغازى : ٣/٢٠ .

(٤) فى المخطوطة : « عن ابن عون ، عن محمد بن عبد الله الثقفى » وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى ، وينظر ترجمته فى التهذيب : ٩/٣٢٢ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٣٥ : ١٣/٥٦٢ .

وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير .

وقال يزيد بن أبى حبيب إمام أهل الديار المصرية فى زمانه : « كان يوم بدر يوم الاثنين » و لم يتابع على هذا ، وقول الجمهور مقدم عليه ، والله أعلم :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى عن يوم الفرقان : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) ، أى : إذ أنتم نزول بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة ، (وهم) ، أى : المشركون نزولٌ (بالعدوة القصوى)، أى : البعيدة التى من ناحية مكة ، (والركب)، أى : العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة (أسفل منكم) ، أى : مما يلى سيف البحر (ولو تواعدتم) ، [أى : أنتم والمشركون إلى مكان] (لاختلفتم فى الميعاد) .

قال محمد بن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه فى هذه الآية قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ، ما لقيتموهم ، (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) ، أى : ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، عن غير ملأ(١) منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه(٢) .

وفى حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عيرَ قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد(٣) .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن ابن عون ، عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقت السقاة ، ونَهَدَ الناسُ بعضهم لبعض(٤) .

وقال محمد بن إسحاق فى السيرة : ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من « الصفراء » بعث بَسْبَس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزَّغباء الجُهَنيين ، يلتمسان الخبر عن أبى سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء ، فاستقيا فى شَنّ(٥) لهما من الماء ، فسمعا جاريتين يتخاصمان ، تقول إحداهما لصاحبتها : « اقضينى حقى » . وتقول الأخرى : « إنما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأقضيك حقك » . فخلّص بينهما

---

(١) على غير ملأ ، أى : اجتماع وتشاور . وفى سيرة ابن هشام : « على غير بلاء » وهو خطأ واضح .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٤٦ ، ١٣/٥٦٦ ، وسيرة ابن هشام : ١/٦٧٢ .
(٣) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « قصة غزة بدر » ، ٥/٩٢ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٤٨ ، ١٣/٥٦٧ ، ومعنى : « نهد الناس بعضهم إلى بعض » : نهضوا إلى القتال .
(٥) الشن : القربة البالية .

مَجْدِىّ بن عمرو ، وقال : « صَدَقْت » ، فسمع ذلك بَسْبَس وَعَدِىّ ، فجلسا على بعيريهما ، حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه الخبر . وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر ، فتقدم أمام عيره وقال لمجدىّ بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ، فاستقيا فى شَنّ لهما ، ثم انطلقا فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخ بعيرَيهما ، فأخذ من أبعارهما ، فَفَتَّه ، فإذا فيه النوى ، فقال : « هذه والله علائف يثرب » . ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره ، فانطلق بها فَسَاحَل[1] حتى إذا رأى أن قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم ، فارجعوا :

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتى بدرا — وكانت بدرٌ سوقا من أسواق العرب — فنقيم بها ثلاثا ، فنُطْعِم بها الطعام ، وننحرُ بها الجزُر ، ونُسقَى بها الخمر ، وتعزف علينا القيان[2] ، وتسمع بنا العرب وبسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا .

فقال الأخنس بن شُرَيق : يا معشر بنى زُهْرَة ، إن الله قد نَجَّى أموالكم ، ونَجَّى صاحبكم ، فارجعوا ؛ فأطاعوه ، فرجعت بنو زهرة ، فلم يشهدوها ولا بنو عدى[3] .

قال محمد بن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رُومان ، عن عُروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين دنا من بدر — علىّ بن أبى طالب ، وسعدَ بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، فى نفر من أصحابه ، يتجسسون له الخبر فأصابوا سُقَاةً لقريش : غلاما لبنى سعيد بن العاص ، وغلاما لبنى الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه يصلى ، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهما : لمن أنتما ؟ فيقولان : « نحن سُقاة لقريش ، بعثونا نسقيهم من الماء » : فكره القوم خبرهما ، ورجَوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما فلما أذلقوهما[4] قالا : « نحن لأبى سفيان » . فتركوهما ، وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ، ثم سلم وقال : « إذا صدَقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدَقا ، والله إنهما لقريش ، أخبِرانى عن قريش : قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترَى بالعُدْوة القصوى — والكثيب : العَقَنْقَل — فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدّتهم ؟ قالا : ما ندرى . قال : كم ينحرُون كلّ يوم ؟ قالا : يوما تسعاً ، ويوما عشراً ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخترى بن هشام ، وحكيم بن حِزَام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، وطُعَيمة بن عدى بن [نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزَمْعَةَ بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية[5]] ابن خلف ، ونُبَيه ومُنَبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد وُدّ ؛ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[6] .

---

(١) أى : سار بها جهة الساحل .

(٢) القيان : الجوارى .

(٣) ينظر سيرة ابن هشام : ١/٦١٧ – ٦١٩ .

(٤) أذلقوهما : بالغوا فى ضربهما .

(٥) سقط من مخطوطة الأزهر ، أثبتناه من سيرة ابن هشام .

(٦) سيرة ابن هشام : ١/٦١٦ ، ٦١٧ .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم : أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما التقى الناس يوم بدر : يا رسول الله ، ألا نبنى لك عريشاً [١] تكون فيه ، وننيخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا ، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب ، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك ، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد ــ والله ــ تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ لك حبا منهم ، و علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك،ويوادونك وينصرونك ؛ فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له به . فبنى له عريش ، فكان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ما معهما غيرهما[٢] .

قال ابن اسحاق : وارتحلت قريش حين أصبحت ،فلما أقبلت ورآها رسول صلى الله عليه وسلم تُصَوِّب[٣] من العقنقل ــ وهو الكثيب ــ الذى جاءوا منه إلى الوادى قال : « اللهم ، هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تحادّك[٤] وتكذب رسولك ، اللهم أحنهم الغداة [٥] » .

وقوله : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة) ، قال محمد بن إسحاق : أى ليكفر من كفر بعد الحجة ، لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك[٦] .

وهذا تفسير جيد ، وبَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول : إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع كلمة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ (يهلك من هلك) ، أى : يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل ، لقيام الحجة عليه ، (ويحيى من حى) ، أى : يؤمن من آمن ، (عن بينة) ، أى : حجة وبصيرة . والإيمان هو حياة القلوب ، قال الله تعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس)[٧] ، وقالت عائشة فى قصة الإفك : « فىّ هلك من هلك[٨] » أى : قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك .

وقوله : (وإن الله لسميع) ، أى : لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ، (عليم) ، أى : بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

---

(١) العريش : شبه خيمة يستظل به .
(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٦٢٠ ، ٦٢١ .
(٣) التصوب : المجىء من مكان عال .
(٤) تحادك : تعاديك .
(٥) أى : أهلكم . ينظر سيرة ابن هشام : ٦٢١/١ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٤٩ : ٥٦٨/١٣ . وسيرة ابن هشام : ٦٧٣،٦٧٢/١ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ١٢٢ .
(٨) كذلك لفظ مخطوطة الأزهر . وقد أخرجه البخارى فى تفسير سورة النور : ١٢٨/٦ . ومسلم فى كتاب التوبة ، باب « فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف » : ١١٤/٨ ، ومسند أحمد عن عائشة : ١٩٥/٦ ، ولفظ الجميع : « فهلك من هلك فى شأنى » .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قال مجاهد : [أراه الله إياهم][1] فى منامه قليلا ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك ، فكان تثبيتا لهم ؛ وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد . وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التى ينام[2] بها .

وقد روى ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يوسف بن موسى المدبر[3]، حدثنا أبو قتيبة ، عن سهل السراج ، عن الحسن فى قوله : (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) ، قال : بعينك .

وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام ها هنا ، فلا حاجة إلى التأويل الذى لا دليل عليه ؛

وقوله : (ولو أراكهم كثيراً لفشلتم) ، أى ، لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ، (ولكن الله سلم) ، أى : من ذلك ، بأن أراكهم قليلا : (إنه عليم بذات الصدور) ، أى : بما تجنه الضمائر ، وتنطوى عليه الأحشاء ، فيعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛

وقوله : (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) ، وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلا فى رأى العين ، فيجرؤهم عليهم ، ويُطْمعهم فيهم :

قال أبو إسحق السبيعى ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لقد قُلِّلُوا فى أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل إلى جانبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه ، قال : كنا ألفا . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير[4] .

وقوله : (ويقللكم فى أعينهم) ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن الزبير ابن الخِرِّيت ، عن عكرمة (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم) قال : حضض بعضهم على بعض[5] .

إسناد صحيح ؛

---

(١) مكانه فى مخطوطة الأزهر : « أراهم الله » . والمثبت من تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٥٠ : ٥٧٠/١٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٧٠/١٣ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر ومخطوطة دار الكتب «١» تفسير . وهو يوسف بن موسى التسترى ، مترجم له فى الجرح لابن أبى حاتم : ٢٣١/٢/٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٥٦ : ٥٧٢/١٣ .

(٥) الدر المنثور للسيوطى : ١٨٩/٣ .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن ابيه في قوله تعالى : (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) ، أي : ليلقي بينهم الحرب ، للنقمة(١) ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من اهل ولايته .

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة . فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه ، كما قال تعالى : (قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)(٢) وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلا منها حق وصدق ، ولله الحمد والمنة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) .

ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن أبي أوفى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم ، منزل الكتاب ، ومُجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم (٣)» .

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت (٤)» .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي ، حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا معتمر بن سليمان ، حدثنا ثابت بن زيد ، عن رجل ، عن زيد بن أرقم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة » .

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر ، وفي سيرة ابن هشام ٦٧٣/١ ، وتفسير الطبري ، الأثر ١٦١٦٠ / ١٣ / ٥٧٣ : « ليؤلف بينهم على الحرب » .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٣ .

(٣) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس » : ٦٢/٤ . ومسلم كتاب الجهاد أيضاً ، باب « كراهية تمنى لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء » : ١٤٣/٥ .

(٤) رواه الدارمي في كتاب السير ، باب « لا تتمنوا لقاء العدو » : ١٣٥/٢ ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عبد الرحمن ابن زياد ، به . و « عبد الله بن يزيد » الذي يروى عن « عبد الله بن عمرو » هو : المعافري أبو عبد الرحمن الحبلي . وفي سنن الدارمي مكانه : « عبد الله بن بريدة » وهو خطأ ، ينظر التهذيب : ٨١/٦ ، ٨٢ .

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى : « إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قِرْنَه(١)» ، أي : لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي .

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة في هذه الآية ، قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضِّراب بالسيوف(٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، عن ابن جُرَيج ، عن عطاء قال : وجب الإنصات والذكر عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم(٣) .

وقال أيضاً : قُرِىء على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عبد الله بن عياش ، عن يزيد بن قَوْذَر ، عن كعب الأحبار قال : ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (٣) .

قال الشاعر :

ذَكَرْتُكِ والخَطِّيّ يخطرُ بَيْنَنا وَقَدْ نَهِلَتْ فينا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

وقال عنتر :

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ والرِّماحُ شَوَاجِرٌ فينا وَبيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك . فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم .

(وتذهب ريحكم) ، أي : قوتكم وحدّتكم وما كنتم فيه من الإقبال ، (واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم — في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله ، وامتثال ما أرشدهم إليه — ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحُبُوش وأصناف السودان والقِبْط ، وطوائف بني آدم ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم ، إنه كريم وهاب .

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، ينظر تحفة الأحوذي ، الحديث ٣٦٥١ : ١٠/٤٠ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦١٦١ : ١٣/٥٧٤ .
(٣) الدر المنثور للسيوطي : ٣/١٧٩ .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم (بَطَرا) ، أى : دفعا للحق ، (ورئاء الناس) ، وهو : المفاخرة والتكبر عليهم ، كما قال أبو جهل ــ لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ــ فقال : لا ، والله لا نرجع حتى نَرِد ماء بدر ، وننحر الجُزُر ، ونشرب الخمر ، و تعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا » فانعكس ذلك عليه أجمع ، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمَام ، ورُمُوا فى أطواء بدر مهانين أذلاء ، صَغَرَة أشقياء فى عذاب سرمَدىّ أبدى . ولهذا قال : (والله بما يعملون محيط) ، أى : عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى فى قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) ، قالوا : هم المشركون ، الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر ، خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط [1]) .

وقوله : (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) ... الآية ، حَسَّن لهم ــ لعنه الله ــ ما جاءوا له وما هَمّوا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤتَوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال : « أنا جار لكم » ، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم ، سيد بنى مُدْلج ، كبير تلك الناحية ، وكل ذلك منه ، كما قال تعالى عنه : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) .

قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى فى قلوب المشركين : أن أحدا لن يغلبكم ، وإنى جار لكم . فلما التقوا ، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ،(نكص على عقبيه) ــ قال : رجع مدبرا ــ وقال : (إنى أرى مالا ترون) ... الآية [2] .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين ، معه رايته ، فى صورة رجل من

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٢ : ١٣/٥٨١ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٨ : ١٤/٩ .

بنى مُدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جُعشم ، فقال الشيطان للمشركين : (لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم) فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فولوا مدبرين . وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه – وكانت يده فى يد رجل من المشركين – انتزع يده ثم ولى مدبرا [هو] وشيعته ، فقال الرجل : ياسراقة ، أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : (إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب) وذلك حين رأى الملائكة(١) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : أن إبليس خرج مع قريش فى صورة سراقة بن مالك بن جُعشم ، فلما حضر القتال ورأى الملائكة ، نكص على عقبيه ، وقال : (إنى برىء منكم) ، فتشبث الحارث بن هشام فنَخَر (٢) فى وجهه ، فخرّ صَعِقا ، فقيل له : ويلك ياسراقة . على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا . فقال : (إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب) .

وقال محمد بن عمر الواقدى : أخبرنى عمر بن عقبة ، عن شعبة – مولى ابن عباس – عن ابن عباس قال : لما تواقف الناس أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم كُشف عنه ، فبشر الناس بجبريل فى جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل فى جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل فى جند آخر ألف . وإبليس قد تصور فى صورة سراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجى ، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس . فلما أبصر عدوّ الله الملائكةَ ، نكص على عقبيه ، وقال : (إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون) ، فتشبث به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه ، فضرب فى صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط فى البحر ، ورفع ثوبه وقال : يا رب ، موعدك الذى وعدتنى .

وفى الطبرانى عن رفاعة بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه ، ذكرناه فى السيرة .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ، ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب ، فكاد ذلك أن يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى – وكان من أشراف بنى كنانة – فقال : أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه ، فخرجوا سراعا(٣) .

قال محمد بن إسحاق : فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان ، كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام – أو : عمير بن وهب – فقال : « أين ، أى سراقَ ؟ » وَمَثَل عَدُوّ الله فذهب – قال : فأوردهم ثم أسلمهم – قال : ونظر عدو الله إلى جنود الله ، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبيه ، وقال : (إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون) ، وصدق عدو الله ، وقال :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٣ : ١٤/٧ .

(٢) النخير : صوت الأنف ، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لما خلق الله إبليس نخر » ينظر لسان العرب ، مادة : نخـر .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٥ : ١٤/٨ .

(إنى أخاف الله والله شديد العقاب[١]) وهكذا رُوى عن السدّى ، والضحاك ، والحسن البصرى ، ومحمد بن كعب القرظى ، وغيرهم رحمهم الله .

وقال قتادة : وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدَان[٢] له بالملائكة فقال : (إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله) ، وكذب عدو الله ، والله مابه مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منَعة ، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد[٣] له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مُسْلَم ، وتبرأ منهم عند ذلك[٤] .

قلت : يعنى بعادته لمن أطاعه قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله[٥]) ، وقوله تعالى : (وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم[٦]) .

وقال يونس بن بُكَير ، عن محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم ، عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى ، لأخبرتكم بالشِّعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى[٧] .

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس ، وأوحى الله إليهم : أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا . وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه ، فيقول له : أبْشِر فإنهم ليسوا بشىء ، والله معكم ، كروا عليهم . فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : (إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون) ، وهو فى صورة سراقة ، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول : لا يهولنكم خذلان سُرَاقةَ إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه ؛ ثم قال : واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه فى الحبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا . وهذا من أبى جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا : (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها[٨]) ، وكقوله : (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر[٩]) ، وهو من باب البَهْتِ والافتراء ، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٦٦٣/١ ، وتفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٥ ، ١٦١٨٦ : ١٤٪ ٨ ، ٩ . وفى المخطوطة : « أين ، أين سراقة » والمثبت عن المرجعين السابقين .

(٢) أى : لا قدرة له ولا طاقة . ولفظ الطبرى : « لا يدى له » .

(٣) استقاد له : انقاد له وأطاعه .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٨٧ : ١٤٪ ٩ .

(٥) سورة الحشر ، آية : ١٦ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٢٢ .

(٧) سيرة ابن هشام : ١٪ ٦٣٣ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٢٣ .

(٩) سورة طه ، آية : ٧١ .

وقال مالك بن أنس ، عن إبراهيم بن أبي عَبْلة ، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما رُؤى إبليس فى يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحرُ ولا أغيظ [منه] فى يوم عرفة . وذلك مما يرى من تَنَزّل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر . قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ الملائكة (١) » .

هذا مرسل من هذا الوجه .

وقوله : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم)، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية قال : لما دنا القوم بعضهم من بعض قَلَّل الله المسلمين فى أعين المشركين ، وقَلَّل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون : « غرّ هؤلاء دينهم » . وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم ، فظنوا أنهم سيهزمونهم ، لا يشكُّون فى ذلك ، فقال الله : (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) .

وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال : « والله لا يعبدوا الله بعد اليوم . » ، قسوة وعُتُوا (٢) .

وقال ابن جريج فى قوله : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) : هم قوم كانوا من المنافقين بمكة ، قالوه يوم بدر (٣) .

وقال عامر الشعبى : كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام ، فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا : (غر هؤلاء دينهم (٤)) .

وقال مجاهد فى قوله عز وجل : (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض: غر هؤلاء دينهم) ، قال : فئة من قريش : [أبو](٥) قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زَمْعة بن الأسود ابن المطلب (٦) ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن مُنَبّه بن الحجاج ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : « غرّ هؤلاء دينهم » ، حتى قدموا على ماقدموا عليه ، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم . (٧)

وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار ، سواء .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ،عن الحسن فى هذه الآية ، قال : هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر ، فسموا منافقين — قال معمر : وقال بعضهم : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام ، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا : « غر هؤلاء دينهم (٨) » .

---

(١) الموطأ ، كتاب الحج ، باب جامع الحج ، الحديث ٢٤٥ : ١/ ٤٢٢ .

وأدحر : أبعد عن الخير ، ويزع الملائكة : أى يصفهم للقتال ، ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض فى الصف .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٩٧ : ١٤/ ١٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٩٨ : ١٤/ ١٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٩٣ : ١٤/ ١٣ .

(٥) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، والمثبت عن سيرة ابن هشام : ١/ ٦٤١ ، وتفسير الطبرى .

(٦) فى سيرة ابن هشام ١/ ٦٤١ : « الأسود بن عبد المطلب » ، وهو خطأ ، صوابه ما فى تفسير ابن كثير وتفسير الطبرى ، وينظر كتاب نسب قريش : ٢١٨ .

(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٩٥ : ١٤/ ١٣ .

(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦١٩٦ : ١٤/ ١٣ ، ١٤ .

وقوله: (ومن يتوكل على الله) ، أى: يعتمد على جنابه ، (فان الله عزيز) ، أى : لا يُضَام من التجأ إليه ، فان الله عزيز منيع الجناب ، عظيم السلطان ، حكيم فى أفعاله ، لايضعها إلا فى مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك :

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ .

يقول تعالى : ولو عاينت يامحمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار ، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيعا منكرا ؛ إذ يضربون وجهوهم وأدبارهم ، ويقولون لهم : (ذوقوا عذاب الحريق) :

قال ابن جريج ، عن مجاهد : (وأدبارهم) : أستاههم ، قال : يوم بدر [1] .

قال ابن جريج ، قال ابن عباس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا وجوههم بالسيوف: وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله : (إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) : يوم بدر .

وقال وكيع ، عن سفيان الثورى ، عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد ، عن شعبة ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبير : (يضربون وجوههم وأدبارهم) قال : وأستاهم ، ولكن الله يكَنّى .

وكذا قال عمر مولى غُفْرة [2].

وعن الحسن البصرى قال : قال رجل : يارسول الله ، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك [3] قال : [ماذاك] قال : ضرب الملائكة .

رواه ابن جرير [4] ، وهو مرسل .

وهذا السياق ــ وإن كان سببه وقعة بدر ــ ولكنه عام فى حق كل كافر : ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر : بل قال تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) . وفى سورة القتال مثلها [5] ، وتقدم فى سورة الأنعام قوله : (ولو ترى إذ المجرمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم [6]) ، أى : باسطو أيديهم بالضرب فيهم ، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم ، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهرا :

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٠٤ : ١٦/١٤ .

(٢) هو أبو حفص عمر بن عبد الله المدنى ، ينظر التهذيب : ٤٧١/٧ ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١١٩/١/٣ . وأثره فى تفسير الطبرى ، برقم ١٦٢٠٧ : ١٨/١٤ .

(٣) فى مخطوطة الأزهر : « مثل الشوك » . والمثبت من تفسير الطبرى ، والشراك : سير النعل الذى يكون على ظهرها .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٠٥ : ١٦/١٤ ، ١٧ . وما بين القوسين عنه .

(٥) هى سورة محمد أيضاً ، والآية فى هذه السورة برقم : ٢٧ .

(٦) الآية رقم : ٩٣ .

وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله ، كما فى حديث البراء : إن ملك الموت — إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة — يقول : « اخرجى أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم، وظل من يحموم » ، فتتفرق فى بدنه ، فيستخرجونها من جسده ، كما يخرج السَّفُّود (١) من الصوف المبلول (٢) ، فتخرج معها العروق والعصب . ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم : (ذوقوا عذاب الحريق)

وقوله تعالى : ذلك : (بما قدمت أيديكم) ، أى : هذا الجزاء بسبب ماعملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا ، جزاكم الله بها هذا الجزاء ، (وأن الله ليس بظلام للعبيد) ، أى : لايظلم أحدا من خلقه ، بل هو الحكم العدل ، الذى لايجور ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد . ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم رحمه الله ، من رواية أبى ذرّ رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول :(ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً فلاتظالموا . ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (٣) . ولهذا قال تعالى :

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يامحمد ، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ، ففعلنا بهم ماهو دأبنا ، أى : عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله . (فأخذهم الله بذنوبهم) ،[أى بسبب ذنوبهم أهلكم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر] ، (إن الله قوى شديد العقاب) ، أى : لايغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله ، وقسطه فى حكمه ، بأنه تعالى لايغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كما قال تعالى : (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال)(٤) ، وقوله: (كدأب آل فرعون)،أى: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون ، وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله فى ذلك ، بل كانوا هم الظالمين .

---

(١) السفود : حديدة ذات شعب معقفة ، يشوى بها اللحم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٨٨/٤ ، ٢٩٦ .

(٣) مسلم ، كتاب البر ، باب تحريم الظلم : ١٧/٧ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ١١ .

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾

أخبر تعالى أنّ شر مادبّ على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لايؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ، (وهم لايتقون) ، أى : لايخافون من الله فى شىء ارتكبوه من الآثام .

(فاما تثقفنهم فى الحرب)، أى : تغلبهم وتظفر بهم فى حرب ، (فشرّد بهم من خلقهم) ، أى : نكل بهم، قاله ابن عباس ، والحسن البصرى ، والضحاك ، والسدى ، وعطاء الخراسانى ، وابن عُيينَة [1] ــ ومعناه غلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ، ليخاف من سواهم من الأعداء ، من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة (لعلهم يذكرون) .

وقال السدى : يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنَع بهم مثل ذلك [2] .

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : (وإما تخافن من قوم) قد عاهدتهم (خيانة) ، أى : نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ، (فانبذ إليهم) ، أى : عهدهم (على سواء) ، أى : أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لاعهد بينك وبينهم على السواء ، أى : تستوى أنت وهم فى ذلك ، قال الراجز :

فَاضْرِبْ وُجُوه الغُدُرِ [الأَعْدَاء] حَتّى يجيبُوكَ إلى السَّوَاء [3]

وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله : (فانبذ إليهم على سواء) ، أى : على مهل ، (إن الله لا يحب الخائنين) ، أى : حتى ولو فى حق الكافرين ، لايحبها أيضا

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى الفيض ، عن سليم بن عامر ، قال : «كان معاوية يسير فى أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم فاذا انقضى الأمد غزاهم ، فاذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر [الله أكبر] ، وفاء لاغدرا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّن عقْدَة ولا يشدّها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء قال ــ : فبلغ ذلك معاوية ، فرجع ، وإذا الشيخ عمرو ابن عَبَسة [4] رضى الله عنه » [5]

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى ، عن شعبة . وأخرجه أبو داود ، والترمذى، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة ، به . وقال الترمذى : «حسن صحيح» . [6]

---

(١) ينظر تفسير الطبرى : ١٤ / ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢١٥ : ١٤/ ٢٣ .

(٣) الرجز فى تفسير الطبرى : ١٤/ ٢٧ ، ولا نعلم له قائلا ، والغدر : جمع غدور . وما بين القوسين سقط من المخطوطة .

(٤) فى المخطوطة : «عبسة» ، وهو خطأ . ينظر أسد الغابة ، ط الوهبية : ٤/ ١٢٠ ، ١٢١ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/ ١١١ .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى الإمام يستجن به فى العهود ، الحديث ٢٧٥٩ : ٣/ ٨٣ . وتحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب «ما جاء فى الغدر» ، الحديث ١٦٢٩ : ٥/ ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى ، حدثنا إسرائيل ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى البَخْتَرى ، عن سلمان — يعنى الفارسى — رضى الله عنه : أنه انتهى إلى حصن — أو : مدينة — فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعُوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منهم ، فهدانى الله عز وجل للإسلام ، فاذا أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، فان أبيتم نابذناكم على سواء ، (إن الله لا يحب الخائنين) ، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله (١) .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ولا تحسبن (٢)) — يا محمد — (الذين كفروا سبقوا) ، أى : فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت قَهْر قدرتنا وفى قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا ، كما قال تعالى : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون (٣)) ، أى : يظنون ، وقال تعالى : (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) (٤) وقال تعالى : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (٥)

ثم أمر تعالى باعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة ، فقال : (وأعدوا لهم ما استطعتم) ، أى : مهما أمكنكم ، (من قوة ومن رباط الخيل) .

قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن أبى على ثمامة ابن شُفَىّ ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى (٦) .

رواه مسلم ، عن هارون بن معروف ، وأبو داود عن سعيد بن منصور ، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى ، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب ، به (٧) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٤٠ . ورواه الترمذى فى أبواب السير ، باب « ما جاء فى الدعوة قبل القتال » ، الحديث ١٥٨٨ : ٥/١٥٣ من قتيبة ، عن أبى عوانة ، عن عطاء بن السائب به نحوه ، وقال الترمذى : « وحديث سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب ، وسمعت محمد يقول : أبو البخترى لم يدرك سلمان ، لأنه لم يدرك عليا ، وسلمان مات قبل على » .

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص : (ولا يحسبن) بالياء ، أى ولا يحسبن الرسول ، أو حاسب ، أو المؤمن . وقرأ باقى السبعة (ولا تحسبن) ، بالتاء خطاباً للرسول أو السامع ، وهى القراءة التى اعتمدها ابن كثير . ينظر البحر المحيط لأبى حيان ٤/٥١٠ ، وتفسير الطبرى : ١٤/٢٨ — ٣١ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٤ .

(٤) سورة النور ، آية : ٥٧ .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٦ ، ١٥٧ .

(٧) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضل الرمى والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه » : ٦/٥٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الرمى » ، الحديث ٢٥١٤ : ٣/١٤ . وابن ماجة ، كتاب الجهاد ، باب « الرمى فى سبيل الله » ، الحديث ٢٨١٣ : ٢/٩٤٠ .

ولهذا الحديث طرق أُخَر ، عن عُقْبَةَ بن عامر ، منها ما رواه الترمذي ، من حديث صالح بن كيسان ، عن رجل ، (١) عنه .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن ، عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارموا واركبوا ، وأن تَرْمُوا خيرٌ من أن تركبوا (٢) » .

وقال الإمام مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح السَّمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجرٌ ، ولرجل سترٌ ، وعلى رجل وزر ؛ فأما الذي له أجر فرجل رَبَطها في سبيل الله ، فأطال لها في مَرْج (٣)– أو : روضة – فما أصابت في طِيَلها ذلك(٤) من المرج – أو : الروضة – كانت له حسنات، ولو أنها قَطَعت طِيَلها فاستَنَّت(٥) شَرَفا أو شَرَفين (٦) ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ، ولم يُرِد أن يَسْقِيَ به ، كان ذلك حسنات له ؛ فهي لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تَغَنِّياً (٧) وتعففا ، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء(٨) فهي على ذلك وِزْر (٩) » :

---

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنفال ، الحديث ٥٠٧٨ : ٨/٤٧٣ ، ٤٧٤ عن أحمد بن منيع ، عن وكيع ، عن أسامة بن زيد ، عن صالح بن كيسان . وقال الترمذي : «وقد روى بعضهم هذا الحديث «عن أسامة بن زيد، عن صالح بن كيسان، عن عقبة بن عامر » . وحديث وكيع أصح ، وصالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر ، وقد أدرك ابن عمر » .

والحديث في الترمذي بقية ، بعد قوله عليه السلام : « ألا إن القوة الرمي » ، وتكملته : « ألا أن الله سيفتح لكم الأرض ، وستكفون المؤنة ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » .

وقوله عليه السلام : «وستكفون المؤنة » ، أي : سيكفيكم الله مؤنة القتال بما يفتح عليكم . ومعنى « يلهو بأسهمه »، أي : يشتغل .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في الرمي » ، الحديث ٢٥ : ٣/١٣ ، والنسائي ، كتاب الخيل ، باب « تأديب الرجل فرسه » ٦ / ٢٤٣ ، وابن ماجة ، كتاب الجهاد ، باب « الرمي في سبيل الله »، الحديث ٢٨١١ : ٢/٩٤٠ . وسنن الدارمي، كتاب الجهاد، باب « في فضل الرمي والأمر به » : ٢/٢٢٤

(٣) المرج : الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرج فيه الدواب ، أي : تخلى تسرح مختلطة متى شاءت .

(٤) الطيل – بكسر ففتح – : الحبل الذي تربط فيه .

(٥) استنت : جرت .

(٦) الشرف – بفتح الشين والراء – : المكان العالي من الأرض .

(٧) أي : استغناء عن الناس ، و « تعففاً » عن السؤال .

(٨) أي : مناوأة ومعاداة .

(٩) الموطأ ، كتاب الجهاد ، باب « الترغيب في الجهاد » ، الحديث رقم ٣ : ٢/٤١٤ .

هذا والحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب الخيل لثلاثة ، ٤/٣٥ ، ٣٦ . والمناقب : ٤/٢٥٢ ، ٢٥٣ عن عبد الله ابن مسلمة ، عن مالك . وفي كتاب التفسير ، تفسير سورة الزلزلة : ٦/٢١٧ . وكتاب الاعتصام ، باب « الأحكام التي تعرف بالدلائل » : ٩/١٣٤ عن إسماعيل بن عبد الله ، عن مالك .

ورواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب « إثم مانع الزكاة » ، عن سويد بن سعيد ، عن حفص بن ميسرة الصنعاني ، عن زيد بن أسلم ، من حديث طويل : ٣/٧٠ ، ٧١ .

ورواه ابن ماجة في كتاب الجهاد ، باب « ارتباط الخيل في سبيل الله » ، الحديث ٢٧٨٨ : ٢/٩٣٢ ، عن محمد بن عبد الملك ابن أبي الشوارب ، عن عبد العزيز بن المختار ، عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريره ، بنحوه .

ورواه الإمام أحمد في مسنده من غير وجه : ينظر : ٢/٢٦٢ ، ٣٨٣ ،

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال: « ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ».

رواه البخاري (١) — وهذا لفظه — ومسلم ، كلاهما من حديث مالك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، أخبرنا شَريك ، عن الركين بن الربيع ، عن القاسم بن حسان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله ، وذكر ما شاء الله . وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها ، فهى ستر من فقر » (٢) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمى أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمى ، وقول الجمهور أقوى للحديث ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج وهشام قالا : حدثنا ليث ، حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن شُماسة (٣) : أن معاوية بن حُديج مرّ على أبى ذرّ ، وهو قائم عند فرس له ، فسأله ما تعالج من فرسك هذا ؟ فقال : إنى أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته ! قال : وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ قال : والذى نفسى بيده ، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول : اللهم ، أنت خوّلتنى عبدا من عبادك ، وجعلتَ رزقى بيده ، فاجعلنى أحبَّ إليه من أهله وماله وولده (٤) .

قال : وحدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الحميد بن جعفر ، حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن سويد بن قيس ، عن معاوية بن حُديج ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليس من فرس عربى إلا يُؤذن له مع كل فجر ، يدعو بدعوتين ، يقول : اللهم ، إنك خوّلتنى من خوّلتنى من بنى آدم ، فاجعلنى من أحبّ أهله وماله إليه — أو : أحب أهله وماله إليه (٥) .

رواه النسائى ، عن عمرو بن على الفَلاّس ، عن يحيى القطان (٦) به .

---

(١) ينظر التعليق المتقدم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٩٥ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر : « ابن شماسة » . وفى المسند : « أبى شماسة » وسيأتى فى رواية الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد قول عبد الله بن الإمام أحمد : « قال أبى : خالفه — يعنى عبد الحميد بن جعفر — عمرو بن الحارث ، فقال : « عن يزيد ، عن عبد الرحمن بن شماسة » . وقال ليث : « عن أبى شماسة » انتهى كلام عبد الله بن الإمام أحمد .

وفى التهذيب ٦ / ١٩٥ : « عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب بن أجور المهرى ، أبو عمرو المصرى . روى عن ابن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر ... روى عنه يزيد بن أبى حبيب » . وعلى هذا فما فى المسند ، وهو « أبو شماسة » خطأ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٦٢ . وقال عبد الله بن الإمام أحمد : «قال أبى : ووافقه عمرو بن الحارث عن أبى شماسة» .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٧٠ . ورواه الحاكم فى المستدرك ، كتاب قسم أنفىء : ٢ / ١٤٤ ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٦) النسائى ، كتاب الخيل ، باب « دعوة الخيل » : ٦ / ٢٢٣ .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التُستَرىّ ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنا المطعم بن المقدام الصنعانى ، عن الحسن بن أبى الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعنى سهلا ـ : حَدِّثنا حديثا سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخيل معقود فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، ومن ربط فرساً فى سبيل الله كانت النفقة عليه ، كالمادّ يده بالصدقة لا يقبضها (١) » .

والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة ، وفى صحيح البخارى ، عن عُرْوَة بن أبى الجعد البارقى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجرُ والمغنم »(٢) .

وقوله : « ترهبون » ، أى : تخوفون (به عدو الله وعدوكم) أى : من الكفار (وآخرين من دونهم) ـ قال مجاهد : يعنى « قريظة (٣) » ، وقال السدى : « فارس » (٤) ، وقال سفيان الثورى : قال ابن يمان : « هم الشياطين التى فى الدور (٥) » ، وقد ورد حديث بمثل ذلك ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصى ، حدثنا أبو حَيْوة ـ يعنى شُرَيح بن يزيد المقرئ ـ حدثنا سَعيد بن سنَان ، عن ابن عَرِيب ـ يعنى يزيد بن عبد الله بن عَرِيب ـ عن أبيه ، عن جده . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى قوله : (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) ، قال : هم الجن .

ورواه الطبرانى ، عن إبراهيم بن دُحَيم ، عن أبيه ، عن محمد بن شعيب ، عن سنان بن سعيد بن سنان ، عن يزيد بن عبد الله بن عَرِيب ، به ، وزاد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُخبَل بيت فيه عتيق من الخيل (٦) »

وهذا الحديث منكر ، لا يصح إسناده ولا متْنه .

وقال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « هم المنافقون »(٧) .

وهذا أشبه الأقوال ، ويشهد له قوله : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم)(٨) .

---

(١) مجمع الزوائد ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى الخيل : ٥ / ٢٥٩ ، وقال الهيثمى : « رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات » .

(٢) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وباب « الجهاد ماض مع البر والفاجر » ٤ / ٣٤ ، وباب « قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أحلت لكم الغنائم » : ٤ / ١٠٤ ، والمناقب : ٤ / ٢٥٢ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » : ٦ / ٣٢ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٣٩ ، ١٦٢٤٠ : ١٤ / ٣٦ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٤١ : ١٤ / ٣٦ .

(٥) الدر المنثور : ٣ / ١٩٨ .

(٦) المرجع السابق أيضا والصفحة نفسها ، ولفظ الدر : « لا يخبل الشيطان إنساناً فى داره فرس عتيق » .

(٧) أثر عبد الرحمن بن زيد فى تفسير الطبرى : ١٤ / ٣٦ .

(٨) سورة التوبة ، آية : ١٠١ .

وقوله : (وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) ، أى : مهما أنفقتم فى الجهاد ، فانه يوفى إليكم على التمام والكمال ، ولهذا جاء فى حديث رواه أبو داود : أن الدرهم يضاعف ثوابه فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف[1] ، كما تقدم فى قوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم)[2] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، حدثنا الأشعث بن إسحاق ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت : (وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم) ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين .

وهذا أيضاً غريب .

* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة فانبذ ، إليهم عهدهم على سواء ، فان استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ، (وإن جنحوا) ، أى : مالوا (للسَّلم) ، أى : المسالمة والمصالحة والمهادنة ، (فاجنح لها) ، أى : فمل إليها ، واقبل منهم ذلك . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا فضيل بن سليمان — يعنى النميرى — حدثنا محمد بن أبى يحيى ، عن إياس بن عمرو الأسلمى ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيكون [بعدى] اختلاف — أو : أمر — فان استطعت أن يكون السلم ، فافعل »[3] .

وقال مجاهد : « نزلت فى بنى قريظة »[4] .

وهذا فيه نظر ، لأن السياق كله فى وقعة بدر ، وذكرها مكتنف لهذا كله .

وقولُ ابن عباس ، ومجاهد ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراسانى ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى « براءة » : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر[5] ...) الآية — فيه نظر أيضاً : لأن

---

(١) ينظر سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى تضعيف الذكر فى سبيل الله ، الحديث ٢٤٩٨ : ٣ / ٨ . وليس هذا لفظ الحديث ، ولفظه . « إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف » . والحديث الذى تقدم عند آية البقرة رواه ابن أبى حاتم ، ينظر : ١ / ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ٩٠ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٥١ : ١٤ / ٤٣ .

(٥) سورة التوبة ، آية : ٢٩ .

آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفاً ، فانه تجوز مهادنتهم ، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص . والله أعلم .

وقوله : (وتوكل على الله) ، أى : صالحهم وتوكل على الله ، فان الله كافيك وناصرك ، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا ، (فان حسبك الله) ، أى : كافيك وحده .

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار ، فقال : (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) ، أى : جمعها على الإيمان بك ، وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك . (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) ، أى : لما كان بينهم من العداوة والبغضاء . فان الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية ، بين الأوس والخزرج ، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر ، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان ، كما قال تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون)(١) .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حُنَين قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلاَّلا فهداكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بى — كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمَنّ »(٢) .

ولهذا قال تعالى : (ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ، أى : عزيز الجناب ، فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم فى أفعاله وأحكامه .

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحُسَين القنْدِيلى الاستراباذى ، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار ، حدثنا ميمون بن الحكم ، حدثنا بكر بن الشرود ، عن محمد بن مسلم الطائفى ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة النعمة تكفر ، ولم يُرَ مثلُ تقارُب القلوب ؛ يقول الله تعالى : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) ، وذلك موجود فى الشعر :

إذا مَتّ ذُو القُرْبَى إليكَ برحْمه ... فغَشَّكَ واستغْنَى فليس بذى رحْم
ولكن ذا القربى الذى إن دعوته ... أجاب ومن يرمى العدو الذى ترْمى(٣)

قال : ومن ذلك قول القائل :

وَلَقد صَحبتُ الناس ثُمَّ سَبرْتُهم ... وَبَلوتَ ما وَصَلوا مِنَ الأسْبَاب

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٠٣ .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الطائف » : ٥ / ٢٠٠ : ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ، وتصبر من قوى إيمانه » : ٣ / ١٠٨ . ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى : ٣ / ٥٧ ، ٧٦ . وعن أنس بن مالك : ٣ / ١٠٤ ، ٢٥٣ . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم : ٤ / ٤٢ .
وعالة : فقراء . « وأمن » : أكثر عطاء ، من « المن » وهو العطاء والاحسان ، لامن « المنة » .

(٣) فى المخطوطة : « وأن يرى » والمثبت من الدر المنثور .

فَإِذَا القَرَابَةُ لا تُقَرِّب قَاطِعًا وَإِذَا المَوَدَّةُ أَقْرَبُ الأَسْبَاب

قال البيهقي : لا أدرى هذا موصول بكلام ابن عباس ، أو هو من قول من دونه من الرواة(١) ؟ .

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، سمعته يقول : (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) ... الآية ، قال : هم المتحابون فى الله — وفى رواية : نزلت فى المتحابين فى الله .

رواه النسائى والحاكم فى مستدركه ، وقال : « صحيح (٢) » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء ، ثم قرأ : (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) .

رواه الحاكم أيضا (٣) .

وقال أبو عمرو الأوزاعى : حدثنى عبدة بن أبى لبابة ، عن مجاهد — ولقيته فأخذ بيدى فقال : إذا تراءى المتحابان فى الله ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، وضحك إليه ، تحاتَّت خطاياهما كما يتحاتّ ورق الشجر (٤) . قال عبدة : فقلت له : إن هذا ليسير ! . فقال : لا تقل ذلك ؛ فان الله تعالى يقول : (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) ! . قال عبدة : فعرفت أنه أفقه (٥) منى .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن يمان (٦) ، عن إبراهيم الخوزىّ ، عن الوليد بن أبى مغيث ، عن مجاهد قال : إذا التقى المسلمان فتصافحا غُفر لهما ، قال : قلت لمجاهد : بمصافحة يغفر لهما ؟ فقال مجاهد : أما سمعته يقول : (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) ؟ فقال الوليد لمجاهد : أنت أعلم منى (٧) .

وكذا روى طلحة بن مصرف ، عن مجاهد .

وقال ابن عون ، عن عمير بن إسحاق قال : كنا نُحدَّث أن أول ما يرفع من الناس — [أو قال : عن الناس](٨) — الألفة .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى رحمه الله : حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى ، حدثنا عُبَيد الله ابن عمر القواريرى ، حدثنا سالم بن غيلان ، سمعت جعدا أبا عثمان ، حدثنى أبو عثمان النهدى ، عن سلمان الفارسى :

---

(١) الأثر والشعر فى الدر المنثور : ٣ / ١٩٩ .
(٢) المستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢ / ٣٢٩ .
(٣) المستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢ / ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين » .
(٤) تحات ورق الشجر : تساقط من غصنه إذا ذبل .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٦٠ : ١٤ / ٤٦ ، ٤٧ .
(٦) فى المخطوطة : « حدثنا أبو يمان » وهو خطأ ، والصواب من تفسير الطبرى ، وهو « يحيى بن يمان » ينظر ترجمته فى التهذيب : ١١ / ٣٠٦ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٥٩ : ١٤ / ٤٦ .
(٨) من تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٦٢ : ١٤ / ٤٧ ، ٤٨ .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم ، فأخذ بيده ، تحاتّت عنهما ذنوبهما ، كما يتحاتّ الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف ، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زَبَد البحار (١) » .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يحرض تعالى نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ، ويخبرهم أنه حسبهم ، أي : كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، أنبأنا سفيان ، عن شوذب ، عن الشعبي في قوله : (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ، قال : حسبك الله ، وحسب من شهد معك (٢).

قال : « وروى عن عطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن زيد ، مثله » :

ولهذا قال : (يا أيها النبي ، حرّض المؤمنين على القتال) ، أي : حثهم [وذَمّر] عليه ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّض على القتال عند صفّهم ومواجهة العدو ، كما قال لأصحابه يوم بدر ، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم . فقال: بَخ بَخ ، فقال: ما يحملك على قولك «بخ بخ ؟» قال :رجاء أن أكون من أهلها ! قال : فانك من أهلها . فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتّهن من يده ، وقال : لئن أنا حَييتُ حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ! ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه (٣) .

---

(١) مجمع الزوائد، كتاب الأدب ، باب المصافحة والسلام » ٨ / ٣٧ . ويقول الهيثمي: « رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح ، غير سالم بن غيلان ، وهو ثقة » .

(٢) وقد رواه ابن جرير الطبري ، عن أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي ، باسناده مثله ، ينظر الأثر ١٦٢٦٦ : ١٤ / ٤٩ . هذا وفي المخطوطة : « سفيان عن ابن شوذب » ، والمثبت من تفسير الطبري ، ومن الجرح لابن أبي حاتم ، الترجمة ١٦٥٠ ؛ ٢ / ١ / ٣٧٨ .

(٣) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « ثبوت الجنة للشهيد » : ٦ / ٤٤ ، ومسند الإمام أحمد من أنس بن مالك : ٣ / ١٣٦ ، ١٣٧ ، وسيرة ابن هشام : ١ / ٦٢٧ .

وقد رُوى عن سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير : أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب ، وكمل به الأربعون (١) .

وفى هذا نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مُبَشِّرا للمؤمنين وآمرا : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) ، كل واحد بعشرة . ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة .

قال عبد الله بن المبارك ، حدثنا جرير بن حازم ، حدثنى الزبير بن الخرّيت ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ، ثم جاء التخفيف ، فقال : (الآن خفف الله عنكم) ... إلى قوله : (يغلبوا مائتين) ، قال : خفف الله عنهم من العدة ، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٢) .

وروى البخارى من حديث ابن المبارك ، نحوه (٣) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس فى هذه الآية قال : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ، ثم خفف الله عنهم ، فقال : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ، فلا ينبغى لمائة أن يفروا من مائتين .

وروى البخارى ، عن على بن عبد الله ، عن سفيان ، به ونحوه (٤) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى ابن أبى نجيح ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية ثقلت على على المسلمين ، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ، ومائة ألفاً ، فخفف الله عنهم . فنسخها بالآية الأخرى فقال : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ... الآية ، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدولهم لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم ، وإذا كانوا دون ذلك ، لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم (٥) .

وروى على بن طلحة والعوفى ، عن ابن عباس ، نحو ذلك . قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والحسن ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك نحو ذلك .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه ، من حديث المسيب بن شريك ، عن ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهما : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) قال : نزلت فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ينظر أثر سعيد بن جبير فى أسد الغابة : ٤ / ١٤٦ بتحقيقنا .

(٢) الأثر فى تفسير الطبرى من ابن وكيع ، من يزيد بن هارون ، عن جرير ، باسناده نحوه ، وهو برقم ١٦٢٨٠ : ١٤ / ٥٥ : وفى مخطوطة الأزهر : « الزبير بن الحارث » ، وهو خطأ ؛ وصوابه من تفسير الطبرى ؛ والبخارى ، والتهذيب : ٣ / ٣١٤ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٦ / ٧٩ ، ١٨٠ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الأنفال : ٦ / ٧٩ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٢٧١ : ١٤ / ٥٢ .

وروى الحاكم فى مستدركه ، من حديث أبى عمرو بن العلاء، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضُعْفًا) ، رفع . ثم قال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » (١)

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، عن حميد ، عن أنس رضى الله عنه قال : استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر ، فقال : إن الله قد أمكنكم منهم . فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس . فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم، ثم عاد النبى صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال : فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء . قال : وأنزل الله عز وجل : (لولا كتاب من الله سبق) .. الآية(٢) .

وقد سبق فى أول السورة حديث ابن عباس فى صحيح مسلم بنحو ذلك (٣) .

وقال الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عُبَيدة ، عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ . قال : فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستتبهم ، لعل الله أن يتوب عليهم . قال : وقال عمر : يا رسول الله أخرجوك ، وكذبوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم . قال : وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت فى واد كثير (٤) الحطب ، فأضرم الوادى عليهم ناراً ، ثم ألقهم فيه : [قال : فقال العباس : قطعت رحمك] (٥) قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام ، قال : (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام ، قال : (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك

---

(١) المستدرك ، كتاب التفسير ، القراءات : ٢ / ٢٣٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٢٤٣ .

(٣) ينظر : ٣ / ٥٥٨ ، ٥٥٩ عند تفسير الآيتين ٩ ، ١٠ من هذه السورة .

(٤) لفظ المسند ، وتفسير الطبرى : « انظر وا ديا كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم اضرم عليهم ناراً » .

(٥) مابين القوسين عن مسند الإمام أحمد وتفسير الطبرى .

أنت العزيز الحكيم) ، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام ، قال : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) ، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام ، قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) ، أنتم عالة [1] فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق . قال ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء ، فانه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتني فى يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل بن بيضاء : فأنزل الله تعالى : (ماكان لنبى أن يكون له أسرى) ... إلى آخر الآية .

رواه الإمام أحمد والترمذى ، من حديث أبى معاوية ، عن الأعمش ، والحاكم فى مستدركه ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » [2] . وروى الحافظ أبو بكر مردويه ، عن عبد الله بن عمر ، وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه ، وفى الباب عن أبى أيوب الأنصارى .

وروى ابن مردويه أيضاً — واللفظ له — والحاكم فى مستدركه ، من حديث عبيد الله بن موسى : حدثنا إسرائيل ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر ، أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار ، قال : وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه . فقال له عمر : فآتيهم ؟ قال : نعم : فأتى عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس . فقالوا : لا ، والله لا نرسله . فقال لهم عمر : فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضى ؟ قالوا : فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضى فخذه . فأخذه عمر فلما صار فى يده قال له : ياعباس ، أسلم ، فوالله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، فقال أبو بكر : عشيرتك . فأرسلهم ، فاستشار عمر ، فقال : اقتلهم . ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : (ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) الآية .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه [3] .

وقال سفيان الثورى ، عن هشام — هو ابن حسان — عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة ، عن على رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال : خيِّر أصحابك فى الأسارى : إن شاءوا الفداء ، وإن شاءوا القتل على أن يقتل منهم مقبلا مثلهم . قالوا : الفداء ويقتل منا .

رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه من حديث الثورى ، به : وهذا حديث غريب جدا [4] .

---

(١) عالة : فقراء .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، وتفسير الطبرى الاثر ١٦٢٩٣ : ١٤ / ٦١ ، ٦٢ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأنفال ، الحديث ٥٠٨٠ : ٨ / ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن ، وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه » . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه أحمد » . والمستدرك ، كتاب المغازى : ٣ / ٢١ ، ٢٢

(٣) المستدرك ، تفسير سورة الأنفال : ٢ / ٣٢٩ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب « ما جاء فى قتل الأسارى والفداء » ، الحديث ١٦١٤ : ٥ / ١٨٥ — ١٨٨ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب من حديث الثورى ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة » .

وقال ابن عون عن عبيدة ، عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى يوم بدر : « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم » قال : فكان آخر السبعين ثابت بن قيس ، قتل يوم اليمامة ، رضي الله عنه .

ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلا (١) ، فالله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) ، فقرأ حتى بلغ : (عذاب عظيم) ، قال : غنائم بدر ، قبل أن يحلها لهم ، يقول : لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه ، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) .

وكذا روى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد (٣) .

وقال الأعمش : سبق منه أن لا يعذب أحدا شهد بدرا . وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن جبير ، وعطاء .

وقال شعبة ، عن أبي هاشم ، عن مجاهد : (لولا كتاب من الله سبق) ، أي : « لهم بالمغفرة » . ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله (٤) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (لولا كتاب من الله سبق) ، يعني : في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ، (لمسكم فيما أخذتم) من الأسارى (عذاب عظيم) ، قال الله تعالى : (فكلوا مما غنمتم) .. الآية . وكذا روى العوفي ، عن ابن عباس . وروى مثله عن أبي هريرة ، وابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن البصري ، وقتادة ، والأعمش أيضا : أن المراد (لولا كتاب من الله سبق) لهذه الأمة بإحلال الغنائم . وهو اختيار ابن جرير رحمه الله .

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين ، عن جابر بن عبد الله بن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا ، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » .

وقال الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا » (٥) .

---

(١) ينظر تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٠٥ : ١٤ / ٧٦ .
(٢) ينظر سيرة ابن هشام : ١ / ٦٧٦ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣١٤ : ١٤ / ٦٩ .
(٤) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ٦٤ / ٦٦ .
(٥) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنفال ، الحديث ٥٠٧٩ : ٨ / ٤٧٤ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » ، وتفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٠١ ، ١٦٣٠٢ : ١٤ / ٦٦ .

ولهذا قال الله تعالى : (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم) ، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء .

وقد روى الإمام أبو داود فى سننه : حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشى ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا شعبة ، عن أبى العنبس ، عن أبى الشعثاء ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (١) .

وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء : أن الإمام مخير فيهم : إن شاء قتل – كما فعل ببنى قريظة – وإن شاء فادى بمال – كما فعل بأسرى بدر – أو بمن أسر من المسلمين – كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء ، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

قال محمد بن إسحاق : حدثنى العباس بن عبد الله بن مغفل ، عن بعض أهله ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : إنى قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا منهم – أى : من بنى هاشم – فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فانه إنما أخرج مستكرها . فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس ؟ ! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ! فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص – قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم – أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، ائذن لى فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق . فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمنُ من تلك الكلمة التى قلت ، ولا أزال منها خائفا ، إلا أن يكفرها الله عنى بشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدا رضى الله عنه .

وبه ، عن ابن عباس قال : لما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، والأسارى محبوسون بالوثاق ، بات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه : يا رسول الله ، ما لك لا تنام ؟ – وقد أسر العباس رجل من الأنصار – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه فأطلقوه . فسكتَ ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى فداء الأسير بالمال » ، الحديث ٢٦٩١ : ٣ / ٦١ ، ٦٢ .

قال محمد بن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب ، وذلك أنه كان رجلا مُوسرا ، فافتدى نفسه بمائة أوقيه ذهبا .

وفى صحيح البخارى ، من حديث موسى بن عقبة ، قال ابن شهاب : حدثنى أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ائذَنْ لنا فَلْنَترُكْ لابن أختنا عباس فداءه . قال : لا ، والله لا تَذَرون منه درهما [(١)] .

وقال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان ، عن عروة — وعن الزهرى ، عن جماعة سماهم قالوا : بعث قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أسراهم ، ففدَى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلما ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم باسلامك ، فان يكن كما تقول فان الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعَقيل بن أبى طالب ابن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر . » قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ! قال : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلتَ لها : إن أصبتُ فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لبَنىّ : الفضل ، وعبد الله ، وقُثَم . قال : والله يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغيرُ أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى : عشرين أوقية من مال كان معى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك . ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، وأنزل الله عز وجل فيه : (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسارى [(٢)] إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) ، قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا ، كلهم فى يده مال يَضرب [(٣)] به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

وقد روى ابن إسحاق أيضا ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم :

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق [(٤)]] عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال العباس : فىّ نزلت : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) ، فأخبرت النبىّ صلى الله عليه وسلم باسلامى ، وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقية التى أخذ منى ، فأبى ، فأبدلنى الله بها عشرين عبدا ، كلهم تاجر ، مالى فى يده .

وقال ابن إسحاق أيضا : حدثنى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال : كان العباس بن عبد المطلب يقول : فىّ نزلت — والله — حين ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامى — ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله [(٥)] .

---

(١) البخارى ، كتاب المغازى : ٥ / ١٠٩ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر : (الأسارى) ، وهى قراءة قتادة ، وأبى جعفر ، وابن أبى إسحاق ، ونصر بن عاصم ، وأبى عمرو من السبعة ، وقرأ الجمهور : (من الأسرى) ، وقرأ ابن محيص : (من أسرى) . ينظر البحر المحيط : ٤ / ٥٢١ .

(٣) الضرب يقع على جميع الأعمال إلا قليلا ، يقال : ضرب فى التجارة ، وفى الأرض ، وفى سبيل الله .

(٤) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢١ : ١٤ / ٧٣ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٢ : ١٤ / ٧٣ .

وقال ابن جُرَيْج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : (يا أيها النبى ، قل لمن فى أيديكم من الأسارى) : عباس وأصحابه ، قال : قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحن لك على قومنا . فأنزل الله : (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) ، إيمانا وتصديقا، يخلف لكم خيرا مما أخذ منكم — (ويغفر لكم) الشرك الذى كنتم عليه . قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا ، وأن لى الدنيا ، لقد قال : (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) ، فقد أعطانى خيرا مما أخذ منى مائة ضعف ، وقال : (ويغفر لكم) ، وأرجو أن يكون غُفر لى (١) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : كان العباس أسر يوم بدر ، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب ، فقال العباس حين قرئت هذه الآية : لقد أعطانا الله عز وجل خَصلتين ، ما أحب أن لى بهما الدنيا ، إنى أسرت يوم بدر فَفَدَيت نفسى بأربعين أوقية ، فآتانى أربعين عبدا ، وأنا أرجو المغفرة التى وعدنا الله جل ثناؤه (٢) .

وقال قتادة فى تفسير هذه الآية : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا ، وقد توضأ لصلاة الظهر ، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلا ، وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثى [فأخذ . قال :] فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا ، وأرجو المغفرة (٣) .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال قال : بعث ابن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين ثمانين ألفا ، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ ، قال : فنثرت على حصير ونُودى بالصلاة . قال : وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمثل قائما على المال ، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عَدَدُ ولا وَزْنُ ، ما كان إلا قَبْضاً ، وجاء العباس بن عبد المطلب يحثى فى خميصة (٤) عليه ، وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ارفع على . قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج ضاحكه (٥) — أو : نابه — وقال له : أعدْ من المال طائفة ، وقم بما تطيق. قال : ففعل ، وجعل العباس يقول — وهو منطلق — : أمَّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع فى الأخرى : (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسارى) ...الآية ، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا ، ولا أدرى ما يصنع الله فى الأخرى ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماثلا على ذلك المال ، حتى مابقى منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلى .

حديث آخر فى ذلك ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنى أبو الطيب محمد بن محمد ابن عبد الله السعيدى ، حدثنا مَحْمِش بن عصام ، حدثنا حفص بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن عبدالعزيز ابن صهيب ، عن أنس بن مالك قال : أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين ، فقال: انثروه فى المسجد

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٦ : ١٤ / ٧٤ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٤ : ١٤ / ٧٤ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٣ : ١٤ / ٧٣ ، ٧٤ ، وما بين القوسين المعقوفين عنه . وفى تفسير الطبرى : « فما أعطى يومئذ شاكياً » و « ساكتا » هكذا فى مخطوطة الأزهر ومخطوطة دار الكتب « ١ » تفسير .

(٤) الخميصة : كساء أسود مربع .

(٥) الضاحك : كل سن تبدو عند الضحك ، أو الضواحك : الأربع التى بين الأسنان والأضراس .

قال : وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاء العباس فقال : يارسول الله ، أعطنى فانى فاديت نفسى ، وفاديت عقيلا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ . فحثا فى ثوبه ، ثم ذهب يُقلّه[١] فلم يستطع ، فقال : مُرْ بعضهم يرفعه إلىّ : قال : لا : قال : فارفعه أنت علىّ . قال : لا . فنثر منه ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خَفِىَ عنه ، عَجَباً من حرْصه ، فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثَمّ منها درهم .

وقد رواه البخارى فى مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم ، يقول : « وقال إبراهيم بن طهمان[٢] » ويسوقه وفى بعض السياقات أتم من هذا .

وقوله : (وإن يريدوا خيانتك) ، أى : فيما أظهروا لك من الأقوال ، (فقد خانوا الله من قبل) ، أى : من قبل بدر بالكفر به ، (فأمكن منهم) ، أى : بالإسار يوم بدر ، (والله عليم حكيم) . أى : عليم بما يفعله ، حكيم فيه .

قال قتادة : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد ، ولحق بالمشركين[٣] .

وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : نزلت فى عباس وأصحابه ، حين قالوا : « لننصحن لك على قومنا »[٤] .

وفسرها السدى على العموم[٥] ، وهو أشمل وأظهر ، والله أعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين : خرجوا من ديارهم وأموالهم ، وجاءوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك . وإلى أنصار ، وهم : المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين فى منازلهم ، وواسوهم فى أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء [بعضهم أولياء بعض][٦] ، أى : كل منهم أحق بالآخر من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، كل

(١) ذهب يقله ، أى : يرفعه ويحمله .
(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « القسمة وتعليق القنو فى المسجد » : ١ / ١١٤ . وكتاب الجزية ، باب « ما أقطع النبى صلى الله عليه وسلم من مال البحرين : ٤ / ١٢٠
(٣) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٩ : ١٤ / ٧٦ .
(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٢٨ : ١٤ / ٧٥ ، ٧٦ .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٣٠ : ١٤ / ٧٦ ، ٧٧ .
(٦) فى مخطوطة الأزهر : « بعضهم أولى ببعض » .

اثنين أخوّان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ، ثبت ذلك فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس (١) ، ورواه العَوْفى ، وعلى بن أبى طلحة ، عنه(٢) . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة(٣) وغيرهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبى وائل،عن جرِير — هو ابن عبد الله البجلى ، رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة . تفرد به أحمد(٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا شيبان ، حدثنا عكرمة — يعنى ابن إبراهيم الأزدى — حدثنا عاصم ، عن شقيق ، عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المهاجرون والأنصار ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة » . هكذا رواه فى مسند عبد الله بن مسعود .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه ، فقال : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار(٥)...) الآية ، وقال : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة(٦) ...) الآية ، وقال تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٧) ...) الآية .

وأحسن ما قيل فى قوله : (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) ، أى : لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فان ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، لا يختلفون فى ذلك ، ولهذا قال الإمام أبو بكر [أحمد] بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن حذيفة قال : « خيّرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين الهجرة والنصرة ، فاخترت الهجرة » .

ثم قال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقوله : (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم)، [قرأ حمزة(٨): ولايتهم بالكسر ، والباقون بالفتح ، وهما واحد كالدّلالة والدّلالة] (من شىء حتى يهاجروا) ، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الفرائض ، باب ذوى الأرحام : ٥ / ١٩٠ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٣١ ، ١٦٣٣٢ : ١٤ / ٧٨ ، ٧٩ .
(٣) ينظر تفسير الطبرى : ١٤ / ٧٩ ، ٨٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٣٦٣ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ١٠٠ .
(٦) سورة التوبة ، آية : ١١٧ .
(٧) سورة الحشر ، آية : ٨ ، ٩ .
(٨) ينظر البحر المحيط لأبى حيان : ٤/ ٥٢٢ .

ولم يهاجروا ، بل أقاموا فى بوادبهم ، فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيب ، ولا فى خمسها إلا ما حضروا فيه القتال ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه : بريدة بن الحصيب الأسلمى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على سرية أوجيش ، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ــ أو : خلال ــ فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فان أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين . فان أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فان أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فان أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم »[1] :

انفرد به مسلم ، وعنده زيادات أخر[2] :

وقوله : (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير)

يقول تعالى : وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب ، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى ، على عدو لهم فانصروهم ، فانه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم إخوانكم فى الدين ، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار (بينكم وبينهم ميثاق) ، أى : مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم . وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، كما قال الحاكم فى مستدركه :

حدثنا محمد بن صالح بن هانىء ، حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروى ، حدثنا محمد بن أبان ، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن عمرو بن عثمان ، عن أسامة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً » ، ثم قرأ : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) . ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٣٥٢ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب « تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها » : ٥ / ١٣٩ ، ١٤٠ .

قلت : الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم »(١)، وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » . وقال الترمذي : « حسن صحيح »(٢).

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد ، [عن محمد بن ثور](٣) ، عن معمر ، عن الزهري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان ، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب »(٤) .

وهذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روى متصلا من وجه آخر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين ، ثم قال : لا يتراءى ناراهما » (٥) .

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، أخبرني يحيى بن حسان ، أنبأنا سليمان ابن موسى أبو داود ، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب [حدثني خبيب بن سليمان ، عن أبيه سليمان بن سمرة] عن سمرة بن جندب : أما بعد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جامع المشرك وسكن معه فانه مثله (٦) » .

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه ، من حديث حاتم بن إسماعيل ، عن عبد الله بن هرمز ، عن محمد وسعيد ابني عبيد ، عن أبي حاتم المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم من ترْضَون دينه وخلقه ، فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض . قالوا : يا رسول الله ، وإن كان ... ؟ قال : إذا أتاكم من ترْضَون دينه وخلقه فأنكحوه . ثلاث مرات .

وأخرجه أبو داود والترمذي ، من حديث حاتم بن إسماعيل ، به بنحوه (٧) .

ثم رَوَى من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان ، عن ابن وَثِيمَةَ النَّصْري ، عن أبي هريرة رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الفرائض ، ينظر البخاري ، باب « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » : ٨ / ١٩٤ ، ومسلم ، الحديث الأول : ٥ / ٥٩ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، في كتاب الفرائض ، ينظر سنن أبي داود ، باب « هل يرث المسلم الكافر » ، الحديث ٢٩١١ : ٣ / ١٢٥ ، ١٢٦ . وتحفة الأحوذي ، باب « ما جاء في إبطال الميراث بين المسلم والكافر » ، الحديث ٢١٩٠ : ٦ / ٣٨٧ . وابن ماجة ، باب « ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك » الحديث ٢٧٢٩ : ٢ / ٩١١ . ومسند الإمام أحمد : ٢ / ١٩٥ .

(٣) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبري . و« محمد » الذي يروى عنه ابن جرير ، هو محمد بن عبد الأعلى . وينظر ترجمة محمد بن ثور في التهذيب : ٩ / ٨٧ .

(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٣٩ : ١٤ / ٨٢ ، ٨٣ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « النهي عن قتل من اعتصم بالسجود » ، الحديث ٢٦٤٥ : ٣ / ٤٥ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في الإقامة بأرض الشرك » ، الحديث ٢٧٨٧ : ٣ / ٩٣ . وما بين القوسين من السنن .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، وتحفة الأحوذي ، كتاب النكاح ، باب « ما جاء في من ترضون دينه فزوجوه » الحديث ١٠٩١ : ٤ / ٢٠٥ .

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تاكم من ترصون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض (١) » .

ومعنى قوله تعالى : (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) ، أى : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت الفتنة فى الناس ، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر ، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا ، عطف بذكر مالهم فى الآخرة ؛ فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، كما تقدم فى أول السورة ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى ، ولا يُسأم ولا يُمل لحسنه وتنوعه .

ثم ذكر أن الأتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح ، فهم معهم فى الآخرة ، كما قال : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار (٢)) ... الآية ، وقال : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم (٣)) وفى الحديث المتفق عليه ، بل المتواتر ، من طرق صحيحة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المرء مع من أحب (٤) » ، وفى الحديث الآخر : « من أحب قوما حشر (٥) معهم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبى وائل ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة ــ قال شريك : فحدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عبد الرحمن بن هلال ، عن جرير ، عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله » .

تفرد به أحمد من هذين الوجهين (٦) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، الباب المتقدم ، الحديث ١٠٩٠ : ٤ / ٢٠٤ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ١٠٠ .
(٣) سورة الحشر ، آية : ١٠ .
(٤) سبق تخريج هذا الحديث عند الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ، ينظر ٣ / ٥٢٣ .
(٥) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى قرصافة رضى الله عنه . ينظر الكنز الثمين : ٥٢٣ .
(٦) مضى تخريج هذا الحديث عند الآية ٧٢ من هذه السورة ، وهو فى المسند : ٤ / ٣٤٣ .

وأما قوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله) ، أى : فى حكم الله ، وليس المراد بقوله : (وأولوا الأرحام) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة ، الذين لافرض لهم ولاهم عصبة ، بل يدلون بوارث ، كالخالة ، والخال ، والعمة ، وأولاد البنات ، وأولاد الأخوات ، ونحوهم ، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحا فى المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات : كما نص ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغير واحد : على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا ، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص : ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وَصيةَ لوارث (١) » ، قالوا : فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا ، والله أعلم .

آخر سورة « الأنفال » ، ولله الحمد والمنة ، وعليه التكلان ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الوصايا ، باب « ما جاء فى الوصية للوارث » ، الحديث ٢٨٧٠ : ٣ / ١١٤ وتحفة الأحوذى : أبواب الوصايا ، باب « ما جاء لا وصية لوارث » الحديث ٢٢٠٣ : ٦/ ٣٠٩ . ومسند الإمام أحمد عن عمرو بن خارجة : ٤ / ١٨٦ ، ١٨٧ . وعن أبي أمامة الباهلى : ٥ / ٢٦٧ .

تفسير سورة التوبة

بَرَاءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال البخارى :

حدثنا [أبو] الوليد ، حدثنا شعبة ، عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء يقول : آخر آية نزلت : (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) ، وآخر سورة نزلت براءة (١) .

وإنما لا يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام ، والاقتداء فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه ، كما قال الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وابن أبى عَدِىّ ، وسَهْل بن يوسف قالوا : حدثنا عوف بن أبى جَمِيلة ، أخبرنى يزيد الفارسى ، أخبرنى ابن عباس قال ، قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المِئِين (٢) ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ووضعتموها فى السبع الطُّوَل ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان (٣) وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىءُ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يُذْكَرُ فيها كذا وكذا ، فاذا نزلت عليه الآية فيقول : ضعوا هذه فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وحَسِبْتُ(٤) أنها منها ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فوضعتها فى السبع (٥) الطول .

وكذا رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن حبَّان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه ، من طرق أخر ، عن عوف الأعرابى ، به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٦) » :

---

(١) البخارى ، تفسير براءة : ٦ / ٨٠ ، وينظر فيما تقدم تفسير الآية ١٧٦ من سورة النساء : ٢ / ٤٣٤ .

(٢) المثانى : كل سورة أقل من المئين ، وسورة الأنفال عدد آياتها خمس وسبعون .

(٣) أى : يأتى عليه الزمان الطويل .

(٤) فى سنن الترمذى ، كما فى تحفة الأحوذى : « فظننت أنها منها » .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٤٠٨١ : ٨ / ٤٧٧ - ٤٨٠ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى ، عن ابن عباس » .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، « باب من جهر بها » ، الحديث ٧٨٦ : ١ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ . ومسند الإمام أحمد : ١ / ٥٧ ، والمستدرك ، تفسير سورة التوبة : ٢ / ٣٣٠ .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ، ثم ذُكِر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم ، فبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج هذه السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى فى الناس ببراءة ، فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكونه عَصَبة له ، كما سيأتى بيانه .

فقوله : (براءة من الله ورسوله) ، أى : هذه براءة ، أى : تبرؤ من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) .

اختلف المفسرون هاهنا اختلافا كثيرا ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته ، مهما كان ، لقوله تعالى : (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) . ولما سيأتى فى الحديث : «ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته» . وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله ، ورُوِى عن الكلبى ومحمد بن كعب القُرظى ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) قال : حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر ، يسيحون فى الأرض حيث ما شاءوا ، وأجَّلَ أجَلَ (١) من ليس له عهد ، انسلاخَ الأشهر الحرم ، [من يوم النحر إلى إنسلاخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم (٢)] أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له (٣) .

وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس (٤) .

وقال [الضحاك (٥)] بعد قوله : « فذلك خمسون ليلة » : فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد ، يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام . وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلَوْن من ربيع الآخر ، أن يضع فيهم السيف ، حتى يدخلوا فى الإسلام (٦) .

وقال أبو معشر المدنى : حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من « براءة » ، فقرأها على الناس ،

---

(١) فى تفسير الطبرى : « وحد أجل ... » ، ومعنى « أجل أجل من ليس له عهد » جعل له أجلا ووقتا معلوما .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين سقط من مخطوطة الأزهر ، وهو سقط نظر ، أثبتناه من تفسير الطبرى .

(٣) فى تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٥٧ / ١٤ / ٩٨ : « أمره بأن يضع السيف فيمن عاهد » ، وهو خطأ لا يستقيم النص عليه ، وينظر أثر الضحاك فيما يأتى .

(٤) أثر العوفى فى تفسير الطبرى برقم ١٦٣٥٨ : ١٤ / ٩٨ .

(٥) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، ولابد من إثباته ، فبدونه يتوهم أن هذا القول من رواية العوفى عن ابن عباس ، وإنما هو من أثر رواه الطبرى عن الضحاك .

(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٥٩ : ١٤ / ٩٨ ، ٩٩ .

يؤجّل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجّل المشركين عشرين من ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشرا من ربيع الآخر ، وقرأها عليهم فى منازلهم ، وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان (١).

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : (براءة من الله ورسوله) إلى أهل العهد : خزاعة ، ومُدْلج ، ومن كان له عهد أو غيرهم : أقبل (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ، ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عُرَاة ، فلا أحب أن أحج حتى لايكون ذلك . فأرسل أبا بكر وعلياً رضى الله عنها ، فطافا بالناس فى ذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها ، فآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر ، فهى الأشهر المتواليات : عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لاعهد لهم ، وآذن الناس كلَّهم بالقتال إلا أن (٣) يؤمنوا

وهكذا رُوى عن السدى ، وقتادة (٤)

وقال الزهرى : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم (٥)

وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها ، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر ، حين نادى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى : وإعلام (من الله ورسوله) وتَقَدّمٌ وإنذار إلى الناس ، (يوم الحج الأكبر) ، وهو يوم [النحر] الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً ، (أن الله برئ من المشركين ورسولُه) ، أى : برىء منهم أيضا ،

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : (فان تبتم) ، أى : مما أنتم فيه من الشرك والضلال ، (فهو خير لكم ، وإن توليتم) أى : استمررتم على ماأنتم عليه ، (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) ، بل هو قادر عليكم ، وأنتم فى قبضته ، وتحت قهره ومشيئته ، (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) ، أى : ى الدنيا بالخزى والنكال ، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال (٦)

قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحَجَّة فى المُؤَذّنين ، بعثهم يوم النحر ،

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٦٢ : ١٤ / ١٠٠ .

(٢) فى المخطوطة : « إقبال رسول الله » . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٦٤ : ١٤ / ١٠٠ ، ١٠١ .

(٤) أثر السدى فى تفسير الطبرى برقم ١٦٣٦١ : ١٤ / ٩٩ ، ١٠٠ ، وأثر قتادة فيه أيضا ورقمه ١٦٣٦٣ : ١٤ / ١٠٠

(٥) أثر الزهرى فى تفسير الطبرى بغير هذا اللفظ ، ورقمه ١٦٣٦٦ : ١٤ / ١٠١ .

(٦) المقامع : جمع مقمعة ــ بكسر الميم ــ وهى : سياط تعمل من حديد ، رءوسها معوجة .

يُؤَذِّنون بمنى : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفَ بالبيت عريان — قال حميد : ثم أردف النبيّ صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب ، فأمره أن يُؤذّن ببراءة — قال أبو هريرة : فأذّن معنا علىّ فى أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان(١) .

ورواه البخارى أيضا : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شُعَيب ، عن الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يُؤذّن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفُ بالبيت عُريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل : « الأكبر » ، من أجل قول الناس : « الحج الأصغر » ، فنَبَذَ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرك .

وهذا لفظ البخارى فى كتاب « الجهاد (٢) » .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن ابن المسيب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله : (براءة من الله ورسوله) ، قال : لما كان النبى صلى الله عليه وسلم زمن حنين ، اعتمر من الجِعِرّانة ، ثم أمرَ أبا بكر على تلك الحجة — قال معمر : قال الزهرى : وكان أبو هريرة يحدّث أن أبا بكر أمرَ أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر — قال أبو هريرة : ثم أتبعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم علياً ، وأمرَه أن يؤذّن ببراءة ، وأبو بكر على الموسم كما هو — أو قال : على هيئته .

وهذا السياق فيه غرابة ، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرّانة(٣) إنما هو عتّاب بن أسيد(٤) ، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن الشعبى ، عن مُحرَّر بن أبى هريرة ، عن أبيه قال : كنت مع على بن أبى طالب ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة بـ « براءة » ، فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى : أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوفَ بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فان أجله — أو أمَدَه — إلى أربعة أشهر ، فاذا مضت الأربعة الأشهر فان الله برىء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك — قال : فكنت أنادى حتى صَحِل صوتى (٥) .

وقال الشعبى : حدثنى مُحَرَّر بن أبى هريرة ، عن أبيه قال : كنت مع ابن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى ، فكان إذا صَحِل ناديتُ . قلت : بأى شىء كنتم تنادون ؟ قال : بأربع : لا يطوف بالكعبة عريان ، ومن كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا مشرك .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة براءة : ٦ / ٨١ .

(٢) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « كيف ينبذ إلى أهل العهد » : ٤ / ١٢٤ .

(٣) الجعرانة — بكسر أوله ، وأهل الحديث يكسرون عينه ويشددون راءه ، وأهل الأدب يخطئونهم ويسكنون العين ويخففون الراء ، والصحيح أنهما لغتان جيدتان — : منزل بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب ، نزله النبى صلى الله عليه وسلم ، وقسم بها غنائم حنين وأحرم منه بالعمرة وكان ذلك سنة ثمان ، وله فيه مسجد .

(٤) ينظر ترجمة « عتاب بن أسيد » فى أسد الغابة : ٣ / ٥٥٦ بتحقيقنا .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٢٩٩ . وصحل صوته : بح .

رواه ابن جرير من غير ما وجه ، عن الشعبي (١) . ورواه شعبة ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، به إلا أنه قال : « ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، فعهده إلى أربعة أشهر » وذكر تمام الحديث (٢) .

قال ابن جرير : وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته ، لأن الأخبار متظاهرة فى الأجل بخلافه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن سماك ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بـ « براءة » مع أبى بكر ، فلما بلغ ذا الحليفة قال : لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتى . فبعث بها مع على بن أبى طالب رضى الله عنه (٤) .

ورواه الترمذى فى التفسير ، عن بُنْدَار ، عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة ، به ثم قال : حسن غريب من حديث أنس رضى الله عنه (٥) .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن سليمان — لُوَين — حدثنا محمد بن جابر ، عن سمَاك ، عن حَنَش ، عن عَلِىّ رضى الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من « براءة » على النبى صلى الله عليه وسلم ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعانى فقال : أدرك أبا بكر ، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه ، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم . فلحقته بالجُحْفَة ، فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، نزل فى شىء ؟ فقال : لا ، ولكن جبريل جاءنى فقال : لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك (٦) .

هذا إسناد فيه ضعف .

وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره ، [بل] بعد قضائه المناسك التى أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جاء مبينا فى الرواية الأخرى :

وقال عبد الله أيضا : حدثنى أبو بكر ، حدثنا عمرو بن حماد ، عن أسباط بن نصر ، عن سماك ، عن حنش ، عن على رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه بـ « براءة » قال : يانبى الله ، إنى لست باللسن ولا بالخطيب . قال : ما بدّ لى أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت . قال : فإن كان ولا بدّ فسأذهب أنا . قال : انطلق ، فإن الله يثبت لسانك ويهدى قلبك . قال : ثم وضع يده على فيه (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٦٨ ، ١٦٣٦٩ : ١٤ / ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٧٠ : ١٤ / ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٤ / ١٠٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٢٨٣ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « براءة » ، الحديث ٥٠٨٥ : ٨ / ٤٨٠ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٥١ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٥٠ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن زيد بن يثيع — رجل من همدان — : سألنا عليا : بأى شيء بُعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر في الحجة ، قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولايطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون والمسلمون(١) بعد عامهم(٢) هذا .

ورواه الترمذي عن قلابة ، عن سفيان بن عيينة ، به ، وقال : «حسن صحيح (٣) » .

كذا قال ، ورواه شعبة ، عن أبي إسحاق فقال : عن « زيد بن يُثَيع » ، وهم فيه . ورواه الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن علي رضي الله عنه :

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا [أبو] أسامة ، عن زكريا ، عن أبي إسحاق ، عن زيد بن يُثَيع ، عن علي قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت « براءة » بأربع : أن لايطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، [ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة(٤)

ثم رواه ابن جرير ، عن محمد بن عبد الأعلى ، عن أبي ثور ، عن معمر ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي قال : « أمرت بأربع . . . . . » فذكره (٥)

وقال إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن زيد بن يُثَيع قال : نزلت براءة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، ثم أرسل عليا ، فأخذها ، [منه] فلما رجع أبو بكر قال : نزل فيّ شيء ؟ قال : لا ، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي . فانطلق(٦) إلى أهل مكة ، فقام فيهم بأربع : لايدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، فعهده إلى مدته(٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنَيف ، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال : لما نزلت « براءة » على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس ، فقيل : يارسول الله ، لو بعثتَ إلى أبي بكر . فقال : لايؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي . ثم دعا عليا فقال : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يَطُفْ بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته ؛ فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء ، حتى أدرك أبا بكر في الطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أميرٌ أو مأمور ؟ قال : بل مأمور .

---

(١) أي : لا يحجون مع المسلمين .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٧٩ .
(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٨٧ : ٨ / ٤٨٨ ، ٤٩٩ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٧٣ : ١٤ / ١٠٦ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٧١ : ١٤ / ١٠٥ .
(٦) يعني : عليا .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٧٥ : ١٤ / ١٠٧ .

ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج، [والعرب (١)] إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياأيها الناس، إنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يَطُفْ بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد ، أخبرنا حَيْوَة بن شُريح : أخبرنا أبو (٣) صخر : أنه سمع أبا معاوية البجلى من أهل الكوفة يقول : سمعت أبا الصهباء البكرى وهو يقول : سألت على بن أبى طالب عن «يوم الحج الأكبر» فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر بن أبى قُحافة يقيم للناس الحج ، وبعثنى معه بأربعين آية من «براءة» ، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلىّ فقال : قم ، ياعلى ، فأدّ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة» ، ثم صَدَرْنا (٤) فأتينا منى ، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة ، ثم حلقت رأسى ، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبى بكر يوم عرفة ، فطفت أتتبع بها الفساطيط (٥) أقرؤها عليهم ، فمن ثَمّ إخال حسبتم أنه يوم النحر ، ألا وهو يوم عرفة (٦)

وقال عبد الرازق ، عن معمر ، عن أبى إسحاق : سألت أبا جُحَيفة عن يوم الحج الأكبر ، قال : يوم عرفة . فقلت : أمِنْ عندك ، أم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كل فى ذلك (٧)

وقال عبد الرزاق أيضا ، عن جريج ، عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر ، يوم عرفة (٨) .

وقال عُمَر بن الوليد الشَّنّى : حدثنا شهاب بن عباد العَصَرىّ ، عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر ، فلا يصومنه أحد. قال : فحججت بعد أبى فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا : سعيد بن المسيب ، فأتيته فقلت : إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا : سعيد بن المسيب ، فأخبرنى عن صوم يوم عرفة؟ فقال أخْبُرك عمن هو أفضل منى مائة ضعف عمر — أو : ابن عمر — كان ينهى عن صومه ، ويقول : هو يوم الحج الأكبر (٩) .

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٧٧ : ١٤ / ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) فى المخطوطة : «ابن صخر» ، والمثبت من تفسير الطبرى ، وهو حميد بن زياد الخراط أبو صخر ، ينظر ترجمته فى التهذيب : ٣ / ٤١ .
(٤) صدر عن الماء والبلد : رجع . والصدر — بفتحتين — ليلة رجوع الناس من عرفة إلى منى .
(٥) الفساطيط : جمع فسطاط ، مثل السرادق ، وهو أصغر منه ، يتخذه المسافرون .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٨٢ : ١٤ / ١١٣ .
(٧) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٨٣ : ١٤ / ١١٤ . ولفظ الطبرى : «كل ذلك» .
(٨) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٨٤ : ١٤ / ١١٤ .
(٩) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٣٨٦ : ١٤ / ١١٣ .

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهكذا رُوي عن ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وطاوس : أنهم قالوا : يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر .

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج : أُخبِرتُ عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر . (١)

وروى من وجه آخر عن ابن جريج ، عن محمد بن قيس ، عن المسور بن مخرمة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فان هذا يوم الحج الأكبر .

والقول الثاني : أنه يوم النحر .

قال هشيم ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي ، عن علي رضي الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر .

وقال أبو إسحاق السبيعي ، عن الحارث الأعور ، سألت عليا رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر ، فقال يوم : النحر (٢) .

وقال شعبة ، عن الحكم : سمعت يحيى بن الجزار يحدث علي عن رضي الله عنه : أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة ، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته ، فسأله عن الحج الأكبر ، فقال : هو يومك هذا ، خلِّ سبيلها (٣)

وقال عبد الرزاق ، عن سفيان وشعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر (٤) .

وروى شعبة وغيره ، عن عبد الملك بن عمير ، به نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره ، عن الشيباني ، عن عبد الله ابن أبي أوفى (٥) .

وقال الأعمش ، عن عبد الله بن سنان قال : خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى ، وهذا يوم النحر ، وهذا يوم الحج الأكبر (٦) .

وقال حماد بن سلمة ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : الحج الأكبر ، يوم النحر (٧) .

وكذا روى عن أبي جُحَيفة ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن شداد بن الهاد ، ونافع بن جُبَير بن مطعم ، والشعبي ، وإبراهيم النخعي ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبي جعفر الباقر ، والزهري ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر . واختاره ابن جرير . وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري : أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يُؤذّنون بمنى ، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٩٣ : ١٤ / ١١٦ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٩٦ : ١٤ / ١١٦ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٠٥ : ١٤ / ١١٨ .
(٤) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٣٩٩ ، ١٦٤٠٠ : ١٤ / ١١٧ .
(٥) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ١١٧ .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٤٦١١ ، ١٦٤١٢ : ١٣ / ١١٨ ، ١١٩ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤١٤ : ١٤ / ١١٩ .

حدثني سهل بن محمد السجستاني ، حدثنا أبو جابر الحَرَمي ، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشي — عن نافع ، عن ابن عمر قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر (١) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، وابن مَرْدُويه من حديث أبي جابر — واسمه محمد بن عبد الملك ، به . ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم ، عن هشام بن الغاز ، به . ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز ، عن نافع ، به .

وقال شعبة ، عن عمرو بن مُرّة [عن مُرّة] الهَمْداني ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة حمراء مخضرمة ، فقال : أتدرون أي [يوم] يومكم هذا ؟ قالوا : يوم النحر . قال : صدقتم ، يوم الحج الأكبر (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا ابن عون ، عن محمد بن سيرين ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه قال : لما كان ذلك اليوم ، قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له ، وأخذ الناس بخطامه — أو : زمامه — فقال : أيّ يوم هذا ؟ قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسَمّيه سوى اسمه ، فقا : أليس هذا يوم الحج الأكبر (٣) ؟ .

وهذا إسناد صحيح ، وأصله مخرج في الصحيح .

وقال أبو الأحوص ، عن شبيب بن غرقدة ، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فقال : أيّ يوم هذا ؟ فقالوا : اليوم الحجُ الأكبر .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر . رواه ابن أبي حاتم .

وقال مجاهد أيضاً : يوم الحج الأكبر أيامُ الحج كلها (٤) .

وكذا قال أبو عبيد ، قال سفيان : « يوم الحج » ، « ويوم الجمل » ، « ويوم صفين » ، أي : أيامه كلها (٥) .

وقال سهل السراج : سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر ، فقال : مالكم وللحج الأكبر ، ذاك عامٌ حجّ فيه أبو بكر ، الذي استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج بالناس . رواه (٦) ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو أسامة ، عن ابن عون : سألت محمداً — يعني ابن سيرين — عن يوم الحج الأكبر فقال : كان يوما وافق فيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حَجّ أهل الوَبَر (٧) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٤٧ : ١٤ / ١٢٤ .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٤٨ : ١٤ / ١٢٥ .
(٣) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٤٦ : ١٤ / ١٢٣ .
(٤) ينظر تفسير الطبري : ١٤ / ١٢٧ .
(٥) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٥٧ : ١٤ / ١٢٧ .
(٦) الدر المنثور عن عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم : ٣ / ٢١١ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٤٢٨ : ١٤ / ١٢١ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر ، لمن له عهد مطلق ليس بموقت ، فأجله أربعة أشهر ، يسيح فى الأرض ، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد موقت ، فأجله إلى مُدّته المضروبة التى عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث : « ومن كان له عَهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهدُه إلى مُدّته » ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ، ولم يظاهر على المسلمين أحداً ، أى : يمالىء عليهم من سواهم ، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته ، ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال : (إن الله يحب المتقين) ، أى : الموفين بعهدهم :

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحُرُم هاهنا ، ما هى ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى : (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ... الآية ، قاله أبو جعفر الباقر . لكن قال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم فى حقهم المُحرّم . وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وإليه ذهب الضحاك أيضاً ، وفيه نظر ، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العَوْفى عنه ، وبه قال مجاهد ، وعمرو بن شعيب ، ومحمد بن إسحاق ، وقتادة ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله : (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) . ثم قال : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) ، أى : إذا انقضت الأشهر الأربعة . [التى حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ؛ ثم إن الأشهر الأربعة] المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعدُ فى هذه السورة الكريمة .

وقوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أى : من الأرض . وهذا عام ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم [1]) .

وقوله : (وخذوهم) ، أى : وأسروهم ، إن شئتم قتلا ، وإن شئتم أسرا .

وقوله : (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) ، أى : لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم ، والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تُضيّقوا عليهم الواسع ، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ؛ ولهذا قال : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم) ؛

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٩١ .

ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهى الدخول فى الإسلام ، والقيام بأداء واجباته . ونبّه بأعلاها على أدناها ، فان أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة ، التى هى حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعدّ إلى الفقراء والمحاويج ، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة ، وقد جاء فى الصحيحين ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة »(١) ... الحديث.

وقال أبو إسحاق ، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزكّ فلا صلاة له(١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، أنبأنا حميد الطويل ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلّوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم » (٢) .

ورواه البخارى فى صحيحه(٣) وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث عبد الله بن المبارك ، به .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس [عن أنس] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا يشرك به شيئاً ، فارقها والله عنه راض ــ قال : وقال أنس : هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم ، قبل هرْج الأحاديث(٤) ، واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل ، قال الله تعالى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ــ قال : توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ثم قال فى آية أخرى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين (٥) .

ورواه ابن مردويه .

ورواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب « الصلاة » له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أنبأنا حكّام بن سلْم ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، به سواء .

---

(١) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « فان تابوا وأقاموا الصلاة » : ١ / ١٢ ، ١٣ . ومسلم فى كتاب الإيمان أيضا ، « باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » : ١ / ٣٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣ / ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « فضل استقبال القبلة » : ١ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) هرج الأحاديث : الإكثار فيها ، واختلاف المختلفين .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٤٧٥ : ١٤ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم : إنها نسخت كل عهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أحد من المشركين ، وكل عهد ، وكل مدة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة ، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر ، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمّى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال : قال سفيان : قال علي بن أبي طالب : بعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف : سيف في المشركين من العرب ، قال الله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) .

هكذا رواه مختصراً ، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)(١) ، والسيف الثالث : قتال المنافقين في قوله : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين)(٢) ، والرابع : قتال الباغين في قوله : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(٣) .

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه ، فقال الضحاك والسدي : هي منسوخة بقوله تعالى : (فإما منا بعد وإما فداء) ، وقال قتادة بالعكس : (الآية - ٤ - سورة محمد)

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : (وإن أحد من المشركين) ، الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ، (استجارك) ، أي : استأمنك ، فأجبه إلى طلبته (حتى يسمع كلام الله) ، أي : تقرؤه عليه ، وتذكر له شيئاً من الدين تقيم عليه به حجة الله ، (ثم أبلغه مأمنه) ، أي : وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ، (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) ، أي : إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٢٩ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٧٣ ، والتحريم ، آية : ٩ .
(٣) سورة الحجرات ، آية : ٩ .

وقال ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، في تفسير هذه الآية ، قال : إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك ، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه ، حيث جاء [١] .

ومن هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الأمان لمن جاءه ، مسترشداً أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش ، منهم : عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم واحداً بعد واحد ، يترددون في قضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم [٢] .

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك » [٣] . وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له : ابن النواحة ، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : « إنك الآن لست في رسالة » ، وأمر به فضُربت عنقه ، لا رَحمه الله ولعنه .

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة ، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً ، أعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه . لكن قال العلماء : لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان ، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء ، رحمهم الله .

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظِرتَه إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا ، فقال تعالى : (كيف يكون للمشركين عهد) وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ، (إلا من عاهدتم عند المسجد الحرام) ، يعني يوم الحديبية ، كما قال تعالى : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) ... الآية ، (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) ، أي : مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين (فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) ، وقد فعل رسول الله

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٤٨٣ : ١٤ / ١٣٩ .

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ، عند الحديث عن أمر الحديبية : ٢ / ٣٠٨ - ٣٢٢ .

(٣) سيرة ابن هشام : ١ / ٦٠٠ .

صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون ، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست ، إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً ، فعند ذلك غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ، ومكّنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم ، فسمّوا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء : منهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مُحرّضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبرى منهم ، ومبيّنا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم ، لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلاّ ولا ذمة .

قال على بن أبى طلحة ، وعكرمة ، والعوفى عن ابن عباس: « الإل » : القرابة، «والذمة» العهد : وكذا قال الضحاك والسدى(١) ، كما قال تميم بن مقبل :

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ(٢)

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه (٣) :

وَجَدْنَاهُمُ كَاذِباً إِلُّهُمْ وَذُو الإِلِّ وَالعَهْدِ لا يَكْذِبُ

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (لا يرقبون فى مؤمن إلاّ) قال : الله . وفى رواية : لا يرقبون الله ولا غيره (٤) ؛

---

(١) ينظر هذه الآثار فى تفسير الطبرى : ١٤ / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى : ١٤ / ١٤٨ .

و« خلوف » : جمع « خلف » - بفتح فسكون - وهم : بقية السوء والأشرار تخلف من سبقها . والأعراق : جمع عرق ، وعرق كل شىء : أصله .

(٣) هكذا نسبه ابن كثير إلى حسان بن ثابت ، ولم نجده فى ديوانه . والبيت فى تفسير الطبرى غير منسوب ١٤ / ١٤٨ . وأما بيت حسان الذى استشهد به الطبرى فهو :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام

وهذا البيت فى ديوان حسان : ٣٣٦ ، واللسان ، مادة : ألل .

والسقب : ولد الناقة ساعة يولد ، والرأل : ولد النعام ، يقول حسان : إنه لا قرابة بينك وبينهم ، كما أنه لا قرابة بين السقب وولد النعام .

(٤) هذان الأثران فى تفسير الطبرى : ١٤ / ١٤٦ .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيّة ، عن سليمان ، عن أبي مجلز في قوله تعالى : (لا يرقبون في مؤمن إلاولا ذمة) : مثلُ قوله « جبرائيل » ، « ميكائيل » ، « إسرافيل » ، [كأنه يقول : يضيف « جبْر » ، و « ميكا » ، « و « إسراف » ، إلى « إيل » ، يقول : عبد الله ــ (لا يرقبون في مؤمن إلا] (١) كأنه يقول : لا يرقبون الله :

والقول الأول أشهر وأظهر ، وعليه الأكثر :

وعن مجاهد أيضا : « الإل » العهد (٢) : وقال قتادة : « الإل » الحلف :

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثّاً للمؤمنين على قتالهم : (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) ، يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهَوا به من أمور الدنيا الخسيسة ، (فصدوا عن سبيله) ، أي : منعوا المؤمنين من اتباع الحق ، (إنهم ساء ما كانوا يعملون : لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) تقدم تفسيره ، وكذا الآية التي بعدها : (فان تابوا وأقاموا الصلاة) إلى آخرها ، تقدمت :

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا يحيى بن أبي بكر ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، حدثنا الربيع بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته ، لا يشرك به ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » : وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم ، قبل هَرْج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله : (فان تابوا) ، يقول : فان خلعوا الأوثان وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ، وقال في آية أخرى : (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) :

ثم قال البزار : آخرُ الحديث عندي والله أعلم : « فارقها وهو عنه راض » ، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس (٣)

(١) ما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر ، وهو سقط نظر لابد من إثباته حتى يستقيم الأثر ، وهو في تفسير الطبري برقم ١٦٥٠٠ : ١٤ / ١٤٦ .

(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٠٩ : ١٤ / ١٤٨ .

(٣) أخرجه الطبري عن عبد الأعلى بن واصل ، عن عبيد الله بن موسى ، عن أبي جعفر الرازي ، باسناده ، مثله . وقد تقدم من قريب عند قوله تعالى : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم) الآية .

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى : وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي : عهودهم ومواثيقهم ، (وطعنوا في دينكم) ، أي : عابوه وانتقصوه . ومن هاهنا أخذ قتل من سبّ الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أو مَن طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص ، ولهذا قال : (فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون) ، أي : يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال .

وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وأمية بن خلف ، وعدّد رجالا (١) .

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : مر سعد برجل من الخوارج ، فقال الخارجي : هذا من أئمة الكفر . فقال سعد : كذبت ، بل أنا قاتلت أئمة الكفر . رواه ابن مَرْدُويه (٢) .

وقال الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة أنه قال : ما قُوتِلَ أهل هذه الآية بعد (٣) .

ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله .

والصحيح أن الآية عامة ، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

وقال الوليد بن مسلم : حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير : أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام ، قال : إنكم ستجدون قوما مُحَوَّقَةً رءوسهم ، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف ، فوالله لأن أقتلَ رجلا منهم أحبّ إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول : (فقاتلوا أئمة الكفر) . رواه ابن أبي حاتم (٤) .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين همّوا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (٥)) .

---

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٢١ : ١٤ / ١٥٤ . والأثر الذي بعده .
(٢) الدر المنثور من ابن مردويه : ٣ / ٢١٥ .
(٣) تفسير الطبري ، الآثار ١٦٥٢٧ — ١٦٥٢٩ : ١٤ / ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٤) الدر المنثور عن ابن حاتم ، : ٣/٢١٥ ، ومعنى « محوقة رءوسهم » : محلوقة رءوسهم .
(٥) سورة الأنفال ، آية : ٣٠ .

وقال تعالى : (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله (١) ربكم) ... الآية ، وقال تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلفك إلا قليلا (٢)) .

وقوله : (وهم بدءوكم أول مرة) ، قيل : المراد بذلك يوم بدر ، حين خرجوا لنَصْر عِيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال ، بغيا وتكبرا ، كما تقدم بسط ذلك .

وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، وكان ما كان ، ولله الحمد .

وقوله : (أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) ، يقول تعالى : لا تخشوهم واخشون ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى ، فبيدى الأمر ، وما شئت كان ، وما لم أشأ لم يكن .

ثم قال تعالى عزيمةً (٣) على المؤمنين ، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) . وهذا عام فى المؤمنين كلهم .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدّى فى هذه الآية : (ويَشْف صدور قوم مؤمنين) ، يعنى : خزاعة . وأعاد الضمير فى قوله : (ويذهب غيظ قلوبهم) عليهم أيضا .

وقد ذكر ابنُ عساكر فى ترجمة مؤذّنٍ لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، عن مسلم بن يسار ، عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا غضبت أخذ بأنفها ، وقال : يا عويش ، قولى : اللهم ، ربّ النبى محمد ، اغفر ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجِرْنى من مُضلات الفتن » .

ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم ، عن الباغَنْدى ، عن هشام بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجوْن (٤) ، عنه :

(ويتوب الله على من يشاء) ، أى : من عباده ، (والله عليم) ، أى : بما يصلح عباده ، (حكيم) فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبداً ، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الممتحنة ، آية : ١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٧٦ . وهكذا ثبت فى مخطوطة الأزهر (خلفك) ، ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٦ / ٦٦ : « وقرأ الأخوان وابن عامر وحفص (خلافك) ، وباقى السبعة (خلفك) والمعنى واحد » .

(٣) أى : إيجابا عليهم .

(٤) عبد الرحمن بن سليمان بن أبى الجون العنسى ، مترجم فى التهذيب ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢ / ٢ / ٢٤٠ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى : (أم حسبتم (ايها المؤمنين أن نتركاكم مهملين ، لا نختبركم بأمور يظهرُ فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ؟ ولهذا قال : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) ، أى : بطانة ودخيلة ، بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر ، كما قال الشاعر :

وَما أدْرى إذا يَمَّمْتُ أرضاً أريد الخير أيهما يَلِينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (١)) ، وقال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٢)) وقال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب (٣)) ... الآية .

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده ، بيّن أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده : مَنْ يُطيعه ممّن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ؟ فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا رادّ لما قدره وأمضاه .

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى : ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له . ومن قرأ : (مسجد الله (٤)) ، فأراد به المسجد الحرام ، أشرفَ المساجد فى الأرض ، الذى بُنِى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له . وأسسه خليل الرحمن هذا ، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أى : بِحالهم وقَالِهم (٥) ، كما قال

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٢ ، ٣ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٤٢ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٧٩ .
(٤) قال الطبرى ١٤ / ١٦٦ : « وقرأ ذلك بعض المكيين والبصريين : (مسجد الله) ، على التوحيد ، بمعنى المسجد الحرام » .
(٥) قالهم : قولهم .

السدى : لو سألت النصرانى : ما دينك ؟ لقال : نصرانى — واليهودى : ما دينك ؟ لقال يهودى — والصابئ ، لقال : صابئ — والمشرك ، لقال : مشرك (١) .

(أولئك حبطت أعمالهم) ، أى : بشركهم ، (وفى النار هم خالدون) ، كما قال تعالى : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون (٢)) ، ولهذا قال : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ، فشهد تعالى بالإيمان لعُمّار المساجد ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا سُرَيج ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث : أن دراجاً أبا السمح حدثه ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ؛ قال الله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر (٣)) .

ورواه الترمذى(٤) ، وابن مردويه ، والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن وهب (٥) ، به .

وقال عبد بن حميد فى مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح المُرّى ، عن ثابت البنانى ، عن ميمون ابن سِياه ، وجعفر بن زيد ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما عمار المساجد هم أهل الله » .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عبد الواحد بن غياث ، عن صالح بن بشير المرى ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما عمار المساجد هم أهل الله » . ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح .

وقد روى الدارقطنى فى الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار ، عن أبيها ، عن أخيه مالك بن دينار ، عن أنس مرفوعا : « إذا أراد الله بقوم عاهة ، نظر إلى أهل المساجد ، فصرف عنهم » . ثم قال : غريب .

وروى الحافظ البهاء فى المستقصى ، عن أبيه بسنده إلى أبى أمية الطرسوسى : حدثنا منصور بن صُقَير ، حدثنا صالح المرى ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « يقول الله : وعزتى وجلالى ، إنى لأهُمّ بأهل الأرض عذابا ، فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتى وإلى المتحابين فىّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار ، صرفت ذلك عنهم » . ثم قال ابن عساكر : حديث غريب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، حدثنا العلاء بن زياد ، عن معاذ بن جبل : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان ذئب الإنسان ، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشعاب (٦) ، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد (٧) » .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٥٢ ، ١٦٥٥٤ : ١٤ / ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٦٨ ، ورواه الإمام أحمد أيضا عن حسين ، عن ابن لهيعة ، عن دارج ، المسند : ٣ / ٧٦ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٩٠ ، ٥٠٩١ : ٨ / ٤٩٠ ، ٤٩١ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ، وأبو الهيثم اسمه : سليمان بن عمرو بن عبد العتوارى ، وكان يتيما فى حجر أبى سعيد الخدرى » .

(٥) المستدرك ، تفسير سورة التوبة : ٢ / ٣٣٢ .

(٦) هذا كناية عن الافتراق والاختلاف . والشعاب — وبكسر الشين — جمع شعب : وهو ما انفرج بين جبلين .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ورواه الإمام أحمد من وجه آخر ، ينظر المسند أيضا : ٥ / ٢٤٣ .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون الأوْديّ قال : أدركت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها .

وقال المسعودي ، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يُجبْ ويأتي المسجد ويصلي ، فلا صلاة له ، وقد عصى الله ورسوله ، قال الله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ... الآية . رواه ابن مردويه .

وقد رُوي مرفوعا من وجه آخر ، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها :

وقوله : (وأقام الصلاة) ، أي : التي هي أكبر عبادات البَدَن ، (وآتى الزكاة) ، أي : التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق ، (ولم يخش إلا الله) ، أي : ولم يَخَفْ إلا من الله تعالى ، ولم يخش سواه ، (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ، يقول : من وَحَّد الله ، وآمن باليوم الآخر . يقول : من آمن بما أنزل الله ، (وأقام الصلاة) ، يعني الصلوات الخمس ، (ولم يخش إلا الله) ، يقول : لم يعبد إلا الله — ثم قال : (فعسى أولئك) ، يقول : إن أولئك هم المفلحون ، كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، [يقول : إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً] وهي الشفاعة ، وكل « عسى » في القرآن فهي واجبة (١) .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : و « عسى » من الله حق (٢) :

* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

قال العوفي في تفسيره ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ، قال : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله ، وقيام على السقاية ، خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعُمَّاره ، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين : (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون • مستكبرين به سامراً تهجرون) ، يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم — قال : (به سامراً) ، كانوا يسمرون به ،

(١) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٥٥ : ١٤ / ١٦٧ ، ١٦٨ ، وما بين القوسين سقط من مخطوطة الأزهر .
(٢) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٥٦ : ١٤ / ١٦٨ .

ويهجرون القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم . فَخَيَّر الله الإيمان والجهاد مع نبي الله صلى الله عليه وسلم ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية . ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن[١] كانوا يعمرون بيته ويخدمونه[٢] . قال الله : (لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ، يعني : الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسماهم الله « ظالمين » بشركهم ، فلم تُغْنِ عنهم العمارة شيئاً[٣] .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، في تفسير هذه الآية ، قال : نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر[٤] ، قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي [الحاج][٥] ونفك العاني ، قال الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الظالمين) ، يعني أن ذلك كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك[٦] .

وقال الضحاك بن مزاحم : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه ، الذين أسروا يوم بدر ، يعيّرونهم بالشرك ، فقال العباس : أما والله لقد كنَّا نعمرُ المسجدَ الحرام ، ونفكُّ العاني ، ونَحْجب البيتَ ، ونَسْقي الحاجّ ، فأنزل الله : (أجعلتم سقاية الحاج[٧]) ... الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عُيَيْنة ، عن إسماعيل ، عن الشعبي قال : نزلت في علي ، والعباس رضي الله عنهما ، تكلما في ذلك[٨] .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب[٩] ، [أخبرني] عن أبي صخر قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول : افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار ، وعباس بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، فقال طلحة : أنا صاحب البيت ، معي مفتاحه ، ولو أشاء بِتّ فيه . وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ، ولو أشاء بتّ في المسجد . فقال علي رضي الله عنه : ما أدري ما تقولان ، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد . فأنزل الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج ؟) ... الآية كلها[١٠] .

---

(١) في المخطوطة : « وإن كانوا » . والمثبت من تفسير الطبري .
(٢) في المخطوطة : « ويحرمون به » ، والمثبت من تفسير الطبري ، والدر المنثور .
(٣) الدر المنثور عن ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم : ٣ / ٢١٨ .
(٤) في المخطوطة : « بعد بدر » . والمثبت من الدر المنثور وتفسير الطبري
(٥) ما بين القوسين من المرجعين السابقين .
(٦) تفسير الطبري ، الأثر ١٩٥٥٨ : ١٤ / ١٦٩ ، ١٧٠ ، والدر المنثور : ٣ / ٢١٨ .
(٧) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٦٦ : ١٤ / ١٧٢ .
(٨) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٦٢ : ١٤ / ١٧١ .
(٩) في تفسير ابن كثير : « أخبرنا ابن وهب ، أخبرني ابن لهيعة ، عن أبي صخر » والمثبت من تفسير الطبري . وفي التهذيب أن عبد الله بن وهب يروى عن حميد بن زياد أبي صخر الخراط ، ينظر التهذيب : ٣ / ٤١ .
(١٠) تفسير الطبري ، الأثر ١٦٥٦٣ : ١٤ / ١٧١ .

وهكذا قال السدى ، إلا أنه قال : افتخر على ، والعباس ، وشيبة بن عثمان ... وذكر نحوه(١) :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن عمرو ، عن الحسن قال : نزلت فى على ، وعباس ، وعثمان ، وشيبة ، تكلموا فى ذلك ، فقال العباس : ما أرانى إلا تارك سقايتنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقيموا على سقايتكم ، فان لكم فيها خيراً(٢) .

ورواه محمد بن ثور ، عن معمر ، عن الحسن فذكر نحوه (٣) :

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع ، فلا بد من ذكره هاهنا ، قال عبد الرزاق :

أخبرنا معمر ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام ، إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام ، إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذلك يوم الجمعة — ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا عليه ، فنزلت : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) إلى قوله : (لا يستوون عند الله) (٤) :

طريق أخرى ، قال الوليد بن مسلم : حدثنى معاوية بن سلام ، عن جده أبى سلام الأسود ، عن النعمان بن بشير الأنصارى قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم . فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذلك يوم الجمعة — ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال : ففعل ، فأنزل الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الظالمين)(٥) .

رواه مسلم فى صحيحه(٦) ، وأبو داود — وابن جرير وهذا لفظه — وابن مردويه ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، وابن حبان فى صحيحه .

---

(١) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٦٠ : ١٤ / ١٧٢ .

(٢) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٦١ : ١٤ / ١٧١ .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٦٤ : ١٤ / ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٦٠ : ١٤ / ١٧٠ ، ١٧١ .

(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٥٧ : ١٤ / ١٦٩ .

(٦) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الشهادة فى سبيل الله : ٦ / ٣٦ . ولم نجده فى سنن أبى داود ، وقد رواه الإمام أحمد فى مسند النعمان بن بشير ، وفيه أن معاوية بن سلام يروى عن أخيه زيد بن سلام ، أنه سمع أبا سلام قال : حدثنى النعمان بن بشير ، وذكره ، المسند : ٤/ ٢٦٩،فلعل ابن كثير يعنى أن الإمام أحمد رواه فى مسنده،فسبق القلم إلى سنن أبى داود ، والله أعلم .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إذا (استحبوا) ، أى : اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كما قال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار)[1] ... الآية .

وروى الحافظ البيهقى من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عُبَيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر) ... الآية .

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد فى سبيله ، فقال : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها) ، أى : اكتسبتموها وحصلتموها (وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) ، أى : تحبونها لطيبها وحسنها ، أى : إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا)، أى: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ، ولهذا قال: (حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ابن لهيعة ، عن زهرة بن معبد ، عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال : والله لأنت يارسول الله أحبّ إليّ من كل شيء إلا من نفسى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا[2] يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه : فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسى . فقال رسول الله : الآن يا عمر[3] .

انفرد باخراجه البخارى ، فرواه عن يحيى بن سليمان ، عن ابن وهب ، عن حَيوة بن شُريح ، عن أبى عُقَيل زهرة بن مَعْبد ، أنه سمع جده عبد الله بن هشام ، عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا[4] .

---

(١) سورة المجادلة ، آية : ٢٢ .

(٢) لفظ المسند : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن ... » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤ ٪ ٣٣٦ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب الأيمان والنذور ، باب « كيف كان يمين النبى صلى الله عليه وسلم » : ٨ ٪ ١٦١ .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين (١) » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود — واللفظ له — من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني ، عن عطاء الخراساني ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم يقول : إذا تبايعتم بالعينة (٢) ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم (٣) » .

وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد بن هارون ، عن أبي جَنَاب ، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك (٤) . وهذا شاهد للذي قبله ، والله أعلم .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

قال ابن جريج ، عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من « براءة (٥) » .

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى ، وبتأييده وتقديره ، لا بعَدَدهم ولا بعُدَدهم . ونبَّههم على أن النصر من عنده ، سواء قلَّ الجمعُ أو كثر ، فان يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولّوا مدبرين إلا القليلَ منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبامداده وإن قلَّ الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان » : ١ / ١٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان » : ١ / ٤٩ .

(٢) العينة — بكسر العين وسكون الياء — : هو أن يبيع رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . وقد مضى ذكرها في تفسير سورة البقرة : ١ / ٤٩٠ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب « في النهي عن العينة » ، الحديث ٣٤٦٢ : ٣ / ٢٧٤ . وينظر مسند الإمام أحمد : ٢ / ٤٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٨٤ .

(٥) الدر المنثور عن الفريابي : ٣ / ٢٢٣ .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، سمعت يونس يحدث عن الزهرى ، عن عُبَيد الله ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن(١) تغلب اثنا عشر ألفا من (٢) قلة » .

وهكذا رواه أبو داود(٣) ، والترمذى ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، لا يسنده كبير أحد غيرُ جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا » .

وقد رواه ابن ماجه (٤) والبيهقى وغيره ، عن أكثم بن الجَوْن ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه ؛ والله أعلم .

وقد كانت وقعة « حُنين » بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرى ، ومعه ثَقيف بكمالها ، وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع (٥) من بنى هلال ، وهم قليل ، وناس من بنى عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم ، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم(٦) . فخرج إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء فى ألفين أيضا ، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له « حنين » ، فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غَلَس الصبح ، انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوزان ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم (٧) ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة : أين يا عباد الله ؟ إلىّ أنا رسول الله . ويقول فى تلك الحال :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ومنهم من قال : ثمانون ، فمنهم : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، والعباس وعلى ، والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم ، رضى الله عنهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس ــ وكان جهير الصوت ــ أن ينادى بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة ــ يعنى شجرة بيعة الرضوان ، التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها ، على أن لا يفروا عنه ــ فجعل ينادى بهم : يا أصحاب

(١) لفظ المسند : « ولا يغلب اثنا عشر ... » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٢٩٤ ، وينظر أيضا : ١ / ٢٩٩ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا » ، الحديث ٢٦١١ : ٣ / ٣٦ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب « ما جاء فى السرايا » ، الحديث ١٥٩٧ : ٥ / ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب « السرايا » ، الحديث ٢٨٢٧ : ٢ / ٩٤٤ .
(٥) الأوزاع : الفرق من الناس .
(٦) جاءوا قضهم بقضيضهم : أى بأجمعهم .
(٧) المثاورة : المواثبة .

السَّمُرة ، (١) ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يا لبيك ، يا لبيك ؛ وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ثم انحدر عنه ، وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما رجعت شرذمة منهم ، أمرهم عليه السلام أن يَصدُقُوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب بعد مادعا ربه واستنصره ، وقال : اللهم أنجز لى ماوعدتنى : ثم رمى القوم بها ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينه وفمه ماشغله عن القتال ، ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مُجَدَّلة (٢) بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا يعلى بن عطاء ، عن عبد الله بن يسار أبى همام عن أبى عبد الرحمن الفهرى — واسمه يزيد بن أسيد ، ويقال : يزيد بن أنيس ، ويقال : كُرْز — قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين ، فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى ، فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى فسطاطه ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، حان الرواح ؛ فقال : أجل ؛ فقال : يا بلال ؛ فثار (٣) من تحت سَمُرة كأنّ ظله ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك ، وأنا فداؤك ؛ فقال : أسْرِجْ لى فرسى ؛ فأخرج سَرْجاً دفَّتاه من ليف ، ليس فيهما أشَرٌ ولا بَطَر .

قال : فأسرج ، فركب وركبنا ، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا ، فتشامت (٤) الخيلان ، فولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله عز وجل : (ثم وليتم مدبرين) ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عباد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، ثم قال : يا معشر المهاجرين ، أنا عبد الله ورسوله — قال : ثم اقتحم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرسه ، فأخذ كفا من تراب ، فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى : أنه ضرب به وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه ؛ فهزمهم الله عز وجل قال يعلى بن عطاء : فحدثنى أبناؤهم ، عن آبائهم ، أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا ، وسمعنا صَلْصَلَةً بين السماء والأرض ، كإمرار الحديد على الطَّسْت الجديد (٥) .

وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى « دلائل النبوة » من حديث أبى داود الطيالسى ، عن حماد بن سلمة ، به .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله قال : فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حُنين ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى انحط بهم الوادى فى عَمَايَة (٦) الصبح ، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل ، ، فاشتدت عليهم ، وانكفأ الناس منهزمين ، لا يُقْبِلُ أحد على أحد ، وانحاز رسول الله

---

(١) السمرة — بضم الميم — : من شجر الطلح .
(٢) يقال : جدلته — بتضعيف العين — : أى رميته وصرعته .
(٣) أى : ظهر من تحت شجرة . وقوله : « كأن ظله ظل طائر » كناية عن سرعته فى إجابة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إليه .
(٤) تشامت : تقاربت . والخيلان : جمع خال ، وهو : البعير الضخم .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٢٨٦ .
(٦) أى : ظلامه قبل أن يتبين .

صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول : أيها الناس ، هلموا إلىّ أنا رسول الله، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله : فلا شئ ، وركبت الإبل بعضها بعضا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمْرَ الناس قال : يا عباس ، اصرخ : يامعشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة : فأجابوه : لبيك ، لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره ، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه فى عنقه ، ويأخذ سيفه وقوسه ، ثم يؤمّ الصوت ، حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة ، فاستعرض الناسُ فاقتتلوا ، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ، ثم جعلت آخراً بالخزرج (١) ، وكانوا صُبُرًا عند الحرب ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركائبه ، فنظر إلى مُجتَلَد (٢) القوم ، فقال : الآن حمى الوَطِيس (٣) ــ قال : فو الله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقَون ، فقَتَل الله منهم من قتل ، وانهزم منهم من انهزم ، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم (٤) .

وفى الصحيحين من حديث شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال له رجل : يا أبا عمارة ، أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرّ ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة ، فلما لقيناهم وحمَلنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب (٥)

قلت : وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه فى مثل هذا اليوم فى حَومة الوغى وقد انكشفت عنه جيشه ، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجرى ، ولا تصلح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله ، وتوكلا عليه ، وعلماً منه بأنه سينصره ، ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) ، أى : طمأنينته وثباته على رسوله ، (وعلى المؤمنين) ، أى : الذين معه ، (وأنزل جنوداً لم تروها) ، وهم الملائكة ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

[حدثنا القاسم قال](٦) حدثنى الحسن بن عرفة قال : حدثنى المعتمر بن سليمان ، عن عوف ــ هو ابن أبى جميلة الأعرابى ــ قال : سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرثن ، حدثنى رجل كان من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن

---

(١) لفظ سيرة ابن هشام : « وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار . ثم خلصت أخيرا : يا للخزرج » .
(٢) مجتلد القوم : مكان جلادهم بالسيوف ، وهو حيث تكون المعركة .
(٣) الوطيس : شبه التنور ، وقيل : هو الضراب فى الحرب ، وقيل : هو الوطء الذى يطس الناس ، أى : يدقهم . وقال الأصمعى : هو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد يطؤها . ولم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو من فصيح الكلام ، عبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق .
(٤) ينظر سيرة ابن هشام : ٢ / ٤٤٢ - ٤٤٥ .
(٥) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « من قاد دابة غيره فى الحرب » : ٤ / ٣٧ . ومسلم ، كتاب الجهاد أيضا ، باب « فى غزوة حنين » : ٥ / ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٦) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، لم يقوموا لنا حَلَبَ شاة (١) ــ قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم ، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء ، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا : قال : فانهزمنا ، وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها :

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني محمد بن أحمد بن بالُوَيْه ، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الحارث بن حَصِيرة ، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضي الله عنه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين ، فولى عنه الناس ، وبقيتُ معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار (٢) ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ــ قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته يمضي قُدُما ، فحادَت بغلته ، فمال عن السرج (٣) ، فقلت : ارتفع رفعك الله : قال : ناولني كفاً من التراب . فناولته ، قال : فضرب به وجوههم ، فامتلأت أعينهم تراباً ، قال : أين المهاجرون والأنصار ؟ قلت : هم هناك : قال : اهتف بهم . فهتفت بهم ، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم ، كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم :

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان ، به نحوه .

وقال الوليد بن مسلم : حدثني عبد الله بن المبارك ، عن أبي بكر الهُذَلي ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن شيبة ابن عثمان قال : لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قد عَرِيَ (٤) ، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأري منه ــ قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً ، عليه درع بيضاء كأنها فضة ، يكشف عنها العجاج ، فقلت : عَمُّهُ ولن يخذله ــ قال : فجئته عن يساره ، فإذا أنا بأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، فقلت : ابنُ عمه ولن يخذله : فجئته من خلفه ، فلم يبق إلا أن أسَوِّرَه (٥) سورة بالسيف ، إذ رفع لي شُوَاظ من نار بيني وبينه ، كأنه برق ، فخفت أن تَمْحَشَنِي (٦) ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا شيبَ ، يا شيب ، ادن مني ، اللهم أذهب عنه الشيطان :ــ قال : فرفعت إليه بصري ، ولهو أحب إلى من سمعي وبصري ، فقال : يا شيبَ ، قاتل الكفار (٧) .

رواه البيهقي من حديث الوليد ، فذكره ، ثم روى من حديث أيوب بن جابر ، عن صدقة بن سعيد ، عن مصعب ابن شيبة عن أبيه قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ،

---

(١) أي : لم يثبتوا لنا قدر حلب شاة .

(٢) بعده في دلائل النبوة للبيهقي ، المخطوطة رقم ٢١٧ دار الكتب ٦ / ١١١ : « فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدما » .

(٣) بعده في الدلائل : « فشد نحوه » .

(٤) أي : انفض عنه الناس .

(٥) أي : ارتفع إليه وآخذه . وقد ضبط في مخطوطة الدلائل بفتح الهمزة وضم السين .

(٦) محشته النار : أحرقته .

(٧) الدلائل ، الجزء السادس ، ورقة : ١١٣ .

ولكنى (١) أبيت أن تظهر هوازن على قريش ، فقلت وأنا واقف معه : يا رسول الله ، إنى أرى خيلا بُلْقًا ، فقال : يا شيبة ، إنه لا يراها إلا كافر ، فضرب بيده فى صدرى ، ثم قال : اللهم اهد شيبة ، ثم ضربها الثانية ، ثم قال : اللهم ، اهد شيبة ، ثم ضربها الثالثة ثم قال : اللهم اهد شيبة ـ قال : فو الله ما رفع يده من صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلىّ منه ... وذكر تمام الحديث ، فى التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى هزم الله المشركين (٢) .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى والدى إسحاق بن يسار ، عمن حدثه ، عن جُبير بن مطعم رضى الله عنه قال : إنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، والناس يقتتلون ، إذ نظرت إلى مثل البجاد (٣) الأسود يهوى من السماء ، حتى وقع بيننا وبين القوم ، فإذا نمل منثور (٤) قد ملأ الوادى ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فما كنا نشك أنها الملائكة (٥) .

وقال سعيد بن السائب بن يسار ، عن أبيه قال : سمعت يزيد بن عامر السُّوَائى ـ وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد ـ فكنا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين ، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطَّسْت فيطن ، فيقول : كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا (٦) .

وقد تقدم له شاهد من حديث « يزيد بن أبى أسيد » ، فالله أعلم .

وفى صحيح مسلم ، عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن همّام قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب ، وأوتيت جوامع الكلم (٧) .

ولهذا قال تعالى : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين) .

وقوله : (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) ، قد تاب الله على بقية هوازن ، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرّانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما ، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم ، فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبى وامرأة ، فرده عليهم ، وقسم أموالهم بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام ، فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّصْرى ، واستعمله على قومه كما كان ، فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

---

(١) فى الدلائل : « ولكنى أنفت » .
(٢) الدلائل ، الجزء السادس ورقة : ١١٤ .
(٣) البجاد : الكساء .
(٤) فى سيرة ابن هشام : « فإذا نمل مبثوث » .
(٥) ينظر سيرة ابن هشام : ٢ / ٤٤٩ .
(٦) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٨٦ : ١٤ / ١٨٨ .
(٧) مسلم ، كتاب المساجد : ٢ / ٦٤ ، ٦٥ .

مَا إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ‌ فى النَّاس كُلِّهم بمثل مُحَمَّدِ
أوْفَى وَأعطَى للجزيل إذا اجتُدِى (١) ‌ ومتى تَشَأ يُخبِرْكَ عَمَّا فى غَدِ
وإذَا الكتيبة عرَّدتْ أنيابُها ‌ بالسَّمْهَرىّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ (٢)
فكأنَّه ليْثٌ عَلَى أشْبَالِه ‌ وَسْطَ الهَبَاءَة خادِرٌ فى مَرْصَدِ (٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى المشركين ، الذين هم نَجَس ديناً ، عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية . وكان نزولها فى سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً صُحبة أبى بكر رضى الله عنهما عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : « أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ، فأتم الله ذلك ، وحكم به شرعا وقدراً .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج ، أخبرنى أبو الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول فى قوله تعالى : (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) : إلا أن يكون عبداً ، أو أحداً من أهل الذمة (٤) .

وقد روى مرفوعا من وجه آخر ، فقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَيْن ، حدثنا شريك ، عن الأشعث — يعنى ابن سوار — عن الحسن ، عن جابر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك ، إلا أهل العهد وخدمهم (٥) » .

تفرد به أحمد مرفوعا ، والموقوف أصح إسنادا .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى : كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، واتبع نهيه قول الله : (إنما المشركون نجس) .

---

(١) اجتدى : طلب منه الجدوى ، وهى العطية .

(٢) عردت : عوجت ، والسمهرى : الرماح .

(٣) فى المخطوطة : « وسط المساءة » . والمثبت عن سيرة ابن هشام ، وشرح السيرة للخشنى : ٤١٢ . والهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب ، والهباءة أيضا : اسم موضع . والخادر : الأسد فى عرينه ، وهو حينئذ أشد ما يكون بأساً ، تخوفه على أشباله ، يصفه — صلى الله عليه وسلم — بالقوة . والمرصد : الموضع الذى يرصد منه ويرقب .
والأبيات فى سيرة ابن هشام : ٢ / ٤٩١ ، وينظر أسد الغابة ، ترجمة مالك بن عوف النصرى .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦١٠ : ١٤ / ١٩٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣ / ٣٩٢ . وفى المخطوطة : « وخدمكم » . والمثبت من المسند .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد ، لقوله تعالى : (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت [على طهارة المؤمن ، ولما (١)] ورد فى الصحيح : « المؤمن لا ينجس (٢) » : وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم .

وقال أشعث ، عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير (٣) .

وقوله : (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) ، قال ابن إسحاق : وذلك أن الناس قالوا : لتنقطعن عنا الأسواق ، ولتهلكن التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فنزلت : (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) ، من وجه غير ذلك — (إن شاء) إلى قوله (٤) : (وهم صاغرون) ، أى : إن هذا عوض ماتخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوّضهم الله بما قطع [عنهم من] أمر الشرك ، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب ، من الجزية (٥) .

وهكذا رُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبير ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

(إن الله عليم) ، أى : بما يصلحكم ، (حكيم) ، أى : فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله ، العادل فى خلقه وأمره ، تبارك وتعالى ، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة ، فقال : (قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد — صلى الله عليه وسلم — لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا ، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد — صلوات الله عليه — لأن جميع الأنبياء بشرو به ، وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به ، وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء ، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب) ، وهذه الآية الكريمة [نزلت] (٦) أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا [فلما استقامت](٧) جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ما بين القوسين زيادة يستقيم بها النص .
(٢) البخارى ، كتاب الغسل ، باب « عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس » : ١ / ٧٩ .
(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٥٩٦ : ١٤ / ١٩٢ .
(٤) فى المخطوطة : « إلى غيره » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٥) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦١٥ : ١٤ / ١٩٧ ، وما بين القوسين منه . وسيرة ابن هشام : ٢ / ٥٤٧ ، ٥٤٨ .
(٦) ما بين القوسين زيادة يستقيم بها الكلام .
(٧) مكانه فى مخطوطة الأزهر : « واستقامت » . ومثله فى مخطوطة دار الكتب ، ولا يستقيم النص عليه .

وسلم لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم ، فأوعبوا (١) معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألف ، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ وحر ، وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله .

وقد استدلّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس ، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من [مجوس] هجر . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد – فى المشهور عنه – وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب .

وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابىّ ، ومجوسى ، ووثنى ، وغير ذلك ، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا ، والله أعلم .

وقوله : (حتى يعطوا الجزية) أى : إن لم يسلموا ، (عن يد) ، أى : عن قهر لهم وغلبة ، (وهم صاغرون) ، أى : ذليلون حقيرون مهانون . فلهذا لا يجوز إعزاز(٢) أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء ، كما جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه (٣) » : ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم(٤) علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا ، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نُحدثَ فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ، ولا قلاية (٥) ولا صومعة راهب ، ولا نجد ما خرب منها ، ولا نحيى منها ما كان خطط المسلمين ، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولانعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركا ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقّر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شئ من ملابسهم ، فى قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكتنى بكُناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش

---

(١) أوعبوا : جاءوا أجمعين .

(٢) فى المخطوطة : « لا يجوز إذلال » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) مسلم ، كتاب السلام ، باب « النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم » : ٧ / ٥ .

(٤) فى مخطوطة الأزهر ودار الكتب : « إنكم قد أقدمتم علينا » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) فى مستدرك تاج العروس : « والقلية – كملية – : شبه الصومعة ، تكون فى كنيسة النصارى ، والجمع : القلالى » وقد جاء ذكرها فى الحديث ، وهى القلاية عند النصارى ، معرب « كلاذة » ، وهى من بيوت عباداتهم » .

حواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقادم رءوسنا ، وأن نلزم زِينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربا خفياً ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا باعوثا (١) ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ، ولا نطلع عليهم فى منازلهم .

قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : ولا نضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووَظّفْنا (٢) على أنفسنا ، فلاذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى ، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا فى العُزَير : « إنه ابن الله » ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك ، أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسَبَوا كبارهم، بقى العُزَير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فبينا هو ذات يوم إذ مَرّ على جبانة ، وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه ! واكاسياه ! من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت : الله . قال : فان الله حى لا يموت ! فن كان يعلّم العلماءَ قبل بنى إسرائيل ؟ قال : الله . قالت : فلم تبكى عليهم ؟ قالت : يا عزير ، فعرف أنه شىء قد وُعظ به . ثم قيل له : اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه ، وصَلّ هناك ركعتين ، فإنك ستلقى هناك شيخا ، فما أطعمك فكله . فذهب ففعل ما أُمر به ، فإذا شيخ فقال له : افتح فمك : ففتح فمه ، فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة، ثلاث مرات ، فرجع عُزَير وهو من أعلم الناس بالتوراة ، فقال : يا بنى إسرائيل ، قد جئتكم بالتوراة . فقالوا : يا عُزَير ، ما كنت كذّابا . فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما ، وكتب التوراة بأصبعه كلها ، فلما تراجع الناس من عدُوّهم ورجع العلماء ، أخبروا بشأن عُزَير ، فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال ، وقابلوها بها ، فوجدوا ما جاء به صحيحا ، فقال بعض جهلتهم : إنما صنع هذا لأنه ابن الله (٣) .

---

(١) الباعوث : استسقاء النصارى ، وهو اسم سريانى ، وقيل : هو بالغين المعجمة ، والتاء المنقوطة فوقها .

(٢) فى مستدرك تاج العروس : « وظف الشىء على نفسه وظفاً : ألزمها إياه » .

(٣) ينظر تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٣٢ : ١٤ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

وأما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر ، ولهذا كذّب الله سبحانه الطائفتين فقال : (ذلك قولهم بأفواههم) ، أى : لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ، (يضاهئون) ، أى : يشابهون (قول الذين كفروا من قبل) ، أى : من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء ، (قاتلهم الله) — قال ابن عباس : لعنهم الله ، (أنى يؤفكون ؟) ، أى : كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟ .

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) روى الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن جرير من طرق ، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه : أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّ إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ، ورغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدىّ المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيىء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدّث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدىّ صليب من فضة ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ، قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عدى ، ما تقول ؟ أيُفرّكَ (١) أن يقال « الله أكبر » ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يُفرّك ؟ أيفرّك أن يقال : لا إله إلاّ الله ؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون (٢) » .

وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهما فى تفسير : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم .

ولهذا قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) ، أى : الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله حلّ ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ .

(لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ، أى : تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

---

(١) أى : أيحملك على الفرار والهرب أن يقال : الله أكبر ؟ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٩٣ : ٨/٤٩٢ — ٤٩٤ . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « وأخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه » . وينظر تفسير الطبرى : ١٤/٢٠٩ ، ٢١١ .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أن يطفئوا نور الله) ، أى : ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق ، بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس ، أو نور القمر بنفخه ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر ، ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه : (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) :

والكافر : هو الذى يستر الشىء ويغطيه ، ومنه سمى الليل «كافرا» ، لأنه يستر الأشياء ، والزارع كافرا ، لأنه يغطى الحب فى الأرض ، كما قال : (يعجب الكفار نباته) .

ثم قال تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ، فالهدى : هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ــ ودين الحق : هى الأعمال الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة .

(ليظهره على الدين كله) ، أى : على سائر الأديان ، كما ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله زَوَى [1] لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوى لى منها [2] » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن أبى يعقوب : سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قَبِيصة ــ أو : قبيصة بن مسعود ــ يقول : صلى هذا الحى من « مُحارب » الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه سيفتح لكم مَشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة [3] » :

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنا سليم بن عامر ، عن تميم الدارى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار ، ولا يترك الله بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله هذا الدين ، بعزّ عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر » ــ فكان تميم الدارى يقول : « قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزّ ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية [4] » :

---

(١) أى : جمع .

(٢) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض » : ٨/١٧١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٣ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثني ابن جابر ، سمعت سليم بن عامر قال : سمعت المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وبر ، إلا أدخله [الله] كلمة الإسلام بعزّ عزيز ، أو بذلّ ذليل ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها (١) » .

وفى المسند أيضا : حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن أبي حذيفة ، عن عدى بن حاتم سمعه يقول : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياعدى ، أسلم تسلم . فقلت : إنى من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك. فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ . قال : نعم ، ألست من الركوسية ، وأنت تأكل مرباع قومك؟ : قلت : بلى . قال : فان هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لاقوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز — قلت : كسرى بن هرمز ؟. قال : نعم ، كسرى ابن هرمز ، وليُبْذَلَنّ المال حتى لا يقبله أحد — قال : عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها (٢) .

وقال مسلم : حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرَّقاشيّ ، حدثنا خالد بن الحارث ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن الأسود بن العلاء ، عن أبي سلمة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَد اللاتُ والعزّى . فقلت : يا رسول الله ، إن كنتُ لأظن حين أنزل الله عز وجل : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ، إلى قوله : (ولو كره المشركون) أن ذلك تام ، قال : إنهسيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة [فيتوفى كلّ من كان فى قلبه مثقال حَبّة خردل من إيمان] فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم (٣) » .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قال السدى : « الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى (٤) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٥٧/٤ من غير هذا السند . وبهذا السند ، وبغير هذا اللفظ فى المسند : ٣٧٧/٤ ، ٣٧٨ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب « لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة » : ١٨٢/٨ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ١٦٦٤٨ : ٢١٦/١٤ .

وهو كما قال ، فان الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: (لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) ، والرهبان : عباد النصارى ، والقسّيسون علماؤهم ، كما قال تعالى : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) .

والمقصود : التحذير من علماء السوء وعُبّاد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينة : « من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شبه من النصارى » . وفى الحديث الصحيح : « لتركبُنّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْو القُذّة (١) بالقُذّة : قالوا: اليهود والنصارى ؟ قال: فمن ؟ — وفى رواية: فارس والروم ؟ قال: ومَن الناس إلا هؤلاء ؟ » .

والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أحوالهم وأقوالهم ، ولهذا قال تعالى : (ليأكلون أموال الناس بالباطل) ، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس ، يأكلون أموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، [ولهم] عندهم خَرْج (٢) وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلبهم إياها ، وعوضهم بالذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله .

وقوله تعالى : (ويصدون عن سبيل الله) ، أى : وهم مع أكلهم الحرام يصدّون الناس عن اتباع الحق ، ويلْبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير ، وليسوا كما يزعمون ، بل هم دعاة إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

وقوله : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس ، فان الناس عالة على العلماء ، وعلى العُبّاد ، وعلى أرباب الأموال ، فاذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس ، كما قال بعضهم :

وَهَل أفسَدَ الدِّينَ إلاَّ المُلُوكُ وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها ؟

وأما الكنز فقال مالك ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر أنه قال : هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة .

وروى الثورى وغيره عن عُبَيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : « ما أدّى زكاتُه فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز » . وقد رُوى هذا عن ابن عباس ، وجابر ، وأبى هريرة

(١) القذة : واحدة القذذ — بضم ففتح — وهى ريش السهم ، أى : كما تقدر كل واحدة من الريش على قدر صاحبتها وتقطع ، يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان . ولم يقع لنا لفظ هذا الحديث فى كتاب واحد ، ولفظ الحديث كما فى صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ٨/١٢٦ : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . فقيل : يارسول الله ، كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك » . وروى الإمام أحمد عن شداد بن أوس عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا قبلهم أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » . المسند : ٤/١٢٥ .

(٢) الخرج — بفتح فسكون — والخراج : واحد ، وهو شىء يخرجه القوم فى السنة من مالهم بقدر معلوم . والخرج والخراج : الإتاوة تؤخذ من أموال الناس .

